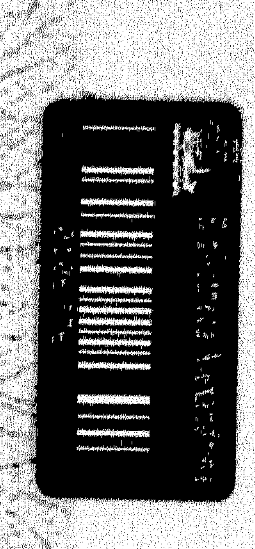


لجنة التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

المستشرقون والإسلام

بقلم المهندس
زكريا هاشم زكريا

يشرف على إصدارها :
محمد توفيق عويضة

١٣٨٥هـ — ١٩٦٥م
الكتاب العشرون

اهـــداء

فى سبيل الله عز وجل • وفى صحبة رســول الله صلى الله عليه وسلم • وخلفائه من المسلمين الذين باعوا أنفسهم لله ولنشر الدعوة المحمدية .

والى من اتبع الحق • واهتدى سبيل الرشاد من المستشرقين والمبشرين فى انحاء المعمورة • فاعتنقوا الاسلام • وآمنوا برسالته •

وحق قوله تعالى فيهم : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » •

أهدى هذا الكتاب لعل المولى القادر الرحيم يحشرنى فى زمرتهم يوم لقائه •

مهندس
زكريا هاشم زكريا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين « محمد بن عبد الله » النبى الأمين ، نبى الهدى والسلام ، والشكر لله العلى القدير الذى وفقنى الى ما يرضاه ، والسلام على من اتبع الطريق المستقيم .. فجزاؤه فى الآخرة جنات النعيم ، وبعد

فان الانسان ميال بطبعه دائما الى التشوق لمعرفة المجهول ، وكل حسب رغبته وهوايته الكامنة فى نفسه ، فبعضهم يهوى الرحلات الاستكشافية ، يجوب أنحاء العالم بحثا عن عالم آخر غامض ، أو أرض غير معروفة . كما هو حال الرحالة السابقين أمثال « خروستوف كولومبس » مكتشف أمريكا وغيره .

وهناك نوع آخر من البشر لا يقل امتاعا لنفسه وذهنه مثل شغفه بالقراءة والبحث ، ودرس الكتب والمخطوطات القديمة سعيا وراء العثور على الوثائق التاريخية أو اكتشاف حقيقة خفيت على الأجيال الماضية . وفريق يهوى الاهتمام بالحفريات والآثار بحثا وراء حضارة قديمة يظهرها للناس .

والمرء ليس بحاجة الى أن يكون مؤرخا واسع الاطلاع ، ملما بدقائق الحوادث لكى يعرف أن الدعوة المحمدية وانتشارها وثباتها واستقرارها حيثما حلت ونزلت ، كانت حدثا فذا منقطع النظير فى تاريخ البشرية ، بل كانت معجزة من معجزاته .

ليس للانسان حاجة الى أن يكون فيلسوفا عميق الفكرة والادراك لكى يستنتج من هذه الظاهرة العجيبة أن الاسلام ومبادئه وتشريعاته التى يحيد عن بعضها الكثير من مستشرقى الغرب ، لابد أن يكون قد حوى من

عناصر الحق والخير والانسانية والفضائل ما تتطلبه الفطرة السليمة على اختلاف مشاربها ، وأساليبها فى الحياة . وأن الحضارات التى نشأت فى ظله فاحتضنها وصانها . أو التى اقتبسها مما حوله فنماها وأضاف اليها ورسمها بطابعه الخاص ، كانت لا بد محققة لكل ما تطمح اليه الأمم والشعوب من أسباب القوة والرغد فى العيش .

فالاسلام دين تاريخى بدأت دعوته وتطورت فى ظل التاريخ ، ومازالت حتى الآن ، وقصة ظهوره وانتشاره ومبادئه هى الى اليوم ، وفى كل وقت ، فى متناول يد الدارس . والباحث الذى يسعى وراء الحقيقة ليصل الى طريق الفهم والمعرفة والاقناع ، والمصادر التى يمكن للباحث الرجوع اليها الموقوف على حقائق هذا الدين الكامل ، والفهم الشامل لمبادئه وأحكامه هى :

١ — القرآن الكريم الذى يعتبر تسجيلا للوحى الالهى .

٢ — تاريخ حياة نبى الاسلام ورسوله عليه الصلاة والسلام ، وما صدر عنه من أفعال .

وهكذا بسط الاسلام جناحيه بالسلام على الكون وفضائله وسجاياه فلا الجيوش الجرارة ، ولا المعدات الحربية المدمرة ، ولا السيوف الحادة ، ولا السهام ولا القسى ، ولا الرماح الصائبة .. كل ذلك ليس بكاف فى غزواته ، ولا فى انشاء دولة ، اذا لم تسعدها الفضائل وتمدها المحامد ، ويشيع فيها الخلق الكريم والانسانية الفاضلة ، ونشر السلام والوئام بين سائر الأنام ، وكذلك كان الاسلام ، وكذلك كان المسلمون الأولون ، كانوا يغزون بفضائلهم نقائص أعدائهم ، وكانوا يغالبون بأخلاقهم ما لا يفعله الحديد والنار . فمن أولى الفضائل التى ارتكزت عليها الدعوة الاسلامية وبفضلها انتشر الاسلام ، فضيلة اعلاء الحق على الباطل ، فثبت ثباتا أعيا القوى . وفكك العرى ، وترك الأعداء حيارى يتخبطون .

ولما كان « الدين » له أكبر الأثر فى حياة الانسان ، وفى استقرار الأمم. وهو منبع رقيها وحضارتها ، كما أنه من أخطر عوامل هدم كل أساس يبنيه الاستعمار فى البلاد العربية والاسلامية فى أنحاء الكرة الأرضية .. لأن

مدى تأثيره فى ايمان الفرد بالحرية ، والعيش الكريم والاستقلال ، يجعله يقاوم كل غاصب حتى يطهر أرضه ، ونفسه من رجسه واستغلاله واستعباده .

لذلك ركز الاستعمار دائما وأبدا خطته الدائبة فى القضاء على الدين فبدأت دعوة المستشرقين والمبشرين من المفكرين الغربيين المسيحيين ... وظهرت منهم المجموعات المتفرقة من دعاة « التغريب » تعمل على القضاء على الاسلام ؛ لأنه دين الوطن العربى الكبير ، مصدره الحضارة والثقافة والفكر .. وقالوا عنه : انه دين لم يهبط به وحى من السماء ، الى غير ذلك من الأضاليل الكثيرة المبينة بعد .

وكان من أشهر المستشرقين المنحرفين المؤرخ « برايس » الذى قال : « ان احتكاك الاسلام بالحضارة سيقضى عليه ويؤذن بنهايته » .

وسار معه على نفس الطريق المستشرق « لنز » حيث قال بعد عودته من رحلته فى تومبكتو : « ان الاسلام قد يبقى اذا ترك لنفسه ، أما اذا احتك بالتمدن الحديث فانه يموت لا محالة » .

وذكر المستشرق « بيشون » الألمانى « أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام نفسه لعدم موافقته لروح التمدن » . وغيرهم كثير مما هو مبين فى فصول هذا الكتاب ..

وطالما ردد خصوم الاسلام أنه شق طريقه بالقوة وانتشر بحد السيف واستقر فى البلاد المفتوحة بالقسى والاجبار .

واذا كان هناك من يدعى أن الاسلام قام على السيف ، وانتشر بالقوة فان أقوى رد على هؤلاء أولئك الذين يدخلون فى دين الاسلام أفواجا من شتى أنحاء الأرض على تفاوت ثقافتهم ، واختلاف جنسياتهم ، بعد اعتناقهم له وايمانهم به .

وفى الحالات الثلاث التى تنبأ بها المستشرقون والمبشرون الغربيون لم ينته الاسلام ، وكذبت نبوءاتهم ، ومع ذلك فقد عجزوا عن اخفاء الحقائق .. فقد أشار المستشرق « مرجليوث » فى بحث له عن مستقبل الاسلام ، « ان الاسلام غالب فى أفريقيا وشائع فى آسيا ومعروف فى أوربا

وأمريكا ، ولم يظهر ما يدل على توقف انتشاره وخصوصا فى القرن الماضى لأنه نهض نهضة جديدة » .

وأورد قول المبشر « شاتليه » من أن الاسلام هو الدين الوحيد الذى يرتقى الآن وينتشر فى الهند والصين ، أما الأديان الأخرى فانها آخذة فى الانحلال ، كما أورد ما ذكره أحد كبـار المستشرقين من أن الاسلام سيعم الهند كلها وقال : ان جماعة كبيرة من الهنود يعتنقون الاسلام ليتحرروا من قيود الديانة البرهمية وكهانها .

وان الاسلام قد انتشر مؤخرا فى بلاد الصين حتى أوجس أهل أوربا من انتشاره مخافة أن يصير ديانة المملكة فيحمل أهلها على الممالك النصرانية فى أوربا مثل الحملات الصليبية فى العصور المظلمة ، وأشار الى أن الاسلام ينتشر فى الهند والصين ومستعمرات هولندا بالموعظة الحسنة .

وأشار مرجليوث الى أن الاسلام انتشر فى افريقيا بالحسنى بعد أن انتهى عهد الدراويش ، وقد كان الظن أن يتوقف بعـد ذهاب الحـركة المهدية ، والحقيقة أنه لا يزال آخذا فى الانتشار .

وكذب مرجليوث ما رواه زملاؤه المستشرقون من أن انحطاط المسلمين يرجع الى أسباب متصلة بالاسلام وقال : انى أرى المسلمين تحت سلطـة المسيحيين أرقى من المسيحيين عقـلا وأدبا . واستشـهد بقول المستشرق « روبل » الذى ذكر بعد سياحة للحبشة (١٨٣٨) أن الأحباش المسلمين أقدر على العمل وأسمى مداركا وأكثر تهذيبا وعلما من الأحباش المسيحيين .

وأشار مرجليوث الى ما ذكره الرحالة « ستيفن هيدن » بعد زيارته لآسيا من أن أحد المبشرين قضى فى عمله عشر سنوات فلم يستطع تحويل مسلم واحد الى النصرانية وأن عشرات من زملائه عجزوا مثله ، وأن دعاة النصرانية قد ينجحون فى البلاد التى لم يكن المسلمين فيها دولة فى عصر الاسلام .

والزعم بالجبرية وليد العصر الحديث ، اذ كان من هم الاسـتعمار الغربى للعالم العربى والاسلامى أن يزلزل عقيدته ويقوض حصنه الذى عز على الخطوب وقهر القوى كلها .

ولقد حاول الاستعمار وأعوانه من المستشرقين المنحرفين عن الطريق السوى أن ينشر الالحاد فى جميع البيئات الاسلامية بالرغبة والرجعية كما حاول أن ينشره بغرس الأمانى والآمال فى نفوس ضعاف الايمان .

ولكن كلنا نعرف أنه لما فشلت دعوى المبشرين فى أن يعتنق المسلم المسيحية ، رأى الاستعمار أن يتخذ فى كل بلد اسلامى دعاة للالحاد يغريهم بالمال ، ويرفع مكانتهم بالزيف والباطل ، وقد وجد بالأقطار الاسلامية للأسف القليل من لبى دعوته ، وأصبح من دعاته ، طمعا فى المال والمركز والجاه .

ففى الهند مثلا ، أسس الاستعمار فى القرن الماضى مدرسة لتعليم الالحاد ، كانت هى السبب فى أن أخرج لنا «جمال الدين الأفغانى» رسالته « الطريقة فى الرد على الدهريين » والحق أن الاستعمار وجد أقلاما داخل الأقطار الاسلامية نفسها ، ولكنه لم ينته الى الثمرة التى أراد .. فالاستجابة لهذه الأقلام ، وخروج المسلمين عن دينهم كان ولا يزال معدوما ، أو شبه معدوم .

وليس المستشرقون — موضوع هذا الكتاب — هم الذين وقفوا من الدعوة المحمدية موقفا عدائيا متعصبا فحسب ، بل لقد واجهت الدعوة منذ القدم من اليهود ، وما زالت تواجه من الاضطهاد الاستعمارى ومعاونيه الكثير من التزييف للحقائق الملموسة .. وكان لتأثير هذه الدعايات الكاذبة أن ظهر فى البلاد الاسلامية بعض الزنادقة والملحدين ، الذين تأثروا ، وانطلى عليهم بهتان أعداء الدين بأن يدخلوا فى الدعوة الاسلامية ما ليس منها لتشويهها واذاعة البلبلة فى الأفكار بين أتباعها ، فوضعوا الأحاديث النبوية المدسوسة . وأدخلت الاسرائيليات فى التفسير وانتشرت الكتب الصفراء المشوشة على أفكار المسلمين غير المتفقهين فى الدين ، حتى انه قد بلغ بهم الجرأة أن يحرفوا فى كتاب الله ويزيدوا ألفاظا بحجة البحث والعلم ، حتى يثق بهم ويطمئن اليهم ضعاف الايمان بالرسالة الاسلامية السماوية .

والتاريخ منذ بدء الاسلام الى الآن ينبئنا بظهور جماعات منحرفة وضالة عن الطريق السوى القويم ، وعن أهداف الدعوة والعقيدة ... أمثال أتباع الأديان الجديدة كالبابية والبهائية والقاديانية .

ولاشك أن ظهور الدعوات الجديدة التى تحمل أسماء الأديان والتركيز عليها واهتمام الصحف والمجلات بالدعوة لها واذاعة مبادئها والحديث عنها انما كان عملا واضح الدلالة والأثر فى حرب الاسلام ومحاولة القضاء عليه ، وقد أكد ذلك الدكتور « تشارلس أدمس » حين قال : « ان البابية كانت وسيلة للاستغلال من الاسلام للنصرانية » .

وقد حرص دعاة التغريب على حمل لواء الدعوة الى هذه الأديان وداومت الصحف والمجلات المختلفة الدعاية ، ونشر أبحاث مطولة عن هذه الأديان .. وقالت ان البهاء رمى الى تأسيس دين عملى نظر فيه الى تقويم الأخلاق ووجه دعوته الى العالم كله ، وليس الى الشيعة فقط ، فكتب الى ملوك الأرض . وقالت ان البهائية فرع من البابية التى ظهرت فى السبعينات من القرن الماضى عن طريق الميرزا « على محمد الباب » المتوفى ١٨٥٢ ، وأن الباب رمى الى اصلاح الدين الاسلامى .

وقد كان موت زعيم البهائية عباس عبد البهاء ، فى نوفمبر عام ١٩٢١ ، مناسبة لحملة عريضة . وقد أشار أحد الكتاب فى فبراير سنة ١٩٣٠ ، أن البهائية دين جديد يوافق النزعات الجديدة ، وقال : ان فى انتشار البهائية كبتا للتعصب ودعوة الى اخاء البشر ، ونزولا على حاجة العصر الحاضر الذى يكره فيه تعدد الأديان وما تجلت فى مخالفة بعضها للبعض من تحزبات وتعصب .

وقد ترجم كتاب المبشر « ج . سلمنت » عن «بهاء الله والعصر الحديث» ونشر المرحوم الأستاذ العقاد فى الهلال بحثا بعنوان « ساعة مع عبد البهاء »، عن انتشار هذه الديانة التى تدعو الى توحيد الأديان واللغة وترك العصبيات الدينية والجنسية ونبذ الحروب .

واهتمت دوائر الغزو الثقافى والصحف الأمريكية بالدعوة الأحمدية التى قام بها « غلام أحمد القاديانى » مسيح الهند المولود بقاديان بالبنجاب والذى ادعى أنه المهدى المنتظر الذى يؤمن به المسلمون وينتظرونه وتتلخص

عقيدتهم فى موت السيد المسيح عليه السلام ودفنه وعدم انقطاع الوحى والنبوة غير التشريعية وعدم النسخ فى القرآن .

ولم يقف الفكر العربى مكتوفا أمام هذه الجماعات وحملاتها ، وانما واجهها بقوة ودحض أكاذيبها ، وكشف خداعها وتضليلها وتعصبها .. حتى انه لم يكتب لهذه الدعوات الزائفة البقاء . حتى ان « مصر » قد سبق أن طهرت فى موقعة « عين جالوت » ، البلاد الاسلامية من شر ورجس «التتار» وأنقذت الاسلام من خطرهم وضلالهم .

وهكذا يستمر كشف الأباطيل التى برع الغزو الثقافى فى حمل لوائها البراق ، والتى خدعت الكثير من دعاة التغريب فى العالم العربى فصدقوا شعارات الفكر الغربى وكلماته ذات الرنين وخدعهم المبشرون الذين تلقوا عليهم العلم فى جامعات أوربا ، وفرنسا بالذات ، أمثال « ماسينون ودوركايم ومرسيه ومرجليوث وليفى بريل » وهم أساتذة بعض كبار كتابنا العرب .

والغريب أن كتاب الغرب قد انقسموا ازاء العقائد الشرقية والاسلام واللغة العربية وتاريخ العرب وأمجادهم قسمين ، وان مفكرين ذوى قدر وفكر ثاقب قد أنصفوا العرب رغم تفوق نظريات المستشرقين والمبشرين دائما .

وكانت الصحف العربية ترددها ، حتى ان «رينان» عندما عرض آراءه عن العرب والسامية وراجعها « جمال الدين الأفغانى » لم يجد أمامه الا أن يعلن أنه سيعاود النظر فى مراجعتها على ضوء ما أورده جمال الدين الأفغانى فى الرد عليه .

وتبين أن هذه الحملة لم يقصد بها الا توهين عرى الاسلام وتشويه صورته وصرف أهله عنه ، وبذلك يواجه الفكر العربى تلك الحملات بعقيدة قوية راسخة متينة ، ويفند كل ما عرض المستشرقون والمبشرون خصوم الاسلام ويكشف زيفه ، وأشير الى صيحة « فلادستون » رئيس الوزارة البريطانية فى عهد الملكة فيكتوريا فى « مجلس العموم البريطانى » ، وهو ممسكا بكتاب القرآن الكريم فى يده قائلا : « انه مادام هذا الكتاب باقيا فى الأرض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم » .

ولقد أردت من نشر هذا الكتاب أن أبين مـوقف المستشرقين من الاسلام .

وهم طائفة أعدوا اعدادا كاملا وافيا للنيل من دعوته .. كما أبين عمل الفكر العربى جاهدا على رد كل هذه الشبهات التى أثارها دعاة التغريب من أن كلمة الاسلام معناها الخضوع والاستسلام ، أو أن الاسلام تاريخيا فرع من الديانة الاسرائيلية والمسيحية ، وأن الاسلام لا يعنى الاستسلام .

واذا كنت لا أنكر أن بعض المستشرقين قد أنصف .. مثل ما قرأته عام ١٩٣٤ فى كتاب « الى أين يتجه الاسلام » الذى كتبه خمسـة من مشاهير المستشرقين بزعامة الاستاذ « جيب » أستاذ اللغة العربية فى مدرسة اللغات الشرقية بلندن . وقد كتب مقدمته، وجعل الكلام فيها على الجامعة الاسلامية وكيف نشأت فكرتها فى ظل الدولة العثمانية ، فى عهـد السلطان « عبد الحميد » ، واتنهى من بحثه الى أن فكرة الجامعة الاسلامية تحطمت على صخرتين ، أولاهما فساد الحكم فى البلاد الاسلامية . والثانية هى الدعوة الى الاصلاح على الطريقة الغربية .

قال : وبرغم التفاوت بين الأمم الاسلامية فى درجة الرقى ، فما زالت تربطها العقيدة برباط وثيق ، كما يربطها التعاطف ، وصلة القرابة ، ولحمة الجوار والنسب الجنسى .

وأكد الأستاذ جيب أن الأمم الاسلاميـة تنظر الى تحقيـق الوحدة الاسلامية على أساس يخالف الأساس الذى دعت اليـه فكرة الجامعـة الاسلامية .

أما فصله الأخير ، فقد استهله بالتساؤل عن مصير العلاقات بين العالم الاسلامى من جهة وبين الشعوب الانسانية الأخرى .. قال : ان ذلك يتوقف على الخطة التى تسلكها أوربا حيال العالم الاسلامى وحيال الشرق الممثل فى اليابان والصين وغيرهما من الشعوب الآسيوية ، وبمعنى آخر يتوقف انحياز العالم الاسلامى الى الشرق أو الى الغرب . وذلك يتوقف على مسلك الدول الأوربية نحوه .

وكثير من المستشرقين قد أسلم بعد درسهم وتمحيصهم للدعوة الاسلامية ثم الاقتناع بما جاء فيها من خير للبشرية ، وصلاح للمجتمع الانسانى العالمى منهم المستشرق الانجليزى المشهور « جون فيلبى » فقد استطاع المستر فيلبى فى خلال اقامته فى بلاد العرب أن يطلع على تعاليم الدين الاسلامى اطلاعا مقنعا حبب اليه اعتناق هذا الدين القويم ، وقد لاحظ عليه كثير من المجتمعين به ذلك الحب الكبير الذى يبدو منه نحو الدين الاسلامى ، وهذا التقدير الصادق الذى كان يشعر به لتعاليمه حتى ان مكاتب « الماتان » سأله فى هذا الصدد فى حديث له فقال : لماذا لم تقدم اذن على اعتناق الاسلام حتى يتم لك ما تريد وتصبح عربيا دينا كما اتخذت بلاد العرب وطنا .

فأجابه : اننى سأكون يوما ما مسلما عندما يتم اقتناعى بهذا الدين ، فانى لا أريد أن يكون اسلامى ظاهريا أتخذه قناعا أستتر به ، وقلبى خال من الايمان والتقوى .

ولم ينته أسبوع حتى أسلم واعتنق دين الحق والمساواة .

واذا كنت لا أنكر أن بعضهم قد أنصف ، وآخر قد أسلم وقال الحق، كما ذكر ، فان الغالبية العظمى منهم قد انحرفوا عن طريق الحقيقة ، كالاستشراق الغربى الذى يكيد للدين ، ويكيل له لأنه يعمل بايحاء المستعمر الذى لا هم له غير استغلال الشعوب واستعبادها ، وسلب خيراتها لمصالحه ومآربه الخاصة ، وقد بين ذلك جليا واضحا رائد القومية العربية وباعث نهضتها الرئيس « جمال عبد الناصر » فى خطابه بلقاء رئيس جمهورية ألمانيا الديمقراطية « الهر فالترا أولبرخت » فى أواخر شهر شوال ١٣٨٤ حين قال :

هنا فى الجمهورية العربية المتحدة سوف تلتقى بالشعب المصرى الذى هو جزء من الأمة العربية التى تعيش على منطقة ممتدة من المحيط الى الخليج الفارسى ، والتى ربطتها دائما وتربطها وحدة تاريخ ونضال ومصير . ولقد كان الاستعمار هو الذى فرض التجزئة وفوق التجزئة ، فلقد فرض تقسيم وطن من أقدس الأوطان العربية وأقام فى قسم منه قاعدة له ورأس جسر ، وكانت أهداف الاستعمار من التجزئة والتقسيم واضحة ضد العمل

الوحدوى ومنع الأجزاء الممزقة من تحقيــق وحدتها الطبيعيــة ، والهاء الشعوب العربية كلها بهذا الخطر الذى زرع فى قلبها واستنزاف طاقاتها فى مقاومته وتهديدها بعد ذلك عسكريا من هذه القاعدة فى كل مرة يشعر فيها الاستعمار أنه على وشك أن يواجه هزيمة التصفية النهائية » .

فالضالون وأتباعهم « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله الا أن يتم نوره ولو كره الكافرون . هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون » (التوبة ٣٤ ، ٣٥)

وكتابى هذا يحتوى على خلاصة لآراء بعض المستشرقين فى الاسلام ودحض الادعاءات المفتراة عليه بقدر الامكان .

وضعتها بعد قراءة واطلاع مع الدرس والتمحيص ، والبحث المأخوذ من المراجع الوافية والكتب العديدة والمتنوعة فى التاريخ الاسلامى الحافل بالأحداث العظام ، والخطوب الجسام ، والجهاد فى سبيل الحق والسعى للخير والكفاح لنصرة العدل ، والاصــلاح والعمران والمســاواة والمحبــة والسلام . ولم تظفر الانسانية فى تاريخها القديم والحديث بأجمل من تاريخ الاسلام أو أجل ، ولم تعرف البشرية جمعاء ، ولا الحضارة فى عصــورها المختلفة أكثر منه تعميرا وتنويرا .

وقد توخيت قبل الكتابة فيه الحرص التام والاطلاع على الكثير من المؤلفات التى تناولت الدعوة الاسلامية منذ ظهــورها ، وكتب التفســير والحديث ، ثم التراجم ، وعلى رأسهم جميعا كتاب الله « القرآن الكريم » حتى يتبين الحق لمن خفى عليه ، وتظهر الدعوة المحمدية ساطعة براقة بنورها على الكون ، كما هى من يوم بدء بعث الله نبيه الكريم صلوات الله وسلامه عليه بها .

وان البحث قد تناول أكبر وأهم موضوعات ونواحى هجوم المستشرقين على الاسلام ونبيه ، وأوردت الكثير من الردود القيمة على تلك المفتريات مما ساقه علماء ومستشرقون لهم قدرهم ووزنهم ، حتى أن مريد الاحاطة بأوجه الطعن على الاسلام ورسوله والرد عليها ، من مختلف العلماء والمجتهدين يجد فى هذا البحث طلبته .

ولعلى أكون قد وفقت الى ارضـــاء المولى عز وجل ورســـوله معلم البشرية الأول .. راجيا الله تعالى أن يؤدبنا بأدبه ويحشرنا فى زمرة أتباعه ، وأوليائه من المسلمين المتقين .

والله الموفق والهادى الى الصواب ، وحسن المآب .

القاهرة ١٣٨٤ — ١٩٦٥ .

مهندس
زكريا هاشم زكريا
مدير أعمال بمحافظة القاهرة

الفصل الأول
الفكر الغربي والإسلام

منذ انتشار الاسلام وظهوره . وحتى القرن الثانى للهجرة . كان لنبى الاسلام شأن مع الفكر الغربى . اذ لولا هذا النبى الأمين . لاختلف الفكر الأوروبى اختلافا كبيرا . واختلف معه اتجاه الفكر البشرى فى جميع الأمم . وكان العالم الانسانى اليوم غير ما رأيناه .

ولقد تفاوت هذا الشأن فى قوته وظهوره . حسب التفاوت فى أحوال الأوروبيين من التقدم والتأخر وبين المعرفة والجهالة فى تاريخ القارة الأوروبية منذ أن ظهرت الدعوة الاسلامية .

ففى القرن الأول من ظهورها . كانت أوروبا بأجمعها غارقة فى ظلمات الجهالة . وكانت أقطارها الشرقية والجنوبية قد دانت بالمسيحية . وبقيت أقطار واسعة فى وسط القارة وشمالها تجهل المسيحية كل الجهل وتدين بالوثنية أو بما شابهها من عقائد الأجيال الأولى .

ولم يكن للأمم التى دانت بالمسيحية شاغل فى ذلك العصر غير النزاع على الكنيسة أو النزاع على الدولة . فمضى القرن الأول فى صدر الاسلام والأوربيون لا يسمعون عن دعوته الا أخبار الحروب مع بيزنطة . أو أطرافا من الأساطير التى تتناقلها الأفواه من بعيد عن غير فهم وتمحيص .

وظل الحال على ذلك قرنا آخر بعد ظهور الدعوة . حتى تمكنت دولة العرب فى الأندلس . فخلق فى القارة الأوربية فكر جديد هو فكر الثقافة العالمية التى نقلها الى الغرب أتباع « محمد » عليه الصلاة والسلام.وأصبح المثل الأعلى للأوربى أن يتشبه بهؤلاء الأتباع فى أنماط التفكير وأنماط المعيشة . بل يتشبه بهم فى لغة اللسان . فلم يكن مثقفا ولا متحضرا فى رأيهم من لا يحسن الكلام بالعربية . ومن لا يحفظ العلم . ويتدرب على الصناعة .

والفن فى هذه المدرسة الحديثة ، حتى أن رجال الدين أنفسهم كانوا يقبلون على الثقافة العربية بنهم ومنهم رجل ترقى فى مراتب الكنيسة حتى جلس على كرسى البابوية ، وهو « سلفستر الثانى » الذى كان معروفا قبل اختياره لذلك المنصب الرفيع باسم الساحر « جربارت » ، لأنهم حسبوا علمه الواسع سحرا يأخذ الألباب ،

وقد نقل المؤرخ « دوزى » فى كتابه عن « الاسلام الأندلسى » رسالة لكاتب أسبانى فى ذلك العصر ينعى فيها اللاتينيةو والاغريقية ، وينكر على أبناء قومه هذا الاقبال على اللغة العربية . ومنها قوله : ان أرباب الفطنة والتذوق سحرهم رنين الأدب العربى فاحتقروا اللاتينية وجعلوا يكتبون بلغة قاهريهم دون غيرها ، وانهم يعجبون بشعر العرب وأقاصيصهم ، ويدرسون التصانيف التى كتبها الفلاسفة والفقهاء المسلمون ، ولا يفعلون ذلك لادحاضها والرد عليها ، بل لاقتباس الأسلوب العربى الفصيح ، فأين اليوم من يقرأ التفاسير الدينية للتوراة والأنجيل غير رجال الدين ، وأين اليوم من يقرأ الأناجيل وصحف الرسل والأنبياء .. وا أسفاه .. ان الجيل الناشىء من المسيحيين الأذكياء لا يحسنون أدبا أو لغة غير الأدب العربى واللغة العربية ، وأنهم ليلتهمون كتب العرب ويجمعون منها المكتبات بأغلى الاثمان ،

نعم لقد كانت الحضارة الغربية كلها ، قبسا من حضارة العرب ، ولا سيما فى أيام ازدهار الأندلس .

ومن هنا يبدو أثر رسول الاسلام ، ودعوته فى العالم الغربى كله ، لا فى القارة الأوربية دون سواها ،

وقد ورد ذكر ذلك العهد الزاهر على لسان المشاهير فى العصر الأخير ولا سيما فى كتب « بلاسكوانيز » الذى أشاد بحضارة الاسلام فى ذلك الحين ، وبالنكسة التى أعقبت تلك الفترة من الزمان ولا سيما بعد أن صار الأمر الى سلطان الدولة الافرنجية وما جره ذلك السلطان من شؤم بغيض العاقبة حاد بالسياسة الاسبانية عن سواء السبيل حينما دفع باسبانيا الى التعصب الممقوت ونفخ فيها نزعة التوسع فى الاستعمار لأنها لو واصلت

عمل العـرب الصناعى والزراعى بدلا من مغامـرات الحـرب ومطامـع الاستعمار لكان لها اليوم شأن غير الذى وصلت اليه .

انقضى ذلك العهد الزاهر بانقضاء الدولة العربية فى الأندلس . فشيعه عقلاء الاسبانيين بالأسف الشديد .ولا يزالون يشيعونه بهذا الأسف الى اليوم . ان النكسة التى أصابت أوربا الغربية بعد زوال الدولة العربية قد ألقتها فى ظلمات القرون الوسطى التى زين لها التعصب والجهل أن تتقبل عن النبى العربى مثل تلك الأقوال التى لا تستساغ الا فى عقول الصبيان . ومنها أنه احتال على خداع العرب بحيل السحرة والكهان وفاتهم أن كتاب الله جل وعلا يقول : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون » .

واستمر ذكر النبى الكريم على هذه الصورة حين ارتد الفكر الأوربى الى ظلمات الجهالة الأولى ثم عادوا الى الاهتمام الجدى بدعوته من جراء الصليبية وما كشفته للأوربيين مرة أخرى من مزايا الحضارة العربية. ولكنه كان اهتماما مقصورا على الغلبة ورءوس الكنيسة . حتى ترجم « روبرت الرتينى » القرآن الى اللاتينية . ولحقت به ترجمات أخرى فتجددت نهضة العلوم فى أوربا وبالتالى تجدد معها احترام ذكر النبى عليه السلام . فى كلام المفكرين والمستنيرين .

ولا يخفى أن تجدد النهضـة نفسه انمـا كان أثرا من آثار اتباع محمد — صلى الله عليه وسلم — فى كثير من أسبابه فان « روجرز باكون » العالم الانجليزى الذى نشأ فى القرن الثالث عشر كان من تلاميذ المدرسة العربية . وكان رائدا يسميه ابن وطنه « فرنسيس باكون » امام المدرسة التجريبية التى وضـعت الأسس للبحث العلمى الحديث . وقد كانا معـا يعجبان بالمقررات العلمية التى وصل اليها علماء العرب فى مراقبة الظواهر الطبيعية . وبخاصة ملاحظات « ابن سيناء » فى مراقبة قوس السحاب .

بيد أنه لما كان ابراز الاسلام على صورته الحقيقية بين معتنقيه من المؤمنين لا يكفى . لأن هناك أمما كثيرة تجهل هذا الدين الحنيف . جهلا يكاد يكون تاما . أو تتمثله على صورة مشوهة دميمة لا تمت الى الحقيقة بأدنى صلة . ولما كنا فى أشد الحاجة الى أن تعرف هـذه الأمم — التى

ربطتنا معها الحياة برباط متين الأواصر — الاسلام على حقيقته . ولما كانت معرفتها اياه قد جاءتها من طريق الصور التى قدمها اليها المستشرقون عنه . والأحكام التى أصدروها عليه لذلك .

فانه يتحتم علينا أن نتمعن فى هذه الصور التى رسمها أولئك المستشرقون لديننا وأن ندرس أحكامهم التى أصدروها عليه . وأن نسجل ما فيها من محاسن وحقائق . وأن نبرز ما فيها من كبوات وأخطاء . لنضع أيدى العالم الغربى على ما شوهوا به رسالة الاسلام . والدعوة المحمدية . حتى لا يبقى أولئك الأجانب فى أخطائهم يعمهون .

كانت غاية الباحثين الأوربيين . فيما قبل القرن الثامن عشر — وهم اذ ذاك قليلون — أن يحاربوا الاسلام . وأن يقدموا الى بعثات التبشير الحجج والمستندات التى تستعملها فى تنصير المسلمين . وترد بها على من يدافعون عن الاسلام .

أما فى القرن الثامن عشر . فان الملحدين منهم كانوا على الضد يشنون على الاسلام . ليقاوموا المسيحية . وكما كان أولئك متعصبين وغير نزهاء . كان هؤلاء سطحيين ومعاندين . واذن فليس للفريقين وزن فى ميدان القيم العلمية الصحيحة .

أما فى القرنين التاسع عشر والعشرين . فان أكثر دراسة هذا الدين من جانب أولئك المفكرين المحايدين كانت لوجه العلم والتاريخ . وكان من الممكن أن تثمر خير الثمار وأصلحها للخلود . لولا أن الأغلبية الساحقة من هؤلاء المفكرين قد سلكوا بازاء الدراسة الاسلامية مسلكا خطرا على العلم . وهو محاولة اخضاع القيم الروحية الاسلامية للمقاييس المادية التى تختلف عن طبائعها أتم اختلاف .

ونحن نعلم علم اليقين أن أولئك المستشرقين كثيرا ما يصلون فى بحوثهم الى نتائج علمية قيمة . قد تفيد الانسانية فى مراحل تطوراتها الثقافية . بشرط ألا تتعرض هذه البحوث للمبادىء الاسلامية الرفيعة التى لا تخضع للتجارب الحسية . أما حين ينسون تلك المبادىء . فانهم ينحرفون عن جادة

الصواب • ويبتعدون عن الحقيقة • مما يجعل بحوثهم فى هذا الشأن ضعيفة هزيلة بل يصح أن تكون عبثا • ومنتجاتهم عدما • ولم يقدموا الى بيئاتهم الا صورا مشـــوهة • يجب على من يعنيهم الأمر من المسلمين أن يمحوها من صحائف الوجود •

وفى مجلس علمى من المجالس التى عقدت فى عام ١٩٦١ • دار الحديث حول محاولات بعض المستشرقين لتشويه تراثنا الفكرى • وتسميم المنابع الروحية التى نستمد منها مقومات وجودنا المعنوى •

قام أســتاذ جليــل من علمائنا يدافع عن حق العلماء فى أن يقولوا ما شاءوا • رضينا أو كرهنا • وعلينا أن نحترم آراءهم فينا وأقوالهم عنا • ان كنا حقا نؤمن بحرية الفكر ونحترم حق البحث العلمى • وأضاف الاستاذ الجليل متسائلا : ان بعض مفكرى الغــرب قد هاجموا المسيحية • وقالوا فيها ما لا يرضى المؤمنين من أصحابها • فلماذا نضيق بهم اذا تحدثوا عن الاســلام بما نكره ؟ •• ولماذا نتخذهم أعداء لنا دون أن ندرك أننا بهذه العداوة نخون حــرية الفكر ؟ •• كما يجب أن نفرق بين رأى يهتدى اليه دارس نزيه يلتمس الحق وحده • وبين آخــر لمتعصب لا يقصد من البحث الا أن يرضى هواه ولا يعنيه الا أن يسخر الحق لخدمة غرض معين • يدافع عن تعصبه • وهذه هى المحنة • فليس أضر بالعلم من تعصب يلتوى به منهج البحث وتضل معالم الاهتداء الى الحق • ذلك لأن الدارس اذا لم يتجرد من الهوى الذى لم يعد يرى من معالم الطريق الا مايخدم غرضه • وصار كل همه أن ينحــرف بمادة البحث ليفسرها على مســايرة هواه والاتجاه الى هدفه كان تعصبه واضحا ، وانزلاقه مبينا .

فكلنا نعرف ويعرف الواقع التاريخى . ان حركة الاستشراق الضخمة لم تنشأ أصلا لخدمة الفكر واستنقاذ تراث الشرق والاسلام من الضياع • وانما بدأت أول ما بدأت فى رعاية الكنيســة الـكاثوليكية . وخضعت لاشراف دقيق منظم من كبار أحبارها . وكان الرهبان والقصاد الرسوليون هم جنودها الأولون . ثم تلقف الاستعمار هذه الحركة فكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها وكان قناصلهم فى بلدان المشرق عمالها •

وقد ذكر « الكونت فيليب دى طــرازى » • فى الجــزء الثانى من خزائنه فى مكتبة « دير الشــوير » بلبنان مخطوطة من كتاب « وفيات الأعيان لابن خلكان » — قنصل فرنسا فى بيروت فى منتصف القرن السابع عشر — خلاصتها : انه فى سنة ١٦٧١ . أرسل عالى الجناب الملك « لويس الرابع عشر » رسله الى جميع بلدان الاسلام لشراء المخطوطات وزودمبعوثيه بأوامر شريفة الى جميع القناصل الفرنساوية ليضعوا رجالهــم وأموالهم فى خدمة هذه الغاية .

وقد عكف المستشرقون على خدمــة هذه المخطــوطات • وهم بشر مثلنا • منهم من يصون حرمة الحق ويرعى أمانة العلم • ومنهم من يضلهم التعصب وينحــرف بهم الهــوى . والبحث العلمى متى انحرف عن غايتــه الأصلية وهى خدمة العلم والوصــول الى الحق ، أعــوزته النزاهة التى هى جوهر البحث • والحرية التى هى مناط سلامته •

والمتصلون من المسلمين بأعمال هؤلاء • يعرفون الى أى مدى تلتوى أساليبهم فى توجيه العبارات وتضطرب مناهجهم فى سوق الأخبار • ويضل اعتسافهم فى تأويلها بغية الوصول الى نتائج خطيرة سامة ، تنحرف بتراثنا الى تأييد مزاعم بعينها طالما رددها أعداء الشرق والاسلام .

ومن أحدث الكتب التى تنــاولت هذا الموضــوع كتاب الدكتــور « مصطفى السباعى » أستاذ الفقه الاســلامى بجامعة دمشق وموضــوعه « السنة ومكانتها فى التشريع الاسلامى » . وفيه كشف لخطة من حملات الغزو الفكرى . تعــرض لها هذا التراث الروحى القيم . وعبئت له قوى ضاربة من جنود يرتدون مسوح العلماء والباحثين •

وهذا الجانب • لايعنى فقهاء التشريع الاســلامى وحدهم وانما هو قضيتنا جميعا نحن العرب • مسلمين ومسيحيين على السواء • أو هى بتعبير أوضح • قضية كل عربى يعى وجوده •وكل مؤمن بحرمة الحق • حريص على حرية الفكر ونزاهة البحث العلمى •

والدكتور السباعى يتولى فى كتابه عرض حملة من حملات الغزو الفكرى فى صبر الدارس المخلص . وحماسة العربى المؤمن .

ومن هذا العرض يشهد القارىء العربى الواعى كيف اتجهت الشعوبية من قديم لتسميم هذا المنبع الروحى وكيف تلقى الاستعمار لواء الحملة من أيدى الشعوبية فسهر عليها يغذيها بالوقود من سموم التأويلات والشبهات والمفتريات .

وهى حملة يخفى أمرها على عامة المثقفين ممن لا اختصاص لهم بدراسة الفقه والتشريع . ولعل أخطر ما يكشف عنه الكتاب أن فينا من تخدعه حيل الغزاة ممن يرتدون زى العلماء فيتابعهم على أقوالهم المسمومة دون أن يدرى أنه بهذه المتابعة يعين على نفسه وقومه .

وقصة الغزو الروحى فى هذا المجال عبرة ما بعدها عبرة . فمن قديم استطاعت الشعوبية الضاربة أن تضم الى جيشها المقنع جنودا من الفرق الاسلامية بعضهم عن استهواء وفتنة بأساليب التفكير الطارئة وبعضهم من اليهود الذين أسلموا نفاقا ورياء بغية الافساد لحيوية الاسلام بالاسرائيليات .

والأمر شبيه بهذا الحدث من تاريخنا فقد جند الاستعمار بعض المستشرقين لتسميم هذا المنبع الروحى فنصبوا الفخ باسم البحث العلمى والتفكير الحر . وجاء تقدمنا فوقعوا فى الفخ وراحوا يروجون بضاعة الغزاة . اما عن جهل بحقيقة التراث الاسلامى ، واما عن انخداع بالأسلوب العلمى المزعوم ، واما عن رغبة فى الظهور بالتحرر العقلى وشجاعة الرأى واما عن انحراف فكرى ووجدانى بتأثير الاستهواء .

وما يجرى فى هذا المجال الروحى . يجرى مثله فى مجال الثقافة والأدب . ممهدا لبقاء الاستعمار فى الشرق فى زيه غير العسكرى .

فآراء العلماء لها علينا حق الاحترام ما أخلصوا للحق وصانوا حرمة البحث وحملوا أمانة العلم . أما اذا أضلهم التعصب وزاغ بهم الهوى فقد

خسروا صفتهم العلميـــة وأهـــدروا بأيديهم حقهم فى الانتســـاب الى زمرة العلماء . وليس لمن اعتدى على حرية الفكر وأمانة الحق أن يطمع أو يطمع له سواه فى احترام العلماء . باسم حرية الفكر التى خانها . وحرية الحق الذى أضاعه .

فلما بسط الاسلام — فى مبدأ دعوته — سلطانه على قارتى آسيا وافريقية ، وجزء عظيم من قارة أوربا ، من الناحيتين النظرية والعلمية ، ثم اخترق صليل صولته أسماع الشعوب التى لم تدن به ، ودوى فى رءوسها صوت جلاله القوى ، وكان من الطبيعى أن يروع الساسة ، ويبلبل أفكار العلماء والباحثين من خصـــومه فى تلك الشعوب التى لم تكن تطمئن على مصيرها بازاء هذا التيار الجارف ، وكان من الطبيعى أيضا أن يدفع الغيظ المتعصبين من أولئك العلماء . كما دفعت غريزة حب الاستطلاع المخلصين منهم ، الى الاشتغال بنصـــوص هذا الدين ودراستها للوقوف على ما فيها من فكر وآراء نظرية وطقوس وتقاليد عملية .

وقد كان ذلك بالفعل ، فنظـــر أولئك وهؤلاء فى نصوص القـــرآن والحديث والسيرة النبوية نظرة ادعوا أنهـــا نقـــد حر . وتمحيص برىء . وانهم لم يكن هدفهم وغرضهم من ذلك سوى الحقيقة وحدها . وان كان ذلك لا يتفق مع الواقع الا فى بعض الأحوال . بل اننـــا نستطيع أن نجزم — استنادا الى ما بين أيدينا من مؤلفات أولئك العلماء — بأن الدراسة الجدية لنصوص الاسلام وتعاليمه والبحث الدقيق النزيه فى أسراره ومزاياه لم يبدأ الا منذ القرن التاسع عشر حين انتشرت الثقافة الشرقية فى أوربا وأخذ المستشرقون يجدون فى فتح مغالق الشرق، وكشف ما فيه من كنوز، بعد حملة « نابليون » التى فاقت أهميتها العلمية أهميتها السياسية .

أما قبل ذلك العهد ، فقد كانت مؤلفات الغربيين عن الاسلام مدعاة للسخرية والاستهزاء . أكثر منها مبعثا للجدل والنقاش . لأن أكثرها كان مفعما بالجهل المطبق ، والسطحية والتعصب . وهذه الأمور من شأنها أن تسقط القيمة العلمية التى هى الدعامة المتينـــة لجميع المؤلفات على اختلاف أنواعها وتباين موضوعاتها وغاياتها .

ونحن حين نقرر هذا لا نتجنى على أولئك المؤلفين • ولكننا نذكر حقيقة واقعة مؤيدة بالنصوص التى فى كتبهم • وفى كتب الباحثين المحدثين الأكثر نزاهة وعلما من بين الأوروبيين أنفسهم . واليك شيء من هذه الحقائق : —

قال الاستاذ « دير مانجيم » : حينما اشتعلت الحرب بين الاسلام والمسيحية ودامت عدة قرون •اشتد النفور بين الفريقين • وأساء كل منهما فهم الآخر • ولكن يجب الاعتراف بأن اساءة الفهم كانت من جانب الغربيين أكثر مما كانت من جانب الشرقيين • وفى الواقع أنه على أثر تلك المعارك العقلية العنيفة التى أرهق فيها الجدليون البيزنطيون الاسلام بمساوىء واحتقارات ، دون أن يتعبوا أنفسهم فى دراسته ، على أثر ذلك هب الكتاب والشعراء المرتزقة من الغربيين وأخذوا يهاجمون العرب فلم تكن مهاجمتهم اياها الا تهما باطلة . بل متناقضة (١) .

وقال الاستاذ « كارا دى ڤو » : ان محمدا ظل وقتا طويلا معروفا فى الغرب معرفة سيئة فلم توجد خرافة ولا فظاظة الا نسبوها اليه (٢)

هكذا افترى على الاسلام وعلى اتباعه شرذمة من أعدائه • وما زال لهذه الشرذمة أبواق يرددون ما سبقوا به • ويزيدون عليه أباطيل من عندهم طابعها الافتراء والادعاء والتجاهل والتجنى • وبعضها يستجلب الضحك مما ينبىء عن جهل وسفسطة وهذيان .

فانك تعجب أشد العجب حينما تقرأ لبعض أعداء الاسلام اليوم ، ولبعض أعدائه بالأمس القريب والبعيد ، تهجما عليه ، واتهاما له بأنه دين التعصب الماحق للحرية ، والاكراه القاضى على الاختيار ، والجمود المانع من التطور . وأغلب الظن اننا كنا نتلمس بعض العذر لهؤلاء المتهجمين ، لو أنهم اعتدلوا فى تفكيرهم وفى تعبيرهم ، واقتصروا على التنديد بحال المسلمين وضعفهم فى الأمس القريب ، ولم يتجاوزوا الى الاسلام نفسه ، من حيث

---

(١) كتاب « حياة محمد » لاميل دير مانجيم ــ طبعه باريس سنه ١٩٢٩

(٢) كتاب « المحمدية » للبارون كارادى ڤو ــ طبعة باريس

هو عقيدة وتشريع وعبادة وسياسة ومعاملة . لكنهم خلطوا خلطا قبيحا عن الاسلام واتباعه ، وزعموا أن ضعف المسلمين نتيجة لدينهم متغافلين عما كان للمسلمين من قوة ومجد وحضارة وسلطان أيام استمساكهم بدينهم واعتزازهم بتعاليمه • ومتجاهلين أن ما نزل بالمسلمين من كوارث الضعف والاستسلام والتخلف والانقسام • انما كان عاقبة وجزاء وفاقا لانحرافهم عن الصراط السوى الذى شرعه الله لهم • فتقاسم اعداؤهم ديارهم وخدروهم تخديرا ، ليحتلوا أوطانهم باسم الاستعمار ، وباسم الاحتلال ، وباسم الوصاية • وباسم الانتداب •

بل لقد كان المستعمرون على يقين من أن سر قوة المسلمين وعزتهم فى دينهم فجعلوا يحملون معاولهم فى حنق وقوة • ويهجمون بها على حصون الاسلام ليقوضوها • فيزلزلوا ثقة المسلمين بأنفسهم وبدينهم • لكن طال عليهم الأمد • وأرهقهم الكد والجهد • ولم يبلغوا ما أرادوا •

والاستعمار ظاهرة من أهم الظاهرات فى تاريخ الانسان على الأرض • وعلى الرغم من حداثة هذه الظاهرة بالنسبة لتاريخ الانسانية الطويل • فان أثرها امتد فى القرن الأخير ليشمل أكثر من نصف سكان العالم• ولقد انتشر الاستعمار انتشارا واسعا حتى أن بعض الامبراطوريات الحديثة أصبحت توصف بأنها لا تغيب عنها الشمس •

فضلا عن أن الاستعمار لم يتسع ليشمل مختلف المناطق فقط ، وانما انتشر ظله ليطغى على مختلف الشعوب كما أن أنواعه تعددت على مر الزمن ، وأصبح الاستعمار يشمل كل شيء من الأرض الى حياة السكان الاقتصادية والثقافية بل الروحية فى بعض الأحيان • لذلك كله فاننا اذا أردنا أن نستعرض صفحات الاستعمار • فاننا سنجد أنفسنا مضطرين الى أن نحلق فى آفاق بعيدة المدى والى أن نعالج هذا الاستعمار من نواح قد تبدو قليلة الخطر أول الأمر • ولكنها مع ذلك لا تلبث خطورتها أن تتضح لنا لأنها نواح تتصل بحياة الشعوب التى طغى عليها الاستعمار أشد الاتصال •

وقد يكون لاستعراضنا لهذه الصفحات من تاريخ الاستعمار أهمية خاصة بالنسبة الينا . نحن سكان هذا القسم من العالم فى افريقيا وآسيا . ذلك أن الاستعمار كاد أن يصيب حياتنا فى الصميم لولا فضلة من الايمان بتاريخنا المجيد . وبرسالة شعوبنا فى الحياة ودورها المجيد فى التاريخ .

واذا كنا فى الجمهورية العربية المتحدة ، وفى قارتى افريقية وآسيا قد نجحنا فى مقاومة الاستعمار وفى مغالبته حتى غلبناه آخر الأمر ، فان هذا الكفاح قد كلفنا الكثير من الجهود ، بل أنه كاد أن يصرفنا فى بعض فترات تاريخنا الحديث عن مهمة اعادة بناء الوطن ، بل اننا اذا استعرضنا جهودنا القومية الحاضرة فسندرك من غير شك أن رواية الاستعمار لا تزال متصلة من حولنا لا سيما فى بعض الأراضى الأفريقية المجاورة والقريبة من وادى النيل .

ويخطىء منا من يعتقد ان الاستعمار اذا كان قد بدا يخمد فى كفاحه معنا ، فانه سيسكت أو يدعنا نتابع جهودنا دون أن يحاول عرقلة هذه الجهود بكل ما لديه من وسائل . ذلك أن الصبغة الأساسية للاستعمار فى العهد الحديث انما هى أنه أصبح يمثل وحدة فى تاريخ الانسانية المعاصر . فالاستعمار أصبح فى العهد الحديث كلا لا يتجزأ .

والامم التى اشتركت فى جريمته الكبرى قد تشابكت بينها المصالح رغم ما يبدو بينها من خلافات سياسية مظهرية . أو من حروب ومشاحنات تحدث من وقت لآخر .

فالاستعمار الأوربى قد بدأ من تلك القارة الصغيرة . وأصبح هدفه الموحد هو السيطرة العالمية والطغيان على سائر الشعوب فى القارات الأخرى . وهو بهذه الصفة أصبح له هدف أعلى . هو فرض السيطرة الأوربية على العالم كله . والذى يمعن النظر فى تاريخ الدول الاستعمارية كبريطانيا وفرنسا وغيرهما فى العهد الحديث ، لا يلبث أن يلمس أنه على الرغم مما حدث بينها من مشاحنات عنيفة تمثلت فى الحروب الأوربية المتعاقبة . فان أغراضها كلها قد تلاقت عند هدف واحد هو توسيع رقعة الاستعمار والمحافظة على مصالح الدول الأوربية عن طريق المساومات التى

عرف المستعمرون كيف يتقنــون فنونها ٠ وكيف يحققون بها مصالحهم المشتركة . والشيء الطريف أن كل حرب من الحروب التى عرفتها أوربا فى القرون الثلاثة الأخيرة فيما عدا الحرب العالمية الثانية قد انتهت بتوسيع رقعة الاســتعمار ٠ وعلى الرغم من أن بعض تلك الحروب قد أدت الى انكماش سيطرة واحدة أو أكثر من دول أوربا ٠ فان الدول الغالبة كانت دائما تنجح فى أن ترث الدول الأوربية المغلوبة فى مستعمراتها ٠ وكثير من مؤتمرات الصلح المختلفة التى عرفتها أوربا بعد حروبها العــديدة انما كانت تدور مناقشاتها ومداولاتها الطويلة حول اقتسام الغنــائم واعادة توزيع المستعمرات ٠ واذا كانت هذه الحروب العالمية الثانية قد انتهت الى غير ما انتهت اليه الحروب السابقة ٠ فضاقت بعدها رقعة الاستعمار فانما مرجع ذلك الى أن الشعوب المغلوبة خارج أوربا كانت قد بلغت حدا من النهضة مكن لها من أن تطالب بحقوقها الطبيعية فى الاستقلال مطــالبة قوية فعالة لم تملك معها أوربا الا أن تسلم بالأمر الواقع والا أن ترضى من الغنيمة بالإياب كما يقول مثلنا العربى المعروف ٠

ان الاستعمار اذن وحدة لا تتجزأ كان أمره كذلك عندما بدأت أوربا تتوسع وتهدف الى السيطرة العالمية ، فتشاحنت الدول الأوربية فيما بينها فى داخل قارتها الصغيرة ، ولكنها وحدت جهودها كما وحدت هدفها وغايتها عندما عاملت الشعوب المستضعفة خارج تلك القارة . وكذلك كان كفــاح الاستعمار وحدة لا تتجزأ ، فالشعوب المغلوبة استمرت فترة طويلة شعوبا مفككة يواجه كل منها العدو الأكبر المشترك على انفراد .

ولكن تلك الشعوب المغلوبة لم تلبث أن وحدت اتجاهها وأخذ بعضها يساند البعض الآخر ٠ كما أن ظــروف الكفاح وميادينه ومواقيته أخذت كلها تتقارب وتتحد ٠ حتى جاءت الحرب العالمية الثانية فكانت بمثابة طبول الجهاد ونواقيسه دقت كلها دفعة واحدة ٠ فهبت شعوب العالم المغلوبة فى آسيا وافريقية ٠ وقامت للجهاد دفعة واحدة ٠ وكتب لها النصر فى الجولة الأولى من جولات الكفاح الموحد ضد الاستعمار الذى لا يمكن أن نتفهمه كظاهرة سياسية عالمية الا اذا نظرنا اليه فى ضوء حقيقتين ساطعتين ، أولاهما

أن الاستعمار يمثل وحدة متماسكة فى نشـأته وسياسته العامة . فالدول الاستعمارية تسير على سياسة متكاملة الأجزاء متشابكة الحلقات • والسبب فى ذلك أن مصالح الاستعمار فى مختلف جهات الأرض واحدة • ولا بد للدول الاستعمارية أن توحد سياستها وجهودها ، اذا ما أرادت أن توسع رقعة الاستعمار • أو أن تحتفظ برقعته الحالية على الأقل •

فسكان العالم ينقسمون الى فريقين : فريق حاكم مسيطر ، وفريق محكوم مسخر .. وتقوم سياسة الفريق الأول على التساند وتشابك المصالح ليضمن لنفسه السيطرة الدائمة على الفريق الثانى ، وعلى شعوبه وأراضيه .

أما الحقيقة الثانية فهى أن الكفاح ضد الاستعمار لا بد أيضا أن يمثل وحدة متشابكة الحلقات • ولئن كانت الدول المسيطرة قد وجدت من مصلحتها أن تتحد وأن تتعاون من أجل تحقيق أطماعها• فان حاجة الشعوب المغلوبة أقوى وأظهر لأن تتعاون فيما بينها • وتسير فى اتجاه موحد على على طريق الكفاح ضد الاستعمار • فمكافحة الاستعمار لا يمكن أن تبلغ غايتها الا اذا اتخذت صورة حركة عالمية شاملة تشارك فيها الشعوب المغلوبة فى كل جهة من جهات الأرض . وتعمل وفقا لسياسة منظمة المواقيت تتزعمها مجموعة من الأمم التى نجحت فى ازاحة عبء الاستعمار عن كواهلها وبدأت تذوق طعم الحرية وتتشبث بها • ويسير فى ركب هذه السياسة العامة المكافحة . سائر شعوب العالم المغلوبة على أمرها فى الوقت الحاضر . على أن هناك حقيقة ثالثة ينبغى ألا نغفل عنها • ولكننا لا نستطيع أن نتبينها الا اذا درسنا تاريخ الاستعمار وتطور أفكاره وأساليبه وقصة الاختلاف بين التوسع القديم والاستعمار الحديث وليس المجال هنا يسمح بالتوسع فى ذلك .

وهذه الحقيقة هى أن ظاهرة الاستعمار كما نعرفها فى العهد الحديث هى ظاهرة جديدة ترتب عليها أن أصبح الاستعمار استعبادا كاملا واستغلالا شاملا تسخر فيه موارد المستعمرة وجهود سكانها لصالح المستعمرين • وتضيع به معالم الحياة الاجتماعية والثقافية بل والانسانية بسكان المستعمرات وهذا كله يعتبر جديدا على الانسانية • ويختلف تماما

عما كانت عليه أساليب السيطرة فى العصــور التاريخية المتعاقبة • وشرح ذلك طويل لا محل له هنا ، ومن الواضح لنا أن توسع أمة من الأمم فى العهد القديم ، بل توسع دولة مصر فى العهد الفرعونى لم يكن توسعا يهدف الى الشر أو الطغيان — بقدر ما كان توسعا طبيعيا ترتب عليــه تبادل المنــافع وتشابك الثقافة بين مصر وجاراتها القديمة ، وهو تبادل زاد من توثيقه أنه لم تكن هناك اختلافات فى تكوين الجنس والسلالة بين مصر وجاراتها فــلم يكن هناك اختلاف فى اللون أو فى الطباع أو فى الاتجــاهات الروحية أو الثقافية العامة ، ولم يكن هناك فرق بين غالب ومغلوب — كــذلك الذى عرفناه فى عهد الاستعمار الحديث . عندما طغت عناصر أوربا البيضاء على عناصر أفريقية السوداء . وأدى اختلاف اللون والجنس والطبع والثقافة الى مأساة تخيل معها الجنس الأبيض أنه سيد العالم الحديث .

وهكذا كانت مصر القديمة وصلاتها بالبلاد الشرقية القريبة منها على أن انتشار الحضارة المصرية لم تتخذ صورة التوسع الاستعمارى . فلم يخرج المصريون القــدماء من بلادهم ليستعمروا بلاد الآخرين . ولا ليستوطنوا تلك البلاد . ولا ليقيموا من أنفسهم عليهــا ســادة يستغلون مواردها أو يتحكمون فى مصائر سكانها الأصليين • وهكذا كانت مصر القديمة المثال الأول للدولة التى تبلغ من القوة شــأوها • ولكنها تغبط نفسها فلا تسعى الى فرض سيطرتها على العالم المجاور .

واليكم مثل من حركات التوســع فى العصور القديمة « بلاد اليونان » وهى بلاد كما تعلمون عريقة فى القدم . كانت لها حضارة ازدهرت فى شرق البحر الأبيض المتوسط ثم انتشرت على طول ســواحله • كما توغلت بعض عناصرها أيضا فى نقط مختلفة من بلاد الشرق الأدنى القديم • وان الحضارة التى أنشأها الاغريق القدماء تنظــر اليها شعوب أوربا فى الوقت الحاضر على أنها أصل حضارتهم . لأنهــا حضارة أوربية على كل حال . ولأنهــا انتقلت من بلاد اليونان الى بلاد الرومان فأثرت فيها ثم انحدرت منها الى الأمم اللاتينية ثم الى أوربا فى عهد النهضة والعهد الحديث .

ولكى نلقى ضوءا على ما امتازت به أوربا فى عهد توسعها الاستعمارى الحديث يجب أن نتحدث عن بلاد اليونان القديمة وتاريخ توسعها التجارى والسياسى والثقافى فى العهـود القديمة ، واذا كنا نتحدث عن المستعمرات اليونانية القديمـة . فانما نتحدث عن ظاهرات ونظم تعتبر جزءا لا يتجزأ من التراث الأوربى .

والشعـب اليونانى القديم قد اختلف اختـلافا واضحا عن الشعب المصرى القديم . فسـكان وادى النيل الأدنى كانوا منذ نشـأتهم الأولى معتمدين على موارد بلادهم المحلية . ومستمسكين بوطنهم ومعتزين به . بل ان وادى النيل ذاته كان وطنا رحيمـا بسكانه . يدر عليهم من الخير ، ويسبغ عليهم من البركة ما يجعلهم يتعلقون به ولا يبتغون عنه بعدا . ولذلك لم يكن من طبع المصرى القديم ، ولا من طبع المصرى الحديث ، أن يرغب فى أن يهجر موطنه ليستعمر موطنا آخر ، ولا فى أن يترك بلاده ليسعى الى السيطرة على بلاد غيره ، أما بلاد اليونان فقد كانت بيئتها تختلف عن وادى النيل كل الاختلاف ، فهى بلاد فقيرة ، اضطر الفقر أهلها أن يهجروا بلادهم ، وأن يطمعوا فى بلاد الآخرين ، وأن يبتغوا بناء المجد فى أوطان غير وطنهم الأصلى . بل ان الفقر والأحداث شـملا مختلف نواحى الحياة فى البيئة فالتربة فقيرة يصعب استغلالها فى الزراعة . والنبات قليل يكاد يقتصر على الكروم وأشجار الزيتون والقليل من نباتات الشتاء ومراعيه . والماء ذاته قليل حتى لسقيا الانسان ، بحيث أن المدن القديمة كانت لا تسـتطيع أن تنمو الى أكثر من حد معلوم بحسب مورد المياه الجوفية حولها ، فاذا نمت وازداد سكانها فوق هذه الطاقة المعلومة وجبت عليهم الهجرة والتزوج ابتغاء الرزق فى غير بلاد اليونان ، ولقد سـهلت الطبيعة على أولئك الأغـريق القدماء أن ينتقلوا الى الخارج . فأحيطت بلادهم وجزرهم بالمياه التى تجرى فيها الرياح المعتدلة ، مما سهل على سفنهم نقل الأفواج المتلاحقة المتقاطرة من السكان الزائدين الى خارج بلادهم فى سيل لا ينقطع .

وهكذا خرج الأغريق القدماء من بلادهم وأنشـأوا سلسلة واسـعة النطاق من المستعمرات التى شملت سواحل البحر الأسود ، وسواحل بحر

ايجه وجـزره الـكثيرة • وبعض نقط فى الشرق الأدنى وفى مصر ذاتها • وامتدت تلك المستعمرات مع البحر الأبيض غربا الى سواحل ايطاليا وفرنسا واسبانيا وبعض نقط من الساحل الافريقى • وفى هذه الجهات جميعا اقتطع الاغريقيون القـدماء لأنفسهم من الأراضى ما أقاموا عليه مستعمراتهم ، وشرعوا فى استغلال موارد تلك المستعمرات ، كما امتدوا بنشاطهم التجارى الى ما حولها . فأصبحت كل مستعمرة تمثل نقطة ارتكاز يمتد عنها نشاط التجارة والتبادل والنقل البحرى والبرى فى أوسع نطاق • وتعلم الأغريق الأقدمون فى مستعمراتهم ، أن يستغلوا صلاتهم بغيرهم من الشـعوب ، وأن يستدروا خيرات هذه الشعـوب باسم التجارة • وأن يتخـذوا من مستعمراتهم قواعد للاستعمار والاسـتغلال الاقتصادى فى صورة جعلت استعمارهم القديم يعود عليهم بخيرات ومنافع وأرزاق ما كانت لتتـاح لهم لو أن الأمر اقتصر على مجـرد استغلالهم لبلادهم أو للنقط التى اشتملت عليها مستعمراتهم فيما وراء البحار •

وهكذا اتخذ اليونان التجارة حرفة مفضلة . ونبذوا غيرها من الحرف حتى فى بلادهم الأصلية • وعندما تجمعـت لهم الثروة عن طريق التجارة أخذوا يستخدمون غيرهم من أبناء الشعوب الأخرى ليقوموا لهم بالحرف الأخرى كالزراعة وغيرها من الأعمال اليدوية• وبذلك ظهرت ناحية اجتماعية وانسانية فى غاية الخطورة ، هى أن تجار اليونان القدماء أخذوا يستجلبون من مستعمراتهم وغيرها أفواجا من البشر ليعمـلوا فى الزراعة والأعمـال الأخرى فى بلاد اليونان الأصلية أو فى بعض المستعمرات ذاتها وظهرت فى المجتمع اذ ذاك ولأول مرة فى تاريخ الانسانية .. ظاهرة الرق ، وتكونت فى المدن اليونانية وفى المستعمرات طبقة من العبيد حرمت الجانب الأكبر من الحقوق الانسانية • وخصص أفرادها للقيام بالأعمـال والحرف التى ازدراها أولئك الاغريق القدماء .

وهكذا انتهت تلك الحضـارة الاغريقية القديمة وترتبت عليها ، بل وصاحبتها ظاهرة الرق التى تعتبر نقطة سوداء فى تاريخ الاغريق القدماء . وقد انطوى الرق على ظاهرة أشد خطورة وهى أن الانسانية أصبحت منذ ذلك الوقت منقسمة الى فريقين :

فريق السادة • وفريق العبيد • وبذلك أهدرت الكرامة الانسانية لطائفة من بنى البشر ، وارتدت الانسانية الى الوراء أجيالا رجعت بها الى الفطرة الأولى .

هؤلاء هم الأغريق القدماء الذين تعتبرهم أوربا الحديثة سلفها الصالح وأصلها العريق . فأى غرابة اذن فى أن يأتى الخلف الأوروبى الحديث على وتيرة الاستعمار الأغريقى القديم ؟ •

ولقد ورث الرومان الأغريق المباشرة — من حيث السيطرة — على حوض البحر المتوسط وتوسيع رقعة الاحتلال العسكرى والاستعمارى الى ما وراء شواطىء ذلك البحر متوغلين فى منطقة الشرق الأوسط بطريقة ترسمها بعض المستعمرين فى العصر الحديث . لاسيما أولئك الذين بنوا الامبراطورية البريطانية الحديثة . فنقلوا عن الرومان وسائلهم فى الاحتلال العسكرى ، بل انهم ركزوا احتلالهم وقواتهم فى نقط تعتبر مفاتيح الشرق الأوسط ، تماما كما فعل الرومان الأقدمون • والاستعمار الرومانى بدأ من روما ذاتها • وليس يهمنا التوسع الرومانى شمالا الى غرب أوربا والى الجزر البريطانية التى فتحها قيصر حوالى عام ٥١ ق•م• حيث وجد أهلها يعيشون فى عهد من الهمجية والفطرة الأولى • وانما يهمنا توسع الرومان فى حوض البحر المتوسط • وفى منطقة الشرق الأوسط بالذات • ومن أهم النقط التى احتلها الرومان ونشروا عليها سيطرتهم الاستعمارية • الساحل الشمالى لأفريقية . حيث كانت تقوم دولة قرطاجنة القديمة ، وقرطاجنة هذه انما تمثل حياتها وحضارتها جزءا أصيلا من الشرق الأوسط القديم . فان معالم المدنية الأولى انتقلت من مصر الى ساحل فينيقيا حيث تأثر الفينيقيون القدماء بثقافة مصر الفرعونية الأولى . وتوصلوا الى اكتشاف الكتابة . ثم نقلوا الحضارة والفكر بالبحر من هناك الى ساحل أفريقية الشمالية المواجهة لايطاليا •• وكان ذلك الاتصال القديم مظهرا من مظاهر انتشار المدنية الأولى وربط شرق البحر المتوسط بغربه برباط بدأ فى الشرق وامتاز بأنه رباط من الفكر والحضارة والثقافة قبل أن يكون رباطا من التوسع والسيطرة والسلطان .

فلما قوى سلطان روما غيروا هذه الطريقة السلمية من اتصال الشعوب بعضها ببعض — صلة ثقافية وكرامة واحترام متبادل — وعمدت الى أن تكون الحرب الطاحنة هى الوسيلة المعتمدة فى اتصال الشعوب بعضها ببعض . وخرجت روما القديمة الى سواحل افريقية المقاتلة . فنشبت الحرب على قرطاجنة القديمة وتعتبر فى واقع الأمر أول حرب همجية عرفها التاريخ . فهى قد امتازت بالقسوة البالغة . كما امتازت بأنها كانت حربا شاملة . لم ينج منها الأطفال ولا الشيوخ ولا النساء من أهل قرطاجنة . الذين عمدت روما القديمة الى محاولة ابادتهم ومحوهم من الوجود . وهكذا كانت روما القديمة المسئولة الأولى فى التاريخ عن تحطيم تقاليد الحضارة القديمة والسيطرة على الشعوب المجاورة بالقوة ، وبناء امبراطورية على أساس من القسوة والاستعباد ، والشىء الغريب — أو لعله ليس غريبا — أن هذا التقليد الجديد الذى وضعته روما فى ذلك الوقت قد عاد فتجدد فى العهد الحديث . عندما خرجت دول أوربا الجنوبية الى شمال أفريقية . بل تجدد بصفة خاصة عندما خرجت ايطاليا الفاشية بالذات فى عهد موسولينى . فعمدت الى أقسى الوسائل وأفظعها فى استعمار ليبيا ثم حافظت على كيانهم ومكنت لهم آخر الأمر من مقاومة الطغيان .

أما تاريخ روما الاستعمارى فى مصر وبلاد المشرق العربى ، فقد بدأت روما باحتلال مصر فى عام ٣٠ ق.م. ثم انتقلت قواتها منها وأخذت تحتل الشرق الأوسط رويدا رويدا ، ثم اتخذت لها قاعدة مكينة فى الأرض الواقعة الى شرق نهر الأردن ، تماما كما حدث فى عهد الامبراطورية البريطانية الحديثة عندما بدأ الانجليز باحتلال مصر فى عام ١٨٨٢ . ثم انتهزوا فرصة الحرب العالمية الأولى ، لينتقلوا بنفوذهم العسكرى واستعمارهم الى المشرق العربى ، ومن بلاد شرق الأردن القديمة انتشر الرومان ووسعوا نفوذهم نحو داخلية سوريا ، ونحو رأس الخليج العربى الذى يسميه بعض الناس بالخليج الفارسى ، ومد الرومان الطرق العسكرية التى امتاز بها حكمهم الاستعمارى القديم وأنشأوا لأنفسهم فى بلاد المشرق معسكرات واسعة النطاق عاش جنودها وقادتها على امتصاص دماء سكان البلاد الأصليين وارسال ما يفيض من أطماعهم الى عاصمة الامبراطورية فى

روما • وامتاز عهد الاستعمار الرومانى القديم فى مصر والمشرق العربى بأنه عهد استغلال اقتصـــادى ليس له نظير فى التاريخ الا ما امتاز به الاستعمار الأوربى الحديث فى هذه المنطقة من العالم . فمصر القديمة أصبحت مزرعة تصدر القمح وطيبات ما تنتجه أرضها الى رومـــا حيث بلغ مستوى معيشة سكان وادى النيل الى حد البؤس والتعاسة . ولعل هذا يذكرنا بما فعلته بريطانيا فى العهـــد الحديث حيث وجهت اقتصاديات مصر نحو انتاج القطن لتغذية مصانع المنسوجات فى بلادها دون نظر الى أن تنتج أرض مصر من المواد الغذائية وغيرها مما يرفع مستوى الرفاهية للسكان .

أما فى باقى بلاد المشرق العربى فقد اتخذت روما لها قواعد للتجارة كما مدت الطرق واعتبرت هـــذا المشرق قنطرة توصـــلها الى بلاد الهنـــد وجنوب آسيا • حيث نمت تجارة الرومان • واستغلت روما الموقع الجغرافى للمشرق العـــربى فى سبيل توسيع نطاق تجارتها القديمة • تماما كما فعل المستعمرون الأوربيون فى العهد الحديث •

مما سبق نرى أن الاستعمار الأوربى القديم هو نفس استعمار أوربا الحديثة فهى فى صـــلاتها بالشـــعوب الأخرى تعمـــد دائمـــا الى السيطرة والطغيان • ولا ترعى ما تقتضيه الانســـانية من رعاية لوجه الحق وتراحم بين الانسان وأخيه الانسان •• وأما الناحية الروحية والدينية التى غلبت على أوربا • فقد نشأت كلها مع المسيحية فى الشرق مهبط الوحى • ومن هنالك انتشرت المسيحية الى جنوب أوربا • فلاقت من العناء أشده • ومن الاضطهاد أعنفه . ومن الأهوال أعظمها وأقســـاها حتى أذن الله للمسيحية ولنور الشرق أن يغلب وأن ينتشر ، ولكن هـــذا التاريخ الذى عرفه فلاسفة أوربا وحكماؤها فى عهد النهضة الحديثة • وما جاء فى أعقابها قد أوقع فى نفوسهم شيئا من الشعور بأن أوربا لم يكن لها نصيب ظاهر فى تاريخ الفكر الانسانى وأن ما أصابته من هذا الفكر فى العهود اللاحقة انما جاء مستعارا من الشرق . ولقـــد كان أولئك الحكماء والفلاســـفة الأوربيون بشرا من الناس . فأحسوا بشىء من الحقد والغيرة . وتكشفت نفوسهم سوى قليل منهم عن مركب النقص وكأنى بهم قد أرادوا أن يتشفوا لهذا الماضى . وأن

يلبسوا أوربا ثوبا من القـوة يزيل عنها الشعور بالنقص ويعوضها عن ذلك عظمة الكبرياء الظاهرى . والتعالى المبنى على غير أساس . وقد انعكست صورة ذلك كله فيما كتبه بعض أولئك الحكماء والفلاسفة .

فقد كتب الكاتب المفـكر المعروف « منتسكيو » فى كتابه « روح القوانين » ، الذى ذاع صيته ، وعرف بأنه أساس من أسس الفكر الأوربى الحديث ، وشريعة من الشرائع التى تفتق عنها ذلك الفكر الأوربى لترسم طريق المعاملات بين الشعوب والأمم ،، فقد جاء فى أحد فصوله نص يظهر منه مبلغ الحقد الدفين والتشفى الظاهر وهو قوله : اذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدا . فاننى أقول : ان شعوب أوربا وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين لم يكن أمامها الا أن تستعبد شعوب افريقية لكى تستخدمها فى استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة . وما شعوب أفريقية الا جمـاعات سوداوات البشرة من اخمص القدم الى قمة الرأس . ذات أنوف فطساء الى درجة يكاد من المستحيل أن نرثى لها . وحاشا لله ذى الحكمة البالغة أن يكون قد أودع روحا . أو على الأخص روحا طيبة فى جسد حالك السواد ،

فى هذا النص وفى هذه الصيغة البشعة من الفـكر الأوربى الانانى الضيق ، صاغ هذا المفكر الأوربى ما جال بخاطره من فكر يتصل بفلسفة الاستعمار . وكأنى به قد أراد أن يعتذر عن خطيئة أبناء أوربا الذين عملوا على ابادة الهنود الحمر فى أمريكا الشماليـة ليحلوا محلهم فى أرض تلك القارة .. أراد أن يعتذر عن ذلك ، فأورد عذرا هو أقبح من الذنب . وكأنى به قد أراد أن يبرر استعباد الأوربيين لزنوج افريقية ، حين نقلوا بضـعة ملايين منهم من القارة الافريقية ليستخدموهم عبيدا فى تعمير أراضى هذه القارة الجديدة ، وفيافيها الواسعة ، فاعتـذر بأن ذلك كان أمرا ضروريا بعد أن أعمل الأوربيون فى أمريكا الشمالية وسائل التقتيل والافنـاء فى سكان القارة الأصليين ، فكأن أوربا التى أحالت الاستعمار الى معارك للافناء بالنسبة لسكان أمريكا من الهنود الحمر . لم تر بدا من أن تنقل زنوج افريقية بالجملة لتسخرهم عبيدا فى فلاحة الأرض التى أهلك الاسـتعمار سكانها الأصليين .

والشيء الغريب أن هذا اللون الخطير من الفكر الذى هو أبعد مايكون عن الرحمة والانسانية ، أو عن الوازع الانسانى الذى ينبع من الضمير ، هذا اللون من الفكر لم يكن مقصورا على مفكرى أوربا وفلاسفتها ، وانما امتد فيهم الى بعض رجال الدين فى أوربا فى ذلك العهد ، فبعض أولئك الرجال لم يتورعوا ، مع الأسف الشديد ، عن الانزلاق فى تيار مثل ذلك الذى سار فيه « منتسكيو » . ومن المتواتر فى بعض الكتب التى تستعرض الاستعمار الأول أن نقرأ من أولئك الذين كانوا يتصدون بغير حق الى قيادة حركة الاستعمار والتوسع باسم الدين ، كانوا يصفون الهنود الحمر بأنهم من سلالة الشيطان . بل كانوا يأمرون بالقضاء عليهم بمختلف الوسائل ومن ذلك نشر الأمراض الجديدة ونقل عدواها الى أولئك الهنود الحمر فتحصدهم أوبئتها ، وتطهر البلاد منهم فى غير شفقة أو رحمة .

ذلك لون من الفكر الأوربى الذى ظهر فى القرون التى تلت عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وهو لون لم تعهد الانسانية له شبيها من قبل ، اللهم الا فى بعض عهود الدمار القليلة كعهد التتار والمغول . وما أبعد هذه الروح التى اتصف بها الفكر الأوربى من الروح التى اتسمت دائما بالخير والرحمة والعدالة والاخاء .

وقد ظهر حديثا كتاب « الاستعمار الحديث » تأليف « هاريسون تشرتسن » الأستاذ بمدرسة الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن ، والكتاب يعتبر فتحا جديدا فى عالم اللغة البريطانية لأنه دراسة للتفاعل الذى يحدث بين مختلف الشعوب فى بوتقة الاستعمار من النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وهو مكتوب بلغة معقولة وغنى جدا بالأمثلة الواقعية ، ويتميز بروح حيادية الى حد كبير فى عرض مشاكل المستعمرات .

وأعتقد انه كان يجدر بالمؤلف أن يضيف الى كتابه هذا فصلا مستقلا يحلل فيه طبيعة الاستعمار مبينا فيه أن الاستعمار يحمل فى طياته عوامل فنائه . وآية ذلك أن الوعى القومى فى مختلف الأقاليم المستعمرة قد انتفض ماردا جبارا وعملاقا عاتيا يحطم معاقل الاستعمار ويدك حصونه ، واذا كان

لابد من استغلال الموارد العالمية بما يحقق الرفاهية البشرية فلن يكون ذلك عن طريق الاستعسار ، فقد محيت هذه الكلمة من قاموس السياسة وحلت محلها كلمة جديدة ألا وهى « التعاون الدولى » .

وقد لاحظت على المؤلف أنه متفائل فى اعتمـــاده على افريقيا كقلب الاستراتيجية الحديثة للدفاع عن الامبراطورية البريطانيـــة ، ناســـيا أو متناسيا أن الامبراطورية البريطانية قد غربت عنها الشمس وأصبحت فى ذمة التاريخ ، وأن السياسة الاستعمارية البريطانية الفرنسية فى افريقيا قد خلقت من الأصدقاء أعداء .

وفضلا عن هذا فان افريقيا قد رسمت لنفسها سياسة جديدة هى أن افريقيا للأفريقيين . وكل هذا يهدم الأسانيد التى اعتمد عليها .

ومما قاله الســـيد محمـــد عبد القـــادر حاتم فى ندوة اتحاد العلوم السياسية ، وكان رئيسا لها ، فى تصفية الاستعمار : من الغريب أن يكون الاستعمار لا خلاف على تعريفه ، بينما الاســـتقلال الخلاف واضح على تفسيره . وقد وجدنا تعاريف مختلفة للاستقلال ، بعيدة عن فهمنا وادراكنا ولا تتفق بأية حال من الأحوال مع نفسية شعوبنا .

بل ان الاستقلال ، كما يفسرونه ويعرفونه ، هو أخطر من الاستعمار ... بل الاستعباد بعينه . ففى نظرهم أن الدولة المستقلة هى التى لها تمثيل دبلوماسى والتى يطلق عليها الاستعمار أنها مستقلة .

وفى نظرهم أيضا أنه لا ينتقص من استقلال الدولة اذا كانت مرتبطة بأحلاف عسكرية أو أنشأ الاستعمار بأراضيها قواعد جوية ، أو أصبحت مكبلة بمواثيق غير متكافئة سياسيا .

وعلى ذلك ، وبناء على تعريفهم هنا ، فهم يعترفون بصريح العبارة أن الاستقلال معناه أن تكون الدولة رقما شائعا فى الأمم المتحدة . والاستقلال بهذا التفسير فى نظرنا هو جريمة الجرائم ، فلا عقل بيننـــا يقبله أو منطق يبرره ، لأنه وان كان يسمى فى عرفهم بالاستقلال ، الا أنه أخطر بمراحل عدة من الاستعمار . والخطورة فى الاســـتقلال الناقص هو أنهم يوحون

اليك بأنك مستقل على حين أنك لا تشـعر « بأنك مسـتقل » ولا تحس بالاستقلال فى شيء .

فالدولة المستعمرة تشعر بأن عدوها هو الاستعمار . ولذلك تعمل على القضاء عليه قبل أن يقضى عليها ، فلا تترك السلاح ، أو تنتهى من الكفاح ، حتى تنال استقلالها كاملا غير منقوص .

أما الدولة التى خدعت بأنها مستقلة ، وما هى بالمستقلة ، فانها تلقى السلاح وتميل الى الاستكانة والتواكل ، ولا تحاول النضال فى سبيل الحصول على حريتها الحقيقية . وبذلك يتمكن الاستعمار منها ويقضى عليها ان آجلا أو عاجلا قضاء مبرما ، والعدو فى الدولة الناقصة الاستقلال ليس المستعمرين فقط بل أيضا هم أعوان الاستعمار . وهنا الخطورة ، فهؤلاء فى ظننا أنهم منا .. وفى الحقيقة ما هم الا سيف مسلط علينا .

ولذلك فالاستقلال حينما نفسره على هدى ماضينا وما قاسـيناه من آلام . وعلى تجارب حاضرنا وما مر بنا من أحداث . وعلى ضوء مستقبلنا وما نهدف اليه من آمال — هو حالة نفسية قبـل أن يكون حالة سياسية — لأننا نريد أن نشعر بأننا مستقلون حقا .. ونحس بأن الدفاع عن المنطقة ينبثق من نفس المنطقة ، واننا نحن الذين ندافع عن أنفسنا بدمائنا وحياتنا ونفتدى استقلالنا بكل أموالنا وأرواحنا .

وليعذرونا ، اذا كنا لا نثق الا فى أنفسنا ، فتاريخنا طويل مع الاستعمار وشهداؤنا كثيرون بسبب الاستعمار . فقد رأينا مرارة الاستعمار ، وعشنا فى استقلال منقوص وخدعنا بمعاهدات الشرف والاسـتقلال ، وشاهدنا الغدر وكيف كان الحلفاء معنا بمعاهدات الصداقة يقتلون أطفالنا ونساءنا .. وكم من مرة حاول المستعمرون اذكاء نار الثورة بيننا .. ليرقصوا على لهيبها ، وكم من مرة حاولوا اثارة أشجان الأمة ليفرحوا بنحيبها ، واليوم يحاولون أن يهدموا معالم القومية العربية ليقيموا نفوذهم واستعمارهم على أنقاضها وأشلائها .

هذا هو تاريخنا ومنه نفسر استقلالنا ، فاننا لا نريد من الاستقلال المظهر ، بل اننا تتمسك بالجوهر قبـل المظهر ، ولذلك فنرغب أن نقول ولا تتعب من القول فى تعريف استقلالنا ، لعلهم يأخذون من كل هذا حكمة فى هديها يسيرون .. أو أنهم يجدون عبرة بها يعتبرون .

وأخيرا .. نقول لهم كلمة صريحة واضحة وهى أنه أصبح اليوم لا يوجد بيننا عبيد حتى يمكن أن ينصبوا أنفسهم علينا أسيادا .

وهذه صفحة أخرى من التـاريخ ولكنها تأتى من الشرق وتختلف اختلافا تاما عن صورة التوسع الأوربى القديم أو الحديث ، لأنها تعيد الينا ذكرى روح الشرق التى بدأت فى مصر القديمة عندما جمع المصريون من القوة والسلطان ما كان يتيح لهم أن يطغوا على العالم من حولهم ، ولكنهم مع ذلك تعلموا ضبط النفس ، ووجهوا صـلاتهم بجيرانهم وجهة الخير . وتبادل الثقافة والمنافع المادية ، دون أن ينزلقوا الى ما انزلق اليه اليونان والرومان .

هذه الصفحة تتصل بالعرب الذين كتب لهم أن يرثوا ملك الرومان وملك الفرس ، ولكنهم مع ذلك حين توسعوا لم يتصف توسعهم من قريب ولا من بعيد بصفة الاستعمار أو الاستغلال أو السيطرة أو الطغيان . ولا شك أن العرب قد اختلفوا عن غيرهم من الأمم فى أمر بالغ الأهمية ، ذلك أنه عندما آن الأوان لتجتمع للامة العربية أسباب القوة والسلطان ، ظهر فى العرب دين جديد ، بشر صاحبه بروح الاخاء والمساواة ، كما بشر بأنه لا تفرقة بين الانسان وأخيه الانسان الا على أساس الايمان والتقوى . أما الجنس أو السلالة ، وأما اللون .. فهى كلها أمور ومقاييس لا يجـوز أن تجرى على أساسها المفاضلة بين الأفراد ولا بين الشعوب . وكان هذا المبدأ مبدءا خلقيا ساميا لم يسبق له نظير فى التاريخ كله . بل كان هذا المبدأ ثورة على ما تعارف عليه العـالم القديم فى عهود اليونان والرومان والفرس . ولذلك فان العرب عندما خرجوا برسالتهم الى العالم الخارجى ، وبدءوا ينشرون لواء الاسلام فى الشرق والغرب اضطروا الى محاربة حـكومات الطغاة التى كانت تسيطر على البلدان المجـاورة لهم ، ولكن شعوب تلك

البلدان ، على النقيض من ذلك ، وجدوا فى العرب ورسالة الاسلام التى يحملونها مخرجا مما كانوا فيه من شدة ، وملاذا مما فرض عليهم من طغيان. فرحبوا بالرسالة الجديدة وبلواء الاسلام الذى أظلهم بما نشر فى آرجاء المشرق القريب من حرية ومن اخاء ومن مساواة . وحتى الشعوب آو العناصر التى لم تقبل الاسلام أو التى لم تدخل فيــه الا رويدا رويدا .. حتى هذه العناصر لم يكن تحمسها للتخلص من العهود الاستعمارية الغابرة ، والنصرة للعهد العربى الجديد بأقل من تحمس الشعوب والعناصر التى اختــارت الاسلام ودخلت فيه عن رغبة وطواعية .

وهكذا اختلف العهد العربى الاسلامى عما سبقه من عهود ، فجاء عهدا ذا رسالة ، وتخلص أصحابه من وصمة الاتصاف بالقوة الغاشمة التى لاتعرف غير السيطرة والطغيان والاستعمار .

ويهمنا فى هذه المناسبة أن نشير الى حقيقتين تعتبران فى غاية الأهمية بالنسبة لمن يستعرض تاريخ التوســع العربى ليقــارن بينه وبين التوسع الاستعمارى الأوربى القديم والحديث ، وليبرز ما هنالك من فروق أساسية بين العرب وأهل أوربا حين أتيحت لكل منهما أسباب القوة والتوسع .

فأما الحقيقة الأولى فهى أن العرب حين توسعوا فى بلادهم لم يعملوا على أن يكونوا هم السادة فى الجهات التى توسعوا فيها ، ذلك أن الاسلام ذاته قد هذب نفوسهم وكبح غرائزهم ووجهم وجهــة الخير والانسانية . فهم لم يكونوا فاتحين ولا غزاة بقدر ما كانوا دعاة ومبشرين بعهد جديد . ولذلك فان العرب لم يصروا حين خرجوا من جزيرتهم على أن تكون لهم السلطة أو يتركز فى أيديهم السلطان .

وسرعان ما سمحت نظم الحكم الاسلامى ، وأوضاع الشريعة الجديدة لسكان البلاد الأصليين فى البلاد التى فتحها العرب أن يحتفظوا لأنفسهم بالسلطة الفعلية فى بلادهم . وهكذا ظهرت عناصر جديدة من غير العرب الأصليين ، بل من سكان البلاد المفتوحة ومنها ايران وأطراف الامبراطورية البيزنطية ، وجمعت هذه العناصر من أسباب القوة والسلطة فى بلادها ما لم يتيسر للعرب أنفسهم ، ولن نستطيع أن نجد لمثل هذا الذى حدث فى أيام

الامبراطورية العربية الاسلامية نظيرا لا فى عهد الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولا فى عهد الامبراطوريات الأوربية الحديثة من فرنسية وبريطانية وغيرها ... حين خرج الأوربيون ليسيطروا على المستعمرات ، وليحولوا بين أبنائها وبين أن ينالوا حظا من التعليم أو فرص الحياة التى تتيح لهم أن ينافسوا أبناء الدولة المستعمرة أو يشاركوا معهم فى الجاه أو السلطان.

وأما الحقيقة الثانية التى ينبغى ألا تغيب عنا والتى طمستها — للاسف الشديد — أغلب الكتب والمراجع الافرنجية التى تصدت للكتابة عن تاريخ العرب والاسلام ، فهى أن الاسلام متهم بأنه دين انتشر بالقوة وبحد السيف . وليست هناك تهمة أبعد عن الحق وأوغل فى البهتان من هذه التهمة الباطلة . فالاسلام بحكم أصوله المقررة لا يمكن أن يفرض على الأفراد أو على الشعوب . بل انه دين يقوم على أساس انعدام الاكراه وعلى ترك الحرية المطلقة للناس ، ليدخلوا فيه بمحض اختيارهم ، واننا اذا رجعنا الى التاريخ العسكرى ذاته لانتشار الفتوح العربية الأولية لوجدنا أن بعض الفتوح التى تمت كانت القبائل العربية تشترك فيها بصرف النظر عن دياناتها . وهناك من الأدلة القاطعة ما يثبت أن بعض القبائل العربية التى احتفظت بمسيحيتها ولم تدخل الاسلام كانت تدخل جنبا الى جنب مع القبائل العربية التى أسلمت .

وفوق ذلك اذا ما استعرضنا تاريخ التوسع الاسلامى وانتشاره كدين جديد فى جهات واسعة من العالم كداخلية آسيا وشرقها ، أو كالمحيط الهندى وجنوب شرق آسيا وأندونيسيا ، فاننا لا نلبث أن تبهرنا الحقيقة الكبرى وهى أن الاسلام لم ينتشر فى هذه البلاد بحد السيف . ولا فى ظل الامبراطورية العسكرية ، وانما انتشر كدين سمح بشر به أبناؤه من التجار والملاحين وغيرهم . وكان تبشيرهم بالدين الجديد خالصا لوجه الله ، وخاليا من كل غرض استعمارى ، فهو تبشير يختلف اختلافا تاما عما نراه من نشاط المبشرين الأوربيين فى افريقية وغيرها فى العهد الحديث . أما داخلية آسيا فان الثابت أن الاسلام انما انتشر فيها فى وقت هبطت فيه القوة العسكرية العربية وانكسرت فيها شوكة العرب من الناحيتين العسكرية والسياسية

عندما خرج المغول من أطراف الصين ، وفتحوا العالم الاسلامى ودوخوا دول العــرب والمسلمين فى غرب آســيا وحطموا بغــداد وغيــرها من مراكز الفكر والثقافة الاسلامية فى ذلك العهد . ومع ذلك لم يلبث الاسلام أن فتح قلوب المغول فى أواسط آسيا فانتشر بينهم وبلغ مشارف الصين الشمالية ، وهكذا جاء انتشــار الاســلام فى هذا الجزء من العالم القديم معاصرا لعهد من عهود ضعفه العســكرى ، مما ينفى عن العرب والاسلام صفة التوسيع ونشر الثقافة بحد السيف ، كما تحاول الدول الاستعمارية الأوربية الحديثة لصقه به . كما هو مبين بالفصل الثانى .

الفصل الثانى
دين السلام

امتازت الدعوة الاسلامية من بين الأديان السماوية ، بأنها دعوة الفطرة والعقل .. فهكذا كان الاسلام ورسوله الذى أرسل بالحق والهدى بشيرا ونذيرا .. فميزان صحة هـذا الشرع الحنيف وقسطاسه المستقيم . هو أن جميع ما جاء به من الأحكام والقوانين . وضروب المواعظ والارشاد ليس منها ما ينافى العقل الصحيح ، ولا تأباه النفوس السليمة . اذن فما كان له أن يتأيد بما ليس من حدوده ولا أن يطابق ما ليس على شاكلته .

ولقد اتهم كثير من المبشرين والمستشرقين بأن دعوة الرسول الى دين الاسلام ما كانت تنتشر لولا السيف .. وهو قول يصح فى هذا الدين اذا أراد قائله أنه دين يفرض الجهاد ، ومنه الجهاد بالسلاح ، ولكنه غلط بين اذا أريد به أن الاسلام قد انتشر بحد السيف أو أنه يضع القتال فى موضع الاقناع ..

فقد قال الكاتب « واشنجتون ايرفنج » وهو من أعلام الكتاب الذين فاخرت بهم الولايات المتحدة الأمريكية غيرها من الأمم فى القرن التاسع عشر المسيحى . وقد كتب سيرة النبى العـربى فى كتاب عرض فيه هذه السيرة عرضا فيه قوة بيانية تملك قارئه فى كثير من أجزائه • وفيه الى جانب هذه القوة انصاف أحيانا وتحامل أحيانا أخرى . وقد وضع للكتاب خاتمة عرض فيها لقواعد الاسلام وما حسبه المصادر التاريخية التى استندت اليها هـذه القواعد وفى مقدمتها الايمـان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، قال : القاعدة السادسة والأخيرة من قواعد العقيدة الاسلامية هى الجبرية . وقد أقام « محمد » اعتماده على هذه القاعدة لنجاح شئونه الحربية .

كما فطن لسخف هذا الادعاء . كاتب غربى كبير هو « توماس كارليل » صاحب كتاب « الأبطال وعبادة البطولة » فانه اتخذ « محمدا » مثلا لبطولة

النبوة وقال ما معناه : ان اتهامه بالتعويل على السيف فى حمـل الناس على الاستجابة لدعوته سخف غير مفهوم . اذ ليس مما يجوز فى الفهم أن يشهر رجل فرد سيفه ليقتل به الناس أو يستجيبوا لدعوته . فاذا آمن به من يقدرون على حرب خصومهم فقد آمنوا به طائعين مصـدقين وتعرضوا للحرب من أعدائهم قبل أن يقدروا عليها ..

فهذه العبارة من كلام « ايرفنج » التى يعـيرنا بمثلها الغرب هى عار الغرب ووصمته وجرثومة القضاء على كبريائه ، وعلى حضارته .

يقول « ايرفنج » ان بقاء الهلال حتى اليوم فى أوربا حيث كان يوما ما بالغا غاية القوة . انما يرجع الى اختيار الدول المسيحية الكبرى . أو يرجع بالأحرى الى تنافسها . ولعل الهلال باق ليكون دليلا جديدا على أن « من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ » . وهى آية فى الانجيل . يوجهها ايرفنج باسم المسيحية الى الاسلام . ولعله معذور ، لأنه قال ذلك منذ قرن مضى حيث لم ير مبلغ شره وجشع الاستعمار الغربى ومن الأخذ بالسيف ما بلغ اليوم .

وقد استولى الماريشال « اللنبى » على « بيت المقدس » فى عام ١٩١٨ باسم الحلفاء ، وقد قال مثل هذه العبارة اذ نادى عند هيكل « سليمان » : اليوم انتهت الحروب الصليبية .. كما قال الدكتور « بيترش سميث » فى كتابه عن سيرة « المسيح » : ان هذا الاستيلاء على « بيت المقدس » كان حربا صليبية ثامنة أدركت المسيحية فيها غايتها .. ولقد يكون من الحق أن هذا الاستيلاء لم ينجح بمجهود المسيحيين ، وانما نجح بمجهود اليهود الذين سخروهم ليحققوا حلم اسرائيل القديم فيجعلوا من أرض المعاد وطنا قوميا لليهود .

من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ــ لئن صدقت كلمة الانجيل هذه على قدمها لهى أشد ما تكون صدقا اليوم على أوربا المسيحية . أما الاسلام فلم يأخذ بالسيف . ولن يؤخذ كذلك بالسيف كما سـنبين ذلك بعد . وأوربا المسيحية قد أخذت بالسيف فى هذا العصر الأخير امعانا فى الاباحية والترف.

فما ينسبه « ايرفنج » للاسلام والمسلمين باطل .. وأوربا المسيحية تقوم اليوم بالدور الذى قام به المغول والتتار حين اتشحوا ظاهرا برداء الاسلام ثم

منحوا الممالك دون أن يعبئوا بتعاليم الاسلام فيها . فحقت عليهم وعلى المسلمين الكلمة . وكان هذا التدهور والانحلال الذى أصاب الشعوب الاسلامية وأوربا المسيحية اليوم أقل فضلا من أولئك التتار والمغول . فالممالك التى فتحها هؤلاء سرعان ما دخلت فى الاسلام حين رأت عظمته وبساطته .

أما أوربا فلا تغزو لتنشر عقيدة . ولا تدعو الى حضارة . انما هى تريد استعمارا وتريد أن تجعل من العقيدة المسيحية مطية هذا الاستعمار . لذلك لم تنجح الدعاية التبشيرية الأوربية لأنها دعاية غير مخلصة . وهى لم تنجح ولن تنجح فى الأمم الاسلامية خاصة لأن عظمة الاسلام وبساطته وأخذه بحكم العقل والعلم لا تجعل لأية دعاية دينية أملا فى النجاح بين أبنائه .

فالاسلام دين سلام . لم يجند القوة ولم يدع للحرب . بل انه دعا للسلم دائما وأبدا .. فيقول المولى عز وجل فى قرآنه : « وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله انه هو السميع العليم » (الأنفال) . ذلك أن آيات القرآن الكريم جميعها ناطقة صراحة بأنه « لا اكراه فى الدين » وأن الرسول غير مكلف بشىء سوى التبليغ المبين . والتذكير بآيات الذكر الحكيم : « فذكر انما أنت مذكر » . و « لست عليهم بمصيطر » .

وهل كان للرسول أن يقوم فى قومه مقام الجبارين فيقتلهم أو يحرقهم لمجرد اعراضهم عن دينه بعد قول الله تعالى : « نحن أعلم بما يقولون . وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .. والواقع الثابت فى أخبار الدعوة الاسلامية . أن المسلمين كانوا هم ضحايا القسر والتعذيب قبل أن يقدروا على دفع الأذى من مشركى قريش فى مكة ، فهجروا ديارهم ، وتغربوا عن أهليهم حتى بلغوا الى الحبشة فى هجرتهم . فهل يأمنون على أنفسهم فى مدينة غريبة قبل التجائهم الى يثرب واقامتهم فى جوار أخوال الرسول . ولم يعمد المسلمون قط الى القوة الا لمحاربة القوة التى تصدهم عن الاقناع فاذا رصدت لهم الدولة القوية جنودها حاربوها لأن القوة لا تحارب بالحجة والبينة . واذا كفوا عنهم لم يتعرضوا لها بسوء .

لذلك سالموا الحبشة ولم يحاربوها ، وحاربوا الفرس لأن كسرى أرسل الى عامله فى اليمن يأمره بتأديب النبى أو ضرب عنقه وارسال رأسه اليه . وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم الى « تبوك » وعادت السرية بغير قتال حين وجدت فى « تبوك » أن الروم لا يتأهبون للزحف على بلاد العرب ذلك العام .

لم يفاتح النبى أحدا بالعداء فى بلاد الدولتين . انما كتب الى الملوك والأمراء يبلغهم دعوته بالحسنى ، ولم تقع الحرب بعد هذا البلاغ بين المسلمين وجنود الفرس والروم الا بعد تحريضهم القبائل العربية فى العراق والشام على غزو الحجاز واعدادهم العدة لقتال المسلمين . وقد علم المسلمون باصرارهم على اغتنام الفرصة العاجلة لمباغتتهم بالحرب من أطراف الجزيرة . ولولا اشتغال « كسرى وهرقل » بالفتن الداخلية فى بلادهما لبوغت المسلمون بتلك الحرب ، قبل أن يتأهبوا لمدافعتها والتحصن دونها .

وفى الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وقبائلها الا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة الى اتقاء الهجوم المبيت فى أرض تلك القبائل . كانت العداوات سافرة بين المسلمين ومشركى قريش لا يكتمها المشركون . ولا يواربون فيها ولا يخفون أنهم عقدوا النية على الايقاع برسول الله — صلى الله عليه وسلم — وأصحابه وفض العرب من حوله وايذاء كل من يدخل منهم فى دينه ، فلم تكن بين المسلمين والمشركين حالة غير حالة الحرب الا فى أيام صلح الحديبية . ثم عادت الحرب سجالا بين الفريقين حتى فتح مكة وانتقلت الحرب من قتال سافر بين المشركين والمسلمين الى قتال بالدس والمكيدة بين هؤلاء وزمرة المنافقين . وقد حرص الاسلام على تسمية كل عدو من أعدائه باسمه لا يعدوه ولم يخلط بين حرب الشرك وحرب النفاق لأنه لا يحاسب على العداوة بالنيات كما يحاسب على العداوة بالأعمال .

أما قبائل الجزيرة العربية فى غير قريش فلم يحاربهم الاسلام الا حرب دفاع أو حرب مبادرة لاتقاء الهجوم من جانبها .

هذا حق السيف كما استخدمه الاسلام فى أشد الأوقات حاجة اليه . حق السيف مرادف لحق الحياة . وكلما أوجبه الاسلام فانما أوجبه لأنه مضطر

اليه والا فانه مضطر الى التخلى عن حقه فى الحياة وحقه فى حرية الدعوة والاعتقاد . فلم يكن الا درءا للعدوان والافتيات على حق الحياة وحق الحرية فالاسلام فى كلمتين هو دين السلام . وهو دين الفطرة ومجموع الكمالات القدسية والآداب الالهية وليس بذلك الذى يتذرع اليه بالقسوة والغلظة . ويروج فى العالم بالسيوف والنيران .

ومن الأوليات المسلمة أن العقائد لا تتكون فى نفوس العقلاء بالقوة والقهر ، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس الا بها . فمنها البرهان العقلى ، والخطابة والشعر والتقليد . ولكل من هذه الأنواع تأثير فى نفوس الناس بمقدار ما فيهم من العقول والتجارب والذكاء والتحصيل . وانما اعتبرنا التقليد من وسائل اليقين ، لما نعلمه من أن من العامة من لا يكاد يمكن زحزحته عن عقيدته التى ورثها بمحض التقليد والاقتداء . ولو كانت غير معقولة ، ومنافرة للعقل السليم . وأقرب دليل على ذلك ما عليه النصارى من عقيدة التثليث . وقولهم ان « عيسى » صلب ليفتدى أتباعه بدمه . وليكفر عن العالم جميعه ما ورثوه كرها من سيئات آدم أبى البشر . وهكذا من العقائد غير البينة ، كذلك من عامة المسلمين من لايمكن أن يتطرق الشك والمرية الى عقيدته على جهله . وعدم تحصيله وقصور عقله . وما هو سوى قول تلقفه ممن يثق به . أو أمة وجد عليها آباءه فاقتفى فيها آثارهم .

ما كان للعقائد أن تتكون بالارغام والقهر . ولا للاسلام الذى هو دين البحث والنظر أن يقول بقتل من لا يدينون به ممن قصرت عقولهم عن ادراكه ، أو تزاحمت عليهم الشكوك والشبهات حتى عجزوا عن صدها ومدافعتها .

أما المشركون وأهل الكتاب فقد أرتنا السنة المطهرة والقرآن الكريم الحكيم أن الرسول قد اكتفى منهم فى حقن دمائهم واحترام حقوقهم بالجزية اذا أبوا الاسلام يدفعونها فى سبيل حماية أرواحهم وأموالهم واستمتاعهم بما للمسلمين وما عليهم . فهم اذا ما دفعوها كان لهم ما للمسلمين من الحقوق ، وعليهم منها ما عليهم .

فدعوة المسلمين الى القتال والحرب فى القرآن انما كانت لرد الاعتداء. وليست للاعتداء فيقول الله : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (البقرة) .. ويقول كذلك : « ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين » . ويقول المولى جل وعلا : « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » .

ويقول سبحانه وتعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين » (التوبة) « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (البقرة) .

كذلك لم يحبذ الاسلام القسوة مطلقا ولم يدع المسلمين الى الاعتداء . فقد تكررت الآيات التى تنهى عن الاعتداء مثل : « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » (البقرة ٩٠) .. وقوله : « ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين » (الاعراف ٥٥) — و « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب » (سورة ق — ٢٤ ، ٢٥) .

أليس فى هذا ما يدحض قول خصوم الاسلام ويظهر كذب قولهم بأن الاسلام قد انتشر بحد السيف ، وأن القوة التى صاحبت دعوته هى التى عملت على نشره فى العالم .. فالقول : من أخذ بالسيف فبالسيف يؤخذ ، حق . وهو ان انطبق على المتأخرين من المسلمين الذين غزوا ليفتحوا الممالك وليستعمروا لا ليدفعوا عن أنفسهم وعن عقيدتهم لهو اليوم أشد انطباقا على الغرب الذى يغزو ويفتح ليذل الشعوب ويستعمرها ..

فأما المسلمون الأولون من عهد النبى وخلفائه ومن جاءوا بعدهم فلم يغزوا للفتح والاستعمار ، وانما غزوا دفاعا عن عقيدتهم حين هددتها قريش وحين هددها العرب ثم حين هددها الروم ، وهددها الفرس . وهم فى هذا الغزو لم يفرضوا على أحد دينهم . فلا اكراه فى الدين . وهم فى هذا الغزو لم يقصدوا الاستعمار مطلقا .

فقد ترك الرسول ملوك العرب وأمراءها على اماراتهم وممالكهم ، كى تتحقق حرية الدعوة والعقيدة . ولما كانت العقيدة الاسلامية قوية بالحق الذى

تنادى به . قوية بأنها لا تجعل فضلا لعربى على عجمى الا بالتقوى . وبأنها لا تجعل لغير الله على الانسان سلطانا . أسرعت الى الانتشار فى ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة الى الانتشار . فلو ألقينا نظرة عامة على خريطة العالم فى الوقت الحاضر لعلمنا أن السيف لم يعمل فى انتشار هذا الدين الا القليل مما عمله الاقناع والقدوة الحسنة ، فان البلاد التى قلت فيها حروب الاسلام هى البلاد التى يقيم فيها اليوم أكثر مسلمى العالم ، وهى بلاد أندونيسية والهند والصين ، وسواحل القارة الافريقية وما يليها من سهول الصحارى الواسعة ، فان عدد المسلمين فيها قريب من أربعمائة مليون . ولم يقع فيها من الحروب بين المسلمين وأبناء تلك البلاد الا القليل الذى لا يجدى فى تحويل الآلاف عن دينهم بله الملايين . ونقارن بين هذه البلاد والبلاد التى اتجهت اليها غزوات المسلمين لأول مرة فى صدر الدعوة الاسلامية : وهى بلاد العراق والشام فنجد أن عدد المسلمين فيها اليوم قلما يزيد على عشرة ملايين يعيش بينهم من اختاروا البقاء على دينهم من المسيحيين واليهود والوثنيين أو أشباه الوثنيين .

ومن المفيد فى هذا الصدد أن نعقد المقارنة بين البلاد التى قامت فيها الدولة الاسلامية والبلاد التى قامت فيها الدول المسيحية من القارة الأوربية. فلم يبق فى هذه القارة أحد على دينه الأول قبل دخول المسيحية . وقد أقام المسلمون قرونا فى الأندلس وخرجوا منها وأبناؤها اليوم كلهم مسيحيون .

فلما جاء المتأخرون ممن دخلوا فى الاسلام وغزوا للفتح وأخذوا بالسيف أخذو من بعد ذلك بالسيف .. لكن الاسلام لم يأخذ ولن يؤخذ بالسيف .. حقا لم يأخذ بالسيف شيئا قط ، بل استولى على العقول والقلوب والضمائر بقوة سلطانه . وقد تعاقبت على أممه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها : فلم يغير ذلك من اسلامها ولا غير من ايمانها ..

وما تزال أوربا الى اليوم تحكم بعض الشعوب الاسلامية وتتحكم فيها . ولن يغير ذلك من ايمانها بالله شيئا .

وظل النبى يدعو ويجاهد فى سبيل الله متحملا الايذاء وصابرا على مساءات الكفار ثلاث عشرة سنة حتى بدأ يفكر فى رد العدوان ..

ويقول « بودلى » فى ذلك : كان القرشيون أنفسهم سببا من الأسباب التى دفعت « محمدا » الى الالتجاء للقوة ، اذ استمر عداء أبى جهل « لمحمد » فى درجة الغليان . فقد كان يغير على جماعات المسلمين المتحركة باستمرار ويقاتل أية جماعة منعزلة يكسن لها . وقد أغار على ضواحى المدينة، وأتلف الزرع والحدائق ، فأظهر « لمحمد » أن شعوره لم يتبدل وأن هدفه لا يزال قتله ، فلم يكن هنالك الا حل واحد من وجهة نظر الجانبين وهو القتال ..

ويقول « جيمس متشنر » فى مقاله « اخترت الدفاع عن الاسلام » : لم يحدث فى التاريخ أن انتشر دين بهذه السرعة . فعند وفاة « محمد » سنة ٦٣٢ ميلادية . كان الاسلام يحتل جانبا كبيرا من شبه الجزيرة العربية . ولم يلبث بعد ذلك أن ضم اليها « سوريا » وبلاد الفرس ومصر والتخوم الجنوبية لروسيا وامتد الى شمال افريقيا حتى بلغ مداخل اسبانيا وفى الزمن الذى جاء بعد ذلك كان تقدم الاسلام باهرا . واعتقد الغرب أن توسع الاسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون الى السيف . ولكن .. الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى . فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة والدليل قوى على أن الاسلام رحب بشعوب مختلفة الأديان ما دام أهلها يحسنون المعاملة ويدفعون الجزية .

وقد حرص « محمد » على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب .. أى اليهود والنصارى . ولا شك أن حروبا قد نشبت بين المسلمين وغيرهم من النصارى واليهود فى بعض الأحيان . وكان سبب ذلك أن أهل هذه الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب. ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة . وكانوا أحرارا فى عبادتهم .. ومما يؤكد صحة هذا القول ان الاسلام أمر بأن تكون الدعوة له بالسلم وليست بالحرب . ولم يشرع الزام الناس بالاسلام بالقوة . فمن تعاليمه الواردة فى القرآن الكريم : « من اهتدى فانما يهتدى لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها » . و « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

ومما كتبه الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » فى كتابه « حقائق الاسلام وأباطيل خصومه » : وشمول العقيدة الاسلامية هو الذى حقق للاسلام ما لم يتحقق لعقيدة غيره من تحويل الأمم العريقة التى تدين بالكتب المقدسة الى الايمان به عن طواعية واختيار . كما آمنت به الأمم المسيحية والمجوسية والبرهمية فى مصر وسوريا وفارس والهند والصين . ولقد عزى انتشار الاسلام فى صدر الدعوة المحمدية الى قوة السيف . وما كان للاسلام يومئذ من سيف يصول به على أعدائه الأقوياء . بل كان المسلمون هم ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت . وان عدد المسلمين اليوم من أبناء الهند والصين وأندونيسية ، والقارة الافريقية ليبلغ تسعة أعشار المسلمين فى العالم أجمع . وما روى لنا التاريخ من أخبار الغزوات الدينية فى عامة هذه الأقطار ما يكفى لتحويل الآلاف المعدودة ، فضلا عن مئات الملايين ، من دين الى دين .. ذلك روح الاسلام فى العلاقة بين المسلم وسائر بنى الانسان تشف عنها كل آية وردت فى القرآن الكريم عن حكمة الاجتماع من أكبر الجماعات الى أصغرها ومن جماعة النوع الانسانى فى جملته الى جماعة الأسرة . وطبيعة الاجتماع فى كل مخلوق انسانى منذ تكوينه فى أصلاب آبائه وأجداده . فما هى حكمة الاجتماع فى الشعوب والقبائل ؟ . وما هى حكمة الاجتماع فى بنيان الأسرة ؟ وما هى حكمة الاجتماع فى خلق الانسان فى بطن أمه ؟.. حكمتها كلها فيما يتعلمه المسلم من كتابه أنها وشيجة من وشائج المودة والرحمة . وسبيل الى التعارف والتقارب بين الغرباء . فالتعارف هو حكمة التعدد والتكاثر بين الشعوب والقبائل من أبناء « آدم وحواء » . « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (الحجرات) والمودة والرحمة هى حكمة الاجتماع فى الأسرة : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة »

والنسب هو حكمة الاجتماع من خلق الانسان منذ تكوينه فى صلب أبيه : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا » (الفرقان) ..

والمؤمنون اخوة ، والناس اخوان من ذكر وأنثى . وشر ما يخشاه الناس من رذائلهم أنها تلقى بينهم العداوة والبغضاء : « انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر » (المائدة) .

والعداوة والبغضاء هما الجزاء الذى يصيب الله به من ينسون آياته ويكفرون بنعمته وهما الجزاء الذى أصاب الله به أهل الكتاب بعد ما جاءهم من البينات فضلوا عن سوائه . ولم يبق لهم من دينهم غير اسم يدعونه : « ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة » (المائدة) .. مما سبق نجد أن المودة والرحمة كلمة الله فى خلقه . وان العداوة والبغضاء عقاب لمن يضلون عن حكمته ومغبة السوء التى تستدرجهم اليها الرذيلة والمعصية . ومن آمن بالله على هدى هذا الدين فقد آمن باله يرضيه من عباده أن يسلكوا سبيل المودة والسلام ويسخطه منهم أن يسلكوا سبيل العداوة والعدوان ..

فأما الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم ، كى تصدق عليهم كلمة الانجيل ، أن يؤخذوا بالسيف جزاء وفاقا .

ومما يشهد لحب الاسلام ونبيه فى السلام أن أمره عليه السلام اليومى الأول الذى أصدره عندما اضطر الى الحرب كان : لا تقتلوا امرأة . ولا وليدا ، و لاشيخا ، ولا تقطعوا شجرة ، ولا تحرقوا نخلا ولا تمثلوا بأحد ولا تكونوا ناهبين ، واجتنبوا الوجوه لا تضربوها .

ولقد كتب المستشرق الانجليزى « ستيفن رانسيمان » : فى الحركات الكبيرة التى غيرت وجه التاريخ : لم يحدث أن أحرزت واحدة منها على اختلاف دوافعها من النجاح السريع المدهش ، ما أحرزه الاسلام ، ولمعرفته أسباب هذا النجاح ، والعوامل التى ساعدت على انتصار الاسلام « وسرعة انتشاره » .. لابد من الالمام ولو سريعا بتاريخ حياة « محمد » عليه السلام الذى دعا الى هذا الدين فقد يكون فى هذا جلاء بعض الأمور التى تهدينا الى ما نحن فى حاجة الى معرفته ..

ولد النبى « محمد » — صلى الله عليه وسلم — بعد ميلاد « المسيح » عليه السلام بحوالى ٥٧٠ عاما فى الوقت الذى أخذت الوثنية فى الانتشار ، وبدأت أفكار بعض المسيحيين تتبلبل فى ذلك الوقت أخذت فكرة القوم الذين يسمون الأحناف تظهر وتنتشر بين العرب . كما ظهر الشعراء العرب الذين دعوا الى الوحدانية « كأمية بن أبى الصلت » و « زهير بن أبى سلمى » وغيرهما .

كان كل هذا داعيا عقلاء العرب الى التفكير فى أمر هذه الآلهة المتعددة وخاصة فى تلك المدينة التى تتاخم العالم المتمدين والتى تتمتع بمكانة ممتازة بين مدن شبه الجزيرة العربية . لأن فيها ذلك البيت المقدس الذى كانت تتجه اليه أنظار كثير من الناس فى جميع أنحاء الجزيرة . بل وفى بعض الجهات المحيطة بها .

وقد كان مولده فى أسرة من أسر هذه المدينة ، ذات مكانة مرموقة وشأن معروف ، اذ كان منها المشرفون على الكعبة والقائمون بالعمل فيها .. فلما بلغ سن الأربعين من عمره اختاره ربه ليبشر الناس بدينه الجديد ويدعوهم الى التعاليم السماوية التى كادت أن تنسى بين الناس . وكان أول من وجه اليهم الدعوة . هم قومه وعشيرته . وككل دعوة جديدة لقى « محمد » عليه السلام من قومه صلابة وعنادا . ومكرا واستكبارا ، ولكنه ثابر على دعوته متحملا أذاهم حتى انضم اليه بعض أشراف قومه وكثير من المستضعفين الذين زادوا فى مسئوليته .

ولما اشتد عليه وعلى من اتبعه الايذاء أمره ربه بالهجرة فى حوالى سنة ٦٢٣ ميلادية فهاجر من مكة الى المدينة بعد أن ضمن له أنصارا ينصرونه ، تلك الهجرة التى يؤرخ بها المسلمون تاريخهم .

هناك استجاب القوم لدعوته والتفوا حوله وأعانوه على نشر دينه سواء من قدم من مكة مهاجرا أو من هو من أهل المدينة . وبهؤلاء وأولئك استطاع التغلب على جميع من ناهضوه فى الجزيرة العربية . وصار الزعيم الأكبر للبلاد العربية النافذ الكلمة المطاع الأمر .

ولما حضرته الوفاة بعد الهجرة بعشر سنوات كانت جيوشه قد أخذت أهبتها لتجتاز حدود الجزيرة العربية الى ما جاورها من البلدان والممالك . ولم تتوقف هذه الجيوش الا بمقدار موت انسان وتولى الأمر غيره .

وقد يدهش الانسان للسرعة التى تم بها تولى الحكم بين هؤلاء العرب الذين كان ينشب بينهم القتال لأتفه الأسباب .

ولم تمض سنوات تزيد على عدد أصابع اليد الواحدة حتى سقطت الشام والعراق فى أيدى المسلمين .

وفى سنة ٦٥٠ م استولوا على مصر . وأخذت الدولتان الكبيرتان اللتان كانتا تحيطين بالجزيرة العربية تنكمشان سريعا . وقبل أن تأتى سنة ٧٠٠ م كانت الامبراطورية الاســلامية تمتد من المحيط الأطلسى غربا حتى نهر السند شرقا . ولم يكتف المسلمون بذلك بل واصلوا زحفهم سنين طويلة حتى وقفت جيوشهم على أسوار القسطنطينية .

وقد عرف المسلمون كيف ينشرون دينهـم الى أن وصــل الى بلاد التركستان وأندونيسيا شرقا ، واقتحموا مجاهل أفريقيا ، تلك البلاد التى كانت لا تزال سرا غامضا يخشى الاقتراب منها الكثيرون . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل انهم وصلوا الى قلب أوربا نفسها .

والمؤرخون الذين أرخوا للشرق يقولون ان التاريخ الشرقى خاصية تجعلنا نعجز عن تحديد الدوافع والنتائج التى ترتبت عليها .

والشرق مهـد الديانات ومهبط الرســل ، وفيه ظهرت المعجزات . « فعيسى » عليه السلام وديانته ومعجزاته ، وموسى وداود وغير هؤلاء كثير من الذين ضمهم الشرق وكان له شرف الحظوة بهم .

وقد لقى هؤلاء جميعا فى ســبيل نشر دعوتهم ما لا يقل عما قاساه « محمد » عليه السلام فى سبيل نشر دعوته . لقى هؤلاء من قومهم ومن غير قومهم العنت الشديد . كما لقى « محمد » عليه السلام ولكن دعوات هؤلاء الرسل كانت تزحف ببطء شديد . بل ان بعضها كاد أن يتوقف بموت نبيها بعكس ما حدث فى دعوة « محمد » فقد تم انتشارها على نحو عجيب فيه شيء كثير من خصائص المعجزة مما يجعلنا نقول مع المسلمين ان الله يريد حقا أن ينصر عباده المخلصين وأن يتوج أعمالهم بالنجاح .

وقد كان لشخصية « محمد » عليه السلام أكبر الأثر فى سرعة انتشار الاسلام اذ كان يعرف كيف يعرض دعوته على الناس . فيستجيبوا لها . ومن لم يستجب لها كان يعترف « لمحمد » بالعبقرية وقوة الشخصية .

« فمحمد » عليه السلام من أولئك العباقرة الموهوبين القلائل الذين ظهروا دون أن يخضعوا لقانون علمى أو قاعدة معروفة ، مما كان متعارفا عليه بين بنى عصره . فهو صاحب عبقرية فريدة من نوعها (ومع أنه كان يحس

بعبقريته الا أنه لم يكن مغرورا ككثيرين غيره من العباقرة الذين لم يبلغوا ما بلغ) . وبالرغم من وثوقه بنفسه وباخلاصه البالغ وعقيدته الراسخة ، كان يتحلى بكثير من الصفات التى تحلى بها الأنبياء السابقون وحاول التحلى بها بعض الساسة الحاكمين .

ولم يترك « محمد » عليه السلام الحياة الا بعد أن ترك لأتباعه قانونا وحكومة . يرى الباحث فيهما الى أى مدى كانا يستجيبان لمطالب القوم ويتمشيان مع ضرورات حياتهم ويدفعانهم الى العمل على نشر الاسلام والدفاع عنه .

وفى مقدور الباحث المنصف ان يقول : ان « محمدا » عليه السلام . كان من المعلمين الأفذاذ الذين عرفوا أطباع تلاميذهم . ثم لقنوهم الدروس التى لم تكن فى يوم أسمى من تفكيرهم ولا أعلى من ادراكهم أو أكبر من عقولهم ، ولكنها خلقت منهم قادة ممتازين لأنها تدرجت معهم تدرجا منطقيا.

واذا قلنا ان صفات « محمد » الشخصية النادرة هى التى استطاعت أن تحرز له هذا النصر المؤزر فى شبه الجزيرة العربية . فكيف يمكننا أن نعلل أسباب الغزو اليسير اللين الذى قام به خلفاؤه من بعده . واستطاعوا أن يمتلكوا نصف العالم المتمدين وان ينتصروا بجيوشهم القليلة على الجيوش الكثيرة العدد والعتاد . والتى يقودها أناس شهد لهم التاريخ بالدراسة العسكرية والشجاعة .

كل ما كان يعرفه النبى « محمد » عن البلاد التى تقع خارج جزيرة العرب والتى تحيط بها جاءه عن أحد طريقين :

اما مشاهداته الشخصية يوم أن سافر مع عمه أول مرة . وأيام كان يشتغل بالتجارة بين الحجاز والشام كغيره من العرب .

واما عن طريق المعلومات التى كان ينقلها اللاجئون من المسيحيين واليهود الذين فروا بدياناتهم من الاضطهادات المتعددة . وجاءوا يستوطنون بلاد العرب فاذا كان « محمد » عليه السلام قد انتصر وحقق ما جاء من أجله داخل بلاد العرب وخارجها . لأنه أدرك ببصره النافذ رغبات هؤلاء الناس . فان هذا يعتبر عملا لا مثيل له .

واذا كانت هذه الناحية تحتـــاج الى دراسة فان هناك نواح كثيرة فى حياة النبى محمد « صلى الله عليه وسلم » تحتاج الى مثل هذه الدراسة .

فنحن فى حاجة الى أن ندرس كيف استطاع ان يبث هذا الاخلاص النادر وهذه الحماسة المتدفقة فى نفوس اتباعه الذين أصبحوا نماذج لهذه الصفات والمواهب النادرة التى تجلت فى الزعماء المسلمين الذين اصطنعهم « محمد » عليه السلام على عينه أمثال الخليفة « عمر بن الخطاب » . والقائد « خالد بن الوليد » و « عمروبن العاص » . وكثيرين غيرهم ممن ملأت سيرتهم سمع الدنيا وخلدهم التاريخ .

والحق ان هذا الحماس المتدفق وهذه الســياسة الفريدة التى أذهلت الناس لم يكن يقدر لها النجاح فى نصف العالم المتمدين لو لم يكن العالم مستعدا لقبولها . ولو لم تكن تحمل فى جوهرها زادا طيبا صالحا من الحق والخير .

ومما قاله ذلك المستشرق عن امبراطورية الروم قبل الاسلام :

كانت هناك محاولات فى فن السياسة فى عصور ما قبل ميلاد السيد المســيح عليه الســلام . وكان أكبر هــذه المحــاولات وأعظمها محاولة الامبراطورية الرومانية . ولكنها كانت محاولة فجة وتجربة ناقصة يعوزها الاحكام والسلامة . من ذلك أنها ضمت مجموعة من الأقاليم المتباينة الثقافة ذات الأحوال الاجتماعية والاقتصادية المختلفة من منطقة الى منطقة أخرى .

فالأقاليم الشرقية كمصر والشام مثلا لم تخضع كل الخضوع . بل كانت سلطة الرومان عليها سلطة سطحية . ومثل هذا يصدق على المدن الكبيرة التى سبق أن بناها المقدونيون . كالاسكندرية وانطاكيا . فانها كانت تسير فى حياتها على النهج الاغريقى .. وفوق ذلك فان البلاد الداخلية كانت تحيا حياة بعيدة كل البعد عن حياة الحكام ، تعتمد على الأوضاع القديمة . وتتكلم غير لغات الرومان والاغريق . ومن وقت لآخــر كانت تظهر الروح القومية الكامنة فى النفوس . وليس أدل على ذلك من الثورات والحروب التى قام بها اليهود من الحياة المستقلة التى كانت تحياها الملكة « زنوبيا » .

من كل هذا يمكننا أن نقول ان الحكم الرومانى كان مفروضا على هذه البلاد فوق طبقه سطحية من الاغريقية ولكنه كان حكما وفر لها قوة حربية كبيرة استطاعت بها ان تحمى حدودها كما وفر لها قانونا يدعو الى الاعجاب .

وبرغم ما بذل من مجهود فان الادارة الاقليمية كانت غير قادرة على اخضاع الأهالى لارادتها فى كثير من الأحيـان . وكان الفساد ينتشر فيها انتشارا كبيرا كما كانت الحياة نفسها شاقة وعسيرة . الا على ذوى الثروات العظيمة من السراة والأغنياء .

ولم تدرك روما ان اصلاح الأحوال الاقتصادية فى البلاد التابعة لها من مصلحة الدولة الحاكمة . لذلك لم تهتم باصلاح شىء من أحوال هذه البلاد بل كانت تنظر الى هذه البلاد على أنها بقرة حلوب يجب عليها أن تدفع أكبر قدر مستطاع من الضرائب الى حاشية الامبراطور . والامبراطور نفسه الذى لم تكن هذه البلاد قد رأته قط . وان تنفق على جيش طويل عريض لا فائدة تعود عليها من تقوينه واعداده . وعلى مر الزمن ازدادت الحالة الاقتصادية سـوءا .

ولما كانت مصر والشام اقليمين غنيين بخيراتهما فقد تحملا قدرا كبيرا من الضرائب وقاسيا كثيرا من حياتها .

وكان لسقوط الامبراطورية الغربية فى ايدى الرعاع أثر كبير فى ضياع الأسواق التجارية من أيدى تجارها وصناعها أما « القسطنطينية » العاصمة الجديدة فقد اجتذبت كثيرا من تجار الشرق الأقصى .

وقد أضرت الحروب الطويلة بين الفرس والرومان التى استمرت طوال القرن السادس بتجار الشرق الأوسط . كذلك كانت المحاولة التى قام بها الامبراطور « جستنيان » لاعادة غزو الغرب . محاولة عقيمة سببت له خسائر فادحة وكلفته ثمنا غاليا . وقد شعر كل من الشعبين الشامى والمصرى أنه ينفق أموالا كثيرة من ايراداته الضئيلة ليؤيد حكاما يهملون مصـالحه ولا يهتمون الا باشباع رغباتهم . وغير ذلك من المتاعب التى أحسوا بها فى هذه الآونة ، ان من العسير علينا ادراك مدى شعور الرجل والمرأة نحو الدين فى ذلك الوقت .

وقد كان الشرق الأوسط دائما مهدا للدين ومهبطا لوحى السماء ومسرحا كبيرا لظهور الديانات السماوية . كما كان الاغريق أساتذة الفلسفة .

ولما عرف ذلك ملوك الاغريق وأباطرة الرومان عمدوا الى القضاء على التعصب الاقليمى . بادماج الآلهــة المحليين فى مجمــوع الآلهة الاغريقية الرومانية . كما حاولوا ان يخلقوا جوا من الاتحاد الروحى ونصبوا أنفسهم آلهة وعملوا على ارغام الشعب على عبادتها . ولكن كل هذه المحاولات كان نصيبها الفشل والخسران . بل ان كثيرا من الأباطرة قد لقوا حتفهم بصورة لا تلائم موت الآلهة على الاطلاق . ان كانت الآلهة تموت . وبالرغم من كل المحاولات الكثيرة المختلفة الأساليب فان الناس أعرضوا عن هذا الابتكار وسخروا من هذا الاختراع فى مجــال الدين . وبطبيعة الحال ماتت الآلهة المختلفة واضطر الناس ان يبحثوا لهم عن دين جديد .

ظهور المسيحية

فى هذا الوقت ظهر السيد المسيح يدعو الى دين جديد هو الدين المسيحى الذى ظهر فائزا منتصرا . غير ان فوزه وانتصاره قد تحقق بصعوبة شديدة وببطء كبير . فقد لقى المسيح وأتباعه كثيرا من العنت والاضطهاد من أباطرة الروم وحكامهم على الخصوص مدة لا تقل عن ثلاثة قرون ذاق فيها المسيحيون ألوانا مختلفة من العذاب حتى اضطروا أن يتركوا المدن الى الصحارى فرارا من وجه هؤلاء الأباطرة العتاة الذين كانوا يريدون ألا يعبد فى الأرض التى يحكمونها غيرهم . حتى ظهر الامبراطور قسطنطين الذى اعتنق الديانة المسيحية بعد انقضاء ثلاثة قرون على موت السيد المسيح .

وباعتناق الامبراطور قسطنطين المسيحية انتشرت تعاليم الكنيسة فى الدولة الرومانية جميعها . بل وفى خارجها . غير أن السلطات الحاكمة كانت تمقتها وتحاربها وتطارد معتنقيها أينما حلوا وأينما ساروا . مما أدى الى عدم وجود نظام فى اتباع شعائر الدين ، وعدم الوحدة فى الشرائع والقوانين التى جاء بها الدين المسيحى .

ونظرا لأن الدين الجديد لم يكن قد وضع له تعريف محدود المعالم . فقد ظهر بعض الأفراد المنحرفين فى كثير من المناطق المتعددة . ولكنا لا نستطيع ان ننعتهم بالالحاد .

وظلت الدولة تناهض اتباع الدين الجديد . حتى دخلت فيه الهيئة الحاكمة واتخذته دينا لها . وما دام الدين الجديد قد أصبح دينا رسميا للدولة . فلابد من وجود وحدة فى الدين . والا عد اتخاذها له أمرا لا معنى له . فمرت بالناس سلسلة طويلة مريرة من المحاولات التى قصد بها وضع تعريف للدين وقد بلغت هذه المحاولات أشد أدوارها فى المجالس الكنيسية حيث قام القساوسة مجتمعين بمحاولة الوصول الى اتفاق حول هذا التعريف المطلوب .

ولكن كل هذه المحاولات باءت بالاخفاق أيضا . لأن عددا من الأقاليم التابعة للدولة كانت لا تزال تحتفظ بمشاعرها الدينية الخاصة من ناحية . ومن ناحية أخرى كان بعضها الآخر ينكر على الحكومة المركزية أعمالها وتصرفاتها . وقد وجد هذا الفريق فى الهرقطة والالحاد فرصة يعبر بها عن كراهيته وسخطه . وانتشرت فى ذلك الوقت المنازعات المذهبية التى كانت بمثابة شعار للفرقة وللقومية .

وقد قامت هذه المنازعات حول طبيعة السيد المسيح فجماعة يغلبون الجانب البشرى على الجانب الالهى فى ذاته عليه السلام . وجماعة أخرى يغلبون الجانب الالهى على الجانب البشرى وجماعة ثالثة يقولون بالطبيعتين . وهذا هو المذهب الرسمى للحكومة .

وما اقترب القرن الخامس من نهايته حتى قام أهل الشام وأهل مصر يحاولون أن يزيحوا عن كاهلهم سلطة الامبراطور الرومانى وخاصة سلطته المدنية .

أما الناحية الدينية فقد كانوا يتبعون فيها مذهبين رأيا فيهما تبسيطا لآراء الشعائر وهما المذهب القائل بأن للمسيح طبيعتين ومشيئتين ، وأتباعه قليلون . أما الأغلبية فقد كانوا يتبعون المذهب القائل بأن للمسيح مشيئة واحدة وطبيعة واحدة وهى تغليب الجانب الالهى على الجانب البشرى .

ومن قديم الزمن كان الساميون يحبون ان يكون دينهم على الدوام طابعه الجد والحزم ولكن فى هوادة ولين .

ومنذ فجر التاريخ كانت صحراء العرب ترسل نورها الساطع الى البقاع المجاورة لها وخاصة أراضى (الهلال الخصيب) . وقد تأثر أهل مصر والشام مما ترسله لهم هذه الصحراء فأصبحوا من غلاة الساميين وخاصة أهل الشام المتاخمين لها . كما استطاعت صحراء العرب هذه أن تحمل تلك الأقاليم التى تحف بها على تعلم لغتها العربية الآرامية منذ قرون بعيدة قبل الميلاد أو ادراك سهولتها على الأقل .

وقد اندفع كثير من سكان الجزء الجنوبى من جزيرة العرب . الى الشمال بسبب الجدب الذى كان يصيب هذا الجزء . وقد حدث هذا قبل

ظهور « محمد » بزمن غير بعيد . ولذلك نرى كثيرا من رجال قبائل بنى غسان الذين استوطنوا المناطق الملاصقة لحدود الامبراطورية الرومانية فى بلاد الشام . قد اعتنقوا الديانة المسيحية . وهذا من أوضح الأدلة على أن هؤلاء العرب (دينيون بطبعهم لا يستطيعون ان يحيوا بغير عقيدة) .

ولقد كان لنشاط حركة التجارة وزيادتها أثر فى اندماج السكان واتصالهم بعضهم ببعض . فالتجار العرب الذين يخرجون من حضرموت ليذهبوا الى فلسطين أو دمشق . يمرون غالبا بمكة حيث الكعبة التى يقدسها العرب . وكذلك تجار المسيحيين واليهود الذين قدموا الى الجزيرة العربية واستقروا فى الجزء الجنوبى من اليمن . عرفوا الكثير عن مكة وبيتها الحرام عند مرورهم بها .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول : انه لم يكن هناك فاصل يميز بين سكان البدو وسكان الحضر فى الجنس والثقافة .

وكتب المستشرق الانجليزى « ستيفن رانسمان » عن عوامل اسلامية مهدت للفتح : نستطيع أن نقول ان السهولة التى لاقاها المسلمون فى استيلائهم على هذه المناطق ترجع الى الضعف الذى انتاب الامبراطوريتين الرومانية والفارسية والى عدالة المسلمين فى حكمهم . وأكبر دليل على ذلك أن البلاد التى فتحوها لم يحاول أهلها أن يزحزحوهم عنها . وما ذلك الا لأنهم وجدوا حكمهم أفضل من حكم من سبقهم . فعندما سمع المصريون عما يفعله المسلمون فى بلاد الشام . ابدوا كامل استعدادهم لقبول ما يجرى هناك . وتمنوا ان يعجل المسلمون بمهاجمة مصر ليخلصوهم من الظلم الذى يرزحون تحت ثقله .

وكان أول شيء أحس به أهل البلاد التى فتحها المسلمون . هو تخفيف الضرائب عن كاهلهم وتنظيم ما يجمع منها . كما شعر الذين فرضت عليهم الجزية لأنهم لم يدخلوا فى الاسلام ، بأنهم أحسن حالا من ذى قبل ، اذ كانت حكومات الأقاليم تقع تحت مراقبة الخليفة الذى لا يخشى فى الله لومة لائم . كما أنهم رأوا ان ما يجمع منهم من أموال انما يصرف فيما يعود عليهم بالنفع والفائدة وخاصة عندما أصبحت دمشق مركز الخلافة .

ومما حبب الفاتحين المسلمين الى قلوب أهل هــذه البلاد . التسامح الديني ومحو الفوارق بين الطبقات والقضـاء على الامتيازات . فقد كان الامبراطور الروماني يريد من المسيحيين جميعا الدخول في غمار كنيسته والا اعتبروا خارجين على طاعته . ولكن المسلمين لم يحاولوا ان يجبروا أحدا على الدخول في دينهم كما لم يميزوا كنيسة على أخرى .

ولم يفارق الدنيا صاحب هذا النور صلوات الله عليه في أول السنة الحادية عشرة من الهجرة الا بعد أن كان قد فتح لنوره طريقا الى خارج جزيرة العرب . ليبدد ما حولها من الظلمات وليكف بأس القوى الشريرة التي تآمرت عليه في العتيقتين (دولتي الفرس والروم) . ذلك أنه في السنة التاسعة من الهجرة قاد بنفسه جيش المسلمين الى « تبوك » مسارعة الى صد الحملة التي كان الروم قد تأهبوا لها في الشام . فكانت الهزيمة الأدبية التي لحقت بجيش الروم يومئذ حيث لم يجرؤوا أن يتقـدموا لملاقاة جيش المسلمين هنالك . كانت هذه الهزيمة الأدبية ارهاصا قريبا لهزيمة الدولتين عسكريا وسقوطهما نهائيا . في عهد خلفائه الراشدين .

ثم تتابعت هزيمة الظلام . وتدفق نور الاسلام على الأرض شرقا وغربا . فكان ما فتحه المسلمون في قرن واحد (٦٣٢ — ٧٣٢) أعظم وأضـخم مما فتحته الدولة الرومانية في سبعة قرون كاملة .

غمرت الموجة الأولى من الفتح الاسلامي بلاد العجم والعراق والشام . ثم مصر وتونس . ثم الجزائر ومراكش وصقلية واسبانيا . ثم تجاوزت جيوش المسلمين جبال البرانس وأوغلت في فرنسا حتى اقتربت من باريس . ولو شاء ربك لأسلمت أوروبا كلها . بل لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا . ولكن قضت حكمته العليا الا يزال الناس مختلفين « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

وهكذا توقفت الفتوح في هذا الجانب من العالم منذ سنة ٧٣٣ م وعادت الجيوش من فرنسا لتستقر في اسبانيا . وليؤسس المسلمون فيها مملكة عظيمة ظل حكمهم فيها قائما ثمانية قرون . لم يشـهد التاريخ فترة مثلها حضـارة

وازدهارا ، على أنهم ان كانوا اليوم قد فارقوها ملـــكا وحكماً ، فانهم لم يفارقوها أثرا ورسما .

ولم تكد موجة الفتح تنحسر هذا الانحسار اليسير فى الجانب الغربى حتى بدأت موجة أقوى منها فى الجانب الشرقى . امتد بها الفتح الاسلامى مشرقا الى « بلوخســتان » و « الهند والصين » . بل تجاوز القــارة الى « الجزائر الأندونيسية » . كما أنه انعطف غربا فدخل أوربا من جنوبها الشرقى متجهــا نحو الغرب والشمال الغربى الى النمســا والى قرب بحر البلطيق .

هذه الفتوح كلها يعترف المنصفون من المؤرخين الغربيين بأن الأساس الأول والأعظم فيها لم يكن هو الحرب . فهم يقولون بصريح العبارة : ان المعارك الاسلامية الكبيرة كانت نادرة جــدا . وان أكثر ما تم من الفتح الاسلامى انما كان بفضل التجارة . والدعوة السلمية . والاقناع الحكيم . والقدوة الحسنة . وفى الحق لو كان دخول هذه الأمم فى حظيرة الاسلام تحت سلطان السيف لخرجوا منها منذ دخلت السيوف فى أغمادها . ومنذ غفل عن أسلحتهم وأمتعتهم .. فانعكست آية القوة المادية . وأصبحت فى يد غيرهم . ولكن الاسلام . كما قال هرقل (عاهل الروم فى عصر النبوة) متى خالطت بشاشته القلوب لا يرتد أحد عنه ســاخطا له . أو كمــا قال بعض المؤرخين فى العصور الحديثة : انه لا تعرف حادثة واحدة ارتد فيها مسلم عن دينه ردة حقيقة . بعد أن دخل فى الاسلام دخــولا حقيقيا . بينما حوادث الخروج من الأديان الأخرى الى الاسلام أكثر من أن تحصى .

نقول : ان فى سرعة انتشار الاسلام هكذا فى عالم يبلغ خمس الكتلة البشرية على الأقل . وبين أمم مختلفة فى ألسنتها وألوانها ونزعاتها وطبيعة أرضها وطبيعة جوها وأسلوب حياتها .. وان فى ثباته واستقراره هذا على الرغم من كل عوامل التــدمير التى سلطت ولا تزال تسلط عليه فى داخل أرضه وفى خارجها وان فى قابليته لزيادة الانتشار على الدوام كلما رفعت الحواجز الصناعية من طريقه .. وان فى سرعة تقبل النفوس له كلما عرض عليها دون صراع ولا خداع ، ان فى ذلك كله لردا مفحما بليغا لزعم من زعم

ان الاسلام خلق للصحراء .. وللأمم التى تجاوز طور الطفولة البشرية ان فى ذلك كله لآية بينة على مبلغ ما فى طبيعة الاسلام من اشباع لحاجات العقول والقلوب . وتوفية لمطالب الأفـراد والجماعات . ومجاوبة للفطرة الانسانية العميقة التى لا تختلف باختلاف الأقطار والعصـور . ولا باختلاف المظاهر وأساليب الحياة . بل ان فى ذلك كله لآية على ان الذى فطر الانسان هو الذى شرع له هذا الدين ، وفصله على مقياس طبيعته ، وان ذلك هو السر الأول فى بقائه وخلوده : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » ، « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسـينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون » .

ولقد اتسم الاسلام فى غضون تاريخه بسمتين أخريين . وكان لهما أكبر العون على استمراره واستقراره . ظاهرتان . من أهم مقومات الحضارة الحقيقية ، لم يسع المحققون من علماء أوربا الا الاعتراف بهما ، والتنويه بشأنهما . ظاهرة داخلية بين معتنقيه . وظاهرة خارجية . تجاه المخالفين له .

فأما الظاهرة التى أسبغها على أتبـاعه فيما بينهم . فتلك هى ظاهـرة الأخوة الروحية التى جعل منها ظاهرة اجتماعية . تسـمو على كل الفوارق العنصرية . وتمحو كل الحواجز الاقليمية وان اختلفت ادارتها ورياسـتها العليا . فلقد أتى على الاسـلام حين من الدهـر فى مدى القرنين الرابع والخامس من الهجرة (العاشر والحادى عشر الميلادى) كان يتولى الخلافة فيها ثلاثة خلفاء فى وقت واحد . خليفة عباسى فى العراق . وخليفة أموى فى الأندلس . وخليفة فاطمى فى مصر . ومع ذلك كان المسلم الذى يتنقل فى سفره من أقصى المشرق الى أقصى المغرب . فى امتداد يقطعه الراكب فى عشرة أشهر على الأقل لا يجد حيثما حل الا أخوة فى عقيدته . أخوة فى عبادته . أخوة فى شريعته . نظراء له فى أخلاقه وعوائده .

وكما يقـول المؤرخ الألمانى « متز » فى كتابه « نهضة الاسـلام » Die Renaissancé Islam كان المسـلم يشـعر أنه حيثمـا حـل فهـو فى قلب وطنه . وأما الظاهرة الخارجية : فهى ظاهرة التسامح بازاء الأديان

الأخرى لا بازاء اليهودية والنصرانية فحسب . بل بازاء المجوسية . التى عاملها الاسلام معاملة الأديان السماوية .

ولم يقتصر الأمر فى هذا التسامح على أنه ترك أصحاب هذه الديانات المختلفة يتمتعون بحرية عقائدهم وعباداتهم ولغاتهم . بل ان الخلفاء خولوا لكل رئيس دين ان يقضى فى شئون طائفته الخاصة التى لا تصطدم ومصالح الدولة . أضف الى هذا ان عددا كبيرا منهم كان أداة فعالة فى جهاز موظفى الدولة . حتى ان منصب وزارة الحربية اسند الى المسيحيين مرتين . أثناء القرن الثالث الهجرى .

ولقد حاول المؤرخ الألمانى « كريمر » فى كتابه « حضارة الشرق » فى عهد « الخلفاء » . Kultvrgashichte des Crients Unter des dhalfen ان يحلل طبيعة هذا التسامح الاسلامى . ويتعرف أسبابه فنفى نفيا قاطعا أن تكون له بواعث سياسية . وان يكون هدفه فى نظر أولى الأمر المسلمين هو تسكين قلوب الرعايا غير المسلمين حتى لا يثوروا على الحكم .

قال المؤرخ « كريمر » : كلا . فان هذه الفضيلة لم تكن خاصة بالخلفاء والرؤساء وحدهم . بل كانت سارية فى الشعب عامة ثم انها لم تقتصر على عصر المسلمين القدامى فحسب . بل شملت سائر العصور .

وينتهى المؤرخ من تحليله الى هذه النتيجة . وهى ان المسلم يفصل فصلا تاما بين العقيدة التى يحترم حريتها عند الآخرين . وبين المصالح الدنيوية التى تعتمد الكفاية والأمانة والتى لا تميز بين دين ودين فى سبيل التعاون .

ولن يفوتنا ان نعد من بين هؤلاء المؤرخين المنصفين الأستاذ الفرنسى « جوتيه » فقد خصص فى كتابه « أخلاق المسلمين وعوائدهم »
فقرات طويلة قارن فيها مقارنة رائعة بين هذا التسامح الدينى عند المسلمين خاصة والشرقيين عامة ، وبين ما عند المسيحيين الغربيين من عصبية عنيفة توارثوها خلفا عن سلف . وعلى سبيل التمثيل لهذه الحمية الجاهلية يشير المؤلف الى ما حدث فى جنوب فرنسا على يد البارون « سيمون دى

مونفور » الذى توجه باذن البابا على رأس لفيف من البارونات الفرنسيين . ومعهم فرقة من الرهبان الى مقاطعة « لانج دوك » لاستئصال الديانة المجوسية منها . فاغرقوا الاقليم كله فى أنهار من الدم والنار . حتى أهلكوا من كان فيه من المجوس .. ويستطرد المؤلف فيقول : ان هذا العنف لم يؤد الى نتيجة حاسمة من وجهة نظر الكنيسة . فقد نبتت هذه الفرقة المارقة مرة أخرى فى بوهيميا فحوربت وهزمت ثم نبتت مرة ثالثة فى شمال ألمانيا باسم « الاصلاح الدينى » La Reforment وقد حوربت فى هذه المرة أيضا بأساليب أشد عنفا . ودامت المعارك من أجلها ثلاثين عاما . ولكنها لم تفلح فى اخضاعها .. فلما استنفذت الحروب جهود الطرفين . ووضعت الحرب أوزارها لم تطع أنفسهم قبول فكرة التسامح الدينى فيما بينهم ، بل فضلوا ان تقسم المسيحية قسمين متناكرين . ليس بينهما تعايش سلمى فى دولة واحدة . بل لكل دولة دينها بحيث لا يعيش فى كل أمة الا مذهب واحد .. يقول المؤلف :

فأين هذا مما نشاهده فى داخل بلاد الاسلام قديما وحديثا حيث يحتضن الاسلام دائما بين جناحيه من المحيط الهادى الى المحيط الأطلسى طوائف من غير المسلمين يهود ونصارى ومجوسا ، وطوائف من المسلمين المبتدعين . شيعة وخوارج وأباضية .

ولم يفكر العرب ولا المسلمون يوما ما حتى فى أشد أوقات حميتهم الدينية . ان يطفئوا بالدم دينا منافسا لدينهم . بل لم يفكر الخليفة يوما فى ان يضطهد مسيحيا يعقوبيا أو مجوسيا ما نويا .. انه مهما تكن الأسباب والبواعث على هذا التسامح الدينى عند المسلمين . فانها فضيلة تستحق كل اعجاب وتقدير .. وانه لمن الخطأ فى القياس ان نقارن بين هذه الفضيلة عندهم وبين ما نسميه أحيانا بالتسامح الدينى عندنا .

فان هذا التسامح المزعوم ليس له أدنى قيمة خلقية ، بل ليس له وجود حقيقى لأنه يقوم على أساس التحلل الدينى وعدم المبالاة لشئون العقيدة . فلكى نقبل وجود ديانة أخرى فى بلادنا يجب ان تكون ديانتنا قد ماتت من قبل فى نفوسنا . أما المسلم فانه يتسامح مع اعتزازه بدينه . واستمساكه التام بعقيدته .

وكأننا بالأستاذ « جوتيه » حين أشاد بفضيلة التسامح الديني عند المسلمين ، وجعلها قاعدة عامة عندهم ، توقع ما يجول بذهن القارىء من اعتراض على هذه القاعدة العامة بالأمثلة المشاهدة فى المستعمرات حيث ان المسلمين فى الجزائر وغيرها يمقتون المسيحيين جميعا ، فرنسيين كانوا أم انجليز أم هولنديين أم غيرهم . فتصدى لدفع هذا الاعتراض قائلا : انهم لا يمقتون فينا مسيحيتنا . وانما يمقتون أوربيتنا . فان أوربا منذ قرن أو يزيد أصبحت خطرا يهدد اسلام الكرة الأرضية . فالأوروبى عندهم رمز للتدخل الذى يجرح كبرياءهم . ويحطم استقلالهم . ويفسد أسلوب معيشتهم أما عقائدنا الدينية وآراؤنا الفلسفية المخالفة لعقائدهم وآرائهم . فان أمرها كان يهون عليهم لو بقيت محصورة في دائرة الاختلاف النظرى .. ولقد صدق هذا . انهما العنصران الأساسيان فى بناء الحضارة عند كل أمة رشيدة تطمح الى البناء والخلود . عنصر الوحدة الروحية والوطن المشترك بين أبنائها على اختلاف مذاهبهم واخطارهم . وعنصر التسامح والتعايش السلمى مع جيرانهم المخالفين لهم فى عقائدهم .

غير ان هذين العنصرين لابد لهما من عنصر ثالث يمازجهما ويكملهما ويجبر ما قد يعتريهما من نقص . ذلك ان رحمة الاخوة كثيرا ما ينفلت زمامها فتصل الى حد التراخي والتهاون . والاغضاء عن الاثم والفوضى . والفساد الداخلى . كما أن نزعة التسامح وحب السلام العالمى ، كثيرا ما يختل ميزانها فتنحدر الى مستوى الضعف والاستسلام امام العدو الخارجى .

لهذا وذاك جاء الاسلام منظما لكلتا النزعتين . محتفظا بما فيهما من خير ونفع نابذا ما فيهما من شذوذ وانحراف .

ويتلخص هذا التنظيم الاسلامى فى أنه جهز أتباعه بجهازين : داخلى ، وخارجى . وجعل كل واحد منهما يتألف من عنصريين : أدبى . ومادى .

فأما فى الداخل فقد جهزهم معنويا بالدعوة الى الخير . والنهى عن المنكر والتناصح والتواصى بالحق .. لا يمتاز فى ذلك الكبير عن الصغير ولا يقل مأمور عن أمير ، ثم جهزهم ماديا بجهاز العقوبات والتأديبات التى يوجب توقيعها على كل من لم تنفعه الموعظة الحسنة . بالغا ما بلغ قدره وخطره دون ان تأخذنا رأفة فى دين الله .

وكتب المستشرق الانجليـزى « ر. هـ. نولت » فى كتابه « حقيقة الاسلام » : ومن حيث أن أى دين من الأديان لابد أن يكون ذا تأثير قوى فى حياة معتنقيه وتصرفاتهم فان للاسلام تأثيرا كبيرا مماثلا لأى تأثير لدين آخر . بل يزيد عليه . وذلك بما تنطوى عليه طبيعته .

ويقول « لوبون » : ولقد كان أثر حضارة المسلمين فى الغرب قويا فى النواحى العلمية والأدبيـة والخلقية .. ففى القرن السابع الميـلادى . هب المسـلمون من شبه جزيرة العـرب . ليكونوا امبراطورية عظيمة مترامية الأطراف . فسارت الحضارة فى ركابهم اينما حلوا وصاحبتهم المدنية كيفما اتجهوا . فلم يقتصر أثرهم الحضارى على الشرق وانما كان تأثيرهم فى الغرب لا يقل خطورة وأهمية .

وكتب « توماس ارنولد » المؤرخ الانجليزى : يؤكد ان سوء حال فارس الدينية والاجتماعية كان علة ذلك الانتصار الذى حالف الفتح العربى . وجعله يظهر فى صـورة تخليص الأهلين مما أصـبحوا فيه . وما ان تم للمسلمين ما أرادوا على هذا الوجه حتى تنفس الفرس الصعداء . ورحبوا بالعرب .. وقال : ان الاسلام دين الفطرة الطبيعية السليمة . ولهذا تتقبله القلوب والضمائر متى تفتحت له . وان المسلمين كانوا يقاتلون بكل قلوبهم رجاء الحسنيين وشتان بين من يقاتل لاعلاء كلمة الله . وبين من يقاتل دفاعا عن عقيدة فاسدة ، ودولة عاتية ، ونظام اجتماعى ظالم مسقوت .. « كتاب الدعوة الى الاسلام » ترجمة الدكتور « حسن ابراهيم » .

ومن الأسباب الجوهرية فى سرعة انتشار الاسلام . أنه دين لا يعرف الظلم الى مبادئه سبيلا ولا الطغيان الى تعاليمه طريقا . دين الحرية والاخاء والمساواة . دين السماحة وسجايا الخلق وصفاء الطبع ونقاء الطوية . ولم يكن حد السيف أو أسنة الرماح سببا لانتشاره فى يوم من الأيام .

فالرسـول قد كتب الى مختلف الملوك والاقيال والحـكام والأمراء والزعماء يدعوهم الى الاسلام وهداية الناس .. ولم تكن هذه الكتب وسائل عنف وارهاب . أو ذرائع للبطش والتنـكيل .. انمـا كان يدفع بالتى هى أحسن . بل كان — كما أسلفنا القول — يتحمل ألوانا من العنف والضيق وضروبا من الوعيد والتهديد من جانب هؤلاء القوم .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقابل هذا كله برحابة الصدر . ورضى النفس واطمئنانها ، تستمرىء العذاب فى سبيل الدعوة . وتتحمل الصعاب فى سبيل نشر الرسالة الالهية بين العالمين . وقد كان ينتصر على خصومه بما أوتى من طهارة نفس وصفاء قلب .. وكان ربه يسهل له كل أمر عسير ودائما وابدا ينصره لأن الحق بجانبه أبدا .

لقد روى « الطبرى » فى الجزء الثالث من تاريخه : ولما وصل كتاب النبى الى « هرقل » ملك الروم وهو بالشام وكان يريد العودة الى القسطنطينية جمع الروم . وقال لهم : يا معشر الروم . انى عارض عليكم أمورا . فانظروا فيما قد أردتها . قالوا : وما هى ؟ . قال : تعلسون والله ان هذا الرجل لنبى مرسل ، انا نجده فى كتابنا . نعرفه بصفته التى وصف لنا . فهلموا فلنتبعه فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا . فقالوا : نحن نكون تحت يدى العرب . ونحن أعظم الناس ملكا وأكثرهم رجالا وافضلهم بلدا ؟ . قال : فهلم فاعطه الجزية فى كل سنة آكسر عنى شوكته ، واسترح من حربه بمال أعطيه اياه . قالوا : نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا . ونحن أكثر الناس عددا وأعظمهم ملكا وامنعهم بلدا . لا والله لا نفعل هذا أبدا .. قال : فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية ويدعنى وأرض الشام . فقالوا له : نحن نعطيه أرض سورية . وقد عرفت انها سرة الشام ؟ . والله لانفعل هذا أبدا فلما أبوا عليه . قال : أما والله لترون أنكم قد ظفرتم اذا امتنعتم منه فى مدينتكم . ثم جلس على بغل له : فانطلق حتى اذا أشرف على الدرب استقبل أرض الشام ثم قال : السلام عليكم أرض سورية تسليم الوداع . ثم ركض حتى دخل القسطنطينية .

وقد تمشت هذه الكتب مع ما جاء فى القرآن الكريم من دعوته الى نشر الاسلام بين العالمين . كقول الله تعالى : « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » . و « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا » .

والرسول . قبل هذا وبعد هذا كله . لم يجبر غير المسلمين على الاسلام اجبارا . انما جعل لهم الخيار بين الاسلام أو دفع الجزية . وقد قال الله فى

القرآن : « ولا يجرمنكم شـنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » .. أى تجب العدالة المطلقة مع غير المسلمين على وجه عام . سواء كانوا أصدقاء أم أعداء . من أهل الذمة أم من المحاربين . وفى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . أى أن على المسلمين ان يلتزموا أدق قواعد العدالة . والانسانية والاستقامة حتى فى قتالهم مع من يعتدون عليهم للقضاء على الاسلام نفسه .. ولقد ذكرنا ما كان يوصى به رسول الله قواد جيوشه بعدم قتل الشيوخ والأطفال والنساء .

وفى حديث آخر نهى (صلى الله عليه وسلم) عن قتل الكهنة والرهبان المتعبدين فى الأديرة والصوامع . وبذلك ترى سماحة الاسلام حيث تنحصر اباحة القتل فى رجال العدو والقـادرين الذين يدخلون بالفعل الى ميـدان القتال .

والقتال نفسه لم يكن المسلسون ينفرون اليه الا تأمينا لدعوتهم . أو درءا لخطر داهم أوشك أن يحيق بهم . ويدمر بيوتهم ومساجدهم . ويكاد يعصف بحياتهم . مخافة أن يتمكن العدو منهم فيستبيح أموالهم ومحارمهم . وينهب ديارهم ومنازلهم .

وعندما وقع النبى (صلى الله عليه وسلم) الصلح مع يهود « خيبر » أعطاهم صحائف التوراة معززة مكرمة . مما يدل على كرم خلاله وحسن سـجاياه . وتزوج من صـفية بنت حيى بن أخطب حفظا لكرامتهم واستبقى اليهود فى الأرض ، وحقن دماءهم ، وعاملهم معاملة طيبة .

ويذكر صاحب تاريخ الخميس ان الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يترحم على بعض اليهود مثل « عبد الله بن أبى » . الذى بكى عليه اليهود . ووقف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . على قبره وعزى ابنه . وألبسه قميصه . وقد قام المسلمون باجراءات دفنه . وظل الرسول فى أثنـاء ذلك واقفا صامتا لا يتحرك من مكانه حتى امتلأ الضريح بالتراب وتوارت الجثة عن العيون . وأخـذ بنو قينقـاع وغيرهم من اليهود ينثرون التـراب على رؤوسهم من شدة الحزن والألم كما يقول « الواقدى » .

ولقد اتبع خلفاء وأمراء المسلمين أوامر الله ورسوله . وعملوا بوصية رسول الله الكريم : فوصية « أبى بكر » الصديق لجيوش فتح الشام تحت امرة « أسامة بن زيد » جمعت آداب الحرب وحسن النصيحة : أيها الناس . أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى :

لا تخونوا . ولا تغلوا . ولا تغدروا . ولا تمثلوا . ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة . ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه . ولا تقطعوا شجرة مثمرة . ولا تذبحوا شاة . ولا بقرة ولا بعيرا الا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فاذا أكلتم منها شيئا بعد شىء فاذكروا اسم الله عليها . وتلقون أقواما قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا .. وعدالة « عمر بن الخطاب » فقد منح اليهود حماية دينهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . فلا تهدم كنائسهم . ولا تتخذ منها منازل . ولا يمسها أحد بسوء .. وكل ما ورد فى هذا العهد مخفور باسم الله ورسوله وخلفائه والمسلمين عامة . على شرط ان يدفع الناس الجزية بانتظام .

وعاهد « خالد بن الوليد » . أهل الجزيرة فى جو من الحرية بلا تهديد ولا وعيد . فجاء فى هذا العهد :

هذا ما عاهد عليه « خالد بن الوليد » ، نقباء — أهل الحيرة — ورضى بذلك أهل الحيرة وأمرهم به ، وعاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا ، رهبانهم وقسسهم ، الا من كان منهم على غير ذى يد ، حبيسا عن الدنيا تاركا لها ، وعلى المنعة وان لم يمنعهم نلا شىء عليهم حتى يمنعهم .

ولم يكتف بذلك بل قال : وجعلت لهم ايما شيخ ضعف عن العمل أو اصابته آفة من الآفات .. ان كان غنيا فافتقر . وصار أهل دينه يتصدقون عليه . طرحت جزيته . وعيل من بيت المسلمين وعياله ما أقام بدار الهجرة ودار الاسلام .

ويذكر التاريخ أن المسلمين كانوا يعوضـــون الناس عن الضرر الذى يلحقهم خطأ من المسلمين .

ومثال ذلك ان ذميا جاء الى « عمر بن الخطاب » فى أثناء فتوح الشام . وشكا اليه ان بعض المسلمين قد قطعوا عنبا من كرومه دون اذن منه . فخرج « عمر » من المعسكر فاذا به يرى مسلما خارجا من الكرم وقد حمل بعض العنب على درعه : فصاح به فى غضب وحدة : وأنت أيضا قد شرعت ترتكب مثل هذه الحماقات ؟ . فاعتذر الرجل بأنه لم يفعل ذلك الا لاشتداد جوعه فأمر عمر بأن يعوض الرجل عما فقد من عنبه حتى أرضاه .

وعندما شرع « عمـــر بن الخطاب » ينظم ادارة العراق عقب فتحها . استدعى زعماء البلاد غير المسلمين الى المدينة ليستشيرهم ويستأنس بآرائهم. وجاء فى « المقريزى » انه كان يفعل كذلك فيمـــا يتعلق بمصر . فاستشار المقوقس عظيم القبط فى أمور شتى .

وعندما فتح عمر بن الخطاب الشام صالح أهل « ايلياء » . وأمن أهلها على أنفسهم . وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم . واعطاهم عهدا بذلك . وهو المعروف بالعهدة العمـــرية . وقد أوردها « محمد بن جرير الطبـــرى » فى تاريخه . وهذا نصها : بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنـــين أهل ايليـــاء من الأمان . أعطاهم أمانا لأنفسهم وأمـــوالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من خيرها . ولا من صلبهم ولا من شىء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم . ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .. وعلى أهل ايلياء أن يعطـــوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص (١) فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن أحب من أهل ايلياء ان يسير بنفسه وماله مع

---

(١) يثبت من هذا أن نشر الاسلام فى ربوع الشرق كان من أهدافه الجوهرية تحـــرير أرض الشرق من عدوان أبناء الغرب من الروم واللصوص ، فمن أبى المقام مواليا ، خرج وهو آمن على نفسه وماله . ومن أقام مواليا ، أقام وهو آمن ، وآية ولائه دفع الجزية ، أو الضريبة التى لايرى مواطن فى دفعها غضاضة .

الروم ويخلى بيوتهم . حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايلياء من الجزية . ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله . وانه لا يؤخــذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم ، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .. وقد كتب هذا العهد فى العام الخامس عشر للهجرة . وشهد عليه . « خالد بن الوليد . عمرو بن العاص . عبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان » .

وعندما انتشر نور الاسلام الى شتى الأقطا روالأمصار . كانت الشريعة الاسلامية كعادتها . تكفل لغير المسلمين كافة الحقوق . فالاسلام لا يعرف التعصب ولا الظلم . بل يفســح صــدره للأقليات التى لا تدين به . ويأمر برعايتها وحمايتها .

وتوسع معاوية (٤١ — ٦٠ للهجرة ٦٦١ — ٦٨٠ للميلاد) فى الحاق المسيحيين بخدمته . وحذا حذوه أفراد كثيرون من البيت الأموى . وطالما شغل المسيحيون مناصب عاليــة فى بلاط الخليفة . ومثــال ذلك : الشاعر الاخطل — وهو عربى نصرانى . كان شاعر البلاط الأموى وأبو القديس يوحنا الدمشقى . مستشار الخليفة عبــد الملك . كما كان فى خدمة الخليفة المعتصم اخوان مسيحيان : أحدهما يسمى « مسلسويه » . كان اليــه الحل والربط فى كثير من أمور الدولة والثانى ابراهيم . وكان يحفظ خاتم الخليفة. وعهد اليه بخزانة بيوت الأموال فى البلاد واختــار الخليفة عبد الملك عالما مسيحيا من مدينة « الرها » يدعى « اثناس » مؤدبا لأخيه « عبد العزيز » . وقد رافق اثناس تلميذه الى مصر عندما عين واليا عليها . وجمع ثروة طائلة من الأموال . وقيل انه امتلك أربعة آلاف من العبيد . كما ملك كثيرا من الدور والبساتين وكان الذهب عنده كأنه الحصى . وكان أولاده يأخذون من كل جندى دينارا عندما يتسلم راتبه .

وفى عهد الخليفة المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) (٨٥٢ — ٨٦٢ م) كان « عمر بن يوسف » والى الانبار مســيحيا . وقد وافــق الخليفة على هذه الولاية . ولم يجد فى ذلك غضاضة . بل اننا نجد فى عهد « صــلاح الدين

الأيوبى » الذى كان يكيل الضربات تلو الضربات للصليبيين . وزيرا مسيحيا هو « ابن مماتى » . وكان صلاح الدين لا يجد مانعا من الاستعانة بخبرته . والاستفادة بجهوده . والرجوع اليه فى كثير من الأمور .

ولم تكن الضريبة التى يدفعها المسيحيون أو أهـل الذمة فى صـورة « جزية » تعنى فرض سلطة القوى على الضعيف . أو الظافر على الخاسر . أو المنتصر على المخذول .. وانما كانت تدفع مقابل الحماية التى كفلتها لهم سيوف المسلمين . ولما قدم أهل الحيرة هذه الجزية ذكروا صراحة عند تقديمها انهم انما دفعوا الجزية على شريطة أن يمنعوا هم وأميرهم البغى من المسلمين وغيرهم . وكذلك سجل « خالد » فى المعاهدة التى أبرمها مع بعض أهالى المدن المجاورة للحيرة قوله : فان منعناكم فلنا الجزية . والا فلا .

وقد حدث أن رفع « هرقل » راية العصيان ضد المسلمين . ورغب فى الانقضاض عليهم وأخذهم بالغدر والخيانة . فلما علم « أبو عبيدة » قائد العرب بذلك . كتب الى عما ل المدن المفتوحة فى الشام يأمرهم برد ما جبى من الجزية فى المدن . وكتب الى الناس يقول : انما رددنا عليكم أموالكم لأنه بلغنا ما جمع لنا من الجموع . وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم . وانا لا نقدر على ذلك . وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم . ونحن لكم على الشرط .. وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . وبذلك ردت مبالغ طائلة من مال الدولة . فدعا المسيحيون بالتبركة لرؤساء المسلمين وقالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم (أى على الروم) . فلو كانوا لم يردوا علينا شيئا . لأخذوا كل شيء بقى لنا .

ومن هذا يتضح أن المسلمين لم يكونوا ينوون للمسيحيين أو غيرهم من الطوائف شرا ولم يكونوا ينهبون منهم أمـوالهم . أو يستلبون منهم حقوقهم .. انما كانوا يفرضون الجزية عليهم حتى يدافعوا عنهم . ويحموا جانبهم من غائلات المعتـدى الأثيم ، ويقفوا لأعدائهم بالمرصـاد ، فكانوا يحصنون المدن والثغور . يبنون القلاع والحصـون ويرابطون فى عدتهم وسلاحهم للدفاع عنهم . وحماية حقوقهم بالنفس والنفيس ، والسيف لم يكن مصلتا على رأس أحد من الناس ليكون مسلما . ولم يكن المسلمون يلجئون

الى وسائل التعذيب التى لجأ اليها المشركون لصرف الناس عن الاسلام . لم يكن المسلمون يقابلون تعذيب المشركين لاخوانهم فى الدين بالمثل ولم يصنع المسلمون بمخالفيهم فى الدين صنيع المشركين . ولم يكن المسلمون يفعلون مع المذاهب الأخرى ما فعلته قريش مع المسلمين من أجل الايمان بالأوثان . وعبادة الأصنام . والكفران بالواحد القهار . بل كانوا على النقيض من ذلك كما رأينا . يتخذونهم اخوانا . ويعاملونهم معاملة طيبة كريمة .

كل هذه الحقائق تنهض أدلة ناصعة ، وحججا دامغة على أن الاسلام لم يكن فى فترة من الفترات دين عنف وقسوة . أو بغى وتسلط . حقا كان لابد للمسلمين أن يعملوا على نشر الدعوة ، وحقا كان لابدلهم من حمايةجانبهم، وصيانة موقفهم والذود عن حياضهم ومن أجل ذلك قاموا ببعض الفتوح بيد ان هذه الفتوح كلها لم تكن للبطش والارهاب وانما كانت للهداية والايمان .

وجدير بالذكر أن الجزية التى كان يدفعها أهل الذمة فى هذه الفتوح كانت تعفيهم — فضلا عن النواحى سالفة الذكر — من الخدمة العسكرية الاجبارية التى كانت فرضا واجبا على المسلمين الذين يؤدون فى الوقت نفسه فرض الزكاة من أموالهم . وهذا دليل قاطع على أن الاسلام لم يحارب فريقا دون فريق . وكانت الزكاة تنفق فى وجوه البر والخير على الفقراء والمساكين وأبناء السبيل . ولم يعف الاسلام قادرا من أدائها . فالمسلمون لم يبح لهم أن ينعموا ويغنموا فى الوقت الذى يتعذب فيه اخوان لهم . والمسلمون لم يبح لهم أن يسعدوا ويهنئوا فى الوقت الذى يشقى فيه اخوان لهم ، لأن الاسلام دين التعاطف والتآلف والاخوة والمودة والتراحم . وهذه الضريبة كان يدفعها أهل الذمة مساهمة فى توطيد أركان هذا الصرح العظيم . صرح الانسانية التى ترغب فى بناء عزتها ومجدها على أسس من التضامن الاجتماعى والتواصل الروحى والترابط الأخوى بين الطوائف المختلفة دون ضن ودون تردد ولا احجام . وهنا يجب ان نوضح ان الاسلام لم يهدف الى الاستعباد أو الاستعمار انما كان يهدف الى حماية الحقوق وصيانة الحريات . فهو يحتم على المسلم ان يدافع عن الذمى ويحميه . ولو بذل نفسه من غير ان يتعرض الذمى لخطر ولا قتال .. ولا يكلف هـذا الذمى سوى قليل من المال على

هيئة جزية وشتان بين ما يلجأ اليه الاستعمار فى العصر الحديث وما اتبعه الاسلام من نظم سوية وقوانين عادلة . فالاستعمار يعمد فى هذا العصر الى تجنيد أهل المستعمرات وتعريضهم للأخطار ويرغمهم على القتال دفاعا عن مستعمرى بلادهم ، الاستعمار الأوروبى يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته دفاعا عن نفسه . وليبقى أهل المستعمرات خاضعين له فهو يذلهم ويستعبدهم فى سبيل تفوقه وانتصاره وتحقيق أهدافه والوصول الى أغراضه .

أما الاسلام فلم يكن ولن يكون فيه شىء من هـذا فهو يسوى بين المحكومين والحاكمين فى الحقوق والواجبات لا يعرض أهل الذمة لخطر ولا لقتال ولكن يدفع عنهم الخطر ويسوس أمور الدولة ويقيم حـدود الله بين الناس فى ظل المحبة والعدل والرحمة ، دون تكبر ولا استعلاء ودون عجرفة ولا رياء ودون امتهان القوى للضعيف واحتقار الغنى للفقير . وقد ظل الاسلام راسخا فى البلاد التى أخذته مأخذ العقيدة والايمان فآمنوا به بعد بحث طويل ونظر عميق وتأمل كثير ، وانحسر فى البلاد التى لم يأخذه أهلها مأخذ الجد . زد على ذلك ان قوى الشر قد تضافرت على محاربة الاسـلام . فما لبث ان انسحب من صقلية وايطاليا واسبانيا بيد انه ترك فيها حتى اليوم آثارا هيهات ان تمحوها الأيام .. وقد توغل الاسلام فى أوربا عن طريق صقلية والأندلس وضرب المسلمون فى هذه البلاد المثل الأعلى للسماحة ونبل الخصال وعدم التعصب أو الانحياز .

وقد ذكر الكونت « هنرى دى كاسترو » فى كتابه « الاسلام خواطر وسوانح » . ان محاسن المسلمين للمسيحيين زادت فى بلاد الأندلس حتى صار سكانها فى حالة اهنأ من التى كانوا عليها منذ أيام خضوعهم لحكم قدماء الجرمانيين الذين يقال لهم « القوط الغربيون » .

ويقول « دوزى » : ان هذا الفتح لم يكن للأندلس مفر منه ، وما حصل من الاضطرابات والهرج بعده لم يلبث ان زال باستمرار الحكومة الاسلامية فى تلك البـلاد وقد ابقى المسلمون سـكانها على دينهم وشرعهم وقضائهم وقلدوهم بعض الوظائف حتى كان منهم موظفون فى خدمة الخلفاء وكثيرون منهم تولوا قيادة الجيوش . وتولد عن هذه السياسة الرحيمة ان انحاز عقلاء

الأمة الاندلسية الى المسلمين وحصل بينهم زواج كثير . وكم من اندلسى بقى على دينه ولكنه اعجبته طلاوة التمدن العربى فتعلم اللغة العربية وآدابها .. وأصبح القساوسة يلومونهم على ترك شعائر الكنيسة والتعلق بأشعار الفاتحين .

وكانت حرية الأديان بالغة منتهاها لذلك لما اضطهدت أوروبا الموسويين لجئوا الى خلفاء الأندلس فى قرطبة ولما دخل الملك « كارلوس » الحاسرقطه . أمر جنوده بهدم جميع مبانى اليهود ومساجد المسلمين ، ثم يقول « دوزى »: ونحن نعلم أن المسيحيين أيام الحروب الصليبية مادخلوا بلادا الا وعملوا السيف فى يهودها ومسلميها وذلك يؤيد أن اليهود انما وجدوا مجبرا وملجأ فى الاسلام فان كانت لهم بقية الآن فالفضل فيها راجع لمحاسنة المسلمين ولين جانبهم .

وقد تمكن الاسلام من التوغل فى افريقيا لأنه لم يفرق بين الأبيض والأسود فالناس جميعا سواسية كأسنان المشط . ولم يتحرج المسلمون من الزواج من الزنجيات وانجبوا منهن عددا كبيرا من الأطفال المسلمين الذين لم يكادوا يبلغون سن الشباب حتى ازدادت حميتهم واشتد دفاعهم عن الاسلام .

وذهب بعض الزنوج الى ان الاسلام دين السود وان المسيحية هى دين البيض وقد جاءهم هذا الاعتقاد لأن الاسلام سهل لهم أمور العبادة ومكنهم من الوصول الى أرقى الدرجات .

وورد فى القرآن ما يفيد ان بعض الأنبياء كانوا سمر الوجوه ومن ذلك « موسى » عليه السلام الذى جاء فى وصفه فى سورة طه : « واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء » .. كما جاء فى سورة الاعراف : « ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون ان هذا لساحر عليم » . وقد أثر عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) انه قال : اسمعوا وأطيعوا ولو ولى عليكم عبد حبشى .

وكان من نتيجة دخول الاسلام فى افريقيا الاستوائية أن تهذبت نفوس الزنوج وامتنع المسلمون منهم عن أكل لحم البشر وارتدوا ما يستر عوراتهم

والأهالى الذين لم يكونوا يغتسلون قط اقبلوا على التطهر والاغتسال وكان الوضوء من الأسباب الداعية الى نظافتهم . زد على ذلك أن الشعور بالقيم الأخلاقية بدأ يتجسم ويتضح ، فاختفت وسائل السلب والنهب التى كانت متفشية بين القبائل الزنجية وأصبح المسجد قبلة أنظار الزنوج يؤدون فيه فرائضهم ويصلون فيه صلواتهم الخمس فى جو يسوده الجلال والوقار .

وقد كتب « ميك » فى كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » يقول : ان

الاسلام لم يترك أثرا عميقا فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب بل انه جاء بحضارة جديدة أتاحت للشعوب الزنجية طابعا اختياريا متميزا لا يزال واضحا حتى اليوم مؤثرا فى نظمهم السياسية والاجتماعية ذلك أن الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة ، فقد وسع آفاقهم

ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى وخلع على اتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين . لقد حث الاسلام على تعلم القراءة والكتابة وحرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادا تالوحشية وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا فى عالم حر . وليس من شك فى أن هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره « ميك » فى كتابه يقف بجانب الاسلام فى دعوته انه دين مبادىء تهوى اليها النفوس من كل جانب لا دين سيف تصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وقهرا .

أما الاسلام فى آسيا فقد توغل فى الصين والهند والملايو واندونيسيا والفلبين وغيرها من البلاد وكلهم من الشعوب الصفراء فهم لا يختلفون فى قليل أو كثير ولا يفترقون من قريب أو بعيد عن الشعوب البيضاء وقد كان التعليم والاقناع وحدهما الوسيلة التى استخدمها الدعاة المسلمون فى نشر الاسلام ، ولم يلبث الاسلام أن وجد تربة خصبة فى هذه البلاد . وقد شجع الخلجيون — وهم أسرة آسيوية عاشت فى القرن الثالث عشر للميلاد والربع الأول من القرن الرابع عشر — أهل آسيا على اعتناق الاسلام وفى ذلك يقول الرحالة « ابن بطوطة » فى رحلته : انهم قد سنوا عادة تقديم الشخص الذى

دخل حديثا فى الاسلام الى السلطان الذى كان يكسوه كسوة حسنة ويعطيه قلادة وأساور من ذهب بحسب قدره ومنزلته .

كما شجع الأمير « شـــاه تغلق » (١٣٥١ — ١٣٨٨ م) الهنود على اعتناق الاسلام وقال فى مذكراته لقد شجعت رعاياى الكفار على اعتناق دين النبى . وأعلنت لهم ان كل شخص يترك هذه العقيدة ويصبح مسلما يعفى من الجزية أو ضريبة الرأس .

ولما تقدم هذا النبأ بمسامع الناس تقــدم الهندوس زرافات ووحدانا وسمح لهم بان ينالوا شرف الاسلام ومن ثم أخـــذوا يأتون من كل حدب وصوب . ولما اعتنقوا الاسلام اعفوا من الجزية ومنحوا الهــدايا ومظاهر التكريم .

وهكذا كان للأمراء والحكام دور كبير فى نشر الاسلام بعد الرعية . زد على ذلك ان كثيرا من النفوس تفتحت لعقائد الاسلام الشريفة . وعرفت مزاياه الكثيرة . واستجابت لدعوة الداعين اليه . فنعمت بما يكفله للمسلمين من حقوق رفيعة .

والاسلام أيضا دين الحرية بكل ما لهذه الكلمة من معان ومدلولات عند الغربيين وعند العرب . على الســـواء . ذلك بان « كيتـــانى » المؤرخ الايطالى المعروف يذكر فى كتابه « حوليات الاسلام » (جزء ٢ ص ١٠٤٦) : لما أهلت آخر الأمر أنباء الوحى الجديد فجأة من الصحراء . لم تعــد تلك المســـيحية — التى اختلطت بالغش والزيف وتمــزقت بفعــل الانقسامات الداخلية . ونزعت عقائدها الأساسية . واستولى على رجالها الريب والشكوك لما صار الأمر هكذا — لم تعد المسيحية قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك . وقدم مزايا جليلة الى جانب مبادئه الواضحة البســـيطة التى لا تقبل الجدل — وحينئذ ترك الشرق المســـيح وارتضى نبى العرب .

وقال « أوجست كونت » الفيلسوف الاجتماعى المعروف : ان أحسن ما يكون لنا من حرية هو ان نعمل بقدر استطاعتنا على سيادة الميول الطيبة على الميول السيئة . كما يرى « هيمون » ان الحرية هى سيطرة الانسان على نفسه . وهذا يكون بعمل الفكر والارادة ضد الشهوة والهوى .

وقبل هذين يقول : « ابيكنتوس » الفيلسوف الروائى المعروف : ان على من يريد أن يكون حرا ألا يخف أو يرجو شيئا يملكه غيره ، والا فلن يكون حتما الا رقيقا .

كل ذلك تأييد لرسالة الاسلام . وان الاسلام دين فكر وبرهان . لا دين سيف وسنان . ومن أراد أن يفهم طبيعة الاسلام كما شرعه الله وجاءبهرسول المسلمين (صلى الله عليه وسلم) فليس له طريق الى استقراء أحكامه الا أن ينظر فى كتاب الله ويعمق النظر فيه . ويقرأ سيرة الرسول ويتتبع سبيلها ليتبين له ان الاسلام برىء من الاكراه . وبعيد عن قسر النفوس وسوقها الى اعتناقه .

وليس بالرجل البصير ذلك الذى يأخذ الأمر بمجمله غير مفصله ويستمع الى البحوث العلمية من أفواه الناس الذين اعمتهم العصبية عن نصرة الحق . وصدهم الغرور عن سواء السبيل . وانما سبيل أهل الحكمة البصيرة ان يقصدوا الى المسائل العلمية من ينابيعها الصافية ويبحثوا عن النظريات الاجتماعية فى نطاقها . ويطلبوا لكل قضية دليلها ليكون البحث مؤديا الى الحقائق وهاديا الى الطريق المستقيم . وقد درج أعداء الاسلام على ان يذيعوا عنه قالة السوء لينفروا الناس منه ويرموه بما ليس فيه ، ليقيموا بين العقول وبينه سدا منيعا . ومن عادة السذج من الناس أن يتلقفوا هذه الشائعات على أنها علم يؤثر ومباحث قد أخذت حظها من التنقيح والتهذيب فلا يلبثون أن يؤمنوا بها ايمانا ويجعلوها فى محل العقيدة التى لا تتزعزع وهذا نقص كبير فى الناس حتى فى المثقفين منهم لم يسلم منهم الا قليل ممن خصه الله بالعلم والحكمة وآتاه الفهم فى الأمور والصواب فى التفكير . ومن سوء الحظ أن هؤلاء قليل ، وانى أقرر هنا لمن يريد أن يعرف عن الاسلام حكما أو ينشد من مبادئه صوابا ان المسلم لا يستقى دينه الا من آية محكمة أو سنة متبعة .. أما عمل المسلمين الذين لا يتحلون بفضائل الاسلام ، ولا يعرفون منه الا اسمه ولا يتبعون الا ظاهرا يوافق أهواءهم فليس بحجة على الاسلام وليس لأحد أن يقول : كذلك يفعل المسلمون ، وقد ذكرنا أسباب الحروب التى شنها المسلمون والمعارك التى أقاموها وذكرنا أسبابها وهى فى

شرعة الانصاف أسباب لا ترجع الى المسلمين ولكنها جميعا ترجع الى خصوم الاسلام الألداء والى ما وضعوه من العقبات فى سبيل دعوة المسلمين الى دينهم أو تأهيلهم لقتال المسلمين والتنكيل بهم ، ووصلنا الىصلح الحديبية وذكرنا بعض ما كان فيه من الأدلة على حب الرسول للسلام وان الاسلام دين الأمان والسلام . وأن رسوله رسول طمأنينة وهدوء لا رسول شغب يؤثر الشغب واراقة الدماء وأنه جاء الى الناس يحمل معجزة القرآن يدعوهم فيه الى النظر بعقولهم ويطالبهم بان يصلوا فى نظرهم الى آخر ما تنتهى اليه قوتهم . فان اداهم النظر الى صحة الاسـلام اعتنقوه والا فان الاسلام لا يطالبهم الا بأن يفسحوا الطريق امام دعـوته ولا يصدوا أحدا عنها . ولا يكرهوا مخلوقا على الكفر بها ولا يعذبوا مسلما فى دينه ولا يفتنوا مؤمنا لايمانه فان آثروا لأنفسهم الدعة والهدوء . وتركوا دعوة الاسلام فى طريقها فقد آثروا السلامة وان كانت الأخرى فليس على الاسلام من جناح ان ردهم الى الخطة المثلى وأخضعهم لحكم العدل والنظام وقد كان الاسلام يحمل فى ذلك أعباء تنوء بها عزائم الرجال ويرضى بأقل من المعدلة ، ليقر السيوف فى أغمادها ويبرىء القلوب من أحقادها .

كانت شروط الصلح فى الحديبية :

ا) وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات .

ب) من جاء المسـلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشـا من المسلمين لا يلزمون برده .

حـ) أن يرجع المسلمون من غير عمرة فى عامهم ثم يأتون العام المقبل فيدخلوا مكة بعد أن تخرج قريش منها ويقيموا بهـا ثلاثة أيام ليس معهم من السلاح الا السيف فى القراب .

د) من أراد ان يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه ومن أراد ان يدخل فى عهد قريش دخل فيه ولا شك أن فى هذه الشروط اجحـافا بالمسلمين اذ لم يكن فيها مساواة بين الفريقين فمن الظلم الفادح ان تفرق قريش بين من يأتيهم من المسلمين فلا يردونه ومن يأتى المسلمين

من قريش أن يلزموا برده لذلك كان منها من المهانة ما لا يتحمله الا من يتحمل المظلمة في سبيل اقرار السلام ويرى بنظره الثاقب ان السلم خير للانسانية من الحرب وأبقى على كرامة الناس وأحفظ لما يستثمرون من مال . أما نهاية الحرب فهي الدمار والفناء ومن أحق بادراك ذلك كله من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد فطره الله على الحكمة وبرأه من الطيش والنزق في سياسة الأمور وتدبيرها .

وقد جمع النبي أصحابه ليخبرهم بهذه الشروط وذكر لهم حبه للسلام . وايثاره للهدوء والطمأنينة وانه لذلك يرضى بهذه الشروط لأن السياسة البارة تقضي عليه بذلك وتقتضي ان يتهادن مع أعداء الاسلام ولعل في هذه الخطة ما يحمل هؤلاء الأعداء على مودة المسلمين . بل لعلهم يعتنقون الاسلام . وقريش هم قريش عمود العرب وأعظمهم رجالا . وأقواهم على حمل رسالة الاسلام . فمن حصافة الرأي ان يتساهل معهم . وسيأخذ بالرفق ما لا يأخذ بالعنف . وسيدخلون في الاسلام مع صون دمائهم وأموالهم . كل ذلك كان ماثلا أمام عين الرسول . ويرى أنه لازم وأكثر منه لاقرار السلام . وحقنا للدماء وابقاء على الأرواح . ولكن أصحاب الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يدركوا شيئا من هذه الأهداف البعيدة لهذه السياسة التي يسلكها النبي صلى الله عليه وسلم) ولم يعلموا انه يريد أن يصل بالحق والحجة الى ما يريدون أن يصلوا اليه بالسيف والرمح ، لتكون سنة البشرية في صراعها جارية على المنطق ، ومقارعة الرأي بالرأي لا على القوة والطغيان والعسف ! ولما خفي على الأصحاب كل هذا ، داخلهم من تلك الشروط أمر عظيم . وفي الحق أنها كانت شروطا مقرونة بالتحدي من قريش ، وكانت جديرة أن تثير حفيظة المسلمين ، ليدفعوا عن أنفسهم بالسيوف ولذلك قالوا للرسول (صلى الله عليه وسلم) : سبحان الله كيف ترد اليهم من جاءنا مسلما ، ولا يردون الينا من جاءهم مرتدا ؟ فقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) : انه من ذهب منا اليهم أبعده الله ، ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم ، فسيجعل الله له فرجا ومخرجا .

وكذلك برم المسلمون بأمر هذه الشروط وضجروا منها . وهاجت نفوسهم للحرب . لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أخبرهم انه رأى في

منامه انهم دخلوا المسجد الحرام آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين : فكيف يرجعون دون امتشاق الحسام . لتصدق رؤيا النبى . ولكن الايمان المطلق بالله ورسوله هو الذى ألهم المسلمين أن يكفوا عن مجادلتهم وتبرمهم ، وألهم « عمر » أن يسأل أبا بكر فى ذلك . فقال أبو بكر . بما عرف به من رجاحة عقل وقوة ايمان . وهل ذكر أنه فى هذا العام ؟ فرجع عمر الى رأى أبى بكر وسكت عنه الغضب ! ولم يزل النبى بأصحابه حتى قبلوا هذه الشروط حبا للسلام . وفى أنفسهم ما فيها وقد كانوا أقوياء ، وكانت قريش ضعيفة ، فلم يكن عليهم من بأس لو أشعلوها نارا حامية تأكل الأخضر واليابس ! . ولكن رسولهم كفكف من حدتهم . وقادهم الى التى هى أقوم ! ثم كان بعد ذلك من صبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) على استفزاز قريش ما قام دليلا قويا على أن الاسلام لا يريد للناس الشقاء . ولكنه يريد لهم السعادة . وينشر عليهم رحمته ورفقه . فقد وقع حين كتابة عهد الصلح ما يودى بصبر الحليم . ولكن الرسول احتمل ذلك كله بأناة وهدوء . وقد كان ذلك جديرا أن يثير عجاجة لا ينطفىء شررها ! . فقد دعا السيد الرسول على بن أبى طالب ليكتب العهد وقال له : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فاعترض سهيل بن عمرو — مندوب قريش — على ذلك وقال : بل اكتب باسمك اللهم !قال النبى لعلى اكتب باسمك اللهم . ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : أمسك ؟ . لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . قال رسول الله : أكتب هذا ما صالح عليه « محمد بن عبد الله » هذا درس عظيم فى حب السلام . والبعد بالانسانية عن مواطن التطاحن والشحناء . يلقيه النبى (صلى الله عليه وسلم) ولو كان الاسلام دينا يحب الخصام ، ويلتمس للقتال أوهى الأسباب . ما أجاب رسول الله سهيل بن عمرو الى ما طلب من هذه الأمور التى لم يبعث سهيلا عليها الا العناد وحب السلطان والزهو بالعقائد الفاسدة التى كان يعتقدها أهل الجاهلية ! !

وما كاد هذا العهد يوقع حتى أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو على المسلمين ، يريد أن ينضم اليهم ويسير معهم . فلما رأى سهيل ابنه ضرب وجهه وأخذ بتلابيبه . وجعل يجره ليرده الى قريش . وأبو جندل يصيح بأعلى

صوته : يا معشر المسلمين ، أرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟ وزاد ذلك فى قلق المسلمين . وعدم رضاهم عن العهد الذى عقده الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع سهيل ! لكن الرسول وجه الى أبى جندل قوله : يا أبا جندل اصبر واحتسب . فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . انا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وانا لا نغدر بهم . وعاد أبو جندل الى قريش نفاذا لعهد النبى ووعده . وقام سهيل راجعا الى مكة . والمسلمون قد وفوا له بما عاهدوه عليه . وقد جزى الله هؤلاء المؤمنين أحسن الجزاء على حبهم للسلام ، وكراهيتهم للعدوان ففتح عليهم ذلك الفتح المبين الذى تحدث الله عنه فى كتابه الكريم : « انا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » . وهو فتح استحق به المؤمنون أن يدخلهم ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار . وان يكفر عنهم سيئاتهم . ولم يجرد فى هذا الفتح سيف . ولم يسل فيه دم . ولم تروع فيه نفس . ولم يهتك فيه ستر . بل كانت جنوده الظافرة وأسلحته الماضية . هى الحلم والصبر والأناة ورعاية الرحم وحب السلام وارضاء النفس فى سبيل الله .

ومن أدب الاسلام ، أن كل ما أطلقه الاسلام من حرية فى القول أو الفعل أو الرأى أو السياسة . أساسه عدم الاعتداء على حق الغير . فقد نهى عن الاعتداء نهيا مطلقا . وذكر الله سبحانه وتعالى فى أكثر من آية انه لا يحب المعتدين . فقال سبحانه « ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » . وقد وضع النبى (صلى الله عليه وسلم) قاعدة للتعامل العادل الذى لا اعتداء فيه : عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . وان ذلك القانون هو أمثل قانون يجد فيه الانسان ما يباح له ان يفعله . وما لا يباح بالنسبة لحق الغير . ولقد قرر الفيلسوف الألمانى « كانت » ان الميزان الصادق للأفعال التى يجوز للانسان أن يفعلها . والتى لا يجوز هو ان يفرض الشخص عند القيام بعمل أن ذلك العمل يباح للناس أجمعين . ولينظر ما يترتب على ذلك فان كان الذى يترتب عليه صلاحا لا شك فيه ، فان ذلك العمل يكون متفقا مع الأخلاق ، وان كانت اباحته للجميع يترتب عليها ضرر لا محالة فان ذلك العمل لا يكون متفقا مع الأخلاق .

وان الاسلام فى تطبيق مبدأ منع الاعتداء قد قرر : ان الله سبحانه وتعالى يغفر لعباده ما يكون فيه اعتداء على حقوق الله تعالى اذا تاب العبد عما ارتكب .

فمن شرب الخمر وتاب فان الله يتوب عليه . آما من اعتدى على حق من حقوق العباد . فان الله تعالى لا يقبل توبته الا اذا أعاد المعتدى الحق الى صاحبه أو عفا صاحب الحق ، فمن اغتصب مالا لانسان ، ثم تاب لا تقبل توبته الا اذا أعاد المال لصاحبه . أو عفا عنه صاحب المال ومن أصاب انسانا بأذى فى بدنه لا يقبل الله توبته الا اذا عفا المجنى عليه ، أو اقتص من الجانى ، أو أدى من عليه الحق عوضا عما أصاب الآخر من أذى .

والاسلام دين المعاملة العادلة وبخاصة منع الاعتداء . والعدالة حتى مع الاعداء . واذا كان لكل دين سمة . فسمة الاسلام العدالة ومنع الأذى . ولذا ورد عن النبى أنه قال : المسلم من سلم الناس من لسانه ويده .

ولقد نفذ النبى (صلى الله عليه وسلم) مبدأ الاتحاد الدولى . عندما هاجر الى المدينة . فقد عقد — كما أشرنا مع اليهود الذين كانوا يجاورونه عهدا كان أساسه التعاون بينهم وبين المسلمين فى دفع الأعداء واقامة الحق وهذا ما يسمى فى عرف العصر بالتعايش السلمى ، ولكنهم نقضوا عهودهم التى عاهدوا النبى عليها كما ذكرنا . فنالوا مغبة ذلك بما أنزل الله بهم من عقاب على يد النبى وأصحابه .

وكان النبى يعقد المعاهدات مع القبائل العربية لايجاد تعاون انسانى . لاعلاء المعانى الانسانية ، وكان يحبذ كل تعاون على الخير ، ويمنع كل تعاون على الشر . ولقد ذهب الى مكة حاجا فعلم أن قريشا تريد منعه ، فمد يد المسالمة اليهم وهو يقول : لو دعتنى الى أمر فيه رفعة البيت الحرام لأجبتهم .

وقد يقول قائل : كيف يكون الاسلام قد وضع مبدأ الحرب وخاض النبى (صلى الله عليه وسلم) . وصحابته غمارها . ومع ذلك يقرر أن أساس العلاقة الانسانية هو التعاون بين بنى الانسان ؟ والجواب عن ذلك أن هذه الحرب العادلة هى من قبيل التعاون واحدى ثمراته ، فليست تعاونا على

الاثم والعدوان . انما هى تعاون على البر والتقــوى ومحافظة على الكرامة الانسانية وان الاسلام ما سل سيفا على طالب حق . وما اعتدى على أحد . ولكن كان هناك اعتداء غاشم عليه وكان هناك ملوك قد أرهقوا رعاياهم ، وضيقوا عليهم وحالوا بينهم وبين نور الحق . وقتلوا من آمنوا بالحق الذى أدركوه . والدين الذى ارتضوه . فكان قانون التعاون أن يرد كيد الظالمين وأن يرفع عن تلك الشعوب المنكوبة بحكم الطغاة نير العبودية والاسترقاق . وقد كانت الحرب لذلك . وان السكوت فى هذه الحال ليس من التعاون بل ان الحرب العادلة هى من التعاون . لأنها منع للفتنــة فى الدين ولأنها تمكين للمضطهدين من أن يتنسموا نسيم الحرية . ولذلك قال سبحانه : « أذن للــذين يقاتلون بأنهم ظلموا . وان الله على نصرهم لقــدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنــا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز » .

وبهذا يتبين أن هذه الحروب التى تولاها محمد (صلى الله عليه وسلم) وتولاها من قبــله موسى وداود وسليمان كان الغرض منها التعــاون على الحق . وانه لولاها ما قامت عبادة فى الأرض . ولهدمت البيع والصوامع . وهى معابد النصارى واليهود . والمساجد . وهى معابد المسلمين . وان كلمة الحرب اذا ذكرت فى عصورنا ذكر معها الخراب والدمار واستباحة الحرمات . ونشر الفساد والانحــلال والانطلاق من كل روابط الانســانية . حتى انه ليؤخذ بجرائرها الآمن فى سربه والحامل لسيفه ، لا فرق بينهما فى شىء ، وانه لا يسلم منها الذرارى الضعاف . ولا الزراع الذين يفلحون الأرض . بل ان ويلاتها تعم ولا تخص . يكون التدمير فى موضع البر . وموضع السقم على السواء . ولكن حروب النبيين والصديقين والشهداء والصالحين كانت حروبا فاصلة تظللها التقوى ، فلا يقتل الا من يقاتل بنفسه أو بتدبيره ، أما الزراع والعمال فلا تمتد اليهم يد بأذى . ولذلك يقول صلى الله عليه وسلم لبعض جيوشه : وسيروا على بركة الله ، لاتقتلوا وليدا ولاامرأة ولاعسيفا (١)

---

(١) العامل الاجير

وكان المسلمون يدعون الى التعاون بالمعـاهدة يعقدونها معهم ، أو بالاسلام اذا ارتضوه دينا . مختارين لا مكرهين . ولذلك كانوا اذا اضطروا الى مهاجمة دولة خوفا ومنعا لاعتدائها عليهم ، دعوها الى احدى خصـال ثلاث : اما الاسلام واما العهد واما القتال ، وليس العهد فى ذاته الا تعاونا على السلام . وكان أولو الأمر يشددون فى حمل قوادهم على تكرار هذه الدعوة كلما ساروا الى بلد وأحاطوا به .

ولقد حدث أنه عندما أغارت جيوش المسلمين على « صفد » من أعمال سمرقند ، لم يدعهم القائد الى احدى هـذه الخصال الثلاث . فشكوا الى « عمر بن عبد العزيز » فكتب « عمر » الى والى « سمرقند » يقول له : اذا أتاك كتابى هذا فأجلس لهم القاضي .. فلينظر فى أمرهم ، فان قضى لهم ، فأخرج العرب الى معسكرهم . وقد قضى القاضى لأهل سمرقند ، وخرجت الجيوش الاسلامية من البلاد التى استولت عليها ليعرض القائد هذه الخصال من جديد .

وذلك من الأدلة القوية على أن الاسلام لم ينتشر بحـد السيف كما يتقول المتقولون ويتخرص المتخرصون ، والدين الذى يتوارثه الناس كابرا عن كابر ، وجيلا بعـد جيل ، لا بد أنه متغلغل فى القـلوب ، مستقر فى النفوس ، وانه يسرى فى الصدور مسرى الدماء فى العروق .

وقد استقر الاسلام فى آسيا وغيرها من القارات عشرات القرون ولو كان السيف وسيلته لاختفى باختفاء السيف ، ولزال بزوال السلطان . فالدليل على أنه عقيدة وايمان انه استمـر هذه المئـات من السنين دون أن يعتريه ضمور أو اضمحلال ، ودون أن يدركه فتـور أو خور ، أو تزعزعه أية قوة وتطـوح به .. بل على النقيض من ذلك تجـد فى الهنـد والصين واندونيسيا وغيرها من البلاد الآسيوية مسلمين يتمسكون بالعقائد الاسلامية تمسكا شديدا . ويعانون المشاق والمتاعب من أجل السفر الى بيت الله الحرام لتأدية فريضة الحج . وهم لا يعبأون بما يتجشمونه من صعاب . ومايكابدونه من آلام لأنهم يعتقدون كغيرهم من المسلمين فى الثواب والعقاب . ويؤمنون بأن فى أداء هذه الفريضة ثوابا عظيما . وأجرا جزيلا وحق قول الله جل شأنه

فيهم : « كنتم خير آمة أخرجت للناس » . وقوله وهو أصدق القائلين : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » . وقد مدح الله الأمة المحمدية فى التوراة والانجيل والزبور . وفى هذا يقول الله تعـالى فى كتابه الكريم : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » .

ومن الأسباب التى حببت الاسلام الى النفوس ، وجعلت الناس يهرعون اليه ويميلون الى تعاليمه • انه لم يحدث فجوة فى الثقافة القـائمة فى ذلك انوقت . فالحضارة التى سـادت أيام بنى أمية لم تكن الا امتدادا لحضارة الاغريق • وكذلك الفن الذى انتشر فى ذلك العصر لم يكن سـوى الفن الشامى الاغريقى . الذى قام منذ آماد بعيدة كما أن الفنانين الذين ظهروا فى تلك الحقبة كانوا هم الفنانون المسيحيون الذين تعلموا وتثقفوا بالثقافة البيزنطية . مع بعض المحاولات التى تضفى على كل ذلك مسـحة اسلامية حتى لايكون هناك مايخالف تعاليم الاسلام •

ولم يحاول المسلمون أن يأخذوا الأمر عنوة وقسرا ، بل ساروا فى روية وحكمة ، اذ أنهم تركوا أكثر الوظائف المدنية فى البلاد التى سيطروا عليها فى أيدى أهلها الذين يتكلمون اللغة اليونانية ، كما كانت حسابات الدولة نفسها تدون بنفس اللغة التى يتكلمها أهل البلاد . وقد ظلت هذه الحال ما يقرب من قرن من الزمان وعلى هذا نستطيع أن نقول : ان الشقة بين الاسلام والمسيحية لم تكن بعيدة ولم يكن الاختلاف بينهما كبيرا .

بل ان الكثيرين من ذوى الفكر من معـاصريه قالوا ان تعاليم محمد ليست الا آراء متطرفة مكملة لما جاءت به المسيحية . وهذا السبب بالاضافة الى البساطة والتقشف التى كان يضفيها الاسلام على الحياة . هو الذى حبب الاسلام الى المسيحيين الساميين فدخل الكثيرون فى دين الله أفواجا .

وأما الذين لم يدخلوا الاسلام فقد اندمجوا مع العرب المسلمين الآتين من الصحراء وتزوج المسلمون من المسيحيات وأنجبوا منهن أطفالا مسلمين وذلك لأن العقيدة الاسلامية لم تكن عسيرة على أفهام المسيحيين .

وبهذا الاندماج وهـذا التزاوج زاد عدد المسلمين زيادة كبيرة ، ثم أخذ الاغريق فى هذه البلاد فى الزوال . وخاصة بعد انتقال الخليفـة من دمشق الى بغدادِ التى كانت فى ذلك الوقت منغمسة فى الخضم الفارسى . وقد أقبل أهل العراق على الاسلام ، وتقبلوه فى يسر وسهولة وكذلك فعل الفرس فتركوا مسيحيتهم فى سرعة مدهشة وصارت لهم فى الاسلام صورة مميزة لا يزالون يحتفظون بها الى الآن .

وقد أخذ الخلفاء العباسيون الذين أقاموا ببغداد ثقافتهم من الملوك الساسانيين ، وبذلك امتازت الحضارة العربية بأنها مزاج من الحضـارات الاغريقية والرومانية والفارسية ، ولم يحدث فى تاريخ الثقافة الاسلامية أن شعر أحد بأية فجوة الا بعد أن غزا الأتراك والمغول بلاد الاسلام وأصبح لهم النفوذ والسيطرة .

وقصارى القول انه على الرغم من محاولتنا تلمس الأسباب التى كان لها فى الماضى أثر فى نجاح الاسلام السياسى ، هذا النجاح المفاجىء المذهل، فلا يمكن أن نهمل التأثير العظيم البالغ للبسالة والحكمة والاخلاص الذى تركه « محمد » فى نفوس أتباعه فامتلأت به قلوبهم من بعده .

والواقع انه يحق للمسلم أن يعتز بكل هذه الميزات عندما يقرأ تاريخ هذه الحقب ولا سيما عندما يدرك أن هذا الدين الذى يعتنقه هو الدين الذى ارتضاه له ربه ، وان أول دعامة من دعائمـه « لا اله الا الله محمـد رسول الله » . دين المحبة والمساواة . دين السلام والاخاء .

قال المستشرق الانجليزى « ر.هـ.فولت » فى كتابه «حقيقة الاسلام» الجهاد فى سـبيل الله أو الحرب المقدسـة دفاعا عن الدين والوطن ضد الكافرين الذين يناصبون المسلمين العداء ، ويقفون فى سبيل دعوتهم حجر عثرة ، عمل مطالب به كل مسلم وفى حكم الفرائض ، وكثيرا ما يضـاف اليها بدليل نزول كثير من آيات القرآن تحض المسلمين على الجهاد وتشتمل على وعود فيها الخير الكثير والثواب العظيم فى الآخـرة . وهناك سورة كاملة تكاد تكون كلها حضا على الجهاد فى سبيل الله : « كتب عليـكم

القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرا لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » .

« ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما »

«انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » .

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله » .

وللقرآن فى هذا المقام طريقة فريدة عندما يحض المسلمين على القتال يثبتهم ويقوى روحهم المعنوية حتى ينزلوا الى المعركة وهم واثقون من النصر مادامو متبعين لأوامر قوادهم ، لأنه يبين لهم أن النصر ليس معقودا على الكثرة العددية ولكن على قوة الايمان والصبر : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين » .

« ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وان يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » .

ومع ذلك فان هذه الحرب لا تقوم اعتباطا ولا يتلمس لها المسلمون أوهى الأسباب ، لأن لديهم القوة التى تبدد شمل عدوهم ، وعندهم الوعد من ربهم بأنه يشترى منهم أنفسهم بأغلى ثمن ، ذلك الثمن الذى يتمناه كل مؤمن بربه .. بل على العكس من ذلك لا يقدمون على هذه الحرب الا مضطرين بعد نفاذ كل حيل السلم فهم يتلمسون طرق السلام والبعد عن مثيرات الحرب ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

« وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، انه هو السميع العليم » .

فليس الاسلام دين حرب وسفك دماء ، ولكنه دين سلم واخاء يعمل على نشر مبادئه بالحسنى كما يدفع أعداءه باللين ، فان عجز لجأ بعد ذلك الى القوة .

وقد كان خليفة المسلمين أيام الامبراطورية الاسلامية يجمع بين مختلف الزعامات ، فهو الزعيم الدينى والزعيم السياسى والقائد الأعلى للجيوش الاسلامية فى مختلف الميادين ، وذلك لأن الحرب المقدسة لم تكن تختلف عن الحرب السياسية فى شىء بل انهما تسيران جنبا الى جنب .

بيد أنه عندما ضعفت الدولة وفقد الخليفة مركزه هذا أصبح الجهاد فى سبيل الله عملا يتوقف على الصفات الأخلاقية الشخصية ، وعلى ما يتمتع به المسلم من قوة الايمان وثبات العقيدة ، ولقد بذلت فى السنوات الأخيرة جهود كبيرة لاحياء تلك الحرب المقدسة ودفع المسلمين الى الجهاد فى سبيل الله وسوف تكلل هذه الجهود بالنجاح والفوز والانتصار ان شاء الله .

ولما كانت العقيدة الاسلامية قوية بالحق الذى تنادى به قوية بأنها لا تجعل فضلا لعربى على عجمى الا بالتقوى ، وبأنها لا تجعل لغير الله على الانسان سلطانا ، أسرعت الى الانتشار فى ربوع الأرض كلها كما تسرع كل حقيقة صادقة الى الانتشار وتمكن الاسلام من العقول والقلوب بقوة سلطانه ، لذلك تعاقبت على أممه دول حكمتها وقهرتها وتحكمت فيها ، فلم يغير ذلك من اسلامها ولا غير من ايمانها وما تزال أوربا اليوم تحكم بعض الشعوب الاسلامية وتتحكم فيها ، ولن يغير ذلك من ايمانها بالله شيئا . فأما الذين يأخذون المسلمين اليوم بالسيف فمصيرهم ، كى تصدق عليهم كلمة الانجيل ، أن يؤخذوا بالسيف جزاء وفاقا .

وحكم العالم اليوم بالسيف هو سبب الأزمة الروحية والنفسية التى يجتازها العالم ويئن من هولها ، وقد آمنت الدول التى تحكم العالم بالسيف أثناء الحرب العالمية الماضية منذ أكثر من عشرين سنة ، بهذه الحقيقة ، فأرادت أن تقر حكم السلام فى العالم ، وأقامت عصبة الأمم لتحقيق هذه الغاية .

لكن روح السلام لم تسد العالم بعد ، لأن أساس الحضارة الغالبة فيه هو الاستعمار ، الاستعمار القائم على أساس القوميات وتنافسها ومحاولة كل دولة قوية استغلال الدول الضعيفة . ومن حق كل أمة مغلوبة على أمرها ، بل أول واجب عليها ، ان تعمل لتحطم نير الغالب ، ولذلك كان الاستعمار بذرة الثورة والحرب نواتها . واذا ما بقى الاستعمار فلن يكون للسلام الغلب ، ولن تضع الحرب أوزارها الا ظاهرا ، وستظل الأمم ينظر بعضها الى بعض نظرة التوجس والحذر ، بل نظرة التربص للاغتيال ، وان ما نشاهده اليوم من النضال بين الكتلتين الشرقية والغربية فى سبيل التوسع فى الاستعمار السياسى والاقتصادى ، والتنافس فى التسليح ، والاختراعات الحربية الحديثة المهلكة ، مما يجعل العالم يعيش فى حالة من القلق والتوتر وحرب الأعصاب ، وأنى يكون سلام وهذه النفسية باقية .

انما يكون السلام ، يوم يغير الناس فى مختلف أمم الأرض ما بأنفسهم ، ويوم يؤمنون بالسلام ايمانا حقيقيا ، ويقيمون على أساسه تعاليمهم ويجمعون أمرهم باخلاص على الوقوف فى وجه كل محاولة تعكر صفوه .

وانما يكون ذلك يوم لا يكون الاستعمار أساس حضارة العالم .ويوم يرى الناس جميعا فى مختلف بقاع الأرض أن واجبهم الأول أن يعين قويهم ضعيفهم ، وأن يرحم كبيرهم صغيرهم ، وأن يهذب عالمهم جاهلهم ، وأن ينشروا لواء العلم فى نواحى الأرض جميعا ، حرصا على أن يسعد الناس به . لا على أن يتخذ أداة لاستغلال الشعوب باسم العلم ، وباسم الصناعة التى تستفيد من العلم ، يوم يؤمن العالم كله بهذا المبدأ . ويوم يشعر الناس جميعا بأن العالم كله وطن لهم ، وبأنهم جميعا اخوة يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه ، يومئذ يسود بين الناس التسامح ، وتسود بينهم المودة ، ويومئذ يتخاطبون بلغة غير التى يتخاطبون اليوم بها ويتبادلون الثقة فيما بينهم ، وان بعد بينهم المزار ويعملون الخير جميعا لوجه الله ، ويومئذ تنتفى الخصومة والبغضاء وتعلو كلمة الحق ويسود السلام الوجود كله ويرضى الله عن الناس ويرضون عنه .

وحق قول الله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليومَ الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

أين هذا مما يسود العالم اليوم باسم الحضارة الغربية من تعصب للقومية وللدين ، وما يجره هذا التعصب من حروب وكوارث ، فلو أمعن القارىء فى التسامح الذى تحمله هذه الآية الكريمة السابقة ، لأدرك حقيقة التسامح والتسامى فى الاسلام ، وأنه لا تفرقة مطلقا بين الناس ولا فضل لأحدهم على الآخر الا بالتقوى ، والمؤمنون فى الآية الكريمة هم الذين صدقوا النبى عليه الصلاة والسلام ، والذين هادوا هم اليهود ، وقد سموا باليهود من قولهم انا هدنا اليك أى تبنا ، والنصارى هم أتباع عيسى عليه السلام ، وتسميتهم بالنصارى هى من نسبته الى الناصرة وهى القرية التى ولد بها عيسى عليه السلام بفلسطين . والصابئون هم قوم يقولون لا اله الا الله ، وليس لهم كتاب ولا نبى .

هذا الروح السامى فى تسامحه هو الذى يجب أن يسود العالم ، اذا أريد أن يستقر فى العالم كله السلام ليسعد الناس به ، وان حياة رسول السلام ، كما رأيت ، حياة انسانية بلغت من السمو غاية ما يستطيع انسان أن يبلغ ، وأى سمو فى الحياة كهذا السمو الذى جعل حياة الرسول قبل الرسالة مضرب الأمثال فى الأمانة والصدق والكرامة ، كما كانت بعد الرسالة كلها تضحية فى سبيل الله وفى سبيل الحق الذى بعثه الله به ، تضحية استهدفت حياته من جرائها للموت مرات ، ذلك بعد أن أغراه قومه ، وهو فى الذروة منهم حسبا ونسبا ، بالمال وبالملك ، وبكل المغريات ، فلو قد أراد الجاه والمال والسيادة والملك بدعوته ، لبذلها العرب اليه فى سخاء وتقدير ، ولو لم يكن مؤيدا بقوى قاهرة من فوق السماء لتخطفته السيوف ولقضت على أتباعه الآلاف العديدة التى أحاطت بهم فى كل معركة ومجال .

وخلاصة القول : أن البصير بالتاريخ يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل فى حياته سيفا لارغام أحد من الناس على الدخول فى دينه ، ولكن الهدى هدى الله يهدى به من يشاء .

ما كان للنبي والمؤمنين أن يدعوا الى الله ودينه سالكين طرق العسف والارهاب وهذا كتاب الله يأمرهم بالحسنى فى الدعوة كما قال : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »

وقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » .

انظروا أيها المستشرقون المتقولون الى ابداع كتاب الله فى الرد على أهل الكتاب القائلين بأبوة الله للمسيح مع اشتماله على أحسن آداب المحاجة حيث يقول الله في هذا الصدد : « ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله ، ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » .

هذا هو الاسلام ، وهذا هو نبى الاسلام الذى كان آخر وصاياه : ضعوا على قبرى جريدة خضراء ، هذا هو الاسلام دين القوة ، دين الحرية ، دين العزة والكرامة دين السلام . والمحبة .

الفصل الثالث
الاستعمار والقرآن

لقد برع الاستعمار فى أساليبه اللولبية ، فأراد أن يصوغ ذلك المجون والفساد فلسفة ويعتبره ثمرة التفكير ونتيجته المنطقية . فقال انه مذهب فلسفى قديم ، ذلك هو مذهب « الوجودية » ، ولكى يموهون على الشباب ادعوا أن بعض علماء الدين فى أوربا اعتنقه وقبله ودرسه .

أما ذلك المذهب فقد ابتدأ فى بيئة دينية وأساسه تحرير الارادة الانسانية من التقاليد والعادات التى تجبرها وتجعلها غير مسئولة عن عملها . وما أرادوا اطلاقها من قيود الفضيلة ، بل أرادوا تحريرها مما يعوقها عن الفضيلة . وما أرادوا اطلاقها من حكم العقل ، بل أرادوا اطلاقها من كل ما يشوبها لتخضع لحكم العقل لا لحكم الهوى . فالمذهب فى نظر رجال الدين كان لاطلاق العقل والنفس من القيود التى تحول بين المرء والخلق والدين . ولكن ما أن تولاه الفرنسيون بعد هذه الحرب ، حتى انحرفوا به الى غير جادته المستقيمة ، فأرادوا أن يقيدوا النفس بالهوى بدل العقل ، وبالرذائل بدل الفضائل والمحامد . بل انهم يدعون الى الاباحية ، تلك الدعوة التى لا تجد قائما الا قوضته ، وينشرون بين الشباب ما يثير غرائزه ، ثم يقولون مع ذلك ان الشباب فى كبت .. يثيرون كل ما يدعو الى الاندفاع نحو اللذة البهيمية . وليس كل شاب واجدا ، فيكون اضطراب النفس ، وانحباس الأهواء المندفعة التى أثاروها . ثم يشكون مع ذلك من ثمرات جريمتهم وما علمنا أن انطلاق الانسان من كل القيود الأدبية والاجتماعية والاستهانة بكل القيم الانسانية الموروثة ، والتى بها سموها وعلوها تعد مذهبا يدرس ، وفلسفة تدون ويدعى اليها . ولكن فاتهم أن شباب الاسلام قوى العقيدة ، متمثل بخلق الحياء ، حسب بيئته التى تربى فيها بين أهله وعشيرته ، وان هذا المذهب الفاسد ليس له مكان بين شباب العروبة وبلاد

الاسلام ، لأن خلقه الحياء وهو خلق الاسلام . فقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : ان لكل دين خلقا ، وخلق الاسلام الحياء .. وبذلك سيذهب أملهم هباء منثورا . « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

ولقد أقيمت ندوة فى دار مجلة « لواء الاسلام » فى مارس ١٩٥٩ لمناقشة «الوجودية » حضرها بعض من كبار العلماء الأفاضل . ولقد ذكر سماحة « أمين الحسينى » مفتى فلسطين آنذاك ، الوجودية : بأنها دعوة ضالة تدعو الى الانحلال الخلقى ، والى التمرد على جميع الشرائع والأنظمة ، والأخلاق والتقاليد ، ولا تقيم أى وزن لأى شيء . وقد عرفها أصحابها بأنها كما يفهم من اسمها تعنى بوجود الانسان ، أى بشخصه وذاته ، وكل اتجاه وجودى داخلى يصفونه بالمحرك الداخلى كالقاطرة التى تدفع القطار ، وتدعو لاتباع الشهوات وطاعة النفس والشيطان ، على خلاف كلام « البوصيرى » :

وخالف النفس والشيطان واعصهما   وان هما محضاك النصح فاتهم

والدعوة الوجودية أول من قام بها رجل دانمركى اسمه « كونراد » ثم تابعه آخرون الى أن قام بهذه الدعوة رجل فرنسى اسمه « مارسيه » وكان يدعو الى حرية الجسد واطلاق الشهوات . وفى العصر الحاضر صار العميد الأكبر لها هو « بول سارتر » ومن أساطينها « جان كوكتوه » وغيره .. ولكن هذه الدعوة سبقت اليها فى المدنيات القديمة الدعوة «المزدكية» فى فارس قبيل الاسلام . «ومزدوك» دعا دعوة مماثلة وواسعة . وكان جمهور فارس تحت اضطهاد شديد . فخرج مزدوك بدعوةشيوعية.دعا فيها الى التساوى بين كل الطبقات والأفراد . وكان يرى الاشتراك فى كل السلع والأموال والنساء أيضا . وقال ان التملك والزواج من البدع البشرية الخاطئة . ومن الغريب أن هذه العقيدة صارت عقيدة الدولة والملك . واستمرت عشرات السنين . حتى حكم فارس « قبادة الساسانى » فحاربها وحرمها وقتل أتباعها وشردهم . ويقرب من هذه الدعوة دعوة «المانوية»

التى تدعو الى الاشتراك فى الأموال ، وكان داعيها . ولقد قال أحد علمائنا الفاضلين : المحاربة للوجودية جهاد فى غير عدو ، وذلك ان الدين فطرة فى بنى الانسان . ولا يطرح الدين وراءه ظهريا الا رجل فسدت فطرته . والدليل على ذلك أن الوجودية التى سموها بهذا الاسم قديمة جدا . ولم يظفر لها أحد بطائل ولا خرج بأتباع . كان فى العراق فى زهو الاسلام جمعية تدعو الى الالحاد والوجودية . وتتكون من رجال فسدت فطرتهم . وطمس على قلوبهم ، فلا يحسون بشفافية الروح ، ولا بالدين . وكان هذا قليلا جدا . ولكن من مكرهم أنهم أطلقوا على هذا الصنف من الناس لقب « المفكرين » وأما غيرهم من أتباع الأديان فهم مقلدون لهم . فأخذ بعض الناس يعتنق مذهب المفكرين لكى يقال عنه أنه مفكر .

ويروى أن أحد الناس زعم أنه زنديق ليقال أنه مفكر ظريف ، فقابله شاعر وقال له : تزعم أنك زنديق ؟ فأجاب : نعم . فقال الشاعر :

لست بزنديق . ولكنما أردت أن توسم بالظرف

وكم من رجل أغلق باب الضمير ليتوصل الي شهواته وهؤلاء هم الكثرة فى هذا الصنف ويسمون أنفسهم وجوديين . وليسوا بوجوديين . والدليل على ذلك أنهم حينما يأخذهم الشيب يعودون الى التدين والى صوت الضمير .

ولقد قام الالحاد فى بلاد العرب نفسها فى زهو الاسلام . وقام شاعر يدعو الى هذا المذهب ويقول :

خذى الدف يا هذى واضربى وغنى بآثار هذا النبى

تولى نبى بنى هاشم وجاءنا نبى بنى يعرب

ثم قال كلاما لا أستطيع أن أذكره لفحشه .. وهذا الكلام يدل على تمام السقوط والانحلال .. والخلاصة أن هذه دعوات قديمة بقدم العالم لأن الله خلق العالم فيه البر بجانب الفاجر . وفيه الفاسد بجانب الصالح . وفيه المؤمن بجوار الكافر . وفيه المستقيم بجوار المعوج . وهكذا .. ولكن الله أودع فى الفطر البشرية ما يجعل المهتدين يغلبون الفاسقين . وهؤلاء الناس

الشراذم لو أقمنا لهم ملء الأرض حججا لاستقبلوها صما وعميانا . كقوله : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وليس هناك من شك فى أن الوجودية قائمة على انكار وجود الاله ، وعلى أن الانسان سيد نفسه ، وعلى أن الأخلاق شىء لا وجود له ولا اعتبار . وفى ذلك يقول زعيمهم « كيركجورد » : لا يصح أن يقال ان الله موجود لأن الموجود هو الانسان . والذى يتغير هو الانسان فله زمان . أما الله فلا زمان له ، فهو غير موجود ، بل هو غير كائن .

وفى هذا انكار صريح لوجود الله . وهو يقول : ان الله ان وجد فانه لا يستطيع القيام بنفسه لأن وجوده نافع لوجود الانسان . فالله عنده خادم للانسان لا سيد له .. وهــذا الكلام ان كان فيه تردد فى وجــود الله وعدم وجوده عندهم فان « سارتر » يقول : ان الوجود الذاتى للانسان متقدم على الماهية .. ويعنى بذلك أنه ليس هناك خالق للانسان . وان الانسان هو الذى خلق نفسه . وعلى ذلك فليس له وجود ذاتى ، وليس هناك علة أولى خلقت الانسان . وان ما ندركه الآن فى الذهن من الوجود الماهوى قد صنعه الانسان نفسه بعد وجوده . وكل انسان يصنع لنفسه الصورة التى يختارها. فهو فى غير حاجة الى الله . فلا ضرورة لوجوده . وعلى ذلك تركوا الاله كما يقول « سارتر » ، يموت فى غير ضجة ، وهو لون عن الانسان أنه وجد بلا داع . ويمضى لغير غاية ، ويموت بالمصادفة . وهذا فيما اعتقد ما حكاه القرآن على لسان الدهريين حين قال : « وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » .. فالانسان فى نظرهم هو كل شىء . فهو الذى خلق نفسه ، وهو الذى يصنع لها الصورة التى يريدها . ويفعل ما يشاء بمحض ارادته وحده . وأما عن الأخلاق فانهم ينكرونها البتة لأن الذاتية المنفردة للانسان عندهم تتنافى مع الأخلاق الجماعية ، اذ أن التقويم فى الأخلاق الجماعية أساسى ، والتقويم له معيار لا بد من وجوده . فلا بد له من العموم ، والعموم يتنافى مع الفردية التى هى أساس المذهب ، فلااعتبار عندهم لكل القيم الأخلاقية . وهذا يتنافى ويتعارض مع كل الأديان . الا أنى أذكر على سبيل المثال ان الايمان بالله عندنا أول أركان الاسلام . والله تعالى يقول : « وان هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاعبدون » .. ويقول :

« قل هو الله أحد » .. والدين الاسلامى أعطى للفرد حريته ولكنه قيد هذه الحرية ، وأقام نظاما يؤدى التزامه لخير الدنيا والآخرة . وأما ترك الناس فوضى ، واعتبار كل فرد أمة بذاته فهذا الأمر هو الفوضى بذاتها التى تؤدى الى الهلاك ، والاسلام قد بنى على الأخلاق التى لابد منها لاستقامة الكون: فهذه الدعوة تحمل عوامل هدمها وهى تناقض الدين والفطرة السليمة .

والواقع أن الوجودية نشأت أول أمرها فى بيئة دينية مسيحية . وكان يراد بها فى بدء نشأتها لون من الاصلاح الدينى . وهو تخليص الفـرد من السلطات الكهنوتية المصطنعة على أيدى الذين ادعوا لأنفسهم سلطات روحية ودينية فوق اختصاص البشر . فجاءت الوجودية الدينية لتخلص الفرد من هذا الاسار ، ولتعطيه حرية وذاتية . ولكن الوجودية انحرفت بعد هـذا فاعتسفت وخرفت ، وابعدت فى الضلال والبهتان ، لأنها انتقلت من مجال الحرية المعقولة أو المحتملة الى منتهى الفوضى والانحلال .

والوجودية تخرف فى تعابيرها أحيانا حتى لا تفهم ، كقول «بول سارتر» فى كتابه « الكينونة والعدم » . محال واقع الوجود فى ذاته ، ومحال تجلى الكائن لأجل ذاته . وهذا العالم وجد بلا داع . ويمضى لغير غاية . فهل يتفق هذا مع ما نرى فى هذا الوجود من ابداع واتقان واحكام وما نكشفه كل يوم فى الكون من دقائق النظام والاتساق .

والوجودية تنكر الاله وتسخر من فكرته فى جـرأة وتطاول ، كقول « سارتر » مثلا : ان وجود الله افتراض غير نافع . وهو يكلفنا كثيرا . فنحن نلعنه ، يقول هذا مع أن لله فى كل شىء آية تدل على أنه الواحد ، ووجود الاله من الوضوح بحيث لا يحتـاج الى دليل ، وبسبب هـذا الانكار من الوجودية لله نراها تحارب الأديان ، وتتعاون تعـاونا وثيـق العرى مع الشيوعية . كما يقول « بول فولـكيبيه » فى كتابه المعـروف « هذه هى الوجودية » واذا عرف المرء طريقه الى الوجودية فقد فتح على نفسه الباب الي الشيوعية .

وان الوجودية قائمة على غير الفطرة ، لأن الانسان مدنى بطبعه ، فلابد أن يخضع لنظام يحدد العلاقة بينه وبين غيره . وهذا النظام لا يوجد الا اذا

كانت الحرية حرية مدنية ، بأن يكون لهذه الحرية حد . فيجب أن تكون الحرية بحيث يتكون من الأفراد مجتمع . واذا لم توجد حدود للحرية الطبيعية سادت الفوضى بين أفراد المجتمع ، وانعدم التعاون ، واندثرت الحضارات ، وماتت كل المدنيات التى وصلنا اليها . ومن هذا يتجلى لنا الخطر الأكبر فى وجود مذهب الوجودية .

قد لا يكون هذا الواقع قد تحقق بصورة عملية بسبب أن هؤلاء الوجوديين يعيشون على هامش مجتمعات صالحة ، ولو تصورنا مجتمعا من هؤلاء يعيش لنفسه فلا يمكن أن يقوم فى الأذهان الا صورة لمجتمع لا يؤدى التبعات اللازمة لحياة أفراده .. فتكون النتيجة هى العجز عن الحياة ثم الانعدام والفناء .. هذه هى الفطرة، حرية مدنية مقيدة ، لا حرية مطلقة، بغير هذا لا يعيش البشر ، والا استحال الانسان الى حيوان يعيش كما يعيش الحيوان فى الغابة . ولا يوجد عاقل يقبل على نفسه أن يعيش كالحيوان أو أخس .

ومذهب الوجودية ضد فطرة الانسان ، وسيقضى على نفسه بنفسه . ولا يمكن أن يوجد له أتباع ، ولا شك أن قيام هذا المذهب من شأنه أن يحرض الناس على الاعتداء على الأديان وأن يوجد التشكيك فى الفضائل والأخلاق التى هى قوام المجتمع . والفلسفة التقليدية أو المثالية ، تقول : ان وجود الشىء دليل على وجود مثالى تصورى سابق عليه . ومن هنا يبدأ الفكر الانسانى رحلته المباركة فى البحث عن وجود الله ، اذ أن وجود الصورة يقتضى وجود المصور لأنه هو الذى ينشىء الكائن على هذه الصورة التى وضعها ..

أما الفلسفة الوجودية فانها تؤمن بعكس ذلك تماما . فهى لا ترى أن هناك صورة مثالية سابقة على الوجود .. واذن . فالوجودية لا تعارض الفلسفة الهادفة فحسب حين تنفى وجود صورة مثالية للانسان يجب عليه تحقيقها ليقترب من الكمال المطلق ، بل انها تعارض أيضا الأديان السماوية وغير السماوية على الاطلاق .. وهكذا يجد الوجودى نفسه وقد انفلت من عقال التقاليد والاعراف والأديان . أنسانا منبت الصلة بماضيه بما حوله من

الوجود والعالم وعليه هو أن يحدد وجهته ويختار طريقه . بل بمعنى أوضح له أن يحقق وجوده ويؤكد ذاته بكل ما تزين له أهواؤه ونزواته من أساليب لا يحترم مجتمعا ولا يرجو وقارا لخلق أو دين لأنه ليس مسـئولا أمام كل أولئك بل هو يحمل هذه المسئولية تجاه ذاته .. ومن ثم فالوجودى فى قلق دائم وحيرة لا تنتهى لأنه هو الوحيد المسئول عما يؤول اليه أمره . ان عليه وحده أن يسير لا يستشير دليلا ولا يأنس الى رفيق ولا يعرف له أيضا وجهة أو غاية .. كل الذى يعرفه أنه موجود بلا رابطة بغير ذاته . وهـو لا يعنى لانطلاقات وجوده هذا أمرا ، بل يجد فى هذه العبودية ما يؤكد وجوده ويحقق ذاته ثم هو لا يعنيه بعد ذلك فى شىء أن يسوقه نزوعه الى عمل ايجابى أو سلبى الى هدم أو بناء ، الى ايمان أو الحاد الى شىء أو لا شىء .. فكل هذه سفاسف يجب ألا يعكر بها الوجودى صفو وجوده » .

ويعلق الأستاذ الفاضل « محمد لبيب البوهى » على مثل هذا الوضع بقوله : ويبدو أن الفرد الوجودى هو لا وجودى بالنسبة للحياة ذاتها ، ذلك أنه خارج على نظمها ومقدساتها فهو ليس منها وقد يكون حربا عليها فهو لا يبالى مثلها ولا يهمـه مصيرها ، فهو فى حالة عدم وجود معنوى أى لا وجودى .. اذن الوجودية ، دعوة الى التحلل من قيود المجتمع أيا كانت هذه القيود أخلاقية أم دينية ليفرغ الانسان الى ذاته يحققها ويؤكد وجودها بمعاناة تجارب الحياة وممارسة لذاتها بمجرد أن يلمح أية اشارة باطنية أو أى نزوع داخلى فهو دائما يلهث وراء نزواته وأهوائه . ومعنى هذا أن الوجودية فلسفة هروبية لا تقدر مسئولية الحياة فى مجتمع تواضع على تقاليد معينة ، وآمن بقيم ثابتة ، هى فرار من مسـئوليات البناء الجماعى لحياة انسانية أفضل .

ولعل من حسن حظ الوجودية أنها تجد فى بعض الأحيان من أحداث الحياة ما يهيىء لها أن تبيض وتفرخ ، فهذه الحروب الشاملة بويلاتها التى تزعزع فى أعماق الانسان قيمـه الثابتة فى الحياة تفسح المجال للمبادىء الهدامة والنزعات الحسية والهروبية كالوجودية ، ويكون لها حينئذ بريق يجتذب الشباب الذى اهتز يقينه بالمبادىء والمثل والأهداف .

ولو نظرنا الى الوجودية لرأيناها كلمة مرنة يمكن أن تتسـع لأفكار كثيرة بينما نرى فى الاسلام وجودية من نوع آخر ، وجودية محلقة تجمع فى وئام وتكامل فى صعيد واحد بين الفرد بدوافعه المهذبة القويمة والمجموع بأهدافه الايجابية البناءة ..

انه لا يصادر حرية الانسان فى تحقيق دوافع الآخرين ، يجب أن يتحقق وجودى الى جانب وجودك ، الى جانب وجود الآخر . لكل انسان فى هذه الحياة دوافعه النفسية وحتى لا تتنافر هذه الدوافع حين تنطلق الى اجراءات عملية على مسرح الحياة يجب أن تتناولها لمسات قادرة على تهذيبها وتقويمها وليس أقوى من الدين على تطهير دوافع النفس وتصعيدها الى الكمال المطلق الى « الله » .

فالاسلام يحدد للانسان معالم وجوده مع نفسه ومع الناس ومع وطنه.. فوجوديته من حيث هو فرد تلزمه أن يكون فردا مثاليا متحليـا بالفضائل . ووجوديته من حيث هو رب أسرة أو عضو منها تحدد له واجباته العائلية التى لا يتحقق وجوده العائلى الا بها .

ثم يأتى دور « سارتر » كبير الوجوديين المعاصرين فيعلن أنالوجودية عنده نوعان :

١ — وجود ثابت يتمثل فى الأشياء الجامدة ..
٢ — وآخر متغير يتمثل فى الانسان .

ويذهب سارتر الى أن الوجود أصله اللاوجود (والانسان يحاول أن يوجد نفسه أى يخرج بذاته من اللاوجود — من الوجود — من العدم) . فالحركة المستمرة القائمة على حرية الاختيار الارادى للفعل هى المحاولات اللازمة لتحقيق الوجودية . وسارتر يرفض كسابقيه من الفلاسفة الوجوديين فكرة وجـود الله ، ويحتقر رصيد الفـكر البشرى ثم يروح مثلهم يدور فى حلقات مفرغة .

وفى عنفوان هذه الثورة على مقدسات البشر ، لا يتحرج الوجودى من تسفيه المعانى الكبيرة واهدارها : الدين ، الثقـافة ، العقل ، التقاليد ،

الأديان حتى الحب استحال هو الآخر على أيديهم من مشاركة وجدانية مشرقة الى استمتاع فردى ، الى تبادل منفعة الى عملية تجارية كل طرف فيها يحاول جاهدا أن يكون هو الرابح على حساب صاحبه ، ثم يذهب البائع والمشترى كل الى حال سبيله .

والا فالحب هو سقوط الذات لأنها أسلمت مقودها الى شيء ليست لها ارادة فى اختياره وينتهى المطاف « بسارتر » بعد كل هذا الجهد الى أن الانسان يستحيل عليه أن يحقق ذاته كما ينبغى فيظل هائما وراء الوجود المثالى الذى يستحيل عليه تحقيقه وذلك هو سر قلقه — فليظل هكذا ما دام كذلك قد وجد ..

ويرى « مارسيل » أن الأصل الذى وجدت الذات أنه قيد نفسها هو الجسد الانسانى . ومن هذا الجسد بدأ بعد ذلك الانبعاث الخارجىلتحقيق الاتجاهات الوجودية — وحين يحتضن الجسد هذه الذات تتولد الأحاسيس أحاسيس لا ترتبط بتجارب ماضية ، وانما هى تتدفق تلقائيا أعمالا تملأ فراغ الفلك الوجودى .

واذن فالوجودية عنده تتركز تركيزا تاما فى قوة ايجابية صاعدة نحو الذات المطلقة ويقف مارسيل عند هذا الحد فلا يبين لنا كيف يكون الاتجاه الى الأعلى ؟. وكيف يكون ذلك الاسراء أو المعراج الوجودى الى المطلق ؟. ثم ماذا يقصد بهذا المطلق ؟ . كل هذه أشياء لاتهم «مارسيل»فىشىء بقدر ما يهم أن يلقن جواريه فن الاندماج مع الغير حتى لا يفقد الوجودى ذاته فى الزحام . انه لا ينكر وجود الناس والأشياء من حول الذات على أنيكون دورها فى حياة الوجودى مجرد أدوات يمارس عن طريقها وجوده ..

ان ثمة اتصال بينه وبينها بيد أنه اتصال حسى يتدرج على نحو من الانحاء الى اتصال عاطفى !. ثم يخطو « مارسيل » بعد ذلك خطوة مجاذفة يقف بعدها حائرا قلقا اذ تصدمه مشكلة الخلود فهو يعترف به لأنه يحسه ولكنه لا يجد له تفسيرا . ويمضى « مارسيل » وحصاده من رحلته الطويلة الشاقة القلق والعجز والذهول والتمزق الداخلى !

وان انتقام الحياة من الذين ينحرفون عن طريقها الطبيعى المرسوم ، لواضح كل الوضوح من موقف الوجودى حينما يفشل فى تحقيق ذاته على الصورة التى تمليها عليه دوافعه النفسية ... ما هو تفسيره لمثل هذا الاخفاق ؟ هل يرجع الى قوة غالبة على نفسه يسميها بعضهم القدر ويسميها آخرون الله ؟.. وبعد أن يكون الوجودى قد أعلن انكاره لوجود الله ، يقف حائرا لا يجد ما يقول وحينئذ لا يسعه الا أن يفر الى ذاته .. الى قوقعته النفسية ليمارس فى ظلمتها وجوديته الغامضة .. ويجتر فى عزلته مرارة الفشل والقلق والخطيئة !.

والانسان عند الفيلسوف الوجودى « مارتن هيدجر » قد وجد لتحقيق رسالة السمو لكى يحقق وجوديته بالصعود دائما ، فوجود الانسان عنده يتحدد من رسالته ووجوده وحده هو الوجود الأساسى فى الكون وما عداه ليس الا اطارا لنشاطه أو عوامل مساعدة له فى ممارسة وجوده . واذن فثمة علاقة تربطه بالوجود البشرى العام أو تربط الوجود البشرى العام بوجوده هو . وهو لا ينكر أن مثل هذا الوضع ينشىء الزامات معينة على عاتق الانسان باعتباره مسئولا عن تحقيق ذاته أمام نفسه فى الاطار البشرى العام . وحين يهم الوجودى بالانطلاق فى سبيله على هذا الضوء الخافت يسارع « هيدجر » الى حوارييه ليقذف فى قلوبهم الرعب والشك والقلق انه يوهمهم أنهم فى حرب مع الحياة والأحياء .

وان الطريق ملىء بالأشواك والذئاب والغموض .. واذن فالقلق والاشفاق والخوف وما اليها أسلحة ضرورية ليواجه بها الانسان الوجودى مصيره حين يمضى فى تحقيق ذاته وحين يعن للوجودى أن يتساءل عن المصير . ولماذا خلقنا ؟. يجيبه « هيدجر » فى بساطة : خلقنا لنموت .. والموت فى منطق الوجودى هوة ليس لها من قرار ، انه عدم ، والعدم مجهول وغامض ومخيف .

ومع ذلك « فهيدجر » لا يلبث أن تبتعد به شطحاته فنرى له نظرية تقول : ان الانسان غير موجود ثم يسير وراء دوافعه الذاتية التى عليه أن يتحققها ليصبح موجودا !.

والوجودى له مفاهيمه ومعاييره الخاصة فالمجتمع عنده خرافة كبيرة يتذرع بها الانسان الضعيف ليستر بها ضعفه ويمتع شخصيته فى شخصيات الآخرين . لقد عجز عن تحقيق دوافعه النفسية وتأكيد ذاته من بين القطيع البشرى فلم يبق أمامه الا أن يعترف بهذا الاخطبوط الذى يسمونه المجتمع وراح يتعبد فى غباء لقواعده ومبادئه وتقاليده .. واذن فلكى تكون انسانا جديرا بوجودك . حقق هذا الوجود . اهزأ بالمجتمع ، اسخر من مفاهيمه صعر خدك للناس وافعل بعد ذلك ما يأمرك به هواك !

وما يكاد الوجودى ينفذ هذه الوصايا الخرقاء فينفض من المجتمع يديه حتى يلقنه كاهنهم الكبير « سارتر » أنه لا يوجد لدى الله أى حل لأى مشكلة من مشاكل الوجود ، لأن الله غير موجود . ولأن الحلول الدينية للمشاكل تحد من الحرية الوجودية !.

واذن فالدين عند الوجودى باطل الأباطيل ، صنعه خيال الانسان لعله يجد فى رحابه الفرار والسلوى . اذا أصابه مكروه أو ضل فى الحياة سعيه . أما الوجودى فيكفيه أنه عاش حياته طولا وعرضا ومارس حريته دون قيد ولتكن النتيجة بعد ذلك ما تكون قلقا أو ضياعا أو حيرة .

فاذا وضعنا بعد ذلك العقيدة ـ أية عقيدة ـ والوجودية فى كفتى الميزان ترى أن العقيدة تجمع القطيع الضال فى تيه الحياة على طرق مطروقة واضحة وتقوده الى هدف كبير .

ومع هذا يأبى الوجودى الا أن يتنكب الطريق ويصر على أن يضل ويتوه !!..

واذا كانت العقيدة ترتفع بصاحبها الى الأفق الانسانى الرحب حيث يجد لنشاطه اليومى صدى الاحداث الكونية فان الوجودى يأبى الا أن يحبس نفسه فى سجن ذاته ليدمن ممارسة صغائر هابطة ، زينت له دوافعه النفسية انها جوهر الحياة .. ان اللغة الحسية عنده هى كل شىء . أما اللغة الروحية فلا شىء على الاطلاق !!

والوجودية تعتبر خيانة للمثل العليا ، والعقل ، والنظام العام ، ولكل روح كفاحية أو تقدمية ، وتخدير مقنع للقوى العاملة ، وايحاءات جنونية

فى وثبات هستيرية من داخل النفس ، وتصميم أحمق على تنفيذ اللاشىء وهى أخيرا فرار من كل ما اصطلح الناس على أنه خير وحق وجمال ..

والخلاصة أن الوجودية بوضعها الحاضر اباحية مطلقة ، وانطلاق من كل القيود الدينية والخلقية والاجتماعية . وعندئذ تجد الشيوعية بعد حل العروة الدينية الفراغ النفسى الذى تملأه . ولمحاربة الشيوعية لابد من القضاء على الاباحية والدعوات المنحرفة .. وبيان ما يؤدى اليه المذهب الوجودى من انحلال اجتماعى وقضاء على نظام الجماعة . ولابد من تثبيت العقيدة لتكون سدا منيعا دون هذه الدعوات المنحرفة .

واذا كانت الوجودية تنافى الاسلام . فان على الدولة أن تبادر بالقضاء على هذه الآراء الهدامة وهذه المبادىء . وهذا من حق الحاكم . وأبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : لابد لهذا الدين ممن يقوم به .. والواجب هنا مدنى ودينى ، والنظم الاسلامية دينية وحيوية واجتماعية ونحن نعيش فى مجتمع مسلم لا يقبل أن تفشو بين أفراده أمثال هذه الدعوات الاجرامية الهدامة . ولقدصدق من قال : ان القرن العشرين يسمى بعصر «الايديولوجية» أو عصر الحياة على مبدأ وعقيدة .. وليس أكثر من المبادىء والعقائد التى نسمع عنها فى هذا القرن ويسمونها « الايديولوجيات » هذه العقيدة الدينية توجد كما ينبغى أن توجد ، وانما الضلالة فيمن يريدها على غير سوائها الذى تستقيم عليه ولا تستقيم على سواه .

هذه العقيدة الدينية لا توجد اليوم لتنبذ غدا . ولا توجد على الأيام للعارفين دون الجاهلين ، والعاملين دون الخاملين ، ولمن يطلبون الخير للناس دون من يطلبون الخير لأنفسهم . ولمن يعتقدون دراية ومحبة دون من يعتقدون تسليما ورهبة . ولمن يسعون سعيهم الى العلم والايمان دون من يقعدون فى مواطنهم منتظرين . وقد يعتقدون ، وهم يجهلون أنهم قاعدون لا يعلمون ما الخبر وما المنتظر ؟ ان علموا أنهم منتظرون !

هذه العقيدة بنية حية ، قوامها دهور وأمم ، ومعايش وآمال ونفوس خلقت ونفوس لم تخلق ونفوس يخلق لها تراثها قبل أن يصير اليها . وسبيلها جميعا أن تهتدى الى قبلة واحدة تنظر اليها فتمضى قدما أو تفقدها فى الأفق فهى أشلاء ممزقة كأنها أشلاء الجسم المشدود بين مفارق الطريق .

ان القرن العشرين منذ مطلعه يعرض العقيدة بعد العقيدة على الانسان وعلى الانسانية ولا نعلم أنه عرض عليها حتى اليوم قديما معادا أو جديدا مبتدعا هو أوفق من عقيدة القرآن وأوفق ما فيها أنهـا غنيت عن الاختراع والامتحان . وانها على شرط العقيدة الدينية من بنية حيـة ، شملت ملايين الخلق ونبتت معهم وحدها فى كل معترك حين خذلتهم كل قوة يعتصم بها الناس وان المنصف لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الانسان والانسانية أصلح من عقيدتهم التى يستـوحونها من كتابهم . وان القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب وأيديولوجيات ، ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن .

وان أهل هذا الكتاب يتدبرون القول ، فيتبعون أحسنه اذا تدبروا فلم يأخذوا بعقيدة من هذه العقائد التى يروجها دعاتها باسم المادية أو الفاشية أو العقلية . ويريدون بها أن تكون على الزمن بديلا من العقائد الالهية . ومن عقائد الغيب الذى يحسبونه معدوما أو موجود المعدوم وقد استمع الناس الى المادية التاريخية فقالت لهم ان الانسان عملة اقتصادية فى سوق الصناعة والتجارة تعلو وتهبط فى طبقاتها بمعيار العرض والطلب وصـفقات الرواج والكساد . أما الانسانية فقد أنصتت الى المـادية التاريخية فقالت لها انها (الانسانية عملة اقتصادية فى سوق) شىء لا وجود لهمع طوائفها التى تخلقها الأسعار والأجور .

واستمع الناس الى الفاشية فقالت لهم ان الانسان واحد من عنصر سيد أو عنصر مسود . وان أبناء الانسانية جميعا عبيد للعنصر السيد . والعنصر السيد قبل ذلك عبد للسيد المختار بغير اختيار . واستمع الناس الى «العقلية» فقال لهم قائل منها : ان « انسانيتهم » شىء لا وجود له ووهم من أوهام الأذهان ، وان الشىء الموجود حقا هو الفرد الواحد ، وبرهان وجوده حقا أن يفعل ما استطاع من نفع أو أذى كلما أمن المغبة فى آدم وحواء .

سمعوا أنه روح وجسد ، ودنيا وآخرة ، ينجو شطره بمقدار ما يهلك شطره ويصبح له الوجود بمقدار ما صح له من عقبى الفناء .

وسمعوا انه انسانان . انسان صحيح مقبول ، وانسان زائف مدخول ، صحيح مقبول كل من اجتباه مولاه على هواه . وزائف مدخول كل من خلقه ونفاه ، أو لعله لم يخلقه ودعاه اليه من دعاه • وسمعوا أن الانسان يولد بذنب غيره ، ويموت بذنب غيره ، ويبرأ من الذنب بكفارة غيره ، ويمضى بين النعمة واللعنة بقدر من الأقدار • لا نصيب له فيه من عصيان أو طاعة ومن اباء أو اختيار •

وسمعوا من القرآن غير ذلك فهم متدبرون يستمعون الى العقل كما يستمعون الى الايمان اذا اطمأنوا اليه وثبتوا على اطمئنانهم اليه .

والانسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله يدين لقلبه فيما رأى وسمع ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب . فلا تدركه الأبصار والأسماع .

والانسانية من أسلافها الى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد واله واحد أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا وصدق النية فيما أحسنه واتقاه .

ولقد ميز الله سبحانه وتعالى الانسان بالعقل ، لأن العقل وازع يعقل صاحبه عما يأباه له التكليف . العقل فهم وفكر يتقلب فى وجوه الأشياء وفى بواطين الأمور ..

العقل رشد يميز بين الهداية والضلال . العقل روية وتدبير . العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار . والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر . وتجمع العبرة مما كان لما تكون . وتحفظ وتعى وتبدىء وتعيد .. والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف . وكل أمر بمعروف . وكل نهى عن محظور ..

أفلا يعقلون ؟. أفلا يتفكرون ؟. أفلا يبصرون ؟. أفلا يتدبرون ؟. أليس منكم رجل رشيد ؟. أفلا تتذكرون ؟.

ان هذا العقل بكل عمل من أعماله التى يناط بها التكليف حجة على المكلفين فيما يعنيهم من أمر الأرض والسماء • ومن أمر أنفسهم • ومن أمر خالقهم .. خالق الأرض والسماء لأنهم « ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » (آل عمران) .

« أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما الا بالحق وأجل مسمى » (الروم) •• ومن تمام التوافق بين أركان التبليغ فى هذا الكتاب أن الأمر فيه يجرى على هذه السنة فيما أتى به ، فريدا غير مسبوق عن رسالة النبوة .

ان الرسالة التى لم تعرف قط فى التاريخ البشرى قبل الاسلام هى تمييز الانسان بخاصة التكليف واعداده لخطاب العقل وبينات الاقناع •

كانت الأمم قبل البعثة المحمدية ، تفهم أن النبوة استطلاع للغيب وكشف للأسرار والمخبآت ، يستعان بها على رد الضائع ، واعادة المسروق أو الدلالة عليه • ويستخبرونها عن طوالع الخير والشر ومقادير السعود والنحوس ، وكان من تلك الأمم من يحسب أن النبوة وساطة بين المعبود وعباده للتشفع اليه بالهدايا والقرابين • وكانوا يطلبون وساطة الأنبياء دفعا للنوازل التى يستحقونها وتنزل بهم ، لأنها قضاء مبرم يتوقعه الصالحون والعارفون • ويسألون المعبود فى دفعه قبل نزوله ، فجاءت نبوة الاسلام بجديد باق لم تسبق له سابقة فى الدعوات الدينية بل لاحاجة بعده الى جديد ولا استطاعة للتجديد • لأنه يخاطب فى الانسان صفته الباقية ، وخاصته الملازمة ، وهى خاصة النفس الناطقة بين عامة الأحياء أو خاصة الضمير المسئول الذى يحمل تبعته ولا تغنيه عنها شفاعة ولا كفارة عن سواه •

فهى نبوة فهم وهداية ، وليست نبوة استطلاع وتنجيم ، وهى نبوة هداية بالتأمل والنظر والتفكير • وليست نبوة خوارق وأهوال تروع البصر والبصيرة ، وتروع الضمائر بالتخويف والارهاب حيث يعييها قبول الاقناع •

انها نبوة مبشرة منذرة لا تملك لهم نفعا ولا ضرا ، ولا تعطل لهم عملا غير ما يعملون لأنفسهم بمشيئتهم اذا اهتدوا بهداية العقل المتدبر والضمير السليم : « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء • ان انا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » •

نعم ولا اغراء ولا مساومة على قربان أو على جزاء بين الأخذ والعطاء : « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ان اتبع الا مايوحى الى ، قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون » •

وقد جاءت سمته المعجزة ميسرة لصاحب هذه النبوة يوم مات ابنه ابراهيم وكسفت الشمس ، فظن الناس أنها كسفت لموته . وأبى النبى — صلى الله عليه وسلم — الصادق الأمين أن يسكت عليها . فتكلم ليعلمهم أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته .

وفيه بين للناس أن المعجزة لاتجدى من يكابر العقل ويأبى الاصغاء الى بينات الاقناع : « ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا انما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » .

ولقد تقدمت نبوة الاسلام دعوات كثيرة ، من أكبر الدعوات شأنا فى تاريخ العقيدة ،ولكن لو عرضتها على مؤرخ ينظر فى أدوار التاريخ لم يستطع أن يختتم دور النبوة فى تاريخ الانسانية بدعوة من تلك الدعوات على جلالة شأنها ، لأنها جميعا قد بدأت وانتهت قبل أن توجد فى أذهان الناس فكرة الانسانية العامة وفكرة الانسان المسئول المحاسب على أمانة العقل والضمير

فنبوة بنى اسرائيل لم تزل مقصورة على سلالة بشرية واحدة ، تنعزل بحاضرها ووعود مستقبلها عن سائر الأمم . و«عيسى» عليه السلام قد نقل الرسالة نقلة واسعة حين أدخل أبناء ابراهيم بالروح فى عداد أبنائه بالجسد ، ولكنه أدى رسالته وبقى الانسان بعده محتاجا أشد الحاجة الى رسالة تخلصه من الاعتماد على غيره فى النجاة من أوزاره والتكفير عن سيئاته والنهوض بتبعات صلاحه وتربية روحه . ولن تفرغ أمانة النبوة فى تاريخ الانسانية قبل أن يوجد الانسان الذى يخاطب بخطاب العقل ويحاسب بحسابه . ويحمل تبعاته على عاتقه ويشترك على سواء بينه وبين اخوانه من البشر فى عبادة اله واحد هو رب العالمين . وليس بالرب الذى يخلق نعمته لسلالة واحدة من خلقه ، أو لعشيرة واحدة يدركها الخلاص بفضل لم تفضله ، وحساب لم تضعه فى موازينها بعمل يمينها .

فلما جاءت نبوة التكليف ، صح فى حكم العقل أن تختتم بها النبوات لأنها حاضرة فى كل وقت يحضره الانسان العاقل المسئول ، وتحضره آيات الله لقوم يعقلون : « ان فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » •

ان قيام النبوة على اقناع العقل المسئول بآيات الكون . قد اختتم سلطان الأحبار والقادة ، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات • فلا يعذر الاسلام انسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطان المال والدين : « قالوا فيم كنتم • قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » و«قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم، بل كنتم مجرمين » و « يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » • « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » •

فلا يسقط التكليف عن العاقل أن يطيع المتحكمين بطغيان الحكم أو طغيان الكهانة ، ولا يمنعه التكليف أن يسأل من يعلم ان كان لايعلم لأن طلب العلم يحقق واجب التكليف ولا يعطله أو يلغيه • ويوجب على المتعلم أن يتبين من يسأل وهو مسئول عما يفعل : « وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم فاسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون »• فاذا سمى ختام النبوة باسم الحق فى تاريخ الانسان ، فاسم الحق أنه هو فاتحة عهد الرشد فى حياة الانسانية الخالدة • قبل عهد الرشد الذى أخرجته القرون الوسطى بسبعة قرون •

ومن عبث الجهالة ، أن يفهم هذا الميقات الجليل فهم العقول الصغار فلا يعطى حقه من الفهم ولا حقه من التقديس ، وتسمع من يفسره فى عصر العلم فلا يفهم منه الا أنه حكر الأثرة يغلقه النبى على من بعده ، ويسبغ هذا السخف وهو صورة لاتقبل التصور عن هذا النبى كيفما تصوره الناظر اليه على حقيقته أو على دعواه •

فهذا الحكر صنيع لايصنعه نبى أمر أتباعه بتصديق الأنبياء من قبله ، وجهد جهده لينفى سلطان الغيب عن نفسه ، ويطرد سمعة المعجزة عن دعوته

وهى طيعة منقادة بين يديه • فان جاز فى حقه هذا الحكر المغتصب • فهل يجوز فى حقه أن يغتصبه من الله وأن يأمن تكذيب الله اياه ، وقدرته عليه ؟

يكثر فى هذه الأيام لغط حول القرآن الكريم ، فقد نقلت احدى الصحف ان الذين يدعون الى الشيوعية قد اتخذوا القرآن هدفا ليوهنوا من شأنه وشأن شريعته ورسالته وتعاليمه • وقالوها صريحة ، لأنهم علموا أن مذهبهم هو والقرآن نقيضان لايجتمعان ، فاما القرآن واما ذلك المذهب الهدام ، لأنه اما الأخلاق ، واما الشيوعية • واما أديان السماء واما تلك المبادىء الأرضية • اذ أنها لاتفرض فى الانسان الا فرضا واحدا ، وهو أن يتوافر له الغذاء والكساء ، ولا تفرض له حياة روحية ومعنوية ومعان سامية مشتقة من معنى الانسانية فيه التى يتميز بها عن سائر الحيوان ، ان لسان حالهم ينطق بأنهم يقولون ان هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، كما قالها أهل الجاهلية قبل ظهور الاسلام ، وانتشاره ، فكأنهم بعثوا من مراقدهم فى ذلك المذهب الشيوعى •• وقد اختص أولئك القرآن بمعاول هدمهم ، وتوجيه ريبهم ، واتخذوه هدفا يرشقون سهامهم المسمومة له ، ويوجهونها نحوه ، عساهم ينالون من هديه أو ما اختصه الله تعالى بحفظه خالدا باقيا الى أن يرث الله الأرض ومن عليها تحقيقا لقوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » •

لقد تهجموا على القرآن الكريم فطعنوا عن جهل مبين فى تواتره وجمعه وأخذوا يضربون بعضه ببعض بما يوحى اليهم شيطان الهوى والشهوة • فزعموا ان فى القرآن اختلافا كثيرا ، فقد ذكر أن الانسان خلق من طين ، ثم ذكر أنه خلق من ماء مهين ، وظنوا هذا تناقضا ، وقالوا ان الاسلام أباح الرق ومكن القرآن لهذه الاباحة •• وبذلك كشفوا عن حقيقة نواياهم ،ليستيقظ المسلمون ، ويستبين الأمر ان ساد هؤلاء وحكموا ••

وقالوا ان فى القرآن أغلاطا نحوية وبيانية ، ومن سخف عقول هؤلاء ، وضيق عقولهم ، وقصر تفكيرهم ، ان يقولوا فى القرآن المجيد : انه لا يلزم من فصاحة كتاب من الكتب أن يكون من عند الله تعالى •• الخ ، مما هو مفصل فى هذا الباب وغيره من الكتاب .. ولكى نبين لهؤلاء المستشرقين

الذين بعدوا عن طريق الحقيقة وساروا فى دروب ملتوية لايبغون من لفهم هذا ودورانهم الا تضليل صغار العقول والجهلاء عن الطريق الواضح المستقيم والبعد عن الحقيقة ، ولكن الحق ساطع لكل من يتبعه .

نزل القرآن على النبى — صلى الله عليه وسلم — منجما فى مدى ثلاث وعشرين سنة ، وذلك ليسهل حفظه ، فيودع صدور المؤمنين ، ولا يكتفى بوضعه فى قرطاس يأتى عليه المحو والاثبات ، وليتلقى المؤمنون الوحى القرآنى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — فيتلون كما يتلو ، وكما تلى عليه من جبريل الأمين . ويكون ترتيل القرآن فى مدى الأجيال المختلفة على النهج الذى رتل به النبى — صلى الله عليه وسلم — وبالأحرى على النهج الدى أوحى اليه . وبذلك لا يكون القرآن قد تواتر بألفاظه فقط ، بل تواتر مع ذلك بترتيله . ولذلك لما اعترض المشركون ، وقالوا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة . أشار الله سبحانه وتعالى الى هذا المعنى السامى ، وهو حفظ القرآن مرتلا ، كما جاء به الوحى ، وكما رتل محمد — صلى الله عليه وسلم — ولذا قال سبحانه فى الاعتراض والرد : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا » . فالترتيل الذى رتل الله تعالى به قرآنه المحفوظ الى يوم القيامة هو الذى توارثناه عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

ولقد كان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يأمر بكتابة الآية ، كما نزلت ساعة نزولها ، ويقرؤها على المؤمنين ليحفظوها . وبذلك تتوافر الكتابة مع الحفظ والترتيل فيلتقى حفظ السطور مع حفظ الصدور وهو الأجدى . وهو أيضا الذى حفظ القرآن باقيا هاديا مرشدا : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

ولما أتم الله نعمته ، وكملت هدايته بنزول القرآن كله . قرأه جبريل على الرسول — صلى الله عليه وسلم — مرتبا ذلك الترتيب الجامع . وقد وضعت كل آية فى موضعها من السورة التى اختارها الله تعالى لها . فاذا كان النزول قد فرق الآيات فى الأزمان . فقد جمع الله تعالى ذلك المتفرق بما أوحى به الى الرسول الأمين ، وباقراء جبريل وعرض الرسول قراءته وترتيله

عليه . والمذاكرة المستمرة بين الروح الأمين والرسول الأمين ، والصحابة من بعد هذين الرسولين يحفظون ويرتلون ، حتى اشتهر جمع كبير بالحفظ والترتيل للقرآن كله .

ومافارق الرسول هذه الأرض ، الا بعد أن أودع القرآن الكريم قلوب المؤمنين ، فحفظه كله الأكثرون .. ولقد قال « عبد الله بن عمر » رضى الله عنه ، وعن أبيه الذى جعل الله سبحانه وتعالى الحق على قلبه ولسانه : من حفظ القرآن فقد أدرك النبوة بين جنبيه .

ولما ارتدت جزيرة العرب ، وحاول المرتدون أن يزيلوا الاسلام ، انبرى لهم أولئك الصديقون والشهداء والصالحون ، ليحفظوا الاسلام ، ويعلوا كلمته ، وأثناء القتال .. تنبه عمر رضى الله عنه أن حفظة القرآن يتهافتون على القتال تهافت الفراش على الموت . فأشار على أبى بكر الصديق ، وهو خليفة المسلمين الأول أن يجمع القرآن فى مصحف ليمكن الرجوع اليه ، فتأبى أبو بكر أن يعمل عملا لم يعمله الرسول — صلى الله عليه وسلم — واستشار أصحابه فانتهى رأيهم الى موافقة «عمر» فيما ارتأى .. وأمر أبوبكر جماعة من عشرة عرفوا بحفظ القرآن الكريم حفظا جيدا ، فقد كانت الأصابع تشير اليهم بالحفظ ، منهم زيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب ، وقامت هذه الجماعة ، وخططت لنفسها الطريق الصحيح المتين فى جمع القرآن . فقد رأت ألا تعتمد على نفسها فقط ، بل تعتمد على حفظها وعلى ماكتب على الرقاع وسعف النخل ، والجلود فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — وعلى حفظ الصحابة من الذين ليسوا فى هذه الجماعة .

لذلك كانت تبتدىء الآية بمن حفظها ، وانهم جميعا لحفظة كرام ، ثم يلتمسونها مكتوبة فى عصر النبى ، وأعلنوا ذلك الطلب فاذا وجدوها أوجبوا شهادة اثنين على أن هذه الرقعة كتبت فى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — فاذا توافر فى الآية حفظهم والعثور على الرقعة التى كتبت عند نزول الوحى بها ، وشهادة اثنين بأنهما رأيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو يأمر بكتابتها وانها كتبت على هذه الرقعة ، اذا توافر ذلك كتبوها ، وفى اعلان طلبها مكتوبة اشراك لكل حافظ بالمدينة فى عملية التدوين .

وقد تم للجماعة كتابة المصحف كله على هذا النحو ، ولكن آيتين من كتاب الله تعالى لم يتوافر لهما شهادة الاثنين ، بل توافر لهما شهادة واحد هو خزيمة ، ولما كان النبى قد قال له : شهادتك كشهادة اثنين فى حادثة تبين فيها ايمانه القوى بالرسالة المحمدية ، فقد وضعت هاتان الآيتان فى المصحف بعد ثبوت الحديث النبوى بما اختص النبى به شهادة خزيمة • وقد أجمع الصحابة مع حفاظ القرآن على نزول هاتين الآيتين ، وهما قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فان تولوا فقل حسبى الله لا اله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » •

تم تدوين القرآن فى المصحف بعد هذا الاحتياط الشديد فى الجمع والتدوين ، فى عهد «عمر» وأودعه عند أم المؤمنين «حفصة» ابنته •وقدكتب برسم لم ينقط ولم يشكل ، حتى لايكون محصورا فى قراءة واحدة • ومن الواجب أن تروى القراءات كلها • وأن يحتمل المصحف قراءاتها ، لأن كل قراءة حجة بذاتها ، وهى قرآن ، وتركها ترك لجزء من القرآن الكريم ، ولم يكن ثمة فراغ عند الصحابة يستطيعون معه أن يكتبوا لكل قراءة مصحفا ، وأنهم كانوا قريبى عهد بالأمية ، وان جمعه قد استغرق مع الجماعة وقتا طويلا ، فقد كانوا يقفون عند الآية الواحدة يوما أو أكثر حتى يجدوها مكتوبة عند نزول الوحى بها •

وان عدم نقطه وشكله مما يجعل القارىء لا يعتمد على مجرد علمه بالكتابة والقراءة للسطور ، وبذلك قد يتعرض القرآن للتحريف بالتغيير فى المكتوب ، الذى يعتمد عليه ، فيقرأه القارىء محرفا ثم يبتعد عن ترتيل القرآن كما رتله النبى — صلى الله عليه وسلم — ، فكان لابد من مقرىء يقرأ عليه القارىء ، وبذلك يروى القرآن بالمشافهة ويحفظ فى الصدور ، ويرتل القارىء القرآن كما روى عن النبى — صلى الله عليه وسلم — ويبتعد القرآن عن كل نطاق التحريف والتبديل الذى تعرضت له الكتب السماوية السابقة ، ويتحقق قوله تعالى : « وانا له لحافظون » •

وحفظ القرآن فى السطور ،ولقد كان للقرآن لهجات عربية نسخت كلها بعد تمام نزول القرآن ، وكانت العرضة الأخيرة على جبريل بلغة واحدة ،

واللغة الواحدة تحتمل قراءات القرآن المتواترة كلها ، وقد لوحظ أنه فى بعض الأمصار وجد من يقرأ باللغات المنسوخة ، أو بالأحرى اللهجة المنسوخة ، وهى بالاجماع غير القراءات ، فاختلف الناس ، فاتجه عثمان رضى الله عنه الى جمع القرآن مرة أخرى ، فأعاد تأليف الجماعة الأولى ، وأضاف اليها سعد بن العاص وسلكت ماسلكت أولا فى جمعه ، ثم عرض ماجمعوه على مصحف حفصة ، فتطابقا تطابقا تاما ، ولم يكتب عثمان رضى الله عنه فى هذه المرة نسخة واحدة ، بل كتب نسخا بمقدار الأقاليم الاسلامية ، وأرسل لكل اقليم مصحفا سمى المصحف الامام • وقد كان خاليا من النقط والشكل للأسباب السابقة •

وهكذا نحفظ القرآن ونرتله ترتيلا صحيحا كما رتله النبى — صلى الله عليه وسلم — كقوله تعالى : « وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا » .

ومما يؤسف له أن المبادىء الشيوعية أخذت تفرض نفسها فى بعض الأقاليم العربية ولم تجد حاجزا حصينا يحول بينها وبين القلوب العامرة بالايمان منها الا القلوب الضعيفة فقد غرتها تلك المبادىء الزائفة ، وزين لها الشيطان مثلها •

سلطوا أدوات التخريب ، والهدم على الاسلام ، يريدون أن ينقضوا بناءه ، ويأتوه من قواعده حتى اذا تهدم البناء ، وذهب الايمان من القلوب ملئوها بمبادئهم المخربة الهادمة وآرائهم التى تقضى على كل المعانى الانسانية العالية ، ولكن أنى يكون لهم ذلك انه لن يكون الا اذا ارتد المسلمون ، ومعاذ الله أن يرتدوا • وقد وعد الله سبحانه وتعالى أن يبقى الاسلام الى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وقد قال سبحانه : « من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » •

ولقد ابتدأ المبشرون وغيرهم فى هجومهم على القرآن الكريم منذ أكثر من ثلاثين عاما بالتشكيك فيما اشتمل عليه من أخبار عن النبيين السابقين كابراهيم واسماعيل عليهما السلام ، ونقلوا ذلك التشكيك من كتاب أوربيين لا يريدون بالاسلام الا خبالا ويريدون أن تخفق راية الاستعمار على البقاع

الاسلامية ، ويكون المسلمون لهم تبعا ، ولقد تهجموا على المنهاج العلمى ، وظلموه ، اذ سموا ذلك الانحراف الفكرى منهاجا علميا ، وماهو من المناهج العلمية فى شىء ، ولكن الاسلام انتصف منهم . فانبرى لهم خيرة العلماء يبينون الحقائق الصادقة ، والبراهين الساطعة ، ويعلنونها فى المنهاج العلمى السليم •• حتى صمتوا بعد أن أذهلتهم الصدمة اذ سكتوا من هول ما قام فى وجههم من تحقيق علمى يزيف قولهم ويرده الى أصله الافرنجى الذى انتحلوه لأنفسهم انتحالا ، وانهم فى هذه السنين الأخيرة قد ابتدءوا يخصون بالهجوم تواتر القرآن ، وتواتر القراءات السبع التى أجمع العلماء على تواترها والتى يقرأ الناس بها من عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — الى يومنا هذا ، وهم لايبغون الا الشك فى تواتر القرآن ، ولا يبغون الا مستحيلا ، فان كتاب الله حجة قائمة الى يوم القيامة تنزيل من عزيز حميد لايأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه ولنتركهم ونأخذ بقول الله سبحانه وتعالى : « فذرهم ومايفترون » ، وسنتكلم فيما أثاروا حول القرآن وأن الله حافظه كما وعد •

كثيرا ما ظهرت مؤلفات للمبشرين يحاولون بها الدعاية الى دينهم ، منذ أكثر من ثلاثين عاما وهى محشوة بالمطاعن البذيئة على دين الاسلام ، وكتابه المجيد ، ولقد وضعت الكتب العديدة فى الرد على هؤلاء الضالين ، ردا علميا قاطعا بالأدلة والبراهين التى تدل دلالة قاطعة على أن دين الاسلام هو الدين الحق الذى لا يرتاب فيه الا الجاهلون ، ولا يشك فى صدقه الا المبطلون المعاندون ، وهو الدين الذى تذعن له العقول السليمة وتخشع له القلوب ، وان القرآن هو كتاب الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ، وان ماعداه من الكتب السماوية قد امتدت اليها يد التحريف والتبديل .

وباطلاع العلماء على كتب المبشرين القديمة والحديثة ، وجدوا أنها ترجع فى معظمها الى كتابين أحدهما كتاب « ميزان الحق » وهو كتاب قديم ألفه قسيس يقال له الدكتور « فندر » ويعتبر هذا الكتاب هو الينبوع الذى منه يستقى أكثر المبشرين والمستشرقين مطاعنهم على الاسلام . وثانيهما

كتاب « تذييل مقال فى الاسلام » وضعه قسيس مجهول سمى نفسه «هاشما العربى » وهو لم يخرج عن مطاعن ميزان الحق قيد شعرة ، غير ما اشتمل على نهاية مايمكن من السفاهة والقحة .

ولقد جاء بعد ذلك قسيس آخر اسمه الدكتور « تسدل » فأضاف الى هذا الكتاب مطاعن كثيرة ، وحذف منه عبارات جمة ليرد بذلك على الأستاذ الشيخ « رحمة الله الهندى » أكرم الله مثواه ، وكان قد بذل مجهودا كبيرا فى الرد على بعض نظريات هذا الكتاب وأقام الدلائل القاطعة على تحريف التوراة والانجيل فى كتابه « اظهار الحق » .

ثم ظهر كتاب قيم لأحد العلماء الأفاضل هو المرحوم الشيخ « عبد الرحمن الجزيرى » عضو اللجنة العلمية لهيئة كبار العلماء باسم « أدلة اليقين » فى الرد على كتاب ميزان الحق وغيره عام ١٩٣٤ م . جاء فيه : واننى أؤكد للقراء أننى نظرت فى كتاب ميزان الحق الذى هو عمدة المبشرين نظرة المتأمل الذى لايريد الا تأييد الحق بالبراهين الحازمة التى تقرها العقول الانسانية السليمة ، وتطمئن لها القلوب .

فما وجدت فى ذلك الكتاب الذى سماه صاحبه ميزان الحق الا ما يدل دلالة قاطعة على أن دين الاسلام هو الدين الحق الذى لايرتاب فيه الا الجاهلون . ولا يشك فى صدقه الا المبطلون ، وان القرآن هو كتاب الله ، وكل ما ذكر فى كتاب الحق من دليل كان بحمد الله دليلا لنا لا علينا ، فلم يحوجنى فى الرد عليه الا ترتيب مقدمات بعيدة عنه أو الى الوقوف على معلومات زائدة على ما فيه فهو وحده حجة قائمة على أن الدين عند الله الاسلام . فاذا كان لاسم هذا الكتاب مدلول صادق فذلك لأنه قد أيد الاسلام من حيث يريدمؤلفه أنيطعن به عليه وأثبت تحريف التوراةوالانجيل من حيث يريد اثبات سلامتهما من التحريف وعمل على هدم دينه من أساسه من حيث يريد بناءه .

وننقل ما يقول ذلك المبشر فى القرآن ، يقول : انه غير فصيح وغير بليغ وقد اشتمل على أغلاط عربية وتاريخية ومتناقضات لفظية ومعنوية الخ

والحق أنهم لا يحسنون ايراد أى شبهة عليه ، وقد يأخذ بعضهم فى تفسيرها فلا يحسن صوغها فتظهر فى شكل مضحك ينادى بجهل موردها وسخافته ، وليس لهم من ذلك غرض سوى أنهم يوهمون العقول أن القرآن ليس من عند الله وأن محمدا رسول الله ليس نبيا واذا سألتهم لماذا يحاربون القرآن والمسلمين يقولون : ان القرآن رفض ألوهية المسيح وصلبه ، كما رفض الثالوث ولا ملة لهم سوى ذلك . ومن أجل ذلك كانت مناقشتهم لا فائدة لها الا تحذير ضعاف العقول من شرهم وتعليم الناس حقيقة الأبحاث الجدلية التى يوردها المسلمون فى تفسير آيات كتابهم ، ولفت نظرهم الى جهالة المبشرين وسوء قصدهم .

والكلام فى هذا الموضوع يشتمل على أمرين أحدهما بيان مايقوله المسلمون فى القرآن ، وثانيهما ما يقوله المبشرون فى القرآن وما يناقضون به أنفسهم من الطعن عليه ورد شبههم .

فأما الأول فهو أن المسلمين يقولون : ان القرآن هو كلام الله تعالى بلفظه ومعناه ، فليس لبشر فيه كلمة واحدة ولا حرف واحد . أوحاه الله تعالى الى نبيه «محمد بن عبد الله» على لسان جبريل عليه السلام . وهذا القرآن هو المعجزة الخالدة التى أتى بها سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وقد أيده الله تعالى به وأظهره على معارضيه الذين حاربوه بكل ما أمكنهم ، فقد ثبت ثبوتا قطعيا لاشك فيه أنه أعجز أبلغ الناس قولا وأفصحهم منطقا وهم عرب قريش ، فتقهقروا أمامه واعترفوا بأنه ليس من كلام الانس ولا من كلام الجن ،وهؤلاء هم الاخصائيون الذين يجب أن يكون حكمهم فى هذا الموضوع نهائيا خصوصا اذا لم يوجد مثلهم فى الصناعة يعارضهم فى حكمهم أو يقاومهم فى صناعتهم . فالقرآن الكريم قد فصل فى أمره من وقت أن كان الاخصائيون ببضاعة البيان كثيرين ، وكانوا متألبين على النبى — صلى الله عليه وسلم — مجمعين على مناوأته لايرون السعادة الا فى القضاء عليه ماديا وأدبيا لأنه كان سيغير كل شىء كانوا عليه .

وأما معاملات العرب فقد كانت تغلب عليهم فيها الاباحة اذ كان قويهم يغير على ضعيفهم فيسبى نساءه ويسلبه ماله ولا يبالى بقتله فى سبيل شهوته

ولا يستحيى من هتك عرضه مادام قادرا على ذلك فلم يكن لهم قانون يرجعون اليه ولا حاكم يخضعون له اللهم الا من كانوا يدينون له بميزة يقدسونها فيه كالكرم أو قوة العصبية ، كما كانوا يفعلون مع بعض أجداد النبى — صلى الله عليه وسلم — « كهاشم وعبد المطلب » فانهم كانوا يعاملونهم معاملة الملوك والأمراء لما لهم من الكرم وعلو الهمة والاباء ، وقد كانت لهم مجالس سمر يتناشدون فيها الأشعار ويتفاخرون فيها بما يتاح لهم من السلب والنهب والغارات ونحو ذلك مما لا يليق فكان من عصمة الله لنبيه أن حفظه من مجالسهم هذه .. روى أنه حضرها مرتين فألقى الله النوم عليه فلم يدر ما دار فيها .

أما أخلاقهم فان العرب وان كانوا قد امتازوا بكثير من الصفات الكريمة مثل الشجاعة والاباء والمحافظة على حقوق الجوار والكرم والنجدة والصدق والوفاء وغير ذلك ، لكن الفوضى التى كانوا عليها بسبب الجهل قد ذهبت بمحاسن تلك الصفات وقضت على آثارها .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : اذا سرك أن تعرف ما كان عليه العرب قبل الاسلام فاقرأ قوله تعالى : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » . ولا ريب أن الجهل الذى يفضى بالانسان الى أن يقتل أبناءه لمجرد توهم الفقر لهو من شر ما منى به النوع الانسانى بل العقل الانسانى لا يتردد لحظة فى الحكم على من يفعل ذلك بأنه شر من الحيوان المفترس الذى لا يقتل ابنه ولو مات جوعا .

ذلك بعض ماكان عليه العرب قبل الاسلام ، ومما لاشك فيه أن ذلك يرجع الى الجهل ، فان الأمية كانت تغلب عليهم ولم تكن لديهم علوم تربى مداركهم وترشدهم الى سبيل الحكمة والصواب اللهم الا ما كسبوه بالتجارب وورثوه بحكم العادة على أنهم قد امتازوا بشىء واحد وصلوا الى ذروته ، وانتهوا الى غايته ، وهو البلاغة فى القول والفصاحة فى المنطق فانهم قد ملكوا زمام الفصاحة والبلاغة فلم يكن قبلهم ولا بعدهم أفصح منهم ، خصوصا قريشا فانها كانت أفصح العرب قولا وأبلغهم منطقا فلم يكن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ذا مال وكذلك عمه أبو طالب فانه مع كونه

من أشراف قريش لم يكن ذا مال كثير أيضا ، فكان يساعده فى أمر المعاش بالوسائل المعروفة عند العرب فكانت الظروف التى نشأ فيها عليه الصلاة والسلام سيئة من جميع الجهات فقد نشأ يتيما لا أبا له ولا أما ، كما ذكرنا ، فقيرا لامال له ، وربى بين قوم كانت فوضى الأخلاق والعقائد سائدة بينهم فضلا عن كون مربيه أبى طالب كان يعبد الأصنام التى يعبدونها ، ولم تكن لهم معاهد علمية يتعلمون فيها العلوم التى تهذب أخلاقهم • وتثقف عقولهم ، ولم يكن بينهم علماء يعلمونهم مالهم وماعليهم • وكل ذلك ثابت بالتواتر الذى لاشك فيه ولقد ذكر القرآن شيئا كثيرا منه ، واذا كان ذلك فمن ذا الذى عصم ذلك النبى الأمى اليتيم الفقير من أخلاق قومه الفاسدة ونجاه من صفات أهل بيئته الذميمة ، وعصمه من أن يدين بدين مربيه ؟؟ •• من علمه ذلك العلم الذى ترتب عليه انقلاب عام فى جميع العالم فى العقائد والشرائع والأخلاق .؟ من علمه فلسفة الشرائع والأحكام فجاء من ذلك بما أدهش العقول وحير ذوى الألباب ؟ من علمه قوانين الاجتماع ، وفلسفة التاريخ فأتى من ذلك بما لا يستطيع أحد أن ينقض قضية واحدة من قضاياه؟ من علمه نظام العمران ومكارم الأخلاق فوضع له أساسا لا يزال العلماء والباحثون يبنون عليه آراءهم فى كل زمان ومكان ؟ من علمه ذلك القرآن الذى أعجز جميع البلغاء والعظماء ، فلم يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثله..؟

لاشك أن الذى علمه ذلك هو الاله العليم الخبير ••

اذن لايعقل أن ينجو الانسان من أخلاق بيئته من مبدأ نشأته فاذا أمكن للعقل أن يتصور انسانا استطاع أن ينجو من أخلاق أهله وبيئته ويسلم من عقيدة مربيه ، فذلك انما يكون بعد أن يبلغ أشده ، ويتصل بمن يحرره ويهديه ، أما أن انسانا ينشأ كذلك منذ نعومة أظفاره فهو الذى فوق الفهم والادراك ، وكذلك لايعقل أن يوجد شخص عليم بعلوم الأولين والآخرين وهو أمى وليس فى زمانه علم ولا علماء ، فذلك دليل قاطع على صلته باله قدير أدبه أحسن الأدب وعلمه أحسن التعليم •

ولقد هال المشركين ذلك الأمر وأدهشهم مافاجأهم به رسول الله ، فاجتمعوا مرة عند «الوليد بن المغيرة» ، وكان أعلمهم بأشعار العرب وأخذوا

يفكرون فيما عساه أن يطعنوا به ذلك الرسول ، فقال بعضهم: نقول عنه انه كاذب ، فقال الوليد : هل كذب « محمد » قط ، قالوا : لا . قالوا نقول عنه انه كاهن . فقال : هل رأيتموه قط يتكهن . فقالوا : لا . قالوا نقول عنهانه شاعر . فقال : هل رأيتموه قط يتعاطى شعرا . ثم قال لهم : والله انني قد سمعت من « محمد » آنفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن، ان له لحلاوة . وان عليه لطلاوة . وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق وانه يعلو ولا يعلى عليه وانه ليحطم ما تحته .

وكان قد سمع أول «سورة فصلت» وكاد يسلم لولا تأثير أبي لهب عليه فانه قال له ان الناس يزعمون أنك أصبت بالفقر وأن « محمدا » يجمع لك مالا ، فغلبت عليه حمية الجاهلية وغلبت عليه شقوته ففكر ثم فكر ، وعبس وبسر ، بسر وجهه كلح ، وقال لهم : قولوا عنه انه ساحر . وفي ذلك نزل قول الله تعالى : « انه فكر وقدر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ثم نظر ثم عبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال : ان هذا الا سحر يؤثر » (الآية) .

فانظر كيف أن أشد الأعداء وأكبر المعارضين لم يجدوا مطعنا يطعنونه به ، سوى أنهم قالوا عنه انه ساحر . وهذا سلاح العاجز الذي ينكر حقائق الأشياء عنادا ويزعم أنها خيال وأوهام ولو أمكنهم أن يطعنوا فيه بشيء معقول سوى ذلك لما تأخروا عنه لحظة واحدة ، ولا ريب في أن قول الوليد الذي ذكرناه لك آنفا في وصف القرآن الكريم من أوضح الدلائل على أن القرآن معجز للبشر وانه قد بلغ في بلاغته وفصاحته مرتبة لايستطيع أحد أن يدنو اليها لأن الوليد هو أعلم العرب بمواقع الكلام نثرا ونظما وأقدرهم على تمييز القول الجيد من الرديء وقد وصف القرآن بأنه ليس من كلام الانس ولا من كلام الجن ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه . فلابد أن يكون حينئذ كلام اله قادر عظيم خبير . وهكذا شأن كل من كان يسمع كلام الله من العرب ويتدبر معانيه ، فانه كان لايرتاب قط في كونه معجزا للبشر أجمعين .فالقرآن هو المعجزة الكبرى التي هدى الله بها كثيرا من أساطين العرب وبلغائهم فقد كان الاصغاء لسماع ما تيسر منه كاف للايمان له والانقياد لدين الله الصحيح وهجر عبادة الأوثان .

ومن ذلك ما وقع لسيدنا عمر بن الخطاب فانه ذهب يريد قتل النبى — صلى الله عليه وسلم — فى نظير جعل يأخذه فمر على دار أخته وعندها زوجها فسمع تلاوة القرآن ، فسألها فى ذلك فأجابه زوج أخته بأنه اعتنق الاسلام . وكان عمر قويا فصرع زوج أخته فقامت أخته لتناضل عن زوجها فطلب عمر منها أن تعطيه الصحيفة التى كانت تقرأ فيهـا .. فقالت له انك نجس ، وهذا المصحف لا يمسه الا المطهرون ، فأعطته اياها بعد أن توضأ .. وهى تأمل أن يهديه الله للاسلام ، فلما تدبر معنى ما فيها من الآيات البينات انقلبت عداوته الشديدة لرسول الله محبة وولاء ، فذهب اليه وأعلن اسلامه ولم يلبث أن أصبح أشد أنصار الاسلام وأقوى أركانه رضى الله عنه وجزاه أحسن الجزاء .

ومثله « أبو ذر الغفارى » رضى الله عنه فانه أسلم بمجرد سماع بعض آيات القرآن من النبى — صلى الله عليه وسلم — وكذلك غيرهما ، ولهذا كان بعضهم ينصح بعدم الاصغاء للقرآن والبعد عن سماعه كى لايتأثرسامعوه ببلاغته فانهم هم أهل البلاغة وأقدر الناس على ادراك معانى الكلام وتقديره حق قدره ، فكانوا يتأثرون بمجرد سماعه . وكذلك معجزات الرسل عليهم الصلاة والسلام فانها كانت من نوع ما نبغ فيه أهل زمانهم ، « فموسى » صلوات الله عليه قد جاءهم بما يلائم السـحر الذى نبغ فيـه أهل عصره ، و « عيسى » عليه الصلاة والسلام قد جاءهم بما يلائم الطب واحياء الميت ؛ لأن أهل زمانه قد نبغوا فى الطب . وسيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — جاءهم بالقرآن البليغ لأنهم قد نبغوا فى البلاغة والفصاحة كما تقـدم ، فالقرآن الكريم معجزة قائمة لاتفنى على مر الدهور والأزمان ، كمـا قال تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

وبعدما تقدم فان كل من يزعم أن بعض القرآن خال من البلاغة فهو انسان تافه لايعى مايقول ولا يفقه فى الدين والعلم شيئا . بعد ماثبت بطريق الجزم أن أساطين العرب وفصحاءهم الذين خضعت أعناقهم لبـلاغة القرآن عجزوا عن أن يأتوا بسورة من مثله . وثبت أن هؤلاء العظماء قد بذلوا مجهودا عظيما فى محاربة الرسول وحاولوا غير مرة أن يعارضوا القرآن ،

فعجزوا عن ذلك وأقروا بعجزهم ، ولو أنهم قدروا على ذلك لتقهقر الاسلام أمامهم قطعا لأنه تحداهم على أن يأتوا بسورة من مثله ، فلو أنهم فعلوا لكانت لهم الغلبة ولكنهم خابوا وخسروا وتقهقروا أمام تلك العظمة التى قضت على عبادة الأوثان . وجعلت كلمة الله هى العليا وهى عظمة القرآن الكريم فى بلاغته وفصاحته ومتانة أسلوبه واحكام مبانيه ، وجمال معانيه ودقة تراكيبه وعذوبة ألفاظه وصدق قضاياه وصحة أخباره فى كل صغيرة وكبيرة واشتماله على كل مافيه سعادة الانسان وخيره . فهو حجة الله القاطعة ، وبرهانه الدائم ونوره الساطع ، أنزله الله هدى ورحمة للعالمين ، فلو اجتمع البلغاء جميعا على أن يذكروا مناقبه ويبينوا عجائبه ويشرحوا أسراره لما استطاعوا أن ينتهوا من ذلك الى غاية أو يقفوا على نهاية ، فان عجائب كتاب الله لا تفنى كما قال رسول الله ، وأسرار معانيه لاتستقصى ، فمن استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ومن حاد عنه فقد ضل سواء السبيل .

والأثر أن المسلمين فى مبدأ أمرهم كانوا من أرقى الأمم سعادة ومجدا وأعزها مكانة وقدرا وماذاك الا لأنهم كانوا بالقرآن مستمسكين وبآدابه متأدبين فخضعت لهم رقاب القياصرة وذلت بسطوتهم جباه الأكاسرة وكانوا سادة الدنيا وعنوان الشرف والفضيلة ومكارم الأخلاق ، فلما غلبت الأهواء على زعماء المسلمين وتركوا نصائح القرآن وراءهم ظهريا وصلوا الى ما هم عليه من سوء الحال .. نسأل الله تعالى أن يلهم المسلمين رشدا ويوفقهم الى التأدب بآداب كتابهم .

مما سبق ذكره من بعض سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام وأن القرآن الكريم معجزة تدل على أنه صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله حقا ، وأن كل ما جاء به وبلغه عن ربه صدق لا يرتاب فيه عاقل منصف يدرك طبائع الأشياء ويعرف ما يمكن أن تنتهى اليه العقول البشرية ، على أن هناك كثيرا من دلائل نبوته ومعجزاته لا يمكننا استقصاءه فى هذا المقام ، وكيف يمكننا استقصاء ذلك وله عليه الصلاة والسلام فى كل حركة من حركاته وكل عمل من أعماله ما يدل على أنه رسول الله وأنه خير خلق الله ، أليس هو ذلك اليتيم الفقير الذى نشأ فى تلك البيئة التى وصفناها وكل

أهل زمانه أعداء له لا ناصر له فيهم حتى أن أبا طالب الذى كان يناصره مات وتركه لهم فأصبح مضطهدا من جميع جهاته ، يتآمر عليه أعداؤه ويتربصون به الدوائر للقضـــاء على حياته وهو يصبر على كل ما يصـــيبه من بلاء ، ويحتمل كل ما يلاقيه من ضرر وايذاء ، ويجاهد بنفسه منفردا فى سبيل الدعوة الى الله تعالى كما أمره الله تعالى بقوله : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » .

وقوله : « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

أليس هو ذلك الأمى المضطهد من قومه وعشيرته قريبهم وبعيدهم ، غنيهم وفقيرهم ، حتى النساء والصبيان والعبيد ، فانهم كانوا يعيرونهم به ويضربونه بالأحجار كلما مر ومضى .

ومع ذلك فقد كان راضيا بكل اضطهاد وتعذيب قرير العين بكل مايصيبه من ايذاء وتشريد ، لا مطمع له الا هداية الناس وارشادهم ، ولا غرض له الا اخراجهم من الظلمات الى النور ، أليس هو ذلك الرجل الذى عرض عليه أعداؤه أن يبايعوه بالملك ، وأن يشاطروه جميع أموالهم ، فى نظير أن يكفه عن الدعوة الى الله ويسايرهم فى عبادة أوثانهم ، فرفض ذلك بإباء وشمم . وقال لعمه أبى طالب الذى عرض عليه ذلك : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تنازلت عن هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه » .

أليس فى ذلك دلالة قاطعة على صلته بربه ..

ثم أليس من الانصاف : الاذعان لهذا الأمى بأنه رسول من عند الله بعد أن قلب نظام العالم فى الشرائع والعقائد والأخلاق وهو فرد نشأ بين أعداء يحدقون به من كل حدب وصوب .

أليس من الانصاف : الايمان بأنه رسول الله وقد جاء بالقرآن الكريم الذى أعجز البلغاء والفصحاء جميعهم ، ومع ذلك لم يدع منه لنفسه كلمة واحدة ، بل قال انه جميعه من عند ربه ، قال تعالى : « ولو تقول علينـــا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين » . ١

ولقد بلغ ذلك القرآن عن ربه بكل أمانة وصدق مع أن فى بعضه عتبا عليه أو مؤاخذة له ، وليس من المألوف أن يعنف الانسان نفسه ، ويظهر أمام الملأ بمظهر المخطىء من غير ضرورة تلجئه الى ذلك .

أليس من الانصاف التصديق برسالته ، وقد ظل دينه محفوظا وقرآنه باقيا قرونا عديدة مع وجود أعدائه العاملين على هدمه وهدم دينه من الداخل والخارج ، الا أن ذلك ليس فى طاقة البشرى أن يأتى به وحده بل لا بد فيه من تأييد اله قادر لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء ..

واليك عدة نماذج قرآنية .. اعترض عليها الجهال من الناس وقالوا عنها انها لاتسير مع القواعد النحوية والبلاغية .. الخ . وغرضهم من ذلك هو التشكيك فى الكتاب المبين .. ولكن هيهات .

ففى سورة الأعراف : « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا » فأنث العدد وجمع المعدود ، والصواب التذكير فى الأول والافراد فى الثانى ...

والرد بالصواب : ان تمييز اثنتى عشرة ليس هو أسباطا بل هو مفهوم من قوله تعالى «وقطعناهم» ومعناه وقطعناهم اثنتى عشرة قطعة أى فرقناهم اثنتى عشرة فرقة ، فاسم العدد مؤنث والمعدود مؤنث طبقا للقاعدة النحوية .. ومن القواعد القياسية التى لا خلاف فيها جواز حذف ما يدل عليه الكلام ، وان هذا التركيب فى الذروة العليا من البلاغة لأنه حذف التمييز لدلالة قوله وقطعناهم عليه دلالة بديهية لا تخفى الا على الأغبياء . ثم ذكر الوصف الملازم لفرق بنى اسرائيل وهم الأسباط بدلا من التمييز .. وذلك لأن أبناء يعقوب اثنا عشر وكل ولد منهم جاء بأبناء ، فهؤلاء الأبناء هم أسباط يعقوب فكانوا اثنى عشر سبطا بعدد أبنائه . ولو جعل الأسباط تمييزاً فذكره مفردا وقال وقطعناهم اثنى عشر سبطا لكان الكلام ناقصا لا يليق بما يصدر عن البليغ ، وذلك لأن السبط يصدق على الواحد فيكون معنى الكلام على هذا أن أسباط يعقوب اثنا عشر رجلا فقط ، وذلك غير الواقع .

لهذا جمع الأسباط على آنه لم يقتصر على الجمع لأن الجمع يصدق لغة على الاثنين مع أن أسباط يعقوب كثيرون . وقد عدت التوراة أسماء

أبنائه وأبنائهم الذين جاءوا الى مصر فقط ستاوستين نفسا (تكوين عدد ٢٧) فلذا قال الله تعالى بعد ذلك « أمما » لأن الأمة الجماعة الكثيرة العدد .. فمعنى الآية أن الله فرق أسباط يعقوب اثنتى عشرة فرقة وجعل كل فرقة جماعة كثيرة العدد .

وفى سورة البقرة قوله : « تلك عشرة كاملة » ، والصواب : تلك عشر كاملة ..

والرد بالصواب هو أن المعدود فى هذه الآية هو الأيام ، جمع يوم ، واليوم مذكر ، والقاعدة فى ذلك تأنيثه ليكون منطبقا على القواعد النحوية فى ظاهرها وباطنها .

وقال فى سورة النساء آية ١٦٢ : « لكن الراسخون فى العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر » ، والصواب : والمقيمون الصلاة .

والرد بالصواب هو : أن معنى قوله تعالى « والمقيمين الصلاة » وأخص أو وأمدح المقيمين الصلاة .

وذلك لأن الصلاة اذا أقيمت فى وقتها على وجهها فانها تنهى فاعلها عن الفحشاء والمنكر ، فكل ذلك من الأسباب التى تجعل للمقيمين الصلاة ميزة يمتازون بها ، فلهذا جاء القرآن الكريم بنصب المقيمين .

وقال فى سورة المائدة آية ٦٩ : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » ، والصواب : الصائبين .

والرد بالصواب : أن « والصابئون » مبتدأ والنصارى معطوف عليه ومن آمن .. الخ خبر المبتدأ وهو يدل على خبر ان المحذوف . فالمعروف أن لفظ « ان » وان كان ينصب المبتدأ لفظا لكنه لا يزال مرفوعا محلا فيصح لغة ان يعطف الصابئون على محل اسم ان سواء كان ذلك قبل مجيء الخبر أو بعده .. والآية الكريمة شاهدة على ذلك فهى جارية على القواعد العربية لفظا ومعنى .

وقالوا ان فى سورة المنافقين آية ١٠ : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » والصواب وأكون ، بالنصب .

وقال فى سورة آل عمران آية ٥٢ « ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » والصواب : فكان .. وهكذا .

ومما أخطأ فيه مراعاة للروى — على زعمهم — قوله : « سلام على الياسين » والوجه الياس . وقوله : « وطور سينين » والوجه سيناء .

ومن أخطائه فى الضمائر قوله فى سورة الحج آية ٢ : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم » والوجه اختصما فى ربهما .. وقوله فى سورة الأنبياء : « وأسروا النجوى . الذين ظلموا » والوجه وأسر النجوى .. وقوله فى سورة الحجرات : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » والوجه اقتتلتا أو بينهم ، هذا ما وقف عليه المبشرون من الأغلاط النحوية والبيانية فى القرآن الكريم .

ولقد فات هؤلاء الجاهلين بالعربية البعيدين عن لغتها وقوميتها وأصولها وأسسها أن قواعد النحو والبيان انما هى موضوعة على أساس القرآن الكريم لأنه هو الأصل العربى الذى تواتر عن « محمد » عليه الصلاة والسلام ، رسول الله العربى ، وتحدى به أفصح العرب منطقا وأبلغهم قولا ، فعجزوا عن الاتيان بمثله ، فكل ما يخالفه من العبارات يكون غير عربى بدون نزاع ، فهل يظن هؤلاء الغارقون فى الجهالة أن قواعد سيبويه والخليل أصل يطبق على القرآن ، فيقال لما خالف هذه القواعد انه لحن . ان كانوا يظنون ذلك فقد بلغ بهم الجهل غايته لأن الواقع أن قواعد الخليل وسيبويه وغيرهما من واضعى العلوم العربية انما تكون صحيحة اذا وافقت القرآن الكريم ، أما اذا خالفته فى شيء لا يمكن تأويله فانها تكون غلطا بلا نزاع .

والظاهر أن هؤلاء المتقولين يرجعون الى كتب بعض المفسرين ويأخذون من أبحاثهم ما يسوقونه فى صورة اعتراض ، وينسبونه الى أنفسهم مع انهم

يعلمون ان المعترض قد أجاب عن اعتراضه بعدة أجوبة ومع ذلك ترى كثيرا من المدعين لا يحسن نقل الاعتراض فيظهر جهله .

فأما القول : ومما أخطأ فيه القرآن مراعاة للروى قوله : « سلام على الياسين » والوجه الياس .

فيجب أن يعرف المبشرون والمستشرقون المنحرفون عن جادة الصواب أنه لا روى فى القرآن لأنه ليس بقول شاعر وانما هو نثر بلغ النهاية القصوى فى البلاغة والبيان فلم تضطره الروى الى أن يقول الياسين ، فلو قال : سلام على الياس ، لم يخل بحسنه .

وقد علمنا القرآن هنا أن الياس اسم معرب يصح أن يقال فيه الياسين، وذلك لأن الياس اسم لفينحاس بن العازر بن هارون عليهما السلام . ويقال له أيضا الياهو ، ومعناه بالعبرانية « قادر أزلى » فنقله العرب الى لغتهم وتصرفوا فيه ذلك التصرف ، فمرة نطقوا به الياس ومرة نطقوا به الياسين .

وقد ذكر كل هذا فى خطط المقريزى ونص عبارته : « الياس هو فينحاس بن العازر بن هارون » عليه السلام . ويقال الياسين بن ياسين بن عيزار بن هارون . ويقال الياهو وهى عبرانية معناها قادر أزلى .. وأهل اللغة العربية نقلوا أسماء أعجمية وأدخلوها فى لغتهم فغيروها بحسب مايلائم ذوقهم فى النطق وكذلك يقال فى طور « سينين وطور سيناء » فمنهم من نطق به سيناء ومنهم من نطق به سيناء — بفتح السين — ومنهم من نطق سينين — بكسر السين — والقرآن الكريم عبر عنه مرة بسيناء فى سورة المؤمنين ، ومرة عبر عنه بسينين كما فى سورة التين ، وكل ذلك مطابق لاستعمالات العرب . وقد جاء القرآن بما يوافق لغة العرب ، وهو قرآن عربى مبين .

وآية : « هذان خصمان اختصموا فى ربهم .. » تشابه — من جميع الوجوه — قوله تعالى : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما .. » والرد على ما فيهما من شبهة : أنه ينبغى للبليغ أن يأتى فى العبارة بما يفيد أنهم جماعة ، فقال : اختصموا ولو أنه قال اختصما لم يقم دليل على أنهم جماعة فينصرف الذهن الى التثنية الحقيقية ، وذلك يتنزه عنه

كلام الله تعالى . ومن القواعد المقررة فى اللغة العربية التى لا جدال فيها أن مرجع الضمير يصح أن يلاحظ فيه لفظه ويصح أن يلاحظ فيه معناه .

أما الرد على ما فى « وأكن من الصالحين » من شبهة ، فالواقع أن معنا معلين : « أصدق ، وأكن » والأول صالح للارتباط بلولا ، اذ يقـال لولا أخرتنى فأصدق ، والثانى غير صالح للارتباط بها ، اذ لا يقال من حيث المعنى لولا أخرتنى فأكون من الصالحين ، لأنه لا ارتباط بين التأخير والكون من الصالحين ، فقد يؤخره ولا يكون من الصالحين .

وبذلك يكون التقدير المناسب للمعنى : لولا أخرتنى الى أجل قريب فأصدق ، وان أصدق أكن من الصالحين .

« ثم قال له كن فيكون » رد الشبهة هو :

أن هذا من باب التعبير بالمضارع فى موضع المـاضى ، لاستحضـار الصورة كما يقول أهل البلاغة .

وهكذا فى كل ما نسبوه وينسبونه الى كلام منزه عن الأخطاء وهو من عند الله ، ولكنها جرأة خاطئة على الحقائق العلمية منهم ونزولهم الى ميادين المناظرات وهم عزل من كل سلاح مجردون من كل دليل ، ولا هم لهم الا التهويش والتضليل .

وبعضهم أيضا اعترض بأن القرآن يناقض بعضه بعضا ، وذلك لأنه قال « فيه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات » وقال فى مواضع كثيرة انه : قرآن عربى مبين ، فكيف يكون عربيا مبينا مع أن فيه المتشابهات؟

ويظهر أن هذا الاعتراض قد نقلوه من كتب علماء الكلام، وقد أجابوا عنه أنفسهم بأجوبة كثيرة ، أحسنها وأقربها أن المراد بالمتشابهات ، الحقائق التى لا يمكن للعقول البشرية جميعها أن تدركها كمعرفة حقيقة ذات الالة أو الروح أو حقيقة الأمور المـادية البسيطة التى لا يمكن تحليلها وكذلك الأمور الغيبية كأحوال الآخرة ونحو ذلك . فهذه الأمـور قد وردت فى القرآن بعبارة عربية فصيحة لا يتوقف أحد فى ادراك الغرض المطلوب منها

ومن ذلك قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربى » .. وقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » .. وقوله تعالى : « ان الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث » .. الخ .

ولكن لا يمكن للعقول ادراك هذه ، فالعلماء المفكرون لا يحاولون معرفة هذه الحقائق ولا يطالبون الرسول ببيانها لأنهم يدركون أن للعقل الانسانى حدا يقف عنده .

أما المتشابه فهو نحو قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » وقوله : « يد الله فوق أيديهم » ، فانهم لا ينـكرون أن هذه العبارات لها مدلولات ظاهرة تنطبق على اللغة العربية ، ولكنهم يقولون ان ظاهرها غير مراد ولا نعرف مراد الله منها على التحقيق . فنقف عندها اجلالا وتأدبا مع الله تعالى ، فالفريقان يقولون ان مدلولات الآيات فى غاية الظهور والوضوح

ولاثبات أن معجزة القرآن — وهى أهم معجزة للنبى عليه الصلاة والسلام — قد اعترف بها كثير من المستشرقين الغربيين الذين درسوا الاسلام ، وحادوا عن جانب الحق والعلم ، نذكر بعض ما قالوه فى ذلك ، فقد قال الأستاذ « كارادى فو » : ان القرآن قد أبان ابانة جيدة الشروط التى يجب أن تجعل البرهان المؤسس على المعجزة منتجا ، اذ اشترط وجود الاستعداد القلبى لتصديق المعجزة عند الذين يشاهدونها ، فقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون . ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا الا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون » .

وقال أيضا : ان علم الله يظهر فى القرآن كشرط أساسى لقدرته أو كناحية من نواحيها . وهو وارد فى ذلك الكتاب « القرآن » بطريقة أكيدة بحيث لا يقل فى ثبوته عن القدرة نفسها : « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » .

ان القرآن يؤكد في وضوح روحانية الاله (١) التي يلاحظ صلتها الوثيقة بالوحدانية والقدرة والعلم والجلال ، كما يؤيد أن الله هو الذى يحيط بكل شيء ، ولا يمكن أن يحاط به . وهو المنزه عن كل ما يلحق الأبدان . وهو أسمى من طبيعة الانسان ، ومن طبائع جميع الكائنات الأخرى وهو أرفع من كل ما عداه رفعة تجعل حتى رؤيته بحاسة البصر مستحيلة « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » .

من هذه النقطة ، وهى نقطة الجلال الالهى ، نشأت بين المسلمين مشكلة كبرى ، احتدم حولها الجدل فى عصورهم الفكرية الأولى كما احتدم بين المسيحيين من قبل ، وهى مشكلة رؤية الاله فى حالة الغيبوبة أو فى مقام الشهود ثم يقول :

ومن الملاحظ أن الفوز بهذه الرؤية فيما يرى القرآن أمر شديد العسر ففى السور التى تحوى القصص النورانية ، يرى القارىء هذا العسر جليا . اذ يشاهد أن آدم لم ير الله حين كلمه ، وان نوحا لم يفز بهذه الرؤية بعد نجاته من الطوفان ، وان ابراهيم — مع انه خليل الله — لم ير الا ملائكته، وأن موسى حين طلب أن يراه أجابه بقوله « لن ترانى ، ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا ، وخر موسى صعقا ، فلما أفاق قال سبحانك تبت اليك » ، وان محمدا لم ير الا الروح الأمين ، الملك جبريل ، وأن الأوصاف القرآنية للجنة تنص على أن المختارين يستمتعون بمرأى مساكن جميلة ، وحدائق ومخلوقات من الجنسين . ولكنها لم تنص على أنهم يستمتعون بمرأى الاله . أما فى حالة الحكم بينهم ، فهم سيحشرون فى حضرة الاله ، ولكن دون أن يفهم أحد الكيفية التى سيتحقق عليها ، نعم ان فى القرآن لآيات غريبة فى بابها ، اذ يقول بعضها : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » .

والبعض الآخر يقول : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى

(١) الالوهية فى الاسلام ليست مشوبة بشوائب المادة كالالوهيات فى الاديان الاخرى

توقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم »

واذا فتشنا فى كتب التفسير ألفيناها لا ترى فى هذه الآيات الا تشبيها وتمثيلا (١) .

والأستاذ « كارا دى فو » له آراء فى المشكلات التى يعرض لها القرآن ، والتى دار حولها الجدل فى البيئات العربية قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية ، والتى تحمل بين ثناياها أقطع الردود على دعوى محاربة الاسلام للفكر والنظر ، وله آراء لا تتفق مع روح الاسلام ، كقوله مثلا عن الآيات القرآنية . قال محمد .. وان محمدا لا يرى كذا .. ويقصد أن القرآن من صنع محمد .

وقد ضربنا صفحا عن هذه الهفوات ، واكتفينا بما أثبته من شهادات قيمة للقرآن فيما نحن بصدده من احتوائه على النظريات الفلسفية الهامة وحلولها القويمة ، فقد أثبت الاستاذ « كارا دى فو » : ان القرآن عرض لمشكلات : أزلية البارى وثباته ، وبدء الخلق ، ومصير العالم فى الحياة الأخرى .

فقال فى الأولى : ان أزلية الاله مثبتة فى القرآن ، وان لم يكن قد ألح عليها كثيرا .

وقال فى الثانية : ان ثبات الاله يتجاوب فى القرآن مع أزليته وأبديته وعلمه ، وهو نتيجة لها ، وهذا الثبات الالهى يتضح على الأخص فى ادارته الكون : « سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » .. غير ان الثبات الالهى الوارد فى القرآن يتعلق بالنواميس التاريخية والأخلاقية أما عن الثبات الميتافيزيقى ، فلم يتساءل كيف يمكن التوفيق بينه وبين ايجابية الاله وتأثيره فى الكون .

---

(١) توهم الكاتب فظن أن الذى يسعى بين يدى المؤمنين وبأيمانهم فى الآخرة انما هو الله نفسه ، لان القرآن أطلق عليه اسم النور .

كيف يعد « كارا دى فو » القول بثبات الاله مع القول بايجابيته فى القرآن أمرا غريبا ؟ مع ان أرسطو — وهو الذى أسرهم بفلسفته — قرر أن الاله ثابت وانه هو المحرك الأول لجميع المتحركات ، وأن الاجماع منعقد على أن التغير دليل الحدوث ، والتحرك دليل التأثر بالمحرك والثبات لا يتعارض مع الايجابية . وان الفرق جلى بين من يفقد الحركة لعجزه عنها وبين من يتجرد منها لتنزهه عنها .

وقال فى الثالثة : ان فكرة بدء الخلق ليست محددة فى القرآن تحديدا تاما ، لأن نصوصه كنصوص التوراة لم ترفض وجود الكاءوس (١) الذى صنع منه العالم .

وقال فى المشكلة الرابعة : ان الانسان ليدهش من العبارات غير المحددة الواردة فى القرآن فيما يختص بأبدية الجزاء أو انتهائه : « فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق . خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك ، ان ربك فعال لما يريد . وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض الا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ » .

ويلمح الأستاذ هنا على هاتين الآيتين بما يفيد أن فكرة أبدية الجزاء لم تؤخذ صراحة من القرآن وانما من الأبدية . ولكن لا يصرح بها . وان المتكلمين هم الذين قالوا بالأبدية بعد تأثرهم بالفلسفة الاغريقية فان كان قد استنتجه من التعليق على دوام السموات والأرض فان القرآن لا يريد السموات والأرض الموجودة الآن . وانما يريد تلك التى عناها بقوله : «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات » وهذه خالدة شبيهة بالعالم الآخر الذى خلقت فيه . وان كان قد استنتجه من التقييد بالمشيئة الالهية ، فان هذا التقييد لا يفيد الا امكان الزوال اذا تعلقت المشيئة به .

ومن المعروف أن كل ما عدا الله فى نظر الاسلام ممكن . فنص القرآن على امكان الزوال فى هاتين الآيتين لا يفيد ضرورة تحقق هذا الزوال ، بل بالعكس هو يفيد تحقق الدوام وامكان الزوال .

---

(١) هو العنصر الذى خلقت منه المخلوقات . وهو الماء عند بعض الفلاسفة ، الهواء عند آخرين ، والنار عند غيرهم ، وهناك آراء وأقوال كثيرة حول هذا الموضوع .

ومما تقدم يتبين جليا أن القرآن هنا قد عرض لاحدى عشرة مشكلة هى من أعقد المشكلات الفلسفية وأعظمها خطرا ، وهى : الالوهية . الوحدانية . القدرة . التنزه عن الانسان . مخالفة واجب الوجود لكل من عداه من الموجودات . علم الله بالجزئيات الكونية المجردة وأجزائه المتحيزة استحالة ادراكه بحاسة البصر . أزلية البارى . ثباته . بدء الخلق . مصير العالم فى الحياة الأخرى . وليس هذا هو كل ما عرض له القرآن من المشكلات الفلسفية . بل هناك نظريات أخرى سوف تعلم بدراسة هذا الكتاب ، ولا نحسب أن كتابا يعرض لهذه المشكلات الفلسفية المعقدة . ويكلف معتنقيه بالنظر فيها . يصح أن يتهم بأنه اضطهد الفكر ، وحارب النظر .. ولكنه الجهل أو الغرض هو الذى يحيد بصاحبه دائما عن الصراط المستقيم .

وعرض الاستاذ « كارا دى فو » لما فى القرآن من أخلاق فلسفية . فكان عرضه اياها بمثابة رد قاطع على أولئك الجاهلين الذين زعموا أن القرآن ليس فيه الا نوع من الأخلاق العملية الساذجة المألوفة عند الشرقيين . من الأمر بالصدق والأمانة والنهى عن الكذب والخيانة وما شاكل ذلك .

واليك ما قاله الباحث وأثبت أنه قد احتوى بين آياته على أخلاق فلسفية هى أسمى درجات النظر قال : ان علم الله وقدرته وحكمته ليست مقصورة فى القرآن على زمن ايجاد الكائنات بل هى تحوطها فى مستقبلها أيضا لأن هذه الكائنات لها عند الله غاية معينة قصد اليها من ايجاد المجموعة الكونية . وقد أبان هذه الغاية بكل بساطة فى قوله : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » .

ويلاحظ الباحث فى القرآن أن كل جزء من أجزاء الطبيعة قد صنع لصلاح المجموع . وللوصول الى الغاية القصوى منه ، ولا ريب أن هذه هى عينها نظرية التفاؤل المستنبطة من الادراك الأولى للاله ، وهى أنه عالم ، قادر ، خبير .. وكل ما يفعله هو بقدر ، وهو للصالح العام : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل شيء موزون . وجعلنا لكم

فيها معايش ومن نستم له برازقين . وان من شيء الا عندنا خزائنه ومانتزله الا بقدر معلوم » .

ولقد سمت نظرية تضحية الجزء للمجموع « بأرسطو » الى أوج المجد والتى أعلن فيها : انه مادام ان الكل هو فى مجموعه خير ، فلا أهمية للجزء ، وما دامت الغاية خيرا فلا يؤبه الى الشرور الجزئية العارضة فى الوسائل ، وذلك كالمطر ، فانه ضرورى للصالح العام ، فاذا أفسد طعام فقير أو خرب بيت عجوز فان هذا لا يخرجه من صلاحيته . و لاينقله من مرتبة الخير الى دركة الشر ، فاذا ألفينا هذه النظرية فى القرآن كان ذلك برهانا على أنه واجه أعوص النظريات الأخلاقية كما واجه أدق المشكلات الفلسفية .

وقال أيضا فى القضاء القدر : ان القرآن قد ألح كثيرا على ذكر القدر ولكن على الرغم من هذا اذا فحص الباحث بعقل هادىء . وبلا تحيز فقرات هذا الكتاب المتعلقة بالقدر تبين له أنها ليست جبرية الى الحد الذى ظنه كثير من الناس . وانها ليست متعارضة مع العدالة أقل تعارض . وهاك مجمل للافكار التى تحتويها تلك الآيات فيما أرى : ان الاله يعلم كل شىء قبل وقوعه ، وبالتالى هو يعلم كل السيئات وما يتبعها من عقوبات . والحسنات وما تستتبعه من مثوبات .. لأن كل شىء قد كتب أزلا فى كتاب محفوظ فى السماء .

ولا يعنينا أن يكون لهذا الكتاب وجود حقيقى أو هو رمز لعلم الله بكل شىء . وانما المهم هنا أن هذا التعبير يعادل من الجهة الفلسفية تأكيدا حقيقيا لسابقية علم الله بكل ما سيكون : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل أن نبرأها ، ان ذلك على الله يسير » .

وليس معنى هذا أن المصيبة تصيب أحدا ظلما فانها اما أن تصيبه عدلا واما أن تصيبه فى سبيل صالح المجموعة وهو يعوضه عنها جزاء فى الحياة الأخرى . وليس معناه كذلك أن القدر السابق يلغى الحرية الفردية .. كلا ، وانما معناه أن الاله لا يجهل شيئا مما سيكون وان للفرد الاختيار

بين الطريقين . ولهذا لن يستند فى جزائه الى ما هو مكتوب فى الكتاب السابق ، وانما يستند فيه الى الكتاب الذى سجلت فيه أعماله . وفى هذا برهان على أن الجزاء منوط بالعمل الفعلى ، لا بالتقدير قبل الوقوع

والى هذا يشير القرآن بقوله : « انا نحن نحيى الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه فى امام مبين » لأن الكتاب المذكور فى الآية الأولى لم يخرج عن كونه منهج الكون الذى قدر الاله فيه سيره كله .. أما الكتاب الثانى فهو سجل قيد فيه ما عمله كل فرد بدقة : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

غير أن المرعب فى هذا الموضوع هو تلك الآيات الأخرى التى تقول مثلا : «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ، ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » .. « فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء » .

فنحن اذا نظرنا الى هذه الآيات على حدة ، أى منفصلة عن الآيات الأخرى التى تقيدها ، ألفينا أنها ترمى الى أن الله قد أجبر كلا على مافعل. ولكننا اذا نظرنا اليها كما يجب على ضوء الآيات الأخرى تحققنا أنها لاتلغى الاختيار الفردى . وانه لم يكتب فى الضالين الا من سيغلقون قلوبهم عن سماع الهدى .. واليك هذه الآيات :

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس ، لهم قلوب لا يفقهون بها . ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، وأولئك هم الغافلون » .

لا شك أن ما تحتويه هاتان الآيتان الأخيرتان عظيم الأهمية ، لأنه تصريح بأن الفريق الذى عين فى كتاب القدر للجحيم ، مؤلف من أشخاص سيصمون آذانهم عن سماع الهدى ويغمضون أعينهم عن مشاهدته . ويحولون قلوبهم عن تعقله ، وكل ذلك بارادتهم الحرة ، واختيارهم البعيد عن كل تأثير ، اذ ليس بين المقدر عليهم وبين سلوكهم العملى أية صلة واقعية تجذبهم بالرغم منهم الى ما قدر عليهم .

هذا مجمل آراء الاستاذ « كارا دى فو » فى المشكلات التى عرض لها القرآن ودار حولها الجدل فى البيئات العربية قبل ترجمة الفلسفة الاغريقية ، والتى تحمل بين ثناياها أقطع الردود على دعوى محاربة الاسلام للفكر والنظر .

ومن النواحى القرآنية الخفية الهامة التىأهاجت غريزة حبالاستطلاع عند المستشرقين وأثارت فى نفوسهم رغبة البحث فى القرآن ، ودفعت فضولهم الى تعقب أسراره ومخبوءاته ناحية فواتح السور . وممن افتتن بهذا الجانب الخطير من الأساتذة المستشرقين « نولديك » وشفالى ، ولوث ، وبوير ، وهيرشفيلد ، وبول ، وبلاشير ، وغيرهم .

وقبل أن ننقل تلك الآراء بقسميها الاسلامى والأوربى ، ينبغى أن نشير هنا الى شىء من الطوابع الخاصة المميزة لتلك الفواتح .

وردت هذه الفواتح فى تسع وعشرين سورة من القرآن ، وقد رتب بعض الباحثين السور التى ابتدأت بها ووضع لها جدولا على النحو الآتى .

سورة	٢	البقرة	ألم
سورة	٣	آل عمران	ألم
سورة	٧	الأعراف	المص
سورة	١٠	يونس	الر
سورة	١١	هود	الر
سورة	١٢	يوسف	الر
سورة	١٣	الرعد	المر
سورة	١٤	ابراهيم	الر
سورة	١٥	الحجر	الر
سورة	١٩	مريم	كهيعص
سورة	٢٠	طه	طه
سورة	٢٦	الشعراء	طسم
سورة	٢٧	النمل	طس
سورة	٢٨	القصص	طسم

سورة	٢٩	العنكبوت	ألم
سورة	٣٠	الروم	ألم
سورة	٣١	لقمان	ألم
سورة	٣٢	السجدة	ألم
سورة	٣٦	يس	يس
سورة	٣٨	ص	ص
سورة	٤٠	غافر	حم
سورة	٤١	فصلت	حم
سورة	٤٢	الشورى	حم . عسق
سورة	٤٣	الزخرف	حم
سورة	٤٤	الدخان	حم
سورة	٤٥	الجاثية	حم
سورة	٤٦	الأحقاف	حم
سورة	٥٠	ق	ق
سورة	٦٨	القلم	ن

ومن الطوابع التى ميزت تلك الفواتح أنها تدور كلها فى اطار أربعة عشر حرفا من الحروف الهجائية ، وأنها صيغت فى أربع عشرة سورة مختلفة وهى : ص.ق.ن ــ طه ــ طس.يس.حم ــ ألم.الر.طسم.المص، المر،كهيعص حمعسق

ومن هذه الطوابع أيضا أن ثمانى وعشرين سورة من التسع والعشرين التى بدئت بالفواتح واقعة فى الخمسين سورة الأولى حسب الترتيب الوارد فى المصحف . وانه لا يوجد منها فى النصف الأخير الا سورة القلم .

ومنها كذلك أنه يلاحظ فى بعض هذه السور ، على أثر الفواتح ، وجود كلمات : « ذلك الكتاب لا ريب فيه » البقرة ، أو « كتاب أنزل اليك » الأعراف ، أو « تلك آيات الكتاب الحكيم » يونس أو « تلك آيات الكتاب المبين » الشعراء ، والبعض الآخر يثنى بعد الفواتح بالقسم كقوله : « يس والقرآن الحكيم » أو « ص . والقرآن ذى الذكر » أو «ن. والقلم وما يسطرون » .

منذ فجر الاسلام والفواتح مجال كثيرمن المجادلات الحادة. والتأويلات المتباينة ، والتخريجات المتعارضة ، بل لقد تسبب الغموض الذى أحدق بها فى اقحام عدد من الخرافات التى ما كان ينبغى أن تتصل بالقرآن الكريم . أو أن تلتصق بتاريخ تفسيره الجليل .

وان المستشرقين لهم العذر فى حب الاستطلاع كل العذر ، فلطالما قذفت هذه الفواتح بالرهبة فى القلوب ، ولشد ما أفعمت النفوس بالهيبة والجلال أحيانا ، وبالرعب والفزع أحيانا أخرى ، وان ننس لا ننسى موقف عتبة بن ربيعة حين تلا عليه الرسول عليه الصلاة والسلام سورة حم ، الى قوله تعالى : « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » فذهب الى صناديد قريش وقال لهم : والله لقد سمعت « محمدا » يتلو كلاما ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بقول البشر ، فقالوا له : تالله لقد سحرك محمد ، وقد فقدناك منذ الآن .

ولا غرو فالله جل شأنه حين أمر رسوله عليه الصلاة والسلام بتلاوة هذه الآيات الرهيبة على أحد أعدائه المتازين كان أعلم العالمين بما ستحدثه من أثر فعال فى نفوس أولئك المعاندين الأذكياء من فصحاء العرب ، الذين هم خير من يقدرون هذه الآيات ، ويشعرون من طريق الفطرة السليمة بقيمتها ، وان خفيت عليهم معانيها وأسرارها .

ولقد سرد لنا المفسرون فى هذه الفواتح عددا كبيرا من الآراء . نود أن نلم بأهمها قبل أن نشير الى آراء المستشرقين فيها ..

ذهب فريق من علماء السلف الى أن فواتح السور مما استأثر الله بعلمه ، ولذا يحظر الخوض فيه على أى نحو من الأنحاء .

واتجه فريق آخر الى أن محاولة الاجتهاد فى كشف معانيها وفهم مراميها واجبة شرعا للوقوف على أسرارها ، والانتفاع بها تحقيقا للهدف الذى رمى اليه القرآن من ذكرها . والا لو أراد الله أن تبقى مخبوءة لكان من العبث الاكثار من ذكرها الى هذا الحد الذى بلغ تسعا وعشرين مرة . تعالى الله عن العبث علوا كبيرا .

ولقد تفرع هذا الفريق الذى أوجب الاجتهاد فى تعقب مراميها ، الى فروع كثيرة . اذ قد أنبأنا الطبرى أن جمهرة القراء قد اختلفوا فى قول الله تعالى : « ألم » . فقال بعضهم هو اسم من أسماء القرآن ، وقال بعضهم هو اسم للسورة التى يفتتح بها . وقال بعضهم : هو اسم الله الأعظم . وقال بعضهم : هو قسم أقسمه الله بها . وهى من بين أسمائه ، وقال بعضهم هى حروف متقطعة من أسماء وأفعال ، كل حرف من ذلك يعنى معنى غير معنى الحرف الآخر ، وقال بعضهم : هى حروف هجاء موضوعة . وقال بعضهم : هى حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة . وقال بعضهم لكل كتاب سر ، وسر القرآن فواتحه . ولقد استند الطبرى وابن كثير ، فى القول بأسرار الفواتح الى حديث رفعا سنده الى « أبى جعفر الرازى » عن « الربيع بن أنس » عن « أبى العالية » ، فى قوله تعالى « ألم » قال : هذه الأحرف الثلاثة من الأحرف التسعة والعشرين حرفا ، دارت فيها الألسن كلها ، ليس منها حرف الا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها اسم الا وهو من آلائه ولألائه ، وليس منها حرف الا وهو مدة أقوام وآجالهم .

وهناك فريق آخر كان أجرأ وأكثر صراحة : فقرر أن الألف رمز للفظ الجلالة « الله » واللام رمز للطيف والميم رمز للمجيد . أو أن الألف واللام رمز للفظ الجلالة ، والراء رمز للرحمن ، والميم رمز للرحيم ، أو أن الألف من قوله تعالى : ألمص . رمز لكلمة أنا ، واللام رمز لله . والميم رمز لكلمة اعلم ، والصاد رمز لكلمة افصل . فتكون ألمص اختصار لعبارة : أنا الله أعلم وأفصل . وقد أرجع الرازى أساس هذا التأويل الى « ابن عباس » .

وكذلك أعلن البعض أن « ق » رمز لجبل ق . أو للقرآن . ولسنا ندرى كيف يكون معنى الآية الكريمة : « ق . والقرآن المجيد » عند صاحب هذا الرأى الأخير ، أيكون معناها اقسم بالقرآن والقرآن المجيد ؟ هذا لعمر الحق كلام له خبىء ، معناه ليست لنا عقول ، وفى الحق أن هذه التأويلات قد بلغت من الفروض والتخمينات حد الأخيلة والأحلام التى استوجبت فى العصور القديمة سخرية «الباقلانى» وأمثاله من ذوى العقول الراجحة . واستهزاءهم بها وبأصحابها .. كما استوجبت ولاتزال تستوجب فى العصر الحديث من السخرية أكثر مما كان لدى الأقدمين .

ونحن نود أن نختتم سلسلة هذه الفروض القديمة بذلك التأويل الذى رواه لنا السيوطى فى فاتحة سورة « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ». اد يقول : ان حرف الطاء يقابله فى الجمل عدد «٩» والهاء يقابله عدد «٥» ومجموع هذين العددين « ١٤ » وهو الليلة التى يبلغ فيها البدر تمامه فتكون كلمة طه رمزا لقوله يا بدر « ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى » ونحن نحسب أن ما فى هذا التأويل من التعمل وتحميل الآية الكريمة ما لا تطيق شىء لا يخفى على أحد .

وقد تصل الأوهام ببعض المستشرقين الى درجة تتجاوز كل فكر معروف ، بل كل حد مألوف ، وفى الحق أن الباحث يتعب كثيرا حين يتعقب هؤلاء الواهمين الذين لا يبنون فروضهم على دعائم معقولة ، ولا يعتمدون فى نظرياتهم على أسس منطقية .

ومن أمثلة هؤلاء المستشرقين الاستاذ « لوت » الذى يتصور أن النبى عليه الصلاة والسلام تأثر بفكرة الفواتح بتأثير أجنبى . وهو يرجح أنه تأثير يهودى ، وما ذلك الا لأنه ، لفرط جهله وسطحيته ، يتصور أن السور التى بدئت بالفواتح مدنية خضع فيها الرسول لتأثير اليهود . وقد فاته أن سبعا وعشرين سورة من تلك السور التسع والعشرين مكية . وليس بينها من السور المدنية سوى اثنتين . وهما سورة البقرة وآل عمران ،ولكنه الجهل وكفى بذلك وبالا .

والمستشرق « نولديك » يقرر فى كتابه « تاريخ القرآن » الذى نشر فى سنة ١٩١٩ أن تلك الفواتح ليست من القرآن فى شىء ، وانما هى رموز لمجموعات الصحف التى كانت عند المسلمين الأولين قبل أن يوجد المصحف العثمانى ، فمثلا حرف ميم كان رمزا لصحف المغيرة ، والهاء كانت رمزا لصحف أبى هريرة ، والصاد رمزا لصحف سعد بن أبى وقاص ، والنون رمزا لصحف عثمان وما الى ذلك .. واذن فهى ليست سوى اشارات لملكية الصحف ، تركت فى مواضعها بدافع النسيان ، والاهمال ، أو عدم اليقظة ثم صارت على مر الزمان قرآنا .

وقد اندفع المستشرفان «هيرشفيلد» و «بول» الى تقليد «نولديك» وأشادا بنظريته هذه . رغم أنه اقتنع بخطئه فيما بعد . وعدل عنها ..

وقد رد علـى هـذا الرأى الخاطىء « لوت » و « بوير » بأنهما لا ستسيغان أن أولئك المسلمين الأتقياء الذين نسخوا المصاحف يقبلون أن يضيفوا الى كلام الله ما ليس منه ، أو يقروا اضافته اليه ، وهما يجزمان بأنه لا يتصور عاقل أن أولئك الأعلام الدقيقين الذين كلفوا بجمع المصحف الأخير ، يمكن أن يجيزوا انضمام رموز بشرية الى كتاب الله ، أو يستبقوا فيما كلفوا بمراجعته رموزا لمعاصريهم .

هاتان النظريتان هما أخطر ما قذف به المستشرقون فى ميدان فواتح السور من عدوان على العلم ، وافتيـات على الحق ، قبـل أن يكونا على الاسلام ، وافتياتا على القرآن .

والمستشرق « اسبرانجير » يرى أن « طسم » لكى تفهـم يجب أن تقلب لتكون رمزا لقول القرآن : « لا يمسه الا المطهرون » . وقد أخذ « لوت » بهذا الرأى ، ونبذه « هيرشيلد » و « نولديك » و « شيفالى » .

و « بوير » يرى أن فى كل فاتحة من فواتح السور رابطا بما يذكر فى سورتها : فالطاء مثلا فى طسم تشير الى الطور . والسين تشير الى سيناء. والميم تشير الى موسى وان هذه السورة تتحدث عن موسى وطور سينين .

وكذلك حم تشير الى جهنم ، ولعلها تبتدىء بحرف الجيم الذى يشبه الحاء تماما فاختلط ذلك على العرب فنطقوه حاء ، وهو فى الحقيقة جيم . اشارة الى جهنم . ونحن لا يسعنا أن نعلق على هذا الرأى بأكثـر من أنه يستوجب الضحك .

والمستشرق العصرى « بلاشير » . وهو من المعتدلين . ترجم القرآن ترجمة لا بأس بها كرأى العلماء بعد أن اسـتعرض كثيرا من هـذه الآراء يقول : واذن فينبغى الرجوع الى نظريات المسلمين الأولين . والاستمسـاك بالآراء التى سردهـا « الطبرى » والتى يرى أدقها ان هـذه الفـواتح هى اختصارات لأسماء الهية . ومن أمثلة ذلك ان فاتحتى « الر » و « ن » هما اختصار لاسم « الرحمن » .

ويسائل « بلاشير » نفسه فى حيرة من تعثره وتعثر اسلافه ومعاصريه من المستشرقين بقوله : ماذا تمثل فاتحة « ألم » ؟ . أتمثل اسم الرحيم ؟ . أو تكون اختصارا . لكلمة « اللهم » ولماذا لا تكون فاتحة « حم » اختصارا للآية الأولى من فاتحة الكتاب . وهى الحمد لله رب العالمين ثم يتساءل عما عسى أن يكون قد اختبأ من الأسرار وراء هذه الفواتح الخفية فى طه وطسم وكهيعص . ولما لم يتوصـــل الى اكتناه هـــذا السر العميق .. قال : ان اتقياء المسلمين الذين رأوا من العبث محاولة معرفة سر اغوار هذه الأسرار كانوا وحدهم هم الحكماء ..

وقال بعضهم : انه لا يلزم من فصاحة كتاب من الكتب أن يكون من عند الله تعالى .. فقد قال الدكتور « فندر » : اذا فحصنا دعواهم باعجاز القرآن فحصا دقيقا بأهمية الموضوع لا نجد دليلا على صـــحة دعـــواهم لأنه كم من الكتب الشـــهيرة فى العالم الفهـــا قوم لا يعرفون القـــراءة ولا الكتابة . وقد جاءت لا مثيل لها ومن هذه الكتب كتاب وضعه « ريج فيدا » فى بلاد الهند وضعه بين سنة ١٠٠٠ ـــ ١٥٠٠ م قبل أن تعرف صناعة الكتابة فى تلك البلاد بزمن طويل ، ويزيد حجمه عن القرآن وصنفه أكثر من واحد الا أنهم لم يكن لهم كاتب يملون عليه آيات كتابهم .

وفى اللغة اليونانية القديمة قصيدتان فى غاية الفصاحة وهما الالياذة والأوديسة منسوبتان فى الغالب الى شاعر أعمى اسمه « هوميروس ».وكانت العميان فى سالف الزمان لا يعرفون القراءة ولا الكتابة ، ثم بعد أن قرر ذلك قال : انه لم يثبت أن « محمدا » كان يعرف القراءة والكتابة ، وقد قال بعض المسلمين انه كان يعرف القراءة والكتابة فبين معنى قول الله تعالى « النبى الأمى » بأنه النبى الذى أرسل للاميين وهو ليس بأمى .

القارىء لهذه الأقوال المتناقضة يحكم على هؤلاء الناس بالجهل المطبق وعدم تعمقهم فى أسرار القرآن . وانهم لم يقفوا على شىء من أمره وحقيقته.. والا فأين هذا الكتاب وكيف عرفه الناس وهو لم يكتب ولم يكن لمؤلفيه كاتب يملونه عليه .

أما قصيدتا الالياذة والأوديسة فلا أدرى كيف يحتج بهما القسيس وكيف يمكن المقارنة بين كتاب جامع لكل ما فيه سعادة المجتمع وبين قصيدتين فصيحتين . ومع ذلك هل عرف القسيس انهما فى غاية الفصاحة من أرباب اللغة ؟ أو هو تعلم اللغة اليونانية ، وعرف أنه لايمكن لأحد من اليونان أن يأتى بمثل هاتين القصيدتين . فان كان الأول فانه ينقضه أن ينقل عن اليونان أنهم عجزوا جميعا عن الاتيان بمثلهما . وان كان الثانى فانه يكون مخطئا كل الخطأ لأن الدخيل فى لغة من اللغات لا يمكنه أن يكون له مثل أهلها الذين فطروا عليهـا ويدركون بطبيعتهم من أسرارها ما قد يخفى على ذلك الدخيل .

فاذا كان هذا الكلام الذى ذكره « فندر » يصلح عند أحد الناس دليلا فانه يصح لذلك المؤلف أن يقول ان كتابه « ميزان الحق » بلغ الغاية القصوى فى البلاغة والفصاحة . لا . لا . ان مثل هذا الكلام ضرب من ضروب الهزل والا فهل المسلمون قالوا : ان القرآن معجز لانه فى غاية الفصاحة واقتصروا على هذه الدعوة ؟ .. لا .. لم يقتصروا على هذه الدعوة بل تحدوا به بلغاء العرب وهم كانوا أبلغ الناس وأفصحهم منطقا ، ثم تحداهم أفرادا وجماعات وقال لهم « محمد » هذا من عند الله فان كنتم لا تصدقونى فاجمعوا أمركم وأتوا بسورة من مثله . فحاولوا ذلك مرارا وتكرارا فعجزوا ولم يستطيعوا ولما انهزموا أمامه أخذوا يفكرون فى أمرهم بعد ذلك ونظروا فيـه نظرة المنصف فاهتدوا الى سواء السبيل ودخلوا فى دين الله أفواجا .

فكيف يعارض ذلك أن شخصا أو أشخاصا من قدماء الهنود الف كتابا فصيحا . وهل نحن نقول : ان الفصاحة قـد انقرضت من لغات العالم فلا يستطيع أحد أن يأتى بشىء فصيح ..؟

كلا أيها المبشرون .. اننا نقول : انه يمكن أن يأتى شخص أو أشخاص بكتب فى غاية الفصاحة : وقد ألف علماء المسلمين كثيرا من الكتب الفصيحة.. ولكنا نقول ان القرآن قد اعجز أبلغ الناس منطقا بالفعل . واعترف أعداؤه وأصدقاؤه بأنه ليس من كلام البشر بعد أن تحداهم المرة بعد المرة وقد كان ذلك الحكم نهائيا لا نقض له . لأن كل من جاء بعد هؤلاء القوم أقل منهم

بلا نزاع فلا يصلح لمعارضتهم فى حكمهم . ولقد نبغ كثير من كتاب المسلمين وأدبائهم الى درجة عظيمة وهم أقرب الى العرب الفصحاء من غيرهم . ومع ذلك فكلهم يذعنون بانهم عيال على القرآن الكريم فى بلاغته وفصاحته حتى أن أمهرهم فى صناعة الكتابة وأقدرهم على صوغ الكلام لايجد سبيلا الى المفاخرة الا باقتباس آى القرآن فيما يكتب أو يقول واذا كان هـذا حال العرب الخلص ومن خلفهم قبل أن تفسد اللغة . فهل يليق بمن لا يعرف من أساليب اللغة العربية شيئا أن يتصدى للحكم على بلاغة القرآن وفصاحته .

ولقد أحسن الدكتور « محمد خلف الله أحمد » حينما كتب عن القرآن بقوله : لقد اختص الله الأمة الاسلامية فيما اختصها به من ضروب البر والتكريم . بأن أنزل على رسولها كتابا مبينا محفوظا على الأيام جمع لها فيه أصول العقيدة الدينية السليمة ، ورسم لهم موازين الحياة الانسانية ، وحكمته فى ذلك أن يجعل هذا الكتاب مصدر ثقافتها ومحور علومها التى عرفت بها بين الأمم فاذا عدت روائع الكتب التى أثرت فى الحضارات الانسانية عامة وافتخرت كل أمة بنصيبها منها . كان من حق الأمة الاسلامية أن تضع على رأس قائمتها كتابها الأكبر الذى سارت وتسير على هديه مئات الملايين من البشر وشاركت وتشارك فى دراساته جهود العلماء من مختلف الأجناس والملل .

جاء القرآن والناس فى الأرض بين امى لا يعلم الكتاب الا ظنونا وأمانى . ومقلد ملكت فؤاده تعاليم الأحبار والرهبان وأساطير الآباء الأولين . واباحى لا دينى استرقته الشهوات والأهواء فهو عدو لكل وازع وخصم لكل مصلح . ودهرى يقول : ان هى الا أرحام تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا الا الدهر .

ثم قام بجانب هؤلاء أقوام كانوا يرون الخطر كل الخطر فى أن تستنير البصائر . وتتحرر العقول .. وأن يعرف الناس أن الناس عباد الله كلهم لآدم وآدم من تراب . وأن يعلموا أنه لا تغنى نفس عن نفس شيئا وان الله أقرب الى الانسان من حبل الوريد . يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون .

جاء القرآن والنـــاس فى كل أرض . فـــكان لابد له من الحيلولة بين أغوال المســيطرين المفترسين من أشباه النـــاس . وبين فرائســـهم المسكينة الصرعى . تلك التى تزعجهم يقظتها ويهولهم انتعاشها ويهدم صروح مطامعهم فيها بعثها ونشورها .

ولقد كان ماشاء الحكيم الرحيم بعباده المستضعفين فى الأرض . فان البعثة المحمدية لم تختتم الا والناس كافة طلقـــاء عقلا وضميرا أحرارا قولا وفعلا .

بهذا الجهاد المشكور للقرآن ورسول القرآن : بدىءعهد البحث والنظر وولت دولة الجمود فوطنت بذلك الأكناف للفلسفة الاغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت . فهى بأهل القرآن عاشت . وفى أرض القرآن تمت . وفى ظل القرآن عزت وسادت .

سلوا التاريخ هل لقيت من القرآن وأهل القرآن فلسفة « هرقليتوس وديمقريط وانكســاجوراس » ما لقيته هى نفســها فى بلاد الأغــريق التى هى مهد الفلســفة ومنبتها ؟ أم هل لقيت منها فلسفة « سقراط وأفلاطون وأرسطو وارسترخوس وكليــانتوس وبطليموس » ما لقيته من الكنيســة الرومانية فلسفة هؤلاء الأساطين . ثم فلسفة العربية بعدهم من الاضـــطهاد والمطاردة ؟

وهل اضطهد القرآن . وأهل القرآن أمثال « برونو وغاليليو » وامعنوا فيهم تنكيلا وتحريقا لغير علة سوى أنهم. بعد اذ اعتمدوا على الحس والمعاينة وتسلحوا بالآلات المــكبرية والمقربة . اســتنكروا عتيق الخراجات وأعلنوا الدعوة الى المشهودات وآذنوا بالحرب والقطيعة أصحاب الظنيات ؟

ظهر القرآن أول ما ظهرت أمة أمية لم تألف المباحث العقلية ولم تعرف علوم الكون والمسائل الطبيعية . فلما جاءهم بما ذكر لهم من اشاراتها أو صريح عباراتها . ولم تتسع مداركهم . ذهبوا فى أمــرها مذهب التفويض والتسليم وأبوا أن يتقنوا ما ليس لهم به علم . فتقبلوها مؤمنين ، وتركوا أمر تأويلها وفهمها الى أهل العلم آخذين بقوله تعالى : « ان الظن لا يغنى

من الحق شيئا » وقوله : « وما أوتيتم من العلم الاقليلا » وقوله : « وفوق كل ذى علم عليم » . وغير ذلك من الآيات البينات التى علمهم بها المولى عز وجل ان العقل ليس بعربى ولا عجمى . وان العلم ليس بشرقى ولا غربى .

وقف السلف الصالح بتعاليم هذه الآيات القرآنية عند حدود التفويض فيما لم يعلموا حتى فتحت أبواب بلاد الروم لعقول المؤمنين بعد أن عدها الاسلام لاغتنام ثروتها العلمية وذخائرها الفلسفية . فتفجرت لأهل القرآن عيونها النضاحة وتقدمت لأيديهم قطوفها شهية دانية . فكان ما شاء الله أن يكون لعباده المؤمنين . سبق فى كل مضمار . ونقاية خالصة لهم فى سائر شعب الحياة ، وقيادة عامة فى ميادين الحضارة والسياسة والصناعة والزراعة والأدب وفنون الجمال .

أجل : ولكن بقايا الصدر الأول . المسمى بالسلف . قلقت نفوسهم يوم رأوا الفلسفة الاغريقية تجد سبيلها بين المؤمنين ، حتى رأوا الكثير منهاخطرا على دين الاسلام . وحربا على تعاليم القرآن .

كما خفتت اذ ذاك أحلامطارت بها الأهواء والزعازع الفكريةالىمسالك متشعبة من الشك والابتداع والالحاد حتى اذا ركدت تلك الأعاصير .وثابت العقول الى رشدها . وامتحن الناس موقف القرآن ازاءها . سكنت النفوس القلقة . واطمأنت الأفئدة المضطربة . اذ وجدوا فى آياته المحكمة ماكان جنة لهذا الدين . ومنارا للمحصلين . وحجة قائمة على الجامدين ، ورجوما لشياطين الانس من المرجفين والجاحدين .. ثم أخذ أمراء المؤمنين وخلفاؤهم وهم القوامون على دين الاسلام الحامون لحماه يهتمون بأمر تلك العلوم ويترجمون الى العربية ماكان موضوعا منها باللغات الأخرى . كما أخذوا يتدارسونها ، ويقربون من مجالسهم أساتذتها وفطاحلها ، ولو كانوا منغير المؤمنين . ففى ظل القرآن وصادق دعوته الحارة الى الدرس والبحث والتفكير العميق . تعانق العلم ودين الاسلام . عدة قرون لم تتخللها وحشة ولم يعوزها صفاء ولا سلام . وما زال ذلك الأمر قائما فى البلاد الاسلامية

حتى فسدت الملكة العربية وعجز الناس عن تفهم كتاب الله وادراك تعاليمه ومقاصده بمستقبل مداركهم وحر عقولهم .

وهناك حيل بين العقول والعلوم ، وبخاصة فى بغداد ، فنصب طائفه من الفقهاء أنفسهم للفتيا والتفسير حاجرين على المدارك أن تتحرك فىميادين المعقولات . وعلى الأبصار أن تتقلب فى صحائف الأرض والسموات . ومازال شيوخ الدين هنالك يستأثرون بكل أمر .

والخلفاء والأمراء الترك من ورائهم يجنون ثمار الجهالة التى تفشت فى أممهم • ويستغلون العامة من شعبهم . استغلال بهم الأنعام . حتى عاد الاسلام غريبا كما بدأ . وانقلب النـــاس الى جاهليتهم الأولى ولقــد حذا المسلمون فى هذه النوبة حذو المسيحيين فى البلاد الغربية . فأقاموا فى بغداد ما أقامه الاوربيون فى ممالكهم من محاكم التفتيش وأوقدوا نيران العداوة والبغضاء على من خالفوهم فى الرأى والاجتهاد . ولو كان مرجعهم فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله الكريم • فلقد أوصدوا أبواب الاجتهاد أمام العقول وقطعوا للناس فى العقائد والأحكام بأشياء وضعتها أيديهم . ثم قالوا هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

احتكرت هذه الطائفة . لاسيما فى بغداد . عــلم العقائد والشرائع وتأويل الكتاب والسنة كما احتكروا علم السنن الكونية والمباحث الطبيعية . واتبعوا فى استبدادهم بالعامة بل بكثير من الخاصـــة سنن رجال الكنيسة شبرا بشبر . وذراعا بذراع • فحرموا وحللوا . وفسقوا . وكفروا وحذروا الناس عواقب مخالفتهم فيما ينهون ويأمرون فأقاموا بذلك لأنفسهم سلطاناعلى الناس والسرائر والعقول . واتخــذوا من مقاماتهم الدينية للترك المتغلبين والأمراء الجاهلين آلات يبلغونهم بها مآربهم السياسية ومطامعهم المادية . فلأغراض سياسية صيغت بألوان دينية كان أكثر ما شــهدته بغــداد من المصـــادمات والاضـــطهادات الدموية التى قامت باسم الدين . وما هى من الدين فى شىء ولكنها شهوات المتغلبين ومطامع الجبارين . قضت بأن يعطل

فى بغداد القرآن ويطفأ بها نوره الذى جعلها فى عدة قرون كعبة المحصلين ومثابة المستنيرين ومهاد توأمى العلم والدين .

ولما جاء المغول بغاراتهم الساحقة الماحقة كتب الفوز والغلب للجهل وتم النصر للسيف على العقل فهام الناس فى أودية الضلال . ورجعت العقول الى جاهليتها الأولى انقطاعا عن التحصيل وتقيدا بالتقليد . وأخذا بالخرافات والأضاليل .

بهذه النظرية العامة التاريخية لموقف القرآن ازاء العلوم العقلية والكونية . يتبين أن حياة تلك العلوم وذيوعها فى سائر البلاد التى شملها ظل القرآن كانت معقودة بمبلغ وقوف الناس على معانى هذا الكتاب . ومدى اداركهم لأسراره وأخذهم بتعاليمه . ولعل القارىء لاحظ كيف ابتدأ تقلص ظلالها عن الربوع الاسلامية . ومتى انطمست معالمها فى الحواضر التى بها كانت زاهية زاهرة وتضرب اليها آباط الابل من كل صوب . ويقصدها طلاب المدنية والعرفان من أطراف الأرض .

ولقد يدرك المؤرخ البصير أن أرواح الأمم وعقلياتها . يعدى بعضها بعضا ولا سيما ماكان منها خبيثا فالشعوب الاسلامية فى الشرق عندما غشت أبصارها ظلمات الجهالة فعل فيها رجال الدين مافعل فى الغرب رجال الكنيسة بالمسيحيين . وكم من مرة اتحدت أو تقاربت فيها الأوقات التى كانت تقام فيها محاكم التفتيش فى أواسط أوربا . والاضطهادات المذهبية فى بغداد وما حولها .

ومالى لاأتحدث بما فعل الكاثوليك بأمر «شارل التاسع» ملك فرنسا عام ١٥٧٢ م بالبروتستانت من المذابح التى أحصيت ضحاياها . فبلغت سبعين ألف نفس . مقارنا ذلك بالجناية الكبرى التى قام بها السلطان سليم عام ١٥١٣ م فى بلاد العجم . يوم أحصى الشيعة فى تلك البقاع بطريقة سرية لم يشعر بها أحد ، حتى اذا عرفت مساكنهم وأشخاصهم ، أمر السلطان بابادتهم فأبيدوا فجأة عن آخرهم . وكانوا نحو أربعين ألفا . ولم يكن لذلك من سبب سوى القصد الى اثارة نفس عميد الشيعة الشاه « اسماعيل » ملك

العجم واستفزازه للمحاربة طمعا فى ملكه ، وقصدا الى ابادة دولته فالسبب فى هذا — كما ترون — سياسى بحت ظهر للناس فى شكل دينى ، وكذلك كان شأن القرآن ازاء العلوم وقد كان من موسوعاتها العلوم العقلية من الرياضيات والطبيعيات وما وراء الطبيعة ، فهو الذى قام بالدعوة اليها والترغيب فى البحث عن دقائقها وأسرارها وهو الذى ببركته أوجد بين المؤمنين آلافا من الباحثين أمثال « الكندى ومحمد بن موسى والخوارزمى ويحيى بن أبى منصور والعباس بن سعيد الجوهرى وأحمد بن كثير الفرغانى وجعفر بن محمد البلخى ونصير الدين الطوسى وثابت بن قرة وعمر بن الخيام وابن سينا وأبى نصر الفارابى وابن رشد والحسن بن الهيثم » . وأشباه هؤلاء من فطاحل العلوم الرياضية والطبيعة والموسيقية وغيرها .

والحق أن الذى يتعرض للحديث عن هذا الكتاب الكريم يجد نفسه أمام بحر لا ساحل له فهو من جهة آخر الكتب التى حملت هدى السماء الى الأرض . وانى لبشر أن يحيط بأسرار وحى السماء ! وهو من جهة ثانية . برهان صدق مكن الله به لدينه وقطع حجة أعدائه ومعارضيه . ومن جهة ثالثة دستور محكم . قامت على أساسه نهضة فقهية وتشريعية واشتقت من مناهجه سلوك وأخلاق وتربية ومدارس صوفية وفلسفية . ومن جهة رابعة آية بيان واعجاز . سنت للامة العربية طريق البلاغة والفصاحة وحفظت لها عبقرية لغتها حية متجددة على مر الأزمان . وكل واحدة من هذه الجهات فتحت أمام الباحثين فى مختلف العصور والبلاد آفاقا فسيحة من التأليف والتصنيف ، وأوحت اليهم بدراسات خصبة مازالت تنمو وتنضج حتى استوت فى النهاية علوما واضحة المعالم والحدود .

وعلى هذا استقام المسلمون فى حياة رسولهم على نهج كتابه المشرع لدولتهم والمنظم لحياتهم والموجه لعقولهم وقلوبهم وأذواقهم فما فارقهم الرسول حتى انتدب أحبارهم للعناية بهذا الكتاب درسا وتفسيرا وحتى بدأوا يجندون لفهم مأثور أدبهم ولغتهم ، وماكاد ينتصف القرن الثانى من الهجرة وتستعد عبقريتهم للبحث والتأليف حتى أخذوا يكتبون الرسائل والكتب فى معانى القرآن ومجازه ونظمه وبيانه ومحكمه ومتشابهه وغريبه . ثم أتى تخصصهم

العلمى ثماره منذ نهاية القرن الثالث . فألفت الكتب الجامعة فى التفسير والاعجاز . وظهرت كتب النقد والبيان متأثرة بأدب القرآن كاشفة عن وجوه بلاغته وجلال نظمه . وتتابعت جهود المؤلفين المسلمين فى الميادين القرآنية المختلفة واتسعت المكتبة الاسلامية فى هذه الميادين اتساعا لم تحظ بمثله مكتبات الأمم الأخرى وأخذت البلاد الاسلامية فى الشرق والغرب نصيبها من هذه النهضة . وكان لمصر ومعاهدها وعلمائها فى العصور الوسيطة نصيب موفور منها ولا يزال لها فى العصور الحديثة مكان الصدارة فى دراسات القرآن والعلوم الاسلامية التى تفرعت منه .

على أن أثر الكتاب الحكيم فى النهضة الفكرية للمسلمين لم يقف عند علوم القرآن وعلوم اللغة والأدب فحسب بل كان النبراس الذى اهتدى به فلاسفة الاسلام ومتكلموه فى معالجة قضايا الوجود وفى مناقشة التراث الفلسفى القديم وتعديل اتجاهاته وكان هو المعين الذى اغترف منه فقهاء المسلمين ومشرعوهم وعلماء الأخلاق والتربية والتصوف من بينهم . وكان وسيظل مصدر قوة المسلمين فى حياتهم وكفاحهم فى سبيل حرياتهم وجهادهم فى نشر مبادىء الخير والحق . وتوفير الكرامة والعدالة لبنى الانسان على السواء .

والقرآن بعد هذا كله هو الكتاب الاسلامى الأول الذى حرص الغرب فى نهضته الحديثة على أن ينقله الى لغاته ويشغل بدرسه . وقد تخصص فيه من الغربيين علماء مشهورون كتبوا فى تاريخه وفى مذاهب تفسيره ونشروا بعض الدراسات الاسلامية القديمة عليه . واستلهموه كثيرا من وجهات النظر فى بحوثهم التى قاموا بها عن الجبر والاختيار والخير والشر ونظرة الأديان الى الانسان وصلته بالله. ومذاهب الأخلاق ونظرياتهم المختلفة وهكذا يتغلغل أثر القرآن فى الفكر والحضارة . وتشع منه أضواء المعرفة على الشرق والغرب . ويحس المسلمون بالغبطة الروحية حين يذكرون أن ثقافتهم تفضل الثقافات الأخرى بذلك القبس السماوى الوضاء . وان مناهج تربيتهم وتعليمهم تستمد أصولها وتوجيهاتها من كتاب الخالق الحكيم الذى يعلم أسرار النفوس وطبائعها ونزعاتها . ويعلم ما به صلاحها وما به فسادها . وان

تعاليم دينهم التى وضع نظامها ذلك الكتاب قد اثبتت على مر الأيام أنها أقوى غاية وأهدى سبيلا من النظم التى تحاول العقول البشرية الاتفاق عليها والوصول بها الى ما يحقق سعادة المجتمع الانسانى » .

ولقد أعلن الرئيس الباكستانى « أيوب خان » : ان الدول العربية ستتولى قيادة العالم كله قريبا بفضل التمسك بمبادىء « القرآن » وقال : ان مرحلة القومية العربية الراهنة مرحلة مؤقتة لتخرج الدول العربية منها لتتولى قيادة العالم (الجمهورية عدد ٢٩١٠ — ٩/١٢/١٩٦١) .

ولقد قال المؤرخ العالمى البريطانى « أرنولد توينبى » فى محاضرة له فى الجمعية الجغرافية ٨/١٢/١٩٦١ بالقاهرة : انه طالما أن هناك رغبة أكيدة بين الدول العربية على الوحدة فلن يستطيع أى تدخل أجنبى أن يقف فى طريق هذه الوحدة .. بعد أن استعرض تاريخ الكفاح العربى بعد العهد العثمانى كى تحصل البلاد العربية على استقلالها وأشار الى سياسة التقسيم التى لجأت بريطانيا وفرنسا بعد الحرب العالمية الأولى اليها فتركت بذلك الوطن العربى مقسما الى حدود مصطنعة تتنافى مع الوحدة الجغرافية والسياسية الطبيعية التى تجمع بين أجزاء الوطن العربى .

هذا .. وللقسيس الدكتور « فندر » رأى فى القرآن فقد قال :

أولا : أنه لا يلزم من كون الكتاب قد اشتمل على الفضائل أن يكون من عند الله . نعم يلزم ذلك من كونه مشتملا على التوحيد ولكن محمدا ليس هو أول من جاء بالتوحيد فلو كان هو أول من جاء به لآمن به المبشرون أما والكتاب المقدس قد جاء به من قبل كما جاء بغيره من الفضائل فليس لمحمد حجة عليهم .. وأيضا فان المشركين فى مكة كانوا موحدين . وقد أسلم مع محمد بعض اليهود والنصارى فنقل عنهم التوحيد . على أن القرآن قد اشتمل على تعاليم موجودة فى الأديان الأخرى .

ثانيا : لو كان القرآن من عند الله لكانت تعاليمه أرقى وأشرف من تعاليم الانجيل كما أن الانجيل أرقى من التوراة فى بعض الأمور واستدل على أن الأنجيل أرقى بأنه لايعد المؤمنين بأكل وشرب فى الآخرة بل بأفراح روحية كسلامة القلب والطهارة .

ثالثا : ان القرآن وان كان يعلم شيئا كثيرا عن علم الله وعن الآداب وعن الحكم بالعدل وعن الحياة الآتية ولكن ليست هذه التعاليم بأرقى من تعاليم الأنجيل لأن القرآن قد اشتمل على الأخبار بأن جهنم ستملأ بالناس .

وقد رد أحد كبار العلماء فضيلة المغفور له « عبد الرحمن الجزيرى » فى كتابه « أدلة اليقين » على هذه الأمور الثلاثة بقوله :

فأما قوله أنه لا يلزم من اشتمال كتاب على الفضائل أن يكون من عند الله فهو كذلك . وما كان للمسلمين وهم أهل النظر الصحيح والمنطق السليم أن يقولوا ذلك وانما قالوا : ان محمدا رسول الله . قد جاء بكتاب اشتمل على كل ما فيه هداية النوع الانسانى وصلاحه وقال : ان هذا الكتاب وحى من عند الله ليس له فيه حرف واحد . وكان من مصلحته يومئذ أن يقول ان ذلك الكتاب أتى به هو من عند نفسه ليكون له به مفخرة خالدة . ولا يعقل أن يكون قد ادعى انه من عند الله ليؤثر به فيهم فانه لم يكن له حاجة الى ذلك بعد ما ثبت أنهم رضوا أن يشاطروه أموالهم ويبايعوه بالملك وينفذوا ما يأمرهم به بشرط أن يكف عن سب آلهتهم .. الى ما هو مدون فى كتب السيرة . فهل من احتمل كل هذه البلوى فى سبيل الدعوة الى توحيد الله . والقضاء على عبادة الأوثان . يكون كاذبا فى دعوى الرسالة ليظفر بجاه أو مال أو لذة .. أو يكون متصلا بالاله حقا وعالما بعظمته وجبروته ؟ أظن أن الجواب بديهى لا يحتاج الى كبير عناء ومع هذا فهل جاءهم محمد — صلى الله عليه وسلم — بالفضائل الانسانية وقال انها من عند الله من غير أن يقيم لهم الدليل على صدقه ؟ .. كلا فانه قد قال لهم : ان هذا القرآن من عند الله فى أسلوبه وتراكيبه وأنا عاجز عن الاتيان بمثله وعاجز عن الاتيان بسورة منه .. وتحداهم وهم أفصح العرب وأبلغهم أن يأتوا بسورة من مثله ان كانوا صادقين . فحاولوا ذلك وعجزوا عجزا تاما . واعترفوا بأن هذا الكلام ليس من كلام الجن ولا من كلام الانس .

وقد كانت حياته — صلى الله عليه وسلم — بينهم قبل البعثة وبعدها كلها معجزات وخوارق عادات تدل على أنه رسول من عند الله حقا .

وأما قوله : ان محمدا ليس هو أول من أتى بالتوحيد . ولهـذا لم يؤمنوا به فهو غريب وعجيب . ألا فليسمع العقلاء جميعا وليعلموا أن الذى منع المبشرين من الايمان بمحمد هو انه أقر الفضائل التى جاء بها الأنبياء من قبله وأنهم لا يؤمنون برسول الا اذا كان من المخترعين المجددين . ونحن نقول لهم : كان عليكم حينئذ الا تؤمنوا بالمسيح « عيسى ابن مريم » لأن الأنجيل الذى جاء به مصدق للتوراة التى قبـله . ونقل كثيرا من عباراته بنصها ومنها : اسمع يا اسرائيل الرب الهنا اله واحـد .. وكل الوصـايا الموجودة فى الأناجيل مأخوذة من التوراة غاية ما هنالك ان الأنجيل المحرف قد نسخ كل الأحكام النافعة الموجودة فى التوراة مرضاة لشهوات المفسدين الذين انسلخوا من التكاليف الشرعية كما أمرهم « بولس » الذى قلب لهم دينهم رأسا على عقب .

على أن الفضائل الانسانية لا تختلف باختلاف الزمان والمكان . وكذلك العقائد . وقد اعترف بذلك الكاتب نفسه فى كتابه ص ٨٨ حيث قال : اما المبادىء الجوهرية للدين الحق فلا تقبل التغيير ولا يؤثر عليها مرور القرون واختلاف العصور كالشريعة الأدبية فانها ان كانت حقا واجبة فى زمن فتبقى كذلك فى كل الأزمان فمبادىء شريعة موسى الأدبية كانت حقا فى زمن آدم وابراهيم والمسيح وهى حق فى هذا الزمان وتبقى حقا الى يوم القيامة .. وهذا القول يدل دلالة صريحة على أن العقائد والفضـائل الانسانيـة غير قابلة للتجديد .

فالرسول الذى يقرها ولا يحاول نسخها يكون صـادقا لأنه فى هذه الحالة لا يكون متصنعا أو متكلفا بل يكون مؤيدا للواقع الذى لايمكن غيره ..

وبعد فمن ذا الذى يستطيع أن يقول ان الأنبياء السـابقين قد جاءوا بتوحيد الاله على الوجه الذى فهمه بولس والمبشرون المسيحيون . ألم يكن الاله فى زعمهم أقانيم ثلاثة وقـد أقمنا البراهين القاطعة عـلى أنه لا معنى لقولهم هذا والاعتراف بتعدد الآلهة أو بتركيب الله تعـالى وكلاهما ينافى

التوحيد بالبداهة التى لا ريب فيها عند أرباب العقول السليمة الخالية من التأثر بسلطان الاعتقاد الفاسد .

فاذا كان المبشرون يبحثون عن توحيد الاله الصحيح فانهم يجدونه فى ذلك الدين القيم دين الاسلام الذى يصف الاله بانه ليس كمثله شيء وينزهه عن الحلول فى رحم امرأة من عبـاده وتجسـده فى شكل واحد من خلقه فيصبح ذلك المخلوق الها .. ذلك الذى جاء به القرآن هو التوحيد الخالص أما غيره فهو وثنية معقدة لا تقل عن وثنية المشركين الذين يقول عنهم كتابه انهم كانوا موحدين . وانه يعتقد أن توحيد الاله لا ينـافى العقول بتعدد ذاته وتركيبها كما لا ينافى عبـادة البشر والبقر والحجر فيصح لمن يعبـد « عيسى ابن مريم » وهو انسان يأكل ويشرب أن يكون موحدا وكذلك من يعبد الأحجار التى ينحتها بيده ويسجد لها ويعتقد أنها تمطره اذا أصابه القحط وترزقه اذا ضاق به الحال فانه يكون موحـدا .. والغريب أيضـا أن يقول القسيس . ان مشركى العرب كانوا يعرفون الله تعالى ويمجدونه .. وليت شعرى اذا كان المشركون كذلك فما الذى دعاهم لمقاومة الرسول — صلى الله عليه وسلم — تلك المقاومة التى لايثبت أمامها الا من أيده الله العـليم القدير . ألم يرض المشركون بأن يبايعـوا النبى بالملك ويشـاطروه مالهم ويخضعوا لكل ما يأمرهم به اذا كف عن سب آلهتهم ، ولكن الرسول أبى الا أن ينفذ ما أمره الله به من ازالة الأوثان والقضاء عليها مهما كلفه ذلك حتى ولو قتل فى سبيله فهل كان الخلف بين المشركين وبين محمد ضئيلا الى هذا الحد فاضطهدوه وأخرجوه من وطنه ولم يتركوا فرصة تمـر بدون أن يتآمروا على قتله . لا لشيء سوى انه قال لهم : انى رسول من عند الله أقول بما تقولون به من توحيد الاله ؟ يا لضيعة العقول الانسانية ويا لجرأة المبشرين !

وأما قوله : لو كان القرآن من عند الله لكانت تعاليمه أرقى وأشرف من تعاليم الانجيل .. الخ .

فهذا قول لا يليق برجل يكتب فى فلسفة الأديان الالهية أن يقول ان المتأخر من الوحى يجب أن يكون أرقى من المتقدم .. كلا . ان الواقع أن كل

ما يصدر عن الاله حقا رفيع شريف بنسبة واحدة لأنه لايصدر عنه الا ماهو صالح ومناسب لعباده فالتوراة التى هى كلام الله حقا كالانجيل والقرآن بلا فرق ما ولكن المبشرين لا يفقهون شيئا من الدين الصحيح ولا يقدرون عظمة الاله الخالق . بل كل همهم منحصر فى تمجيد المسيح .

ومع ذلك فلنقطع النظر عن التوراة والأنجيل الحقيقين ولننظر فيما بين أيديهم من توراة وانجيل محرفين . اننا اذا نظرنا نظرا نزيها نرى أن التوراة أسمى بكثير من الانجيل فى كل باب من أبوابها فان القارىء يمكن أن يستخرج من التوراة بعض الوقائع التاريخية الصحيحة ويستخرج منها بعض العظات . ويستخرج منها بعض الأحكام . ويستخرج منها بعض العقائد الصحيحه . أما الانجيل فليس فيه أكثر من قصة تاريخية خيالية متضاربة لا أكثر ولا أقل وما عدا ذلك فهو منقول من التوراة بنصه . على أن بولس قد نسخ كل الأحكام النافعة الموجودة فى التوراة واعتبرها لعنه .

فكيف يكون الانجيل أسمى من التوراة ؟ أما كون تعاليم الانجيل أسمى من تعاليم القرآن . فانى استنكف من أن أجيب عن هذا الكلام الذى لو عرض على أطفال المكاتب لسخروا منه .

وقد حصر الدكتور التعاليم التى يقول عنها فى أمرين :

الأمر الأول : هو أن الأنجيل يعد المؤمنين فى الآخرة بافراح روحية لا بنعيم جثمانى بخلاف القرآن .

الأمر الثانى : أن الأنجيل صرح بأن الاله قد أرسل ابنه الوحيد لينتحر ويخلص العالم وليس فيه عذاب ولا عقاب . فقد صرح المؤلف فى ص ٤٠٤ من كتابه : لكى ينال الناس هذه النعمة أرسل ابنه الوحيد الى العالم كى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية (أنظر يوحنا ٣ : ١٦) فالانجيل يعلم بوضوح أنه لا يهلك أحد الا الذين يرفضون محبةالله ورحمته المقدسة فى شخص يسوع ولا يؤمنون به ولا يقبلونه مخلصهم وشفيعهم الوحيد عند الله الى أن قال : واذا كان القرآن هو آخر وأتم وحى للانسان فلابد أن يبين لنا أحسن من الانجيل عن قداسة الله وعدله .. الخ .

هذا هو الذى ذكره المبشرون فى الاستدلال على دعواهم بأن الأنجيل أسمى من القرآن فلنعرض على العقلاء تعاليم القرآن فى هذين الأمرين .

فأي عاقل يقول ان نعيم الجنة ومتاعها نقيضة من النقائض التى تنافى الوحى الالهى .. واذا سألت مبشرا عاقلا في ذلك لا يسعه الا أن يهز رأسه ويقول : ما الحيلة وقد ورد فى الأنجيل أن الناس يوم القيامة يكونون كالملائكة لا يزوجون ولا يتزوجون .. ولكنا اذا شئنا أن نحلل هذه العبارة ونطبقها على السنن الكونية التى سنها الله تعالى فى خلقه نجدها صحيحة ولو من بعض الوجوه .

كلا . ثم كلا .. ونسأل الأنجيليين . هل يبعث النوع الانسانى يوم القيامة ولكن ينزع الله منه الحس وما يتعلق به من دواعى اللذات أو ينقرض النوع الانسانى فى هذه الحياة الدنيا ويبيد وتبقى الأرواح كالملائكة .. ان عبارة الأنجيل لاتخلو من هذين المعنيين وكلاهما باطل بالبداهة .

من البديهى أن فقدان حواس الانسان التى يستمتع بها نقص واضح فى تكوينه الطبيعى . وعلى ذلك ينبغى أن يكون الانسان فى اليوم الآخر أرقى من تكوينه الدنيوى . وبالتالى تكون حواسه التى هى سبب فى اللذات أقوى منها فى الدنيا اضعافا مضاعفة . وذلك مقتضى سنة الرقى الطبيعية . وليس من المعقول أن يعيد الله الانسان فى الآخرة وفيه وسائل اللذات كاملة ثم يحرمه مما يتلذذ به لان ذلك يكون عذابا لانعيما . بل يكون عذابا شديدا ويستحيلُ أن يعيد الله النوع الانسانى فى الآخرة ناقصا مع أن الآخرة دار خلود ..

وأما الثانى : وهو أن الانسان يبعث يوم القيامة كالملائكة ، فهو مع كونه يناقض اعتقاد بعض المبشرين بحشر الأجسام ، وان كانوا على رأى من يقول من المسلمين: ان الأجسام التى تحشر فيها الأرواح تكون غير هذه الأجسام ولكنها من نوع الانسان .. فمعنى ذلك الغاء النوع الانسانى . والاعتراف بأنه كغيره من الحيوانات ، مع أن الله خلق الانسان وكرمه عن جميع مخلوقاته فلا يصح الغاؤه وهو ذلك المخلوق المعظيم الذى يشبه الله

تعالى . واذا ساغ لأحد أن يعتقد الغاء النوع الانسانى فى آخر أمره فان ذلك لا يسوغ للانجيليين الذين يزعمون أن الاله تجسد فى رحم « مريم » وظهر بنفسه فى ذلك النوع . فهل يصح أن يذهب ذلك النوع ولا يكون له أثر وقد كان منه اله الأنجيليين ومعبودهم ؟

لاشك فى أن النوع الذى يظهر فيه الاله هو أكمل الأنواع وأرقاها . فلا يصح اهماله والقضاء بابادته من الوجود . وقد فضله الله على خلقه وجمع فيه بين العقل الروحانى والجسم الحيوانى . وميزه بالعلم والادراك واستخلفه فى أرضه ويستحق أن يبقى محفوظا أبد الآبدين . بل يستحق أن يترقى الى الفرد الكامل منه بحيث يكون انسانا كاملا فى الخلق والخلق وذلك ماقررته الشريعة الاسلامية : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا » .

كما أنه يستحيل أن يكون الناس يوم القيامة كالملائكة لأن الملائكة مستوون فى الخلقه والعنصر ولا معنى لهذا الا مساواة الصالحين بالفاسقين والمؤمنين بالكافرين . فهل يبعث الكافرون والفاسقون ملائكة أيضا أو يبعثون على شكل الانسان ليعذبوا على كفرهم فاذا قالوا : ان الناس كلهم يكونون ملائكة وان المؤمنين يفرحون بأرواحهم والكافرين لا يفرحون فقد مهدوا للناس سبيل الخروج على الله تعالى الى أبعد مدى : فانهم يجحدون ويفعلون ما يشتهون فى الدنيا بدون خوف من عذاب الله تعالى . على أن علماء الأرواح قد أجمعوا على أن الروح المجردة عن المادة لا تعمل الا اذا كانت متعلقة بالمادة فالروح لا تدرك اللذة والألم . ولاتشعر بالفرح والحزن الا اذا كانت متصلة بالمادة أما المجردة فانها لاتدرك المعانى المختلفة فالقول بأن الناس يكونون أرواحا فى الآخرة لا معنى له لأنهم لا يتنعمون ولايعذبون.

وكذلك يعترض المبشرون على القرآن الذى حرم الخمر فى الدنيا وأحلها فى الآخرة . ولم يعلموا أن الذى أحله القرآن فى الآخرة ليس هو الخمر الذى حرمه فى الدنيا بدليل قوله تعالى : « لا فيها غول » أى ما يغتال العقل ويسكره .. فأى تناقض فى تحريم اللذات الفاسدة فى الدنيا التى

يترتب عليها الاعتداء على أرواح الناس وأموالهم وأعراضهم وبين التنعم باللذات الطيبة التى لا تضر بأحد من خلق الله ولا تؤذى صاحبها فى الآخرة .

أما الاعتراض على أن القرآن قد أوعد المجرمين والكافرين بالعذاب وقال : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين .. فهو اعتراض الأباحى الذى يمهد للناس سبل الشهوات البهيمية والفوضى بدون وجل ولا خوف من حساب أو عقاب ..

ولقد فات هؤلاء أن النظام الالهى فى خلقه ظاهر فيما جاء به القرآن الكريم من جميع الجهات لأن الله تعالى قد أمر الناس بالكف عن الشرور والقبائح التى تدفعهم اليها شهواتهم وأمرهم بعمل الصالحات وبين لهم طرق الخير والشر . بقوله : « ان الله لا يضيع أجر المحسنين » . وقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . وقوله : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » . وقوله : « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » . و « ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضما » . وقوله تعالى : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » و « ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » . وكلها تدل على أن الله يجزى كل نفس بما كسبت من خير وشر .

ويظن المبشرون أن قوله تعالى : « وان منكم الا واردها » أن معناها أن كل الناس سيدخلون النار وسيعذبون فهم لهم يفقهوا الآية مطلقا ، لأن نصها هكذا : « وان منكم الا واردها كان على ربك حتما مقضيا . ثم ننجى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا » . فكيف يخاف المؤمنون العاملون بعد ذلك النص الصريح .. لأنه على فرض أن نفهم من الآية دخول النار فعلا . لكن هذا الدخول لا عذاب فيه ولا ألم بل يكون صاحبه ناجيا من كل ذلك . فماذا يضره أنه فى هذه الحالة يكون متفرجا ، والحكمة فى ذلك أن طبيعة الانسان أن يميز الأشياء بأضدادها فالذى يرى عظم أهوال

النـــار ويرى أن الله أنجـــاه منها يدرك لذة النعيم كامـــلة ويعـــرف قدر النعمة التى أنعم الله بها عليه فقد أنجاه الله من نار وقودها الناس والحجارة ورآها بنفسه وعرف هولها بالمشاهدة . ولقد فسر جمهور المفسرين معنى ورودها (رؤيتها من بعيد) أى أنه لا يلزم من وروده أن يدخل فيها فعلا . والناس يوم القيامة لابد أن يروا النار التى أعدت للعقاب .

وعلى كل حال فلا معنى لقـــول المبشرين : ان القرآن يخيف الناس بالعذاب حتما لا فرق بين مؤمن وغيره . على أن القرآن قد أعلن كثيرا عن رحمة الله ورضوانه بعباده فقال تعالى : « لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا » . و قال : « انه غفور رحيم » . وكرر ذلك فى غير موضع منه وقال : « ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وقال : « ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » .

ومن الآيات السابقة نعلم أن الله جلت قدرته يقبل التائبين من عباده ويغفر لهم ذنوبهم ومن لم يتب ومات موحدا فان الله لايخلده فى النار كما يخلد المشركين بل ان شاء يغفر له مادون الشرك وان شاء يعذبه ..

وبعد، فان القسيس زعم أن القرآن لم يصف «محمدا» حتى بالصفات الأدبية الحسنة ولم يذكر له معجزات ! وفاته أن القرآن قرر فى شأن الرسول حقائق ثابتة معلومة عند أعدائه وأتباعه .. فقد قال تعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » (سورة ن) وقد انفرد بهذا الوصف محمد — صلى الله عليـــه وسلم — .. وهذا اقرار حقيقى وتاريخى اعترف به أعداء الله ورسوله . فقد كانوا يصفونه فى الجاهلية أيام الاباحية والفوضى بأنه الصادق الأمين . ومن ذلك رضاؤهم بحكمه فيمن يضع الحجر الأسود فى بناء الكعبة . وقد كان أزهد الناس وأكرمهم وأعفهم ، فكان يقنع من الحيـــاة بلقيمـــات ، وكان لا يغضب الا لله تعالى ولا يرضى الا لله . وكانت حياته بين الناس كلها بر ورحمة وحنان وليس قولهم : ان القرآن قد فضل « عيسى » على « محمد » الا جهلا بآى القرآن الكريم أيضا . لأن القرآن قد قرر أن محمدا أفضل

الأنبيــاء على الاطلاق . كقــوله « كنتم خير أمة أخرجت للنــاس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » .

واذا كانت أمته خير أمة فهو خير الأنبياء . على أن من قواعد المسلمين تكريم الأنبياء والمرسلين جميعا . فهم معصومون عن كل معصية تخل بمقامهم الكريم قبل النبوة وبعدها .

ولما يئس أعداء الثقافة الاسلامية من أن ينالوا من القرآن عندما هموا بذلك من قبل : اتجهوا الى أمور حوله وحول الاسلام وعلومه . وكل أثر فكرى عاش فى ظل الاسلام . لقد أخذوا يدعون الى هجر الحروف العربية . لأنها أصعب قراءة وتعلما فى زعمهم . وأخذوا يرددون قول : « قاسم أمين » .. وكأنه تنزيل يتبع : غيرنا يقرأ ليفهم . ونحن نفهم لنقرأ . وذلك عجز ممن لم يقوم لسانه تقويما عربيا .. قالوا : ان الكتابة بالحروف اللاتينية فيها تصوير الحركات الصوتية بحروف . ونسوا أن ذلك ممكن فى العربيــة بالشكل . والشكل أسهل من الحروف كتابة . وأقل منها حيزا . وان الناس منذ أقدم العصور يعلمون أولادهم الحروف العربية من غير أن يشــكو صعوبة . ولكنهم يخلقون فكرة الصــعوبة ويثيرونها فى كل مكان ليحلوا الحروف اللاتينية محل العربية .. ومقصدهم واحد وهو قطع الشباب العربى المسلم عن ثقافته الاسلامية قطعا تاما . وبالتالى قطع صلة الناشئة بالقرآن . لأنه اما أن يكتب باللاتينية ، وهى لا تصور نغماته ولا مده واما أن يهجرها هجرا . وذلك ما يبغون . ولقد ضل سعيهم وذهب هباء منثورا .

وأخيرا قالوا : ان الحروف العربية جميلة . وهى أجمل حروف يكتب بها . ولكن نريد أن نغير رسم الكلمات بها وهى ما يسمى بالاملاء . فيكتب ما ينطق به فبدل أن نكتب طه هــكذا نكتبها (طاها) وبدل كلمة (على) تكتب (عليين) ..وان هذا يؤدى الى ما يؤدى اليه استبدال الحروف العربية باللاتينية ثم قاموا بضــجة أخرى ، وهى اختصار الكتابة العربية واختصار الحروف والكلمات .. ولا ندرى ماذا يقصدون ؟ ونسوا أن العربيــة هى لغتنا ولغة الاسلام فقد اقترنت به . وهى لغة بنى الاسلام . واليوم نجــد بعضا من الشباب الملحدين يروجون ويطالبون أن يحيــوا الأدب العامى

ويجعلوا لكل اقليم من الأقاليم العربية أدبه الخاص . بل يغالون ويطالبون أن توضع قواعد للغة العامية فى كل اقليم .. وقد فاتهم أن آراءهم المتطرفة الفاسدة تمزق وحدة العرب . وهم أعوان الاستعمار وعملاؤه . وانهم لا يقصدون العربية فقط بل يقصدون الاسلام أيضا . لأنه بانتشار العامية ينقطع الشباب العامى انقطاعا معنويا عن القرآن والسنة والمأثور العربى الاسلامى . وذلك هو ما يرغبون ويرمون اليه ، فيفنى الشرق فى الغرب والاسلام فى الديانات الأخرى . ويذهب اليقين والايمان . ويكون المسلمون قوما بورا .

وأخيرا بعد أن أعيتهم الحيل . وانكشف أمرهم . وخابت مظناتهم ولم يتوصلوا الى أغراضهم الخسيسة ونواياهم الدنيئة . أرادوا أن ينشروا صناعتهم الوحيدة ومثلهم السافله . أرادوا أن يثيروا فى الشباب العربى المسلم كل الغرائز الحيوانية فى نفس الشباب . واتخذوا لذلك طرائق كلها هوجاء ليس فيها طريق مستقيم وأول هذه الطرق التى أثاروها ما يسمونه بالأدب المكشوف تارة والأدب الجنسى تارة أخرى . والهدف اثارة الغريزة البهيمية فى نفس الشباب . ووجدوا لهم أعوانا من ضعاف الايمان ومحبى المادة . وجدوا صحفا معينة مملوءة بالصور الخليعة . والمناظر المثيرة بل تجاوز الأمر الى نشر اعلانات بها مناظر مغرية لتجتذب الشباب بهذه المناظر الاباحية الى دور السينما . والاستعمار حينما وجد اعتصام البلاد الاسلامية بالفضيلة والأخذ بأهداب الدين . والاستمساك بتعاليمه وعروته الوثقى . لم يجدوا سبيلا للنيل منها الا بتسليط الشهوات والكتابات التى يثيرونها فى نفوس الناشئة المراهقين لينشئوها على اللهو والعبث والرذيلة . ولا شىء يفك عروة الأمم الا المجون وانهيار الحواجز الخلقية التى هى حصن الأمم والجماعات . وان تسلط الأهواء والشهوات يضعف الارادة الانسانية .

ولقد جعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) السبب الجوهرى للوهن هو الهوى والشهوة . فقد سئل عليه السلام عن الوهن . فقال : حب الدنيا وكراهية الموت . ولقد رأينا فرنسا تخر صاغرة تحت سنابك الخيل الألمانية

فى أول الحرب العالمية . وفى الجولة الأولى . وعلل ذلك قائدهم بأن الهوى وفساد الأخلاق هما سبب نكبتها .

ولقد كانت مع الأسف الشديد احدى الصحف الصباحية منـذ مدة تهاجم الدين الاسلامى . فقالت عن الزكاة . انها بقية من بقايا الهمجية . ورمت علماء الاسلام بالتضليل . وطعنت فى الحقائق الاسلامية بقولها : ان الاسلام روح لا نصوص. وان الشريعة تنسخ نفسها . وانالزكاة لاتصلح للمجتمع! نفس الـكلام والأضـاليل والأكاذيب التى ينسـبها للاسـلام المبشرون المستشرقون الذين حادوا جانب الصـواب وانحـرفوا عن الحقائق ليطعنوا الاسلام . ومن المؤسف أن يأخذ الضلال بعض الصحفيين من المسلمين الذين يريدون من رجـال الدين أن يشـاركوهم فى التمـرد على حـكم القرآن والخضوع لحكم الدول المستعمرة التى تاهت فى ظلمات الضلال ، وتخبطت فى دياجير الالحاد والاباحية !! بحجة حرية الفكر والرأى . ونحن ننفى عنهم هذه الحرية . لأنهم رضوا لأنفسهم أن يكونوا تابعين فى التفكير لغيرهم .. فهم مرددون لما يكتبه غيرهم . طعنا فى الدعوة الاسلامية من كتاب الغرب .. من غير أن يعنوا بدراسة الفقه الاسلامى وتاريخه .. والعلم بالكتاب والسنة . كلا ! انهم لا يوافقـون . لأنهم لايعرفون تفسـير الشريعة الاسـلامية الا بالمصلحة التى ترضى أهواءهم وترضى من يريدون اتباعهم من الشيوعيين أو الأمريكان أو الانجليز أو الفرنسيين .

ولـكن هيهات للمستشرقين والمبشرين وأتباعهم من المسـتعمرين أن يتمكنوا من مآربهم من اهمال النصوص الاسلامية وتعطيلها .. وأن يبتعد المسلمون عن كتابهم المجيد وما جاء فيه من أحكام . وان يضرب بها عرض الحائط . فلا حدود . ولا قصاص . ولا ميراث ولا زكاة ولا شىء من ذلك . ولكن نقول لهم جميعا اننا متمسكون بكتابنا القرآن الكريم لا نتركه . بل نحفظه ونستهدى بهدى نبينـا الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب . ولن تنالوا من الاسلام شيئا فان هذا الدين خالد . وهو خاتم الأديان . هـو الدين الحنيف المتين » .

واليك رأى الأستاذ المستشرق « ليبــون » فى القرآن : حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا التى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ولو بعض الشيء .. من أسلوبه الذى لا يزال غضا كأن عهده بالوجود أمس، ولم يكن هذا النبى الجليل داعيا للآخرة وحدها بل أمر أتبــاعه أن يأخذوا بنصيبهم من هذه الحياة .

كما يقول الأســتاذ « بلانشيه » المستشرق الفرنسى المشهور : ان النبى محمدا يعد من أبرز وأشهر رجال التاريخ . فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة وهى :

أنه أحيا شعبا . وأنشأ امبراطورية . وأسس دينا .

ويقول الدكتور « موريس » الفرنسى : ان القرآن أفضل كتاب أخرجته العناية الأزلية لبنى البشر وانه كتاب لا ريب فيه .

ويقول « هنرى دى كاسترى » : ان القرآن يســتولى على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب . ولقد نزل على محمد دليلا على صدق رسالته ..

ويقول « ألكس لوازون » : خلف محمد للعالم كتابا هو آية البلاغة وسجل الأخلاق وهو كتاب مقدس وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا أو المكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الأسس الاسلامية . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية .

أما « واشنطن ايروينج » فيقول : يحوى القــرآن أسمى المبــادىء وأكثرها فائدة واخلاصا .

ويقول « جوته » : ان تعاليم القرآن عملية ومطابقة للحاجات الفكرية

ويقول جيمس متشنر فى مقال له : لعل القرآن هو أكثر الكتب التى تقرأ فى العالم وهو بكل تأكيد أيسرها حفظا وأشدها أثرا فى الحياة اليومية لمن يؤمن به . فليس طويلا كالعهد القديم . وهو مكتوب بأسلوب رفيع . أقرب الى الشعر منه الى النثر . ومن مزاياه أن القلوب تخشع عند سماعه وتزداد ايمانا وسموا وأوزانه ومقاطعه كثيرا ما قورنت بدقات الطبول واصداء الطبيعــة . والأغانى المعروفة فى الجماعات القديمــة ... هذا هو القرآن الكريم ، معجزة نبى الاسلام ورسول السلام ، خاتم الرسل والأنبياء .

وصدق الله العظيم الذى يقول : « وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين . فان لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . (البقرة : ٢٣)

وقوله : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » (الاسراء — ٨٨) .

و « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » (النساء — ٨١) .

الفصل الرابع
الإسلام والمستشرقون

يمر الغرب الآن بمرحلة جديدة من عنايته بدراسة الاسلام وحضارته وهى مرحلة ينبغى لنا أن نتعرفها ونتبين اتجاهاتها ومراميها .. وقد سبق هذه المرحلة مرحلتان أخريان :

أما الأولى فهى تلك الحقبة من التاريخ التى تبدأ من القرن الثامن الميلادى وتستمر حتى النهضة الأوربية الحديثة فى القرن الخامس عشر .. وفيها احتك الاسلام بالغرب سياسيا وحربيا . وأسس مراكز لحضارته فى جنوب أوربا وغربها الجنوبى . ووقف فيها موقف المعلم يلقنها حضارة خصبة الجوانب ، كثيرة الروافد ، امتزج فيها تراثه العربى بتراث الفرس والهند واليونان وغيرهم من الأمم التى دانت لسلطانه . وكان موقف أوربا فى ذلك الدور أشبه بموقفنا نحن من الحضارة الغربية فى أوائل نهضتنا الحديثة . فقد نبغ فيهم مترجمون نقلوا جوانب من التراث الاسلامى الى لغاتهم ، وأسماء بعضهم مشهورة فى تاريخ الثقافة الغربية .

ثم تجىء المرحلة الثانية منذ أوائل النهضة الأوربية الى القرن الحاضر ، وفيها احتلت دراسة الفلاسفة الاسلاميين مكانها فى الجامعات القديمة مثل باريس ولوفان . وظهر أثر الفكر الاسلامى فى بعض الفلاسفة الغربيين . مثل « ديكات » وترجمت بعض روائع الأدب الشرقى مثل « ألف ليلة وليلة » ، الذى ترجم الى الفرنسية فى نهاية القرن السابع عشر ثم ترجم بعد ذلك الى غيرها من اللغات . واتجهت العناية الى دراسة سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام . وبدأت تظهر الكتب الأوربية عن الاسلام وتاريخه . والترجمات المختلفة للقرآن . وأسست الجمعية الأسيوية فى انجلترا وفى فرنسا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وأخذ العلماء الأوربيون ينقبون عن المخطوطات الشرقية ويحققونها وينشرونها .

والحق أن كثيرا من كتب المراجع التى نعتمد عليها اليوم فى دراساتنا العربية والشرقية . انما يرجع الفضل فى ظهورها أو تيسير الانتفاع منها الى أولئك العلماء من الانجليز والفرنسيين والألمان والايطاليين وغيرهم .

وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، ابتدأت سلسلة المؤتمرات الدولية لأولئك المستشرقين يعرضون فيها ما وصلوا اليه فى البحوث الكلاسيكية الاسلامية والعربية والشرقية ، ويعقد بعضهم أواصر الصلات مع بعض ، ومع البارزين من العلماء الشرقيين .

وكان للجمهورية العربية المتحدة جولات موفقة فى تلك المؤتمرات ففى المؤتمر الذى انعقد فى جنيف سنة ١٨٩٤ قدم شوقى ملحمته الخالدة :

همت الفلك واحتواها الماء   وحداها بمن تقل الرجاء

وقبل ذلك فى المؤتمر الذى عقد فى استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، قدم «عبد الله باشا فكرى » بحثا علميا عن تحقيق قصيدة حسان بن ثابت فى فتح مكة ، وتحليلها وشرحها .

وفى الحلقات الحديثة من هذه المؤتمرات برزت جهود العلماء المصريين والشرقيين فى مختلف فروع الاستشراق وأصبحت لهم مكانتهم فى أوساط المستشرقين ، وفيما تقوم به من مشروعات علمية ،ومن هذه المؤتمرات المؤتمر الحادى والعشرون فى باريس ١٩٤٨ م ، ثم المؤتمر الثالث والعشرون فى كمبردج بانجلترا .

أما المرحلة الثالثة ، وهى التى نشهد مظاهرها الآن ، فهى مرحلة العناية بالاسلام فى أوضاعه واتجاهاته الحديثة ، فلم تعد الدراسات الشرقية الكلاسيكية هى الشغل الشاغل للمستشرقين المحدثين ، أو لمختلف الجمعيات والمعاهد وأقسام الدراسات الشرقية فى الجامعات الأمريكية والأوربية ، بل انتقلت العناية الى دراسة الأمم الاسلامية فى نهضاتها الحديثة والى ماينشأ فيها من حركات تجديدية واصلاحية ، والى مقدار تأثير التعاليم الاسلامية الأصيلة فى تفكير الشعوب الاسلامية المعاصرة . وماذا بين تلك الشعوب من مظاهر الاتفاق أو الاختلاف فى النزعات وألوان التفكير . وما مدى كل

واحدة فى التوفيق بين تعاليم الدين ومقتضيات الحياة العصرية والمعقـدة . وعلى الأخص فى التشريع ونظم الاجتماع والاقتصاد وآساليب الحكم ، وهل هناك معضلات تواجهها تلك الشعوب فى التوفيق بين المعتقدات الدينية ونتائج الفكر العلمى الحديث .

واقد نظمت جامعة برنستون ومكتبة مجلس الشيوخ الأمريكى مؤتمرا للثقافة الاسلامية وأقيمت ندوة فى معهد هوفر بجامعة ستانفورد ، ومؤتمر فى متنيسونا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية فى كندا .

والآن يدرس أحوال الشرق الاسلامى الحديث والتصوف الاسلامى فى جامعات اكسفورد وكمبردج وجامعات أوربا كافة ، كما أنه المادة الرئيسية فى كلية الدراسات الشرقية والافريقية بلندن .

والظاهر أن عناية أمريكا وأوربا ، بالاسلام قد أخذت فى السـنوات الأخيرة شكلا جديدا ، نتيجة لشعور الغربيين بأن العالم ينقسم الآن الى معسكرين : أحـدهما دينى والآخر لادينى . وان واجب أهـل الديانات السماوية أن يقفوا متكاتفين فى وجه الالحاد والمادية .

ومن مظاهر هذا الشعور ذلك الاجتماع الذى عقد فى لبنان فى الأعوام الماضية بدعوة من جماعة أصدقاء الشرق الأوسط ، وحضره بعض زعمـاء الفكر من المسلمين والمسيحيين ، وحاولوا أن يتعرفوا نواحى الاشتراك فى المعتقدات والتعاليم بين الديانتين الكبيرتين ، وأن يبرزوا معالم النظام الذى وضعه الدين لحياة انسانية فاضلة تقوم على الايمان بالله والتمسك بالمثل والقيم الروحية العليا .

واليك نموذج من دراسات الباحثين الغربيين عن الاسلام وعن مشاهير علمائه ومصلحيه .. فهذا مقال لعالم أمريكى عن «نظرة الاسلام للانسان» وأثر تلك النظرة فى التفكير الاجتماعى والنظرية السياسية ، يقول العـالم الأمريكى : أن موضوع الانسان ومصيره ومكانه من الوجود قـد شغل أذهان المفكرين الغربيين لماله من صلة بنظرات السياسة والأخلاق ، ولما له من علاقة بفلسفات الحكم والاجتماع فى المعسكرات السياسية المختلفة .

ولهذا الموضوع مكان بارز فى التفكير الاسلامى ، وأسسه الأولى مستمدة من نصوص القرآن الكريم : فهى تقرر أن الانسان مدين بوجوده لخالقه الذى أنشأه وصوره ونفخ فيه من روحه وفضله على سائر الكائنات، وهذا الكائن المفضل أبدعته يد القدرة من ماء وطين • فهو من هذه الوجهة أرضى المادة والتكوين ، وهو بما نفخ الله فيه من روحه كائن يمت الى السماء بسبب ، وقد شرفه الله بأن جعله خليفة فى الأرض ، وأخضع له سائر المخلوقات ، وزوده بالعقل والارادة ، وأعطاه القدرة على تكييف السلوك ، والحكم على الأشياء ، ومعرفة الخير والشر ، والنافع والضار ، وكل أولئك مقرر وصريح فى نصوص القرآن .

على أن هناك ناحية من الانسان حار فى أمرها المفكرون طوال العصور وهى مسألة حرية الفرد وارادته بجانب القانون الالهى • وماجرى به القلم من قضاء وقدر ، وقد أخذ علماء المسلمين بنصيبهم من بحث هذه الناحية ، ورجعوا فيها الى نصوص القرآن ، فوجدوها من جهة تؤكد سلطان الله المطلق وأنه لا يحدث فى ملكه الا ما أراد ، وان مشيئته الأزلية لابد نافذة ، وانه يهدى من يشاء ويضل من يشاء •

ووجدوها من جهة أخرى تؤكد جانب الحرية والمسئولية فى الانسان ، فكل امرىء مسئول أمام الله عن أفكاره وأعماله وأحكامه ، ولا تستقيم المسئولية الا مع حرية الاختيار ، ومعنى هذا أن الله يرشد الانسان عن طريق الوحى والنبوات والفطر السليمة الى المبادىء الأخلاقية العامة المنبعثة عن الارادة الالهية ، وان الانسان بما أودع الله فيه من قوة فى استطاعته أن يختار بين أن يتقبل هدى الله أو أن يتحول عنه •

هذا ومن الأفكار الأساسية فى الاسلام فكرة المساواة الكاملة بين بنى البشر ، اذ هم جميعا من خلق الله ، فلا يفضل انسان انسانا بشرف مولده أو نوع وظيفته أو جاهه فى قومه ، وليس فى الاسلام جماعات ممتازة ، ولا أمم مختارة ، والطريقة الوحيدة التى يمكن أن يتميز بها بعض الناس عن بعض هى كيفية استجابتهم لله ، وقبولهم لهديه ، وموقفهم من وحيه •

هذه الفكرة تضمنتها أصول الاسلام وشعائره التى ترمى الى أن يفقه الناس أنهم جميعا سواسية أمام الله • ففى الصلاة يقف العظيم والصغير ، متجاورين فى عبادة الله ، وفى الصوم يستشعر الناس غنيهم وفقيرهم الخضوع لله ، ويدركون قسوة الجوع ، ومرارة الحرمان • وفى الحج يتجرد المسلمون الا من لباس من قطعة واحدة يشعر بالوحدة والمساواة ، ويقضى على التمييز الطبقى والمالى اللذين يظهران عادة فيما يلبس النـاس . أما الزكاة فتبرز الاحساس بالمسئولية نحو خلق الله الذين تركتهم صروف الدنيا بلا ضمان •

وهناك من أصول التشريع الاسلامى أصل يمكن أن يكون له أثره فى اخماد النزعات الاستبدادية عند بعض الحكام والفقهاء ، ذلك هو مبـدأ الاجماع الذى يعتبر مظهرا للارادة العامة ، والذى يحمل فى طياته بذرة مهمة من بذور الديموقراطية •

هذه النواحى التى ذكرناها اذن ، تؤكد أهمية الفرد فى نظر الاسلام ، من حيث هو موجود يضىء بين جوانحه قبس من نور السماء ، ومن حيث هو كائن حر ، ذو ارادة وعقل واختيار ، ومن حيث هو ذات لها قيمتهـا وأهميتها التى لاتتوقف على مال أو منصب أو جاه •

وبجوار هذه الأهمية التى خلعها الاسلام على الفرد ، سـار العرف الاسلامى على تصور آخر يتعلق بالفرد فى الجماعة ، ويمنح الناس وسيلة للترابط واحساسا بالاتحاد لايوجدان أحيانا فى التصورات الغربية الحديثة للانسان • ذلك هو مايعرف عند المسلمين بدار الاسلام ، وهو يضفى على كل مسلم شعورا بالترابط الوجدانى مع كل مسلم آخر ، ويهب له احساسا بالأمن ، ذلك أنه يشعر بكونه فى داره أينما سار فىأية بقعة من تلك البقاع الشاسعة المتناثرة من السـاحل الأطلنطى لأفريقيا الى قلب المحيط الهادى حيثما كان الاسلام هو الدين السائد والثقافة الغالبة • وهذا من شأنه أن يخلق — لو أحسن فهمـه واسـتخدامه — روحا جماعية ، ووحدة بين شعوب لها أهميتها البالغة ، ومن الملاحظ أن هذه الروح تظهر أقوى ماتظهر عندما يهدد العالم الاسلامى ، أو أى قسم من أقسامه مصدر غير اسلامى ،

وأنها عرضة أن تنسى حين لا يهدد المجموع خطر من الخارج ، ومع ذلك فهى قسوة حقيقية يمكن أن تصبح عاملا له أثره فى حياة العالم الاسلامى كله .

ومما أورده العالم المسيحى الأمريكى ، موقف الاسلام من الفرد ومن الجماعة الانسانية مستدلا فى حديثه بنصوص من القرآن الكريم، ودراسات العلماء السالفين ، ثم يتابع موضوعه الى العصر الحاضر ، فيحلل آراء بعض المحدثين من العلماء والمفكرين المسلمين من أمثال المصلح المصرى « محمد عبده » والفيلسوف الباكستانى « محمد اقبال » اللذين يتفقان فى أن كلا منهما يؤكد استقلال الارادة الانسانية ، ويبرز الباحث الأمريكى عناية الشيخ « محمد عبده » بأن يصحح ما درج عليه الغربيون ورميهم لنا بالجمود والتأخر بسبب ما يعتقده المسلمون فى القضاء والقدر .

صحيح أن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالتسليم القائم على الاعتقاد فى القضاء الالهى ، ولكن مفكرى الاسلام من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الفرد فى الاختيار .

ويقرر «محمد عبده» فى رسالة التوحيد أن الانسان يدرك أعماله الاختيارية ويزن عواقبها بعقله ، وينسب اليها القيم عن طريق ارادته ، ويقوم بها بدافع فى نفسه ، عالما أن هناك قوة أعظم من نفسه ، هو مسئول أمامها ، وأن هدى الله ميسور لمن يجاهد فى سبيل الاهتداء الى الحق والخير والصواب مصداقا لقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . وكما أن الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة . كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية ، والناس قادرون على ادراك هذه السنن الالهية بالتدبر وعن طريق الوحى ، ولكنهم أحرار حين يعملون بها أو يخرجون عليها والأمم تصل الى الرفعة أو تقصر دونها حسب اختياراتها الأخلاقية الارادية ، أو حسب الاتجاه الأخلاقى العام لسياساتها الاجتماعية . وقد وهب الله الانسان الحس والعقل . وفى هذين : الكفاية ليستكشف ما هو ضرورى المحافظة على النفس ، وليميز الصواب من الخطأ ، ووهب له العاطفة والشعور اللذين يدفعان ادراكه العقلى ، ووهب له الارادة الحرة ليتصرف فيما يصل اليه عقله وتوجهه اليه عاطفته .

ويصل الباحث من كل هذا التحليل الى نتائج عامة أهمها أن الحضارة الاسلامية ذات أساس متين يمكنه من الاصلاح فىميادين السياسةالاجتماعية فان مافى نظام الاسلام الأساسى من مساواة ومن ديموقراطيــة يبعث على ضروب من المشروعات ترمى الى تخفيف الحرمان والضعف اللذين تعانيهما آية طائفة داخل الجماعة ، وحيثما أنتج النظام الطبقى للمجتمع أقلية غنية وأغلبية فقيرة • فان المصلحين يستطيعون أن يعتمدوا على المبادىء الأخلاقية الأساسية فى الاسلام فى الوصول الى تشريع يكون من شأنه رفع مستوى المعيشة وفتح طبقات المجتمع كلها فرصا متكافئة فى التعليم وفى الدخل المناسب وفى التعبير الاجتماعى • أما فى الميدان السياسى فان العالم الاسلامى فى وضع يسمح له أن ينمى فلسفته الخاصة دون أن يدفعه التقليد الأعمى الى اتباع نظريات سياسية واقتصادية تجلب اليه من هذا المعســكر أو ذاك • والأمم الاسلامية بما بينها من أواصر الوحدة والترابط تستطيع أن تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع فاضل من المجتمع العالمى ومن العاملين على ايجاد مثل ذلك المجتمع الذى ينظمه ويسيطر عليه قانون دولى •

ومن المستشرقين الذين كتبوا فى الاسلام الأستاذ « اميل ديرمانجم » وقد سلك فى الاسلام طريقا وسطا بين الافراط والتفريط ووفق الى كثير من الحقائق وان كان له هو الآخر هفوات سنعرض لها فى حينها ، ولكننا نكتفى الآن بأن نسجل بعض آرائه فى الاســلام (قــرآنه ونبيه) . التى جاءت فى كتابه « حياة محمد » .

قال : ان محمدا قد أبدى فى أغلب حياته اعتدالا لافتا للنظر ، فقــد برهن فى انتصاره النهائى على عظمة نفسية قل ان يوجد لها مثال فى التاريخ، اذ أمر جنوده أن يعفوا الضعفاء والمسنين والأطفال والنساء وحــذرهم أن يهدموا البيــوت أو أن يســلبوا التجار ، أو أن يقطعوا الأشجار المثمــرة ، وأمرهم ألا يجردوا السيوف الا فى حالة الضرورة القاهرة ، بل قد رأينــاه يؤنب بعض قواده ويصلح أخطاءهم اصلاحا ماديا ويقول لهم ، ان نفسا واحدة خير من أكثر الفتوح ثراء •

أن الغنائم الحربية كانت فىذلك العهد ، النتيجة العادية لكل جهاد ، بل يمكن أن يقال : انها كانت مع التجارة وتربية الحيوان ، هى الصناعة الوطنية

العربية ، فأعلن « محمد » اباحتها لأتباعه استجابة لضعفهم ، ولكنه حددها بقواعد دقيقة ، فخصص الجزء الأكبر منها للصدقات ولحاجات الجيش وانه قد حذر فى قسم الأسرى ابعاد الأطفال عن أمهاتهم ، انه لم يكن ليستطيع أن يغير أخلاق شعبه تغييرا تاما ، ولكنه نجح فى أن يقومه فى نقط كثيرة .

انه شخصيا لم يكن الا رجلا أميا خلوا من الثقافة تقريبا ، كجميع بنى بلدته فى عصره ، ولكنه كان يعلم أن الاله رحيم رحمة لا حد لها ، فأجهد نفسه فى أن يعلو على الطبيعة البشرية وأن يقهر فى نفسه الميول الانتقامية ، وهو فى هذا يقول : كاد الحليم أن يكون نبيا .

بل يمكن أن تكون آلامه التى كان يعانيها ناشئة من أنه لم يلحق الكمال الذى كان يبغيه ، ان اخلاصه لا يمكن أن يكون فى العصر الحاضر موضع شك ، فان حياته كلها تشهد أنه كان يؤمن برسالته ايمانا عميقا وأنه تقبلها — لا بغير بطولة — كعبء يجب عليه أن يحتمل ثقل أوزاره .

ان قوة عبقريته الانشائية واتساعها ، وذكاءه العظيم ، ونظره الصائب الى الحقائق ، وسيادته لنفسه ، وقوة ارادته ، وحكمته واستعداده للعمل ، وحياته الواقعية .. كل ذلك يجعل الزيف فى مبدأ رسالته يستحيل القبول . فكيف يتصور أن ينقلب كاذبا فجأة ، ذلك الذى كان نجاحه يظهر له كبرهان ساطع على تأييد الاله لدعواه ، وكيف يمكن أن يجرؤ على تشويه رسالته فى الوقت الذى كان يرى فيه أنها مقدسة مؤيدة من الاله .

ويقول عن النبى كحكيم : انمحمدا كان رجلا مؤمنا بالعالم الروحانى، انه ذلك الانسان الذى كان للأشياء الخفية عنده أهمية تفوق أهمية الظواهر الحسية ، والذى عنده تتقدم اللامرئيات على المرئيات ، والذى يرى أنالنظام الروحانى هو النظام الأساسى .

بل انه هو النظام الوحيد الذى يوجد حقا ، انه قبض على الحقيقة العميقة ، ثم صدع بين بنى الانسان باكتشافه . ان هذا القلب الخالى من كل كذب . ومن كل ثقافة مزيفة ، ومن كل غرور ، قد ظهر دفعة واحدة بالصخرة المتينة ، واذا كان واقعيا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة « Réaliste »

فقد كان بخاصة فى الحياة العملية ، حين وكلت اليه أعمال العالم الخارجى ، أتم وأكمل ، لأن المرئى هو ميناء الساعة التى عليها يرتسم اللامرئى ، ولأنه هو جذر النبتة الحقيقية ، اذ أن ماهو أدنى ، صورة لما هو أعلى ... وذلك رأيه فى الرسول كنبى : ان النداءات الداخلية هى لتاريخ الانسانية أشبه الأشياء بمفاصل الجسم البشرى التى تسمح له بأن يتحرى ويؤدى مهمته فى الحياة ، فمن وقت الى آخر ترن دعوته ، وتسمع صرخة فى الليل ، وينادى صوت فى السكون فيهب اذ ذاك رجل قافز من نومه ، ويسير دون أن يدرى الى أين يتجه بالضبط ، كابراهيم والياس ، ثم يستمر فى سيره ، بلا راحة ولا فتور ، ويظل يتكلم حتى يوقظ الآخرين من نومهم الثقيل ، وبهذا يتكون سلام الانسانية فى سلسلة من الأفعال الحرة .

وهكذا نهض محمد ليدعو بنى جنسه الى دين واحد ، هو دين الاله الواحد ، وليوقظ جزءا من آسيا وافريقيا . وليحرر من عبودية الجامدين كل الذين يفهمون رسالته الحقيقية ، ولكى يحرر بلاد فارس التى كانالنعاس يشملها ، ولينعش المسيحية الشرقية التى شوهتها المجادلات البيزنطية الخالية من الحماسة ومن الاعتقاد المجرد من الوحدة .

ان الأنبياء يفرضون أنفسهم على العالم كالقوى الطبيعية العظمىالخيرة القاسية كالشمس والمطر ، وكعواصف الشتاء التى تصيب الأرض الجرداء لتكسوها بالخضرة فى بضعة أيام ، فبثمارهم ينبغى أن يحكم عليهم . ان أفضل براهين رسالاتهم ، هى تلك العقول المطمئنة،والقلوب المفعمة بالسكينة والارادات القوية ، والمخاوف المستحيلة الى هدوء ، والأمراض الأخلاقية التى أبرأوا الانسانية منها والصلوات التى تصعد الى السماء النقية .

انهم قد هوجموا بالكبرياء العالمية ، وهم بلا معتمد وبلا قوى مادية ، ومع ذلك فقد حملوا وحدهم سرا على أنواع الحرية الذى يمكن أن يلخص فى هذه العبارة : لأن تعصى الناس خير لك من أن تعصى الاله الذى أمامه وحده يجب أن يسجد الجميع متساوين .

ان محمدا كان يجهل كل ماليس علما مطلقا ، وكان أميا بالمعنى الكامل لهذه الكلمة وليس معناها ، فيما أرى ، العامية أو الخلو من التأدب ، وانما

الأمى هو بالأحرى الرجل النقى الذى جمع بين الطبيعة ومافوق الطبيعة ، والبرىء من الأحكام العقلية والقلبية المتسرعة .. ومع ذلك فقد نهض لكى يدعو العلماء الى أن يفهموا مايقولون . وليقوم الطرق الملتوية التى يضل فيها من يزعمون أنهم حكماء .

ان الناس حالة سماعهم خطبه المهمة ، وكتاباته الملتئمة مع عصره ، قد أحسوا بجاذبية تصلهم بالسر الخفى الذى يحوطهم اليه وخضعوا للاله ،فرأوا كيف يستطيعون أن يهذبوا وجودهم المؤقت وهكذا وجدوا فيه مثالا حيا لايستطيع الفلاسفة ولا رجال الحكومات أن يقدموه .

ان «محمدا» قد جاء فى عصر يعد أحد عصور التاريخ المظلمة ، اذ أن جميع المدنيات ، من حدود « الغال » الى أقاصى « الهند » كانت منهارة أو مضطربة ، ان دعوة « محمد » قد أوجدت فى جزيرة العرب تقدما غير قابل للاعتراض سواء أكان ذلك فى دائرة الأسرة أم فى دائرة الجماعة . أم فى الناحية الصحية ، وان حظ المرأة قد تحسن ، وان الفحش والزواج المؤقت والمعاشرة الحرة قد حظرت . وقد حرم أيضا اكراه الاماء على اتخاذ الفحش وسيلة لثراء مواليهن كما كان متبعا فى ذلك العهد « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء ان أردن تحصنا » انه قد أباح الرق ، ولكنه نظمه وضيق حدوده ، وجعل العتق عملا خيرا ، بل كفارة عن بعض المعاصى .

ان « أبا ذر » دعا « بلالا » يوما يابن الأمة ، فقال له النبى : انك لاتزال تشعر بشعور الجاهلية الأولى .

ان الالهيين والأخلاقيين والفقهاء والمتنسكين ، قد وجدوا فيما بعد فى دعوة محمد الأسس الأولية لمعارفهم ، فاسترشد بها كل منهم فى طريقه الخاص مع حفظ المبدأ الجوهرى . وهو أن الاله هو المحور الرئيسى فى كل شىء ، ولقد اعتمدت المذاهب المختلفة فى تأسيس آرائها المتناقضة على أحاديث حقيقية أو مزيفة عزيت الى النبى .. بل ان المشكلات الميتافيزيقية العظمى : التى لم يكن « محمد » يحب أن يلح عليها ، قد عولجت فيما بعد استنادا الى تلك الأحاديث نفسها . ففيما يتعلق بحرية الفرد مثلا نجد أن الجبرية وخصومهم القدرية قد فتشوا عن أدلتهم فى الكتاب والسنة ، وهذه المسألة

قد بسطت بعد ذلك أمام المدرسين المسيحيين ، كالقديس « توماس » ، وعند بعض المحدثين « كبوسويه » ، و « الجانسينيين » و « المولينيين » بالعبارة نفسها التى بسطت بها عند العرب ، وحلت بالحلول نفسها التى وضعوهالها .

وفى الواقع أن القرآن يلح على بيان القدرة والعلم الالهيين الكاملين ، ويعلن أن كل شىء آت من الاله ، ولكنه يصرح أيضا بأن الشر وليد الارادة الانسانية الفاسدة ، وبالاجمال يستطيع الباحث أن يجد فى القرآن نصوصا لحرية الفرد أو عليها . وهاتان النقطتان هما طرفا السلسلة التى لم يعثر العقل البشرى بعد ، على حلقاتها الوسطى . فاذا كان المسلمون وعلى الأخص فى عصور التدهور . قد أبدوا انعطافا نحـو الجبرية الشرقيـة ، فانه ليس فى الاسلام مايضطرهم الى هذه الجبرية ، على عكس ماكان « لينبيز » يعتقد مسايرة للرأى العام ، اذ حين سأل أحد الأعراب «محمدا» عما اذا كان يكتفى فى حفظ ناقته بالتوكل على الله ، أجابه قائلا : اعقلها وتوكل .. وحينما قيل له : انه مادام أن كل شىء معلوم لله مقدما ، فان العمل عبث ، قال : كلا .. اعملوا فكل ميسر لما خلق له .. وهذامعناه ، ساعد نفسك تساعدك السماء ..وقال كذلك : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمـل لآخرتك كأنك تموت غدا (وهى حكمة لعلى كرم الله وجهه ونسبوها الى النبى — صلى الله عليه وسلم) .. وهذا هو الحل الذى ارتضته الأخلاق ، فشـهدت له بالحكمة .

وهذا رأى للكاتب نفسه فى القرآن واعجازه ، قال : ان كل نبى يجب أن يأتى ببرهان من طبيعة خاصة يكون آية على صدق رسالته ، وهذا البرهان يسمى بالمعجزة ، وهو يختلف عما يأتى به الأولياء ، ويسمى كرامة ، والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة ، فان جماله الأدبى الفـائق وقوته النورانيـة ، لايزالان الى اليوم لغزا لم يحل ، وهما يضعان من يتلوه ، ولو كان أقل الناس تقوى ، فى حالة خاصة من الحماسة .

لقد تحدى «محمد» الأناسى والجن أن يأتوا بمثله ، وهذا هو برهان رسالته بالمعنى الكامل ، ولم يكن الأمر فى القرآن يتعلق بقيمة أدبية استثنائية فان محمدا كان يحتقر الشعراء ودفع عن نفسه أن يـكون واحدا منهم ..

ولكن الأمر يتعلق بشيء آخر غير هذه القيمة ، وهو الفرق بين وحى الاله والهام الشياطين .

وغير خاف على المتعمقين فى التاريخ الاسلامى أن العالم المسيحى كان بطبيعة الحال فى أيام الحرب الصليبية وفى أثناء الفتوحات العثمانية فى أوربا سيء الرأى فى صاحب الدعوة الاسلامية . وكانت الكنيسة الكاثوليكية تتجاهل كتب السيرة النبوية ليتسع المجال لتصوير « محمد » على خلاف صورته التاريخية دون تعرض للدعوة الدينية . كما كانت تتجاهل القرآن ، ولا تعترف بوجوده ، وقد بلغ من ذلك أن أحرقت نسخة القرآن العربية فى البندقية عام ١٥٣٠ ، وأن حرم البابا اسكندر طبعه وترجمته . وكانت التراجم الأولى للقرآن فى القرنين السادس عشر والسابع عشر (١) مشفوعة دائما بالمقدمات والحواشى والتذييلات فى دحضه وتفنيده من قبيل الاعلان من جانب المترجمين عن حسن ايمانهم ، ودفعا للشبهة عن أنفسهم وتزكية لعملهم ، وتكفيرا عنه فى عقيدتهم وعند أهل ملتهم .

---

(١) ان أول ترجمة للقرآن الكريم كانت باشارة « بطرس فيزابلس رئيس كنيسة كلنية . وقد تمت ١١٤٣ ميلادية . وظلت مختفية نيفا وأربعمائة سنة حتى تم طبعها سنة ١٥٤٣ ونقلت بعد ذلك الى الايطاليه والهولندية . ثم ترجم القرآن الى الفرنسيه وطبع عام ١٦٤٧ وترجم الى اللغة الالمانيه عام ١٦١٦ والهولنديه سنة ١٦٤١ والروسية ١٧٧٦ والايطالية ١٥٤٧ والانجليزية ١٧٣٤ والجاوية ١٩١٣ والسمالية ١٩٠٨ ، والعبرانية والارامية ١٧٩٠ والفارسية ١٨٢١ والتركية ١٩١٣ .

وقد ظهرت ترجمات متعددة للمفكرين العربيين من مستشرقين ومبشرين وكلها ترجمات تفسيرية بها نقص أو زيادة وليست كاملة .

كما أن القرآن ترجم فى عهد هشام بن عبد الملك الى اللغة السريانية وهى لغة ذلك العصر .. ويوجد فى متحف لندن المجموعة الخطية التى وهبها « ادوار كاريورى » فى ٥٠ ألف مجلد وتشمل ترجمة قديمة للقرآن منذ ٦٩٠م وبها آيات كاملة ليست من القرآن .

وبلغت الترجمات ٣٤ ترجمة انتشرت فى مختلف أنحاء العالم على أنها ترجمة حقيقية للاسلام .. وهى ترجمات محرفة ومغلوطه .. استعملها بعض من لا يعرفون اللغه العربية ..

وكانوا قد ترجموا القرآن منذ منتصف القرن الخامس عشر عام ١٤٥٧ عن طريق المبشرين .. حتى عام ١٩٣٢م — فجرت مناقشات فكرية حول ما اذا كانت الترجمة للقرآن هى ترجمة كاملة أم ترجمة معانى القرآن ..

ونشرت مشيخة الازهر فى ١٦ أبريل عام ١٩٣٦ — ان تراجم القرآن الى مختلف اللغات الاعجميه قد شاع فى هذا العصر وان بها أخطاء وأغلاطا شائنة تتنافى مع ما جاء فى الدين الاسلامى الحنيف . وهى من أجل ذلك قد أنشأت قسما خاصا من مجلة « نور الاسلام » . واستقدمت الاخصائيين فى اللغات الذين ناطت بهم ترجمة تفسير بعض الآيات وأخذت من تفسير الالوسى والبيضاوى وغيرهما من التفاسير ..

وبينت أن المراد من ترجمة معانى القرآن هو تبسيط هذه المعانى تبسيطا محكما وتفسيرها تفسيرا دقيقا على أن تترجم المعانى بعد ذلك . وقالت : ان القرآن لفظ عربى معجز وله معنى . أما نظمه العربى فلا سبيل الى نقل خصائصه لان هذا مستحيل استحالة قطعية .

ثم أخذ الموقف مع دخول القرن الثامن عشر الذى يسمونه عصر النور يدخل عليه التحسن شيئا فشيئا على نحو مستمر ، ولكنه لايكاد يحس به من فرط بطئه .

وكان العالم الهولندى « أدريان ريلان » Adrin Relanp أول من أمسك القلم من العلماء الأحرار للعمل على رد الاعتبار للاسلام ، وصاحب الرسالة فى كتابه عن الديانة المحمدية ، ثم طلع من بعده المستشرق الفرنسى « ارنست جانييه » Ernst Gani بكتابه « حياة محمد » عام ١٧٢٣ م وقد نقل فيه الى اللاتينية سيرة النبى — صلى الله عليه وسلم — عن المؤرخ العربى « أبو الفدا » ولا شك أن اعتماد المستشرق على مصادر جديدة غير مصادر القوم الخرافية دليل على ترفعه عن التعصب الأعمى ، واعتصامه قدر الاستطاعة بروح الانصاف والتزام المنهج الموضوعى ، واقتفى أثر هؤلاء وتقدم عليهم غيرهم مثل « هنرى كونت دى بولانفلييه » Hcuri Conte de Boulanvlliers فى كتابه « حياة محمد » الذى يأخذ عليه المتعصبون

وكانت فكرة ترجمة معانى القرآن .. للمرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخ الازهر الشريف منذ عام ١٩٢٩ — حتى أعقبه المغفور له محمد فريد وجدى ودعا الى ترجمة القرآن ترجمة صحيحة كاملة حتى يواجه تحريف المحرفين وحتى هذا العمل حتى لا يترك للمترجمين المتعصبين فى الامم المختلفة مجال لتحريفه وتشويه معانيه . وقوله : ان الاكتفاء بترجمة تفسيره لا يؤدى الغرض المطلوب من نشره . لان المفكرين فى العالم يحبون أن يتأملوه عاريا من زخرف التفاسير والشروح وألوان الآراء والافهام لمعرفة الدائرة الذاتية . ونعى على اصرار بعض العلماء على حبس الاسلام فى الدوائر العربية التى لا يحسن فهمها غير أهلها وتجريده من الاسلحة العالمية وهى اللعاب الحية للدفاع عن نفسه . وقال : ان وضع القيود غير المعقولة فى مسألة نقله يقضى عليه بهزيمة منكرة تقع نتائجها علينا وعلى أعقابنا قرونا طويلة . ومعناه صده عن الجولان فى الدورة الفكرية العالمية مع غيره من كتب الاديان وأسفار المذاهب .

وان كل ما يخشى منه أن يوكل أمر البت فى هذا الشأن لمن لا يعرفون لغات أجنبية فيخيل اليهم أنها لغات بربرية تخلو من جميع الزخارف اللفظية والمعنوية التى توجد فى العربية . وقال ان تعطيل القرآن عن الترجمة الحرفية والزج به فى معترك الافهام الى اليوم قضى عليه بأن لايكسب أنصارا من الامم الغربية فصار قاصرا على الامم الشرقية التى رضيت أن يكون حظها من دينها كحظ الببغاء .

وأشار الى حركة الاتراك التى أثرت فى العالم العربى أعظم تأثير وأبلغه وزاد اعجابه بها عند أقدامهم على كسر هذا السياج الفولادى الذى وضعه المتأخرون أمام ترجمة القرآن مع جوازه فى أقدم المذاهب الفقهية (نشر فى جريدة الاهرام بتاريخ ٧ يوليو ١٩٣٢) ..

وقد عارض ترجمة معانى القرآن كثيرون فى مقدمتهم الشيخ محمد سليمان وكيل المحكمة العليا الشرعية الذى وصفها بأن وراءها غرضا أستعماريا هو القضاء على القرآن — تمهيدا للقضاء على الاسلام وتابعه « محمد الهمهاوى » وعارضها كذلك الشيخ الظواهرى والرأى الصحيح هو ما ارتأته مشيخة الازهر من استحالة ترجمة القرآن ، لان نظمه العربى لا سبيل الى نقل خصائصه ، ولا مانع من ترجمة معانيه .

من أهل ملته أنه يتحدث عن صاحب الدعوة الاسلامية ، باعتباره رسولا للعناية الالهية .

ولقد اطلع الشاعر جوته فى عام ١٧٧٢ على الجزئين الأولين من تاريخ « محمد » مشرع العربية Moba ..et Cegiateur de l'Argbie لمؤلفه الفرنسى « تربن » Fra.ai. He..rit Tuıpin وهو من قبيل من ذكرناهم على وجه العموم .

ولكنه لاينبغى أن يغيب عن البال أن مايسمونه عصر النور لغلبة الفلسفة العقلية التى مهدت للثورة الفرنسية فى أواخره ، كان دعاته يحملون حملة شعواء على الأديان عامة ، ولا يريدون أن يروا فى أصحاب الدين الا أصحاب خرافة ودجالين ، يزعمون للناس أنهم من المرسلين الملهمين .

ومن هؤلاء « فولتير » الذى أراد أن يروج لهذا التفكير اللادينى على المسرح بطريقته الملتوية غير المستقيمة ، وقد كان هذا دأبه ومنهجه الذى درج عليه منذ البداية ، فنراه فى مسرحيته الأولى « أوديب » عام ١٧١٨ يتظاهر بمهاجمة الكهان فى الوثنية ، وهو يعنى الكنيسة المسيحية كما فهم من أراد الفهم من القارئين والسامعين من منطوق قوله : ان رجال الدين عندنا ليسوا كما يتخيله عامة شعبنا ، ان علمهم المزعوم كله انما هو من صنع وهمنا واعتقادنا .

بيد أن فولتير فى هذه المرة أراد أن يتقدم خطوة أخرى الى الهدف ، فاستدبر خلفه رجال الدين ، وانتحى نحو النبيين ولما لم يكن فى الاستطاعة ، حتى لو واتته الشجاعة ، أن يتعرض فى مواجهة جمهور المسرح الأوروبى ، وهم فى جملتهم على الدين المسيحى ، لأحد الأنبياء الذين تقدم ذكرهم فى الكتاب المقدس سواء فى العهد القديم أو فى العهد الجديد ، فلم يبق أمامه الا أن يتعرض لنبى المسلمين ، ليتوصل من ذلك الى الطعن من طرف خفى على كل نبى ، فكتب مسرحيته « التعصب ، محمد النبى » عام ١٧٤١ م .. ورأى امعانا فى التعمية على رقابة المطبوعات فضلا عن الأخذ بالحيطة والاعتصام بالتقية أن يجعل ، وهو المشهور بعدائه اللدود للكنيسة ـــ اهداء المسرحية الى البابا « بنوا الرابع عشر » مختتما الاهداء بقوله : وبعد .

فليأذن لى صاحب القداسة أن أضع المسرحية ومؤلفها عند موطىء قدميه . وان ازداد جرأة فالتمس منه للمسرحية الرعاية ، ولمؤلفها البركة ، ولم يكن البابا ليفوته مايستهدفه « فولتير » من وراء مسرحيته ، فرد عليه بعد أسابيع بكتاب اقتصر فيه على القول بأنه قرأ مسرحية « محمد » باهتمام .وقدمثلت المسرحية فى مدينة « ليـل » أولا عام ١٧٤١ ، ثم قدمتها « الـكوميدى فرانسيز » فى باريس عام ١٨٤٢ ، فاحتج عليها السفير التركى لدى الحكومة الفرنسية ، وعقد مؤتمرا دعا اليه كتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها ولم تزد حفلاتها على الثلاث ، وظلت بعدها تسعة أعوام متوارية فى الظلام .. وطبيعى أن لايعنينا هذا الموقف من فولتير . مادام هو وأمثاله من كتاب الثورة الفرنسية معدودين من الملاحدة حينا ، ومن منكرى النبوات عامة فى أكثر الأحايين .

وأما الذى يعنينا فى هذا المقام فهو رأى غير المتعصبين من أهل الديانات الأخرى ، والذين لم يختم الله على قلوبهم فلم تظلم بصيرتهم ولم ينضب منها معين الايمان ، وقد ذكرنا كيف تطور هؤلاء ، واعتدل موقفهم وزاد اعتبارهم بفضل الاسلام واعجابهم بشخصية محمد ، بقدر امعانهم فى دراسة التعاليم القرآنية ، واطلاعهم على السيرة النبوية من مصادرها الحقيقية ، جدير بنا مع ذلك أن نتوقع منهم وهم على غير هذا الدين أن يتحدثوا عن صاحب الدعوة الاسلامية ، كما نتحدث نحن المسلمين ، بل حسبهم ، وهذا قصارى جهدهم ، هدم الخلافات المزرية التى أشيعت عن محمد فى العالم المسيحى ، واظهارهم محمدا للعالم المسيحى مؤمنا صالحا يعبد الله ثابت اليقين ، ومجاهدا أرادت مشيئة الله أن تتخذه من المرسلين لنشر عقيدة التوحيد بين العالمين .

وهاهو ذا « جوهان ولفانج جوته » كبير أدباء الألمان وشاعرهم الأعظم ، فى فرانكفورت عام ١٧٧٢ م ، يعكف على تلاوة القرآن فى ترجمة المانية أنجزها يومئذ أحد أبناء بلدته ، المستشرق العلامة « مرجرلين » Mergelin حتى اذا فرغ منها عكف بعدها على تلاوة القرآن فى ترجمة لاتينية سابقة لها ، طبعها فى مدينة « بادوا » فى الشمال الشرقى من ايطاليا

القس الجزويتى « ماراتشى » Maracci عام ١٦٩٨ م ، وأعيد طبعها عام ١٧٢١ بمدينة ليبزج الألمانية •

وما أن أتم جوته تلاوة القرآن فى الترجمتين ، حتى اقتبس بعض الآيات القرآنية ، نقلا عن الترجمة الألمانية ، ونحن نعرف اليوم ما اقتبسه الشاعر الألمانى من الآيات ، بفضل طبعها بعد ذلك فى مجلد للمرة الأولى بمعرفة « شول » Sholl عام ١٨٤٦ م • وهذه الآيات هى قوله تعالى :

« بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » •

« ولله المشرق والمغرب ، فأينما تولوا فثم وجه الله • ان الله واسع عليم » •

« ان فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » •

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لايسمع الا دعاء ونداء • صم بكم عمى فهم لايعقلون » •

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ،وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » ، وكلها من سورة البقرة ، ثم من سورة آل عمران قوله تعالى : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين » •

«وماكان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله ، وان تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم » •

ومن سورة النساء : « مذبذبين بين ذلك ، لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا » •

ومن سورة المائدة : « ولو أن أهل الكتاب آمنوا واتقوا لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم ، ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء مايعملون » •

« يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم ، وان تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم ، عفا الله عنها ، والله غفور حليم . قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين » .

ومن سورة الانعام : «وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » •

ومن سورة يونس : «دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام»

ومن سورة يوسف : « اذ قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ان أبانا لفى ضلال مبين » •

ومن سورة طه : « قال رب اشرح لى صدرى » •

ومن سورة العنكبوت : « خلق الله السموات والأرض بالحق ، ان فى ذلك لآية للمؤمنين » • « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك اذن لارتاب المبطلون »

« وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين » •

وقد ظل جوته طويلا يمعن فى دراسة القرآن امعان الباحثين ، وهو يقول : ان القارىء الأجنبى يمله لأول قراءته • ولكنه يعود فينجذب اليه ، وفى النهاية يروعه ويلزمه الاكبار والتعظيم ، ويستشهد « جوته » فى كلامه عن القرآن الكريم وماجاء به من تعاليم الدين بهذه الآيات :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل اليك

وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحـون . ان الذين كفروا سـواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنـذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

ويقول جوته : ان القرآن يردد قواعد هذه التعاليم ، ويكرر البشير والنذير سورة بعد سورة وهو لايرى فى هذا الترديد والتكرار مايراه النقاد الغربيون لأن محمدا لم يرسل برسالة شاعر للتفنن فى القول والتنويع فى ضروب الكلام وعرض الصور المزوقة من الأخيلة والأوهام ، لاسـتحداث اللذة وادخال الطرب . بل هو بنص القرآن بعيد عن هذا الوصف . وانما محمد نبى مرسل لغرض مقدر مرسوم يتوخى اليه أبسط وسـيلة وأقوم طريق . وهذا الغرض هو اعلان الشريعة وجمع الأمم حولها لينضووا تحت لوائها ، فالكتاب المنزل على محمد انما بعث به الى الناس ليقتضيهم القنوت والايمان ، ومن ثمة نراه اذا ما عرض للقصص الدينى لم يعرضه معرض التاريخ والأخبار بل يقتصر منـه على مكان الحـكمة ومضرب الأمثـال ومواضع الاعتبار .

ويظهر فى شعر «جوته» الأخير الذى أسماه «الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » تأثره بالقرآن فى روحه وعباراته .. فالقارىء المسلم لايسعه الا أن يذكر من الآيات القرآنية أكثر من واحـدة حين يقرأ المقطوعة التالية لجوته : لله المشرق ولله المغرب ، وفى راحتيه الشمال والجنوب جميعا . هو الحق ، وما يشاء بعباده فهو الحق سبحانه له الأسماء الحسنى ، وتبـارك اسمه الحق وتعالى علوا كبيرا ، آمين . ينازعنى وسواس الغى ، وأنت المعيذ من شر الوسواس الخناس ، فاللهم اهدنى فى الأعمال والنيات الى الصراط المستقيم . ومهما زينت النزعات والشهوات ، فالنفس لا تذهب شعاعا ولا تضيع ضياعا ولا تلبث بما أودع فيها من الحفاظ والاباء أن تنطلق عارجة الى أوج العلا .

« وللناس فى ترديد أنفاسهم آيتان من الشهيق والزفير . هـذا يفعم الصدر . وهذا يفرج عنه كذلك الحياة عجيبة التركيب . فاشكر ربك اذا بليت . واشكر ربك اذا عوفيت » .

ويعمد « جوته » أحيانا الى التضمين الصريح ، ومن ذلك تضمينه للآية الكريمة : « ان الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها » . فيقول فى مقطوعة له بعنوان التشبيه : « لم لا أصطنع من التشابيه ماأشاء ، والله لا يستحيى أن يضرب مثلا للحياة ببعوضة ؟ » « لم لا أصطنع من التشابيه ما أشاء ، والله يجلو لى فى جمال عينى الحبيبة ، لمحة من جماله رائعة عجيبة » .

ولا يسعنا اذا ذكرنا هؤلاء المنصفين الا أن نضع فى طليعتهم صاحب هذا القول المبين وهو الشاعر جوته ، اذ يقول فى بعض أشعار الحكمة من ديوانه :

من حماقة الانسان فى دنياه •• أن يتعصب كل منا لما يراه •• واذا الاسلام كان معناه التسليم لله فاننا أجمعين نحيا ونموت مسلمين ••

وكثيرا ماينشر فى هذه الأيام من الكتب التى يكتبها أعداء الاسلام وخصومه • ففى كل شهر توزع العشرات منها •• وهى الأسلحة السامة التى يحاربون بها ديننا وقوميتنا ، وتؤذينا فى ديننا وحضارتنا •

ونعرض أيضا لأقوال عميد مستشرقى الروس « أغناطيوس كراتشوفسكى » صاحب كتاب « تاريخ الأدب الجغرافى عند العرب » الذى نشرته الادارة الثقافية لجامعة الدول العربية وترجمه عن الروسية الأستاذ السودانى الدكتور « صلاح الدين هاشم » . ونخص بالذكر الفصل الخاص « بالجغرافيا فى القرآن الكريم » والذى جاء فيه :

وكلام المستشرق الكبير عن القرآن ، مسبوق بحديث عن التصورات الجغرافية للعرب قبل الاسلام .. انتهى فيه الى أن ما فى « تراث الجاهلية من هذه التصورات هو من نوع المعلومات الجغرافية الموجودة لدى بدو الجاهلية ولكن وجدت الى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة • ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعا . ولا نقصد بهذا دولتى الغساسنة واللخميين . أو أنهما دخلتا فى « محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والايرانية ، ولم تخلفا مادة عربية يمكن أن تمس موضوع

تمس بموضوع دراستنا . أما فيما يتعلق بالمراكز الحضارية الكبرى فى بلاد العرب نفسها حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى . فانه يمكن الاعتمادا اعتمادا تاما على القرآن .

ومن هذه النقطة انطلق يتناول مافى القرآن الكريم من مادة جغرافية قائلا : ان المعلومات الأساسية منها التى كانت تحت تصرف « محمد » لم تكن غريبة على الوسط الذى عاش فيه • اعنى وسط الحياة الحضرية فى الحجاز ومن الجلى أن محمدا كان رجلا أميا وتكتسب هذه الحقيقة مغزى خطيرا . لأنها تسوقنا الى الافتراض بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد عن طريق السماع وهى تمثل نموذجا عاما لمستوى الثقافة العام في هذا المجال ••

وقد أعجبتنى مناقشة الدكتورة الفاضلة السيدة عائشة عبد الرحمن « بنت الشاطىء » لكتابه والتى نشرت فى عدد الجمعة الخاص لجريدة الاهرام الغراء (عدد ٢٨٥٨١ للسنة ٩١) .

قالت : ومن العبث العقيم أن نناقش أساس فكرته بالمنطق الدينى ، أو أن نلزمه بما نؤمن به من أن هذا القرآن من وحى السماء . وما محمد الا رسول قد أبلغ رسالة ربه • وانما نأخذه بالمنطق العلمى الذى يفرضه المنهج على كل من يتصدى للبحث التاريخى • سواء أكان متدينا أم ملحدا •

وأساس الخطأ فى فكرته • انه بدأ من نقطة لا مجال للتسليم بها • ثم مضى يرتب عليها نتائج فاسدة بفساد مقدماتها ، فما من عالم بتاريخ الأدب العربى يمكن أن يسلم له بأن تراث الجاهلية خاص بالبدو دون عرب المراكز الحضرية .

والشواهد التى نقل منها « كراتشكوفسكى » معارف العرب الجاهلية ولكن وجدت الى جانب هذا مراكز حضارية بلغت درجة أرفع من الحضارة . ويمكن أن تنشأ فيها تصورات جغرافية أوسع وأكثر تنوعا . ولا نقصد بهذا دولتى الغساسنة واللخميين . أو أنهما دخلتا فى « محيط حضارتين متقدمتين هما البيزنطية والايرانية ، ولم تخلفا مادة عربية يمكن أن

ربيعة • وفيها ذكر جبل أحد • ومواضع أخرى حول يثرب • وليست من البادية ••

كما أشار فى هذا المقام الى « الأعشى والنابغة » وليسا من شـعراء البدو • وأولهما طال تنقله فى المراكز الحضرية ورحلاته الى الحيرة والشام والفرس ، والآخر كان ملازما للنعمان بن المنذر فى بلاط اللخميين بالحيرة .

فالقـول بأن تراث الجاهليـة خـاص بالبـدو خطأ هان به عـلى « كراتشكوفسكى » أن يفسر ما بدا له من تفاوت واضح بين تراث الأدب الجاهلى وبين القرآن الكريم •

فكان هذا الربط الخاطىء بين ماضى القرآن وبين المعلومات الجغرافية للمراكز الحضرية وكان يكفى لرفض هذا الربط وضوح خطأ الأساس الذى بنى عليه • لكننا نلتفت هنا الى مافى زعمه بأن القرآن هو جماع تلك المعارف التى حصل عليها محمد بطريق السماع •• من فساد يكشفه ان تلك المعارف التى كانت تحت تصرف « محمد » — صلى الله عليه وسلم — كانت كذلك تحت تصرف كثير من شعراء العربية وخطبائها قبل المبعث وان ما وصل الى « محمد » عن طريق السماع • لم ينفرد به دون معاصريه من فحول الفن القولى • فلماذا جاء نموذجا فريدا ، لاشبيه له فيما بقى لنا من تراث العصر؟

« وكراتشكوفسكى » الذى يعترف بأن محمدا كان أميا • ليس بحيث يجهل أنه كان بين شعراء العرب فى عصر المبعث وقبله • عدد من غير الاميين ففيم اختصاص محمد بالسماع .. لمعارف المركزية الحضرية ، حيث اختلط بالسكان الأصليين عدد من اليهود والنصارى • وقد كان ضـياع القول من الاميين ، أولى باستيعاب المعارف الحضارية من ذلك الرجل الامى . الذى لم يعرف له التاريخ مشاركة فى أى فن من فنون القول قبل مبعثه فى الاربعين من عمره .

ويعرف المستشرق أيضـا أن من شـعراء الجاهلية من كانوا يهـود كالسموءل ونصارى كعدى بن زيد ، الذ ىعاش مابين فارس والحيرة. وكان يقوم بالترجمة بين كسرى والمناذرة • والمعارف التى كانت تحت تصرف محمد عن طريق السماع • كانت متاحة لهم بصفةأصيلة ومباشرة مما يبطل الاحتجاج

لتفرد القرآن بأن جماع تلك المعارف التى حصل عليها « محمد » بطريق السماع .

وسكت « كراتشكوفسكى » • عن « الحديث الشريف » فلم يشر اليه من قريب أو بعيد وقد كان بحيث يجوز اعتماده مرجعا لما سمع صاحبه من معارف حضارية لعصره ، أو ليس الحديث لمحمد ؟ ففيم اذن لم يجرؤ أحد ممن زعموا أن هذا القرآن جماع ما حصل عليه « محمد » من معارف بطريق السماع على ادعاء مماثلة الحديث للقرآن ؟

من هذه المقدمات التى وضح فسادها وبطل الاحتجاج بها لتفردالقرآن الكريم انتقل « كراتشكوفسكى » يستقصى ما فى كتابنا مما يتصل بالجغرافيا والفلك ولا مطعن لنا على دقته فى التتبع والاستقصاء . ولا جدال فى أنه باستقراء ذلك فى القرآن الكريم ، قد أدى خدمة جليلة لمؤرخى الحضارة الانسانية والمشتغلين بالدراسات الاسلامية والعربية ، لكنه جاوز هذا الاستقراء الى التعليق والشرح • فوقع فى اخطاء جوهرية • نحتكم فيها الى أصول المنهج ، حين يعز علينا أن نأخذ المستشرق الروسى بمنطق العقيدة وحكم الدين •

من تلك الاخطاء أنه فى محاولته الربط بين المادة الجغرافية فى القرآن وبين قديم المعارف الدينية وغيرها • كان يتجه بها عمدا الى الاستدلال على مقدماته الخاطئة • وقد تجاهل هنا أن القرآن الكريم صرح فى مواضع عدة بأنه مصدق لما بين يديه من الأديان السماوية السابقة •• وتجاهل معه أن هذا القرآن لم يأت بمفردات لم تعرفها العربية قبله • وان كان قد استعملها بملاحظة دقيقة فى الدلالة • لانعرف مثيلا لدقتها فى أى نص عربى آخر •

ومن ثم فلا مطعن على القرآن الكريم بما استعمل من مصطلحات جغرافية أو فلكية سابقة على عهد نزوله • ولا يجرحه أن يكون بعضها قد ورد فى التوراة أو الانجيل أو الفلك البابلى •

ومن أخطائه كذلك أنه يوجه النصوص القرآنية توجيها يعوزه فقه العربية وادراك أسرار البيان القرآنى • ثم يتخذ من هذا التوجيه الخاطىء • ما يستشهد به لمزاعم يأباها صريح لفظ النص وترفضها دلالة سياقه •

من ذلك مثلا قوله : بأن صورة السماء فى القرآن مادية بشكل واضح مستدلا على ذلك بأنه فى أكثر من موضع يردد الكلام ولو مجازا . بامكان سقوط قطع منها كسفا الآيات ٩/١٧ ، ٢٦/١٨٧ ، ٣٤/٩ ، ٥٢/٤٤ وانها قد شيدت بناء أو سقفا . الآية ٢/٢٠

ووضوح الاستعمال المجازى فى آية البقرة المستشهد بها « الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء » . وفى آية الطور « والسقف المرفوع » . وآية الأنبياء « وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » .

أقول : ان وضوح الاستعمال المجازى فيهما ينفى أن يراد بالسقف والبناء أصلهما المادى الحسى . ونحن نقول اليوم : بناء الأمة وبناء المستقبل . فلا يتصور من له أدنى حظ من حس العربية ، أن المقصود بالبناء هنا مفهومه المادى .

فكيف اذا قررنا أن القرآن الكريم فى محكم نظمه . يفرق بين صيغتى بنيان وبناء وهما مصدران للفعل بنى . فيخص البناء بالدلالة المعنوية ويطلق البنيان بدلالته العامة ! وقد جاءت صيغة بنيان فى الكتاب المحكم فى سبعة مواضع ، اما بصريح دلالتها المادية فى الآيات :

الصف (٤) — « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » . الصافات ٩ ، فى سياق قصة ابراهيم : « قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم . فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين » .

والكهف ٢١ — « اذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا » .

واما بطريق الاستعارة من البنيان المادى مع ترشيحها بشىء من خصائصها لفتا الى أصل استعماله الحسى فى آيات :

النحل ٢٦ : « قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » .

التوبة ١٠٩ : « أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لايهدى القوم

الظالمين . لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم » •

ولم يستعمل القرآن قط مع السماء صيغة بنيان التى تأتى فيه بدلالتها الحسية المادية • وانما يخص السماء وحدها بصيغة بناء التى لم يرداستعمالها فيما هو بنيان مادى محسوس • وذلك من عجيب الملاحظ البيانية فى دلالات الألفاظ القرآنية . التى لم يع المستشرق الروسى وأى مستشرق آخر لمحها وادراكها . فيتصور أن بناء السماء مستعمل بدلالته الأصلية على البنيان الحسى ، ثم يحكم بأن صورة السماء فى القرآن مادية بشكل واضح مستشهدا بآية البقرة وبآيات أربع (يرد الكلام فيها بامكان سقوط قطع من السماء : كسف) .

ونقرأ الآيات المستشهد بها على مادية السماء فى القرآن فلا نراها تقول بامكان سقوط كسف من السماء . الا أن يكون القول بذلك نذيرا لجاحد وآية لمعتبر . أو انكارا لضلال الكفار حين سألوا النبى — فيما سألوا — اسقاط السماء عليهم كسفا • برهانا على صدق نبوته » •

والنذير فى آية سبأ : « ان نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ان فى ذلك لآية لكل عبد منيب » •

ومجادلتهم للرسول فى آية الاسراء ٩٢ : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء • ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه • قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » •

ومن قبل قال قوم شعيب : « وما أنت الا بشر مثلنا وان نظنك لمن الكاذبين . فأسقط علينا كسفا من السماء ان كنت من الصادقين » .

(الشعراء ١٨٧)

والآية الرابعة المستشهد بها هى آية

الطور : « وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم »• بيانا لعتو الكفار وابطالا لحجتهم • فلو انهم رأوا السماء تسقط عليهم كسفا

كما اقترحوا ، لبلغ بهم عتوهم وجهلهم أن يغالطوا أنفسهم فيما رأوه عيانا وقالوا : هو سحاب تراكم بعضه على بعض وليس بكسف ساقط للعذاب . ولا شيء من هذه الآيات ، بشاهد على الصورة المادية للسماء فى القرآن ، وانما هى جميعا من سياق مخاصمة الكفار وبيان فحش عنادهم وعقم جدلهم .

ووهم « كراتشكوفسكى » كذلك فى لفظ « النسيء » فى القرآن . فقال : ويلوح أن الاختلاف بين السنتين القمرية والشمسية كان معروفا ، الأمر الذى يشير اليه معنى الشهر الكبيس فى لفظ النسيء ، وهو لفظ لم يتضح معناه تماما الى الآن .

ولا صلة على الاطلاق بين الشهر الكبيس • وبين النسيء الذى ورد فى القرآن الكريم مقصودا به ما اعتاد العرب فى الجاهلية أن يفعلوه كلما أرادوا قتالا فى الأشهر الحرم ، فينسأ ناسئوها هذه الحرمة بتأجيلها الى شهر أو شهور أخر . وذلك ما أبطله الاسلام بآية التوبة :

« انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله » .

ولفظ النسيء فيها ، من النسء بمعنى التأخير والتأجيل ، وهو واضح تماما لأصحاب العربية . والناسئون من العرب هم الذن كانوا يقومون بوظيفة النسيء .. ويقول شاعرهم مفاخرا :

ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

وكان المنتظر من مثل « كراتشكوفسكى » بعد أن صرح بأن لفظ النسيء لم يتضح معناه تماما الى الآن • ان يتوقف عن تفسيره تاركا الكلمة فيه لأصحاب العربية • ومعناه تام الوضوح لهم ولا صلة له بشهر كبيس أو غير كبيس .. انتهى تعليق الدكتورة بنت الشاطىء .

ولقد ظهر أخيرا كتاب « مجد الاسلام » ومؤلفه الأستاذ « جاستون فييت » ، يحاول فيه ايجاز تاريخنا الطويل فى نيف و٣٥٠ صفحة ، حاول فيها المؤلف أن يقدم « بانوراما » لتاريخ الاسلام ، والطريقة التى سار عليها طريقة معروفة اتبعها غيره فى تلخيص تواريخ غيرنا من الأمم . وهى عرض

التاريخ عن طريق صفحات مختارة من أقوال المؤرخين والكتاب المعاصرين لكل فترة من فترات هذا التاريخ اذا أمكن ، والمؤلف هنا فرنسي .. والفرنسي مهما بلغ علمه ، ومهما قيل عن تجرده لا يمكن أن ترضى نفسه بانصاف العرب والمسلمين بحال .. وهو رجل معروف لنا لأنه كان مديرا لمتحف الفن الاسلامى سنوات طويلة . وقد كتب تاريخا عاما لمصر الاسلامية مرتين ؛ ولقد عرض وعلق على كتابه هذا الدكتور « حسين مؤنس » بقوله : فهو اذن رجل كان من المنتظر أن يعرفنا جيدا ، وكنا نحسب أننا نعرفه جيدا .. ولكن كتابه هذا يدل على أننا كنا مخطئين فى الأمرين معا . فلا نحن عرفناه ولا هو عرفنا كما ينبغى أن يعرف الناس الناس .

ففى عرضه المجهد لتاريخنا فاتته أهم الحقائق التى سيرت هذا التاريخ .. استحوذت على اهتمامه حوادث السياسة والوقائع والحروب . فمضى يتابع قيام الدول وسقوطها . والحروب ووقائعها . فليس بين فصول كتابه فصل واحد عن انتشار الاسلام وكيف كان . وليس هناك سطر واحد عن لغة العرب . وكيف أصبحت لغة الملايين . ولا ذكر فى كتابه لنواحى حضارتنا كل ماهنالك هو أنه يقف فى نهاية الكتاب ليقول : ان حضارتنا ركدت بعد القرن الخامس عشر لأنها لم تقم على أساس حضارة اليونان .

وهذا أعجب ماسمعناه من مؤرخ . وهذا أغرب مايمكن أن يقوله عالم له هذه الخبرة بتاريخ المسلمين . ان صاحبنا يجرى فى تيار هذا الخيال الفرنسى الذى يعود الى حضارة الاغريق بكل شىء . والمؤرخون فى الدنيا كلها قد نزعوا عن ذلك الوهم الذى ساد الفكر الأوروبى الى الحرب العالمية الأولى لأن حضارة أوربا اليوم ليست استمرارا لحضارة الاغريق . ولو كانت استمرارا لها لكنا نقول اليوم بهذا الشطط الذى قاله أفلاطون فى الجمهورية داعيا الى جعل الحكم فى أيدى طائفة مختارة من الناس يتصاهرون فيمابينهم ويلدون أطفالهم بصورة جماعية ، ثم تربيهم الدولة محافظة على سلامة الجنس الممتاز .

وماذا أقول ؟ : ألا يعرف المؤلف أن أحدا من الشعوب لم يدرس « أرسطو » كما درسناه ؟ وان قوما لم يهتموا ببطليموس كما اهتممنا به ؟

ولكنى أعود فأقول ان المؤلف فرنسي ، والفرنسى لايفهم العربى أبدا .. هناك ستار من الحقد عند أصحابنا أبناء فرنسا يحول بينهم وبين أن يفهمونا ، حقد قديم يرجع الى الحروب الصليبية ، والفرنسيون يعتقدون أنها كانت حربا بين فرنسا والاسلام ، وحقد جديد بدأ سنة ١٨٣٠ م عند ما اعتدى الفرنسيون على الجزائر . حقد على عرب المغرب لأنهم لم يستسلموا لفرنسا ويقدموا بلادهم هدية لها . وحقد على عرب المشرق لأنهم لم يتركوا اخوانهم لها تفعل بهم ماتريد . وحقد لأن فرنسا لاتعرف كيف تخرج من المشكلة التى أوقعت نفسها فيها فى المغرب .

راحت الجمهورية الرابعة ، وستروح الجمهورية الخامسة .. هلك الألوف وضاعت الملايين .. حقد نحن ضحيته ، ونحن ناره التى تتقد . حقد يفسد كل مايكتبه الفرنسيون هنا . فلنر اذن كيف أفسد الحقد هذا الكتاب .. فالتشويه ، يبدأ ذلك من الفصل الأول عن محمد صلوات الله عليه ، وهو كغيره من المستشرقين الفرنسيين يردد نفس الأفكار التى حالت بين جمهور قرائهم ، وفهم صاحب الرسالة عليه السلام .

من هذه الأساطير مثلا : ان بنى أمية كانوا قبل الاسلام أغنى وأعز من بنى هاشم . مع أنهم يعرفون أن أعلى ذروة بلغها قرشى قبل محمد — صلى الله عليه وسلم — كان عبد المطلب ، وهو ابن هاشم وجد النبى المباشر ، وبنو عبد شمس بن عبد الدار كانوا أفقر وأضعف بكثير من بنى هاشم ابن عبد مناف .. وهو يعتمد فى حوادث السيرة على كتاب البدء والتاريخ للمقدسى ، والمقدسى من أهل القرن العاشر ، وهو يصور لقرائه أن القرآن الكريم كتاب غير منزل .. ونحن لانطالبه بأن يعتقد مانعتقد ، من الضرورى ألا يكتب عن الاسلام غير مسلم ، ولكن ايمان المسلمين بنبيهم وألوهية رسالته هو الأساس الذى يقوم عليه الكيان الاسلامى كله . لابد أن يقول المؤرخ لقرائه ذلك . ولا بد أن يعينهم على ادراك قوة هذا الايمان حتى يضعوا أيديهم على سر القوة فى تاريخ المسلمين . أما القاء الشك والسخرية فيترك القارىء وهو لايدرى كيف حقق المسلمون ذلك كله .

وعلى هذا فان محمدا الذى يصوره أولئك المستشرقون ليس محمدا رسول الله الذى نحن على دينه • انه رجل من صنع خيالهم وتصورهم •• واذا كان محمد — صلى الله عليه وسلم — هو عماد تاريخ الاسلام كله ، فان تاريخ الاسلام الذى يصوره أولئك المستشرقون ليس تاريخ الاسلام .

ولكن « فييت » يختم هذا الفصل من السيرة بعبارة « للطبرى » فى صفة الرسول — صلى الله عليه وسلم — صفته الجسمانية . أما صفته الروحية وشمائله الخلقية فيوجزها فى عبارة لا تخرج منها الا بأنه كان سياسيا ماهرا .. ويمر المؤلف مسرعا بأبى بكر وعمر دون أن يخطر بباله أن يفكر لحظة فى ملكات هذين العبقريين .

الفتوح الاسلامية فى نظره غزوات • ومعاهدات الصلح لا هدف لها الا الجزية •

ثم ينتقل الى بنى أمية •• والفرنسيون معجبون ببنى أمية ، وسر الاعجاب أن جدهم أبا سفيان كان عدو الرسول — صلى الله عليه وسلم — واقرأ اذا أردت ما كتبه عميدهم « هنرى لامانس » عن معاوية ويزيد وعبد الملك وبقية بنى مروان ونحن معجبون ببنى أمية . ولكن شتان بين الاعجابين فهم يعجبون بهم عن طريق الحقد ، ونحن معجبون بهم عن طريق الحب . يعجبنا حلم معاوية ورجولته وسياسته ، وتوحيده أمر المسلمين . وتعجبنا مرونة عبد الملك بن مروان وايمانه بها ، فهو الذى سار بالتعريب خطوات حاسمة الى الأمام .

ويعجبنا ايمان الوليد وسليمان وماتم على يديهما من فتوح ، وتعجبنا من بنى أمية جميعا الفحولة والأصولة والشهامة والعروبة .. ولكن ماذا يعجب الفرنسى فى بنى أمية ؟ يعجبهم أبو سفيان لأنه حارب الرسول — صلى الله عليه وسلم — ويعجبهم معاوية لأنه انتزع الخلافة من يد على ، ويعجبهم يزيد لأنه قتل الحسين وأمر جنده بمهاجمة مكة .. ويعجبهم تمثيل الحجاج بأهل العراق ويعجبهم خبث المغيرة بن شعبة .. وهذه هى معظم الصفحات المختارة من بنى أمية .

وينتقل الى بنى العباس .. فماذا يختار عن بنى العباس ؟ ..بناء بغداد (عن ابن واضح اليعقوبى) وهو يختار هـذه القطعة ليقول : ان الدولة الاسلامية خرجت من يد العرب ، وهو يصر على هذه الفكرة اصرارا غريبا .. كأنها وجدت من نفسه هوى .

ثم ينقل عن أبى يوسف القاضى نص رسالة ابن المقفع فى معاملة أهل الذمة .. ينقلها لكى يؤكد مايقوله غيره من المستشرقين من سوء حالهم فى ظلال الاسلام .

وهذه الرسالة مكذوبة وقد أثبتنا فى أبحاثنا أنها من مخترعات طوائف من الفرس الحاقدة على العرب والاسلام . ثم ينقل عن ابن خلدون فقرة قصيرة عن نشوء مذاهب التشريع الاسلامى .

وأى مؤرخ يعرف ما هو التاريخ ينبغى أن يقف طويلا أمام عبقريات مالك وأبى حنيفة والشافعى وابن حنبل . تلك التى وضعت تشريعات تروع النفس عاشت بها وفيها جماعات المسلمين جيلا بعد جيل .

وأين العبقرية التشريعية اليونانية من عبقريات مشرعى الاسلام ؟

وعندما يصل الكاتب الى هارون الرشيد لا يورد عنه الا قطعة من يوميات « اجنيار » مؤرخ شارلمان تصف سفارة الرشيد اليه .

وهذه السفارة على ما هو معروف أسطورة من الأساطير .. وما كان هارون الرشيد ليعنى بشارلمان هذا أو يرسل له سفارة وهدية .. ولكن المؤرخ الغربى يتمسك بها .. لأنها تقول ان الرشيد أرسل مفاتيح بيت المقدس للملك الفرنسى ! .. وهذا هو بيت القصد !. وليس فى تقاليدنا هذا الشىء الذى يعرف بمفاتيح المدن . ولا يمكن أن تتصور سببا معقولا يجعل الرشيد يفكر فى هذا .. ولكن ما حيلتنا انهم يشعرون بالسعادة اذ يرددون ذلك . وقطعة أخرى يذكرها عن الرشيد . نكبة البرامكة برواية المسعودى ..

وتلى ذلك حروب الأمين والمأمون .. انه يخصص لها ست صفحات . بينما خصص لرسول الله صلى الله عليه وسلم أربع عشرة صفحة .. وفى أثناء ذلك يقف طويلا ليتحدث عن انفصال الأندلس .. ولكى يتكلم عما يسميه استقلال

المغرب . وهو لا يسميه المغرب . وانما باسم يولع به الفرنسيون . وهو « لابربيرى » أى بلاد البربر .. وهذه التسمية فى ذاتها دسيسة . دسيسة تافهة ، لأن أهل المغرب عرب وهم يؤكدون للفرنسيين انهم عرب .

ولكن المستعمر الفرنسى خلال القرن الماضى تصور انه يستطيع أن يفصل المغرب عن الوطن العربى اذ أوهم أهله أنهم ليسوا عربا .

وقد فشلت الدسيسة . ولكن الوهم لا زال يعمر أذهان الفرنسيين . وهم سعداء جدا . فيما يبدو بذلك الوهم ..

وبدلا من أن يقف المؤلف طويلا عند قيام الدولة الأموية بالأندلس . ويدل قراءه على عبقرية عبد الرحمن الداخل .. لا يذكره الا فى سطور . ثم يسرع للتحدث عن بنى رستم الخارجين فى تاهرت (برواية الخارجى أبى زكريا) وعن الادارسة . بل عن بنى مدرار أصحاب سيجلماسة . ثم يقول بكل سعادة : وهكذا سيكون الشمال الافريقى كتلة ترفض الطاعة للخلافة المشرقية .

ثم يعود الى المشرق ليتحدث عن المأمون .. وماذا يقول عن المأمون .. ان دولته دولة فارسية لا أثر للعرب فيها ! وما دام قد انتهى الى أن المأمون غير عربى فهو لا يجد غضاضة فى أن يتحدث عن نهضة العلوم أيام المأمون .. فهى نهضة غير عربية ؟.. ويتبع ذلك بفقرة ينقلها عن « ميخائيل الصورى » يتحدث فيها عن مدرسة حران .

ثم يقف طويلا عند المعتزلة ، ومن عجب أنه ينقل كلامه عنهم عن المسعودى دون غيره من الأصول . وينتقل للحديث على المعتصم . والترك . ويتخير بالذات فقرات من رسالة « الجاحظ » فى فضلهم . ولم ترض نفسه قبل ذلك بايراد فقره — ولو نصف هذه — عن فضل العرب لأن العرب بالنسبة له ولأمثاله سم ينبغى أن يتحاشاه .

وهو يختار من تاريخ الأعصر العباسية ما يحس فى نفسه أنه يسىء الى العرب والاسلام يروى قصة مصرع الخليفة المتوكل (برواية الطبرى) .

ويقص تفاصيل فتنة الزنج فى جنوب العراق (برواية النويرى) .. ويطيل الحديث عن القرامطة برواية الطبرى .

ويأتى بنص خطاب أحمد القرمطى الى الخليفة المقتـدر وهو خطاب يصورهم فى صورة طلاب عدالة واصلاح !. ويتلذذ اذ يورد فقرة للمسعودى تصف سرقة القرامطة للحجر الأسود .

وهكذا تتوالى الصفحات والمختارات كلها ترمى الى تصويرنا كما يود أن يرانا العدو اللدود .

فهو يتحدث مثلا عن قيام دولة الفاطميين فى المغرب . فلا يجد ما يختاره الاقطعة طويلة لابن الأثير تصور ثورة أبى يزيد مخلد عليهم ، وهى ثورة كادت تقضى على دولتهم . وأبو يزيد هذا مشعوذ محتال .

وينتقل الى الأندلس ليتحدث عن « عبد الرحمن الناصر » ، فلا يجد من الصفحات الجميلة التى كتبها المؤرخون عن ذلك الخليفة المجيد . الذى كان أعظم حكام أوربا فى عصره . الا وثيقة اعلان نفسه خليفة .

ويعود مسرعا الى الشرق يتحدث عن الدول المنشقة ، تلك التى انتهت بالقضـاء على وحدة الدولة العباسية الصفاريين والسلمانيين والطاهريين والبهولهيين ، ويطيل الوقوف عندهم وينقل الصفحات بعـد الصفحات .. لماذا ؟ . لأنه يرى أنها دول فارسية .. وللفرنسيين من زمن بعيد دلال عليهم ، كما حاولوا فى المغرب فصل المغاربة عن العرب .. وكذلك فى أقصى المشرق . حاولوا ، ولا زالوا يحاولون الايقاع بين العرب وبين شعب فارس وصاحبنا هذا يكاد يرد كل شىء فى تاريخنا الى الفرس .. وهو اذ يطيل الحديث عن رجل مثل يعقوب بن الليث الصـغار يعود بين الحين والحين فيلقى نظرات سوداء على خلافة بغداد «المقتدر والراضى والمتقى .. الخ» والصفحة المشرقة الوحيدة التى يأتى بها هى التى تتحدث عن التجارة وكيف كان تجار المسلمين يقطعون الأرض بمتاجرهم من خرعانة الى غانة كما قال الحريرى على لسان صاحبه أبى زيد السروجى . وقد اعتمد فيما نقله على ابن خرداذبة وناصرى خسرو والبيرونى والادريسى وابن جبر ..

ويعود ليتحدث عن الفاطميين .. يقف طويلا عند خطاب الامان الذى أذاعه جوهر الصقلى عند دخوله القاهرة ثم يحكى قصة اختطاط القـاهرة برواية المقريزى ..

وهو معجب بالفاطميين. لأن مذهبهم لم يلق قبولا من جماعة المسلمين . انه ينقل الصفحات بعـد الصفحات عن ناصرى خسرو .. ويقف طويلا عند الخليفة الحاكم .. وينتقل الى السلاجقة فيمر بهم تمهيـدا للحملة الصليبية الأولى .. ويختم الفصل بعبارة « لوليم الصورى » يقول فيها ان الصليبيين عندما دخلوا بيت المقدس قتلوا من أهله ٦٥ ألفا ..

ويطول الحديث لو مضينا نستعرض المقتطفات حتى آخر الكتاب .. انه لا يقف به الا عند سليمان القانونى .

وعنوان كتابه هذا « مجد الاسلام من محمد الى فرنسوا الأول » .. ولا ندرى ما العـلاقة هنا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وهـذا الملك الفرنسى الذى يذكره التاريخ بهزيمته المشينة عند « مارينيافو » سنة ١٥١٥ م ولكنها بدعة جروا عليها هناك .. فالمؤرخ البلجيكى « هنرى بيرين » له كتاب مشهور عنوانه « محمد وشرلمان » .. وفى العام الماضى نشر راهب كندى كتابا عنوانه « محمد والقديس فرانسوا » ونحن لا يرضينا أن يذكر اسم نبينا على هذه الصورة لمجرد الحصول على أسماء جذابة لمؤلفات .

والمهم هنا أن جاستون فييت يقول فى آخر كتابه انه يقف بالكتاب عند أسماء باهرة كأسماء « البابا ليو العاشر . ومارتين لوثر . وهنرى الثامن وفرانسوا الأول وشارلمان وكالفين وسليمان القانونى » . وهم فى رأيه أعلام التاريخ العالمى فى القرن السادس عشر .

وهذا القرن يعتبر فى رأيه نهاية مجد المسلمين وأول مجد الأوروبيين .. فكل اسم ذكره يعنى فى حسابه نهضة شعب من شعوب أوربا أو قيام حركة اصلاحية كبرى فيها . وسليمان القانونى هو فى حسابه آخر العظماء من ملوك الاسلام .

وان العالم الاسلامى اتجه بعده الى الانحدار السريع .. وهنا ينبغى أن نقف ونفكر .. لأننا كأمة ناهضة وكأناس يأخذون الحياة مأخذ الجد لا يليق بنا اذا رأينا شيئا لا يعجبنا أن نلقيه بعيدا ونقول : كلام فارغ .. صحيح ان فيه كذبا وتضليلا — صحيح انه صادر عن حقد عميق . ولكنه ليس كلاما

فارغا ولا يخدمنا فى شىء أن نلقيه بعيدا . ونقول : كلام فارغ لأن هــذا الكلام الفارغ . هو الحديد والنار اللذان يحاربنا بهما أعداؤنا — والحديد والنار لا يقابلان الا بالحديد والنار .. وليس أمام العلماء الأفاضل الا العمل.. العمل حتى الموت .

فاذا كان هذا الذى كتبه فييت كلاما فارغا فليشمر باحثــونا الأفاضل عن سواعدهم وليكتبوا الشىء المليان .. ولنذكر العبارة المضحكة التى قالها « مراد بك » عندما سمع أن الفرنج نزلوا ساحل الاســكندرية .. قال : هؤلاء مثل حب الفستق . للكسر والأكل !! ثم تبين بعــد ذلك أنهم ليسوا فستقا ولا بندقا . وانما هم حرب ودمار .. وندم مراد بك على كلمته . وهو يجمع ملابسه ليجرى هاربا الى الصعيد بعد معركة الأهرام ..

لنعمل اذن . ففى أعناقنــا مسئولية عالم كبير . ودين قويم . والهموم على قدر الرجال . ورحم الله أبا الطيب حين قال : على قدر أهل العزم تأتى العزائم .. » انتهى تعليق الدكتور حسين مؤنس .

وهــذا مستشرق فرنسى آخر ذاق حلاوة الاسلام ، وهو من ضــمن المستشرقين المنصفين الذين هداهم الله الى الاسلام وآمنوا برسالته ودعوته «المستشرق الفونس ايتين دينيه» الفرنسى . وكان فنانا يتملكه شعور دينى . وامتزج فيه الفن بالدين فكان مثالاً واضحا للانسان الملهم .

وعلى مر الزمن أخذت تستبين فيه طبيعته الفنية . وأخذ يستولى عليه شعور بالقلق والحيرة من الناحية الدينية ..

ولكن ما العلاج لطبيعته الدينية القلقة ؟ ليس لذلك من علاج الا البحث والتأمل واطالة التفكير فى الكون .. وفى النصوص المقدسة ، وفى العقائد التى يدين بها الوسط المباشر والبيئة المحيطــة وفكر الفونس فى المسيحية . وفى الكنيسة . وفى البابا المعصوم . وفى عقيدة التثليث والصلب والفداء . المسيح ابن الله !! وقد صلب ليطهر بنى البشر من اللعنــة التى حلت بهم بسبب خطيئة آدم !! انه صلب ليفتدى البشر . ثم هو ابن الله . وهو الله . وهو بشر . وهو اله !! ويدور رأس الفونس فلا يكاد يرى بارقة من أمل فى

أن يهتدى الى الحق فى كل ذلك . وهل فى ذلك من حق ؟ وهل فى الظلمة من نور ..؟!

ومع ذلك فلم ييأس ، بل اعاد قراءة الأناجيل من جديد محاولا جهده أن يراها تتسم بسمة الحق .. فيؤمن بابن الله ، وبالكاثوليكية ، ولكنه رأى فيها ما يتنافى مع الصورة المثلى للانسان الكامل ، فضلا عن الصورة التى تريد المسيحية أن توحى بها .

فمن أقوال المسيح التى فيها حطة واحتقار لأمه العذراء ما صدر منه فى عرس « قانا » وفى اليوم الثالث كان عرس قانافى الجليل . وكانت أم يسوع هناك ودعا أيضا يسوع تلاميذه الى العرس . ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر . قال يسوع : مالى ومالك يا امرأة (انجيل يوحنا . الاصحاح الثانى عشر) .. هذا ما يقوله الانجيل فيما يتعلق بصلة المسيح بأمه .

أما القرآن فانه يقول : فأشارت اليه ، قالوا : كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟ قال : انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

ومن أقواله التى تحمل فى طياتها اللعنة على شجرة تين لم تحمل ثمرها لأنه لم يكن موسم تين فنظر شجرة تين من بعيد عليها ورق . وجاء لعله يجد فيها شيئا . فلما جاء اليها لم يجد شيئا الا ورقا لأنه لم يكن وقت التين . فأجاب يسوع وقال لها : لا يأكل أحد منك ثمرا بعد الى الأبد . وكان تلاميذه يسمعون (انجيل متى : ١٥) .

كذلك من أقواله الدالة على كره الغريب : واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمنى يا سيدنا يا ابن داوود . ابنتى مجنونة جدا . فلم يجبها بكلمة . فتقدم تلاميذه وطلبوا اليه قائلين : اصرفها لأنها تصيح وراءنا . فأجاب وقال : لم أرسل الى خراف بنى اسرائيل الضالة (انجيل لوقا : ١٤) .

ومن أقواله التى توجب كراهية الأقرباء : ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا .

ومن أقواله التى فيها اعتراف بالجهل . وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين فى السماء . ولا الابن ولا الأب (انجيل مرقص ١٣) .

هذه النصوص تبعث فى النفس الشك فى صحة الأناجيل التى بين أيدينا (عن كتاب : أشعة خاصة بنور الاسلام) .

وأداه ذلك البحث الى معرفة صحة الأناجيل وفى قيمتها من الناحية التاريخية وكانت نتيجة بحثه : انه لاشك أن الله قد أوحى الانجيل الى عيسى بلغته ولغة قومه . ولاشك أيضا أن هذا الانجيل قد ضاع واندثر . ولم يبق له أثر وانه باد . أو انه قد أبيد .. ولهذا قد جعلوا مكانه توليفات أربع . مشكوك فى صحتها وفى لبنتها التاريخية ، كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية ، وهى لغة لاتتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التى هى لغة سامية . لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود (أشعة خاصة بنور الاسلام) .

ورأى فى النهاية ، فى وضوح : ان الديانة الكاثوليكية لا تتحمل البحث والمناقشة . فقد أظهرت الأدلة العديدة ، سواء كانت أخلاقية أو تاريخية أو علمية أو لغوية ، أو بسيكولوجية أو دينية . ان الكاثوليكية ملأى بالأغلاط الواضحة .. ولم يمكنه أن يقول ما قاله القديس أوغسطين مما يعتبر شعار كل مسيحى : اننى أؤمن بذلك ، لأن ذلك غير معقول . وثار شعوره الدينى على أوضاع مبهمة ، وألفاظ غامضة ، ومشاكل لا تحل . وانتهى به المطاف بعد بحث وجدل ومناظرات وتأملات الى رفض المسيحية . وبلغت حيرته حينئذ أشدها ، ولكن اليأس لم يتطرق الى نفسه قط . واذا لم يجد الهداية فى المسيحية فليس معنى ذلك أنه لن يجدها مطلقا . ان الحقيقة عزيزة المنال . ولكنها موجودة والسبيل اليها البحث .

ورأى الفونس أن يتجه الى العقل : يستمد منه الهـداية الى الطريق المستقيم . ولكنه انتهى الى أن العقل عاجز فى ميدان ما وراء الطبيعة . وفى الواقع يسعى كثير من ذوى العقول المستنيرة بعد أن أفاقت من غفلتها . وبعد أن عرفت اخفاق مذهب استقلال العقل بالمعرفة لتعرف طريق الهداية . وان مذهب الحدس الذى يتهافتون عليه خلف حامل لوائه المسيو برجسون الشهير هو عبارة عن رد فعل واضح لمذهب استقلال العقل بالمعرفة ، أو هو — وهو الأصح — رد فعل لعجز هذا المذهب .

فقد جدد هذا المفكر فى قلوب الناس النهميين الى الايمان آمالا كان يظهر أنها ضـاعت ضياعا نهائيا . فهو يأذن لهم بأن يتأملوا فى خلود الروح ويقول لهم : ان الدنيا ليست مشتبكا عظيما لقوى عمياء . وان العقل ليس هو الطريقة الوحيدة للمعرفة (ناصر الدين محمد) ..

أخفقت المسيحية فى ارضاء ضميره الدينى . وأخفق العقل فى قيادته الى النور الام يتجه اذن ؟ وتلفت حوله ونظر ماذا فعل أمثـاله ممن شكوا فى المسيحية وشكوا فى العقل فرأى أن نفرا من النصارى فى مختلف الأقطار الأوربية دانوا بالاسلام فى الأعوام الأخيرة ، ويكثر عددهم على مر الأيام . وفى لندن وليفربول جماعات اسلامية ذات شأن حقيقى . منهم فريق من أعيان الانجليز (الشرق فى نظر الغرب تأليف ناصر الدين) ..

ورأى : ان الذين يعتنقون الاسلام فى وقتنا هذا من المسيحيين وغيرهم انما هم من الخاصة سواء كانوا فى الهيئات الاجتماعية الأوربية أو الأمريكية كما أن اخلاصهم فى ذلك لا شك فيه ، لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية (أشعة خاصة بنور الاسلام) ..

وتبين له : انه يوجد فى جميع أنحـاء أوربا وأمريكا من اعتنقـوا الاسلام . واذا كان هذا الأمر لا يزال قليل الأهمية اذا نظرنا الى قلة عدد المعتنقين . وان كان عددهم لا بأس به . فانه ذو أهمية كبرى . نظرا لمركز هؤلاء المعتنقين الذين ينتسبون الى الطبقات الراقية المتعلمة .

ونذكر منهم على سبيل المثال « اللورد هيدلى » الانجليزى . وصديقنا المأسوف عليه المرحوم « كرستيان شرفيس » أحد تلاميذ « اغست كومت »

وأديب من أدباء فرنسا المعدودين وفليسوف من فلاسفتها المشهورين (الحج الى بيت الله الحرام ، لناصر الدين) ..

ولكن ماالذى يدعو هؤلاء الى اعتناق الاسلام ؟ وماالميزات والخصائص التى تجعل الانسان يمنح الاسلام من الثقة ما لا يمنحه للمسيحية ؟ ووقع فى يده نسخة من مجلة انجليزية فاذا به يرى الجواب عما أخذ يعتمل فى ذهنه من أسئلة :

لماذا صار بعض الانكليز وغيرهم من الأوربيين مسلمين ؟

ذلك لأنهم أولا : كانوا يتلمسون عقيدة سهلة معقولة عملية فى جوهرها لأننا معاشر الانجليز تتبجح بأننا أكثر أهل الأرض تشبثا بالعمل .. عقيدة تكون ملائمة لأحوال جميع الشعوب وعاداتهم وأعمالهم . عقيدة دينية صحيحة يقف بها المخلوق أمام الخالق بدون أن يكون بينهما وسيط « شلدراك » . أحق هذا ؟ ان ناصر الدين لا يأخذ الأشياء قضية مسلمة . واذا كان العقل يعجز عن اختراق الحجب ليصل الى ما وراء الطبيعة فانه مع ذلك الأداة التى ترشدنا الى وجه الحق فيما يعرض لنا من أمور .

فأخذ يزن الأمور . وأخذ يبحث .. أحق أن الاسلام : عقيدة دينية صحيحة ..؟

وكان من التوفيق أن سافر « الفونس » اذ ذاك الى الجزائر . وتنقل فى بلاد المغرب فخالط المسلمين وعاشرهم . وسمع منهم . وسألهم وناقشهم . وفكر وتأمل فرأى كما يذكر فى رسالته (أشعة خاصة بنور الاسلام) .

ان العقيدة المحمدية لا تقف عقبة فى سبيل التفكير : فقد يكون المرء صحيح الاسلام وفى الوقت نفسه كثير البحث والتفكير .

وكما ان الاسلام قد صلح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس . فهو صالح كذلك لكل أنواع العقليات وجميع درجات المدنيات ، وان تعاليم المعتزلة ذات القرابة المستترة والصلة الخفية بتعاليم الصوفية تجد مكانا رحبا وقبولا حسنا ورضاء سهلا . وسواء عند العالم الأوربى ، أو عند الزنجى الافريقى وهو الذى يصعب على المرء تخليصه من معتقداته الخرافية ومن معبوداته واصنامه وبينما تجد الاسلام يهيج من نفس الرجل العملى فى اسواق لندن .

حيث مبدأ القوم . الوقت من ذهب . اذ هو يأخذ بلب ذلك الفيلسوف الرومانى .

وكما يتقبله عن رضا ذلك الشرقى ذو التأملات ورب الخيال . اذ يهواه ذلك الغربى الذى افناه الفن . وتملكه الشعر (عن اشعة خاصة بنور الاسلام للمؤلف — وترجمة الأستاذ راشد رستم) . لقد وقرت هذه الفكرة فى نفس الفونس حتى أنه ليرددها فى الكثير من كتبه فيما بعد .. يقول فى آخر كتبه « الحج الى بيت الله الحرام » : لو كان الاسلام الحقيقى معروفا فى أوربا لكان من المحتمل أن ينال أكثر من أى دين آخر . من العطف والتأييد من جراء روح التدين التى نجمت عن الحرب الكبرى ، فانه ، والحق يقال ، يلائم جميع ميول معتنقيه على اختلاف مشاربهم . فهو ببساطته المتناهية يهدى علماء أوربا وآسيا الى الطريق المستقيم ويجدون فيه تعزية وسلوى من غير أن يحول بينهم وبين حريتهم التامة فى آرائهم وأفكارهم .

كما أنه تعزية وهدى لزنوج السودان حيث ينتزعهم من أحضان أوهامهم الوثنية .. ويرقى بروح ذلك التاجر الانكليزى . رجل العمل الذى يعتبر الوقت من ذهب . كما يرقى بروح الفيلسوف المتدين . ويسمو بنفس الغربى الشغوف بالفن والشعر . بل هو يسحر لب الطبيب العصرى بما قرره من الوضوء المتكرر كل يوم ، وبما فى الصلاة من حركات منتظمة تقيل الجسم والروح معا ، وفى وسع حر الفكر — وهو ليس ملحدا حتما — أن يعتبر الوحى الاسلامى عملا من أعمال تلك القوة الخفية التى نسميها الالهام . وان يعتقد به من غير أية صعوبة كما أنه لا يحتوى على أسرار خفية لا يسيغها العقل . ويردد الفكرة نفسها فى كتابه عن حياة سيدنا محمد — لقد رسخت هذه الفكرة فى نفسه من أول وهلة واستمرت معه الى نهاية حياته . لقد وقر فى ذهنه أن الاسلام دين عام خالد ولكنه لأجل أن يتبين فى وضوح الفروق الجوهرية بين الاسلام والمسيحية ، ولأجل أن يصل الى الحد الاسمى فيما يتعلق بالاخلاص لضميره الدينى ، أخذ يوازن موازنة قيمة بين الاسلام والمسيحية فرأى :

١ — فيما يتعلق بالاله — الدين الاسلامى هو الدين الوحيد الذى لم يتخذ فيه الاله شكلا بشريا . أو ما الى ذلك من الأشكال . أما فى المسيحية فان لفظ « الله » تحيطها تلك الصورة الآدمية لرجل شيخ طاعن فى السن قد بانت عليه جميع دلائل الكبر والشيخوخة والانحلال .

فمن تجاعيد بالوجه غائرة . الى لحية بيضاء مرسلة تثير فى النفس ذكرى الموت والفناء ونسمع القوم يصيحون ليحيا الله فلا ترى للغرابة محلا . ولا تعجب لصيحتهم وهم ينظرون الى رمز الأبدية الدائمة وقد تمثل أمامهم شيخا هرما قد بلغ أرذل العمر .. فكيف لا يخشون عليه من الهلاك والفناء ؟ وكيف لا يطلبون له الحياة ؟!!

كذلك « ياهو » الذين يشلون به طهارة التوحيد اليهودى فهم يجعلونه فى مثل تلك المظاهر المتهالكة . وكذلك تراه فى متحف الفاتيكان . وفى نسخ الأناجيل المصورة القديمة .

أما الله فى دين الاسلام الذى حدث عنه القرآن . فلم يجرؤ مصور أو نحات ان تجرى به ريشته أو ينحته أزميله . ذلك لأن الله لم يخلق الخلق على صورته . وتعالى سبحانه فلم تكن له صورة . ولا حدود محصورة . وهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يكن له كفوا أحد .. وفيما يتعلق بالصلاة والنظافة : ان الحركات والاشارات فى الصلاة الاسلامية هى ذات بساطة ولطافة ونبالة لم يسبق لها مثيل من نوعها فى صلاة غيرها .

كما أنها لاتدعو الوجوه بالتظاهر والتكلف . ولا العيون بالشخوص الى السماء واستنزال الدموع الذى تذكرنا بالدموع الجليسرينية التى يصطنعها ممثلو السينما فى عصرنا الحاضر حقا ان الصورة الاسلامية خالية من تلك الأمور الشائنة التى خصها المسيحيون بالصلاة المسيحية . مما جعلها فى غير جمال ولا جلال ولا وقار . والأقوال والحركات التى فى الصلاة الاسلامية هى ذات دلالة على الرزانة والهدوء والاطمئنان . وهى خالية من مبالغات الورع وتكلفات الخضوع . والتظاهر بذلك ، مما هو غريب فى العبادات . لأن الله سبحانه وتعالى عليم بما فى الصدور وهو الغنى الحميد .

ثم ان من الأمور الغريبة . تخصيص وجود الاله فى السماء عند دعوته وهذه الحال تحمل فى طياتها الحادا ، اذ تجعل السماء منفى الاله ، وتنفى بذلك عنه صفة الوجود فى كل مكان وحركات الصــلاة الاسلامية . فوق تعبيرها التام عما تحمل نفوس المؤمنين من العاطفة النبيلة نحو المولى الكريم . تقوم للجسم باعظم مزايا الحركات الرياضية . فهى مفروضـــة الأداء خمس مرات فى اليوم الواحد . وكم من شيخ كبير . وبدين سمين يستطيع كلاهما السجود والركوع والوقوف دون كبير عناء ولا مشــقة . مما لا يستطيعه المسيحى فى مثل هذه السن . أو فى مثل هذا الحال ما لم يكن قد تريض على ذلك من قبل . أضف الى ذلك حكمة الوضوء الذى يسبق كل صلاة . ففيها للبدن انتعاش وصحة ونظافة . والنظافة من الايمان .

فى التسامح — يقول القس « ميشون » فى كتابه « سياحة دينية فى الشرق » : انه لمن المحزن أن يتلقى المسيحيون عن المسلمين روح التســامح وفضائل حسن المعاملة وهما أقدس قواعد الرحمة والاحسان عند الشعوب والأمم .

فى العلم — رفع النبى محمد نور العلم الى أعظم الدرجات . وأعلى المراتب . ومما قاله فضيلة الشيخ « الخضر حسين » شيخ الأزهر السابق :

نهض الاسلام بالعقول من وهدة الخمول . وأذن لها أن تبحث فى كل علم . وتذهب فى البحث كل مذهب . فوجدت الأمم من العرب وغير العرب فى هذه السماحة ما أثار نشاطهم للبحث فى كل ناحية من نواحى العلم . فلم يلبثوا ان جمعوا القرآن الكريم فى مصحف . ودونوا الحديث النبوى بعد ان كان محفوظا فى الصدور . وكتبـــوا فى تفسير القرآن . وشرح السنة النبوية . وحققوا النظر فى تقرير أصول الدين وأصول الفقه . وحرروا وجوه استنباط الأحكام العملية . ووضــــعوا ازاءها العلوم العربية . من النحو . والصرف . والبيان وفقه اللغة . ودرسوا العلوم النظرية المعربة عن الكتب اليونانية وغيرها . فأصبحت بلاد الاسلام . ولا ســيما عواصم الممالك . كبغداد وقرطبة . ومصر ودمشق . وتونس . موارد العلوم الاسلامية والأدبية والكونية .

ومن هذه الموارد استحدثت الأمم الأوربية معارفها وفنونها . وقد اعترف بهذا كثير من علماء أوربا المنصفين .

وجعل الرسول من أول واجبات المسلم .. العلم وفى ذلك يقول : اطلبوا العلم ولو بالصين . ويوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء ، وسرائر العلماء الذين يأتون الأمراء . وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء . وفضل العلم خير من فضل العبادة .

قال الأستاذ بريفوت الانجليزى فى كتابه « تكوين الانسانية » : فى القرن التاسع تعلم كثير من المسيحيين عند علماء الاسلام . وقال :

ان رئيس دير كلوتى يأسف على أنه رأى أثنـاء اقامته بالأندلس أن الطلبة من فرنسا وألمانيا وانكلترا يردون أفواجا الى المراكز العلمية العربية . وقال : فالعلم هبة عظيمة الشأن جاءت بها الحضـارة العربية على العالم الحاضر .

ولم يكن فضل الاسلام على أوربا من ناحية العلم فقط . بل كان له الفضل فى نهضتها المدنية قال الأستاذ بريفوت فى الكتاب المذكور : لم تكن ايطاليا مهدا لحياة أوربا الجديدة ، بل اسبانيا (الأندلس) لأن أوربا كانت بلغت أشد أعماق الجهل والفساد ظلمة . بينما العالم العربى . بغداد . القاهرة قرطبة وطليطلة — كان مركز الحضارة والنشاط العقلى . ومن ثم ظهرت الحياة الجديدة التى نست فى شكل ارتقاء انسانى جديد .

وخلاصة القول : ان دعوة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم قد أتت العالم بضروب خطيرة من الاصلاح لم تأت بها دعوة سبقتها أو تأخرت عنها . فما يوجد فى العالم من هداية صادقة أو علوم نافعة . أو مدنية فاضلة . فانما يرجع الفضل فيه لدعوة هذا الدين القويم ، فليرفع الفتى المسلم رأسه معتزا بدين رفع الانسانية من حضيض الجهل الى أوج العلم . وهداها سبل السعادة الباقية ، والمدنية المهذبة « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا ، وقال اننى من المسلمين » (من رسالة عن سيدنا محمد) .

وقد نظر المسيو « كازانوفا » أحد كبار أساتذة الكوليج دى فرانسى بباريس فى هذه الكلمات الغاليات وكيف يقولها أحد أصحاب الديانات . فعلق على ذلك بقوله :

يعتقد الكثيرون منا ان المسلمين لا يستطيعون تمثــل آرائنا وهضم أفكارنا .. يعتقدون ذلك وينسون ان نبى الاسلام هو القائل بأن فضل العلم خير من فضل العبــادة !! فأى رئيس دينى كبير . أو أى قس من القساوسة العظام كانت له الجرأة أن يقول مثل هذا القول القوى الفاصل المتين ؟ ! . هذا القول الذى هو نفسه عنوان حياتنا الفكرية الحاضرة .. نعم ان هذا هو مبدؤنا اليوم . ولكن أليس العهد بقريب يوم كانت الكافة عندنا من أهل العقول تنظر الى مثل هذا الشعار كأنه رمز العار ومجلبة الشنار ؟ ! كما أنه سوف يقال : أن أوضح مبادىء الحــرية الفكرية قد كشفت أمثال « لوثير » و « كالفين » وعاد الفضل فيها الى رجل عربى من رجال القرن السابع . ذلك هو صاحب شريعة الاسلام . (عن كتاب تعليم اللغة العربية . نقلا عن أشعة خاصة بنور الاسلام للمؤلف نفسه) .

فى الفروسية : ينظــر المسيحيون الى « سان لويس » كأنه النموذج الأعلى للثمرة المسيحية الناضجة ، غير أن الوثائق التاريخية تثبت فى وضوح وسهولة أن خصمه « صــلاح الدين الأيوبى » كان أرفع منــه قدرا فى الحضارة وفى الشجاعة وفى معاملة الخصوم .

فى العبقريات العلمية : ثم انهم يفخرون بالعالم « باستور » الفرنسى ويجعلونه درة فى تاج الحضارات الحديثــة . ولكن فاتهم ان « جابرا » والرازى . لا يقلان عنه فى مرتبــة العلماء والمفكرين . فهما المؤسســان الحقيقيان لعلم الكيمياء . بفضل ما كشفاه من طرق التقطير من الكحول ومن حمض النتريك وحمض الكبريتيك ، وغيرهما ، واستمر صاحبنا فى الموازنة والمقارنة والتأمل والتفكير واطال النقاش ثم أراد الله له الاسلام دينا فأسلم « اينــين دينيه » واختــار اسم « ناصر الدين » . وان هــذا الاختيــار لهو الذى يحدد اتجاهه بعــد ذلك ، خير تحــديد ، ناصر الدين : انه حقا خصص حياته لنصرة الدين الاسلامى ورأى أن نصرته انما تكون بـ :

ا) نصرته سياسيا .

ب) نصرته دينيا :

ولقد حصر « ناصر الدين » أعداء الاسلام فى عنصرين هما :

١ — رجال السياسة الاستعماريون .

٢ — رجال الدين المتعصبون .

ولابد — لتكون نصرة الاسلام كاملة — من أن يتوجه الدفاع نحو الهدفين وتطلع « ناصر الدين » نحو الغاية التى يريد أن يسعى اليها . فهاله الأمر . وكتب معبرا عن الواقع يقول :

ان أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا نحن المسلمين بالأباطيل ويحاربوننا بالمفتريات . واذا نحن شئنا ان نحصى أكاذيبهم علينا لوجدنا فيها صفحة هى أسود الصفحات خزيا فى سجل التعصب . يشترك فى تسويدها أعداء الاسلام قديمهم وحديثهم . سواء منهم العلماء والرواد والقساوسة . ورجال الحكومات . والكتاب . أمثال « بيرون . وبلجراف . وجلادستون . ومرجليوس وقسيس كانتربرى . والأب لامانس . والكاتب لوى برتران سرفيبيه » . وغيرهم . وغيرهم .

اما انتصار ناصر الدين للاسلام سياسيا : فكان يتحدث الى كل من يجد فيه روح الانصاف من الغربيين ذوى النفوذ . والعمل على اذاعة كل ما يمكنه اذاعته من آراء المنصفين منهم . ويثنى على قضية الشرق المظلوم ..

ومن أمثلة ما كان يذيعه مثلا . ما يلى : Eugène Young (1920)

نشر المسيو « أوجين يونج » وكيل حكومة التونكين الفرنسية سابقا كتابا عنوانه « استعباد الاسلام » الحرب الصليبية الجديدة

L'Islam sous le joug de la nouvelle Croisade

وهذا الكاتب معروف بانه من الكاثوليك المتمسكين بدينهم . ولكنه معروف كذلك بأنه فرنسى من خيرة الفرنسيين وقد أنكر فى كتابه هذا فى كبير شجاعة وصراحة تلك الحروب الصليبية الجديدة التى يقوم بها اليوم الفاتيكان . ذلك المركز الرئيسى المقدس حيث البابا الحبر الأعظم للمسيحية . وقد أظهر أنهم يقومون بذلك دون أن يفت فى عضدهم ملل أو كلل . أو

ينال منهم أى تهاون أو كسل . وانما يقومون به من وراء ستار المداهنة وفى ثوب من الرياء يشف عما تحته .

ومما جاء فى كتاب المسيو «يونج» قوله : اننا نهيىء من اليوم مقدمات حرب دينية شديدة الفزع والهول ثم أظهر ان مصالح فرنسا الحيوية انما هى فى التفاهم والاتفاق الودى مع الاسلام . وانا لنرجو ان يكون لكلام هذا الفرنسى الكبير صدى بعيد وأثر محمود فى مصلحة فرنسا والاسلام على السواء . ومن جهة أخرى ينشر ما يصحح فكرة الأوروبيين عن الشعوب الاسلامية . ويبين أنها شعوب بعيدة كل البعد عن الهمجية والتوحش وانها تمتاز بالوفاء وعرفان الجميل والكرم والشجاعة والفضائل المحمودة . ويبين ان ماضيها خير نبراس يرسل اشعته على الفكرة الخاطئة الموجودة عند الغربيين ، فيزيل ما غشى عليها من ظلمة .

ويلفت نظر الفرنسيين فى قوة الى ما أداه لهم المسلمون من اياد جليلة فى ميدان الحروب ضد أعداء فرنسا .

ومن ألذع توجيهاته للفرنسيين فى هذا الميدان أنه حينما ألف كتابه فى السيرة النبوية أهداه لأرواح الجنود الاسلامية التى استشهدت فى الحروب الكبرى وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين .

وانتصر ناصر الدين للاسلام علميا : فكان ميدانه النسيح . باعتباره دينا سماويا . لقد استمات فى الدفاع عن عقيدته التى يؤمن بها فى يقين حار مطمئن . ومما زاد من قيمة دفاعه هذه الموازنات الكثيرة الدقيقة بين الاسلام والمسيحية فى كثير من الأصول وفى كثير من الفروع . لقد درس الاسلام فى عمق ودرس المسيحية فى عمق . ورأى ان هجوم رجال الكنيسة لا يفتر . وتزيينهم بالباطل لكل ميزة للاسلام لا ينقطع فدافع واشتد فى دفاعه . وهاجم . وكان لابد من الهجوم . واشتد فى هجومه . وتوالت ضرباته للمسيحية ممثلة فى رجال الكنيسة . ولكنه كان يعلن دائما — كما هو الشأن فى كل مسلم — احترامه للمسيح : لأنه رسول الله . واحترامه للمسيحية الصحيحة التى يتحدث عنها القرآن . لا تلك التى ابتدعها رجال من بنى البشر . كان يعلن دائما أن دين الله واحد . وأن الاسلام أتى مصدقا لما

سبقه . مصححا لما ناله من تحريف . ومهيسنا عليه . وقد وعد الله بحفظ كتابه المقدس : « انا نحن نزلنـا الذكر وانا له لحافظون » . فالقرآن فى العصر الحاضر هو الكتاب السماوى الوحيد الذى لم ينله . ولن يناله — تحريف أو تبديل . كان يصحح الأخطاء . ويرد الهجوم . ويهاجم . ويوازن بين الاسلام والمسيحية . وكان قبل كل ذلك . وبعد كل ذلك يبين الاسلام ويوضحه ويشيد به .

وكانت وسيلته : تلك المقالات والمحاضرات والرسائل والكتب : فضلا عن الأحاديث الشفهية .. ومن كتبه فى ذلك (١) الرسالة القيمة « أشعة خاصة بنور الاسلام » وقد ترجمها ترجمة أدبية ممتازة الأستاذ راشد رستم — وهى رد على الفكرة التى يذيعها القساوسة : ان الاسلام لم يأت بجديد (٢) « الشرق كما يراه الغرب » .. وقد ترجمـه الأستاذ عمـر فاخورى ونشر بدمشق مع رسائل أخرى تحت عنوان « آراء غريبة فى مسائل شرقية » . (٣) ومن أهم كتبه ما جعله تاريخا لحياة الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو السيرة النبوية ، فى مجلد كبير جليل ، وضعه باللغة الفرنسية مع صديقه الجزائرى الحميم السيد الفاضل سليمان بن ابراهيم وزينه بالصور الملونة البديعة الكثيرة المتعددة من ريشته الخاصة . يمثل فيها المناظر الاسلامية فى بلاد الجزائر ومعالم الدين فيها . وطبعه طبعة غاية فى الاتقان والعناية . وقدمه لأرواح الجنود الاسلامية التى استشهدت فى الحرب الكبرى . وهى تحارب فى صفوف الفرنسيين . ولكن مما يؤسف له أن فرنسا جازت المسلمين على ذلك جزاء سنمار . ونحن قد رأينا ما عاناه أهل الجزائر وتونس من الدمار والخراب والضحايا من المجاهدين حتى نالت هذه البلاد استقلالها التام .

ونشره كذلك باللغة الانجليزية بنفس الحجم والاتقان . ويبلغ ثمن النسخة الواحدة من هذا الكتاب خمسة جنيهات مصرية . وانها لخدمة جليلة للاسلام والمسلمين ونبى الاسلام .. (٤) وآخر ما ألفه هو كتاب « الحج الى بيت الله الحـرام » . وقد ترجمت خاتمته . ونشرت فى مجلة جمعية الشبان المسلمين — بقلم الأستاذ م. توفيق أحمد .

ويقول الأستاذ راشد رستم بحق عن ناصر الدين : وانك لتجد الكاتب واسع الاطلاع . لذلك هو صحيح الحجة . ناهض البرهان . ثم هو شديد

الهجوم . شديد الدفاع . ذلك لأنه غيور على دينه الذى لم يتخذه الا بعد ان بحث وفكر . وهكذا كان فى عقيدته مكينا . وفى اسلامه كاملا وحينما ألف السيد « ناصر الدين » كتابه عن حياة سيدنا محمد . ثارت ثورة النقاد متجهة على الخصوص . الى الشكل . لا الجوهر . لقد زعموا ان الابحاث العلمية الحديثة قد وضحت جوانب من سيرة الرسول وان المستشرقين فى مختلف الأقطار قد كتبوا عن سيرة نبى الاسـلام كتابة تعتمد على الأبحاث العلمية الدقيقة . ورأوا ان الأستاذ ناصر الدين لم يعبأ بشىء من ذلك . وأخذوا عليه انه لم يقم وزنا لانتاج المستشرقين فى السيرة النبوية . وان اعتماده انما كان على السير القديمة . كسيرة ابن هشام وابن سعد .

والواقع أنه فعل ذلك . وفعله متعمدا . فقد كتب السيرة معتمدا على المنقول من الأخبار الاسلامية الصحيحة . ولكنه فعل ذلك بعد ان قرأ ما كتبه المستشرقون عن سيرة الرسول فوجد أنه لا يساوى شروى نقير .. لقد رأى أنه من المتعـذر ، ان لم يـكن من المستحيل ، أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئتهم ، ونزعاتهم المختلفة ، وانه لذلك قد بلغ تحريفهم لسيرة النبى والصحابة مبلغا شوه صورتهم الحقيقية ، من شدة التحريف فيها ، ورغم ما يزعمونه من اتباعهم لأساليب النقد البريئة ولقوانين البحث العلمى الجاد . فانا نلمس من خلال كتابتهم : محمدا يتحـدث بلهجة المانية اذا كان المؤلف المانيا . ومحمدا يتحـدث بلهجة ايطالية . اذا كان الكاتب ايطاليا . وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب . واذا بحثنا فى هذه السـير عن الصورة الصحيحة فانا لا نكاد نجد لها من أثر . ان المستشرقين يقدمون الينا صورا خيالية . هى أبعد ما تكون عن الحقيقة . انها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التـاريخية التى يؤلفها أمثال « ولتـر سكوت » و « اسكندر ديماس » ، وذلك لأن هـؤلاء يصورون أشخاصا من أبنـاء قـومهم . فليس عليهم الا ان يحسـبوا حسـاب اختـلاف الأزمنـة . أما المستشرقون فلم يمكنهم ان يلبسوا الصـورة الحقيقية لأشـخاص السيرة فصورهم حسب منطقهم الغربى . وخيالهم العصرى . وان الدكتور « منوك هيرغيرنجة » ليقول بحق فى نهاية نقده لكتاب المستشرق « جريم » : اننا نرى أن الأستاذ جريم . لو اقتصر على درس السيرة النبوية القديمة وبحثها

فى عمق لكان أفضل . وان الثمار التى كان يمكن ان يجنيها من مثل هذا الدرس لهى أجدر ببلوغ الغاية التى توخاها . ولكنه ظن ان هذا عمل ليست له أهمية كبيرة وأراد ان يطرف الناس بنبأ جديد . ففشل فى وضع السيرة النبوية التى حاول فيها ان يطبع محمدا بطابع الروح الاشتراكى . وفى جعل محمد اشتراكيا وفى أن تقود الاشتراكية نفسها محمدا لأن يضع الدين الذى أتى به ، ان الاشتراكية الاسلامية ، لا الاشتراكية الحديثة ، كما يتصورها « جريم » . ثمرة من ثمار الرسالة الاسلامية وليست الرسالة الاسلامية ثمرة الاشتراكية .

ولنضرب بعض الأمثلة للنتائج التى توصل اليها المستشرقون فى أبحاثهم التى يزعمونها علمية صحيحة . وينصرف بعضها ببعض لتنهار . ولو كانت علمية حقا لما اختلفت ولما تعارضت ولما كان مصيرها التلاشى .

١ ــ كيف كان خلق محمد ؟ . وما هو السر فى تأثيره العظيم على أبناء وطنه ؟ عن هذا السؤال يجيب « دوزى » : لعل رسول الله ــ كما كان يلقب نفسه ــ لم يكن أسمى من مواطنيه . ولكن من المؤكد أنه لم يكن يشبههم . كان صاحب خيال فى حين ان العرب مجردون عن الخيال . وكان ذا طبيعة دينية ولم يكن العرب كذلك (دوزى ــ مسلمو الأندلس جـ ١) ولا يرضى القس « لامانس » بهذا فيصرح متأثرا بحقده الجارف ضد الاسلام ويقول : كان محمد رغم معايبه (معاذ الله) يفتن البدوى الذى كان يرى ذاته فى شخص النبى العربى كما يدعوه القرآن . وفى هذا التفاعل أو فى هذه المطابقة التامة بين محمد وبيئته نجد أولا وقبل كل شىء السر فى هذا السلطان الضخم الذى كان لمحمد على مواطنيه (لامانس مهد الاسلام) .

٢ ــ السؤال الثانى : ماذا كانت ميول محمد قبل البعثة ؟ : يرى « دوزى » ان محمدا كان سوداوى المزاج يلتزم الصمت . ويميل الى التنزهات الطويلة فريدا . والى التأملات المستغرقة فى شعاب مكة الموحشة .

ويرد القس لامانس ضاربا بكل حقيقة عرض الحائط : كلا ليس هناك ما يثبت اعتكاف محمد وعزلته : فذلك لا يتفق مع نفرة محمد من الوحدة . وكراهيته المشهورة للنسك (لامانس ــ هل كان محمد صادقا) .

٣ — وسؤال ثالث : ما هى العوامل فى بعثة محمد ورسالته ؟ . انها نوبات الصرع كما يفترى « نلدكه » . وكيف تكون نوبات الصرع عاملا فى البعثة ؟ . سلوا عن ذلك « نلدكه » ولكن المستشرق « دوغويه » يعتقد ان هذا بعيد الاحتمال . ويعلل ذلك بان الحافظة فى المصروعين تكون معطلة على حين ان حافظة محمد كانت غاية فى الجودة كلما هبط عليه الوحى (دوغويه .. مباحث شرقية) .

ولا نكاد ننتهى من هدم « نوبات الصرع » حتى يؤكد « اسبرنفر » انها نوبات هيستريا اشتهرت باسم شــوتلاين (اســبرنفر — حياة محمد وعمله جـ ١) .

ولكن « سنوك هرغرنجه » يرى ان هذه الأسس التى يراد ان تقام عليها البعثة أسس واهية . ويقول : يجب أن نقر بأن قيمة محمد انما فى مايميزه عن سائر الهستيريين ويدلى المستشرق « جريم » بدلوه هو الآخر فيرى ان الآراء الاشتراكية لا الآراء الدينية هى التى قادت محمدا الى الرسالة .

اما مستنده فى ذلك . فهو تشديد محمد فى الزكاة التى يسميها جريم ضريبة . ولما كان القول بذلك فى مكة أسهل من التنفيــذ فقد حاول النبى فيما يرى « جريم » ان يؤثر على المكيين بتخويفهم من يوم الحساب . متخذا الاكراه الروحانى وسيلة للبذل والسخاء (جريم — محمد) ولكن « سنوك هرغرنجه) يرد على جريم ويرى أن رأى جريم واستشهادهفى كل ذلك غريب سواء نظرنا الى المنقول فى الســيرة . أو نظرنا الى ظروف البيئة العربية اذ ذاك . وينهار تحت قلم « سنوك » الرأى القائل بان الاسلام فى الأصل أقرب الى ان يكون اشتراكية نشأت عن بؤس ذلك الزمن وفقر بنيه من أن يكون دينا .

بيد ان « سنوك » يزعم . ولابد له من الزعم لأنه لابد له من التعليل — ان الباعث على رســالة « محمد » انما هو فزعه العظيم من يوم القيــامة والحساب . وتفكيره المتواصل فى مصيره . وفى الجنة والنار .

وارادة الاغــراب فى المستشرقين قوية جامحة . وقد بلغ القمة فى الاغراب المستشرق « مرجليوث » : لقد خطأ كل الآراء التى ذكرناها ، وأراد

أن يأتى ببدع من القول يتناسب مع القرن العشرين فرأى ان الباعث على بعثة الرسول انما هى أعمال الشعوذة . لقد عرف « محمد » خدع الحواه وحيل الروحانيين ومارسها فى دقة وفى لباقة . وقد كان يعقد فى دار الأرقم جلسات روحية . وكان المحيطون به يؤلفون جمعية سرية . تشـبه الماسونية ولهم اشارات تعارف مثل : السلام عليكم — وعلامات بنسيزون بها كارسال طرف العمامة بين الكتفين ، كتب المستشرق « مرجليوث » كتابا عن الرسول اتى فيه بكل غريب وبكل باطل . وظهرت كراهيته للاسلام من خلال هذا الكتاب ظهورا بشعا .

أرأيتم المدى الذى يصل اليه المستشرقون فى تخبطهم واضـطرابهم وتعصـبهم . وارادتهم الاغـراب . ان فيما مر ما يكفى لتصـوير حالة المستشرقين .. ومع ذلك فسنتحدث عن آرائهم فى مسألة رابعة محددة أبعد ما تكون عن الفروض والتخمينات .

والسؤال الأخير .. ما هى الأسباب فى مرض الرسول وموته ؟ .

يعتصر القسيس « لامانس » خياله حتى يخرج برأى يشفى شيئا من غليله ضد الاسلام . ضاربا بالمعقول . وبالتاريخ وبالحقيقة عرض الحائط . فيقول : كان لمحمد شهية قوية جـدا وقد كثفت جسمه الملذات وخـدرت أعضاءه فأصبح مهددا بداء السكتة .

وعلى الضد من ذلك تماما يرى المستشرق « بينيه سنغله » ، أن رؤى محمد كانت فى بعض الأحيان أثرا لضعفه الشديد من الجوع . ولقـد كان يسمع أثناء صومه ما يشبه مواء القطط أو أصوات الأرانب . ولقد مات بحمى هاذية استمرت يومين ،

ويعارض هذا وذاك المستشرق « كليمان هيار » فيرى أنه قد ظهرت على « محمد » أعراض التهاب رئوى فخارت قواه بسرعة عظيمة . وتوفى فى الثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١ هجرية (كليمان هيار — تاريخ العرب جـ ١) .

ومن قول المستشرق « ناصر الدين » : والقاعدة التى يجرى عليها المسلم فى علاقاته بأصحاب الديانات الأخرى — هى التى حددها القرآن فى الآية

التالية « لكم دينكم ولى دين » وكيف لا يكون المسلم متسامحا وهو يجل الأنبياء الذين يجهلهم اليهود والنصارى فموسى بالنسبة اليه كليم الله . وعيسى روح الله . يجب تبجيلهما كما يبجل محمد « حبيب الله » لا نفرق بين أحد من رسله .

ولن يجرؤ مسلم قط على التفوه بأقل بادرة فى حق عيسى . وكذلك لن يقبل ان يدع أحدا يتفوه بمثل هذا فى حضرته . حتى وان كان محدثه من هؤلاء المسيحيين الأصليين الذين يريدون ان يحصلوا من عيسى المسئول عن الأخطاء الكهنوتية وسب المسيح لا شك يعتبر سببا للاسلام الذى يأمر باحترامه .

ولنقارن الآن بين موقف الاجلال هذا الذى يقفه المسلمون من عيسى . وبين ما صنعه الأوروبيون من سيرة « محمد » .

ففى العصور الوسطى كان الرهبان يصورونه تارة فى صورة صنم بشع . وتارة فى صورة سكير مدمن .. الخ .

ولو أننا أردنا أن نثبت هنا كل ما تمخضت عنه قديما مخيلات أعداء « محمد » الخصبة لما انتهينا الى حد لم يكن المستشرقون الأول بأقل عنفا فى مهاجمته من هؤلاء .

والعالم « جانبيه » فى القرن الثامن عشر . يعيب على القس «مراكنى» والدكتور « بريدو » اسفافهما المتحيز ضد « محمد » ولكنه فيما بعد يسف أكثر من اسفافهما . ويصف محمدا بأبعد الأوصاف عن سيرته . ومع هذا فالعالم جانبيه يزعم أنه معتدل كل الاعتدال فى حكمه ومن زمن بعيد وأعداء الاسلام يلحقون الأذى بأصحاب محمد أيضا . وقد ألف بعضهم تلك الأسطورة الذائعة التى تقول بأن الخليفة عمر أحرق الأسكندرية . ولم يكن غرضهم من ذلك الا أن يجعلوا الناس تنسى العمل الوحشى الذى قام به الكاردينال كسيمنييس من احراق دور الكتب البديعة التى كانت للمسلمين بأسبانيا . وهم فى زعمهم هذا يبدون استخفافا لاحد له . بوقائع التاريخ . ذلك أن مكاتب الأسكندرية كانت قد خربت قبل مجىء الاسلام بقرون

متعددة . وأولى هذه المكاتب هى مكتبة البروخيوم التى كانت تحتوى على أربعمائة الف مجلد . وقد أحرقت أثناء الحرب التى نشبت بين قيصر والأسكندريين .. وثانى المكاتب هى مكتبة السرابيوم التى ضمت فى يوم من الأيام مائتى الف مجلد أوصى بهم لها أنطونيوس . وقد نهبت هذه المكتبة وخربت تماما فى عهد ثيودوزيوس .

وقد أخذت هذه الخرافات السخيفة تتلاشى فى أيامنا هذه ، وعلينا أن نفصل ما فيها من تعصب صريح على تلك الدسائس الخبيثة التى يريد بعض الكتاب الذين لم يتخلصوا بعد من طبائع القرون الوسطى المسيحية ، أن يذيعوها . تحت ستار من العلم الاستشراقى الظاهرى . فى حق رجل من الرجال الذين يشرف بهم أكثر من غيرهم تاريخ الانسانية نفسه .

وقد يسأل سائل : ألا ينتهى الأمر بالمسلمين . بعد أن تبنوا حضارة المسيحيين ، الى أن يتدينوا كذلك بالمسيحية . ويكفينا للاجابة عن هذا السؤال أن نورد رأى كاتب صريح فى اعترافه بالواقع رغم تمسكه الشديد بدينه . ذلك الكاتب هو « الكونت دى كاستر » الذى يقول فى مؤلف له ممتاز عن الاسلام : « الاسلام هو الدين الوحيد الذى لا يوجد عنه مرتدون ومن العسير . بل من المحال أن تتصور صورة دقيقة للحالة النفسية التى يكون عليها المسلم اذا ماحاول أحد المسيحيين أن يقنعه باعتناق المسيحية لعلنا نجد صورة مقاربة شيئا ما لهذا اذا ما تخيلنا احساسات وشعور رجل مسيحى مستنير . يحاول أحد الوثنيين أن يجتذبه الى اعتناق خرافاته المرذولة .

(الكونت هنرى دى كاستر — الاسلام) .

مما سبق تظهر لك آراء بعض المستشرقين الذين حادوا عن طريق الصواب والتحرى والاطلاع ولزموا التحيز والبعد عن الحقيقة ليشوهوا الدعوة المحمدية الناصعة كالنور الساطع الذى يبهر كل عين تحيد عنه الى الظلام وأن ما ذكرناه من اختلافهم وتخبطهم فى آرائهم انما هو قليل من كثير يهدم بعضه بعضا مما يدمغهم بالحقد على الاسلام وعلى رسول الاسلام وان الصرح الذى شيده بعض المستشرقين فى سيرة الرسول صلى الله عليه

وسلم انما هو صرح من الورق قد أقيم على شفا جرف هار . والسبب فى ذلك واضح ، ذلك أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغى أن يعتمدوا عليه فى السيرة النبوية وهو التجرد من الشهوة والهوى والعصبية والبعد عما أوحته اليهم الكنيسة من أباطيل عن الاسلام . وكل ما غرسته فى نفوسهم من ترهات خاصة بمؤسس الدين الاسلامى واذا لم يفعلوا ذلك فان مايكتبونه سيكون لامحالة وهما باطلا ، ويجب عليهم ثانيا أن يعتمدوا على الأخبار الصحيحة التى رواها المسلمون فى أول عهدهم بالتدين كسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد .. الخ .

وقال « رينان » فى كتابه حياة المسيح : حقا ان لسيرة محمد العربية مثل سيرة ابن هشام ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل (كتاب « رينان » — حياة المسيح ط ١٣ ص ٩) .

وهذا يكفينا ردا على المستشرقين الذين يبتعدون عن الصورة الواقعية التى رسمتها كتب السيرة القديمة .

واليك مستشرقان من الغربيين المنصفين الذين أقرا بسماحة الاسلام :

١ — قال الكونت « هنرى دى كاستر » :

ان المسلمين امتازوا بالمسالمة ، وحرية الأفكار فى المعاملات ومحاسنة المخالفين . وهــذا يحملنــا عــلى تصديق ما قاله « روبنسون » : أن شيعة « محمد » هم وحدهم الذين جمعوا بين المحاسنة ومحبة انتشار دينهم . وهذه المحبة التى دفعت العــرب فى طــريق الفتح فنشر القــرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة .. ولم يتركوا أثرا للعسف فى طريقهم الا ماكان لابد منه فى كل حرب وقتال . ولم يقتلوا أمة أبت الاسلام (الاسلام خواطر وسوانح) .

٢ — وقال جوستاف لوبون :

ان القوة لم تكن عاملا فى نشر القرآن . وان العرب تركوا المغلوبين أحرارا فى أديانهم . فاذا كان بعض النصارى قد أسلموا . واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما كان يتصف به العرب الغالبون من ضروب العدل الذى لم

يكن للناس بمثله عهد . ولما كان عليه الاسلام من السهولة التى لم تعرفها الأديان الأخرى .. وقد عاملوا أهل ســورية ومصر وأســبانية . وكل قطر استولوا عليه بلطف عظيم . تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم . غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى مقابل حمايتهم لهم . وحفظ الامن بينهم والحق .. أن الأمم لم تعرف فاتحين رحماء متسامحين مثل العرب (حضارة العرب — جوستاف لوبون — ١٤٥) .

الفصل الخامس
الحجر الأسود

لقد تصدى كثير من الباحثين الأوربيين للاسلام بالبسط والشرح والتحليل والتوجيه والاستنباط . ولكن عددا غير يسير من أولئك الباحثين قد أذعنوا لعاطفة التعصب ، فقادتهم أهواء التحيز الى طرق ملتوية ، مليئة بالأشواك ، يزيد بعدها عن العدالة والنزاهة بقدر ما يمعن أولئك العلماء فى الخضوع لغاياتهم الخاصة ومنافعهم الفردية .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للاسلام تحدق بهم النزاهة . ويحف بهم نبل المقصد ويحدوهم الأمل فى الوصول الى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم .. ولكنهم انزلقوا الى حضيض الهفوات . وهووا فى سحيق الكبوات رغم نقاء نياتهم وسمو غاياتهم . وسر ذلك الاخفاق اما أن يكون هو الجهل بروح اللغة العربية . والقصور عن ادراك مراميها . واما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل المضللات .

ومن علماء الفريق الأخير الذى ثبت حسن نيته بعد أن درس العلماء المسلمون منتجاته وتعقبوا أفكاره وآراءه . الأستاذ « دينيس سورا » الأستاذ فى جامعة لندن فانه ينظر الى الاسلام بالعين التى ينظر بها الى المسيحية والاسرائيلية . وانه يستعمل فى حديثه عن القرآن العبارات نفسها والصيغ عينها التى يتحدث بها عن الأنجيل والتوراة . والأستاذ ينظر الى الاسلام فى كتابه « تاريخ الأديان » الذى نشر فى عام ١٩٣٣ م . نظرة واقعية وانه أثبت الموجودات .. وهذا مما يجعله عالما تجريبيا محايدا . لا يروقه من الأديان الا ما تشتمل عليه من مبادىء خلقية نافعة ، أو قواعد اجتماعية مفيدة للانسانية . والاسلام أكثر الأديان اشتمالا على هذه المبادىء

القوية وتلك الأسس المتينة .. ويبدأ حديثه عن الاسلام بقوله : ان محمدا يكاد يكون هو الوحيد الذى نعرفه عن طريق التاريخ من بين عظماء مؤسسى الأديان ، اذ أن الخرافات لم تستطع أن تخيفـه ، وان دين مواطنيه ، ابان ظهوره كان قد هوى الى أدنى الدركات ، أو قل انه كان لميما من بقايا عقائد بدائية . قد تفككت عندما ارتقت الحياة الاجتماعية فى الأمم التى كانت تدين بها . ولم يبق فيها راكد سوى الدين .

ولا غرو فقد كان العرب يعبدون الجن والأرواح التى تقطن الأحجار . الى جانب عدد من آلهة القبائل المختلفة . ولقد محا الاسلام هذا كله . ولم يبق منه سوى الحجر الأسود . فقد ظل موطن القداسة الجوهرية . اذ وضعه محمد تحت حماية الخليل ابراهيم . ومن الممكن أن تكون هذه سياسة قصد بها التوفيق . كما يمكن أن يكون ذلك ناشئا عن احترام شخصى .

ولا شك أن للباحث العذر اذ أن عددا ضخما من الاعتراضات قد وجه الى هذه الشعيرة . منذ وفاة الرسول الى اليوم . « فأبو العلاء المعرى » وصفها بأنها بقية أوثان وانصاب وغيره نعتها بأنها أحد تقاليد قريش الأثرية المتفق عليها من الجميع اتفاقا منحها من المتانة والقوة قدرا لم يجرؤ معه النبى على محوها ، وزعم فريق ثالث أن النبى قد احتفظ بهذا الحجر وأمر بتعظيمه تخليدا لذكرى ابراهيم . وادعى فريق رابع أنه تصوير لهبوط آدم من الجنة ورأى خامس أنه أحد أحجار الفردوس . وهـوى لأمر ما فى هذا المكان . وكان يوم هويه لؤلؤة بيضـاء وقد أمر الناس منـذ آدم أو عهد ابراهيم أن يمسـوه لتنتقل اليه خطاياهم وآثامهم . وهـذه الآثام هى التى صيرته على مر الزمن أسـود . ولما كان واسـطة فى تطهـرنا من آثامنا وحملها عنا . فقد أمر النبى بتقبيله اشارة الى عرفان الجميل .

ونحن لا نستطيع أن نؤمن برأى من هذه الآراء . لأننا لانجد بينها ما يرضى الشك . ولا ما يقنـع اليقين . ولما كنا نعلم أن الاسـلام ليس دين مظاهـر خارجية فحسب . وان كل جانب من جـوانبه المتعددة مشتمل على رموز لا تحصى . وأسرار لا تندرج تحت العـد . لأنها صـادرة عن الذى لايتناهى . لما كنـا مؤمنين بهـذا أتم الايمان وأصـدقه . فاننا نسـتطيع

آن نجزم بأن هذا الحجر الأسود رمز لسر الهى . علم النبى صلى الله عليه وسلم أنه يدق عن عقول الكافة من المسلمين فى ذلك الحين . فاقتضت الحكمة ألا يكشف لهم عنه ، كما اقتضت الحكمة الالهية ، ألا تكشف لهم أسرار الروح حين سألوا عنها اذ أجابهم القرآن عن سؤالهم بقوله : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

ولقد عالج الأستاذ « بيير بونسواى » فى كتابه « الاسلام والجرال » عالج فيه طائفة من الرموز الموجودة فى أسرار الدينين الاسلامى والمسيحى . وأشار الى رمز الحجر الأسود بالذات وأسند القدح المعلى فى ميدان الرمز الى الاسلام وحده . وشهد له بالقيادة والارشاد . واليك اجمال هذه الفكرة :

الجرال : هو شىء مادى يرمز الى سر خطير مقدس . وهذا الشىء المادى هو عند فريق من الباحثين الرمزيين . حجر نفيس نزل من السماء الى الأرض بواسطة الملائكة . وهذا المعنى هو الذى سيعنينا هنا من الحيثية الاسلامية التى يعرض لها ذلك الفريق ، ففى أواخر القرن الثانى عشر ظهرت بغتةفىأوربا بثلاث أقاصيص تعالج موضوعا واحدا ، وهو التنقيب عن الجرال المقدس . وتحدثنا هذه الأقاصيص ان ذلك الجرال مودع بطريقة غامضة فى قصر سرى فى مشاهق جبل يحرسه عدد من الفرسان توافرت فيهم الفضيلة .

ولقد اتفق مؤلفو هذه الأقاصيص الثلاث على أنهم ليسوا سوى مؤولين أنباء لرواية مأثورة . ظلت الى ذلك الحين شفوية . وهى راجعة الى أصل سماوى . ومنذ ذلك العهد ظل لغز الجرال يكتنفه شىء من الغموض يتفاوت كثرة وقلة . ولم يتضح قط تمام الاتضاح . ومما لاريب فيه آن المعنى الرمزى لهذا الجرال محقق . ولكن الافتراضات كثيرة . فعند البعض أن هذا الجرال رمز للغوث الالهى وعند الآخرين هو رمز لنهج صوفى معين .

ويذكر لنا الأستاذ « بونسواى » مؤلف الكتاب . تأويلا جديدا . مؤسسا على معارف قيمة اقتبسها من مؤلفات المغفور له الأستاذ « رينيه جينون » أو الشيخ « عبد الواحد يحيى » الذى أسلم وحسن اسلامه وكتب عن الاسلام صفحات خالدة مفعمة بالجلال .. ومن المنابع التى انتهل منها

مؤلفنا فى هذا التأويل أيضا .. كتب الشيخ الأكبر « محيى الدين بن عربى » « وابن مسرة » و « الجيلى » .

ومن دواعى الانتباه هنا أن مؤلفنا يعنى على الأخص بالأقصوصة الثالثة التى كتبها المؤلف الالمانى « فولفرام ايشانباك » لانها أكمل الأقاصيص الثلاث ، وأكثرها اشتمالا على العناصر الاسلامية والتى تمت الى الاسلام بصلة وثيقة . والتى يبدو أن مؤلفى الأقصوصتين الأخريين قد أخفياها قصدا .. لا سيما وأن فولفرام يتهم علنا أحد سالفيه بأنه أتلف الأقصوصة أو شوهها على أقل تقدير .

ويرى الأستاذ « بيير بونسواى » ان الجرال هو رمز للوجود الالهى على الأرض . وأن البحث عن سر ذلك الجرال . هو طريق صوفى للوصول الى كنه الحياة الكونية . وأن الظفر به هو الشهود الالهى . ويستنتج ان منبع هذه الأقصوصة ليس مسيحيا . وانما هو يرى انها بعث عربى للتيار الكونى الفطرى الذى اختفى أصله فى غياهب الزمن . وعز مناله على الذاكرة البشرية وانه يتعلق بالسر الجوهرى لكل وعى حقيقى . أى سر معرفة الاله والمساهمة فى العرفان السماوى وما لا سبيل الى الشك فيه اليوم : أنه كان فى العصور الوسيطة وئام روحى . وتعاليم خفية بين الصفوة الاسلامية والمسيحية واليهودية . وان الاسلام قد قام فى أثناء عدة قرون فى هذا الوئام بدور الملهم والمرشد .. وان تلك الصفوة على اختلاف أديانها فى الظاهر . كانت مقتنعة برسالة الاسلام فى هذا المضمار : « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله » .

ولقد كانت هذه الصفوة تنظر الى الاسلام على أنه جماع النبوة العالمية وانه هو النبوة التشريعية الأخيرة التى ستسود قبل نهاية الزمن . وان النبى محمدا هو خاتم النبيين وانه تلقى من السماء جوامع الكلم . ومن ثم فان الاسلام يشتمل على وسائل روحية لانواع من التجاوب الخاص . مع الصور الفطرية الأخرى التى تدخل مع مؤسسيها « كموسى وعيسى » فى نظام

اسلامی کلی رفیع من أنظمة الكون . ومن ثم أيضا كان الاسلام هو الوسيط الكونی .

وعند مؤلفنا أن الذی يبدو جليا من نصوص « فولفرام » الألمانی هو أن الاسلام كان فی وقت محدد هو المختار للرسالة والمعين من قبل الممثلين العالميين بالحكمة والفطرة الكونية لكی يتولی مع المسيحية واليهودية . مهمة اعادة التشييد الروحی الذی يبدو أن أحد مظاهره الأساسية هو اعادة تثبيت رابط واضح متين بين الغرب والشرق الذی هو المركز الروحی للعالم . هذا هو المعنی المختبیء فی أقصوصة الجرال . ومجمله أن الاسلام هـو الذی قدم الی المسيحية معونة خفية سمحت للجرال . الذی هو رمز الوجود الالهی المختبیء فی قلب كل فطرة حقيقية . بان يتفتح فی الغرب علی صورة جلية ردحا من الزمن لعله يهتدی .

ونقـرر أن المؤلف لا يسـتغل اثبـات سمو الاسلام . مبادئه الظاهرية التی يعرفها جمهور المسلمين وانما هو يستغل التعاليم الاسلامية الخفية التی تمثل فطريته وامتيازه وتفوقه وصـلاحيته لكل زمان ومكان أدق تمثيل . والتی يقتبسها مؤلفنا من عظماء صوفية الاسلام ، ولا سيما الشيخ الأكبر « محيی الدين بن عربی » .

ومما يدحض أقوال هـؤلاء الملحـدين الذين يتطاولون علی الدين . ويقولون ان استلام الحجر الأسود وثنية . ويرفضون كل الآثار الواردة فيه تلك الندوة التی أقيمت بدار لواء الاسلام فی ١٧ فبراير ١٩٥٩ عن « الحجر الأسود » ونحن نثبت هنا ما قيل فی هذه الندوة ، ذاكرين آراء بعض كبار علماء المسلمين فی هذا الموضوع .. عسانا نستطيع اقتلاع ذلك الجحود من قلوب أعداء الدين ، ونقنعهم الاقناع العلمی الذی به يوقنون ، ولعـل الله يهديهم الی الصراط المستقيم .. ويرشدهم الی الصواب .

قال سماحة أمين الحسينی مفتی فلسطين : القول بأن استلام الحجر الأسود وتقبيله وثنية ، غير صحيح البتة .. فقد ثبت أن الرسول صلی الله عليه وسلم قبله ، كما قبله بعد ذلك سيدنا « أبو بكر وعمر » وغيرهم من الصحابة رضوان الله عليهم . ويروی عن « زيد بن أسلم » عن أبيه انه قال :

رأيت « عمر بن الخطاب ، يقبل الحجر ويقول : اللهم انى أعلم أنك لا تضر ولا تنفع ولولا انى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك » .

قال الطبرى : انما قال عمر ذلك مع أنه معلوم بالضرورة أن الحجر لايضر ولا ينفع . ليعلم الناس وكانوا حديثى عهد بالجاهلية .. والحجر الأسود جزء من الكعبة المشرفة التى بناها سيدنا ابراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام . وحين أراد سيدنا ابراهيم أن يجعل مبدءا للمطاف وضع الحجر الأسود فى مكانه من ذلك الركن . ليسهل على الطائفين بدء الطواف بمجرد النظر اليه . لئلا يضطرب الطائفون فى الأركان فليس الحجر الاسود من آثار المشركين كما يدعى بعض الذين يشككون فى هذا الأمر . بل هو من آثار ابراهيم عليه السلام . ومن الحجارة التى وضعها فى الكعبة . لأن الكعبة المشرفة جدد بناؤها مرارا قبل الاسلام وبعده فالحجر الأسود بهذا يذكرنا بالنشأة الأولى للاسلام والتوحيد . وجاء فى عدة مواضع من القرآن ذكر خاص لسيدنا ابراهيم . وكذلك فى الحديث الشريف . ففى يوم عرفة فى الحج قال النبى صلى الله عليه وسلم : قفوا على مشاعركم فانكم على آثار « ابراهيم » فلا يمكن أن يفسر تقبيل الحجر الأسود بأنه وثنية لأن الوثنية معناها عبادة الوثن . وليس هناك مسلم حين يستلم الحجر الأسود أو يقبله أو يشير اليه أنه يفكر فيه تفكير العبادة .

واذا قبل الانسان يد والده أو يد أستاذه ، فليس معنى هذا أنه يعبدهما . بل التقبيل معناه الاحترام والاجلال . فقول القائل بأن تقبيل الحجر الأسود واستلامه من الوثنية لا يقوم على أساس ، وليس له أية قيمة .

ومما قاله العالم المحقق الأستاذ مصطفى الزرقا : أنا اتساءل : هل يريد قائل هذا القول أن يخرج بأن الآثار الواردة مهما بلغت من الصحة والثبوت فى نظره مشكوك فيها ومتواطأ على وضعها ، وانه برغم تسليمه بثبوت هذه الآثار فى أمر الحجر الأسود يرفضها ولا يتقبلها لأن عقله يأباها ؟ . سوف أعالج الأمر على كلا الاحتمالين .. وأنا أعالجه معالجة الرجل المؤمن المسلم قبل كل شىء . لأننا اذا أردنا أن نترك الايمان كأساس للبحث عندئذ لا نستطيع أن نصل الى نتيجة مع الجاحدين والمكابرين لأنك تصل معهم الى

أن يقولوا : أين الله ؟. امسكنى اياه . ولن تستطيع أن تمسكهم اياه بيديك لذلك أعتقد أن البحث المجدى فى هذا الموضوع هو الذى يبنى على أساس الايمان وبعد أن نكون مؤمنين نتحرى ثبوت الأخبار . فما ثبت منها قبلناه . وان لم نفهم حكمته لأننا مع الايمان يجب أن نفرض أن هنـــاك حكمة وراء معيشتنا . وان لم تظهر لنا وأمثلة ذلك كثيرة مما كان خفى الـــحكمة دهورا طويلة . ثم ظهرت حكمته لمناسبة من المناسبات أو لاكتشاف علمى .

ومن أساس ايماننا أن نسلم بما يثبت عن الرسول عليه الصلاة والسلام كما نسلم بما يوجبه القرآن الكريم ، فأخبار الحجر الأسود ، ان كان هذا القائل يرى أنها موضوعة . فمعناه أنه يسلم بأنها لو كانت ثابتة لأخذ بها : فلنبحث فى ثبوتها . أنا لا أستطيع أن أجد أى نقص فى الأخبار الثابتة حول الحجر الأسود عما يقول عنه العلماء أنه تواتر . لأن جميع شرائط التواتر التى يتطلبها العلماء فيها متوافرة والتواتر يوجب القطع عقلا بثبوت الخبر متى توافرت شرائطه . لأنه من المقرر أن التواتر يوجب العلم عقلا . لاتسليما وتصديقا مبنيا على الثقة بالناقل . لا .. بل لأنه خبر يرويه جماعة بلغوا من الكثرة . دون نظـــر الى كـــونهم ثقات أو غير ثقات . مبلغا يستحيل عقلا أن يتواطئوا معه على الكذب . كالأخبار التى نسمعها عن كثير من البلدان التى لم نرها .

فحكم التواتر اذا لم يكن متـــوافرا فى اجمـــاع الأمة بالنقل من عهد الرسول عليه الصلاة والسلام الى الآن فما هو التواتر اذن ؟ واذا كانت أخبار الحجر الأسود لا تعتبر متواترة . فما الذى يمنع مثل هذا القائل غدا أن يقول ان صلاة الظهر ليست أربع ركعات مثلا . وان صلاة الصبح ليست ركعتين أو أن الصلوات ليست خمسا لأن القرآن لم يقل بعددها. اذ التحديد بالخمسة سنده السنة !!

فاذن التطرق الى زعم أن الأخبار موضوعة هو أســـلوب من أساليب الهدامين للاسلام . الذين يريدون أن يشككوا الأمة . عن طريق اثارة شبهات قد تحدث فى نفوس غير أهل العلم والرسوخ شيئا من الشكوك فى دينهم .

وأما اذا أراد قائل أن يقول : انه برغم ثبوتها لا يأخذ بها . لأن عقله يأباها . فاعتقــد أن هذا عنــدئذ هو العنوان البــارز لعدم الايمان . لأننا لانستطيع أن نفترض أن شخصا يؤمن بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من القرآن . ولا يقبل ما هو معلوم من الدين بالضرورة وبالنقل الثابت عن الله تعالى ورسوله ويرفضه لأن عقله لم يتقبله . وعندئذ لايجب أن ننتقل من البحث على أساس الايمان . الى البحث مع الجاحدين على أساس اننا نريد أن نقنعهم بأمور فرعية لا يسلمون بأساسها . وأن نقنعهم بحكمة أمر من أوامر الاسلام على أنها أوامر الهية .. وهم لا يسلمون بنبوة ناقلها . فيصبح البحث عبثا فيما اعتقد .

بقى أن نقول : ان هذهالشبهة التى يتذرع بها القائل مهما كان أساسها ليس فيها مجال للاشتباه بمعنى من معانى الوثنية . والواقع أن هذا بعيد كل البعد عن معانى الوثنية . ولا سيما أن أحد أئمة الاسلام الذين تطأطىء لهم رؤوس أصحاب العقول المنيرة . والنفوس المتحررة الى اليوم . وهو عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : اننى أقبلك لا لعقيدتى انك تنفع وتضر . بل لأنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وســلم يقبلك . واذا صح أن ترى فى تقبيل الحجر شبهة من الوثنية . فما الذى يمنع عندئذ أمثال هذا من أن يرى فى الطواف حول الكعبة نفسه شبهة . أو الاستقبال نفسه شبهة ؟ والحقيقة أن الحكمة فى وضع البيت هى توجيه النفوس الى اتجاه واحد . لأن هذا الاتجاه اذا لم يجعل له نقطة ارتكاز فانه يبقى مشتتا فى كل نفس . وليس فى هذا شىء من معانى الوثنية أبدا .

ومما قاله الأستاذ صبرى عابدين : والقرآن نص على اتخاذ مقامابراهيم مصلى . فاذا فتحنا هذا الباب . حينئذ لن نستطيع أن نتخذ مقام ابراهيم مصلى . وأقول ان أئمة الحديث فى كتبهم كلها قد رووا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبل الحجر الأسود . فاذا ثبت هذا والنبى يقول لنا : خذوا عنى مناسككم وهذا من المناسك التى نأخذها عنه وأخذها الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم . فنحن نقبل الحجر الأسود اتباعا لعمل الرسول . فنحن مأمورون بأن نتبعه . ونأخذ المناسك من عمله . واذا ظهرت لنا الحكمة

فالحمد لله . والحكمة هنا أن هذا الحجر ثابت عندنا أن ابراهيم وضعه بيده وان جبريل سلمه لابراهيم . وان رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه حين بنت قريش الكعبة وحينئذ نحن نقبل مكان أيدى ابراهيم وجبريل ومحمد صلى الله عليه وسلم . وهذا ليس فيه أى شيء يتعلق بالوثنية .

والمبدأ الأساسى فى الاسلام . هو محاربة الوثنية بجميع أشكالها . ومحاربة الأوثان وتحطيمها . وقد حطمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس وغيره من الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما جاء الى البيت وجد حوالى الكعبة ثلاثمائة وستين صنما فأخذ يدفعها حتى تقع ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا » .

فحطمت الأصنام وطهرت الكعبة منها . حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طهر الكعبة من الصور أيضا ، كما بعث الرسول الى مختلف الجهات التى حطموا فيها الأصنام .

وأؤكد أن شبهات هؤلاء لا يقصد بها الا التشكيك فى هذا الدين وهم من ألد أعداء الاسلام ، وأبعد الناس عن العمل به . ولا يريدون أن يسيروا مع اجماع المسلمين . فهؤلاء الشاذون الذين لا يتبعون سبيل المؤمنين ويخرجون على الاجماع يجب أن يفهموا حقيقة الدين قبل كل شيء وأن يعرفوا أن للحج مناسك كثيرة لا يعلم حكمتها الا الله . كرمى الجمار وقد قال الامام محمد عبده فى هذه المسائل انها من الأمور التعبدية التى يجب أن نعتقدها ونسلم بها . مادامت ثابتة عن الله ورسوله . وما دمنا نؤمن بالغيب ونصدق الرسول .

وقال الأستاذ محمد البنا : أنا لا أعلم ان مسلما يقول فيما ثبت عن رسول الله ورواه الناس بالاجماع أن فيه شبهة الوثنية . واذا تبجح مسلم أو بالأحرى من ينتمى الى الاسلام انتماء باطلا وقال هذه وثنية فالجواب عليه شيء واحد . وهو أن المسلمين جميعا لايقبلون الحجر الأسود على وجه العبادة . انما يقبلونه اتباعا لما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم . وليس

هناك مسلم واحد يقول ان الحجر الأسود يعبد . حتى يقال ان هناك شبهة وثنية . لأن معنى كلمة وثنية هو اشراك وليس فى المسلمين من يقول ان الحجر الأسود يشارك المولى فى ملكه . ولكنها أوامر جاءت عن الرسول وعن المولى جل شأنه قال : والايمان أساسه العبودية والخضوع . وفى سور الكتاب العزيز : « ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة » . أى يؤمنون بما غابت حكمته عن عقولهم لأن المؤمن بما أدرك حكمته ليس فى الدرجة العالية التى يصل اليها من يؤمن بما لايدرك الحكمة ، لأن ما يفهمه الانسان يميل اليه بالطبع . وميل الطبع باعث على العمل . ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يوجد فى عباده طبقة تؤمن بالغيب وتؤمن بما خالف نفوسها وهذه هى الطبقة الممتازة من الناس .

والايمان بالحجر الأسود وبمناسك الحج كله من هذا القبيل . ولذلك كان النبى صلى الله عليه وسلم فى الحج يقول : لبيك حقا لبيك بحجة حقا . لبيك تعبدا ورقا . ولم يقل هذا فى عبادة من العبادات . أى أن هذه العبادة هى العبادة التى يكون معيار الايمان فيها تصديقا غيبيا لما خفيت حكمته علينا.

جاء فى الحديث الصحيح : ان الحجر الأسود يمين الله فى الأرض . يصافح الله به عباده . كما يصافح العبد أخاه . ومعنى هذا أن الذى يصافح الحجر الأسود لا يعبده . ولكنه يعطى عهدا على نفسه بطاعة الله . ثم من جهة أخرى لايمكن أبدا للمسلمين على تفرق بلادهم وكثرة عددهم . أن يجتمعوا فى صعيد واحد ، ويضع كل منهم يده فى يد أخيه المسلم ، ليعاهده على دفع العدوان عن الاسلام ومحاربة من صد عن سبيل الله ، وهذا من غير شك أمر فى غاية المشقة والتعذر .. لذلك كان الحجر الأسود فى الكعبة بمثابة هذه المعاهدة بين العبد وربه . وبين المؤمن وأخيه المؤمن . وكل من يضع يده عليه فكأنما يعاهد أخاه المسلم على أنه سيعمل بمبادىء الاسلام وسيجاهد فى سبيل الاسلام وسيحارب أعداء الاسلام .. لأن المسلمين جميعا أجمعوا على تقبيل الحجر الأسود لا على أنه عبادة . ولكن على أنه تكريم لما كرمه رسول الله صلى الله عليه وسلم . ونحن جميعا قدوتنا رسول الله ومرشدنا كلام الله .

ومما قاله الدكتور عبد العزيز عامر : والعلة فى استلام الحجر الأسود وفى تقبيله أن الشارع أراد أن يختبر الناس بالمشاهدة ليعلم ان كانوايطيعون أوامره أو يعصونها ، وقول عمر رضى الله عنه فيه دلالة على أن المسلم يجب عليه أن يحسن اتباع أوامر الشارع حتى ولو لم تظهر حكمتها لأن العقل قد يعجز عن فهم حكمة التشريع والقول بوقف الاتباع على ظهور الحكمة قول لا سند له .

والأستاذ عبدالوهاب حمودة يقول:أولا:الثابت أنالعرب كانوا يحترمون الحجر الأسود فانهم عندما اختلفوا فيمن يضعه فى مكانه واتفقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن ذلك الا احتراما للحجر الأسود . لأنه من آثار أبيهم ابراهيم عليه السلام . فلو كان مما يعبد أولا ، لكنا وجدناه فى الكعبة مع الأصنام .. ثانيا : لو كان الحجر الأسود يعبد فى الجاهلية لما تغافل عنه جميع المستشرقين من الباحثين فى الأصنام التى كان يعبدها العرب فلم يستطع واحد منهم أن يقول : ان الحجر الأسود من لأصنام التى كان يعبدها العرب . أو أى قبيلة من قبائل العرب فلو كان للمتشككين أو مثيرى الشبه أى ذرة من العقل . لما أنكروا هذه الشبهة . ويكفيهم فضلا عن الأدلة الشرعية التى ذكرها الزملاء . ان هذا « أى التقبيل » ليس عبادة ويكفى أن عمر بن الخطاب قد وضع لهم آداب البحث حيث قال : لولا أن الرسول قبلك لما قبلتك اذن واجب على المؤمن أن يتأدب بآداب عمر . فليس فى العصر الحاضر . ولا فيما بعد العصر الحاضر من يدعى أن ايمانه أشد اخلاصا من ايمان عمر .

والأستاذ محمد أبو زهرة يقول : ان الحجر الأسود لم يتعرض للهجوم فى هذا العصر فقط بل انه تعرض لهجوم أشد وأعنف . وهو هجوم عملى فى عهد القرامطة . فان القرامطة قد انتزعوه من مكانه . وعبثوا به . ولأن الله سبحانه وتعالى يريد أن يحمى شريعته . أدال بهم من وقت أن تهجموا على الحجر الأسود فأعادوه مكانه . وكان غريبا كل الغرابة . أن القرامطة الذين كانوا يقدسون أمثال حكام الفاطميين . ومن ذريتهم من اعتقد أن الاله قد حل فى الحاكم . ومن مبادىء كثيرين منهم أن الألوهية

نحل فى أئمتهم . كان من الغريب أن ينتزعوا الحجر باعتباره بقية من بقايا الوثنية . وانى أعلم أنه الى عهد قـريب كان بعض الشـيعة يلوثون الحجر الأسود فى موسم الحج . كانوا يفعلون ذلك حتى استقامت الأمور فىعهد آل سعود . ولعل هذه احدى حسناتهم . فالحجر الأسود . قد اعتدى عليه لا بالقول فقط بل بالفعل .

وأخيرا أقول : ان هذا القائل بمسارعته برفض السنة . انما يكونقوله حلقة من سلسلة الحاد متصلة . فقد وجدنا كتابا لا أريد أن أسميه ينكر السنة ويتهجم على أفاضل الصحابة تهجما يزرى بكاتبه . ولا يزرى بهم أبدا . ثم وجدنا جماعة تؤلف لكى تنكر السنة انكارا وكأن هذه الجماعة شعبة من جماعة فى باكستان رأيناها وسمعنا أقوال منتحليها . أولئك ينكرون السنة . حتى انهم يقولون : ان الفرائض ليست خمسا وليس عدد الركعات عـلى ما نعلم من السنة . انما الصلاة ركعتان .

اذن فهذا القول حلقة من سلسلة الالحاد . والمقصود بها توهين شأن الاسلام باسم الدفاع عن الاسلام . لانعرف استلام حجر عبادة . ولا أن تقبيل حجرة عبادة . وكما يقول الأستاذ الزرقا : لو كان استلام الحجر عبادةوثنية. لكان الطواف أيضا حول الكعبة عبادة وثنية . ولعلهم سيقولون ذلك اذا وجدوا آذانا مصغية لهذا الكلام : ان هؤلاء كالشيطان . وقد يئس الشيطان أن يعبد فى الاسلام كما ورد عن النبى صلى لله عليه وسلم . وقد يئسـوا أيضا من أن يجيئوا الى رءوس المسائل . فجاءوا من نوافـذها ، حتى اذا هدموا النوافذ جاءوا الى الاصل ...

والخلاصة : ان البيت الحرام قد بناه ابراهيم عليه السلام ليكونمثابة للناس وأمنا وليتوجه الناس فيه الى الله مؤمنين وموحدين . كماقال اللهتعالى: « واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ألا تشرك بى شيئا » . وكان أول ماطلب اليه هو تطهيره ليكون معبدا يعبد الله فيه عبادة صحيحة كقوله : « وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين . والركع السجود» « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى » . أى معبدا يعبد اللهفيه وهوربكم ورب

السموات والأرض ويقول سبحانه : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به » . و « الهكم اله واحد فله أسلموا ».

ولكن كيف أصبح فى الجاهلية موئلا للأصنام وعبادتها ؟ قد يجاب عن ذلك : أن سبب ضلال العرب فى عبادة الأصنام بعد تمسكهم بملة ابراهيم أن أولاد اسماعيل لما حلوا بمكة وانتشروا فى البلاد فى طلب الرزق كان الظاعن منهم يحمل حجرا من حجارة الحرم . وأينما نزل وضعه وطاف به طوافه بالكعبة ثم انجر بهم ذلك الى المبالغة فى تعظيم تلك الأحجار فعبدوها ثم ظهر « عمر بن يحيى الخزاعى » أيـام تغلبت خزاعة على مكة ونفت منها جرهم وكان قد تولى سدانة البيت فدعا الى عبادة الأوثان . وسبب ضلال عمر هذا فيما يروى أنه دخـل البلقـاء من أرض الشـام فرأى قـوما يعبـدون الأصنام ويقولون : هذه أرباب نتخـذها نستنصر بهـا فننتصر ونستسقى بها فنسقى وكل من سألها يعطى فرجع الى مكة ومعه صنم نصبه على الكعبة ودعا القوم الى عبادته ففعلوا فتفشت فى العرب عبادة الأصنام فأقاموا فى جوف الكعبة عدة تماثيل فكان أعظمها « هبل » واتخذ أهل كل دار من مكة صنما يعبدونه وللعرب فى غير مكة أصنام منها « ود » كان فى قبيلة كلب وسواع فى قبيلة هذيل ويغوث فى قبيلة مراد ويعوق فى قبيلة همدان ونسر فى حمير .. وقد ذكر القرآ نالكريم هذه الأصنام فى قصة نوح عليه السلام فقال تعالى : « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » .

هذه الأصنام منها ما كان يتخذ من الأحجار النفيسة كهبل فانه كان فيما يروى من عقيق أحمر على صورة انسان ومنها ما كان يتخذ من حجارة وحسب كمناة فانه كان صخرة مربعة .

والتاريخ الحديث المعـروف يحدثنا أن النـاس كانوا يخالون الأحجار البركانية ساقطة من السماء منحدرة من النجوم وكان الصابئون من عبـاد النجوم الذين كان لهم سلطان كبير فى بلاد العرب يعتقدون ذلك فيعبدونها .

وفى هذا يقول الأستاذ الدكتور ابراهيم محمد فرج أستاذ الجيولوجيا العام بـكلية علوم جامعة القاهـرة والذى أدى فريضة الحج : ان الصخور

فى الأصل نوعان منها ما هو نارى ويرجع أصله الى جوف الأرض حيث خرج منها اما الى سطحها فتصلب بسرعة كحجر البازلت البركانى . واما بسبب الحركات الأرضية العنيفة .. ومنها ما هو رسوبى قد تصلب تحت الماء . ثم ارتفع على هيئة جبال عالية مثل صخور تلال المقطم وجبال الألب والهملايا وكلها من الحجر الجيرى والرملى طبقاتها تكونت تحت قاع بحر عميق غطى معظم أفريقيا الشمالية . وأوربا الجنوبية وآسيا حتى اليابان فى العصور الجيولوجية القديمة وقد يتغير أى من هذين النوعين بسبب الحرارة والضغوط الأرضية الشديدة الى صخر متحول مثل حجر الجنيس من الجرانيت ، والرخام من الحجر الجيرى والاردواز من الحجر الطينى والجبال حول مكة معظمها ، ان لم يكن كلها ، من النوع النارى أساسا قد تحول بعضها كما ذكر وهذه الصخور مختلفة الألوان فمنها الأحمر والأخضر والأشهب كما أن منها جددا بيضاء وأخرى سوداء « جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود » .

وبديهى أن الكعبة بنيت مرارا من أحجار أخذت مما حولها من هذه الجبال .

وأغلب الظن أن الحجر الأسود بالذات قطع من صخر أسود مخالفا فى لونه لبقية الأحجار ووضعه بانى الكعبة علامة لبدء الطواف ولهذا لا يعدو أن يكون حجرا ناريا كبقية الأحجار وقد يرجع لونه الأسود الى طبيعة تكوينه من معادن دكناء مختلفة لم تمكن معرفتها بالتفصيل لعدم وجود الامكانيات والاستعدادات اللازمة لمثل هذا البحث على أن هذا الحجر لابد أن يكون قطعة من البازلت أو من أحد الصخور النارية المتحولة الدكناء أو من مادة الشهب التى سقطت قديما من السماء . ولا يزال يسقط مثلها حتى الآن .

والتاريخ المعروف يحدثنا أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له دور فى حكاية الحجر الأسود الا عندما اختلفت قريش ، أيهم يكون له فخار وضع هذا الحجر فى مكانه ثم رأى المخزومى الذى كان أسن القوم شريفا مطاعا أن يجعلوا الحكم لأول داخل ، فكان محمد الأمين أول داخل . وكان ذلك قبل الرسالة ، قالوا : هذا الأمين رضينا بحكمه وقصوا عليه قصتهم

وسمع قولهم ، ورأى العداوة تبدو فى عيونهم ففكر قليلا ثم خلع رداءه ووضع الحجر فوقه ثم قال : ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطـراف هـذا الثوب فحملوه جميعا الى ما يوازى موضع الحجر من البنـاء ثم تنـاوله الرسول ووضعه فى موضعه .

وبذلك انحسم الخلاف وانقضى الشر . فأنت ترى أن اسراع قريش الى الرضا بحكمه يدل على ماكان له من مكانة سامية فى نفـوس أهل مكة لما عرف عنه من سمو النفس ونزاهة القصد .

ولقد وردت آثار كثيرة فى فضل هذا الحجر . وفيها ما يدل على أنه من الجنة . ولابد لنا أن نقف أمام هذه الروايات وقفة المتأمل الفاحص الذى يلتزم الحيدة التامة ولا ينخدع بالعاطفة التى كثيرا ما تحجب الحق وتطمس معالمه .

فلقد روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الحجر والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة طمس الله نورهما . ولولا أن طمس نورهما لأضاءا ما بين المشرق والمغرب (ذكره الترمذى فى صحيحه . وقال حديث غريب)

وفى رواية أخرى : لاضاءا مابين المشرق والمغرب ولأبرءا من استلمهما من الخرس والجذام والبرص .. وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضا من اللبن فسودته خطايا بنى آدم .

ويذكر العلامة تقى الدين الفاسى . رواية أخرى عن ابن عباس تتعارض والرواية السابقة المذكورة عن ابن عباس نفسـه : اذ يقول : وانما غيره الله بالسواد لئلا ينظر أهل الدنيا الى زينة الجنة وانه لياقوته بيضاء (شفاء الغرام باخبار البلد الحرام . لتقى الدين الفاسى حـ ١ ص ١٦٨) .

وتأتى بعد ذلك روايات وأحاديث يقول بعضها ان الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقبل الحجر الأسـود فى طوافه بالـكعبة المشرفة فى حجة الوداع . وليس هذا فحسب . بل كان يضع خده عليه وكان يسجد عليه (١)

وغيرها يقول : انه طاف على بعيره يستلم الحجر بمحجنة أو أشار لشىء معه وكبر ، وغيرها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

هذا الحجر يبعث يوم القيامة وله لسان وشفتان يشهد لمن استلمه يوم القيامة بحق (رواه الامام أحمد فى سنده صفحة ٢٣١٨ . ومما يحسن ذكره أنه ذكر أن الحديث ضعيف) .

وقال : الحجر الأسود يمين الله فى أرضه يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه (عن ابن عباس صحيفة ٢٤٢ من هذا الجزء من الغزالى . وتجد مثل ذلك كثيرا فى ابن كثير . (البداية والنهاية) .

وفى رواية : الحجر الأسود من الجنة وكان أشد بياضا من الثلج حتى سودته خطايا أهل الشرك .

وهذه الروايات وأمثالها تحمل فى طياتها مايوهنها اذ يتعارض بعضها مع بعض ثم هى فى ذاتها لا تقوم على أساس و لاتستهدف غرضا سليما . فاما تعارضها فلأن الروايتين المذكورتين عن ابن عباس مختلفتين . وأما أنها لا تقوم على أساس . ولا تستهدف غرضا سليما . فلان قيمة هذا الحجر لا تزداد اذا كان من أحجار الجنة ولا تنقص اذا كان من أحجار الأرض ، ذلك بأن قيمة الشيء انما تكون فى الجوهر لا فى العرض . وفى اللباب دون القشور . فالذهب وسط التبر هو الذهب وسط التراب . والكعبة المشرفة قد بنيت من أحجار الأرض . ومع ذلك فهى بيت الله الذى يشع بالهدى والنور . ويسمو على مافى الجنة من بيوت وقصور .

وهكذا فقد نشأ الاختراع فى الرواية والتأويل ووضع الأحاديث وأول من تجرأ على ذلك هم الشيعة فى العراق بعد قتل «على» وحدوث الخلافات السياسية ..

وقد أشار الى ذلك أئمة الحديث حيث كان الزهرى يقول : يخرج الحديث من عندنا شبرا • ويرجع الينا ذراعا • وكان مالك يسمى العراق دار الضرب أى أن الأحاديث والمرويات تضرب فيها وتخرج الى الناس كما

(١) رواه الحافظ البيهقى وعكرمة عن ابن عباس الغزالى الجزء الاول ــ أسرار الحج ص٣٢٥

تضرب الدراهم وتخرج للتعامل ، وقال حماد بن مسلمة : حدثنى شيخ منهم يعنى الشيعة قال : كنا اذا اجتمعنا فاستحسنا شيئا جعلناه حديثا . وقد بذل أئمة فن الحديث والرواية والاسناد منتهى الجهد فى تحرى أحوال الرواة وشئونهم . وكثيرا ما كان السلف رضوان الله عليهم يروون بعض الروايات ويتخذون من عدم انطباق المتن على قواعد الشرع الجليلة دليلا على ضعف اسناده ، وصدق نسبته الى الرسول — صلى الله عليه وسلم — .. ووهم راويه كما رد ابن عباس حديث أبى هريرة رضى الله عنهما : من حمل جنازة فليتوضأ . وعلل هذا الرد بقوله لا يلزمنا الوضوء فى حمل عيدان يابسة والمسلمون عانوا ويعانون من أكاذيب وضاع الأحاديث والمرويات . وقد وضع العلماء القواعد لنقد الأحاديث لمعرفة الصحيح والحسن والضعيف منها مثلا فساد المعنى : بأن يكون الحديث مخالفا لبدهيات العقول من غير أن يمكن تأويله مثل : ان سفينة نوح طافت بالبيت سبعا وصلت عند المقام ركعتين !! فهذا لايمكن أن يقبله العقل .

بل جعلوا للذوق الفنى مجالا فى نقد الأحاديث وردها وكانوا يقولون هذا حديث عليه ظلمه أو ينكره القلب . ويكفى ان يذكر الانسان ما كابده البخارى من مشاق وأسفار فى مختلف أقطار الدول الاسلامية لجمع الحديث وتمحيصه وما رواه بعد ذلك من أنه ألفى الأحاديث المتداولة تربو على ستمائة ألف حديث لم يصح منها أكثر من أربعة آلاف . ومع ما أبداه جامعو الحديث من حرص على الدقة لا ريب فيه فقد قال النووى فى شرح مسلم : وقد استدرك جماعة على البخارى ومسلم أحاديث أخلا بشرطهما ونزلت عن درجة ما التزماه وروى عن رسول الله —صلى الله عليه وسلم— انه قال : انكم ستختلفون من بعدى فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمنى وما خالفه فليس منى .

وها هو حديث : لو اعتقد أحدكم فى حجر لنفعه . ليس أظهر منه ابغالا وامعانا فى الكذب وهو حديث من وضع الزنادقة . وناهيك عن تلك الأحاديث الكثيرة الموضوعة المبتذلة . فهل هى الا أحاديث متداولة على

ألسنة الناس ، فى استشهادهم وتحاجهم فى معاملاتهم فهى أشيع الأحاديث وأقربها الى التواتر .. لكنها ليست مقبولة عقلا .

واليك ما كتبه عالم صحيفة الشعب فى عددها الصادر فى ١٩٥٨/٤/٢٩ بعنوان (من معانى القرآن) : صحيح أن الأحاديث الضعيفة طغت أو كادت تطغى على الأحاديث الصحيحة لأن يد الغرض والمرض وضعت أحاديث كثيرة يبرأ منها الدين والعقل والذوق الى أن قال : فيجب أن نطبعها وننبه الناس اليها ونحذرهم منها .. والقصد هو أن العلماء والمسلمين يجب أن يعرفوا الطيب من الخبيث مما دس فى الحديث وتصفى الكتب الاسلامية فى كل بلد اسلامى حتى تخرج محرزة مطهرة من الخرافات والاسرائيليات التى قصد بها افساد الاسلام وهدم كيان المسلمين .

كل هذه الخواطر التى تجول فى النفس تجعلنا ننظر الى مثل هذه الروايات فى حذر وحيطة ، ونشك فى نسبتها الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا سيما أنه لم يذكر شىء منها فى الصحيحين ، وحينما ذكر الترمذى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر وقال : انه حديث غريب . ولابد لنا اذن أن نتلمس السبيل الى رواية أخرى لا يتطرق اليها مثل هذا الضعف والوهن . ولقد ذكر « ابن الأثير » فى تاريخه : أن ابراهيم عليه السلام حينما أمره الله ببناء البيت الحرام ، قال لولده اسماعيل ان الله أمرنى أن أبنى له بيتا . قال اسماعيل فأطع ربك . فقال ابراهيم : وقد أمرك الله أن تعيننى على بنائه . قال : اذن أفعل . فقام معه فجعل ابراهيم يبنى واسماعيل يناوله الحجارة . ثم قال ابراهيم لاسماعيل : ائتنى بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علما . فأخذ حجرا من جبل « أبى قبيس » وقيل ان جبريل أخبره بحجر هو الحجر الأسود . فأخذه ووضعه فى موضعه فلما ارتفع البنيان كان ابراهيم يقف على حجر واسماعيل يناوله . وهذا الحجر هو مقام ابراهيم . وهكذا تعاون ابراهيم واسماعيل حتى رفعا قواعد البيت وأتما بناءه .

من هذه الرواية الهادئة وما يؤيدها من روايات ذكرتها أمهات الكتب التاريخية . يتبين لنا أن الحجر الأسود لم ينزل من الجنة . وانما هو من

أحجار جبل أبى قبيس أراد الله أن يوضع فى ركن من أركان بيته الحرام ليكون علما • أى علامة يبدأ منها الطواف وينتهى اليها •

فلما أذن ابراهيم فى الناس بالحج كان الحجر الأسود موضع بدء الطواف ونهايته • وكان الطائفون يبدأون باستلامه وكأنهم يسجلون أنفسهم فى هذا السجل الخالد • ويقترن ذلك فى نفوسهم بأجل الذكريات عن النبى الكريم ابراهيم عليه السلام • فيزداد حبهم لهذا الحجر المبارك • وينتقل ذلك من شعب الى شعب . ومن جيل الى جيل .

وقد فرض الله الحج على كل مسلم مستطيع وجعله الركن الخامس من أركان الاسلام « وجعل من أركان الحج الطواف ببيت الله الحرام . وجعل من شروط الطواف أن يكون الحجر الأسود نقطة البدء • ونقطة النهاية فى المطاف . ومن السنن المأثورة عن الرسول — صلى الله عليه وسلم - - تقبيله واستلامه .

بيد أن بعض المسلمين على طول الزمن وبعد العهد بالرسول صلى الله عليه وسلم قد تغير تفكيرهم فأصبحوا يغالون فى تعظيم هذا الحجر حتى لقد خيل اليهم أن الحج لا ينفع الا بتقبيله ووضع الجباه عليه . ولقد رأيت بنفسى مرارا ، كثيرا من الحجاج أثناء طوافهم بالبيت اذا جاءوا أمام الحجر الأسود لم يكتفوا بالاشارة اليه كما هو المطلوب عند الزحام ، بل سلكوا من أجل الوصول اليه سبيلا يوقظ الفتنة والجدال . فترى الحاج بينهم يدفع نفسه نحو الحجر دافعا بكل قوة مهاجما . وكأنه فى موقعة حربية مع اخوانه الطائفين ، لا يرعى شعور الباقين ، ولا ما يسببه للآخرين من أذى نتيجة زحامه هذا ، وخصوصا اذا كان بين الطائفين من الحاجات ، وبمثل هذه التصرفات ينفتح المجال أمام الخرافات والأباطيل التى لا تعتمد على أساس ولا ينهض بها دليل .

أجل : لقد كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يستلم الحجر ويقبله أحيانا . ولكن ليس ذلك شرطا فى صحة الطواف ولا فى صحة الحج والعمرة . وانما هو لحكمة يعلمها الله . وان خفيت علينا . وليس لنا وقد آمنا بهذا الدين عن بينة الا أن نؤمن بهذه الجزئيات ولو لم يذكر لها تعليل.

ويعجبنى قول بعض الشعراء حينما منعه الزحام عن تقبيل الحجر واستلامه فاكتفى بالاشارة اليه ثم أنشد :

أقول وقد زوحمت عن لثم أســود   من البيت ان تحجب فماالسر يحجب
فــانك منى بالمحـــل الــذى به   محل ســواد العين أو أنت أقرب

والعرب كانت تحج من تسعة عشر قرنا وأكثر الى الكعبة (١) المكرمة لأنهم كانوا يعتقــدون أنها بيت الله على ما كانوا عليه من اختــلاف الآلهة وتعدد الديانات وتغاير المذاهب • وكانوا يقصدونها سنويا للطواف بها من غير أن يدعيها لنفسه فريق منهم دون الآخرين لأنها كانت عندهم بيتا لله الذى هو اله العالمين ورغما عن شيوع عبادة الأوثان فى سواد قبائل العرب فانه لم يرد عنهم أنهم عبدوا هيكل الكعبة أو « الحجر الأسود » مع احترامهم لها ذلك الاحترام الذى لا يمكن تصويره . وكانوا يعتقدون أن هذا الحجر نزل من السماء وبه أخذ بعض الفقهاء . ونحن لاندرى ان كان وصل اليهم من طريق النيازك أو من طريق آخر •

واحترام الأحجار (٢) فى الناس قديم جدا فمنهم من كانوا يعبدونها لذاتها ومنهم من كان يجعلها رمزا لآلهتهم كما كان الشأن فى الدول الراقية فى عمرانها كدولة الرومــان واليونانيين الذين كانوا يرمزون بها لمعبوداتهم من الكواكب وغيرها • ولم يكن نبوغهم الى الآن فى نحت الأحجار وعمل التمــاثيل وتبريزهم فى التصــوير الا لاحتــرامهم اياها من قديم الزمان واستعمالهم لها فى الأزمنة الخالية تمثيلا لمعبــوداتهم . واليابانيون والهنود لا يقلون عنهم فى هذه الصناعة ولهم فيها دقة غريبة وخصوصا فى الأعمال الخشبية التى يمثلون فيها كثيرا من معبــوداتهم مثل بوذا وكونفوشيوس وغيرهما ..

أما العرب فقد كانت أصنامهم ســاذجة مثل جميع طبائع الأشياء فيهم وقد كانوا يعبدونها لتقربهم الى الله زلفى •وفى عتبة باب السلام الخارجية ترى حجرا ضخما أشبه شىء بدرجة سلم غير منتظمة نازلة فى الأرض يطئونها

(١) كل شىء علا وارتفع ، فهو كعب ومن ثم قيل للكعبة كعبة •
(٢) فى باريس بجهة التروكاديرو متحف اسمه حيميه من مجموعة كبيرة من الاحجار الدينية

بنعالهم . وأهل مكة يقولون عنه : انه صنم من أصنام الجاهلية واسمه اساف ! •

وكان أنبياء بنى اسرائيل يقيمون الأحجار فى مناسبات كثيرة • منها ما هو تذكار لحادثة من الحوادث الجسيمة • كما فعل يعقوب عندما تراءى له ربه جل شأنه فى نومه فانه أقام حجرا تذكارا لهذه الحادثة الكبرى فى مكان سماه بيت ايل (بيت الله) • كما أقام حجرا غيره تذكارا للعهد الذى تم بينه وبين لابان (آية ٤٤ ، ٤٥ من الاصحاح ٣١ من سفر التكوين) • ومن ذلك الاثنا عشر حجرا التى نصبها يشوع تذكارا لعبور الاسباط نهر الأردن بتابوت العهد (آية ٩ من الاصحاح الرابع من سفر يشوع)• ومنها الحجارة التى نصبها موسى فى ذيل الجبل تذكارا لكتابة كلام الرب (الآية الرابعة من الاصحاح ٢٤ من سفر الخروج) •

ومن حجارة التذكار • تلك الحجارة التى كان يقيمها صغار الحجاج على حافة طريقهم مع القافلة . فتراهم اذا صادفوا فى طريقهم أحجارا صغيرة تسابقوا اليها وأخذ كل بين يديه ما آراد ووضعها على بعضها حجرا حجرا قائلا : هذا لأبى • وهذا لأمى وهذا لأخى •• وهكذا ، ويسمون كل كوم منها ناطورا • وهم يزعمون أنه ما دامت هذه الرجمة على وضعها كان أصحابها على قيد الحياة !! .. ولو لم يكن فى عملهم هذا من حسنة سوى تنقية الطريق من الحجارة التى يتعثر فيها الانسان والحيوان لكفى •

ومن الحجارة ما كانوا يقيمونه للعهد والميثاق كالحجر الذى أقامه « يشوع » عندما أخذ العهد على شعبه قائلا لهم : هذا الحجر يكون شاهدا علينا (الآية ٢٦ ، ٢٧ من الاصحاح ٢٤ من سفر يشوع) ومن حجارة الشهادة ما كان يستعمله الناس للاقتراع على الأشياء أو الأشخاص •

وكان المصريون يقيمون الأحجار الجسيمة كالمسلات وغيرها تذكارا للحوادث التاريخية الكبرى وقد اقتفت آثارهم الدول المتمدينة وعلى الخصوص ما يقيمونه اعترافا بفضل من ينبغ من أفراد الأمة وهذه الآثار لا يكاد يخلو منها ميدان من ميادين عواصم أوربا •

وجميع الحكومات من قديم الزمان تقيم الأحجار لتعيين تخومها وتحديد ممالكها وقد عم هذا الاستعمال فى تحديد ملكية الأفراد حتى أطلق لفظ الحجارة على الحدود وأجمعت الشرائع كلها على احترامها •

واليهود الى الآن يقدسون قطعة من حائط السور الذى للمسجد الأقصى من جهة القبلة يسمونها البراق • ويبلغ طولها نحو ثمانية وأربعين مترا فى ارتفاع مترين • لزعمهم أنها القطعة الوحيدة التى بقيت من قاعدة سور الهيكل الأصلى الذى بناه سليمان عليه السلام وهدمه « بختنصر وسنحاريب » . وغيرهما من ملوك الآشوريين والرومانيين . وهم يحجون الى هذه القطعة مرتين فى كل سنة وخصوصا فى العيد الذى يسمونه عيد الدجاج (عيد القربان) • ويهود القدس يجتمعون عندها كل يوم وعلى الخصوص فى عصر يوم الجمعة مع رؤسائهم الدينيين • ويستلمون حجارتها باكين شاكين منتحبين متضرعين الى الله بأن يرد عليهم ملكهم وأن يعيد الى أورشليم فخامتها وجلالتها • وقد وصل بهم احترامهم لحجارة ذلك الهيكل الى أنهم لا يدخلون فى حوش بيت المقدس أصلا بل لا يدخلون من بابه مطلقا خوفا من أن تطأ أقدامهم حجرا من الحجارة التى قد تكون تخلفت من هيكلهم القديم وألقت بها يد الصدفة فى أرضية هذا المكان •

وللنصارى أحجار كثيرة يقدسونها ومنها شىء كثير فى بيت المقدس •• وقد بلغ تقديسهم لها الى حد لا يمكن تكييفه • ومن تلك الأحجار • الحجر الذى تحت قبة الصعود •• وفيه أثر من قدم يمين يقولون انه أثر قدم المسيح عندما صعد الى السماء •

وفى أسفل جبل الزيتون من الجهة الغربية مما يلى وادى سدرون (وادى مريم) • قطعة من صخرة خارجة عن سور الكنيسة الروسية الشمالى فيها تقعر رأسى • يقولون : ان السيد المسيح أسند ظهره اليها عندما نزل من جبل طورزيتا (جبل الزيتون) الى المدينة • ولقد اجتهدت الكنيسة الروسية فى ادخاله فيها ولكن قامت من أجل ذلك قيامة الطوائف الأخرى • وكادت تحصل لذلك فتنة كبيرة لولا أن الأمر انتهى بجعلها منطقة عامة لجميعهم حتى لا يحرم الكل من التبرك بها • وازاء هذه

الصخرة الى جهة الشمال توجد صخرة أخرى محاطة بسور للأروام . يقولون أن السيد المسيح كان يجلس عليها اذ ذاك ليشاهد فيها صخرة بيت المقدس . وباب هذا السور يفتح للزيارة فى أيام مخصوصة . وللقوم فى كنيسة القيامة أحجار كثيرة تكاد تفوق حد التقديس منها حجر نصف الدنيا الذى نراه فى وسط هيكل الأروام . وحجر المغسل الذى يزعمون انهم غسلوا المسيح عليه . وحجر الكأس الذى نزل به جبريل الى المسيح ووضعه عليه . وعامود الجلد الذى كان المسيح مربوطا به عندما جلده أعداؤه وحجر الاكليل الذى أجلسوا عليه المسيح وقتما وضعوا على رأسه اكليل الشوك . ويوجد فى بيت لحم كثير من هذه الحجارة المقدسة .

ومن الحجارة المقدسة المحترمة عند اليهود والنصارى والمسلمين على السواء صخرة بيت المقدس (١) والمسلمون يزورونها ويقولون لمن زارها أنه قدس ويعتبرون زيارتها بعد زيارة الحرم النبوى الشريف مباشرة .. وهذه الحجارة محل قربات ابراهيم واسحاق ويعقوب وداود وسليمان وغيرهم من أنبياء بنى اسرائيل عليهم السلام والتى كانت قبلة للمسلمين قبل الكعبة . ثم صخرة النبى أيوب التى فى قرية الشيخ سعد ويزورها خلق كثير للتبرك بها من جميع الديانات والأجناس ، من ذلك نرى أن هذه الحجارة لم تقدس لذاتها ولكن لعلاقتها بشىء مقدس محترم . وعليه فالحجر الأسود الذى وضعه ابراهيم عليه السلام فى الكعبة اما أن يكون وضعه تذكارا لصدعه بأمر ربه برفع قواعد البيت المعظم ، واما أن يكون للعهد الذى أخذه ابراهيم حجة عليه وعلى ولده بأن هذا البيت قد انتقل من ملكيتهم الى الله تعالى ليكون للناس مصلى ومسجدا للطائفين والعاكفين والركع السجود . ووضعه فى الركن الأقرب الى الباب ليكون أول حدود هذا البيت المكرم الذى يبتدىء منه الطائفون وجعل لونه أسود لسهولة تعيينه وتحديد مكانه . لذلك كان هذا الحجر محترما من ابراهيم ، محترما من ولده ، محترما من المسلمين الى اليوم والى الغد .

---

(١) هى صخرة كبيرة ضربت عليها قبة عظيمة جدا فيها من أعمال القيشانى والفسيفساء والموزاييك والنقوش المذهبة وغيرها ما يدهش العقل ويحار له الفكر ، وهذه الاعمال من عهد عبد الملك بن مروان وابنه « الوليد » ، ثم السلطان « سليمان القانونى » وعلى ظهرها آثار أقدام يزعمون أنها أقدام الرسول ليلة الاسراء .

ولا عبرة بما ذهب اليه بعض السائحين الذين قصـــدوا مكة والمدينة تحت ستار شعار الدين الاسلامى وكتب عنها كل بحسب نزعته ســـياسية كانت أو دينية بأن المسلمين فى حجهم يعبدون الحجر الأسود الذى هو أثر من آثار الوثنية العربية الأولى . وانى لا أذكر شـــيئا أدحض به مفترياتهم فيما يختص بالمسلمين سوى عبـــارة عمر رضى الله عنه المشهورة ، ودرجة اسلام عمر لا تخفى على أحد .

أما فيما يختص بعرب الجاهلية فانه لم يسمع عنهم مطلقا أنهم عبدوا هذا الحجر فيما عبدوا من الأحجار بالمرة مع احترامهم له كل الاحتـــرام واجلالهم له كل الاجلال . وعلى كل حال فان الحجر الأسود عند المسلمين محترم مكرم ، معظم لا لذاته ولكن لكونه شعارا لربوبيتـــه تعالى ورمزا لسلطانه ، يعرض عليه المسلمون فيستلمونه ويقبلونه أو يسلمون عليه بكل احترام واحتشام ، وعليه فهو فى ذلك كأعلام الدول التى لا تحترم لكونها قطعة بسيطة من القماش مرفوعة على قطعة من الخشب أبسط منها . بل لأنها تمثل سلطان الدولة أو الجمهورية ، ولذلك فانهم يحنون رءوســـهم وسيوفهم احتراما وخضوعا .

والآن ألا ترى معى أن أمر تقبيل الحجر الأسود يكاد يكون راجعا فى جملته وتفصيله الى ما روى من أن عمر قبله ، اقتداء برسول الله عليه الصلاة والسلام ، وقال عبارته المشهورة .

قد روى ابن شيبة والدارقطنى فى العلل عن عيسى بن طلحة عن رجل رأى النبى عليه الصلاة والسلام واقفا عند الحجر فقال : « انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » ثم قبله .

ثم حج أبو بكر فوقف عند الحجر ثم قال : انى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله عليـــه الصلاة والسلام يقبلك ما قبلتك .

وقال عمر : أما والله انى لأعلم أنك حجر لاتضر ولا تنفع ولولا أنى رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام قبلك ما قبلتك ، ثم دنا فقبله .. رواه أبو بكر بن أبى شيبة والامام أحمد والبخارى ومسلم وغيرهم .

وبعد .. فقد سردنا عليك فيما سبق جملة من الأحاديث التى يحيط بها الشك والاضطراب ، والتى لا يقبلها عقل ولا يقرها ذوق مما جعل الشباب يشعر بالجزع والحيرة .. ولذلك هرع الشباب الى تلك البحوث التى يقوم بها علماء الغرب يتسابقون اليها — كما يتسابقون الى كل جديد — كأنها عذب فرات .

وبحوث علماء الغرب ودراساتهم لا تخلو من طعون تدس على الاسلام ما يبرأ منه الاسلام ، وعلى سيرة النبى عليه الصلاة والسلام من خرافات وأباطيل لا يسيغها العقل ولا يقبلها الذوق ، ينهل الشباب من ذلك الوباء القذر فى اطمئنان ويشيع فى نفوسهم فيفتح لهم بها أبوابا عراضا يرتعون من خلالها فى مباءات الجهل والالحاد ، ونهاية هذه البحوث أن نرجع الى كتاب الله ، فهو السياج الذى يحمى الحق ، ويقيم العدل ، ويصون الحريات ، ويكفل المساواة العادلة ويرد الدعوة الظالمة ويهذب النفوس ويقوى دعائم الأخلاق .

وعلى أصحاب الفضيلة الموقرين أن ينقوا الأحاديث النبوية الشريفة . ويصفوها من تلك الأكدار التى أحاطت بها فمزجت طيبها بخبيثها وخلطت صحيحها بفاسدها . ودرءا لكل شبهة قد تساور النفوس ودفعا لكل شك قد يجول فى الخواطر ، حتى تبقى السنة المحمدية المطهرة نقية ناصعة من كل الشوائب .

الاسراء والمعراج

قد أنكر كثير من المستشرقين ، كما أنكر من قبلهم المشركون المعاندون الذين لا يؤمنون بحق ولا يخضعون لحجة ولا بينة ، وقوع الاسراء والمعراج فى زمن الرسول عليه الصلاة والسلام .

فانكار هؤلاء وهؤلاء لهذين الحادثين بعد ما أراهم النبى عليه الصلاة والسلام الآيات البينات ليس الا من قبيل كفرهم وجحودهم بكل ما آتاهم من الحق والجاحد المكابر لا سبيل الى اقناعه ، ولا حاجة فى تصديقه مادام لا يريد أن يقتنع أو يسلم بنتائج تقضى بها المقدمات .

وما أروع تلك الكلمة القيمة لصاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ يوسف الدجوى :

ان الناس اليوم يقدسون عقولهم ويسيرون وراء ما يمليه عليهم علمهم القاصر ، ونظرهم الضعيف ، وكل من سار وراء عقله ، ووزن كل ما جاء عن الرسول عليه الصلاة والسلام بميزان فكره ، قلما يؤمن ايمانا صحيحا ، فاذا راقك من العقل ما يشقشق به فى بعض الأحيان ، لم يلبث أن يسوءك منه ما يهذى به فى وقت آخر ، ولا غرو فالجهل حليف الانسان، والضعف لازم من لوازم البشرية ، وقصور العلوم من صفاتها الذاتية ، وأعراضها اللازمة ، وكل من لم يصدق الا بما وصل اليه عقله وبلغته حدود علمه ، ليس مؤمنا بالرسول على الحقيقة ، وانما هو مؤمن بعقله .

وما جاءت الرسل الا لتخبرنا بما وراء الطبيعة مما لم تصل اليه العقول التى لا تستمد معلوماتها الا من المحسوسات ، وما تنتزعه منها من المعقولات الثانية ، مما هو راجع اليها ومتوقف عليها ، ومقدورات الله لا نهاية لها ، وعوالمه لا حد لها ، ولكل عالم قانون يخصه .

فمن الخطأ البين الحكم على عالم من العوالم بأحكام عالم آخر ، واذا كنا نرى من بعض أنواع الحيوان ما لا يعيش الا فى الماء ، ومن بعضها ما لو مكث فى البحر لمات ، ومن بعضها ما يقتله « ثانى أوكسيد الكربون » كالانسان ، ومنها ما يقتله « الاوكسيجين » ككثير من الحيوانات الدنيا . لعلنا كنا لا نصدق ذلك قياسا على أنفسنا ، لولا مشاهدتنا اياه . فكيف بما لم نقف له على عين ولا أثر من العوالم الأخرى التى تحس والتى لا تحس .

وانى لأعجب لهم كيف يتبجحون ويحكمون فى كل الأشياء بالأحكام الجازمة ، اعتمادا على بضع قوانين وصلوا الى ظواهرها من قوانين هذا الكون التى لا يحصيها الا الله ، ولا يدرى كنهها غير مبدعها الذى لا حد لقدرته ، ولا نهاية لعلمه .

وليت شعرى بعد ذلك كله ، أى عقل نحكمه فيما ورد عن الشارع ؟ أهو عقل الأفراد أم عقل الجماعات ؟ وما هو الضابط اذا اختلفت العقول وليس هناك نوع من الأنواع وقع التفاوت بين أفراده مثل نوع الانسان الذى هو مظهر المتناقضات ، ومجمع العجائب والغرائب ، وقد خاطب الله الخلق جميعا بقوله : « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » ويقول فى حق الانسان « انه كان ظلوما جهولا » .

واننا لنرى فى تخبطه وتناقضه ، وارتباكه فى أحواله ، واضطرابه فى أعماله ، الدليل الساطع على أنه مخلوق من الطيش والجهالة والعجز والقصور فعلام تلك الكبرياء ، وهو من الضعف بحيث يرثى له ، ويشفق عليه .

لا يستند هؤلاء المنكرون الا الى الاستبعاد العقلى وقياس الغائب على الشاهد ، وارجاع ما لم يعلموا الى ما علموا . والجاهل لا يعرف قدر نفسه ، ولا قدر العلم ، ويعتقد أن كل ما خرج عن دائرة علمه فى دائرة العدم : « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله » .

ومن الغريب الذى يؤسف له ، انهم اذا سمعوا أن بعض الأوربيين يريد الوصول الى القمر ، ويفكر فى اعداد العدة لذلك لم يتحرك منهم

ساكن ، بل ربما انتصروا لما سمعوا وقالوا : ان العلم يلد العجائب ، والاكتشاف يأتى بالغرائب ، ولكنهم اذا سمعوا أن الرسول عرج به الى السماء ، قامت قيامتهم ، وهدرت شقاشقهم ، وظهر كل ما فى نفوسهم الضعيفة من خبث والحاد .

وسنتكلم معهم بما يخضعون له اذا سمعوه عن سادتهم الأوربيين ، الذين لم يعلموا علمهم ، ولا أحسنوا محاكاتهم .

أما الكلام من الجهة النقلية ، فأظنه لا يعنيهم كثيرا ، ولا يقنعهم كثيرا أو قليلا ، ومع هذا فسنقول فيه كلمة موجزة ، من أجل الفريق الثانى الذى ينتسب الى العلم . ولا يمكنه الخروج عن الكتاب والسنة . ولكنه يؤول ويحرف اغترارا ببعض الروايات . واجابة لنزعة عنده ، وعقيدة لديه لا تبعد كثيرا عن عقيدة الماديين ، وان كان مذبذبا بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء ، فنقول :

ان من قال : ان الاسراء بالروح ، تمسك ببعض روايات مطعون فيها كرواية عائشة رضى الله عنها ، التى ردها الحفاظ ، وقالوا : انها غير صحيحة من وجوه عدة ، لا نطيل بها الكلام ، وكرواية شريك بن أبى نمر التى طعن فيها الحفاظ بما يطول شرحه ، وليس غرضنا الا أن نشير الى ذلك اشارة خفيفة ، يعرفها ذلك الفريق من الشيوخ المتفيهقين . والعالم ، كل العالم ، من لا يتأثر بكل ما رآه أو يهوش بكل ما روى ، بل العالم ، كل العالم ، من يعرف المقبول والمردود ، والصحيح والضعيف ، ويجمع بين الروايات المختلفة اذا أمكن الجمع ، ويرجح الراجح ويسقط المرجوح اذا تعذر التوفيق ، ولا أدرى كيف يقبل الذوق السليم أن الاسراء كان بالروح بعد قول الله تعالى : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير » .

فها أنت ذا ترى الآية الكريمة قد افتتحت بسبحان المقر باستعظام ما كان من الأمر ، والتعجيب منه لجلاله ، وذلك اللفظ لا يصح موقعه ، ولا

يتناسب وبلاغة القرآن الحكيم الا اذا كان الأمر غير معهود ، ولا مقدور لأحد من البشر .

ولو كان الاسراء بالروح فقط لم يكن ثمة ما يقتضى هذا الاستعظام وذلك التعجيب ، اذ لا خطورة فى اراءة النبى عليه الصلاة والسلام آيات ربه فى نومه ، فان هذا أمر يقع لكل أحد . بل قد يرى الانسان فى نومه رب العزة الذى هو أكبر من كل شيء ، وانما يظهر وجه الاستعظام والتعجيب لو قلنا : ان ذلك الاسراء كان بالجسد والروح ، كما هو ظاهر لكل ذى فطرة طاهرة وعقل سليم .

ثم تراه يقول « أسرى » وهو لا يقال فى النوم كما قال القاضى « عياض » ، لأن ما يقع فى النوم انما هو تخييل وضرب مثل لا غير ، ولا يحسن أن يعبر عن ذلك بأنه أسرى به ، وانما يحسن ذلك اذا أسرى به ليلا اسراء حسيا على ما هو معهود ومعروف .

ثم يقول « بعبده » ، وهو نص قاطع فى الموضوع . لأن العبد لايطلق فيما تعرفه العرب الا على الشخص المكون من الروح والجسد ، ولم يعهد فى لغة العرب اطلاقه على الروح فقط ، فهم لا يعرفون من العبد الا الشخص المحسوس المتطور ، كما فى قوله تعالى : « أرأيت الذى ينهى عبدا اذا صلى » وقوله : « وانه لما قام عبد الله يدعوه » الى غير ذلك .

ثم يقول : « لنريه من آياتنا » ، ويقول فى سورة النجم : « أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . ما زاغ البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

ولا شك عند من له ذوق سليم أن هذه الآيات الكريمة تدل على أن النبى عليه الصلاة والسلام أسرى به الى بيت المقدس ، وأنه عرج به الى السموات العلا بجسمه وروحه ، وأنه رأى جبريل عند سدرة المنتهى . وأنه رأى من آيات ربه الكبرى .

وانى أستحلفك بعلمك وذوقك وانصافك ، أن تنظر معى الى قوله : « أفتمارونه على ما يرى » . ثم قل لى بعد ذلك ماذا ترى . أفيسهل عليك

أن تسلم أن المراء والجدل كانا فى رؤيا منامية ؟ وهل يكون فى رؤيا الروح وحدها فى النوم جحود ومجادلة ؟ وهل لذلك وقع عند القائل والسامع ، حتى تذكر فيه تلك الآيات ، وتحصل به تلك المجادلات ، وينوه بشأنه فى القرآن هذا التنويه العظيم ؟ وهل عهد مثل ذلك فى الرؤى المنامية ، وهل ينكرون على أنفسهم ذلك ، حتى ينكروه عليه صلى الله عليه وسلم ؟

لاشك أن مناكرتهم ومجادلتهم ، ما كانت لعلمهم أنه يدعى أن ذلك كان يقظة لا نوما ، فهذا محل الاستبعاد والاستنكار ، لأنه غير معهـود لديهم ولا هو فى متناول قدرتهم .

أما أحلام الأرواح ، فيجوز أن تقع لكل امرىء حتى للمشركين أنفسهم . وهل ينكر الله عليهم انكارهم بقوله : «أفتمارونه على مايرى» .. ويقرعهم على مجادلتهم بالباطل ، ويقسم ان صاحبهم ما ضل وما غوى ، ويقول : انه رأى . ولا يليق أن تماروه فيما رآه . هل يكون كل ذلك لرؤيا منامية ؟ وهل يقول المنكر : ان رؤيا جبريل فى المرة الأولى التى جاءت فى الحديث الصحيح ، حين رآه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم بحراء على صورته التى خلقه الله تعالى عليها قد سد الأفق ، كانت حلما أيضا ؟ أم يفرق بينهما والقرآن لم يفرق ، وجعل الرؤية فى المرة الأخرى عند سدرة المنتهى، كالرؤية الأولى فى الأرض ؟

وهل يقال ذلك اذا كانت احدى الرؤيتين صادقة والأخرى حلمـا ؟ وهل يحسن أن تجعل الضمير فى قوله تعالى : « ولقـد رآه نزلة أخرى » لروح النبى دون جسده ، وتغاير بينه وبين ما قبله وما بعده من الضمائر العائدة على شخصه صلى الله تعالى عليـه وعلى آله وسلم لا على روحه فقط ؟ وهل يسـهل عليك أن تقول : انهـا رؤيا منامية ، مع قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » ؟

وهل يقال فى الرؤيا المنامية : « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنة للناس » ؟

ومتى كانت رؤيا المنام فتنة لأحد ، فان كل انسان يرى بروحه ما شاء الله أن يرى من الكون فما وجه الافتتان وما معناه ؟

وأما التشبث بلفظ الرؤيادون الرؤية، فقدرده أهل اللغة، واستشهدوا عليه بقول الشاعر :

ورؤياك أحلى فى المنام من الغمض

على أنه جاء فى القصة ما هو قاطع فى الموضـــوع : فان النبى عليـــه الصلاة والسلام لما أخبرهم بذلك هاج هائجهم وقامت قيــامتهم ، فمنهم الواضع يده على رأسه تعجبا ، ومنهم المصفق ، حتى ورد أنه ارتد بعض من كان قد دخل فى الاسلام ، فهل ترى — أيدك الله — أن ذلك كله كان من آجل رؤيا منامية ؟

بل فى القصة ما هو أكثر من هذا ،وهو انهم سألوا النبى عليه الصلاة والسلام عن عيرهم التى كانت فيها تجارتهم فأجابهم بأنه مر بها وقــد ند منها بعير فانكسر ، وانه مر بعير أخرى قد ضلوا ناقة لهم وكان معهم قدح من الماء فشربه صلى الله عليه وسلم ، وقد سألوهم عندما قدموا الى مكة فصدقوا ذلك كله .

و فىالقصة أكثر من هذا ، فهل ترى أن الروح شربت الماء من القدح ؟ وهل يمكننا أن نقبل انهم يسألونه عن عيرهم وعن بيت المقدس وأبوابه وكل ما يتعلق به اذا كانت الرؤيا مناميــة ؟ وأى علاقة بين رؤيا المنــام وعيرهم التى تجىء من الشام ؟.

ولا نزال نقول : أى معنى لقصة قدح الماء اذا كانت الرؤيا منامية ؟ وأظن أن هذا القدر كاف للمنصف ، ولو شئنا لأطلنا .

والخلاصة أن الاسراء لو كان حلما ما كانت فيه آية ولا معجزة . ولا استبعده الكفار ، ولا كذبوه فيه ، ولا ارتد به ضعفاء الايمــان ، اذ مثل هذا من الأحلام لا ينكر ، ويؤكد ذلك مجيىء جبريل له بالبراق ، وخبر المعراج واستفتاح السماء ، فيقال : ومن معك ؟ فيقول : محمد .

ولقاؤه الأنبياء فيها وترحيبهم به ، وخطبهم فى بيت المقدس ورده عليهم وصلاتهم وراءه ، وتعيين محل كل واحد منهم والاخبار عنه بخبر خاص . وحديث فرض الصلاة ومراجعة موسى فى ذلك ، وقوله : ثم عرج بى حتى

ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام ، وانه وصل الى سدرة المنتهى وقد ورد أن جبريل تأخر عنه بعد سدرة المنتهى ، وقال له : لو تقدمت أنملة لاحترقت . مما يدل أن الرسول عليه الصلاة والسلام كانت روحانيته عند العروج به كانت تفوق روحانية جبريل عليه السلام . الى غير ذلك مما جاء فى القصة .

وهل عهد مثل ذلك فى رؤيا المنام ، وهل يقال فى رؤيا المنام : «مازاغ البصر وما طغى » . أو ينوه بشأنها هذا التنويه كله ؟

وهل يحسن أن يكون فرض الصلاة — وهى عماد الدين الاسلامى — فى النوم مع أن غيرها فرض فى اليقظة ؟

ولست أفهم الا أن هذا انكار لقدرة الله ، واذا فتش عن ايمان ذلك المنكر وجد ضعيفا به خلل ، وفيه دخل . وما أدرى ماذا يصنع فى مثل قوله تعالى : « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك » . وقوله : « فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » . وقوله : « فخذ أربعة من الطير فصرهن اليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا » الى غير ذلك من الآيات والمعجزات .

وان الايمان بذلك كله سهل لدى من يعتقد آن الله على كل شىء قدير ، واننا ما أوتينا من العلم الا قليلا .. ولنرجع الى الموضوع فنقول بالاختصار :

لو كان حلما لم يكن فيه آية مع ان الله يقول : « لقد رأى من آيات ربه الكبرى » ولو كان فى النوم عند عائشة رضى الله عنها ، كما يزعمه بعضهم ، لما أنكرت رؤيته صلى الله عليه وسلم ، فهى لم تنكرها الا لفهمها أن ذلك كان يقظة لا نوما . لأن رؤيا المنام لا تنكر من عائشة ولا من غيرها .

وبعد ، فقد عرج به صلى الله عليه وآله وسلم ، ليستبين بذلك العروج ، أن مقامه فوق مقامات الأنبياء ، اذ ارتفع عليهم جميعا ، حتى سمع

صريف الأقلام ، وكانت مناجاته فوق السموات العلاعلى غير ميعادولارياضة سابقة لكمال استعداده عليه الصلاة والسلام ليعلم ما بينه وبين غيره من الفرق فى التقريب والاصطفاء .

وكان العلو الحسى مستتبع العلو المعنوى ، فكلما ارتقى فى درجات السموات وما فوقها ، كان يرتقى فى درجات الروحانية والاستغراق فى جلال الله وعظمته ، ولا غرو ، فالأماكن لها خصائص ومميزات ، انظر الى الكعبة وما اختصت به من الرفعة والتعظيم ونزول الرحمات والبركات ، حتى استحقت أن تسمى ببيت الله ، وحرم الله .

وقد حدثت هذه الآية الكبرى حين نبذت الدعوة المحمدية فى كل مكان. وأعرض الناس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاشتد كربه ، وذلك بعد رجوعه من الطائف كئيبا حزينا حتى لم يستطع أن يدخل مكة وطنه الا بجوار مجير هو « المطعم بن عدى » ، فاتجه الى مولاه يستمد منه العون ، ويتضرع الى ربه ، يسأله الحول والقوة ، فأرسل اليه بعطفه من عالم الغيب مددا ، ومن القوة الروحانية والعوالم الغيبية عونا ، فصرف اليه نفرا من الجن حين بات بنخله فى رجوعه من الطائف ، وقد قام فى جوف الليل يصلى ، فاستمعوا له وهو يقرأ سورة الجن فلم يشعر بهم ، ثم رجعوا الى قومهم ، فأعلمه الله بذلك فى قوله تعالى : « واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا .. » الى قوله : « فى ضلال مبين » (الأحقاف ١٩ — ٣١) .

يقول « ارفنج » فى كتابه « حياة محمد » : ان هذه الزورة من الجن فيها عزاء وتسلية « لمحمد » بعد رجوعه من الطائف ، تلك الرجعة المؤلمة . اذ فيها اشارة له أنه اذا كانت دعوته قد نبذت وتعاليمه قد رفضت من معشر الانس ، فقد قوبلت باحترام واعجاب من الجن ، عالم الذكاء الغيبى غير المرئى .

ثم حدث الاسراء فى هذه الفترة ، وكان على التحقيق قبل بيعة العقبة. أى فى الليلة السابعة والعشرين من شهر رجب . أسرى بالرسول الأمين الى بيت المقدس وعرج به الى السموات ، وفرضت عليه الصلوات الخمس .

لاشك أن فى معجزة الاسراء ترفيها روحانيا ، ونموا نفسانيا ، واتصالا ومشاهدات ، وأنسا ونفحات ، وكل ذلك تسلية أى تسلية . وعزاء أى عزاء ، حتى لقد رجع صلى الله عليه وسلم من اسرائه ومعراجه . وقد خرج من همومه وأحزانه ، وفارقه ضيقه وكربه ، وفتحت أمامه أبواب السماء ، وصفت له النفوس ورحبت به أرواح فى العالم العلوى فتبدل من الوحشة أنسا ، ومن الاعراض اقبالا ، ومن الضعف قوة ، ومن الفشل نصرا ..

ولذا كان الاسراء ليلا تمكينا للتخصيص بمقام المحبة ، اذ الليل أخفى زمان للمحبين يجتمعان فيه ، فقصة الاسراء والمعراج من أشهر المعجزات ، وأصدق الأنباء والآيات ، وحديثها مختصر على ضوء الروايات صحيحها وحسنها ، فهو : انه عليه الصلاة والسلام أسرى به يقظة لا مناما من مكة الى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى الى باب المسجد الأقصى ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى ثم عرج به فى تلك الليلة من بيت المقدس الى السماء الدنيا ، فاستفتح له جبريل ففتح له ، فرأى هناك آدم أبا البشر فسلم عليه ورحب به ورد عليه السلام ، وأقر بنبوته ، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه وأرواح الأشقياء عن يساره ، ثم عرج به الى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها ، وسلم على الأنبياء الذين فى السموات بحسب منازلهم ودرجاتهم . حتى مر بموسى الكليم فى السادسة ، وابراهيم الخليل فى السابعة ، فسلم عليه ورحب به ، ثم جاوز منزلتيهما ، حتى انتهى الى مستوى سمع فيه صريف الأقلام ، ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر الله ما غشيها . ورأى البيت المعمور وابراهيم الخليل مسندا ظهره اليه يدخله كل يوم سبعون ألفا من الملائكة يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون اليه الى يوم القيامة .

ثم عرج به الى الجبار جل جلاله فدنا منه ، فأوحى الله الى عبده ما أوحى . وفرض عليه خمسين صلاة ، فرجع حتى مر بموسى فقال له : بم أمرت ؟ قال : بخمسين صلاة . قال : ان أمتك لا تطيق ذلك ، ارجع الى ربك فاسأله التخفيف لأمتك . فالتفت الى جبريل كأنه يستشيره فى ذلك . فأشار اليه أن نعم ان شئت .

فرجع صلوات الله عليه الى ربه ، فوضع عنه عشرا . فقال موسى : ارجع الى ربك فاسأله التخفيف .

فظل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل حتى جعلها خمسا ، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف ، فقال عليه الصلاة والسلام : قد استحييت من ربى ، ولكن أرضى وأسلم . فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضتى وخففت عن عبادى ، خمس فى العدد ، وخمسون فى الأجر .

ثم هبط الى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء ، فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة . ومن الناس من يزعم انه أمهم فى السماء .

والذى ذكره « ابن كثير » فى تفسيره ، وتظاهرت به الروايات أنه ببيت المقدس ، ولكن فى بعضها أنه كان أول دخوله اليه . والظاهر أنه بعد رجوعه اليه ، لأنه لما مر بهم فى منازلهم جعل يسأل عنهم جبريل واحدا واحدا ، وهو يخبره بهم . وهذا هو اللائق ، لأنه كان أولا مطلوبا الى الجناب العلوى ليفرض عليه وعلى أمته ما يشاء ، ثم لما فرغ من الذى أريد به اجتمع هو واخوانه من النبيين ، ثم أظهر الله شرفه وفضله عليهم بالتقدم فى الامامة . وذلك عن اشارة جبريل عليه السلام له فى ذلك ، ثم خرج من بيت المقدس فركب البراق وعاد الى مكة بغلس .

روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى عليه الصلاة والسلام : لقد رأيتنى فى الحجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها ، أى لم أكن أثبت صورتها فى ذهنى وفكرى لاشتغاله بما هو أهم منها ، فكربت كربا لم أكرب مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر اليه ، فما سألونى عن شىء الا أنبأتهم به ، فآمن من آمن وأنكر من أنكر : « انك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » .

وفى حديث أبى هريرة عند الطبرانى والبزار والبيهقى وابن جرير وأبى يعلى : انه عليه الصلاة والسلام مر على قوم يزرعون ويحصدون فى يوم كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال لجبريل : ماهذا ؟ قال : هؤلاء المجاهدون فى سبيل الله ، تضاعف لهم الحسنة الى سبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين .

ثم أتى على قوم ترضخ رءوسهم وتكسر بالصخر ، وكلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء ، فقال : ماهذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين تتثاقل رءوسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على اقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الأنعام ، يأكلون الضريع (الشوك اليابس) والزقوم (تمر شجر كريه الطعم) ورضف (الحجارة المحماة) جهنم . قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم ، وما ظلمهم الله ، وما الله بظلام للعبيد .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج فى قدر ولحم نيىء خبيث فى قدر ، فجعلوا يأكلون من النيىء الخبيث ويدعون النضيج . فقال : ماهؤلاء يا جبريل ؟ قال جبريل : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب فيأتى امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالا طيبا فتأتى رجلا خبيثا فتبيت عنده حتى تصبح .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت ، لا يفتر عنهم من ذلك شيء . قال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هؤلاء خطباء الفتنة يقولون ما لا يفعلون .

فهذا تصوير وتمثيل ، ورمز وارشارات للحال التى عليها أرواح هؤلاء بعد الموت من عذاب أليم ، وما ينتظرهم فى الآخرة من تعذيب وتنكيل فما رآه صلى الله عليه وسلم أشبه شيء بالصور السينمائية الصغيرة فى حجمها الكبيرة فى مرآها ، العظيمة فى العبرة بها والاتعاظ بمغزاها .

فاذا قيل : ما الحكمة من الاسراء به راكبا مع القدرة على طى الأرض له طيا ؟ قلنا ان ذلك كان تأنيسا له بالعادة فى مقام خرق العادة ، لأن العادة جرت أن الملك اذا استدعى من يختص به بعث اليه بمركب سنى يحمله عليه فى وفادته اليه ، فعامله الله تعالى بذلك تأنيسا له وتعظيما .

وقد اختلف فى الصفة التى رأى عليها نبينا الأنبياء ، فالرأى الذى ارتضاه المحققون أن تلك الرؤية كانت لأرواحهم متشكلة بصور أجسادهم الا عيسى ، لما ثبت أنه رفع بجسده .

ويؤيده حديث أبى هريرة عند الحاكم والبيهقى ، فلقى أرواح الأنبياء ، وفيه دليل على تشكيل الأرواح بصور أجسادها فى غير هذا العالم، وقد أطال ابن القيم فى كتاب الأرواح ، من ترجيح أن رؤيته انما هى لأرواحهم ، اذ الأجساد فى الأرض قطعا . وهى انما تبعث يوم القيامة ، ولو بعثت قبل ذلك لكانت انشقت عنهم الأرض قبلها ، وكانت تذوق الموت عند نفخ الصور ، وهذه موتة ثانية ، وهذا باطل قطعا .

وقد قال صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج شيخ الجامع الأزهر السابق :

وقد ثبت أن النبى عليه الصلاة والسلام وهو الصادق الأمين ، قد حدث صبيحة الليلة التى كان فيها الاسراء أنه أسرى به فى تلك الليلة من مكة الى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى ، وأنه قد عاد من ليلته الى مكة . وان أول من حدثهم بذلك « أم هانىء » بنت عمه أبى طالب ، فعجبت لهذا الأمر العظيم ، ونصحت له آلا يحدث به الأقوام من كفار قريش حتى لا يكذبوه ، لكنه عليه الصلاة والسلام ، لم يستمع لها . وخرج الى المسجد ، وجلس الى جوار الكعبة ، فمر به أبو جهل ، وهو ممعن فى تفكيره ، فقال له : هل من خبر ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم .

فقال : وما هو ؟

قال عليه الصلاة والسلام : انى أسرى بى الليلة الى بيت المقدس .

قال : الى بيت المقدس ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم .

قال أبو جهل: أرأيت ان دعوت قومك لك لتخبرهم أتخبرهم بما أخبرتنى به ؟

قال عليه الصلاة والسلام : نعم .

فنادى أبو جهل : هيا معشر قريش ، فاجتمعوا من أنديتهم . فقال للرسول عليه الصلاة والسلام : أخبر قومك بما أخبرتنى به .

فقص عليهم رسول الله عليه الصلاة والسلام أنه قد ذهب الى بيت المقدس تلك الليلة وصلى فيه ، فأخذوا يصفرون ويصفقون تكذيبا له واستبعادا لخبره .

وانتشر خبر ذلك فى مكة ، وذهب الناس الى أبى بكر يخبرونه الخبر. فقال لهم : انكم تكذبون عليه .

فقالوا : والله انه ليقوله .

فقال : ان كان قد قاله لقد صدق .

قالوا : تصدقه على ذلك ؟

قال : انى أصدقه على أبعد من ذلك ، أصدقه بخبر السماء غدوة أو روحة .

ثم جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحوله مشركو قريش يسألونه ويستنعتونه صفات بيت المقدس وأحواله . وكان فيهم من رأى بيت المقدس من قبل ، وعرف شيئا من معالمه وصفاته . قال النبى : فجعلت أخبرهم عن آياته ، فالتبس على بعض الشىء . فجعل الله لى بيت المقدس ، حتى جعلت أنظر اليه دون دار عقيل وأنعته لهم ... فقالوا : أما النعت فقد أصاب . ثم قالوا : أخبرنا عن عيرنا فهى أهم الينا . وهل لقيت منها شيئا ؟ قال : نعم . مررت بعير بنى فلان وهى بالروحاء . وقد أضلوا بعيرا لهم وهم فى طلبه وفى رحالهم قدح من ماء ، فعطشت وأخذته وشربته ووضعته كما كان ، فاسألوا : هل وجدوا الماء فى القدح حين رجعوا . قالوا : هذه آية. قال : ومررت بعير بنى فلان ، وفلان وفلان راكبان قعودا . فنفر بعيرهما منى فانكسر ، فاسألوهما عن ذلك . قالوا : هذه آية أخرى .

ثم سألوه عن العدة والأحمال والهيئات ، فمثلت له العير ، فأخبرهم عن كل ذلك ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، وفيها فلان وفلان. يقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان . قالوا : وهذه آية أخرى .

فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثنية فجعلوا ينظرون متى تطلع الشمس ليكذبوه . اذ قال قائل : هذه الشمس قد طلعت . وقال آخر :

هذه العير قد أقبلت ، يقدمها بعير أورق ، فيها فلان وفلان كما قال، لكنهم لم يؤمنوا وقالوا هذا سحر مبين .

ثم قال فضيلته : نود هنا أن نقف من حادثة الاسراء عند أمرين جديرين بالنظر والاعتبار :

الأول : ما كان من المشركين من اللجاجة فى الجدال . والالحاف فى السؤال عن العير وعدتها وأحمالها ، وعن صفات بيت المقدس ، دقيقها وجليلها ، خفيها وجليها .. ولم تكن أسئلة انصاف ومنطق عاقل . يقصد بها تعرف الحقيقة . وانما كانت أسئلة عناد ومشاغبة ، يراد بها اظهار الرسول عليه الصلاة والسلام بمظهر العاجز عن اجابتهم الى بعض ما سألوا ليكذبوه فيما أخبر به .

فهل كان المقصود من الاسراء برسول الله هو أن يعلم تفاصيل بيت المقدس ، ويعلم أيضا على وجه التفصيل حال عيرهم ، وأحمالها واقتابها ، وعددها وعدتها ؟

لكن الله العلى القدير أراد ألا يمكنهم من أن يصلوا الى غايتهم. فكشف لرسوله عن المواقع والمعالم . لما التبس عليه بعض الشيء مما سألوا عنه . وجلى له بيت المقدس . حتى كان ينظر اليه أقرب من دار عقيل . فجعل ينعته لهم . ويستملى اجاباته من مشاهداته . يسددها طعنات فى صدورهم . وغما وكمدا فى أفئدتهم . وأظهره الله عليهم . والله غالب على أمره . وهو القوى العزيز .

الأمر الثانى : أن بعض الناس قد حاول ـ بحسن نية ـ أن يقرب الى الأذهان مسألة الاسراء من مكة الى بيت المقدس بتلك السرعة الخاطفة التى لم يعهدها أحد . فقال : ان الاسراء بتلك السرعة بين هاتين البلدتين المتباعدتين . وقطع المسافة بينهما فى فترة قصيرة جدا . اذا كان عجيبا غريبا قبل ان تستخدم قوة البخار وقبل أن تستحدث الطائرات العادية . والطائرات النفاثة . والصواريخ الموجهة . فانه يجب أن يعتقد وأن يسلم به من غير تردد بعد ظهور تلك المخترعات وتلك المستحدثات . فان المسافات

البعيدة التى يحتاج فى قطعها راكب البعير أو الفرس الى ثلاثين وأربعين يوما يمكن أن تقطعها الطائرات فى بضع ساعات •

يريد أصحاب هذه المحاولات حسنو النية بهذا التقريب أن يضعوا واقعة الاسراء فى المحل الذى لا غرابة فيه والذى يثبت التقدم العلمى وقوع نظائر له ومشابهات • ليقنعوا — بصحة ذلك الاسراء وامكان حصوله — أصحاب العلوم المادية الذين لا يسلمون الا بما تلمسه أيديهم ، ويقع تحت أبصارهم • ويخضع لتجاربهم وقوانين علومهم • فى الحوادث والكائنات •

نية حسنة • ومقاصد طيبة • ولكنها تنطوى على شيء غير قليل من الغرارة وعدم التبصر • فى مجاراة الماديين الذين لا يؤمنون بمعجزات • فانه لا سبيل الى التقريب أو الربط بين أمور هى من فعل الانسان • يقدر عليها بتفكيره واستنباطه • ويتوصل اليها بأسباب مادية تخضع لقوانين علمية • ومعارف انسانية • وأمور أخرى لا دخل لقدرة الانسان فيها • وانما هو مظهر كونها • ومحل جريانها • يخلقها الله فيه • ويجريها على يديه • كما قال تعالى : « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » فان رمية واحدة بقبضة من الرمل أو الحصباء يصيب بها الرسول —صلى الله عليه وسلم — عيون فريق كبير من الأعداء فى غزوة بدر — حتى يكون ذلك من أسباب هزيمتهم واندحار جموعهم — ليس أمرا عاديا مما يكون فى طاقة الانسان • وانما هو فعل الله الخالق لكل شيء • القادر على كل شيء • القاهر فوق عباده • وهو الحكيم الخبير •

انه مهما تقدمت العلوم وارتقت الصناعات ، ووجد من المخترعات ما يبلغ فى غرابته وطرافته اضعاف اضعاف ما كشف عنه العلم الحديث الآن • فانه على كل حال يكون نوعا آخر غير نوع المعجزات التى يجريها الله على أيدى المختارين من رسله • فان هذه المعجزات ليست لها وسائل ومقدمات ولا أسباب وأدوات ، مما يدخل فى مقدور العباد .

أما المخترعات الانسانية فانها لابد أن تنبنى على قواعد وقوانين علمية • ولابد فيها من استخدام أجهزة وأدوات يتوصل فيها بالتحليل

والتركيب واحكام الصنع الى ما يراد تكوينه من مخترعات ، فالطيران فى السماء باستخدام الأجهزة والآلات البخارية وغيرها أمر بديع • وعمل انسانى عجيب ولكن له أسبابه ومقدماته العلمية التى يستطيع الطيران بها فى الجو كل من يعرفها ويعرف طريقة استخدامها فى ذلك •

أما الطيران من غير تلك الأسباب والمقدمات • فليس فى مقدور أحد من الناس • وعلى هذا الأساس يكون الفصل بين المعجزات وبين كل غريب عجيب من المبتكرات والمخترعات التى تنبنى على قوانين علمية • وأفكار واستنباطات انسانية •

ويصور العلم المسألة على الصورة المادية المنطقية التالية :

المسافة بين البيت الحرام بمكة وبيت المقدس بفلسطين تقرب من ١٥٠٠ كم ومثلها للعودة يقطعها الراجل فى ٣ شهور والابل فى نحو شهرين والسيارات فى أسبوع أو أسبوعين والطائرات فى ساعات •• ولم يكن فى زمن الرسول سوى الجمل • فلابد من معجزة •• والله العظيم يدعونا أن نفقه من أسرار الوجود ما نستطيع فى أرض وسموات • فى مادة وحياة : « قل انظروا ماذا فى السموات والأرض » « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء» • أما عباد الرحمن الكرام فأولئك الذين جاء فى وصفهم : « والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا » •

واستجابة لأمر الله العظيم نستهدى حكمته العالية فى فهم آية من آيات ربنا الكبرى عن بصيرة ويقين ••

ان معجزة الاسراء فى هذا المدى برسول الله الكريم جسدا وروحا أمر يقبله العلم الحديث • حيث يسلم بجواز قطع هذه المسافة بهذه السرعة دون خطر على الجسد الحى وطائراته اليوم وصواريخه تقطع بالانسان ما هو أبعد من ذلك ••

فان قيل : ان رسول الله ركب البراق فانطلق به ، اكتفى العلم الحديث بهذا الانطلاق • وان كان لا يعرف البراق •• وبعد : فحديث الاسراء أجمع

عليه المسلمون. وأعرض عنه الزنادقة الملحدون : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون » .

أما المعراج فهو قضية العقل والبصيرة حقا . فلنستفت فيها العلم .

ان المعراج صعود الى السماء الأولى حتى السابعة حتى سدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى .

فماذا يقول العلم فى البعد بين الأرض والسماء الأولى !؟

علم الفلك والطبيعة لا يعرفان عن السماء أكثر مما فى كتب اللغة — السماء — سمو وارتفاع وكل ما علاك فهو سماء . ومن ثم فليس فى مقاييسهما ادراك حقيقة عليا محيطة بالوجود المادى منفصلة عنه اسمها سماء .

بيد أنهما يقولان : ان سعة الكون المادى من نجوم ومجموعات شمسية ومجرات وسدم تبلغ فى حد علمنا ومراصدنا وعدسات مصوراتنا تبلغ ١٠٠٠ مليون سنة ضوئية ، فقد سجل مرصد جبل بالومار بكاليفورنيا مجرات تبعد عنا بمقدار بليون سنة ضوئية . ومعناه أن الضوء الذى ينطلق بسرعة ٣٠٠ ألف مليون سنة فى فضاء شاسع لا ندرى له حتى اليوم نهاية.

ومع ذلك فالعلم يلم بكون فسيح أرحب من هذا بكثير .. فمعادلة رياضية عند انيشتين تحسب لاتساع كرة الكون المادى ما يقرب من ٣٥ بليون سنة ضوئية لنصف قطرها . أى أننا نعيش فى كون مادى ينفسح الى ٧٠ ألف مليون سنة ضوئية .. وقد يكون أفسح من ذلك .

وثمة نظرية أخرى تقول : اننا لن نرى من هذا الكون المادى أكثر من ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية أى بليونى سنة من ٣٥ بليونا لنصف القطر كما تقول المعادلة الرياضية .

أما سبب ذلك : فهو ما سجلته المراصد من تباعد الأجرام والمجرات عنا بسرعات جبارة حتى تصل الى سرعة تعادل سرعة الضوء على مدى ٢٠٠٠ مليون سنة ضوئية . حيث تتعادل السرعتان . سرعة تباعد المجرات وسرعة

مقدم الضــوء الينا فتتلاشى رؤيتها وتسجيلها على هذا المدى فتصبح نهاية معرفتنا عن كرة الكون المادى لملايين الملايين من الشموس والنجوم والمجرات والكواكب والأقمار عند ٢ مليون سنة • ويظل مابعدها مجهولا لنا تماما • والعلم فى حيرة من تعليل نظرية تباعد هذه النجوم بهذه السرعات الجبارة والمطردة •

ومن ثم فالعلم المادى لا يعرف — بمقاييسه الحالية — سوى جزء يسير من الكون المادى ولا يدرى شيئا عن كون مستقل اسمه السماء • ذلك الشيء الذى ان كان فهــو من فوق هذه المجرات والنجــوم متساميا بطبيعته عن المادة ومجالاتها وأفلاكها •

ونرى أن نستفتى فى صنعة الوجــود كتاب الوجــود اتماما لصورة الوجود فأين وضع السموات كما يقول القرآن العظيم ؟

يحدثنا القرآن عن الكون المادى بنجومه ومجراته التى لا نجــد مما نراه ومما يخفى عنا سواء أرأينا مليون سنة ضوئية أو رأينا غدا بليون سنة ضوئية أو نراه بمعادلاتنا الرياضية ٧٠٠ بليون سنة لكرة الكون المادى •

يقول القرآن ان كل هذه الأجرام انما هى ثريات لزينة السماء الأولى التى تحيط بالكون المادى كله ثم من بعدها ست ســموات طباقا فى هذا الجلال والجمال بل أروع • تســكنها الملائكة خلق النــور • يسبحون بحمد الله آناء الوجود لا يفترون • يمضون فى الكون المادى كله بأمر الله لا يعصــون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون •• والآيات فى ذلك كثيرة ولنقرأ منها : «تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير» «الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » « والصافات صفا » « انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب » « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينــا طائعين • فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها ، وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم » (فصلت) • فالسماء الدنيا اذن زينتها القدرة الربانية بمصابيح الشموس والكواكب والأقمار ••

ثم يحيط بها ست سموات ما بين كل سماء وسماء كما بين الأرض والكون المادى والسماء الدنيا •• و « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » • « له ما فى السموات وما فى الأرض وهو العلى العظيم • تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض ألا ان الله هو الغفور الرحيم » (الشورى) •

وفى ذلك يقول الرسـول الكريم : أطت السماء وحق لها أن تئط • ما فيها موضع قدم الا وفيه ملك راكع لله أو ساجد » أما الملائكة فهم خلق النور كما يقول الحديث الآخر •

ومعنى هذا أنه بيننا وبين السماء الدنيا • نحو ـ سـكان الكون المادى ـ بلايين السنين بسرعة الضوء فما بالنا بالسموات السبع فسـدرة المنتهى التى عندها جنة المأوى ؟ ومن ثم فليس فى مقاييس العـلم المـادى ولا قوانينه ما يفسر معجزة المعراج • بالجسد الشريف •

وهنا يتدخل الصوفية الكرام ليقدموا حلا ملخصه •• أن الجسـد الشريف قد تحـول الى نور حتى يتكيف مع طبيعـة السمو الى ما فوق السموات •

والعلم الحـديث يسلم بأن الجسد الشريف من النور ، بل انه يقول : أن كل الكون المادى من النور، ذلك لأن الأرض كانت قطعـة من الشـمس أو من نجم آخر ، والأرض والشمس تشمل نيفا وتسعين عنصرا غازيا وسائلا وجامدا • وكل العناصر مكونة من ذرات لا ترى بأكبر المجاهر • وكل ذرة عبارة عن مجموعة شمسية كمجموعتنا الشمسية مكونة من شحنة كهربائية موجبة فى المركز تدور من حولها الكترونات — شحنات سالبة — ومعنى ذلك أن طبيعة كل مادة من الكهرباء أى النور •• ويزيد على ذلك ما يأتى:

ان تحـويل ظلال المادة الى اشـعاع ونور ينطلق بسرعة الضوء أمر مسلم به • فظاهرة التليفزيون والرادار ونقل الصور بالراديو الى الجرائد والمجلات • انما يتم بتحويل ذرات الصور المادية فى الفوتوغرافيا (الكوداك الالكترونى) الى ذبذبات كهـربية تنطلق عبر الأثير ثم تجمـع فى جهـاز الاستقبال (على شاشة التليفزيون أو الرادار) •

ومن قبل كانت معجزة النبوة الكريمة لدى سليمان ــ عليه السلام ــ اذ طار عرش بلقيس من اليمن الى فلسطين بنفس هذه القوانين • بسرعة الضوء بعد تحويله الى ذراته الأولية • فسجد سليمان شاكرا لله أنعمه وفضله •

وقص القرآن ذلك بعدها بعشرات القرون ومضى على المسلمين أربعة عشر قرنا فما دروا ــ يقينا ــ هذه القوانين • وما حاولوا أن ينظروا فى ملكوت السموات والأرض بالعلم والمعرفة • فسبقهم اليها غيرهم • ولكنها اليوم تعود اليهم بعون الله وتبصرهم فى آياته •

ومن ثم فهم يتطلعون مستقبلا الى نقل صور كاملة بل قطعا مجسمة بل مناضد وأرائك عبر الأثير بعد تحويلها الى ذبذبات كهربية أى الى ذراتها الأولى النورانية •• وتشاهد أوربا اليوم فى السينما العلمية شرائط لهذه النظرية • وشوهدت كذلك عندنا •

بيد أن العلم ان سلم بنقل المادة المجسدة بعد تحويلها الى ذبذبات كهربية فهو يرفض ذلك التفسير بالنسبة للجسد الحى الذى لابد أن تفارقه الحياة عند هذا الحد فضلا عن أنه لو قد تم ذلك لاحتاج الانتقال فى الكون المادى فقط بسرعة الضوء ٧٠ بليون سنة . فضلا عن السموات العلا والعودة منها • فرأى الصوفية وان كان مسلما من تحويل الجسد الشريف الى نور فهو غير مسلم لنهايته •

ويرى علم النفس أن المعراج رؤيا مع الحس ومن فوق الحس • فى ساعة من الصفاء النفسى الرفيع حلقت فيها القوى الادراكية والخيالية والتصويرية الجمالية الى آفاق عالية فى لحظات من اليقظة الواعية • فمرت بهذه المشاهد الرائعة التى كونت قصة المعراج والاسراء •

ولا شك أن الرسول الكريم • نفس تسامت حتى أصبحت الأرض والسموات بالنسبة لها دوائر صغيرة لا تملأ كيان نفسه • فتعالى عن كل ذلك فتهيأ لهذه الرؤيا فى آفاق من النور العالية .. مناما أو بين المنام واليقظة •• وأهل التفسير الظاهرى قد يسرهم هذا الرأى يهشون له

ليكونوا بعيدين من أعباء التحليق فى سموات الفكر والبصيرة • ويقرب منه تصور المعتزلة وعليه بعض الصحابة •• وبمثله يقول الاستاذ محمد حسين هيكل فى كتابه « حياة محمد » حيث يرى أن لحظة من لحظات الصفاء النفسى أحاطت نفس « محمد » العظيم بالوجود كله أرضه وسمواته وما فوق سمواته • وبالزمن سابقه ولاحقه • حتى شاهد الأنبياء قد تجمعوا من حوله يصلى بهم ويصعد اليهم فى سمواتهم ويشاهد مستقبل الأحداث كما يصوره له القرآن العظيم ••

ولقد لخص المستشرق « درمنجم » قصة الاسراء والمعراج من كتب السيرة ما ترجمته :

فى منتصف ليلة بلغ السكون فيها غاية جلاله • وصمتت فيها طيور الليل • وسكنت الضوارى وانقطع خرير الغدران وصفير الرياح • استيقظ محمد على صوت واضح كالطبل : أيها النائم قم ! وقام فاذا أمامه الملك جبريل يلمع فى الظلام الدامس • وكان النور يشع من أجنحته التى كانت من كل الألوان ترتعش • ومن وجهه الأبيض كبياض الثلج مرسلا شعره الاشقر واقفا فى ثيابه المزركشة بالدر والذهب • وكرر الملك نداءه • وأشار لمحمد أن يتبعه الى الطريق وكان أمام الدار دابة عجيبة هى البراق • لها أجنحة كأجنحة النسر • انحنت أمام الرسول فاعتلاها وانطلقت به انطلاق السهم فوق جبال مكة ورمال الصحراء •• الخ !

وها هو « ر•ف• بودلى » يقول فى كتابه « الرسول حياة محمد » عن الاسراء والمعراج (ض ١٢٩) : وعلى الرغم من أن الأمر يدعو الى التسلية الا أنه لا أثر له فى الاسلام • فقد كانت هذه الليلة « ليلة الاسراء » وقصة الاسراء تظهر فى معظم الكتب التى كتبت عن « محمد » فى أشكال متباينة • وان بعض ما جاء بها ملهم وبعضه مليء بالاحتقار وبعضه ركيك عديم الحجة •• وقال : ودخل محمد للراحة عند الغسق • وكان جسمه وروحه مثقلين مما لاقى من جهد فى سحابة يومه • فنام نوما عميقا على سجادة ابن عمه « المطعم بن عدى » ، وتحطم السكون الثقيل فجأة ، وبلغ أذنيه صوت واضح كالطبل : أيها النائم قم • وقام فاذا أمامه الملك جبريل.

يلمع فى الظلام الدامس . وكان النور يشع من أجنحته التى كانت من كل الألوان ترتعش ، ومن شعره الأبيض بياض الثلج، ومن ثيابه المزركشة بالدر والذهب . وكرر الملك نداءه . وأشار لمحمد أن يتبعه الى الطريق . وكان أمام الدار دابة براقة المظهر كجبريل . لها أجنحة براقة كأجنحة النسر . وكانت عيناها كالعقيق . وكان رأسها جميلا . وكانت تشبه الانسان . وقدم جبريل الدابة الى محمد وسماها البراق . وصهلت البراق . ثم سمحت لمحمد باعتلاء صهوتها . وانطلقت به تسابق الريح ... الخ .

ولم يعرض النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ فى حديثه عن أمر الاسراء حينما تحدث به الى قريش عند الكعبة كما علمنا ــ لأمر المعــراج . وهو صعوده الى السماء فى تلك الليلة التى كان فيها الاسراء .

والسر فى ذلك الاقتصار هو أن المعراج ما كان يمــكن . فى أغلب الأمر . أن يصــدق به رجل مشرك أو كافر لا يؤمن برسالة الرســول . ولا يذعن لما يذعن له المؤمنــون من أن الرســل معصومون من الــكذب والافتراء . فالتحــدث الى أولئك المشركين عن المعراج لا تكون له حينئذ جدوى . ولا يفيد أية فائدة . بل قد يكون من نتائجه أن يزيدهم كفرا الى كفرهم . وامعانا فى شركهم .

فانه ليس لأمر المعراج شــواهد ودلائل مادية . يمــكن أن يدلى بها اليهم . ليثبت لهم حقيقة ما يقول . سواء آمنوا بعد ذلك أم لجوا فى العناد والاباء ، كما كان فى الأسراء .

لكن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تحدث فى غير ذلك الموطن عن المعراج : حدث به أصحابه المؤمنين . وأخبرهم بما شاهده فى السموات من بديع الآيات . وما تلقاه من الأمر الالهى بفرض الصلوات الخمس اليومية.

هذا؛ والقرآن الكريم قد اشتملت آيات منه فى ســورة النجم على ما يثبت المعراج : ذلك قوله تعالى ، فى الاخبار عن رؤية النبى ــ صلى الله عليه وسلم ــ لسيد الملائكة جبريل عليه السلام : « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . اذ يغشى السدرة ما يغشى . ما

زاغ البصر وما طغى • لقد رأى من آيات ربه الكبرى » •• أى أن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ رأى جبريل مرة أخرى فى صورته الحقيقيــة الملكية فى السماء عند سدرة المنتهى • بعد مرة أولى رآه فيها على تلك الصورة • وكانت رؤية عينية بصرية كما نبأنا بذلك قوله تعالى : « ما زاغ البصر وما طغى » •

وبعد .. فحديث الاسراء أجمع عليه المسلمون ، وأعرض عنه الزنادقة الملحدون : « يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم • والله متم نوره ولو كره الكافرون » •

واقد أذاع الامام الأكبر المغفور له الشيخ « محمود شلتوت » شيخ الأزهر كلمة فى ذكرى الاسراء والمعراج قال : انه حادث اسلامى كان له أثره فى سير الدعوة المحمدية • وفى نفس الرسول ونفوس المؤمنين •

وأعلن أن عبرة الاسراءتوحى للمسلمين بضرورة حماية الروح وتطهيرها من بذور الشرك والوثنية والظلم والفساد • وبخاصة فى مبدأ الاسراء وهو المسجد الحرام وبيت المقدس الذى تألبت عليه قوى البغى والعدوان متمثلة فى اسرائيل •

ودعا الى توحيد كلمة المسلمين لتطهير أرض الله المقدسة منهم وقال : ان حادث الاسراء يوحى للمسلمين •• بمبدئه وهو « المسجد الحــرام » ومنتهاه وهو « المسجد الأقصى » • يوحى اليهم بتــذكر مهابط الوحى الأول الذى تلقاه ابراهيم واسماعيل ، ومهابط الوحى الثانى الذى تلقــاه « موسى وعيسى ومحمد » • ويوحى أيضا بأنها كلها مهابط الرسالات الالهية التى جاء بها « محمد » لتكميلها والهيمنة عليها •• كما يوحى بأن الرسالات — وان اختلفت أزمنتها وتعددت رسلها — واحدة فى دعــوتها وغايتها ، وان جميع الرسل الذين اصطفاهم الله لتبليغ تلك الرســالات بناة بيت واحد • يضع آخر لبنة فيه خاتمهم محمد بن عبد الله عليه الصــلاة والسلام وصاحب الاسراء والمعراج •

واذن فلا بد أن يخفق عليها دائما علم التوحيد والايمان على النحــو الذى جاء فى رسالته عليه السلام • ولابد أن تطهر رقعتها من بذور الشرك

والوثنية والظلم والفساد • وان يعلو فيها سلطان الحق وعدالة السماء والعدل وحرية الايمان والفكر والعمل : «يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » .

واذا كان المبدأ — وهو المسجد الحرام — يجب على المسلمين تطهيره وتطهير اقليمه مما تأباه الرسالة الالهية — وقد طهروها فعلا — فان منتهاه وهو المسجد الأقصى واقليمه يجب كذلك تطهيرهما مما تأباه الرسالة نفسها : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر • ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله • ولا يدينون دين الحق » •

ولعل هذا الايحاء كان أقوى ما حفز المسلمين الأولين الى العمل على رفع راية الاسلام على بيت المقدس واقليمه بعد أن رفعوها على المسجد الحرام واقليمه .

ولعل حديث سورة الاسراء عن كتاب موسى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى اسرائيل » وعن افساد بنى اسرائيل فى الأرض وخروجهم على مقتضى كتابهم « وقضينا الى بنى اسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين » • وعن وعيدهم فى الآيات نفسها بالتنكيل والعذاب اذا استمروا على الإفساد أو عادوا اليه : « وان عدتم عدنا » • وأخيرا عن شأن القرآن ومركزه فى هداية الله التى ختم بها رسالاته الى الأرض : « ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » •

لعل حديث السورة عن كل هذا بعد حديثها عن الاسراء مباشرة من أوضح ما يدل على هذا الايحاء ويرشد اليه •• وما حلقات التاريخ • وأحداث العدوان التى مرت ببيت المقدس واقليمه الى عيد النصر القريب (نصر بورسعيد) (٢٣ ديسمبر) ، ونهضة المسلمين فى مكافحتها الا شاهد عدل على صدق هذا الايحاء وتوجه النفوس الى تلبيته فى كل عصر وكل مكان •

واذن فجدير بالمسلمين اذا أرادوا أن ينتفعوا بذكرى الاسراء • وقد قص عليهم القرآن ما قص ، ورأوا بأعينهم من أعوام مضت ، أن الشياطين

عادوا الى ميدان الاسراء والمعراج ليلعبوا فيه من جديد دور الافساد الذى ورثوه عن أسلافهم وأخذوا يتكتلون ويتعاونون — من هنا وهناك — على تثبيت أقدامهم فى أرض المسلمين .. أرض بيت المقدس وضـواحيه . بعد سلبه من أهله . وقد تسللت منهم اليهم أفراد أعماهم الهوى وأضلتـهم الشياطين وغرتهم الدنيا بزخرفها .

جدير بالمسلمين أن تنفعل نفوسهم بهذا الايحاء الذى تمليـه عليهم ذكرى الاسراء ويرشدهم اليه كتابهم . عليهم أن يتنبهوا الى هذا الايحاء ويسيروا فى طريقـه كما سار فيـه أوائلهم من قبل . فيوحـدوا كلمتهم ويستردوا مكانتهم . ويطهروا أرض الله المقدسة من عبث المفسدين ويزيلوا عن أنفسهم تلك الوصمة التى كادت تقطع نسبهم بآبائهم الأولين ومكنت منهم أعداءهم الذين توعدهم الله بقوله : « وان عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . (نشر بجريدة الجمهورية فى ٤ ديسمبر ١٩٦٢) .

الفصل السادس
الرسول والمستشرقون

قوبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدر دعوته بكثير من الاعراض وكثير من النفور والانكار • قوبل بكثير من الايذاء وانقلب عليه سفهاء القوم يسبونه ويشتمونه ويرمونه بقوارص الكلم وزواجر اللفظ دون تردد ودون احجام ودون مراعاة ولا هيبة لمقامه الكريم • ولكن يشاء الله أن يعلى كلمة الحق وينصر رسوله المختار • ويجعل كلمة الذين آمنوا هى العليا ، وكلمة الذين كفروا هى السفلى ، فلينتشر الاسلام وترفرف ألويته الخفاقة على شتى البقاع والأصقاع ومختلف الأقطار والأمصار ، يجد أناسا يلتفون حوله ويقدرون دعوته ويقدسون رسالته بل يجد نفرا من المستشرقين ، قتلوا الأديان بحثا وتمحيصا ودراسة وتحليلا • ثم خرجوا من ذلك بنتيجة طيبة تعزز كلمة المسلمين وتنصر دين الاسلام على العالمين •

ومن هؤلاء المستشرقين الكاتب الانجليزى المعروف « كارليل » الذى يقول : انه لا يمكن أن يكون « محمد » كذوبا ، فانه ان كان كذلك فلا يستطيع أن يأتى بمثل هذا الدين العجيب ، والله ان الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتا من اللبن اذا لم يكن عليما بمواد البناء على اختلاف أنواعها • فما بالك بمواد بناء صرح شامخ البنيان مدعم الأركان مثل دين الاسلام الذى ظل على قوته وعظمته قرونا طوالا •

ومن هؤلاء المستشرقين أيضا الكاتب الانجليزى المشهور « هـ• ج• ويلز » الذى قال : ان من أدفع الأدلة على صدق « محمد » كون أهله وأقرب الناس اليه يؤمنون به فقد كانوا مطلعين على أسراره ولو شكوا فى صدقه لما آمنوا به •

ويقول « برناردشو » : اننى أعتقد أن رجلا « كمحمد » لو تسلم زمام الحكم المطلق فى العالم أجمع لتم له النجاح فى حكمه ولقاده الى الخير ولحل مشاكله على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة •

والواقع أن برنارد شو اذ ينطق بهذه الشهادة انما يسجل حقيقة واقعة • وانما يرد الحق الى ذويه • والقوس الى باريه • رغم أن الجميع يعرف عن شو سخريته اللاذعة • وتهكمه المرير الذى لا ينجو منه شىء حتى الدين ورجاله •

وقال « فنلى » فى كتابه « اليونان تحت حكم الرومان » : ان نجاح « محمد » كمشرع بين أقدم الأمم وأثبت البلدان قدما فى القانون مدى أجيال طويلة فى شتى نواحى الهيكل الاجتماعى دليل على أن هذا الرجل الخارق قد كون من مزيج من كفايات ممتازة !

وقال « كارليل » أيضا : أتريد دليلا ممن يدعى لك أنه بناء ، أقوى من أن يبنى لك دارا تسع الملايين الكثيرة من الناس وتدوم قرونا طويلة لا يعتريها تصدع ولا يعتورها أقل خلل .. كذلك هل يطلب طالب من مدعى النبوة دليلا أقوى من أن ينشر دينا بين ملايين من البشر يستمرون عليه قرونا طويلة ويتحمسون له تحمسا كبيرا ؟

« فمحمد » قال بأنه رسول من عند الله • وبرهن على صدق قوله بدين نشره فى الناس أخذ به مئات من الملايين ومضى عليهم فى ذلك قرونا طويلة وهم يحبون دينهم هذا ويتحمسون له أكبر تحمس ، فماذا يراد من الأدلة على نبوته بعد ذلك ؟ •

ألا فليعلم الناس أن التعاليم كأوراق « البنكنوت » فالصادقة منها تتداول بين الناس ولا تثير أقل شبهة . والزائفة منها تخدع بعض الناس مرة أو مرتين ثم يفتضح أمرها وتعرف أنها زائفة فتمزق كل ممزق .

وذكر المؤرخ الكبير « جوستاف لوبون » عن القرآن الكريم والدعوة المحمدية : حسب هذا الكتاب جلالة ومجدا أن الأربعة عشر قرنا الى مرت عليه لم تستطع أن تجفف ولو بعض الشىء من أسلوبه الذى لا يزال غضا

كأن عهده وعهد رسالته بالوجود أمس . وقال العالم الفرنسى « بلانشيه » : ان الفتى « محمدا » يعد من أبرز وأشهر رجـال التاريخ . فقد قام بثلاثة أعمال عظيمة دفعة واحدة . وهى أنه أحيا شعبا وأنشأ امبراطورية وأسس دينا ، وقال الشاعر الفرنسى اللامع « الفونس لامارتين » الذى عرف بحبه للشرق وتعمقه فى الدراسات الشرقية والاسلامية :

ان حياة مثل حياة « محمد » وقوة كقوة تأمله وتفكيره وجهاده.ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه . وبأسه فى لقاء ما لقيه من عبدة الأوثان . وايمانه بالظفر . واعـلاء كلمته ورباطة جأشـه لتثبيت أركان العقيـدة الاسـلامية . ان كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل . فهو فيلسوف ، وخطيب ، ورسول ، ومشرع ، وهادى الانسان الى العقل ، وناشر العقائد المعقولة الموافقة للذهن واللب ومؤسس دين لا فرية فيه ولا صور ولا رقيات . ومنشىء عشرين دولة فى الأرض وفاتح دولة فى السماء من ناحية الروح والفؤاد . فأى رجل أدرك من العظمة الانسانية مثل ما أدرك . وأى انسان بلغ من مراتب الكمال مثل ما بلغ .

وقول « طـوراندريه » و « جـورج مارسيه » فى كتابهما « العالم الشرقى » عن محمد (صلى الله عليه وسلم) : كان شجاعا يخوض المعركة بنفسه ليرد الثبات الى قلوب الذين يضعفون . وكان رحيما بالضعفاء يؤوى فى بيته عددا كبيرا من المحتاجين . وكان مع احتفاظه بهيبته كاملة . بسيط الحركات لا يتكلف شيئا . بشوشا سهل المعاملة . رقيق الحاشية . لا يثير غضبة أهل الفضول والسماحة . وكان محمد رجلا . وكان فيه لا شك كثير من الخلال التى اتسم بها رجال عصره . ولكنه حمل الى هؤلاء الرجال مثلا رفيعا فى الدين والأخلاق وسما سموا بالغا عن الآراء القديمـة التى كانوا يرزحون تحت ثقلها وهو اذ جمعهم عصبة واحدة تحت راية ذلك المثل الرفيع قد صنع منهم قوة قدر لها فيما بعد . أن تهز أركان العالم القديم .

كما وصف الكاتب الفرنسى « اتيان دينيه » مولد الرسول الـكريم فى كتابه « حياة محمد » .. ولم يغفل اعجابه بالاسلام وتعاليمه حين قال : ألمح الآن شعاعا ورديا يتدفق فى الأفق والنجوم يبهت لونها . ويطرق سمعى

لحن موسيقى يتردد صداه فى هدأة الليل — الله أكبر لا اله الا الله ! محمد رسول الله ، حى على الصلاة . حى على الفلاح — والألحــان الأخيرة من هذا النداء الذى يرسله المؤذن ترتفع من المنـارات الشاهقة الرشيقة فـوق أعالى البيـوت • وذوائب نخيل الغابة ذاهبـة الى حيث تغنى فى جنبات الصحراء اللانهـائية . وفى كل يوم كلما غيرت الشمس من ألوان ضوئها فى فجرها الأرجوانى • وفى ظهيرتها المحتدمة • وفى عصرها المذهب وفى مغربها المخضوب بصفرة الحزن على فراقها • وفى تكفنها أخيرا بأوشحة من ظلام الليـل يرى المسلمون جميعا أنه من المحتم عليهم أن يتجردوا من أعمـالهم وشواغلهم • ليس فقط فى المساجد • بل أيضا فى البيوت • وفى الشوارع والأسواق . وفى الحقول والصحارى . وفى كل مكان لكى يمجدوا مفيض الخير جل سناه ..

ولقد أثبت المؤتمر الوطنى التاسع عشر لمكافحة المسكرات الذى عقـد فى مدينة « انفرس » ببلجيكا منذ سنوات صدق الدعوة المحمدية وحكمة الاسـلام فى تحريم الخمر . اذ وقف أحد أعضاء المؤتمر الدولى وقال : ان جزيرة ايسلندة • وهى من أشـد البلدان بردا • كان أهلها يستعينون على مكافحة البرد بتعاطى المشروبات الروحية • فكثرت بينهم الوفيات الى حد أقلق بال ولاة أمورهم فألفوا لجنة لتبحـث فى الأمر وتتعـرف أسبابه : فأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات ترجع الى أن القوم يستنفذون حرارة أجسامهم بما يتعاطونه من الخمر مما تعجل بوفاتهم لانتهاء الحرارة تدريجيا من أجسامهم •

كما نهض عضو آخـر من أعضاء هذا المؤتمر وذكـر أن الدكتور « سـكوت » ورفاقه حين ذهبوا فى منطاد لارتيـاد القطب الجنوبى أدرك سكوت سوء تأثير الخمر فأوصى أصحابه بألا يشربوا خمـرا لئلا يفقدوا مناعة أجسامهم فلا تقـوى على تحمل البرد الا أن بعض رفاقه لم يستمعوا الى نصيحته •• وتجرعـوا بعض أقداح من الخمـر • فكانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت فى مذكراته أن الذين اتبعوا سبيله • واجتنبوا شرب الخمر بتاتا نجوا من الموت دون غيرهم •

وهكذا نجد بعض المستشرقين وعلماء الغرب يؤيدون الدعوة المحمدية ، ويقدرون محمدا ودعوته بطريق مباشر أو غير مباشر ، ولعمرى أن هذا لنصر عظيم للاسلام يحق له أن يتيه بذكره على مر السنين والأيام .

وقد كتبت دائرة المعارف البريطانية Encgclopaedia Biitanica الطبعة الحادية عشرة : كان « محمد » أظهر الشخصيات الدينية العظيمة ، وأكثرها نجاحا وتوفيقا، ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد هووا الى الحضيض ،فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة ، ولا مبادىء مدنية أو سياسية أو اجتماعية ، ولم يكن لهم ما يفاخرون به ، من الفن أو العلوم ، وماكانوا على اتصال بالعالم الخارجى،وكانوا مفككين، لا رابط بينهم،كل قبيلة وحدة مستقلة ، وكل منها فى قتال مع الأخرى ، وحاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت وباءت محاولات المسيحية بالخيبة . كما خابت جميع المحاولات السابقة للاصلاح . ولكن ظهر النبى « محمد » . الذى أرسل هدى للعالمين ، فاستطاع فى سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة من جزيرة العرب ، وأن يرفعها من الوثنية المحطة الى التوحيد . وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة الى طريق الهدى والفرقان ، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد ، بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد . وانتشروا فى الأرض يعملون على رفع كلمة الله وعبدوا الله حق العبادة ، حتى فاقواالنساك والزاهدين . ولكنهم كانوا يأخذون من الدنيا ، فاذا ما أذن للصلاة تركوا التجارة والبيع وتوجهوا الى الله رب العالمين ، وكانوا يقضون القسم الأكبر من الليل فى عبادة وتسبيح . وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المنقطعين فى الصوامع للتعبد ، فسموا بفضل الاسلام الى ذروة السمو الخلقى . وكانت أعمالهم فى دنياهم مصداقا لتقواهم ، فاحتلوا مكانا مرموقا بين غزاة العالم العظام . لقد ذابت الامبراطوريات العظمى تحت حرارة ايمانهم كما يذوب الجليد تحت حرارة الشمس اللافحة . ولم يكتفوا بغزو الأقطار الشاسعة ، بل أقاموا أركان دولة عظيمة دامت أكثر من ثلاثة عشر قرنا . قوية عزيزة الجانب بغض النظر عن الأجيال التى تضعضعت أخيرا . لقد وصل المسلمون الى ذروة السمو الروحى ، والرخاء الاقتصادى ، وتثقفوا بعلوم الاسلام

التى فاض خيرها على العالم أجمع فى ذلك الوقت ، والتى تغلغل ضوؤها ليبدد دياجير الجهل المتفشى فى كل مكان ، وانه لعجيب حقا أن يتم هذا فى عشرين عاما فقط . اذن لقد كانت تعاليم النبى سهلة من الميسور الأخذ بها ، وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البارع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية . كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول بل من يقوم باصلاح العالم فيهديه الى الصراط المستقيم . وهذا هو الذى رفع النبى فوق هامات المصلحين والهادين فى أعين المفكرين من ذوى العقول الناضجة .

والميزة الثانية التى تجعله مبرزا بين المصلحين والرسل ، هى أنه أرسل الى العالم كافة ، فان رسالته عالمية على عكس الرسل الآخرين . فقد أرسل كل رسول لأمة واحدة خاصة . وقد كان فى يد كل منهم كتاب ، ولكنه كان كتابا لشعب معين . وكان غرض كل منهم تطهير النفس الانسانية . ولكن كان عملهم محددا . أما النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد أرسل الى الناس كافة ، وكانت رسالته عالمية ، قال الله تعالى : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » . « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » و « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » و « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » .

هذا بعض ما جاء فى عالمية رسالة النبى محمد (صلى الله عليه وسلم) ، وانه ما أرسل الا هدى للعالمين . ويقول القرآن أيضا : « وما تسألهم عليه من أجر ان هو الا ذكر للعالمين » .

وكانت البشرية فيما مضى منقسمة الى أقسام منفصلة ، لا ارتباط بينها . وكانت وسائل المواصلات جد محدودة . فما كان من المأمول فى مثل هذه الظروف أن تنتشر فكرة روحية بين الشعوب المتباعدة بل كان من المنتظر أن تظل كل فكرة حبيسة فى مواطنها ، لذلك كانت ارادة الله متمشية مع الظروف، فكانت رسالة الرسل لشعبهم فقط المنفصل عن العالم، كما كانت كل رسالة تناسب الشعب الذى نزلت له ، وتتفق مع حاجاته . وقام كل

رسول منهم بما طلب منه . فدعا قومه لعبادة الله ، ولما كانت رسالتهم محدودة . فقد كانت قوتهم الروحية محدودة أيضا . فكان نور رسالة كل منهم يلمع فترة ، ثم يخبو رويدا رويدا حتى ينطفىء ، فتعود الحاجة الى ظهور نور يبدد ظلمات الجهل التى يتراكم بعضها فوق بعض . وهكذا ظهر الأنبياء بعضهم فى اثر بعض . وكان من نتيجة ارسال كل رسول الى أمته، أن جهلت كل أمة بمن أرسل لغيرها من الرسل . فظن كل منها أنه شعب الله المختار ، وان السماء خصته برحمتها . وساء ظن كل شعب بالشعوب الأخرى . فأراد الله أن يزيل هذه الفوارق بين الناس ، وأن يجعل الناس أمة واحدة . فأرسل نبيا عالميا الى الناس كافة وأمده بقوة روحية لا حد لها ، فكانت عالمية فى الزمان والمكان ، لتبقى الى أبد الأبدين ..

انتهت سلسلة الأنبياء المرسلين لهداية شعوبهم وحدها بظهور « عيسى ابن مريم عليه السلام » . وقد قال انه ما جاء الا لهداية أغنام بنى اسرائيل الضالة ، ولما حان وقت ارسال رسالته الى العالم أجمعين . أرسل النبى محمد صلى الله عليه وسلم فظهرت شمس الهداية فى سماء بلاد العرب لتنير العالم كله ، وتهديه الى الطريق القويم .

أرسل الرسل وفى يد كل منهم مشعل من نور الهداية ، وما كانت هذه المشاعل لتنضىء الا أفقا خاصا ، ولكن ما أشرقت شمس الاسلام ، حتى بهرت الناس هذه المشاعل وأصبح نورها وحده كافيا لانارة السبيل أمام العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

ومن الواضح استحالة الوصول الى هدف فى الحياة ، ما لم يكن أمام أعيننا هذا الهدف واضحا جليا ، وكان هدف كل نبى هداية شعبه ، وضم الأفراد المتنافرين فى جماعات متحابة . وكان هدف النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، ضم هذه الجماعات فى اخاء عالمى عام .

فقد كانت الديانات السابقة ترمى الى ضم الأفراد فى جماعات ، وهى خدمة جليلة . أما محمد فقد كان يرمى الى جعل هذه الجماعات المتفرقة أمة واحدة .

وعلى ذلك فميزة النبى محمد الثالثة هى أنه أرسل ليهدى الناس كافة الى دين الله على حين أن الرسل الذين أرسلوا قبله كانوا لهداية شعوبهم فقط •

كان هدف الرسالات السابقة السمو بطبيعة من طبائع البشر المتعددة • فكان كل نبى من الأنبياء آية فى صفة واحدة من الصفات . ولكن النبى محمد كان آية فى جميع السجايا وجاء ليسمو بأخلاق الناس كلهم • وكان المثل الأعلى للانسان الكامل . كان كل نبى من أنبياء بنى اسرائيل يتصف بصفة واحدة جليلة • أما النبى محمد فقد كان يتصف بجميع الصفات الحميدة ، وجمع فى شخصه جميع سجايا أنبياء بنى اسرائيل • فكانت فيه رجولة موسى ، ورحمة هارون ، وصبر أيوب ، وجرأة داود ، وعظمة سليمان ، ووداعة يحيى ، وتواضع المسيح ، وكان موسى ، أول أنبياء بنى اسرائيل مثال القوة والعظمة • وكان عيسى آخر أنبيائهم • مثال التواضع والحكم والوداعة• وقد جمع النبى محمد هذه الصفات جميعا ، وكانت ظاهرة فيه ظهورا واضحا• لقد كان كل نبى منهم يشع شعاعا فى السجايا الحميدة ، وكان محمد مجمع هذه السجايا فكان يشعها جميعا مجتمعة وهذه هى ميزته الرابعة •

لكل شخصية عظيمة ناحية تظهر فيها هذه العظمة ، ومجال واحد لنشاطها ، ولكن « محمدا صلى الله عليه وسلم » كان عظيما فى كل ناحية . وكان مجال أثره العالم أجمع . فلو كان مقياس العظمة هو اصلاح شعب متدهور ، فمن ذا يتطاول الى مكان « محمد » ؟ انه سما بأمة متدهورة وانتشلها من الجهل ، ورفعها الى أعلى عليين ، وجعلها مشعلا للمدنية والعلم والعرفان .

ولو كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الأوصال ، فمن أجدر بهذه العظمة من « محمد » الذى جمع شمل العرب الذين كانوا قبائل متنافرة متشاحنة ، وجعلهم أمة عظيمة جديرة بالوقوف فى وجه أعظم الامبراطوريات يومئذ • ولو كان مقياس العظمة هو اقامة حكم السماء على الأرض ، فمن ذا الذى ينافس محمدا ، وقد محا الوثنية من الأرض محوا ؟ ورفع اسم الواحد القهار !• ولو كان مقياس العظمة هو السمو الخلقى ، فمن

يقف بجوار محمد فى السمو والرفعة والأخلاق بعد أن سماه أعداؤه قبل أصحابه « الأمين » ؟ ولو كان مقياس العظمة الانتصار ، ومد النفوذ والسلطان فمن يدانيه فى هذا وقد كان يتيما وحيدا ، لا حول له ولا سلطان؟ فأصبح مؤسسا لامبراطورية بقيت ١٣ قرنا صامدة فى وجه جميع المحاولات الخائبة التى بذلت للنيل منها ، ان هذا ليس له نظير فى تاريخ البشرية جمعاء، ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلد فى النفوس على مر الأجيال ، فان « محمدا » فريد فى هذا الباب ، فان ذكره لا زال حتى اليوم مستحوذا على أفئدة أربعمائة مليون من الناس فى مختلف البقاع ، وانهم مرتبطون بفضله بروابط الاخوة ، بغض النظر عن أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم ، وهذه ميزته الخامسة ولا شك .

وميزة محمد السادسة : أنه ليس وليد بيئته ، فان الظروف كثيرا ماتكون عاملة على خلق ما نسميهم عظماء الرجال ، فاذا ما ظهر الجدل بين قوم من الأقوام ، عن حقيقة علمية ، فسرعان ما يظهر بينهم فيلسوف يجلو لهم الحقيقة . واذا أصبح الغزو طبيعة عصر من العصور ، فسرعان ما يظهر القائد المرتقب . كذلك الحال فى مختلف النشاط الانسانى كالشعر والفن والنحت والتصوير والموسيقى ، وحتى التعاليم الخلقية والنفسية والوعظية ، والبيئة والجو هما اللذان يمهدان الطريق لظهور الشاعر والمثال ، والمصور ، والموسيقى ، والواعظ ، وغيرهم . وان جل الزعماء الذين اشتهرت أسماؤهم، ما ظهروا الا تحت ضغط الحاجة اليهم . فاذا ما اشتدت الحاجة الى بطل من الأبطال ، ظهر هذا البطل ، ولكن ظهور النبى كان يخالف ذلك كل المخالفة . فما كانت حالة بلاد العرب ، وقت ظهوره ، تبشر بظهوره ، بل ان ظهوره كان مضادا لحالة العرب ، آنئذ كانت الوثنية ، وتعدد الآلهة شيئا عاديا فاشيا ، ولكن النبى هاجم الأوثان وعباداتها ، وهو فى السادسة عشرة من عمره . وكانت الخزعبلات ، والأمراض النفسية فاشية . فكان ذلك لا يبشر بظهور نور الحق . وكان المجتمع العربى غارقا فى لجج الجهالة ، أفكانت هذه الظروف مبشرة بظهور فيلسوف أعظم كالنبى ؟. كان الأفراد فى جميع بلاد العرب يفاخرون بالخروج على القبيلة ، وكانت كل قبيلة فى قتال مع الأخرى . وكان

الجميع يكرهون فكرة الحكومة المركزية ، أو سلطان الحاكم . فهل كان من المرجو ظهور رجل يدعو الى الوحدة والحكم المنظم !. كانت الخمر والميسر ، واللذات الجنسية هدفهم . وكان وأد البنات فاشيا بينهم . وكانت النساء تعامل معاملة الأنعام ، أفكانت هذه الظروف مبشرة بظهور نصير المرأة ومحررها والمدافع عن حقوقها ؟. مما لا شك فيه أن يد الله القوية ، التى أودعت اللؤلؤ قاع البحار ، هى التى أخرجت هذا النور الساطع من وسط هذا الليل الحالك الظلام ليبدد سحب الفساد ، وليطهر العالم من أدرانه وأوزاره .

واليكم ميزة النبى العظمى ، ألا وهى وضع أساس للسلم العالمى ، فهو لم يضع الأسس التى يعيش الأفراد بمقتضاها فى سلام ، جنبا الى جنب فحسب . بل علمهم كيف تعيش القبائل والشعوب فى سلام ، وعلمهم كيف تعيش العقائد والأديان جنبا الى جنب فى سلام ووئام ، ألم يكن أعظم من ظهر على وجه الأرض ؟ ومع ذلك كان عظيم التواضع ، لا يعتبر نفسه الا انسانا عاديا كسائر البشر : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى » . كان يعتبر نفسه فردا من الأفراد ، له ما لهم من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات ، حقوق للجميع متساوية ، وواجبات على الجميع متساوية ، لا فرق بين كبير وصغير ولا ذكر وأنثى ، ولاعربى وأعجمى ، وهذه هى عدالة الاسلام .

وتلك هى أيضا آراء بعض كبار رجال الفكر العالمى فى رسول الاسلام صلوات الله عليه ..

قال الفيلسوف الروسى « تولستوى » : وخلاصة الديانة التى نادى بها محمد صلى الله عليه وسلم هى أن الله واحد لا اله الا هو . ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة وان الله رحيم عادل وان مصير الانسان النهائى متوقف على الانسان نفسه فاذا سار حسب شريعة الله وائتمر بأوامره واجتنب نواهيه فانه يظفر بالقوة فى الحياة الدنيا ويؤجر أجرا حسنا فى الحياة الأخرى . وان كل شىء فى هذه الدنيا زائل ولا يبقى الا الله ذو الجلال وانه بدون الايمان بالله واتمام وصاياه لا يمكن أن تكون حياة حقيقية وان الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم ، ومحبة الله تكون فى الصلاة ، ومحبة الناس فى

مشاركتهم فى السراء والضراء ومساعدتهم ، والصفح عن زلاتهم . وان الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لا بعاد كل ما من شأنه اثارة الشهوات النفسية ، والابتعاد أيضا عن الملذات الأرضية ، وانه يتحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدوه بل يجب عليهم أن يخدموا الروح والجسد معا و « محمد صلى الله عليه وسلم » لم يقل عن نفسه أنه نبى الله الوحيد بل اعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى ، وقال : ان اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم .

وفى سنى دعوة « محمد صلى الله عليه وسلم » احتمل كثيرا من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة شأن كل نبى قبله نادى أمته الى الحق ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه ، بل ثابر على دعوته فى قوة ، وثقة وايمان لا مثيل له فى التاريخ . ومما لا ريب فيه ان النبى محمدا من أعظم الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمات جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى مئات الملايين الى نور الحق ، والى السكينة والسلام ، وفتح للانسانية طريقا للحياة الروحية العالية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به الا شخص أوتى قـوة والهاما وعونا من السماء .

أما السير « وليام ميوير » الانجليزى ، فيقول فى كتابه « حياة محمد » : ومن صفاته (عليه السـلام) الجديرة بالتنويه والاجلال ، الرقة والاحترام اللتين كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهما شأنا ، فالتواضع والرأفة والانسانية وانكار الذات والسماحة والاخاء تغلغلت فى نفسه ووثقت به محبة كل من حوله .

وقد قالت عنه السيدة عائشة : انه كان أشـد حيـاء من العذراء فى خدرها ، وكان اذا ساءه شيء تبيناه فى أسارير وجهه أكثر من كلامه ، ولم يمس أحدا بالضرر الا فى سبيل الله ، ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن اجابة دعوة الى بيت مهما كان حقيرا ، أو يرفض هبة مهداة اليه مهما كانت صغيرة . واذا جلس الى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخا منه وكبرا . وكانت له تلك الخلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار ، وكان يرثى كثيرا للثكالى والمنكوبين واليتامى ، كما كان سهلا لين العريكة .

مع الأطفال وكان يشرك غيره فى طعامه حتى فى أوقات العسر والاملاق ، ويهتم جهد الطاقة بتوفير أسباب الراحة لأنصاره وتابعيه . وكان صديقا وفيا . كما كان فى ممارسته للحكم عادلا رحيما رفيقا حتى بأعدائه . وقد أصدر عفوا عاما عن مشركى مكة رغم ما لاقى منهم من سخرية واهانة واضطهاد .

وتلك الخلال العالية هى جماع الفضائل الانسانية ، وهى آية على أنه كان مؤسسا لديانة سماوية لا متطلعا الى ملك دنيوى .

ومما قاله « توماس كارليل » أيضا فى كتابه « الأبطال » لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى الى تلك الاتهامات التى وجهت الى الاسلام والى نبيه . وواجبنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فان الرسالة التى أداها ذلك الرسول الكريم ما زالت السراج المنير لنحو أربعمائة مليون من الناس .

والرجل العظيم فى نظرى مخلوق من فؤاد الدنيا واحشاء الكون فهو جزء من الحقائق الجوهرية للأشياء . ومحمد صلى الله عليه وسلم كان كذلك . وكان فوق ذلك الرجل العظيم الذى علمه الله العلم والحكمة . وما كلمته الا صوت صادق صادر من السموات العلا .

والعالم الهندى « ت. ل. فسوانى » قال : تأملت أمر محمد صلى الله عليه وسلم فتعجبت من هذا الرجل العظيم الذى نشأ بين هؤلاء القوم المختلى النظام . الفاسدى الأخلاق العابدى الأحجار . هذا الرجل « محمد » صلى الله عليه وسلم وقف تقريبا وحده شجاعا متحديا غير هياب ولا وجل فى وجه التوعد بالقتل فمن أعطاه القوة التى قام بها .. كان بطلا من أبطال الأساطير . ثم استمعوا لكلامه . فمن أين جاء سحر بيانه . ثم انظروا الى أعماله كيف ألف بين النبلاء الأشراف والصعاليك المنبوذين حتى صاروا اخوانا وخلانا ؟ فنحن هنا فى الهند الى الآن لا نزال نقتتل من أجل جواز لمس البعض البعض الآخر وعدمه . ولا نزال عاجزين عن اباحة الدخول الى بيوت الآلهة للمنبوذين من أبناء جلدتنا .. من أين استمد محمد صلى الله عليه وسلم قوة حياته الغالبة ؟

الهند الآن مصابة بشرب الخمر والرجل محمد صلى الله عليه وسلم . كما تقول الكتب المقدسة اقترح مقاطعة الخمر وكل شراب مسكر فقام أصحابه وألقوا دنان الخمر فى أزقة المدينة وحطموها تحطيما .

لقد كان تصرف محمد صلى الله عليه وسلم فى قومه كالتنويم المغناطيسى. فمن أين جاءه سر هذه القوة ..؟

ألم تر أنهم كانوا أشتاتا قد عمتهم الفوضى فألف بين قلوبهم وجعلهم أمة واحدة وكانوا راسبين فى التوجس فرفعهم وأنقذهم ، وجعلهم عظماء أقوياء فى عين أمم الأرض كلها فصارت الأمة العربية صاحبة القيادة العليا فى التمدن وصارت اللغة العربية آخذة بيمينها مصباح التهذيب والرقى ..

والتهذيب العربى هو الذى أنشأ فى آسيا وأوربا نشأة جديدة وانسانية جديدة ..

اليك يا محمد صلى الله عليك وسلم وأنا الخادم الحقير أقدم اجلالى بخضوع وتكريم ، اليك أطأطىء رأسى . انك لنبى حق من الله .. قوتك العظيمة كانت مستمدة من عالم الغيب الأزلى الأبدى .

وهذه بعض من الآراء الصحيحه التى هى الى جانب الاسلام والحق .. وسنكتفى ببعض عبارات موجزة قيمة . شهد فيها أصحابها لرسول الاسلام . أو سجلوا فيها شيئا من سمو كتاب الله « القرآن المجيد » ورفعته .. أو خلدوا بها جانبا من جوانب عظمة الاسلام وامتيازه على غيره من الأديان الأخرى .. والفضل ما شهدت به الأعداء .

قال الأستاذ « كازانوفا » فى الجزء الأول من كتابه « محمد ونهاية العالم » : ان كل تاريخ النبى العربى يدل على أنه عملى ، جدى ، محمود . انه حين اعترف الجميع بسلطانه المطلق . عرف كيف يستمع آراء الغير . ويعترف بهفواته ويصلحها . ان محمدا وأصحابه قد أوضحوا بعناية تامة الفرق بين آرائه الخاصة وادراكاته للحياة الواقعية من جهة وبين تعاليم السماء من جهة أخرى .

وقد ظلت هذه الفروق خالدة فى الاسلام الذى لا يخلط بين القرآن والسنة . بل انه فى السنة نفسها يفرق بين ماله صفة الموحى به . وما هــو شخصى « لمحمد » ..

وقال الأستاذ « كارادى ڤو » فى كتابه « المحمدية » : ان محمدا أتم طفولته فى الهدوء . ولما بلغ سن الشباب اشتهر باسم الشاب الذكى الوديع المحمود .. وقد عاش هادئا فى سلام حتى بلغ الأربعين من عمره . وكان بشوشا تقيا لطيف المعاشرة . وقال أيضا : ان محمدا كان هو النبى والملهم والمؤسس . ولم يستطع أحد أن ينازعه المكانة العليا . ومع ذلك فلم ينظر الى نفسه كرجل من عنصر آخر . أو من طبقة أخرى غير طبقات بقية المسلمين . ان شعور المساواة والاخاء الذى أسسه بين أعضاء الجمعية الاسلامية كان يطبق تطبيقا عمليا حتى على النبى نفسه .

وقال الشاعر العظيم « لامارتين » : ان محمدا أقل من اله . وأعظم من انسان عادى . أى أنه نبى .

وقد أسلم شاب استرالى واعتنق الاسلام . وألف كتابا قيما عن الدين الاسلامى وسيرة النبى صلى الله عليه وسلم .. يدعى الأستاذ « على أسير الدين » . يقول : صحيح ذلك الراعى . قوى العزم . نقى القلب . طــاهر النفس . دعاه قومه بالأمين . أحبه جده . وأوصى بذلك الصبى الجميل خيرا . فهو خير ثمرة لخير شجرة نبتت بين ربوع قريش . وقريش هذه من أعظم قبائل العرب فى ذلك الحين .

ويقول الأستاذ « جارسان دى تاسى » فى كتابه « الاســلام » : ان محمدا ولد فى حضن الوثنية . ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة . انزعاجا عظيما من الرذيلة . وحبا حادا للفضيلة . واخلاصا ونية حسنة غير عاديين الى درجة أن أطلق عليه مواطنوه فى ذلك العهد اسم الأمين ..

ويقول الأستاذ « ديزيريه بلانشيه» أيضا فى صفحات كتابه : ومن جانب آخر ينبغى أن نذكر أن الدين الاسلامى مخالف كل المخالفة لهذه الأبراج المتشــامخة التى تسقط من ضربة واحدة . لأن فيــه قوة كافية وصــلابة

ومتانة تجعله قادرا على المقاومة والاستمرار فيها . فبماذا يمكن أن يهاجمه النقد ؟ أفى تاريخ محمد ؟ انه تقريبا خال من الخوارق والمدهشات وليس فيه تقريبا من المسلمات الا ما فى الديانة الكاثوليكية من معتقدات طاهرة نقية . فهل توجد هذه الخوارق فى الشعائر والطقوس ؟

انك لو رجعت بالدين الاسلامى الى قواعده الأساسية لما وجدته قد زاد على الدين الفطرى الا نبوءات محمد . وادراكا حقيقيا وفهما صحيحا لمعنى القضاء والقدر . وهذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر يعد صفة عامة لكل الذين يدركون بعقولهم ودقة شعورهم . انهم فى احتياج شديد الى أن يسيروا فى هذه الحياة بنظام دقيق . وخطة محكمة . أكثر مما يعد عقيدة من العقائد ، أو أصلا من أصول الايمان .

ان للمرء الحق المطلق فى اختيار أى مذهب من المذاهب الأربعة التى تسود فيها حرية الرأى بأجلى مظاهرها وأدق معانيها . أما العبادات والشعائر الدينية المستخلصة من اعتقادات ثانوية . فلا يمكن أن تقارن من جهة البساطة الا ببساطة البروتستانتية التى هى عبارة عن الاعتقادات الطاهرة النقية والأصول الصادقة الصحيحة التى هى فى الكاثوليكية . وانى أعتقد أن الشرق اذا تغلب على جموده تخلص منه . وان الاسلام لن يضع أية عقبة جدية فى سبيل التفكير الحديث . ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله . فقعد بهم العجز ، وشملتهم الخيبة ، وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب .

وفى كتاب « محاولة حول أصول المفردات الاصطلاحية للتصوف فى الاسلام » للأستاذ « ماسينيون » جاء فيه : انما بفضل التصوف كان الاسلام دينا دوليا وعاما ، انه دولى بفضل الأعمال النقية التى قام بها الصوفية فى زياراتهم لبلاد غير المؤمنين ، أى بفضل المثل الرائع الذى قدمه نساك المسلمين من شيوخ الطرق : الكبروية والشطرية والنقشبندية الذين كانوا يتعلمون لغات الهنود وسكان جزائر الهند الشرقية ويندمجون فى حياتهم .. هذا المثل هو الذى هدى أولئك القوم الى الاسلام أكثر مما فعل الغزاة .

والصوفية هم أول من فهموا الأثر الخالد الفعال للدين الحنيف . وهو وجود توحيد عقلى طبيعى لجميع بنى الانسان .

وقول الأستاذ « سنوك هورجرونج » المستشرق الهولندى فى كتابه « سياسة هولندا تجاه الاسلام » : ان الاسلام بفضل تصوفه . قد وجد وسيلة صعوده الى مكانة مرتفعة يستطيع منها أن يرى أبعد من آفاقه الخاصة أى أن هذا التصوف مشتمل على شىء من دولية الدين .

وقال الأستاذ « بيير پونسواى » المستشرق الفرنسى فى كتابه الحديث « الاسلام والجرال » : ومما لا سبيل الى الشك فيه انه كان هناك فى العصور الوسيطة وئام روحى وتعاليم خفية بين الصفوة الاسلامية . أى شيوخ الصوفية . والصفوة المسيحية واليهودية . وان الاسلام قد قام فى أثناء عدة قرون فى هذا الوئام بدور الملهم والمرشد ..

ونحن نحسب أن فى هذا التصريح برفعة الاسلام ودوليته واشتماله على التوحيد الطبيعى للبشرية . شهادة من جانب أولئك المستشرقين الاعلام تفوق قول كل خطيب كما أنها شهادة لهم أنفسهم — منا نحن المسلمين — بالنزاهة والبراءة من التعصب كفيلة باسكات المتحاملين .

ومما تقدم نرى أن بحوث المستشرقين عن الاسلام فى هذا العصر الحديث فى تقدم ظاهر نحو الاهتداء الى الرشاد . والى فهم هذا الدين على حقيقته وأخصهم :

« برناردشو » ذلك الكاتب العظيم الذى يقول : لقد وضعت دائما دين محمد صلى الله عليه وسلم موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته المدهشة .

فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى انه حائز أهلية الهضم لأطوار الحياة المختلفة بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل جيل من الناس .

ولقد تنبأت بأن دين محمد صلى الله عليه وسلم سيكون مقبولا لدى أوربا غدا .. وقد بدا كونه مقبولا لديها اليوم ..

وقد صور « اكليروس » القرون الوسطى للاسلام بأحلك الألوان .. اما بسبب التعصب الذميم أو بسبب الجهل المقوت .

ثم قال : ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد صلى الله عليه وسلم وكراهية دينه .. وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح . ولقد درسته باعتباره رجلا مدهشا فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح ، بل يجب أن يدعى منقذ الانسانية .

وانى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله زعامة العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب الى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة اليهما . ولقد أدرك ذلك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال « كارليل » و « جوت » .. وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الاسلام .

ولكن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا ، فبدأت تعشق عقيدة محمد صلى الله عليه وسلم وفى القرن التالى ربما ذهبت الى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها .

فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى .. وفى الوقت الحاضر كثيرون من أبناء قومى ومن أهل أوربا قد دخلوا فى دين محمد صلى الله عليه وسلم . حتى ليمكن أن يقال : ان تحول أوربا الى الاسلام قد بدا .. وانه لن يمر القرن العشرين حتى تعتنق الامبراطورية البريطانية الاسلام .

ان محمدا صلى الله عليه وسلم أكمل البشر من الغابرين والحاضرين . ولا يتصور وجود مثله فى الآتين .. ولقد أتى محمد بكتاب تحدى به البشر جميعا أن يأتوا بسورة من مثله . فقعد بهم العجز وشملتهم الخيبة . وبهتوا أمام ذلك الاحراج القوى الذى أقفل فى وجوههم كل باب ..

هذا هو رسول الاسلام الذى حفظه الله منذ أن كان نطفة طاهرة فى رحم طاهر . ولقد كان للرسالة الكريمة — التى غير بها سيد البشر وخاتم النبيين تاريخ العالم — أثرها فى قلوب المشركين والكفار . فحاولوا النيل من هذه الرسالة . فلما لم يجدوا مطعنا على الاسلام اتجهوا الى رسول الاسلام يحاربونه . لذلك لم نجد فى التاريخ رجلا قام ضده محاربون متحمسون كمحمد صلى الله عليه وسلم الذى كلما مرت الأعوام ورفرفت

رسالته لتنشر السلام والمحبة والصفح والمساواة وتدعو الى الخلق بين الناس كلما ازدادت الدعوة قوة وانتشارا .

ولكن قام بعض خصوم الدين لتهوى بهم ألفاظهم الى أعمق الحضيض بما يقولونه من فحش العبارة وقذر السباب وبما يختلقونه من المفتريات والأكاذيب أمثال « رودلف ولوهيم وهوتنجر وبلياندر » .

نشرت مجلة « التاريخ » مقالين للأستاذ « سوندرس » المحاضر الأول بقسم التاريخ فى جامعة « نيوزيلانده » .. وقد جعل عنوان المقالين « الخليفة عمر » المستعمر العربى .. وذهب فيهما الى أن ابتداء انتشار الاسلام خارج الجزيرة العربية انما كان من عمل هذا الخليفة ولم يكن عملا داخلا فى برنامج الدعوة المحمدية . لأن محمدا عليه السلام لم يفكر فى دعوة أحد غير العرب الى الاسلام .

ولا يسعنا الا أن نلتمس للكاتب العذر لأنه تجنب الحقيقة وكتب على هواه .. وقد رد عليه المرحوم الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد فى مجلة الأزهر فى عدد أغسطس ١٩٦١ بقوله : وقلنا انها مع حسن النية وأسوأ تطبيق للعلم . المقارنة بين الأديان . التماسا لوجوه الشبه التى لا وجود لها بين الدعوة الى الموسوية والدعوة الى المسيحية والدعوة الى الاسلام فان أتباع موسى عليه السلام قد دخلوا أرض الميعاد بعد وفاته ، واتباع عيسى عليه السلام هم الذين قاموا بتوجيه الدعوة الى العالم بعد حصرها فى بنى اسرائيل . فينبغى على هذا القياس ذهابا مع شهوة المقارنة بين الأديان فى غير موضع للمقارنة ، أن يكون خلفاء النبى صلى الله عليه وسلم هم الذين نشروا الاسلام بين الأمم غير العربية . ولو لم يكن ذلك من برنامج محمد عليه السلام ولا من أصول رسالته الى قومه .

وقد نشر أيضا فى عدد سابق للمجلة تصحيح لدعوى الأستاذ النيوزيلاندى بقلم الأستاذ « أحمد ابراهيم الشريف » أشار فيه الى الأدلة الكثيرة التى تثبت دعوة الاسلام العامة قال فيه : اننا اذا تركنا هذه الأدلة جانبا واكتفينا بالنظر فى القرآن الكريم وحده فهناك أكثر من أربعين آية يذكر فيها الله سبحانه وتعالى باسم رب العالمين . وهذا عدا الآيات التى ذكر

فيها بالنص الواضح أنه عليه السلام . قد أرسل الى الناس كافة . وأن القرآن قد تنزل عليه ليقرأه على الناس .

فرد الأستاذ « سوندرس » عليه يقول : ان هنالك أدلة أخرى تفيد أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد أراد بدينه أن ينشر على الناس ، كما أن هنالك أدلة أخرى تفيد انه لم يفعل ذلك . فهى اذن مسألة من مسائل الشك لا يقطع فيها بأى القولين .. قال : أما ان محمدا قد آمن بأن الله هو اله الجميع فليس محل مناقشة ولكنه ليس بموضع البحث فيما نحن بصدده . ولنا سند من القرآن نفسه حيث ترد الآيات التى يمكن الاستدلال بها على القولين .

فقوله فى أول سورة الفرقان : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » قد يقابله فى سورة القصص قوله : « لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » .

وهو يشير ، كما هو واضح ، الى العرب .. ومثله قوى فى سورة الشورى : « وكذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه » ..

وهذا يدعو الى التساؤل عن القرآن العربى : هل يخاطب به أناس غير المتكلمين بالعربية ؟ ثم قال : ان الأوربيين المتخصصين فى الاسلاميات ينقسمون انقساما شديدا فى هذه المسألة . فان « موير » يرى أن الدعوة من البداية الى النهاية كانت دعوة للعرب وحدهم . ولم يدع بها أحد غيرهم . ولكن « نولدكة وجلدزيهر وأرنولد » وكلهم ثقات .. يقولون : ان محمدا عليه السلام أراد بدينه منذ أوائل الدعوة أن يكون دينا عالميا ولم يرد به أن يكون مجرد عقيدة وطنية محلية . ونقول : انه لو كان قد ثبت أنه كتب الى هرقل وملك الفرس وغيرهما من الملوك يدعوهم الى الاسلام لانتفى الشك بالواقع . ولكن آراء الباحثين — مع الأسف — لا تميل الى قبول هذه الأخبار ..

و « فونتغومرى وات » يقول : ان هذه القصة لا يمكن أن تقبل على هذه الروايات ثم ختم جوابه على تعليق الأستاذ الشريف قائلا : وعندنا

صعوبة لهذه فى أمر المسيحية فهل كان المسيح عليه السلام ينظر الى نفسه كأنه صاحب ديانة جديدة كما جاء فى « متى » حيث يقول : اذهبوا وعلموا جميع الأمم ؟ أو كان ينظر الى نفسه كأنه مصلح لليهودية ليس الا وانه ما جاء الا لهداية خراف بنى اسرائيل الضالة ؟ وأحسب أننى أمام هذا الخلاف قد كنت متحرزا حيث قلت : ان البرهان القاطع غير موجود .

والأمر البين بعد قراءة هذا الجواب أن الأستاذ لم يكن متحرزا كما قال فى ختام جوابه ولكنه كما قدرنا ، قبل الاطلاع على هذه المقارنة بين الدعوة المسيحية والدعوة المحمدية فى كلامه الأخير كان منساقا مع أجزاء المقارنة فى غير موضع للمقارنة . فلم يظهر له الفارق الشاسع بين موقف الخلفاء من الدعوة المحمدية وموقف « بولس » الرسول واخوانه من الدعوة المسيحية ، فان بولس الرسول واخوانه من الدعوة المسيحية ، لم يكن فى وسعهم أن يبشروا اليونان والرومان بمسيح منتظر فى بنى اسرائيل لخلاصهم واستعادة ملكهم الذى قضى عليه الرومان أنفسهم . فلا جرم أن تتحول الدعــوة من اسرائيلية الى عالمية لهذه الضرورة التى لا محيص عنها .

وليست هناك مشابهة قط بين الدعوة الخاصة ببنى اسرائيل وبين الدعوة الى الناس كافة كما وردت فى القرآن الكريم بذلك الوضوح الذى فهمــه الكاتب ولم يستطع أن يتجاهله فى جوابه على اعتراض الأستاذ الشريف .

فهــذه هى الثغرة التى نفذ منهــا خطأ القيــاس الى رأى الأســتاذ النيوزيلاندى مع تقدير حسن النية فيما قرره من حصر الدعوة الاســلامية بين أبناء الجزيرة العربية .

ولسنا نرى دليلا على التحرز ، ولا على الجد فى استناد الكاتب الى نزول القرآن باللغة العربية لتعزيز حجته على تخصيص الاسلام بمن يتكلمون اللغة العربية . اذ كيف كان يريد أن تكون الدعوة ان كانت عالمية انسانية ولم تكن مقصورة على المتكلمين بلغــة الرسول ؟ انه يمنع بذلك أن توجد فى العالم دعوة عالمية انسانية على الاطلاق أو يفترض فيمن كان يرسل بهــذه الدعوة أن ينطق بألسنة الناس أجمعين ..

ولا نحسب قراء الأستاذ النيوزيلاندى قد استفادوا شيئا من اليقين أو الترجيح بما استشهد به من أقوال المختلفين على عموم الرسالة المحمدية أو خصوصها بين زملائه المستشرقين بل كل ما يستفيده القارىء المتطلع من وقوع هذا الخلاف أن أناسا غير قليلين بين جهابذة المستشرقين يقرءون الكتاب المبين ولا يستبينون منه أظهر معانيه . بل أظهر كلماته التى لا تحتاج الى مراجعة أخبار الاسلام أو أخبار التواريخ .

فاذا كانت كلمة « الى الناس كافة » تحتمل اللبس فى أذهان هؤلاء المستشرقين لسبب من أسباب التأويل فى اللغة أو فى المنطق فما هو اللبس فى وصف العباد الذين تكرر الخطاب بانذارهم ودعوتهم الى الدين .

اننا نذكر من وصف هؤلاء العباد فى الكتاب العربى مثلا واحدا وهو قوله فى خطاب النبى بالعربية : « قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ... الى قوله « وسخر لكم الليل والنهار » .

فمن يقرأ وصف هؤلاء العباد الذين سخر لهم البحر وسخرت لهم الأنهار وسخر لهم الليل والنهار لا يخطر له لحظة أنهم أبناء الجزيرة العربية دون غيرهم من بنى الانسان فى جميع البلدان .

واذا كان عرب الجاهلية قوما لم يأتهم نذير من قبل فالدين الذى جاء به صاحب الدعوة المحمدية يعم المتدينين الذين سبقت اليهم الرسل ويقوم النبى العربى بالدعوة اليه ليظهر على الدين كله : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » .

وأيا كان القول فى اللغة التى تكلم بها النبى . وفى صلاح هذه اللغة للدعوة العالمية . فان النوع الانسانى يشمل أم القرى وما حولها ولا تعتبر هداية أهلها عزلا لهم ممن عداهم من الناس . كأنه يمنع أن يكون الخطاب مقصورا على أم القرى ومن حولها ولا يمنع أن يعم الناس أجمعين ..

وبعد : فكيف يسيغ العقل أن يكون صاحب الدعوة المحمدية خاتم النبيين اذا كانت رسالته مقصورة على قوم لم يأتهم من قبل نذير .

ان طائفة من المستشرقين تسيغ ما يسيغه العقل فى أمر القرآن وأمر الاســلام . ولا نحب أن يشيع لأحد من هؤلاء قول مســموع فى العصر الحاضر . لأننا نقرأ لغيرهم من فضلاء الأوربيين المحدثين صفوة من الآراء السديدة فى الاسلام ونبيه ينزهونها عن هوى الاستعمار وبتفسير مااستطاعوا ويحسنون بهــا الى قرائهم وقراء العربية غاية احسان العــالم الأمين على علمه ..

وهكذا فقد كان أنصار التجديد من المستشرقين يعلنون الثــورة على الجامدين من رجال الدين ومنهم من كان يوارى ويوارب . فيتخذ لهذه الثورة أسلوبا غير الأسلوب الصريح ..

وهكذا صنع « فولتير » فى المسرحية التى كتبها باسم « محمد » وقال فيهــا كل ما أراد أن يقوله عن رجال الدين فى عصره كأنه يتكــلم عن نبى الاسلام وأئمة المسلمين .

ولم يشأ فولتير أن يهجم على ســلطان رجال الدين فى الغرب هجمة صريحة — كما بينا ذلك من قبل — وكان يهمه عند كتابة تلك المسرحية أن يعلن آراءه ولا يتعرض من جرائها للسخط والحــرمان . فاتخــذ لها ذلك الأسلوب المنحرف . ولم يكترث لحقائق التاريخ ولا للأدب فى الخطاب . ونسب الى النبى عليه السلام أمورا كان يريد أن ينسبها الى الجامدين من رجال الدين فى عصره . فلم يخف قصده على العارفين . ولامه هؤلاء على التوائه . وعلى نفاقه وريائه . وكان من هؤلاء اللائمين « نابليون الكبير » فى حديثه مع الشاعر الألمانى « جوته » فانه أنكر تلك الصورة الشوهاء . وقال : انها لا تصدق على محمد . ان محمدا لرجل عظيم . ولا يجمل تصوير العظماء بهذا الأسلوب ..

ويعتبر كلام فولتير عن الرسول نموذجا للصراحة المبرقعة فى الحمــلة على أنصار الجمود وقد كان كل كلام عن الرسول من هذا القبيل يجمع بين الرياء والجهل بحقيقة الاسلام وتصوير نبيه الكريم بصورة ضالة .

ولقد أراد « فولتير » فى هجومه على الاسلام وتصوير نبيه الكريم بصورة ضالة أن يتخذه رمزا لجميع الديانات لأنه كان يطعن عليها من غير

استثناء . ولما خشي اضطهاد الكنيسة والحكومة اتخذ نبى المسلمين ستارا يحتمى وراءه لمهاجمة جميع مؤسسى الأديان . وقد وصل فى النفاق الى حد أن أهدى هذا الكتاب الى «البابا» لينال رضاه أو ليتقى غضبه على أقل تقدير وضحى فى سبيل ذلك بالنزاهة والحق والكرامة . ولكنه لم يفز منه بهـذا الرضا المنشود فخسر الصفقة وثمنها . وكان ذلك فى العصر الحديث « القرن الثامن عشر » .

وأقبل القرن التاسع عشر بحالة نفسية وحالة فكرية غير تلك الحالة .. أقبل بمعرفة أوفى وحرية أكثر صراحة وأقوى ، فمن تكلم عن محمد عليه السلام ، فانما كان يتكلم عن علم لم يكن ميسوراللغربيين قبل ذلك . اذ كان العارفون منهم باللغة العربية وباللغات الشرقية عامة قليلين . وكان المنقول من كتب الدين الاســلامى نادرا مشوها محصـــورا فى المشتغلين به من الباحثين المتفرغين للدراسات الشرقية .

فلما أقبل القرن التاسع عشر كثرت هذه الكتب ، ووصل العلم بها الى غيرالمستشرقين وأصبح الاطلاع عليها بدعة محمودة بين طلاب الثقافة والتبحر فى الاطلاع . فظهرت الكتابة عن الاسلام . وعن نبى الاسلام . على نهج جديد .

واذا كان « فولتير » نموذجا للكتابة الغربية عن الرسول فىالقرنالثامن عشر . فان « توماس كارليل » هو النموذج الصادق لهذه الكتابة فىالقرن التاسع عشر . وقد كانت كتابته عنه متسمة بسمة الاعجاب والانصاف لا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرا منها عن نبى الاســلام .. ويكفى للدلالة على موقف كارليل أنه أراد أن يختار مثلا واحدا للبطولة فى صورة النبى ، فلم يجد أحدا أجدر بالاختيار فى هذا المقام من محمد عليه السلام . وكان من همه أن يفند كل شبهة شائعة عن الدعوة الاسلامية فى مبدئها .. فقــال : ان الذين يزعمون أن محمــدا نشر دعوته بالسيف لا يتصورون ما يقولون . فقد كانت دعوة محمد دعوة رجل واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه وليس أعجب من صورة رجل واحد يحمــل السيف ليقنع به كل مفكريه .

ولقدتقدمت دراسة التاريخ فى القرن العشرين. وتتبع الاوربيون أصول حضاراتهم فعرفوا أنها مدينة بالقسط الوافر للحضارة الاسلامية . وان عصر العرب فى الأندلس كان من العصور الذهبية فى تاريخ القارة الأوربية .. وعمل رد الفعل الذى عمله : فكان أشد الناس اعجابا بالحضـارة العربية ، أولئك الكتاب الذين نشأوا فى الأندلس نفسها ، وفتحوا عيونهم حيث بلغ التعصب على العرب غايته ومداه . فاذا قرأت كاتبهم الأشهر «بلاسكو أبانيز» لمست فى كلامه حزنا عميقا على زوال الحضارة العربية من الأندلس . وحنينا واضحا الى العهد الذى ازدهرت فيه تلك الحضارة وقد ختم بعض فصوله عنها قائلا : ولت ساعة العلم وانزوت الفكرة الأسبانية فى غياهب الظلمات . حيث ترتعد بردا فى عزلتها المضنية وتخبو شيئا فشيئا الى أن تموت وان بقيت منها بقية فهى تلك التى تنصرف الى الشعر والمسرح والجدل الدينى مذ كان العلم يفضى بصاحبه الى نار الحريق .

هذه النظرة الى تاريخ الحضارة والى المقارنة بين الحضارات . قد كان لها أثرها فى تعـديل الميزان الذى يوزن به رسـل الأديان وأولهم رسول الاسلام .

فمن كتب عن محمد عليه السلام فى القرن العشرين علم انه مطـالب بحكم العصر الذى يعيش فيه . أن يقول شيئا يوافق العـلم ولا ينسب الى التعصب والجهالة . فلا يزن محمدا بميزان غير الذى يزن به الرسل والأنبياء من سائر الملل والدعوات ومن لم يكن من هؤلاء الكتاب مرتزقا بالدين فهو يخجل من التحامل على صاحب دين كبير لغير سبب الا أنه ولد على غير دينه . وهو يبرىء عقله من وصـمة التعصب الضيق بمحاولة الانصـاف ما استطاع .

بل وجد من أولئك الكتاب من يثيره أن يسمع أحدا يعيب على النبى صلى الله عليه وسلم أنه راعى ابل ليجيبه صاحبه : أن أتباع ذلك النبى قد تعلموا منه درسا غير الذى تعلمته من دينك فانهم يسمون تلاميـذ السيد المسـيح بالحواريين وكان فى وسـعهم أن يقولوا عنهم انهم جمـاعة من الصيادين .

واذا قلنا ان المرتزقة بالدين هم وحدهم الذين يصرون على بضاعة العيب والتجريح ، فليس معنى ذلك أن رجال الدين الأوربيين جميعا ينكرون فضل النبى ويستبيحون العيب فيه . بل معناه ان هذا الخلق الشائن محصور فى طلاب الرزق باسم الدين .

أما العلماء الدينيون فمنهم أناس يحاسبون ألسنتهم وأقلامهم ويجتهدون فى قول الحق على حسب طاقتهم .

وقد كتب أحدهم الدكتور « بوكيه » كتابا عن « الأديان المقارنة » فقال عنه : انه نشر فى الشرق مثلا أعلى للحكم وللأخلاق الانسانية أوسع وأنظف وأحدث وأقوى من أمثلة الدولة البيزنطية .. ثم قال : وان الحكم على شخصيته أيضا ليتطلب الانصاف من أولئك الذين ينظرون اليها بعين الغرض . فان الأخبار التى لا داعى للشك فيها تصوره لنا فى صورة رائعة من الجمال بوجه مليح فطن وعينين سوداوين نفاذتين ولحية سابغة ورصانة فى القول وبلاغة صادقة مع عطف فى أطيب حالاته وحنان على الأطفال . وينبغى أن نذكر أن هؤلاء الكتاب غير مسلمين فهم لا يقولون فى النبى كل ما يقوله المسلم . ويكفى أنهم لا ينكرون كل ما يقوله عن تعنت أو مكابرة .

وظهر فى هذه السنة كتاب عن الاسلام لمؤلفه « الفريد غليوم » أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة لندن قال فيه عن نبى الاسلام : علينا من المبتدأ أن نقرر أن محمدا كان واحدا من أعلام التاريخ العظماء وكان يقينه الغالب أنه لا اله الا الله وأنه يدعو الى ملة واحدة . وكانت قدرته على التدبير بين المشاكل المعقدة التى كانت تواجهه قدرة خارقة بغير مراء فما استطاع عربى بعزة الجيوش والشرط والدواوين أن يجمع شمل قومه كما فعل . فان قيل ان العالم الاسلامى عند وفاته كان عالما صغيرا بالقياس الى دولة خلفائه ، فالجواب على ذلك : أن اخلاص خلفائه لدعوته ، وايمانهم بها ، وفهمهم لها ، قد جعلهم يعملون على تعميم الدعوة الرحيمة ، مصداقا لقوله تعالى « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

ثم قال بعد استطراد وجيز : كان رجلا لم يخذله الرأى السديد قط . ومن أنكر عليه ذلك فانما يلج فى انكاره على الرغم من الدلائل البينة على

رجاحته وفطنته وفهمه الصحيح للآخرين . ولما كان يجرى فى العالم من حوله .

ومن كتاب التصوف الدينى فى العصر الحاضر « بول برنتون » صاحب كتاب « النفس العليا » وكتاب « الحقيقة الباطنة » الذى صدرت منه ثمانى طبعات . وفى هذا الكتاب يضرب المثل لمن يعملون فى الدعوة الى الحق فيقول : ان كثرة العدد لا تهم . وأولئك الأقوام الغافلون ليس لهم حساب ، فانما هم زيادة فى حجم الانسانية ليس الا وكل ما كانت له قيمة فانما يفعله ويهتدى اليه فى أول الأمر فئة قليلة . وقد كان محمد يقول عن السيدة خديجة زوجته انها صدقتنى حين كذبنى قومى . وقد مضت عليه ثلاث سنوات وليس له من الأتباع غير ثلاثة عشر .. ثم انتشرت دعوته بين الملايين .

وفى الكتاب الذى أصدرته مطبعة جامعة برنستون عن الأديان العظمى . يقول « ادوارد جورج » صاحب الفصل المخصص للدين الاسلامى : ان ايمانه الذى لا يتزعزع برسالته الالهية وصدق دعوته بقى مثلا فريدا فى التاريخ . وان اعتقاده بالغيب الذى هو لباب الكثير من وحيه لهو اللحمة التى تنسج حولها بشارته وعظاته . ومن ثم أصبحت رسالة السيادة الربانية العليا ضرورة عاجلة ملحة وتلك نواة تلك الرسالة العلوية الموحاة الى محمد . وبغيرها لا يتأتى لنا أن نفهم الوحدانية فى الاسلام .

ومن أحدث المترجمات الى اللغة الانجليزية كتاب العالم البلجيكى « هنرى بيربن » عن «محمد وشارلمان» . ومضمونه يتلخص فى بيان أسباب الانقلاب الأوربى الذى ينسب فى أوربا الى شارلمان ، ولكن المؤلف يرى أن الفضل فيه لمحمد وأتباع محمد ويقول فى فاتحة الجزء الثانى منه : ان الفتح العربى الذى أوقع ما أوقع من القلق فى أوربة وآسية لم تكن له سابقة . ولا تقارن سرعته بغير السرعة التى قامت بها دولة المغول بقيادة « اتيلا وجنكيز خان » و « تيمورلنك » . لولا أن هذه الدول زائلة ودولة الاسلام باقية . فلم يزل للاسلام اتباعه فى كل بلد دخله الخلفاء الأولون وقد كان ذيوعه كذيوع البرق معجزة حقيقية ..

ويقول الأستاذ « جولد زيهر » ان الاسلام رسم للحياة مثلا أعلى غير المثل الأعلى للحياة فى الجاهلية . وهـذان المثلان لا يتشـابهان . وكثيرا ما يتناقضان .

فالشجاعة الشخصية والشهامة التى لا حد لها والكرم الى حد الاسراف ، والاخلاص التام للقبيلة ، والقسوة فى الانتقام والأخذ بالثأر ممن اعتدى عليه أو على قريب له أو على قبيلته بقول أو فعل . هذه هى أصول الفضائل عند العرب الوثنيين فى الجاهلية . أما فى الاسلام فالخضوع للهوحده . والانقياد لأمره ، والصبر واخضاع منافع الشخص ومنافع قبيلته لأمر الدين ، والقناعة وعدم التفاخر والتباهى ، وتجنب الكبر والعظمة هى المثل الأعلى للانسان فى الحياة .

ويقرر الشاعر الألمانى « جيته » ذلك بقوله : اذا كان هذا هو الاسلام فنحن جميعا ندين بالاسلام .

ويقول « وينسون » فى كتابه « الحركات كأساس للحضارة » : وفى القرنين الخامس والسادس . كان العالم المتمدين على شـفا جرف هار من الفوضى لأن العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت . ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها وكان يبدو اذ ذاك أن المدنية الكبرى التى قامت بعد جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال . وان البشرية توشك أن ترجع ثانية الى ما كانت عليه من الهمجية ، اذ القبـائل تتحارب وتتناحر ، ولا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار بدلا من الاتحاد والنظام وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالم كله واقفة تترنح . وقـد تسرب اليهـا العطب حتى اللباب . وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم جميعه ..

أما « جيمس متشنر » فيقول : ان محمدا هذا الرجل الملهم . الذى أقام الاسلام . ولد حوالى ٥٧٠ ميلادية فى قبيلة عربية تعبد الأصنام ، ولد يتيما محبا للفقراء والمحتاجين والأرامل واليتامى والأرقاء والمستضعفين وقد أحدث محمد بشخصيته الخارقة للعادة ثورة فى شبه الجزيرة العربية . وفى الشرق

كله . فقد حطم الأصنام بيديه . وأقام دينا يدعو الى الله وحده . ورفع عن المرأة قيد العبودية التى فرضتها تقاليد الصحراء ..

ولقد اتهم الاسلام فى ذلك العصر بأنه خلو من التفكير الاقتصادى ، بل لقد اتهم بالرجعية الرأسمالية ، وانه استغلال للطبقات المستضعفة الكادحة وسر اتهامهم الجهل بالاسلام ونظمه وروحه ورسالته وتعاليمه الدينية السمحة لقد جاء الاســلام فى كافة نظمه وتشريعــاته . دعوة تحريرية على الجمود والضعف والرجعية المادية والعقلية . فهو توازن وتعــادل فلا روحانية حالمة تحلق بعيدا عن واقع الحياة ، ولا مادية مظلمة جشعة حقود . تنكر للروح وللفضيلة . وما أصدق قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيــا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا » ..

فقد جاء فى نظامه الاقتصادى باشتراكية رشيدة هادفة تحقق التعاون بين الطبقات فى ظل المحبة ، وتكفل التطور الهادف فى نطاق كليات مرنة تتسع آفاقها لكل خطو بشرى واتجاه حضارى .

ولهذا فالنظم الاسلامية فى سيرها وتطورها لا تجد حرجا فى أن تقتبس من هنا وهناك ما يتفق مع روحها ، ويتلائم مع وجهتها ، ويتسق مع أهدافها فى نطاق نظرتها الايمانية الربانية .

يقول العلامة « ماسنيون » فى كتــاب « الاســلام والنظام العــالمى الجديد » : ان لدى الاسلام من الكفاية ما يجعله يتشدد فى تحقيق فــكرة المساواة. وذلك بفرض زكاة يدفعها كل فرد لبيت المال ، وهو يناهض عمليات المبادلات التى لا ضابط لها ، وحبس الثروات ، كما يناهض الديون الربوية والضرائب غير المباشرة التى تفرض على الحاجيات الأولية الضرورية . ويقف فى نفس الوقت الى جانب حقوق الولد والزوج ويشجع الملكية الفــردية ورأس المال التجارى ، وبذا يحل الاسلام ، مرة أخرى مكانا وســطا بين نظريات الرأسمالية البورجوازية ونظريات البلشفية الشيوعية .

وهكذا فالحياة الاقتصادية فى نظر الاسلام حياة تراحم وتعاون وتكافل ورحمة . حياة انسانية لها مثل عليا تستمدها من رسالتها وعقيدتها .

بينما هى فى النظرة الرأسمالية والشيوعية على السواء ، حياة صراع وتقاتل ، وسيطرة واستعباد ، صراع تحترق فيه وتفنى كافة القيم العليا ، لتبقى قيمة واحدة ، حية مهيمنة هى قيمة رأس المال الفردى أو الجماعى .

وبذلك نجد أن الرأسمالية تنظر الى الانسان كسلعة . وتنظر الشيوعية اليه كآلة مسخرة ، وينظر الاسلام الى المادة كشىء مسخر لخدمة الانسان .

يقول الصحفى الأمريكى « جون جنتر » فى كتابه « فى داخل أوربا » : ان الانجليز انما يعبدون بنك انجلترا ستة أيام فى الأسبوع . ويتوجهون فى اليوم السابع « الأحد » الى الكنيسة .

ويقول العلامة « جود » رئيس قسم الفلسفة وعلم النفس فى جامعة لندن : ان شعار أوربا هو : لا نستطيع أن نجمع بين عبادة الله وعبادة المال . ويقول : وعقيدتنا ان الثروة . ولا سواها ، هى القياس الصحيح لعظمة الفرد .

ويقول « كارل ماركس » : ان المال هو الذى يخلق الأدب والأخلاق والدين والمنطق ونظام الحكومة .. ويقول : ان النظام الاقتصادى . هو روح الاجتماع وان الدين والحضارة وفلسفة الحياة والفنون الجميلة كلها انعكاس لهذا النظام الاقتصادى .

لقد أصبح المال هو الاله الأكبر الذى تسجد جباههم جميعا فى محرابه فلقد فقد الانسان فى النظامين الرأسمالى والشيوعى ذاتيته وحريته وكرامته ، واستعبد ذليلا مهينا بسطوة المال ، وسخر عبدا رخيصا لمغامراته وأهدافه .

لقد قيم كل شىء فى الفلسفتين بالمال . وأصبح الانسان أرخص هذه القيم ، وأحقر هذه السلع .. ان كل ما أصاب الانسانية فى عصرنا من فجور وتحلل والحاد وتحرر واستعباد واستعمار . وكل ما تتقلب فى الحياة اليوم من جاهلية ووثنية . وبربرية وحشية ومذاهب وجودية . وفلسفات مادية . انما انبثق كل هذا وانبعث من بنوك هذا الاله المادى الجبار .

ومن هنا كانت الفروق الأساسية النفسية والجذرية بين النظم الاقتصادية العالمية والنظم الاقتصادية الاسلامية واضحة وضوحا مبينا فى روحها وأهدافها ..

ولقد ذكر عن الأستاذ « بوزورت سمث » انه قال فى احدى محاضراته عن « محمد والمسلمين » ما يأتى : أما الاســلام فكل شىء يختلف فيه عن غيره . واننا لنعرف الكثير عن محمد كما نعرف عن « لوثر » وملتون » .

ومن الأمور التى دفعتنى الى اعتناق الاسلام ، دعوته الىالمساواة بين الناس ومن الانصـاف لهذا الدين أن نذكر أنه الدين الوحيـد الآن الذى يستطيع أن يقضى على ما ينتاب العالم اليوم من نزعة عدم الرضا .

وذكر « ج. ولينز » فى محاضرة له عن « المسلمين » قوله : كل مسلم معبد فى نفسه وكل مسلم له أن يبدى ما يعن له من شئون دينه .. ذلك لأن المسلمين ليسوا عبيدا لرؤساء دينهم . انهم يؤدون الصلاة لله دون حاجةالى وسيط يأخذ بيدهم لأداء هذا الواجب . ومكان عبادتهم غير محدود . فاذا حان وقت الصلاة بادروا الى أدائها حيثما يوجدون .

وان المساواة التامة لتبدو للعيان بين المصلين فى المساجد . لا فرق بين عظيم وحقير وغنى وفقير .

ولما كان الاسلام دينا عمليا فقد أقبلت عليه وارتضيته . وفى الحق لقد قام هذا الدين على أساس حاجة الناس الحقيقية اليه . ولم تكتنفه مبالغة أو خيال . ويأخذ بعض المسيحيين على الاسلام اباحته لتعدد الزوجات . ومنهم من يذهب أكثر من هذا فيسب النبى بغير حق . ولكن كل من درس التاريخ ووعاه يعلم أن النبى صـلى الله عليه وسلم ظل قانعـا بزوجة واحدة حتى الخمسين من عمره . ومعلوم أن الانسان حينما يبلغ هذه السن تخمـد فيه القوة الجنسية . ولما ماتت زوجته الأولى عقد على فتاة فى التاسعة من عمرها . ثم تزوج أخريات غيرها ، الا أن هذه الزيجات جميعها قد دعت اليها الضرورة لا المتعة . فتزوج بعض النساء حبا فى أن يكون لهن خير معين . وسمح عليه أفضل الصلاة والسلام بنظام التعدد بشروط مقبولة ومعقولة . وصان هذا النظام الممالك الاسلامية ممن نبـذهن المجتمع فصرن يتجولن فى شوارع لندن وباريس وفينا وكلكتا . ولا ريب أن نظام التعدد المحكم خير ألف مرة من ارتباط المرأة برجال لا يحصيهم العدد . وشتان بين زوج وخليل ..

ويقول « جيمس متشنر » : كثيرا ما أحسست وأنا أعيش بين المسلمين ان الله عندهم حقيقة أكبر مما هى عند المسيحيين .

ومما قاله الأستاذ « انسويروكس » فى كتابه « لماذا ارتضيت الاسلام دينا » .

ولسنا فى حاجة الى ذكر ما يجول بخاطر بعض المفكرين من الأوربيين عن الاسلام . فقد أشادوا به وامتدحوه . ومن بينهم « جوث وفليتر وجيبون وتولستوى وكارليل » وغيرهم .. ويكفى ان نقول : ان بعض النبلاء من عظماء الانجليز قد ارتضوا الاسلام دينا أمثال « لورد استانلى اف الدرلى » « ولورد هدلى » وغيرهما .

وقال « رينان » : لم أدخل مسجدا أبدا الا شعرت بانفعالات نفسية وأسف بالغ حين أذكر أننى لست مسلما .. وانى لعلى يقين من أن فى أوربا وأمريكا آلافا يتمنون مخلصين أن يعتنقوا الاسلام ولكن تعوزهم الشجاعة ليعلنوا ما يخفون . واننى لأقولها كلمة حق مدوية بأننى ارتضيت الاسلام دينا . ورائدى فى ذلك قول الله سبحانه وتعالى : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » .. هذه بعض اشارات عاجلة نوردها هنا لبعض المؤلفات القديمة التى كتبت قبل القرن التاسع عشر والتى لم يحد بعض كاتبيها عن طريق الحقيقة بينما لزم البعض طريق الغواية والضلال .

وتحدثنا قصيدة « رولان » وهى أهم منتجات العصور الوسيطة الغربية على الاطلاق . بان فرسان شارلمان قد اسقطوا الأصنام الاسلامية .. وان العرب يعبدون ثالوثا من « محمد » و « ابولون » و « بتر فاجان » .

يزعم مؤلف القصيدة ان المسلمين يعبدون ثالوثا . وهو أمر لم يعرفه الاسلام يوما ولا المسلمون لأن المسلمين يوحدون توحيدا خالصا نقيا . لا يعرف المواربة ولا الهوادة . بل ان كلمة الاسلام التى لا يثبت الا بها هى : « لا اله الا الله وحده لا شريك له » لا كما يزعم صاحب القصيدة . انه صنع للنبى محمد تمثال من الذهب والفضة الخالصين . وان قاعدته هى تمثال فيل وضع فوقه كأنه يمثل النبى وهو راكب .. وقد وصلت الجرأة على الحق ، والتجنى على التاريخ بهذا الشاعر . الى حد أسقطه من صفوف المؤرخين

الذين يسجلون الحوادث على غير حقيقتها اسقاطا تاما . لأن أولئك الغربيين الخادعين أنفسهم اقتنعوا بعد الدرس والبحث ان مهمة الاسلام الأولى كانت القضاء على الوثنية ومحو آثارها . والحكم بالاعدام على جميع ما يمت اليها بصلة من قريب أو من بعيد . بل ان هؤلاء يأخذون على المسلمين فعالاتهم فى هذا التشديد .. ويقولون ان المدنية الحاضرة تتطلب منهم الأخذ بنصيب من الحفر والتصوير . وقد رد المسلمون على هذه الملاحظة .. والخلاصة ان دعوى هذا الشاعر القديم سخيفة لا يؤيدها الحق ولا يعززها المنطق ولا يسندها التاريخ .

وهناك رواية سخيفة ألفت بعد الانتهاء من الحروب الصليبية زعم فيها مؤلفها ان الاسلام يبيح زواج المرأة الواحدة من عدة رجال معا . وليست هذه الفرية وتلك الأكذوبة فى حاجة الى رد . لأنها ساقطة وضئيلة لا تستحق الجدل والنقاش .. وقد بينت فى الفصل السابع من الكتاب .

هذا نموذج من المؤلفات القديمة التى تناولت الاسلام بالطعن والتجريح المؤسسين على المعلومات الخاطئة ، أو على الاهواء والأغراض . ولم نشأ ان نطيل فى سرد هذه الآراء الباطلة . أو أن نذكر عددا من الكتب أكثر مما ذكرنا .. ومن اراد الاستزادة من كتب القرون الوسيطة فعليه بالقوائم التى وردت فى كتب المحدثين حاوية أسماء تلك المؤلفات القديمة الخاطئة . كالقائمة التى أوردها العالم الكبير الكونت « دى كاسترى » فى كتابه « الاسلام » . ولقد ترك العلماء المحدثون من الأوروبيين تلك الكتب وأغفلوها بل وأهملوها .. لأنها أغفلت العلم وحادت عن الحقيقة شبعا لارضاء نزعة نفسية أو تملقا لذوى السلطان . وبعدت عن طريق المعرفة نتيجة جهل بالاسلام وتعاليمه . وليست العصور الوسيطة وحدها هى المشتملة على هذه المؤلفات الخاطئة . بل ان عصر الانتقال والنهضة فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، قد احتوى من هذه الأخطاء العلمية والتاريخية على مقدار غير يسير . فكما سقط كتاب القرون الوسيطة وشعراؤها فى الأخطاء التى أنبأناك بطرف منها آنفا ، كذلك هوى كثير من علماء هذه القرون الأربعة .

فمثلا « باسكال » . « مالبرانش » . فى القرن السابع عشر . و « موتسكيو » و « فولتير » فى القرن الثامن عشر و « رينان » فى القرن التاسع عشر و « كازانوفا ودير مانجيم » و « ر. ف. بودلى » فى القرن العشرين .

كل هؤلاء قد اقترفوا أخطاء جسيمة نحو الاسلام . وهووا فى مخالفات جدية للعلم والتاريخ . كما ان لهم ولغيرهم من المؤلفين الآخرين أمثال « كارادى فو » و « ديزيريه بلانشيه » و « كليمان هوا » و « ماسينيون » واقرانهم عن الاسلام آراء قيمة جديرة بالاحترام .

أما « رينان » فقد تناول الاسلام فى كثير من مؤلفاته الأولى بالقدح. سيما فى كتابه « الاسلام والعلم » . الذى طعن فيه على العرب والاسلام طعونا دفعت المغفور له السيد « جمال الدين الأفغانى » و « الامام محمد عبده» الى الرد بما أفحمه . وألزمه الحجة . والاعتراف بضعف كثير من المصادر التى استقى منها معلوماته .

ويلاحظ « ديرمانجيم » كذلك أن بعض الاختصاصيين قد هووا مع الأسف فى الافراط فى النقد . فكانت كتبهم . وهى لا تعد فى الحقيقة الا طلائع للبحث . معاول للهدم . وانه هو شخصيا قد عول على ان يسلك طريقا وسطا بين الافراط والتفريط . فيتبع الرواية الى الحد الذى لا يتعارض فيه مع النقد الحر . أى لا يسلم بالمعقول وغير المعقول . ولا يعانى فى الهدم كما فعل بعض المستشرقين الذين عرضوا لدراسة الاسلام .. وهكذا نرى ان الكاتب النزيه يحترم كرامة علمه . ويجتنب اللغو الذى شاع فى القرون الماضية . ولا يزال يشيع فيما يكتبه المرتزقة من ادعياء الدين والتبشير بالدين وانه ما من أحد كتب عن الاسلام ورسوله . وتوخى أمانة العلم الا ردد فيه قول القرآن الكريم : « وانك لعلى خلق عظيم » .

الفصل السابع
خصوم نبيّ الاسلام

يبدو أن النقاد الأوربيين قد حادوا عن الصواب ، واتجهوا طريقا بعيدا عن الانصاف ، فما استطاعوا أن يكبحوا شهوة التحامل على نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم فكان دائما واقعا تحت تأثير واحد لا يتغير ، هو أخذ كل ما ينال من النبى ، ويسىء الى سمعته وكرامته كنبى ، فهم دائما يتلمسون ما عساه أن يشين سمعته أو ينتقص كرامته . دون بحث منهم أو تمحيص .. ومثال هؤلاء المستر « كاش » فى كتابه « اتساع رقعة الاسلام » الذى خصص الصفحات النهائية الأربعة فيه لما سماه « جرائم القتل » التى وقعت بايعاز الرسول . والتى استنتج منها أنه غليظ القلب ، غادر لا يعرف الرحمة كما لقبه من أجلها بالمخادع القاسى القلب .. وقد استقى أكاذيبه جميعها مما كتبه « السير وليم » فى « حياة محمد » ، ولم يبذل أقل جهد فى البحث والتمحيص ، قبل أن يدين نبى الاسلام ، على الرغم من ظهور مؤلفات عديدة قيمة بعد كتاب السير « وليم موير » ، عرفت للنبى قدره ، ولكنه لم يلتفت اليها ، ولم يقدر ما جاء بها ، قبل أن يصدر حكمه على رجل يعتبره حوالى ٥٠٠ مليون نسمة المثل الأعلى للفضيلة والرحمة والمثال الكامل للمروءة والكمال .

وحالات الأمثلة الكاذبة التى يدعونها ست ، خمس منها خاصة باليهود ، والأخيرة هى زعمهم أن النبى قد أباح السبى ، وهى على الرغم من كذبها فانها لم يرد لها ذكر عند « موير » أقسى نقاد الاسلام..وهانحن أولا نفندها جميعا .

وأول مايسترعى النظر فى هذه المفتريات أن خمسا منها خاصة باليهود وهم أهل كتاب آمن به المسلمون ، وجاء ذكره فى القرآن فى كثير من آياته لذلك كانوا أحق الناس بالتسامح ، وأجدرهم بالعطف ، واذا كان المسلمون

لم يقترفوا هذه الجرائم ، كما هو معروف فى السيرة ، مع المشركين الذين عبدوا الأصنام من دون الله ، واضطهدوا النبى وأنصاره ، وآذوهم أشد الايذاء ، وفرقوا جماعتهم ، فهاجروا من أوطانهم ، فكيف يتصور اقدام المسلمين على مثلها مع اليهود ، وهم أهل كتاب ودين ؟ اللهم ان محمدا ماكان يطلب ملكا ، أو يريد مالا ، ولكنه النبى المصلح لايبغى من وراء دعوته الا اصلاح مافسد من أمرهم ، وجمع ماتفرق من شملهم ، وهدايتهم الى أقوم الطرق ، بعد أن فسدت عقائدهم ، وطمست معالم دينهم .

وقد قرر « كاش » ومن حذا حذوه ، أن جميع هؤلاء الذين وقعت هذه الجرائم عليهم قد قتلوا بغير حق ،سوى أنهم نظموا الأشعار فى هجو المسلمين ولعلهم نسوا أو تناسوا أن الشعر والهجو لم يكن خاصا باليهود ، بل هو من خصائص العرب جميعا . فقد كان الشعر هو سلاحهم وديوانهم . وقد اتخذه كثير منهم أداة للتشهير والازدراء بالاسلام والمسلمين ولجأ المسلمون الى النبى يستأذنونه فى الدفاع عن أنفسهم والذود عن حياضهم ، فلم يزد على أن أذن « لحسان » فى الرد عليهم بشعر مثله .

وقد أمر القرآن الكريم المرسلين بالصبر على احتمال الأذى : « ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور »

هذه الآية انطوت على اشارة الى موقعة « أحد » التى كانت فى العام الثالث للهجرة . فلا بد أن يكون نزولها بعد ذلك ، ومن العجيب أن يدعى المفترون فى ذلك الوقت وقوع ما نسبوه الى النبى صلى الله عليه وسلم زورا وبهتانا . وهو أول من يأتمر بأمر ربه ، ويلتزم بنص كتابه ، وهو القدوة لقومه ، ولما كان القرآن لم يكتف بأمر المسلمين بتحمل الأذى والصبر عليه ، بل نهاهم عن مقابلة الشر بمثله ، كان مما لا يعقل أن يجرؤ مسلم على قتل شخص يقترف اثما ، أو يرتكب جرما لمجرد أنه هجا المسلمين .. واذا كان بعض المؤرخين قد زل ونسب الى الرسول بعض تلك الجرائم من غير دليل ، فلن نقيم لكلامه وزنا لأن كتاب الله يأمر بغير ذلك ، ولا يتصور من الزعيم الدينى الذى كان القرآن الكريم دعوته وحجته أن يستفتح دعوته بمناقضة نفسه ، ومخالفة ما يدعو اليه .

وأولى الادعاءات كما رواها الناقد قتل «عصماء بنت مروان» الشاعرة ومن قبيلة الأوس ، ولخص ذلك فيما يلى :

كانت هذه اليهودية من بنى خطمة ، وكثيرا ماكانت تعيب الاسلام وأهله ، وتسب النبى لاسيما بعد مقتل أبى غفك اليهودى ومن شعرها :

قطعتم أتاوى من غيركم فلا من مراد ولا مذحج
أترجون بعد قتل الرءوس كما يرتجى مرق المنضج

فرد عليها « حسان » بقوله :

بنو وائل وبنو واقف وخطمة دون بنى الخزرج
متى ما دعت سفها ويحها بعولتها والمنايا تجى
فهلا فتى ماجدا عرقه كريم المداخل والمخرج
فضرجها من جميع الدما بعيد الهدو فلم يحرج

فقال النبى ، حين بلغه ذلك : ألا رجل يكفينا هذه ؟ فقال « عمير بن عدى » وكان من قومها : أنا أكفيكها يارسول الله ، وهم بقتلها ، فذهب اليها ووضع سيفه على صدرها حتى أنفذه من ظهرها ، ثم جاء النبى فقال له : أقتلت ابنة مروان ؟ قال : نعم : فهل على فى ذلك من شىء ؟ فقال الرسول : لا ينتطح فيها عنزان ، فانها أهدرت دمها ، ثم أثنى عليه وسماه البصير وكان كفيفا ، ثم رجع عمير الى قومه، فوجد بنيها فى جماعة يدفنونها فقالوا : أقتلت عصماء ؟ قال : نعم ، أنا قتلتها فكيدونى جميعا ثم لاتنظرون فوالذى نفسى بيده لو قلتم بأجمعكم ماقالت لضربتكم بسيفى هذا حتى أموت أو أقتلكم . فلما رأى المستضعفون من قومها ، الذين أخفوا اسلامهم اتقاء شرها ، ان الاسلام عز بعد قتلها أظهروا اسلامهم ..

هذا ما قاله « كاش » فى هذه الفرية ، وان الأسانيد التى ذكرت هذا الحادث هى « ابن هشام والواقدى وابن سعد » ، والدليل على أن هذه الرواية غير صادقة ، ان القرآن نهى عن قتل المسيئين ، وما أصدره الرسول من الأوامر المشددة بعدم قتل النساء ولو اشتركن فى القتال اشتراكا فعليا

ضـد المسلمين .. فهل من المعقول أن النبى الذى يأمر بعدم قتل النسـاء المشتركات فى الحرب يأمر بقتل امرأة ، لا لشىء الا لأنها قالت شعرا يكرهه المسلمون !

لقد كان المسلمون يعلمون علم اليقين نهى الرسول عن قتل النساء ، حتى انهم عندما هموا بقتل « ابن الحقيق » ، حالت زوجه بينه وبينهم ، فأمسكوا سيوفهم احتراما لأمر النبى بعدم قتل النساء (كتاب فتح البارى ، قصة قتل ابن الحقيق) .

ولقد عقد « البخارى » وهو ثقة فى روايته ، بابا أسماه«كتاب الجهاد» « قتل النساء فى الحروب » جاء فيه عن ابن عمر مايأتى : ان امرأة وجدت قتيلا فى احدى الغزوات التى حضرها النبى صلى الله عليه وسلم فنهى النبى عن قتل النساء والأطفال .. فهل بعد ذلك يقال : ان النبى أمر بقتل امرآة لأنها هجت المسلمين ؟ أينهى النبى عن قتل امرأة خاضت غمـار الحرب ، وصوبت سهامها الى صدره ، وسلت سيفها فى وجهـه ، ثم هو يجيز ، بل يستحسن ، أن تقتل امرأة لم تكن جريرتها سوى السب ، أو نظم قصائد فى الهجاء ؟ قد يقال أن بعض أصحابه فعل ذلك ، ولكن هذا أيضا افتراء فانهم جميعا كانوا عارفين بأوامره منفذين لأحكامه ، حتى أن الأئمة حرموا لذلك قتل النساء حتى فى الحروب ، فعند مالك والأوزاعى لا يجوز قتل النساء والأطفال مطلقا ، فلا يصح أن تقتـل امرأة فى حال ما ، حتى لو احتمى المقاتلون بجماعة من النساء والأطفال أو لجأوا الى حصن أو سفينة بهمـا نساء وأطفال ، فلا يرمى هذا الحصن أو تحرق هذه السفينة .

كل هذا دليل ساطع على نقض هذه الأكذوبة المختلقة .

والفرية الثانية التى أوردها المستر « كاش » هى مقتل « أبى غفك » ، وقصته كما نقلها عن بعض السير مايلى :

كان أبو غفك مسنا بلغ مائة وعشرين سنة ، ولكنه كان يحرض على ايذاء النبى ، ويهجوه بشعره فقال صلى الله عليه وسلم يوما : من لى بهـذا الخبيث ؟ فقال « سالم بن عمير » : على نذر أن أقتله أو أموت دونه ، وظل

ينتظر غرة منه حتى استراح بفناء منزله ، فذهب اليه ووضع سيفه على كبده ، ثم اعتمد عليه حتى نفذ الى ظهره ، فصاح عدو الله ، فحضره قوم ممن كانوا على موافقته فى الكفر والتحريض ، فقبروه .

وهذه القصة الكاذبة أقل دناءة وحطة وتلفيقا من سابقتها ، وظاهر ضعفها للملأ ، لأنها دست على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى أمر بتحريم قتل النساء والطاعنين فى السن والأطفال ، ثم يعود فينقضه بقتل أبى غفك . ومعلوم أن الخلفاء الراشدين اقتدوا بالرسول ، «فأبوبكر الصديق» ، أوصى « يزيد » عندما ولاه امارة الجيش الخارج الى سورية بتنفيذ أوامر الرسول بعدم قتل النساء والأطفال والطاعنين فى السن ، وهو دليل ناصع واضح على اقتداء أوائل المسلمين بالرسول صلى الله عليه وسلم .

أخرج أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : انطلقوا باسم الله ، وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخا فانيا ولا طفلا ولا صغيرا ولا تغلوا وضموا غنائمكم ، واصلحوا وأحسنوا ان الله يحب المحسنين .

واليك بعض من وصية أبى بكر لجيش يزيد : لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولاتمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا أو تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة » وهذا خير دليل على كذب وبهتان تلك الفرية أيضا .

أما الادعاء الثالث فهو القول بأن النبى أصدر أمرا عاما لابادة اليهود جميعا حتى يتمكن من مقتل أبى سنينة .. وهذا الادعاء مكذوب من أساسه أيضا .. لأن النبى قد أمر بتحريم : قتل النساء والأطفال والطاعنين فى السن ومن لا يشترك فى القتال والأعمى .. وبذلك لا يحل القتل مهما كانت الظروف وأيا كانت الأحوال الا اذا كان قاتلا أو مقاتلا ، وقد حرم النبى قتل النساء والأجيرين لأنهم يقومون بأعمال غير القتال .. فان كل رواية عن قتل انسان لم يشترك فى القتال اشتراكا فعليا ، فهى اما مكذوبة أو مختلقة عن سوء قصد ، وان كانت سائغة متواترة ، ولا يمكن الأخذ بالروايات الشخصية التى يرويها الرواة عن أنفسهم ، وعلى ذلك لا يمكن تصديق

رواية مقتل أبى سنينة فهى مكذوبة من أساسها ، فان الادعاء بأن النبى أصدر أمرا عاما لابادة اليهود ، كان من نتيجته قتل أبى سنينة وحده ، ادعاء يناقض نفسه بنفســه . فكيف يكون مقتل رجل واحد نتيجة أمر عام لابادة اليهود جميعهم !

أما الرابعة ، فهى مقتل « كعب بن الأشرف » • وكان والده من قبيلة طيىء ، فلما أتى الى المدينة تحالف مع اليهود من قبيلة بنى النضير ، وأصبح ذا نفوذ وشأن حتى تمكن من الزواج من ابنة أحد زعماء اليهود ، وبذلك أصبح مركز كعب ممتازا لقرابته من العرب ومصاهرته لليهود ، وعندما وفد الرسول على المدينة ، تعاهد هو واليهود معه على أن يعيشوا فيها جنبا الى جنب ، لكل منهما عقيدته الدينية، واذا ماوقع اعتداء على المدينة من الخارج فعلى كل منهما أن يهب لنصرة حليفه ، وقبل الطرفان أن يكون للنبى الحكم الأخير فيما يختلف عليه من نصوص العهد •• ولما انتصر المسلمون فى بدر ازدادت نار الحقد فى صدور اليهود وأخذ كعب يستغل مواهبه الشعرية فى هجاء حلفائه من المسلمين والنيل من الاسلام • بل لم يكتف كعب بذلك ، بل شد الرحال الى مكة واضعا يده فى يد أعداء الاسلام محرضا لهم على مهاجمة المسلمين اذا ماهوجمت المدينة ، ولم يكتف بتأليب أعداء الاسلام عليهم ، بل وضع خطة عقب عودته من مكة لقتل النبى غيلة •

ولكن روح التبشير المسيحى المحض تتغلب على السير « وليم موير » ، فيجعله يهمل كل هذه الاتهامات والخيانات بالوقائع التاريخية الثابتة ، ولا يذكر منها شيئا فى كتابه « حياة محمد » ثم يأخذ فى شرح مقتل « كعب » ذاكرا أتفــه التفاصيل ، متناسيا الدوافع المهمة ، بل انه ليفضح دخيلة نفسه عندما يتكلم عما سماه الاغتيالات عندما قال : ان انتشار الاسلام بدأ يأخذ مظهرا لا يدعو الى الاغتباط اذا قورن بالمسيحية ، فان من دخلوا فى دين « عيسى » ، دخلوا فيه لاعجابهم بثبات معتنقيه حتى الموت ، أما من دخلوا فى الاسلام ، فانهم دخلوا فيه لمــا رأوا استعداد المسلمين لقتل معارضيهم ، فكان المؤمن فى الحالة الأولى يدخل دين « عيسى » معرضا حياته للموت ، أما فى الحالة الثانية فانه كان يدخل فى الاسلام ، لأن الدخول فيه هو الحل

الوحيد لانقاذ حياته .. فاذا كان « موير » تعمد اخفاء الحقائق التى تثبت أن « كعبا » قد نافق ، وقد انقلب من حليف الى عدو مقاتل ، فان « كاش » تعمد ارتكاب نفس المغالطة على الرغم من ترديده لمختلف المراجع .

مما سبق يتبين للسيد القارىء خيانة وغدر « كعب » وجهره بالانضمام الى أعداء الاسلام والمسلمين وعزمه اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما جاء فى صحيح البخارى بشأن مقتل « كعب » : ان كعبا انطلق الى قريش ، وحالفها عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، وان النبى قد ذكر أنه جهر بالعداء للاسلام ، وانه تآمر على الفتك بالنبى فى وليمة يدعوه اليها.

وقد روى « ابن سعد » : ان اليهود لما جاءوا الى النبى يشكون اليه مقتل « كعب » قال لهم : انه آذانا ، ولو وقر كما وقر غيره ممن هو على مثل رأيه ما أصابه شر .. وعرض النبى عليهم أن يكتب لهم كتابا فقبلوا ، وبقى هذا العهد عند « على » .

ان هذه الاثباتات الصريحة ، كلها تدل على أن كعبا ماقتل الا لأنه نقض عهد النبى ، وظاهر أعداءه الذين كانوا فى حرب معه وقتئذ فهو على هذا يعتبر محاربا ويجوز قتله شرعا ، وقد قتل « كعب » على يد نفر من المسلمين غدرا وأن النبى لا صلة له فى وضع خطة قتله ، فقد كان النبى يعتبر كعبا وضع خطة قتله ، هناك رواية تقول : لما سأل « محمد بن مسلمة » النبى فى قتل « كعب » ، سكت النبى ولم يحر جوابا . وجاء فى رواية أخرى أن النبى قال : ان كنت فاعلا فلا تعجل حتى تشاور « سعد بن معاذ » .. فكان الرسول يجهل تفاصيل قتله ولا شك ، ويبدو أن التفاصيل المتواترة كاذبة . وحتى « موير » نفسه يبدى شكه فيها أيضا . ولو فرضنا جدلا أن تلك التفاصيل صحيحة فما كان للنبى علاقة بها .. ومن الغريب أن هؤلاء النقاد المغرضين يخلطون بين الظروف التى كان يعيش المسلمون فيها فى المدينة ، والظروف التى يعيشون فيها هم فى القرن العشرين ، كانوا يريدون قتل عدو لهم فاتبعوا معه ماكان مألوفا فى مثل ظروفهم ، لقد دخل كعب فى حلف مع أعداءالمسلمين المحاربين لهم ، فجميع الشرائع الوضعية والسماوية تعتبره عدوا مقاتلا .. فدبر بعض المسلمين أمر قتله ، وأرسلوا اليه جماعة منهم وكان على رئيسهم

أن يختار أفضل الطرق لتسديد ضربته ، فاختار رئيسهم « محمد بن مسلمة » طريقة كانت مألوفة عند العرب ، اعتبرها خير طريقة لنيل الفرصة ، نظـرا للظروف والملابسات ، فلو انه اختار مقاتلة كعب جهارا ، لأريق دم كثير ، ولهبت قبيلة بنى النضير اليهودية كلهالمشاركة كعب،فاختار طريقة استدراجه وقتله حرصا على دم أبرياء عديدين ، هذه هى تفاصيل مقتل كعب ، فما علاقة الرسول بها ؟ لاشىء البتة .

وخامس فرية هى قتل « سلام بن الحقيق النضرى » . يقول «موير» لقد أقامت جماعة من بنى النضير بعد نفيهم مع اخوانهم فى خيبر ، ثم اتصل ابن الحقيق زعيمهم بالقوى المتحالفة التى حاصرتالمدينة وأخذ يشجع بعض القبائل من البدو على السلب والنهب ، فجردت حملة ، بقيادة « على » ، على يهود خيبر ، ثم صمم « محمد » على وقف عدوانهم ، فلم يجد بدا من أن يتخلص من محرضهم المزعوم .. ولكن قتل ابن الحقيق لم يبـدد مخاوف « محمد » من يهود خيبر ، لأن « أسير بن رزام » الذى خلفه فى الزعامة أبقى علاقته مع « غطفان » ، وقيل : انه أخذ يرسم الخطـة للزحف على المدينة .

والمعروف أن « بنى النضير » ، قبيلة يهودية سكنت المدينة ، وكانوا فى حلف مع المسلمين ، ولما سلكوا سبيلا شائنا باتصالهم بالقبائل المعادية ،وكان من اثر ذلك هجوم احدى القبائل العربيـة المحالفـة لهم وقتلهم كثيرا من المسلمين غدرا ، طلب اليهم النبى أن يراعوا عهودهم ويكفوا عن مناصرة أعداء المسلمين ، فلم يستجيبوا الى طلبه . فأخرجوا من المدينة ، فلجأوا الى « خيبر » ، وهى حصن اليهود المنيع ، وأصبحوا بذلك مصدر فتنة ومبعث شر للمسلمين ، لأنهم دأبوا على تحريض القبائل المجاورة وبث روح العـداوة والبغضاء للمسلمين ، ثم اشتركوا فى محاربتهم .

وكان « ابن الحقيق » هذاقائدا فى موقعة الأحزاب التى اجتمعفيهاكثير من القبائل العربية واليهودية ليستأصلوا شأفة المسلمين ويناوئوا النبى ومن تابعه ، وأعدوا ما استطاعوا من قوة ، وجمعوا ما وصلت اليه أيديهم منعدد وعدد . ولكن الله نصر المسلمين ، وارتد الأحزاب مهزومين مخذولين ..

واستمر ابن الحقيق فى مناصرة القبائل العربية التى تناوىء المسلمين واستمر يبث روح العداء على المسلمين .

فرأى المسلمون حقنا للدماء وحفظا للأرواح أن يطفئوا جذوة الشر ، فأرسلوا جماعة للقضاء على مصدر الفتنة ، وهو ابن الحقيق ، فذهبت تلك الجماعة وقتلت هذا الزعيم المناوىء ، ولكن ذلك لم يؤد الى الغرض المنشود فكان لا بد من ارسال جيش لفتح خيبر .

هذا رجل قاتل المسلمين وحرض عليهم القبائل وناصر أعداءهم وتزعم محاربيهم ، فهل اذا بعث اليه المسلمون بمن يثأر منه لاموهم على ما فعلوا ووصفوهم بالقسوة والغلظة ؟.

أما « اسير بن رزام » فانه قام وحرض اليهود ، وسار الى غطفان ، وجمعهم وهم أن يذهب بجمعه الى المدينة ليغزو النبى فى عقر داره .. فلما بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم ما هو فيه .. أرســل اليه « عبد الله بن رواحة » فى سرية تبلغ الثلاثين من الأصحاب ، فقدموا عليه .. وهموا بالغدر بهم .. ولكن المسلمين تغلبوا عليهم وقتلوهم . وعلى الباغى تدور الدوائر . ومن نكث فانما ينكث على نفسه .

وآخر ما افتراه المستر « كاش » على النبى صلى الله عليه وسلم دعوى كاذبة هى اباحته سبى نساء بنى المصطلق ، وهى فرية وضيعة وتافهة ، وهو افتراء صارخ ، على الحقيقة ، وبهتان عظيم .

وقد غابت هذه الفرية عن أقسى نقاد الاسلام أمثال « موير » .. وكل ما جاء فى هذه الفرية ، هى رواية « أبى سعيد الخدرى » التى جاء فيها أن نفرا من المقاتلين المسلمين ، شاءوا أن يتزوجوا بعض الأسيرات ، زواج متعة ، على أن يعزلوا ، حتى لاتحمل الزوجات ، ولكن لم يثبت مطلقا أن شيئا من ذلك قد وقع ، والقصد من رواية ابى سعيد هذه ، الاشارة بجواز العزل ، ولكنه لم يقل شيئا عن الاتصال بنساء بنى المصطلق .

والمعروف أن زواج المتعة كان لفترة قصيرة ، وكان مألوفا فى الجاهلية ولكن الاسلام نهى عنه فانتهى تدريجيا ، وخير الاصلاح ماجاء تدريجيا ،

والقرآن يصرح بحل زواج سبايا الحرب ، والآية التالية تكذب تكذيبا قاطعا دعوى المستر كاش اذ تقول : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بايمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن باذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ، فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ماعلى المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وان تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم » .

أما نساء بنى المصطلق على الخصوص ، فقد أطلق سراحهن جميعا ، دون فدية ، عقب أن أطلق النبى سراح جويرية ، وتزوجها ، وهذه شهادة قاطعة على كذب وبهتان دعوى المستر كاش .

هذا هو نبى الاسلام الذى حفظه الله منذ أن كان نطفة طاهرة فى رحم طاهرة ، ولقد كان للرسالة الكريمة التى غير بها سيد البشر وخاتم المرسلين تاريخ العالم أثرها فى قلوب المشركين والكفار ، فحاولوا النيل من هذه الرسالة ، فلما لم يجدوا مطعنا على الدعوة الاسلامية ، اتجهوا الى صاحب الدعوة يحاربونه ، لذلك لم نجد فى التاريخ رجلا قام ضده محاربون متحمسون « كمحمد صلى الله عليه وسلم » الذى كلما مرت الأعوام ورفرفت رسالته لنشر السلام والمحبة والصفح والمساواة . وتدعو الى محاسن الخلق، قام بعض خصوم الدين لتهوى بهم ألفاظهم الى أعمق الحضيض بما يقولونه من فحش العبارة وقذر السباب وبما يختلقونه من المفتريات والأكاذيب أمثال « رودلف ولوهيم وهوتنجر وبليياندر » . لم يجدوا فى حياة النبى الكريم ، ولا فى أخلاقه ، ما يمكنهم من الطعن فيه ، فجندوا أقلامهم وجمعوا صحفهم ليفتروا على الله الكذب . فيقولون كان محمد قسا رومانيا غضب لأنه لم ينتخب لكرسى البابوية .. وانه وهو الفيلسوف الحكيم عز عليه ذلك . فلم يشأ أن يصبح شيخا لقبيلته أو رئيسا لأمة ، انما أراد أن يكون الها أو فى مصاف الآلهة ، ومما يثبت كذب هذا الافتراء أن الرسول جاء برسالته فى وقت تناحرت فيه الفرق الدينية وتشعبت المعتقدات ، وتناول البعض الرسالات الدينية السابقة بالتحريف والتغيير . وبلغ الأمر أشده فى الفساد والبهتان

والطغيان والضلال ، فلو كان الرسول يرجو مجدا دنيويا لقبل الملك الذى عرضته عليه قريش ، ولكان ترك لأنصاره أن يتخذوه الها .. أو نصف اله ولكنه يتلو عليهم قرآن الله ليقول عن نفسه : «قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » (الكهف) .. كما يتلو قول الله تعالى : « قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين » (فصلت) .

ويحسم رسول الله تلك الافتراءات حسما باتا فيقول فى حديثه الشريف (لاتطرونى كما أطرت النصارى المسيح ، فانما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسوله) . فهل بعد ذلك يستقيم قول قائل انه كان يريد مجدا أو كان يريد أن ينصب نفسه الها .

الصرع :

كما أشاع أعداء الاسلام أن نبى الاسلام كان مريضا بالصرع ، وان مايعتريه فى ساعات الوحى ، انما هى نوبات الصرع التى كان يسمع أثناءها كلاما ردده فأصبح قرآنا . ولقد رد على ذلك كثير من الأساتذة الاخصائيين فى الأمراض العصبية وشرحوا أن النوبات الصرعية ليست نوبات نفسية كما يتبادر الى أذهان المتقولين . ولكنها ناتجة عن تغيرات فسيولوجية عضوية فى المخ .. ولقد أثبتوا علميا فى حالات عديدة من الصرع أن المريض بها يفقد شعوره تماما ويكون التغير العقلى هو المظهر الأساسى للنوبة ، ويمكنه الى حد ما تذكر التجارب النفسية التى حدثت له أثناء النوبة بعد انتهائها . وهذه التجارب تكون على شكل انفعالات مثل الخوف أو على شكل تفكير فى اتجاه معين كأن يردد المريض فى ذهنه سؤالا ما ، أو على شكل خيالات أو هلاوس أو الاثنين معا .

وفى ذلك أمثلة كثيرة ، وعديدة ، لتنوع الهلاوس المرئية كأن يرى المريض أثناء النوبة شبحا أسود يهدده ولا يمكنه أن يتبين ملامحه وصورته ويتكرر هذا فى جميع النوبات ، ومريض يسمع أصواتا أو قطعة موسيقية

من الراديو القريب منه ولكنه لا يتبين الكلمات أو النغمات مما يسمع .. وأحيانا نسمع من مريضة أثناء النوبة أغنية كانت تغنيها لها أمها فى صغرها ، وتتكرر هذه الأغنية فى جميع النوبات .

من ذلك نرى أن الأحلام والهلاوس التى تمر بذهن المريض فى أثناء النوبة الصرعية ما هى الا تنبيه لذكريات قديمة مرت بالانسان أو فكر فيها ثم حفظت فى ثنايا المخ ، وقد ثبت ذلك علميا بأن نبهت مراكز المخ المصابة بتيار كهربائى من الخارج فشعر المريض بنفس الهلاوس التى تنتابه أثناء النوبة الصرعية .

ومما تقدم نرى أن الهلاوس تكرر الشكل بتكرار النوبات ،وقديكون هناك أكثر من نوع واحد من الهلاوس فى المريض الواحد ، ولكنها تتكرر كلها أو بعضها بالشكل نفسه وان المريض يتذكر التجارب النفسية التىمرت به فى أثناء النوبة .

وبتطبيق ماوصلنا اليه من هذا العرض السريع المختصر للصرع على الافتراء الذى يفتريه خصوم الاسلام على الوحى الذى نزل على رسول الله نجد أن الهلاوس والأحلام التى تمر بذهن المريض بالصرع ماهى الا أجزاء من ذكريات قديمة نبهتها النوبة ، ولايمكن للمريض بالصرع أن يؤلف أثناء النوبة شيئا ، فكيف بالقوانين والآداب والقصص والعلوم وغير ذلك مما اشتمل عليه القرآن الكريم ..؟

كذلك لايمكن أن تتحسن لغة المريض بالصرع أثناء النوبة أو بعدها لأن هذا التحسن يحتاج الى تعليم . أما الصرع فهو ارتباك مفاجىء فىكهرباء المخ ووظيفته . وقد نزل القرآن بلغة عربية فصحى لم يتعلمها النبى قبل الرسالة .

كما أن الأحلام والهلاوس التى يشعر بها المريض فى أثناء النوبات الصرعية تتكرر بعضها أو كلها بنفس الشكل بتكرار النوبات ، كما أن المريض لايمكنه أن يصفها وصفا دقيقا . أما القرآن فأنزلت آياته واضحة محددة متممة بعضها بعضا . شاملة كل ما يهم الناس فىشئون دينهم ودنياهم

..فهل يمكن أن يقال بعد هذا العرض العلمى البحت أن القرآن ما هو الا هلاوس رجل مصروع ؟ ..

والرد المتقدم هو رد الدكتور « يحيى طاهر » اخصائى وأستاذ الأمراض العصبية بكلية طب جامعة القاهرة مختصرا ، كما ورد فى كتاب « الاسلام والعلم الحديث » للأستاذ « عبد الرزاق نوفل » .

وحتى نفى هذه الأكذوبة حقها من اثباتات كثيرة للمتخصصين فى هذا المرض نذكر ما قاله الدكتور « عبد العزيز الشريف » اخصائى وأستاذ الأمراض الباطنية وعضو كلية الأطباء بأدنبرة ، يقول : المرض علة تصيب أى عضو من أعضاء الجسم ، فتسبب خللا فيصبح الانسان لذلك معتلا . والشخص المريض هو الذى تغيرت حالته بسبب المرض فأصبح غير عادى ، اذ يقل فى قوته وصحته .. وبالتالى فى انتاجه وتفكيره . ولم يعرف الطب .. ولم يحدثنا التاريخ العلمى ، ان شخصا أصيب بمرض فوهبه المرض علما أو عقلا أو مقدرة اذ أن العقل السليم فى الجسم السليم .

فكيف يقولون عن الرسول انه أصيب بالصرع ، فتتحسن لغته تحسنا بحيث لايمكن أن نقارن بين حديثه العادى وبين القرآن الكريم الذى يقولون انه حديثه وهو فى نوبة الصرع ؟

وكيف يشرع مريض هذه التشريعات التى تعتبر الأسس القويمة لكل القوانين التى تهدف الى العدالة والرحمة والتقدم ؟

وهل يستقيم ذلك والصرع حالة تتميز بالاختلال المفاجىء فى وظيفة المخ ؟..

وكيف يكون ماعند الرسول نوبات صرع ، وهذه النوبات تسبب للمريض آلاما شديدة فى عضلاته تكون مصحوبة بالصداع والغثيان وتبقى مدة بعد النوبة هى عبارة عن تشنج وتصلب فى العضلات .. فهل اذا غابت عنه حزن ووجل ؟.. فقد فتر الوحى عن النبى فترة فتولاه الخوف والوجل ، وحزن ، حتى نزل قول الله سبحانه وتعالى له : « والضحى والليل اذا سجى ماودعك ربك وماقلى » .

ويقول السيد الدكتور « عز الدين عبد القـادر » الأستاذ بجامعـة القاهرة : تخبط الناس منذ بدء الخليقة فى تعريف مرض الصرع ، فمن قائل أنه يرجع الى أرواح شريرة تسكن مخ المريض ، الى غيره يقول : انه من آثار الآلهة ، وان كل حركة يحدثها المريض انما هى من فعل اله من الآلهة ، ولهذا سموه بالمرض المقدس ، حتى جاء «أبقراط» العظيم فى القرن الخامس قبل الميلاد وأظهر كذب هذه الأقوال ونادى بأن هـذه الأعراض انما هى أعراض مرض لايختلف عن باقى الأمراض الأخرى من أن له سببا ينشأ عنه .. ووصف نوبات الصرع بدقة متناهية لاتختلف فى شىء ، عما تصفه به أحدث المراجع الطبية .. فالمريض يفقد النطق ، ويخرج الزبد من فمـه ، وتصطك أسنانه ، وتنقبض يداه ، وتزوغ عيناه ، ويفقد الوعى تماما . كما يفقد القدرة على ضبط البول أو البراز .

ومن هذا نرى أن مريض الصرع يفقد حواسه ويفقد السـيطرة على نفسه ، فيصبح لا عقل له ولا وعى عنده ، ولا سيطرة على حواسه جميعا .

فلينظر الى ذلك من يقولون : ان القرآن الكريم انما هو هلوسة مصروع وحديث الرسول وهو فى نوبات الصرع .. فكيف يمكن لمريض هذه حالته أن يأتى بجوامع الكلم والآيات البينات وبالبلاغة التى أعيت جهابذة العرب وأرباب البيان ؟

ويذكر « ر. ف. بودلى » فى كتابه « حياة محمد » فى هذا الشأن : يذكر الأطباء أن المصـاب بالصرع ، لا يفيق منه ، وقد ذخر عقـله بأفكار لامعة وانه لا يصاب بالصرع من كان فى مثل الصحة التى يتمتع بها « محمد » حتى قبل مماته بأسبوع واحد . وماكان الصرع ليجعل من أحد نبيا أو مشرعا ، وما رفع الصرع أحدا الى مراكز التقدير والسلطان يوما . وكان من تنتابه مثل هذه الحالات فى الأزمنة الغابرة يعتبر مجنونا أو به مس من الجن . ولو كان هناك من يوصف بالعقل ورجاحته فهو « محمد » ولاشك . وينفى عن الرسول تلك الفرية الظالمة .

تعدد الزوجات

ولما لم يجد خصوم الاسلام جدوى فى هذه المفتريات التى لم يعرها من كان عنده عقل سليم أية التفاتة ولوا وجوههم الى زواج الرسول فأسرفوا فى نقدهم ، وكيف أنه أحل لنفسه ماحرمه على غيره ؟

فقد حشا الأوربيون كتبهم بالطعن على الاسلام ورسوله متمسكين بما أباحته الشريعة من حل التروج بأكثر من واحدة ، ولو كانوا يعرفون العربية ويفقهون كتاب الله وقواعده ما استطاعوا أن يلصقوا بالاسلام ما ليس من شيمه .

والظاهر أن للاسلام خصوما محترفين ، وخصوما ينكرونه على قدر جهلهم به وبسيرة نبيه ولاخفاء فى خصومة المحترفين ، فهم جماعة المبشرين الذين اتخذوا القدح فى الاسلام صناعة يتفرغون لها ويعيشون منها ، وصناعتهم هذه لا تصطنع عملا لها أهم وأخطر من عملها فى تشكيك المسلمين أو تبشير الوثنيين وأشباه الوثنيين لكيلا يتحولوا من الوثنية الى الاسلام. فلا غنى لأصحاب هذه الخصومة أو هذه الحرفة من اختلاق المآخذ وتصيد التهم التى تجرى بها أرزاقهم وتتصل بها أعمالهم سواء عرفوا الحقيقة من وراء هذه المآخذ وهذه التهم أو جهلوها وأعرضوا عن البحث فيها ، لأنهم يريدون الاتهام ولا يستريحون الى معرفة تهدم كل ما عملوه وتصرفهم عن كل ما آلفوه وعقدوا النية عليه .

أما خصوم الاسلام من غير زمرة المبشرين فأكثرهم يخاصمونه على السماع ولايعنيهم أن يبحثوه ولا أن يبحثوا دينا من الأديان حتى الدين الذى آمنوا به وشبوا من حجور أمهاتهم عليه . وقليل من أولئك الخصوم غير المحترفين من يتلقف الدراسات الاسلامية تلقفا لا يفيد الدارس ولايبتغى منه الا أن يعلم ماتعلمه لطائفة من التلاميذ يكفيهم منه أن يعرفوا من أخبار الاسلام مالم يعرفوه . وبعض هؤلاء الدارسين المدرسين حسن النية لايأبى أن يعترف بالحقيقة اذا استمع اليها وبعضهم سيء النية لأنه مسخر فى خدمة الاستعمار وما اليها من الدعايات الدولية ، فلا يعنيه من المعرفة الا ما يملى له فى عمله ويمهد لدعايته ..

وما اتفق خصوم الاسلام سيئو النية على شيء كما اتفقوا على خطة التبشير فى موضوع الزواج على الخصوص ، فكلهم يحسب أن المقتل الذى يصاب منه الاسلام فى هذا الموضوع هو تشويه سمعة رسول الله ، وتمثيله لأتباعه فى صورة معيبة لا تلائم شرف النبوة ولا يتصف صاحبها بفضيلة الصدق فى طلب الاصلاح وأى صورة تغنيهم فى هذا الغرض الأثيم كما تغنيهم صورة الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد العازف فى معيشته البيتية ورسالته العامة عن عفاف القلب والروح .

انهم لعلى صواب فى الخطة التى تخيروها لاصابة الاسلام فى مقتله من هذا الطريق الوجيز ، وانهم لعلى أشد الخطأ فى اختيارهم هذه الخطة بعينها ، اذ أن جلاء الحقيقة فى هذا الموضوع أهون شيء على المسلم العارف بدينه المطلع على سيرة نبيه . فاذا بمقتلهم المظنون حجة يكتفى بها المسلم ولا يحتاج الى حجة غيرها لتعظيم نبيه وتبرئة دينه من قالة السوء الذى يفترى عليه .

فلا حجة للمسلم على صدق الرسول فى رسالته أصدق من سيرته فى زواجه وفى اختيار زوجاته ، وليس للنبوة من آية أشرف من آيتها فى معيشة نبى الاسلام من مطلع حياته الى يوم وفاته .

ما الذى يفعله الرجل الشهوان الغارق فى لذات الجسد اذا بلغ من المكانة والسلطان ما بلغه النبى صلى الله عليه وسلم بين قومه ؟.. لم يكن عسيرا عليه أن يجمع اليه أجمل بنات العرب وأفتن جوارى الفرس والروم على تخوم الجزيرة العربية ولم يكن عسيرا عليه أن يوفر لنفسه ولأهله من الطعام والكساء والزينة مالم يتوفر لسيد من سادات الجزيرة فى زمانه .

فهل فعل رسول الله ذلك بعد نجاحه ؟ هل فعل الرسول ذلك فى مطلع حياته ؟ .. كلا .. لم يفعله قط . بل فعل نقيضه وكاد أن يفقد زوجاته اشكايتهن من شظف العيش فى داره .

وقبل أن نبين للقارىء الأسباب التى من أجلها تزوج الرسول من زوجاته « أمهات المؤمنين » . نذكر ما قاله المرحوم الشيخ « عبد العزيز جاويش » فى تعدد الزوجات فى الاسلام : ان النقائص التى مثلت بالاسلام فى أعين غير أهله ، انما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح . ميزانا لنقدر

بها قوانين الشرع ونواميسه . فمن قائل بسد باب الاجتهاد ، ومن امام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب اللهفينسب اليه ما ليس من دينه في شيء .. ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة ، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا الى الزلفى منه ، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر بما رضى الله لعباده فشط بالنـاس واعتسف بهم ، حتى ضـاقت نفوسـهم ، وأيقنوا بالعجز عن احتمال تكاليف الدين فانقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون .

جاء القرآن فأباح أن يتزوج الانسان مثنى وثلاث ورباع . ولكن الله تعالى يقول : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » . فتراه قد شرط اباحة تعدد الزوجات بالعدل ، كما جعل مجرد خوف الجور والظلم سببا كافيا فى تحريم التعدد ، ثم نراه قد اعتبر البشر عاجزين عن العدل بين الناس ولو حرصوا ، فما بالنا مع جميع ذلك نرى كثيرا من القواعد الاسلامية التى يجب تقدير الأعمال بها وزنة التصرفات الانسانية بميزانها — قد أهملت وتركت ظهريا ؟

واعلم أن المعتزلة ، وهم كما تعلم من المسلمين ، يقولون بعدم جواز أن يتزوج الرجل ثانية مادامت الأولى فى عصمته ، كما ذكره « الأمير على » فى كتابه « سر الاسلام » . وماذلك الا لأنهم تتبعوا مايجلبه ذلك منالمفاسد والمضار ، وعرفوا أن من أصول الشريعة المحمدية اعطاء الوسائل والغايات من الأحكام ، فرأوا آثار تعدد الزوجات كثيرة سيئة لا يستحسنها عقل ولا يرضى بها شرع فحكموا بتحريمه .

لم يصرح القرآن بتحريم تعدد الزوجات بتـاتا . وذلك لأنه أرسل رسوله للناس كافة بشير ونذيرا ، ولا ريب أن هناك أحوالا يحسن أو يجب فيها تعدد الزوجات ، ولا يمكن لأحد الفرار من الاعتراف بوجود كثير من الأحوال التى تقتضى ذلك . ولأضرب لك مثلا : رجلا تزوج امرأة فأصابها مرض مزمن . ورجلا تزوج امرأته فكان يستمر معها الحيض الى خمسـة عشر يوما . ورجلا تكره امرأته المباشرة فى كثير من أشهر الحمل ، وهلم جرا . فأمثـال هؤلاء الرجال اما أن يصبروا مع العنت والمشـقة ، وقليل الصابرون ، واما أن يأتوا الفاحشة ، وأولئك هم الخاطئون .

انني لأرى كما يرى كل عاقل ، ان تعدد الزوجات بالغة مثالبه ما بلغت أسلم عاقبة من اتيان الفاحشة ، ومن الشواهد التى يحسن ذكرها ما نقله « الأمير على » فى كتابه « سر الاسلام » عن السيدة غوردون الانجليزية : انها تأملت فى أحوال كثيرة من البلاد الاسلامية أو الشرقية اجمالا ، فرأت أن تعدد الزوجات أكثر مايكون فى البقاع التى تكثر فيها الفاقة ، وتقل فيها المرافق ، فيصعب على النســاء الاعتمــاد على أنفسهن فى تحصيل الرزق والأخذ بأسباب العيش ، وقد رأت تلك السيدة ان هذه احدى الضرورات التى يخول معها التعدد .

ولقد حاول خصوم الاسلام أن يجعلوا من مبدأ تعدد الزوجات وإباحته في الاسلام هدفا يحاولون أن يحاربوه به . فكثيرا ما قالوا : ان الاسلام يهدر كرامة الزوجة حين أباح للرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة ويزيد من النسل الذى يؤدى الى الفقر والعوز .

ولعل العلم الحديث قد أفصح عن الأهداف الانسانية والعمرانية التى توخاها الاسلام فى تعاليمه بالنسبة الى سماحه بالزواج من أكثر من واحدة فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينزبرج ووستر مارك » : ان تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة . وان الشعوب التى كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة انما كانت تتبع تقاليد لاتتصــل بالدين من قريب أو بعيد ، كما أن الشعوب التى أجازت الزواج بأكثر من واحدة انما أجازته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك الى الدين ، فلم يرد فى الانجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج بأكثر من واحدة وان الاسلام فى اباحته تعدد الزوجات قد أباحه فى حــدود عينها ولظروف حددها .. وبقيود تجعــل من العسير الأخــذ به الا فى حالات اضطرارية .

ويثبت علم الاحصاء أن نسبة الوفيات فى الذكور أكثر منها فى الاناث وذلك من ساعات الولادة حتى أول مراحل الشــباب ، الأمر الذى يسبب زيادة نسبة الأحياء من الاناث على الذكور أما فى الحروب التى قد تنشب بين

بنى البشر فتكون نسبة الوفيات ، قتيل واحدة لكل أربعة آلاف قتيل ، ويرجع كذلك الى أخطار العمل فى المصانع والمعامل حيث نجد الوفيات بين الشبان أكثر قطعا مما هى بين الشابات ، وكذلك بسبب التزاحم فى طلب الرزق وما ينجم عنه من حوادث وكافة الأعمال التى تنتج الأمراض الخطيرة والموت المفاجىء والحوادث القاتلة يقوم بها الشبان لا الفتيات كرجال المطافىء والغواصين ورجال الانقاذ ورجال الملاحة والصيادين .. وغيرهم مما يجعل نسبة الأحياء من الشابات أكثر من الشبان .

وقد يصرف الشبان عن الزواج أسباب معيشية فلا يزيد الشبان الذين تمكنهم حالتهم الاقتصادية من الزواج على الربع بأى حال ، ويبقى ثلاثة أرباعهم بلا زواج .. ومعنى ذلك أن تظل ثلاثة أرباع الشابات بلا زواج وهذا اذا تساوت نسبة العدد . فما بالنا والنسبة لاتتساوى ؟ كل ذلك يسبب تخلف نسبة كبيرة من الأناث عن الزواج ، والنتيجة الحتمية لذلك مانراه واضحا من انتشار البغاء العلنى والسرى فى الأمم التى تحدد الزوجات انتشارا يفوق انتشاره فى غيرها أضعافا مضاعفة ، كما تنتشر ولادة الأولاد غير الشرعيين ، وهم نتيجة الزنا ، فى كثير من البلاد الى نسبة خطيرة تصل أحيانا الى مايقرب من ربع المواليد الشرعيين ان لم تزد ، كما تزيد الاصابة بالأمراض السرية كالزهرى وغيره فى مثل هذه البلاد زيادة كبيرة ، أفلا يكون تعدد الزوجات فى بعض الحالات علاجا ناجعا لمثل هذه المشاكل ، ولا سيما أن هناك ظروفا قاسية تمر بالانسان يجد ألا مندوحة من الزواج بامرأة غير زوجته . أفلا يكون أكرم للزوجة أن تقاسمها غيرها زوجها فى هدوء وبلا ضجة ، خصوصا اذا ما كان بهذه الزوجة من العيوب ما لا يمكن للزوج احتماله ؟؟

وقد نشرت مجلة « هاربر » مقالا لـ « سيليج جرينبرج » ونشرته مجلة « المختار » فى عددها الصادر فى فبراير ١٩٥٨ جاء فيه : ان مكتب التعداد بالولايات المتحدة يتنبأ بأن النساء سيرتفع عددهن فى أمريكا بمعدل مليون كل عشر سنوات وان الدكتورة « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج تقول : ان لدى المجتمع حلين ممكنين فقط لتغطية النقص

المتزايد فى الرجال .. اما تعدد الزوجات أو ايجـاد طريقة ما لاطالة أعمار الرجال . فهل يمكن ايجاد طريقة لاطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم نرى هل سيلجأ العالم الى اباحة تعدد الزوجات ..؟

وقد يكون بالزوجة عيب يمنعها من انجـاب الأولاد . أفينقطع عقب الرجل لأنه لا يستطيع أن يتزوج من أخرى ؟ وهل من المعقول ومن عـدالة التشريع أن يحبس مثل هذا الرجل على مثل هذه الزوجة ؟ ! انها اذن حياة نكدة ، وبعدها يضيع ما جمعا من ارث ومال أهذا أفضل أم أن تعيش معها زوجة أخرى تنجب فتكون حياة مبسطة ؟ ولعمرى ان هذا لمنتهى الرحمة والشفقة بالزوجة والزوج .

وقد يكون بالزوجـة عيب لا تستطيع معه القيـام بخدمة زوجها على الوجه الأكمل فى أى شأن من شئونه .. أفلا يكون من الأرحم بالزوج أن يتزوج من تعنى بشئونه وشئون زوجته الأخرى .. ان ذلك ممكن وميسور والأمثلة على ذلك فى حياتنا كثيرة وعديدة .

هذه الأمثلة وغيرها قد تتعرض لها حياة الزوجين فتكون شفيعة لأن يتزوج الرجل بأخرى .

وقال الدكتور « حسين المفتى » فى هذا الشأن : أصبح من المعتاداعتبار مبدأ تعدد الزوجات منكرا اجتماعيا واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبـدأ فى دينهم تبريرا هو أقرب الأشياء الى الاعتـذار وما ذلك الا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعا يفكرون فى أمر الزواج على أساس ميول وعواطف الأفراد بينما الاسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ويضع الحلول التى ان لم ترض ميول الأفراد فانها لا تتنافى مع خيرهم ثم هى لا مناص منها لخير المجتمع عامة .

ويتبين لنـا لأول وهلة الاتجاه الذى يجب أن نتوخاه فى سعينا وراء مصلحة المجتمع اذا ماقارنا عدد كل من فريقى البشر : الرجال والنسـاء .. فالمعروف أنه بالرغم من تساوى عدد المواليد من الذكور والأناث الا أنه بعد فترة قصيرة من حياة هؤلاء المواليد يتناقص الذكور لكثرة الوفيات بينهم عنها بين الأناث حتى تبلغ زيادة الأناث على الذكور فى العادة واحدا فى المائة

وهو أمر اقتضته حكمة الله تعالى اذ جعل الاناث أكثر احتمالا لمشقة الحياة فى ساعاتها الأولى . وأكثر مناعة ضد الأمراض لكونهن الجنس الأهم فى وظيفة التناسل . فعلى صحة الأم فى الغالب وعلى مدى قوة احتمالها تتوقف حياة الجنين وصحته ثم حياته فى دورة الطفولة .

ومعنى هذه الزيادة الطبيعية فى الجمهورية العربية المتحدة مثلا التى يقطنها ثلاثون مليونا من الناس هو أن يزيد فيه عدد النساء اللاتى فى سن الزواج . ومن الطبيعى عقب الحروب أن يزيد الفرق العددى بين الذكور والأناث الى حد بعيد حتى يصل فى بعض الأقطار عدة ملايين . فماذا يكون مصير أولئك النساء اللاتى لا مقابل لهن من الرجال اذا ساد مبدأ وحدة الزوجة وخاصة اذا لاحظنا أن هذه الزيادة قد تتكون نسبة كبيرة منها من الأرامل ذوات الأولاد اللاتى تقل رغبة الرجال فى الزواج منهن . وهنا يبدو لنا بكل وضوح مغزى كل من المبدأين المتعارضين . فبينما مبدأ وحدة الزوجة يكتفى بأن يتزوج كل الرجال مع غض النظر عن مصير النساء اللاتى لا مقابل لهن من الرجال . اذ بمبدأ تعدد الزوجات يتيح فرصة الزواج لكل امرأة ولو تكلف بعض الرجال فى سبيل ذلك أن يتكفل كل منهم بأكثر من امرأة . فالواقع أن مبدأ تعدد الزوجات يمكن أن يسود فى المجتمع لمصلحة المرأة لا لمتعة الرجل . وعلى هذا الوجه قد طبقه النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون فى صدر الاسلام كما يتبين من تاريخهم ..

ان الثابت فى تاريخ النبى انه ظل ذا زوجة واحدة حتى بلغ الرابعة والخمسين من عمره ثم أخذ يعدد زوجاته فى فترة امتدت من السنة الثالثة الى السنة الثامنة من الهجرة وهذه الفترة هى التى تواصلت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين حتى انتهت بفتح مكة ونتيجة للحروب المستمرة اختل التوازن العددى بين الذكور والأناث فى مجتمع المسلمين بالمدينة . وأصبح من المحتم اعالة الأرامل واليتامى اللاتى سقط عائلوهن فى ميادين الجهاد . وما كان لمصلح اجتماعى كالنبى صلى الله عليه وسلم أن يهتم فقط باطعام الأرامل دون الاهتمام بحماية عفتهن وهو أعلم الناس بأن الغريزة الجنسية

شيء مغروس فى الطبيعة البشرية . وان اهمال شأنها خليق بأن تؤدى الى فساد المجتمع ..!

وان كون الزوجات الجديدات للنبى وصحابته كن فى الغالب من الأرامل ذوات الأولاد لينفى كل شك فى الدافع الذى دعا الى تعدد الزوجات فى صدر الاسلام ويبين أى غرض نبيل قام عليه هذا المبدأ . وان التأمل فى موقف مجتمع صدر الاسلام ازاء الأرامل ذوات الأولاد ليجلو لنا بوضوح نظرة الاسلام الى الزواج واعتباره اياه واجبا على الأفراد نحو المجتمع يقابله واجب على المجتمع نحو الأفراد بتيسير الزواج لمن لا يجدونه كالأرامل والمطلقات .

ويكفى لبيان فضل الاسلام وسمو أهدافه أن نقارن مبدأ تعدد الزوجات بالحلول التى يقترحها مفكرو أوروبا وأمريكا اليوم لعلاج المشكلة الاجتماعية التى تنشأ دائما عقب الحروب بوجود عدد كبير من النساء اللاتى لايجدن الزواج . والحل المفضل لهم حتى الآن هو اباحة العلاقة الجنسية وحماية الأمومة غير الشرعية . والفرق بين الحلين هو الفرق بين مجتمعين يقوم أحدهما على أقوم المبادىء ويرغب فى تأدية واجبه كاملا نحو أفراده بينما يتجاهل الآخر واجبه نحو صيانة الأسرة ويتساهل الى حد بعيد فى القيم الأخلاقية التى يجب أن تسود بين الناس . وهو على كل حال زواج قانونى يكفل للمرأة ولأولادها احترام المجتمع وهو ما لا يكفله لهم الحل الآخر مهما عملت الدولة على كفالة احتياجاتهم المادية .

ومن الخطأ الادعاء بأن مبدأ وحدة الزوجة هو المبدأ الذى تعتنقه المرأة بوجه عام اذ أنه لا يعدو أن يكون وجهة نظر الزوجة الأولى فقط . أما الزوجات الأخريات فلهن وجهة نظر أخرى فهن سيدات فضليات اضطررن تحت ضغط الظروف الى قبوله بل وربما الى السعى وراء تعدد الزوجات طلبا لحقهن المشروع فى الزواج وقد أخذ الاسلام بوجهة نظرهن اعترافا بحقهن وحماية لكيانهن الاجتماعى والخلقى .. ومما يؤسف له أن بعض مسلمى اليوم لايقدرون مبادىء الاسلام على الوجه الذى أنزلت عليه وكما فهمها وطبقها المسلمون الأوائل ، فاذا بهم يدعون الى الغاء مبدأ تعددالزوجات

بتشريع وضعى دون وجود مايدعو الى ذلك من واقع الحياة الاجتماعية فاذا أخذنا الأقليم المصرى مثلا فاننا نجد أن الاحصائيات تدل على أن نسبة المتزوجات من النساء المسلمات فى مصر قد هبطت من ٩١٥فى الألف فى سنة ١٩٠٧ الى ٨٨٥ فى الألف فى سنة ١٩٢٧ بينما ارتفعت نسبة المتزوجات من النساء المسيحيات من ٨٩٤ فى الألف فى سنة ١٩٠٧ الى ٩٠٥ فى الألف فى ١٩٢٧ . وكانت النتيجة أن هبطت نسبة المسلمين من السكان من ٩١ر٨ ٪ فى سنة ١٩٠٧ الى ٩١ر٢٪ فى سنة ١٩٢٧ فلو كان تعدد الزوجات مشكلة اجتماعية تحتاج الى علاج لانعكست الآية فى هذه الاحصائيات ولكن الواقع الذى تدل عليه هذه الاحصائيات هو وجود أزمة زواج بين المسلمات هى أولى باهتمام المصلحين الاجتماعيين وباهتمام هؤلاء الذين يشورون على مبادىء الدين الاسلامى لا لانهم يلمسون مشكلة اجتماعية اهتدوا الى علاجها بعد دراسة . بل لأنهم يستوردون آراءهم من الخارج .

ويرى بعض الناقدين استبدال تعدد الزوجات بتعدد الأزواج ولاشك أن هذا القول امعان فى الخطأ . فمن ناحية مصلحة المجتمع فان مبدأ تعدد الأزواج لا يحل مشكلة اجتماعية ومن ناحية مصلحة الجنس فلا فائدة من تعدد الأزواج لبقاء الجنس حيث لا تحتاج المرأة لكى تأتى بالنسل الا الى رجل واحد بينما مبدأ تعدد الزوجات ينطبق تماما على منطق الطبيعة ومصلحة الجنس التى تقضى بالا تظل امرأة ما معطلة بدون نسل .

وبالرغم من عدم تبين بعض المسلمين أوجه الحكمة فى شرعهم فان فى الأزمات الاجتماعية التى نشأت بسبب الحرب فى كثير من نواحى العالم ما يبين بجلاء حكمة العلاج الذى وضعه الاسلام لمثل هذه الأزمات صونا لبناء المجتمع وحماية للمستوى الخلقى وذلك بمنح المرأة نصف بيت اذا تعذر حصولها على بيت كامل . ونصف البيت هو بيت على كل حال . وهو خير كثير من تركها بدون بيت ، وتعدد الزوجات الشرعى خير بلا شك من تعدد الزوجات غير الشرعى .

ولا شك أن العالم سيهتدى يوما الى حكمة تعدد الزوجات كما سبق أن اهتدى الى حكمة الطلاق . وقد كان هو الآخر موضع انكار شديد .

أما تعدد الزوجات فان الاسلام لم يبتكره . كما أنه لم يستعره . فتعدد الزوجات من حيث هو نظام اجتماعى . من المرجح ان كان ثمة داع لوجوده . كان مألوفا أزمنة طويلة قبل أن يبزغ فجر الاسلام على شبه الجزيرة العربية والكتاب المقدس مليىء بقصص عن زوجات ابراهيم وسليمان والذى صنعه الاسلام هو تقييد تعدد الزوجات وعدم التشجيع عليه ، وتلك هى عبارات القرآن فى هذا الشأن وقد سبق ذكرها .

وان اباحة الاسلام الزواج حتى أربع زوجات . هذه الاباحة التى تعد تقييدا لما كان سائدا قبل الاسلام . قد الغاها من الناحية العملية تحذير الله أن تتزوج أكثر من واحدة واياما كان فقد احتفظ بحرية الزواج بأكثر من واحدة . وترك للرجل أن يتصرف بحكمته .

ان تعدد الزوجات لايبدو مشكلة خطيرة بنـاء على ما فى أيدينا من احصائيات . فمن لهم أكثر من زوجة هم ثلاثة فى المائة ليس غير من مجموع الرجال المتزوجين . وفضلا عن هذا . فالظاهر أن الزواج بأكثر من واحـدة يزداد قلة بدرجة ملحوظة . لاسيما بين جماعات المثقفين الذين يتزايد اتجاههم الى اعتبار تعدد الزوجات أمرا غير مشروع من الناحية العملية . وذلك بسبب ما قد أخذ يلابسه من وصمة اجتماعية . ان ما يقع من الرجال والنســاء من اساءة الاستعمال لأى رخصة اجتماعية . كتعدد الزوجات أو الطلاق . ليعالج خير علاج عن طريق التعليم والتهذيب . هذا هو ما استخلصه كل المصلحين الاجتماعيين من الأفغانى ومريديه فى نهاية القرن الماضى الى «هدى شعراوى» فى مطلع القرن الحاضر . وحتى يومنا هذا تقوم لجنة من مجلس الأمة ببحث هذا الموضوع .

ولما كان كل مجهود المبشرين والمستشرقين المسيحيين فى مطاعنهم يكاد ينحصر فى أن الدين الاسلامى قد أباح الجمع بين اثنتين فأكثر الى أربع . وان النبى صلى الله عليه وسلم قد تزوج أكثر من ذلك الى أن جمع بين تسع نساء وانه قد تزوج امرأة « زيد » . ويقولون : ان ذلك اباحة للشهوات الى أبعد مدى .. فالدين الذى يقرها لايكون من عند الله (أدلة اليقين ص ٦٤٠)

ولو نظرنا فيما يزعمون من أن تعدد الزوجات فى ذاته ينافى النبوة ويناقض الوحى الالهى لعلمنا بطلان ما يدعون وما يفترون ، فان الله تعالى قد أباح للرجل أن يجمع بين أربعة من النساء بشرط العدل بينهن فى المأكل والمشرب والمسكن وأن يكون قادرا على اعفافهن وصيانة أعراضهن وقادرا على الانفاق عليهن ، وعلى أولاده منهن . وكما أنه مكلف بالعدل بين الأبناء ، فلا يحل له أن يجحف بأحد أبنائه من غير سبب صحيح فاذا عجز الانسان عن اقامة العدل بين أسرته المكلف بها ، أو عجز عن صيانة زوجاته وعرضهن للفسوق والفساد أو عجز عن الانفاق عليهن أو على أولاده فانه يحرم عليه أن يتزوج بحيث لو فعل يكون مستوجبا التعذير . ذلك هو حكم تعدد الزوجات فى الاسلام .. فان المفروض فى اباحة التعدد أن يكون فيه منفعة للمجتمع ، فاذا ترتب ضرر عنه مادى أو أدبى كان ممنوعا كقوله : «وان خفتم أن لا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى أن لا تعولوا وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » .. ومعنى الآية : أن الناس كانوا فى الجاهلية يتحرجون من أكل أموال اليتامى ويخافون من عدم العدل بينهم ولا يتحرجون من ظلم النساء ، اذ كان الواحد منهم يتزوج العشر من النساء أو أكثر بدون مبالاة من العدل بينهن فيؤذى منهن من يشاء ويرضى من يشاء على حسب ما تدفعه اليه شهوته ويسوقه ميله . فكان الواحد منهم يتزوج كما يشاء وان المرأة كانت فى نظرهم كالحيوان فلا جناح على الزوج أن ينهرها أو يصلها ولا ضير عليه فى أن يؤلمها فى عيشها ولا يسوى بينها وبين غيرها فى طعامها وشرابها ونفقاتها ولا حرج عليه فى أن يعاملها معاملة الانسان أو الحيوان .

وهكذا حرر الاسلام المرأة تحريرا كاملا ورد اليها انسانيتها وانتشلها من العبودية الى طريق العزة والكرامة . فسوى بينها وبين الرجل فى جميع الحقوق . وقد علم الله من طبيعة خلقه أنه يمكن أن يعدل الانسان القادر بين أربع فيؤدى لهن حقوقهن كاملة . أما ما زاد على ذلك فليس فى مقدور الانسان من حيث هو انسان . فمن خاف عدم العدل . فلا يحل له أن يعدد

والزوجات . وان أقدم عليه فهو آثم اثما كثيرا . وكفى بذلك زاجرا للمسلمين ومن هنا يرى بعض الناس أن تعدد الزوجات يكاد يكون ممتنعا فى نظر الدين وعن عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسم بين نسائه فيعدل ويقول : اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك .

من هذا يتضح أن اباحة تعدد الزوجات فى الشريعة الاسلامية ليست كما يتصوره الجهلة الذين يتخذون من هذه الاباحة وسيلة الى قضاء شهواتهم فيقدمون على تعدد الزوجات بدون حساب لما يترتب على عقد الزواج من الحقوق الشاقة التى لا يستطيع أداءها كاملة الا أولو الأخلاق الفاضلة والعزائم المتينة .

ورب قائل يقول : مادام تعدد الزوجات مقترنا بهذه الشرائط فلماذا أباحته الشريعة . ولماذا لم تحظره كما حظرت كثيرا من عادات الجاهلية من أساسها كشرب الخمر . والجواب : أنه هنا يظهر أسرار التشريع الاسلامى وتتجلى عظمته فى أكمل معانيها فان التشريع الذى لا يبيح تعدد الزوجات يكون تشريعا ناقصا لا يلائم كثيرا من أحوال الانسان ولنضرب لذلك أمثلة

١ — ففى الحروب يهلك معظم الرجال وتبقى النساء ، وحينئذ تضطر الأمم الى تكثير نسلها ، أليس من الضرورى تعدد الزوجات .

٢ — اذا كثرت النساء فى أمة . فماذا يكون الحال ؟ أيترك الزائدات عن الرجال عاطلات من الزواج فيصبحن عاهرات .

٣ — اذا أصيبت الزوجة بمرض يمنع الرجل من الاستمتاع بها . أو شوه وجهها أو جسمها بعاهة تمنعه من ذلك ولها منه أولاد . أليس من سماحة الدين أن يضم اليها أخرى ليصون نفسه ويحتفظ بأولاده وأمهم حتى لا يظل معذبا ولا يضيع أبناءه وأمهم .

٤ — اذا تزوج الرجل بامرأة عقيم وكان ذا مال كثير وكان بينه وبين زوجه ود يمنعه من الفراق وخشى على ماله من الضياع أفلا يكون من سماحة

الدين أن يبيح له أن يتزوج بأخرى لينجب منها ، وقد يلد ذرية صالحة تنفع المجتمع وتفيده •

٥ — ان عظمة الأمم ومجدها انما يكون بـكثرة العاملين من أبنائها وبناتها . فمن ضرورات النوع الانسانى تكثير النسل بحسب ما يناسب حال كل أمة فاذا كان عدد أمة من الأمم قليلا وأرادت تكثير نسلها أفلا يكون التشريع الذى يمنعها من تعدد الزوجات شرا ووبالا لاينبغى لها أن تعمل به فى هذه الحالة واذا نحن نظرنا الى المسألة نظرا نزيها فى زماننا هذا .. لايسعنا الا الجزم بأن تعدد الزوجات يدفع كثيرا من المفاسد الاجتماعية والخلقية

والغريب أن الناس الذين يعترضون على تعـدد الزوجات ويعتبرونه سبة هم فى الغالب الاباحيون الذين لايرضيهم الا أن تكون المرأة متاعا شائعا بين الناس جميعا فهم لايكتفون باربع من النساء بل هم يزيدون فى سـبيل شهواتهم البهيمية التى لاتقف عند حد • فهل ذلك حسن مقبول فى نظـر هؤلاء الظرفاء والتزوج الذى لا اعتداء فيه على الأعراض قبيح تأباه العقول . ان ذلك لمن غرائب نزعات العقول ..

وقد عرفنا أن تعدد الزوجات مباح فى الشرائع كلها من ابراهيم الى موسى . واننى لا أظن أن الأنجيل الذى أنزل الى « عيسى » حرمه . ولكن المفسدين قد فهموا من شرائط الجمع بين الزوجات ما ساعدهم على فهم المنع فحرفوها هذا التحريف .

والاسلام اذا كان قد أباح هذا المبدأ فقد قيده بقيود عسيرة لاميسرة لكل رجل حتى يحفظ كرامة المرأة . فأوجب على الرجل الذى يتزوج بأكثر من واحدة أن يعدل بينهن • وهيهات أن يستطيع .

انظر الى ما كان معروفا فى بدء النصرانية من استقباح الزواج وتقبيح المتزوجين وتفضيل الرهبانية . ولقد قضت الرهبانية فى الأعصر الخالية أن يقبر فى الديور كثير من العقول الذكية . أما منشأ ذلك ، فقد كان اما تقليدا للمسيح عليه السـلام ، أو لبعض أسباب أخـرى كالتفرغ المطلق لعبادة الحق تعالى . ولا يزال قساوسة الكاثوليك يذهبون ذلك المذهب . ويزدرون

المتزوج لما دنس نفسه بميله الى الشهوات الحيوانية . قالوا : ان المسيح عليه السلام روح الله . فكان أقدر الناس على غلبة شهواته . قارنوا بينه وبين الرسول القائل : لا رهبانية فى الاسلام .. ثم انتهى بهم القياس الى الحط من كرامة الأخير . وقالوا : شتان بين من غلب نفسه . وبين من استرسل مع هواها فأرضاها . ولا يخفى بطلان هذه القضية فانه لا تناف بين الصلاح والزواج . على أن تقليد المسيح فى رهبانيته لا يبلغ غايته الا بخراب البيوت وتلاشى الأمم وانقراض النوع الانسانى ولا يخفى أن هذا ينافى مقتضيات العمران . ومطالب نظم الكون .

لم يكن الرسول فيما أتاه بدعا من الرسل . فان « موسى وداود »عليهما السلام . تزوجا بكثيرات من النساء . وهما الرسولان اللذان لا يسع نصرانيا ولا يهوديا . انكار نبوتهما . أو احتقار ما أتيا به من الصحف السماوية الأولى .

زوجات النبى صلى الله عليه وسلم

اتفق أكثر المسلمين على أن للنبى من الخصائص ما لم يكن لغيره من أمته . وذكروا أشياء منها تجاوزه بالزوجات العدد الذى أباحه لغيره بشروطه . ولا يخفى أن مثل هذا لا يكفى لاقناع غير المسلمين ، الذين نددوا بالنبى . ولم يجدوا فى كتب المسلمينماينهض حجة لهم ، اللهم الاقليلاممن أيده الله بروح منه . ولم يحدث قط أن اختار زوجة واحدة لأنها مليحة أو وسيمة . ولم يبن بعذراء قط الا عائشة التى علم قومه جميعا انه اختارها لأنها بنت صديقه وصفيه وخليفته من بعده « أبى بكر الصديق » رضى الله عنه .

هذا الرجل الذى يفترى عليه الآثمون الكاذبون بأنه الشهوانى الغارق فى لذات حسه قد كانت زوجته الأولى فى الأربعين وكان هو فى عنفوان الشباب لايجاوز الخامسة والعشرين وقد اختارته زوجا لها لأنه الصادق الأمين . وعاش معها الى يوم وفاتها . ثم ظل وفيا لها بعد موتها فلم يفكر فى الزواج حتى عرضته عليه «خولة بنت حكيم » التى رقت له فى عزلته فخطبت له

السيدة عائشة باذنه . ولم تكن هـذه الفتاة العزيزة عليـه تسمع منه كلمة ترضيها غير ثنائه على زوجته الراحلة ووفائه لذكراها .

ومعروف عن الرسول صلى الله عليه وسلم النزاهة والبراءة من كل عيب فلم يجمع بين الزوجات لشهوة فاسدة أو لغرض خسيس وحاشاه أن تتحكم فيه شهوة وهو المربى العظيم للعالم أجمع الذى أسس للبشر قواعد الفضائل التى ينبنى عليها صلاح المجتمع ، حاشاه أن ينقـاد لشهوة أو يخضع للذة جثمانية ، وهو الذى كان يهجر كل اللذات الدنيوية الى حد أنه كان يعصب بطنه من الجوع ، بينما كانت الأموال توضع أمامه أكواما فيوزعها على الناس ولا يأخذ منها الا قليلا .. أنا لا أريد أن أقول أنه صلى الله عليه وسلم كان مجردا من الشهوة الطبيعية ، كلا فانه كان أكمل الناس خلقا وخلقا وأحسنهم صحة وقوة ، وانما أريد أن أقول : انه كان مالكا زمام نفسه ، فهو الحاكم الحازم الذى لا يسمح لها أن تطغى عليه فى أى حال من الأحوال فلم يجمع صلى الله عليه وسلم بين نساء كثيرات الا لمصلحة اقتضتها ضرورة الدعوة الى الله تعالى .

وكيف لا .. وهو الذى سن لأمته مراقبة الله فى كل حركة وسكون . وعلمهم أن هذه اللذات التى هى فى الواقع من لوازم الأجسام الحساسة يجب أن يراعى فيها ما يسمو بالانسان الى الروحية فلا يصح لهم أن يقصـدوها لذاتها مطلقا وقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : تنكح المرأة لمالها وحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك . وقال عليه الصلاة والسلام : لاتنكحوا النساء لحسنهن فلعله يرديهن ولا لمالهن فلعله بطغيهن وانكحوهن للدين ولأمة سوداء خرقاء ذات دين أفضل .

فهل الذى يضع للناس ذلك النظام الخلقى الكامل تتغلب عليه شهوته فتدفعه الى أن يجمع بين زوجات كثيرات لمجرد قضاء شهوة ؟ كلا .. ان ذلك ضرب من ضروب المحال . فلم يتزوج عليه الصـلاة والسلام الا لضرورة اقتضتها الدعوة الى الله تعالى وهذه الضرورة تتنوع الى أنواع منها :

ايجاد لحمة نسب بين كبار أصحابه الذين بذلوا مهجم وأموالهم فى سبيل الله تعالى .. ومنهم « أبو بكر وعمر وعثمان » .

وقد كان لرابطة النسب قيمتها عند قبائل العرب . وهى تخفيف وطأة العداء الشديد بين النبى وبين من لم يؤمن من أقارب أصحابه المقربين منه . والدليل على ذلك عقده على عائشة وهى بنت ست سنين وبنى بها وهى بنت تسع . فأى شهوة تتصور مع فتاة فى هذا السن ؟ خصوصا والثابت أنها يومئذ كانت نحيفة . وقد ثبت فى الصحيح أيضا أن « عمر » قال « لحفصة » انى أعلم أن رسول الله ما تزوج بك الا لأجلى اذ ليس بك من الجمال مايبعثه على التزوج بك .

ومنها تزوجه بعض النسوة لضرورة نشر الدعوة الى الله تعالى لأن الشريعة الاسلامية قد أبانت كل ما يتعلق بحقوق الاستمتاع وآدابه كما أبانت مسائل الحيض والنفاس وغيرهما من أحوال النساء . ولا ريب فى أن الأحكام المتعلقة بهذا تحتاج الى عدد من النساء يباشرنها عمليا فلا مناص للنبى عليه الصلاة والسلام من أن يعاشر عددا منهن معاشرة الأزواج لينقلوا عنه شريعته كاملة . ومنهن « أم سلمة وسوداء بنت زمعة » رضى الله عنهما وقد تزوجهما وهما فى سن الشيخوخة تقريبا لارمق فيهما حتى أن سودة لم تكن صالحة للرجال ، ومنها تزوجه عليه الصلاة والسلام بعض النسوة لغرض هداية قومها للاسلام كما حصل مع « جويريه بنت الحارث » فانه لما تزوج بها أسلم قومها .

وما بنىالرسول بواحدةمن أمهات المسلمين لما وصفت به عنده من جمال ونضارة وانما كانت صلة الرحم والضن بهن على المهانة هى الباعث الأكبر فى نفسه الشريفة على التفكير فى الزواج بهن . ومعظمهن كن أرامل وأيامى فقدن الأزواج أو الأولياء وليس هناك من يتقدم لخطبتهن من الأكفاء لهن .

« فالسيدة سودة بنت زمعة » مات ابن عمها المتزوج بها بعد عودتها من الهجرة الى الحبشة ولا مأوى لها بعد موته الا أن تعود الى أهلها فيكرهوها على الردة أو تتزوج بغير كفء لها أو بكفء لها لا يريدها .

والسيدة هند بنت أبى أميه « أم سلمة » . مات زوجها عبد الله المخزومى وكان أيضا ابن عمها أصابه جرح فى غزوة أحد فقضى عليه . وكانت كهلة

مسنة فاعتذرت الى الرسول لكبرها لتعفيه من خطبتها فواساها قائلا : سلى الله أن يأجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرا . فقالت : ومن يكون خيرا لى من أبى سلمة ؟ وكان الرسول يعلم أن « أبا بكر وعمر » قد خطباها فاعتذرت بمثل ما اعتذرت به اليه . فطيب خاطرها وأعاد عليها الخطبة حتى قبلتها .

« والسيدة رملة بنت أبى سفيان » تركت أباها وهاجرت مع زوجها الى الحبشة فتنصر زوجها وفارقها فى غربتها بغير عائل يكفلها . فأرسل النبى الى النجاشى يطلبها فى هذه الغربة المهلكةلينقذها منأهلها اذا عادت اليهم مرغمة بعد هجرتها فى سبيل دينها . ولعل فى الزواج بها سببا يصل بينه وبين أبى سفيان بوشيجة النسب فتميل به من جفاء العـداوة الى مودة تخـرجه من ظلمات الشرك الى هداية الاسلام .

« والسيدة جورية بنت الحارث » سيد قومه ، كانت بين السبايا فى غروة بنى المصطلق فأكرمها النبى أن تذل ذلة السباء فتزوجها وأعتقها وحض المسلمين على اعتاق سباياهم فأسلموا جميعا وحسن اسلامهم ، وخيرها أبوها بين العودة اليه والبقاء عند رسول الله فاختارت البقاء فى حرم الرسول .

« والسيدة حفصة بنت عمر » مات زوجها . فعرضها أبوها على أبى بكر : فسكت وعرضها على عثمان فسكت . وبث عمر أسفه للرسول : فلم يشأ أن يضن على صديقه وحامى دعوته بالمصاهرة التى شرف بها أبو بكر قبله . وقال له : تتزوج حفصة من هو خير لها من أبى بكر وعثمان .

« والسيدة صفية الاسرائيلية » بنت سيد بنى قريظة . خيرها الرسول بين أن يردها الى أهلها أو يعتقها ويتزوجها فاختارت البقاء عنده على العودة الى ذويها . ولولا الخلق الرفيع الذى جبلت عليه نفسه الشريفة لما خيرها هـذا التخيير خصوصا اذا علمنا أنها كانت قصيرة ، وحينما سمع النبى — صلى الله عليه وسلم — احدى صواحبها تعيبها بقصرها قال لها ما معناه — من روايات لا تخرج عن هذا المعنى : انك قد نطقت بكلمة لو ألقيت فى البحر لكدرته ، وجبر خاطر الأسيرة الغريبة وحذر أن تسمع فى بيته ما يكدرها أو يؤلمها .

« والسيدة زينب بنت خزيمة » مات زوجها عبد الله بن جحش قتيلا فى غزوة أحد ولم يكن بين المسلمين القلائل فى صحبته من تقدم لخطبتها فتكفل بها . اذ لاكفيل لها من قومها .

ومنها تزوجه بعض النسوة لضرورة التشريع . وهو ما وقع له مع «زينب بنت جحش» مطلقة « زيد » . والمبشرون يعتبرون هذه القصة سبة وعارا وقد أعانهم علـى ذلك بعض المحـدثين الذين لاهم لهم الا اشاعة أكاذيب الرواة وتنميقها واخراجها فى ثوب قشيب لايبهر الا الملحدين .

غير أن الدين له قواعد يجب أن يرجع اليها فى تطبيق كلام الله ورسوله ومن هذه القواعد العامة أن محمدا نبى الله معصوم عن كل ما يخل بمقامه الكريم قبل النبوة وبعدها فكل ما يخالف ذلك يكون هراء من القول لاقيمة له فى نظر المسلمين . ومع ذلك فان هذه القصة قد ذكـرها الله فى القرآن الكريم فكل معنى زائد على القرآن لاقيمة له : « واذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت اليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم اذا قضوا منهن وطرا . وكان أمر الله مفعولا » (الأحزاب — ٣٧) .. وقال : « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » (الأحزاب ٤٠) .

والقصة : كانت زينب لا ترغب فى زواجها من « زيد » ولكن النبى عليه الصلاة والسلام أمرها أن ترضخ وتم زواجها . ولكن زينب كانت تفخر بنسبها على زيد وتتعاظم عليه لاعتقادها أنه أقل منها منزلة وحسبا لأنه تربى تربية الموالى (العبيد) . وقد كانت من أشراف قريش ولها صلة قرابة بالرسول . ولكن زيدا كان عظيما فى ذاته لأنه لم يكن من الموالى بل قد خطفه بعض الرحالة وباعوه لأخى خديجة فأهدته بدورها للنبى عليه الصلاة والسلام . وعلم أبوه وجاء الى الرسول فأعتقه ، وخيره النبى عليه الصلاة والسلام فى البقاء عنده أو الذهاب الى قومه مع أبيه ، ولكن زيدا تمسك بالنبى . فأعلن الرسول على الملأ بنوة زيد له . ولذلك كان زيد عظيما لأنه تربى فى حجر النبوة الشريفة . ومثله لايذل لامرأة مهما كان حسبها ونسبها فساءت العشرة بينهما وحلت البغضاء محل المودة ، ولم يكن لزيد مناص من طلاقها ولكن لم يستطع ذلك بدون مشورة الرسول عليه الصلاة والسلام الذى زوجه اياها

فأمره النبى بامساكها ونهاه عن طلاقها . وقد كان يعرض على زيد ما يرغبه فى البقاء معها .

أوحى الله الى النبى أن يرخص لزيد فى طلاقها وأن يتزوجها هو . وكان أمر التكليف هذا شاقا على النبى فى ذلك الوقت لأنه وان كان قد قضى على كثير من عادات الجاهلية خصوصا الأنكحة كنكاح الاستطراق وغيره . الا أن عادة تحريم زوجات الأدعياء (الأبناء المتبنين) كانت بمنزلة تحريم زوجات الأبناء الشرعيين بلا فرق . والشريعة الاسلامية قد حرمت نكاح زوجة الابن الشرعى ولا فرق بينه وبين الابن الادعائى فى نظر القوم . فابطال هذه العادة لم يكن أمرا هينا فلهذا أمهل الرسول أمر تنفيذه رجاء أن يرفعه الله عنه ولكن المولى الفعال لما يريد عاتبه على ذلك وأمره بأن ينفذ هذا الفعل وان يتحمل هذه التضحية الشديدة بنفسه ليكون قدوة لغيره ، ولأنه ان لم يفعلها فلا يستطيع أحد سواه أن يجرؤ على فعلها كقوله : « وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » . والحكمة البالغة فى ذلك الزواج هو القضاء على اعتبار الأدعياء كالأبناء الشرعيين ، لأن فى ذلك مخالفة لحكم الله الذى قصر التحريم على زوجة الابن نسبا أو رضاعة فقط .

وعلى هذا يكون زواجه عليه الصلاة والسلام بزينب من الضرورات التى اقتضاها التشريع وهو فرض عليه ولا مناص له منه .

ولقد كانت قصة زينب هى احدى هذه الأكاذيب التى احتفل رواة القرون الوسطى بتزويقها وترويجها . كتبها الراهب «فيدنزيو Fidenzio » فقال بعد تنميق مقدماتها على أسلوب القصص الغرامية :

كان هناك رجل يسمى سيدروس (زيد) له زوجة تسمى زينب — هكذا — وكانت هذه الزوجة أجمل نساء الأرض فى زمانها . وسمع « محمد » بجمالها الرائع فشغف بها حبا . وأراد أن يراها . فقصد الى منزلها فى غياب زوجها يسأل عنه . فقالت له الزوجة ! ماذا تبغى يارسول الله ؟ وماذا جاء بك عندنا ؟ ان زوجى قد ذهب الى عمله . ولم تخف المرأة خبر الزيارة عن زوجها الذى سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ فقالت : نعم كان

هنا .. قال : هل رآى وجهك ؟ قالت : نعم رآه وأطال النظر اليه . فقال الزوج حينئذ : لاعيش لى معك بعد الآن .

ومضى الراهب (الملفق) فى سرد القصة على هذا النمط مستشهدا لها بما ورد من حديث زيد وزوجته فى سورة الأحزاب . فتمت (الأحدوثة) عند سامعيها بشاهد من كتاب الاسلام ، وأضاف اليها هذا المؤلف وغيره ما اختاروا أن يضيفوه من كلام السيدة عائشة . ومن مناسبات الوحى فى هذه السورة . فخيل اليهم أنها حديث لاحيلة فيه للسامع غير التصديق والتأمين . وغير العجب بعد ذلك من خلائق نبى المسلمين .

وكتب « ر . ف . بودلى » فى كتابه الرسول « حياة محمد » ص ٢٤٠ فى هذه الأكذوبة قوله : وان السيدة الثانية التى صادفت فى نفس محمد هوى ، قد أحدثت رجة فى دور النبى أكبر مما أحدثته « أم سلمة » .. وقد كانت فى الواقع صدمة لكل انسان . وقد أصبحت هدفا للنقد وموضوعا للتندر خارج دائرة الأسرة . وكان اسمها « زينب » . وما كانت تتصل «بزينب» الأخرى التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة بأى سبب .

وكانت زينب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمة محمد ، وقد هاجرت الى المدينة قبل محمد بقليل . ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها اقتربت من الثلاثين . وقد زوجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعبده المحرر زيد بن حارثة ، وكان زيد قبيح المنظر وكان قصيرا أقنى الأنف . غير مثقف . ولو نحينا أمانته للاسلام وشجاعته الشخصية العظيمة . لما كان له الا القليل ليقدمه الى سيدة جذابة ارستقراطية كزينب . وقد قبلت زينب الزواج بسبب اصرار محمد . ولكنها لم تحب زيدا أبدا . وما كان زيد نفسه رجلا يفهم الناس فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجته المدللة .

وفى يوم من الأيام ذهب محمد ليزور زيدا . فلما لم يجبه أحد طرق الباب ونادى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على زينب الفاتنة . وكانت نصف عارية . فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : سبحان مقلب القلوب . ثم هرول خارجا فى ارتباك .

رأت زينب نظرة محمد فى عينيها . وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال . فقدرت ما سيعقب هذا القول . فلما عاد زوجها الى البيت أنبأته بما حدث فما تركت تفصيلا . وأضافت تفاصيل قليلة من عندها . وان أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب . فانطلق الى محمد رأسا وعرض عليه أن يطلق زوجه . فأثرت تضحية زيد بنفسه فى محمد . فأخبره أن يعود الى زينب والا يفكر فى ذلك ثانية .

وكان لزينب أفكار أخر : فكانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء . وكانت متيقنة من احساسه نحوها . وكانت قد ضاقت ذرعا بزيد . وكانت ترغب فى أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بجعل حياة زيد جحيما فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم . وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج . ثم ضم زينب الى زوجاته فابتدأت المتاعب .

وقول بودلى : وان هؤلاء الرجال . على كل حال . لينظرون الى الأمر من زاويته الخطأ فانهم لا ينقلون أنفسهم الى مجتمع ذلك الوقت أو حتى الى المجتمع الشرقى . فان للعرب اليوم . وانما للرجال العظام أمثال ابن السعود . وللحكام أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة زينب مرات عديدة فى حياتهم التى يحيونها فى القرن العشرين هذا . فلو أن « عائشة » لم تضع النقط فوق الحروف لكان من المحتمل أن لايقول أحد شيئا عن ذلك فى المدينة عام ٦٢٦ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل فى ذلك الوقت . كما هى اليوم الى حد ما . وما كان التحدث فيها محرما كما هو حادث بين كثير من الغربيين . وكانوا ينظرون اليها كعامل من عوامل السرور والطرب والالهام . ويعتبرونها شيئا عاديا . ويقول :

وانه لما يذهل العرب نفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية فانهم ليرون أن رجال القارة الأوربية والقارة الأمريكية ونساءهما لا يختلفون عنهم فى شيء فان لهم نفس شعورهم ولكنهم ينظرون الى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجسدية المزدوجة للذكر والأنثى كنظرهم الى رذيلة كشرب الخمر سرا . ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بزينب .

ومحمد بعائشة ومحمد بجورية بنت الحارث وقد أسرت فى غارة ولم تدفع ديتها وقد أصبحت زوجة محمد الثامنة بعد زينب شيئا غير عادي . ولكنه ليس بشيء غير عادى اذا قورن بعادات زواج الحكام الآخرين فى هذا الجزء من العالم كسليمان وداود . فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبدا .

وان قصة زينب أكثر بساطة ولا ريب من قصة يتشيبا أو أحنيوم زوجة أبيجيال التى أعجب داود بها فى ليلة عرسه .

وينبغى ألا ينظر الى حياة محمد الزوجية من وجهة النظر الغربية . وألا تقاس بالشرائع المسيحية . فان هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا غربيين وماكانوا مسيحيين فقد كانوا يعيشـــون فى زمن وفى قطر لا يعـــرف فيه الا أقيستهم الأخلاقية فحسب . حتى اذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوربية والامريكية أعظم من الأحكام العربية . ان عنـــد رجال الغرب الشيء الكثير الذى يعطونه لأهل الشرق . وانهم فى احتياج الى أخذ الشيءالكثير أيضا . والى أن يستطيعوا أن يترهنوا على أن طريقة عيشهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر . فان عليهم أن يحتفظوا بحـــكمهم على العقـــائد والطوائف فى البلاد الأخرى .

وقوله : وان هذا الزواج من زينب قد مكن الغــــربيين وعلى الأخص أولئك الذين يعتقدون أن محمدا لايصلح لشيء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك ! فما الذى تنتظرونه غير ذلك من هذا المخادع الكبير » .

ويعلق الأستاذ الكبير المرحوم عباس محمود العقاد على هذا الافتراء فيقول :

ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها واخراجهافى قصة غرام تذاع للتشهير برسول الاسلام . كما شاعت فى القرون الوسطى .

وليس أسهل من اسقاطها واسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة . وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمـــة بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام . وان النبى عليه السلام . هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد . وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه . لأنها

كانت بنت عمته يراها من طفولتها وتراه . ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها . وهو لا يطمع الى الزواج من مثلها . ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين وأن زيدا الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن الا أسيرا عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه .. وآثر المقام فى جواره على الرجوع الى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته ، والمساواة بينه وبين كرام أهله . وأطاعت الزوجة أمر النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله ، ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها اليها . ويشعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة ، فيهم بتطليقها ولكنه يستكبر أن يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وميزه بها على صحبه . فارتفعت بنبى الاسلام مروءته الى حيث ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء ، وأحل زيدا من حرجه ، وعوض زينب عن مهانتها لتعلم ويعلم الناس أنها كفء له وان كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه . ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها ، وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطرها الكسير أن يساق اليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

وقال الأستاذ العقاد : تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها الى وصمة انسانية يعاف من أجلها خلق الانسان . ويعاف الدين الذى يدعو اليه من أجله .

ويزيد عليها خبر صغير لاشك فيه ، فاذا هى شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للأنبياء ، لأنها شهادة بغاية البر والاحسان الى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والاحسان الى المرأة المجروحة فى عزتها ، بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها ، برغم ارادتها .

وكانت فضيلة الصدق ، مع فضيلة العفة ، أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالانكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى (صلى الله عليه وسلم) .

وفى هذه أيضا كانت لهم مهارتهم الرخيصة لأنها سهلة الشيوع سهلة التنفيذ ، فكل ماتوارد من الأنباء بين القرآن والكتب الاسرائيلية فهو وحى صادق فى كتب بنى اسرائيل ، ونقل غير صادق فى كتاب الاسلام ، مع التحريف والخطأ أحيانا فى الرواية عن الكهان اليهود والكهان المسيحيين

وقد كان رواج هذا الزعم سهلا سريعا بين أبناء القرون الوسطى ،لأنهم كانوا يعتقدون جميعا أن الكتب الاسرائيلية هى مصدر تلك الأنباء الأول ، وان الاختلاف فيها انما يكون بطبيعة الحال تحريفا أو خطأ فى النبأ الذى جاء بعد تلك الكتب بترتيب التاريخ .

ولقد فند الأستاذ الكبير مزاعم المستشرقين وغيرهم عن علاقة محمد بالمرأة فى كتابه « عبقرية محمد » فقال : فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل فى المرأة ، ونحن قبل كل شىء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء فى الفطرة ، لا عيب فيه ، وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام . فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمدا قد حقق مالم يحققه بشر قبله ولا بعده ، ولم يشغله عن هذا شىء ، لا امرأة ولا غير امرأة ، فان كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأه حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحا جميلا ليس بالضرورة رجلا خاضعا للذات حسه ، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه .

ويقول العقاد : قال لنا بعض المستشرقين : ان تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا انك لاتصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء ..

فالنبى — صلى الله عليه وسلم — أمكنه أن يسوس تسع زوجات ولم يؤثر عنهن خصام أو نزاع الا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن

يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعــدل ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الانسانى .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى — صلى الله عليه وسلم — مع نسائه ، واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية (انتهى تعليق العقاد) .

هذه بعض الأسرار التى من أجلها شرع الله لنبيه أن يجمع بين عدد من الزوجات ، فلم يعدد النبى الزوجات لمجرد قضاء الشهوة ، كما يدعى الداعون ويتشدق المتشدقون من المبشرين والمستشرقين الذين لم يتعمقوا فى الدراسة ويقفوا على حقيقة الأمور ، ولكن العصبية الدينية هى التى طمست قلوبهم ، وأبعدت الحقائق عن عقولهم وشلت القلم من أن يكتب الحقائق ، لينقصوا من قدر نبى الاسلام ، وهو أكمل خلق الله أخلاقا وأعفهم نفسا وأزهدهم فى متاع الحياة الدنيا . وقد حرم الله عليه أن يتزوج غير نســائه أو يبدل واحدة منهن بغيرها وقد عرفت أنه كان منهن الطاعنة فى السن ومنهن غير الجميلة ولم يكن من بينهن من يصح أن يستمتع بها سوى واحدة أو اثنتين ، فاذا كان محمد شهويا ، وكان يشرع لنفسه ما يوافق شهوته فكيف يحرم على نفســه أن يتزوج ممن تصبو اليه نفســه ، ويلزمها أن تبقى مع من لا تشتهيه النفس عادة . انه بهذا التشريع يعذب نفسه لا ينعمها ، ألم يقل الله له : « لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن » ..ويقول البعض أن هذه الآية منسوخة ، ولكنهم غافلون بدلالة أن الرسول — صلى الله عليه وسلم — لم يتزوج أبدا بعد هذه الآية .. ولو كان محمد شهويا لأجاب داعى الشهوة وهو فى عنفوان شبابه وقد وجد فى بيئة تغلب عليها الاباحة والفوضى فى الفروج الى حد أن الزوج كان يبعث بامرأته الى من ينكحها لتلد مثله ، وهو نكاح الاستطراق ، ومع هــذا فلم يستطع أعداؤه الألداء وخصومه الأقوياء أن يأثروا عنه صغيرة ولا كبيرة

تخل بمقامه الكريم . وهل يصدق العقل أن شابا قوى البدن جميل الصورة ينشأ فى بيئة اباحية فى النساء ، فيعف عنها ويتجنبها فى كل ملاذها وشهواتها الى حد أنه يهجر مجالسها التى تشتمل على اللهو والخلاعة فكان لذلك مقدسا عندهم جميعا يلقبونه « بالصادق الأمين » فهل تصدق أنه حينما انقضى عهد شبابه ودخل فى سن الشيخوخة انقلبت طبيعته وأصبح شهويا كلفا بالنساء خصوصا بعد أن ينصبه الله لارشاد الناس ، ويسن لهم قواعد الفقه والبعد عن الشهوات الضارة ؟ حقا انه كذب وافتراء على نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم . ألم يقض محمد عهد شبابه كله مع السيدة خديجة التى تزوج بها وهى أكبر منه سنا فكان لها وفيا كل الوفاء فى حياتها وبعد مماتها . واذا كان محمد شهويا فما باله اقتصر على السيدة خديجة مع أن بيئته كانت مملوءة بالنساء اللاتى يحدقن به من جميع النواحى ؟ هل يستطيع أحد من جهلة المبشرين أو المستشرقين أن ينقل عن أحد من المشركين أعداء محمد الألداء أن محمدا اعتدى على امرأة أو ساقته شهوته الى الاشتراك مع أهل بيئته فى ملاذهم الفاسدة مرة واحدة .

وهل من المعقول أن يحكم المرء شهوته وهو شاب جلد سليم البدن حتى اذا ما فات سن الخمسين غلبته شهوته .. هذا كلام والله لا يقوله الا قوم غافلون .. هذا هو الافتراء المشهور فى أباطيل المبشرين وأشباه المبشرين ، وهذه هى بواعث النفس التى استعصى على المبطلين أن يفهموها على جليتها ، فلم يفهموا منها الا أنها بواعث انسان غارق فى لذات الحس ، شهوان .

وهؤلاء المضللون يعرفون من كتب السيرةوالحقائق أن هؤلاءالزوجات أقمن فى بيت لايجدن فيه من الرغد ماتجده الزوجات فى بيوت الكثير من الرجال مسلمين كانوا أو مشركين . وعلى هذا الشرف الذى لايدانيه عند المرأة المسلمة ، شرف الملكات أو الأميرات . شقت عليهن شدة العيش فى بيت لايصبن فيه من الطعام والزينة فوق الكفاف والقناعة بأيسر اليسير . فاتفقن على مفاتحته فى الأمر واجتمعن يسألنه المزيد من النفقة وهى موفورة لديه لو شاء أن يزيد فى حصته من الفىء فلن يعترضه أحد ولا يحاسبه عليه غير أنه حكيم فى الأنفس والأموال ، سيد الجزيرة العربية ، لم يستطع أن

يزيدهن على نصيبه ونصيبهن من الطعام والزينة ، فأمهلهن شهرا وخيرهن بعده أن يفارقنه ولهن منه حق المرأة المفـارقة من المتاع الحسن ، أو يقبلن ما قبله لنفسه معهن من ذلك العيش الكفاف .

ولو أن هذا الخبر من أخبـار بيت النبى كان من حوادث السـيرة المحمـدية التى قد تخفى على غير البـاحثين ، لكان للمبطلين بعض العذر فيمـا يفترونه على نبى الاسلام من كذب وبهتـان . الا أنه خبر يعلمه كل من اطلع على القرآن ووقف على أسباب التنزيل ، وليس بينها ما هو أشهر فى كتب التفسير من أسباب نزول هذه الآيات : « يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاجميلا وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منـكن أجرا عظيما » (الأحزاب) .

وقد ذكر « واصف باشـا بطرس غالى » فى كتابه « فروسية العرب المتوارثة » وهو وان كان قبطيا مسيحيا فان لأقواله قيمة عظيمة — الرد الصحيح على ما جاء به (بيرون) من الادعاءات والتعصب .

يقول واصف : كان « محمد » يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التى استنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التى وضعها ، وهو يعـد بحق من أكبر أنصـار المرأة العمليين ان لم يكن أولهم ، فلقد كان بهن رحيما وعليهن حليما . وكان لين الجانب كثير العطف عليهن . عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء .

واقرأ مثل ماكان يكتبه الكثير من رجال الكنيسة فى حق المرأة ، فكان يقول أحدهم « سان بونافنتور » الى تلاميذه : اذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا ، بل ولا كائنـا وحشيا ، وانمـا الذى ترونه هو الشيطان بذاته ، والذى تسمعون هو صفير الثعبان .

واليك ماكتبه المستشرق « الفونس اتيين دينيه» فى كتابه «محمد رسول الله » خاص بتعدد الزوجات قال : ولن نخاطر هنا محاولين الدفاع عن

عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه الشدة ، لكننا نقتصر على عــرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شىء ذائع فى سائر أرجاء العــالم ، وسوف يظل موجودا ما وجد العالم مهما تشــددت القوانين فى تحــريمه ولكن المسألة الوحيدة هى معرفة ما اذا كان من الأفضل أن يشرع هــذا المبدأ ويحدد ، أم أن يظل نوعا من النفاق المتستر لاشىء يقف أمامه ويحد من جماحه .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين . ونخص منهم بالذكر « جيرالدى نيرفال » و « الليدى موجان » ، أن تعدد الزوجات عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية ، فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم فى هذا ..

ولكن هل تعدد الزوجات ، حقيقة ، أمر يصح أن نعلق عليــه كبير اهتمام فى عصرنا هذا ؟ لأنه ليس من مقتضيات الحياة الحديثة . ولندع جانبا كل الظروف الأخرى التى تجعل من العسير جدا وجود تعدد الزوجات فى المدن الكبيرة : وسوف يزول هذا الأمر بين المسلمين الذين يأخذون بأسباب الحضارة الحديثه خلال فترة قصيره . واذا كان مبدأ التعدد سوف يبقى فلن تجده مطبقا الا فى قلب البادية حيث تضطر الناس اليه فى ظروف الحياة التى لامفر منها .

ومع ذلك فاننا نتساءل : هل فى زوال تعدد الزوجات فائدة أخلاقية ؟

ان هذا أمر مشــكوك فيــه ، فالدعارة التى تنــدر فى أكثر الأقطار الاسلامية ، سوف تتفشى فيها وتنتشر آثارها المخربة ، وكذلك سوف يظهر فى بلاد الاسلام داء لم تعرفه من قبل ، ذلك هو عزوبة النساء التى تنتشر بآثارها المفسدة فى البلاد المقصور فيها الزواج على واحدة . وقد ظهر ذلك فيها بنسبة مفزعة ، وخاصة عقب فترات الحرب .

وقد كتب « شارل دوماس » عن المسلمين ، فى احدى دراساته حول مستقبل المستعمرات الفرنسية : ان جنسا لايمكن أن يتحرر قط اذا قضى على نصفه (يعنى النساء) بالرق الأبدى .

ولقد دافع الفونس نفسه عن مبدأ تعدد الزوجات دفاعا مجيـدا فى رسالته القيمة « أشعة خاصة بنور الاسلام » ونحن تنقل دفاعه الرائع فيما يلى :

مسايرة الطبيعة : لايتمرد الاسلام على الطبيعة التى لاتغلب ، وانماهو يساير قوانينها ويزاول أزمانها بخلاف ما تفعل الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة ، ومثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة ، فهم لايتزوجون ، وانما يعيشون غرباء .

على أن الاسلام لايكفيه أن يساير الطبيعة ، وان لايتمرد عليها وانما هو يدخل على قوانينها مايجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا فى اصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك (بالهدى) لأنه المرشد الى أقوم مسالك الحياة ، ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

والأمثلة العديدة لاتعوزنا ، ولكنا للقصر نأخذ بأشهرها ، وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع، والذى جلب للاسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جمة ، ومطاعن كثيرة .

ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ماالعمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذى يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للاسلام أمام الأمر الواقع ، وهو دين اليسر ، الا أن يستبين أقرب أنواع العلاج ، فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا .

والذى فعله الاســلام أول كل شىء ، انه أنقص عــدد الــزوجات الشرعيات ، وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعــد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله : « وان خفتم أن لاتعدلوا فواحدة » .

وأى رجل فى الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات : ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الاسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة .

ثم انظر هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها ، وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه؟ والافهؤلاء ملوك فرنسا ، دع عنك الأفراد ، الــذين كانت لهم الزوجات المتعــددات والنساء الكثيرات ، وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم واكرام ، ان تعدد الزوجات قانون طبيعى ، سيبقى ما بقى العالم . ولذلك فان ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته ، فانعكست الآية معها ، وصرنا نشهد الاغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم اغراء .. على أن نظرية التوحيد فى الزوجة .. وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البــلاء ، تلك هى : الدعارة والعوانس من النساء ، والأبناء غير الشرعيين .

وان هذه الأمراض الاجتماعية ذات السيئات الأخلاقية لم تكن تعرف فى البــلاد التى طبقت فيها الشريعة الاسلامية تمام التطبيق ، وانما دخلتها وانتشرت فيها بعد الاحتكاك بالمدنية الغربية .

ومن الأمثلة القائمة على ذلك : ماكان من أمر وادى ميزاب ، حيث تسكن القبيلة التى بهذا الاسم فى بلاد الجزائر اذ لم تدخلها الدعارة الا بعد ضمها الى فرنسا عام ١٨٨٣ ، وقد وصل بها الحال اليوم أن أربع بلدان من مجموع كله سبع بلدان قد ابتليت بهذا الداء الوبيل .

ومما نرويه من هذا القبيــل : ماجاء فى كتاب « الاســلام » تأليف « شتمزدومولان » : انه عندما غادر الدكتور « مافروكور داتو » الأستانة ١٨٢٧ الى برلين لدراسة الطب ، لم يكن فى العاصمة العثمانية كلها بيت واحد للدعارة ، كما لم يعرف فيهــا داء الزهرى (السفليس المعروف فى الشرق بالمرض الأفرنكى) فلما عاد الدكتور بعد أربع سنين أى سنة ١٨٣١ تبــدل الحال غير الحال .. وفى ذلك يقول الصدر الأعظم الكبير رشيد باشا ، فى حسرة موجعة « انا نرسل أبناءنا الى أوربا ليتعلموا المدنية الأفرنــكية ، فيعودون الينا مرضى بالداء الأفرنكى » .

وهنا سؤال يجرى على ألسنة اللادينيين ، قالوا : لم جاز تعدد الزوجات دون تعدد الأزواج ؟

والجواب عن ذلك : أنه يقضى بداهة الى اختلاط الأنساب ، فيقع اللبس فى نسبة النسل ، ولا يخفى أن ذلك يقضى الى تعطيل كثير من الأحكام الدنيوية ، كالنفقة والارث وغيرهما .

ومسألة أخرى ، وهى أنه لم جاز للمسلم أن يتزوج كتابية بخلاف العكس ؟

وجوابها : ان الاسلام جعل لكل كتابى أن يبقى على دينه ، فالكتابية فى يد المسلم آمنة على دينها بخلاف العكس ، فان المسلمة فى يد الكتابى لاتأمن أن تفتن فى دينها ، فانه لا وازع له من دينه ، يحول بينه وبين فتنة غيره ، ولاسيما من له عليه سلطان كزوجته ، والناظر لما يفعل دعاةالنصرانية فى العصر الحاضر يرى جليا وجه ماقلناه ، ومن هنا يعلم أن المرأة لم تبخس شيئا مما منحه الرجل .

الطلاق : ومما عد وصمة فى الاسلام ، اباحة الطلاق ، فلقد أباحه الله للمسلمين لأنه قد تدعو اليه الضرورة القصوى ، أما حيث لاضرورة فسماه النبى أبغض الحلال الى الله ، كما أن المسلمين اتفقوا على النهى عنه عند استقامة الزوجين ، فمنهم من قال : انه نهى كراهة ، ومنهم من قال : نهى تحريم .. وقد نهى الرسول عنه فى قوله : لاضرر ولا ضرار .

ولقد كره ، كما بينا من قبل ، الرسول أن يطلق « زيد » زوجته زينب مع أنها كانت تكثر من ايذائه والاستخفاف به .

أما الطلاق بسبب فلم يرفضه أحد ، ولكن اختلفوا فى بيان الأسباب ، قال ابن عابدين : وأما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة ، والاباحة للحاجة الى الخلاص ، فاذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة الى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وايقاع الايذاء بهاوبأهلها وأولادها . ولذا قالوا ان سببه الحاجة الى الخلاص عند تباين الأخلاق ، وعروض البغضاء الموجبة عدم اقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة

المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : « فان أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا » أى لا تطلبوا الفراق .

أما غير المسلمين ، فمنهم من لم يجوز الطلاق أصلا الا للزنا ، كالأمة الانجليزية ، فأيهما اقترفه كان للآخر أن يرفع الأمر الى المحكمة ليفصل القاضى بينهما ، أما أهل الولايات المتحدة بأمريكا فكانوا على هذه السنة ، ثم وجدوا أن هنالك أسبابا أخرى يتحتم معها الطلاق ، ولكن لافرقة عندهم الا بقضاء قاض ، ولا بد لجميعهم — يوما — أن يرجعوا الى ما قرره الاسلام من الأسباب ، نعم ، الشريعة الاسلامية لم توقف تنفيذ الطلاق على حكم الحاكم ، وقصار النظر من الناس يرون أن الأول أعدل ، لأن فيه محاسبة الرجل والمرأة على ما يعملان ، فلم يخل السبيل للرجل يفعل ما يريد ، ولكن دين الاسلام أقوى ركنا وأحكم وضعا وأبعد مرمى ، فلم يفعل ذلك الا لحكمة صالحة . ذلك أن فى تطبيق الطلاق على حكم القاضى ، بثبوت الزنا أقبح تشهير للمقترف ، وأشنع سبة تنفر من مرتكبه القلوب ، وتشوه سمعته فى العالم ، ولا سيما فى مثل هذا العصر الذى تطوف جرائده فى أنحاء العالم ، مشحونة بتفاصيل ما يعرض فى المحاكم من هذه القضايا آتية على ما قل منها وما جل .. فمن ذا الذى يقبل على تزوج رجل أو امرأة قطعت سمعتها الشنعاء المشارق والمغارب ؟ وسوف يقضى ذلك الرجل وتلك المرأة ما بقى من عمرهما فى بعد وجفوة ولو استقاما بعد ذلك وأصلحا .

ولا مجال للكثير من القول فى الطلاق ، فالواقع أن الشكوى ترتفع من الاجراءات نفسها لا من ذات المبدأ ، ويكفى أن نتأمل الآيتين الكريمتين « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما ان الله كان عليما خبيرا » (النساء — ١٣٠) .

وحق الطلاق ليس فقط من حق الزوج أو لفائدته هو وحده بل انه وضع لتحقيق مصلحة الزوجة أيضا ، كما جاء فى حديث جميلة زوجة ثابت ابن قيس التى جاءت الى النبى — صلى الله عليه وسلم — تطلب الطلاق من زوجها قائلة : يا رسول الله انى لا أجد عيبا فى ثابت ، فى خلقه أو دينه الا أنى

لا أطيقه . فلما سئلت هل ترد له البستان الذى أمهرها اياه وأجابت بالقبول ، أمر النبى ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد ورد أن امرأة ذهبت الى النبى — صلى الله عليه وسلم — طالبة الطلاق من زوجها قائلة ان ما معه كهدبة الثوب .. وكان أبو بكر حاضرا فقال له — صلى الله عليه وسلم — انظر يا أبا بكر الى ما تجهر به هـذه عنـد رسول الله . فصار أبو بكر يقول لها : استحيى يا امرأة . وكان معها غلامان . فسألها رسول الله هل هما ولداها منه فأجابته : نعم . فقال لها : انهما أشبه بأبيهما من الغراب بالغراب . ولم يقض لها بالطلاق .

ولاشك أن أساس حكم النبى فى الحالتين كان رعاية لصالح المجتمع ، فالزوجة الأولى كانت حديثة زواج لم تنجب ، فلم يكن هناك أسرة يخشى على كيانها .. أما فى الحالة الثانية .. فان كيان الأسرة له حقوق فلا يجدر بالزوجين الا أن يغلبا عقلهما على شهواتهما .

ان لنا أن نجزم بأن نصوص الشرع لم تضع امرأة أبدا موضعا مهينا واذا كان بين الرجال من يسىء استعمال حق تعدد الزوجات والطلاق ، وهما تشريعان ضروريان لعلاج حالات ضارة بالمجتمع ، فعلاج ذلك هو التنظيم الذى يلزم كل انسان حده والتعليم الذى يبين للعامة مرامى الشرع .

أما الاسلام فانه جعل للقاضى فسخ الأنكحة فى أمور لابأس فى اعلانها بل ان اعلانها هو المصلحة الكبرى ، من ذلك : العنـة والجنون والبرص والجذام ، والاعسار بالنفقة والكسوة والمسكن ، مما تراه مبسوطا فى كتب الفقه متى رجعت اليها .

أما غير هذه الأسباب مما قد لايزول أو يكون هناك كبير خطـر فى بقائه ، فللرجل أن يطلق من غير أن يكلف بيانا فيه ، فما أجمل ستار الشرع الذى يخفى كثيرا من النقائص ، رجاء أن تزول من قبل أن يظهر عليها أحد ، وما أرأفه بالانسان الذى قد يهفو ثم يبدو له الحق فيثوب الى رشده .

هذا ، وان الديانة المسيحية لم تمنع الطلاق أصلا ، وغاية ماورد فى الانجيل أن من طلق امرأته وتزوج أخرى فهو زان ، وهذا لاتعرض فيه لحكم الطلاق أصلا .

واعلم أن الطلاق فى الاسلام ، كما هو معلوم ، حق من حقوق الزوج : « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما أنفقوا من أموالهم » •

وكان الطلاق قبل الاسلام منتشرا فى جميع أمم العرب ، لافرق بين يهودى أو مسيحى أو وثنى ، وكذا بين الرومانيين ، فلقداعتبر قانون«الموائد الاثنتى عشرة » الطلاق جائزا ، أما ماتشدق به بعض المتشيعين لهم من أنهم لم يعملوا بهذا القانون الا بعد خمسة قرون مضت من عهد تأسيس مدنيتهم « رومة » فلم يكن سببه ما يدعون من بغضهم الطلاق ، ولكن لأن الرجل فى تلك القرون كان لابد له أن يقتل امرأته عقابا لها على بعض الجرائم كالسكر فكانت عند الرجل كالرقيق ، كما أنها اذا طلبت من زوجها الطلاق اعتبرذلك منها قحة ونشوزا يخول له عقوبتها ، نعم ، ان الرومانيين فى أخريات أمرهم أصلحوا كثيرا من شأن المرأة ، وأنصفوها ، اذ ساووا بينها وبين الرجال فى كثير من الأشياء •

يقول الأمير على : ان المعتزلة لا يجوزون وقوع الطلاق الا بحكم القاضى الشرعى العادل فلابد أن يمتحن الأسباب بلا تحيز ، فيوقع الطلاق أو يرفضه حسبما يراه صالحا وهو ماينتجه التفكير اليه الآن فى بلادنا .

ومن هنا يظهر أن من طوائف الاسلام من يعلقون وقوع الطلاق بحكم القاضى فلا يصح عندهم وقوع الطلاق من الزوج الا بعد محاسبته وامتحان الأسباب التى يبديها للفرقة ، وان من أكبر الدلائل على بغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته فى الطلقة الأولى والثانية ، حتى يتروى ويتدبر ، ويرجع اليه رشده حتى اذا طلق الثالثة ، وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأى ضعيف العزم قال تعالى: « فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » •

ومن هنا نجد أن الأصل فى الطلاق التحريم الا بسبب •• ذلك أهم ماعنى به المبشرون والمستشرقون من المطاعن فى الدين الحنيف وصاحبه ، وتجاوزوا حد الأدب مع خير دين ، وخير الرسل وخاتمهم .

الفصل الثامن
الرق والجزية

الرق :

لهج كثير من المستشرقين ، ومن قبلهم المبشرون من أصحاب الأغراض الاستعمارية والصليبية ، بمسألة الرق فى الاسلام ، واتخذوا منها مثلبة يسبون بها هذا الدين الحنيف .. وأسهبوا وأطالوا فى ذلك كثيرا حتى لم يخل عصر من العصور من اثارة هذا الكلام فى غير طائل .

ولو دقق هؤلاء البحث فى الشريعة المحمدية ، وألموا بنصوص الاسلام ونظروا لهذه المسألة نظرة سليمة خالية من الهوى ، لأنصفوا أنفسهم ، وأنصفوا الاسلام ، وعرفوا أن فضله على الأرقاء عظيم .

شرع الاسلام العتق ولم يشرع الرق ، اذ كان الرق مشروعا قبل الاسلام فى القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه : رق الأسر فى الحروب ورق السبى فى غارات القبائل بعضها على بعض ، ورق البيع والشراء ، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون .

وقبل أن نبين معنى الرق فى الاسلام يحسن أن نستعرض ماكان عليه الرق قبل ظهور الاسلام فى الأجناس والأديان .

قال بعض الباحثين : ان الاسترقاق ظهر فى الدنيا منذ كان الاجتماع البشرى ، والحقيقة أن الاسترقاق مظهر من مظاهر القوة ، والرق مظهر من مظاهر الضعف . وقد كانت القوانين فى الأزمان السالفة لا تزجر قويا عن ضعيف ، ولا تردع قاهرا عن مقهور ، فكان يفرض القوى أو الأقوياء ماشاءوا من النواميس التى لايراعى فيها عدل ولا انصاف ولا مساواة بين أفراد الانسان فيما لهم وما عليهم . وكان محض ارادة القوى وسلطانه هو القانون الذى يجب السير على مقتضاه ، ومن السنن الطبيعية أن الأفراد غير متساوين فى القوى الجسمية والعقلية . وان العمل لكسب مطالب الحياة

أصعب الأمور وأشقها على النفوس . وان حب السيطرة غريزة فى الانسان ، ومن هنا أخذ القوى يفكر فى التخلص من مشقة الأعمال ومكابدة الآلام ، ويفرض سلطانه على من حوله من الضعفاء أو الأذلاء ليروى بذلك غلة السيطرة ، وأصاب الأقوياء نجاحا فيما قصدوا ، فاتخذوا الضعفاء سخريا يسخرونهم فى أعمالهم ، ويعدونهم من أتباعهم ، ومن ذلك نشأ الاسترقاق . ثم جاءت الحروب وكثرت المطامع فانبث الاسترقاق فى جميع أجزاء العالم ، وعند كثير من الأمم ، وصار الناس لايقتلون العدو بل يبقون عليه ليعمل لهم ..

ومن اطلع على التاريخ وجد أنه لايكاد يخلو عصر من العصور من وجود الرق بين أهله ، وجدت أصوله فى كل جاهلية ، ثم تعدتها الى ماكان معها من الأمم المتحضرة ،وبقيت فيهاحتى بعد بلوغها شأوا بعيدا من الحضارة والمدنية ..

فقد عرف الاسترقاق عند قدماء المصريين ، فكان الرقيق فى مصر أداة من أدوات العمل . وعلامة من علامات العظمة،وكان الأرقاء من أنواع الزينة لقصور الملوك وبيوت الكهان ودور المقاتلين .

وتقرر فى شرائع الهنود تقسيم جميع الأشخاص الملزمين بالخدمة الى قسمين : وهما الخادمون والأرقاء .

فأما الخادمون فيقومون بالأعمال الظاهرة ، وأما الأرقاء فتلقى على عواتقهم جميع الأعمال البخسة . وقد حدد مشترعهم المسمى « مانو» طبقات الناس بطريقة شرعية دينية ، وجعل درجة الرقيق بهذه المثابة التى شرحناها .

وكذلك عرف الرق عند اليونان ، وعند قدماء الألمان فى استخدام الرقيق حتى ضرب بهم المثل فى ذلك .

ولو ذهبنا نسرد الأجناس التى اتخذت الرق قاعدة من قواعد حياتهم لطال بنا القول ، وذلك مالا نقصد ، ولكنه لابد لنا من الاشارة الى الرق فى أمة كانت من أرقى الأمم القديمة ، تلك هى أمة الرومان . فقد انتشر الاسترقاق بينهم منذ نشأتهم الأولى من غير تفريق بين من كان رومانيا أو

آجنبيا ، فكانوا يملكونهم اما بحرب أو شراءأو اختطاف •• وكان الرقيق فى الجملة عند أهل هذه الأجناس ، ماعدا القليل منها ، مهينا ذليلا ، لايعتبر الا من الأمتعة المملوكة ، وكان للمولى الحق فى أن يعاقب عبـده بالجلد بالسوط وبالطحن على الرحى • وكان يكويه فى بعض الأحيان على جبهته ، وبعض هذه الأجناس لم تكن لتعطى العبد مزايا الانسان ، فلم يكن له أن يشهد فى قضية ، واذا شهد على مثـله فليس من الجـائز أن يحلف اليمين القانونية ، لأنها أشرف وأسمى من أن يتفوهوا بها فيدنسوها • والرومان أنفسهم كانوا لايعتبرون الرقيق الا متاعا ، ولقد تغالوا فى السيطرة عليه حتى كان للسيد أن يتصرف فى عبده بالقتل فى غير جريرة ، نعم انه قد هذب هذا القانون بعد حتى خفف فى الجملة على الأرقاء أعبـاء ما كانوا يحتملون . ولكنهم مع ذلك كانوا تحت سلطان سادتهم . وكان للأمراء الرومان وأشرافهم الآلاف من الأرقاء ، يستخدمونهم فيمـا شـاءوا ويوقعون بهم من الآلام ما أرادوا ، غير مسئولين عما فعلوا ،ومن‌ذلك ترى أن‌الاسترقاق كان عند جميع الأجناس فى بقاع الأرض قاطبة .

أما فى الديانات فقد وجد عند اليهود منذ نشأتهم نوعان للاسترقاق ، أحدهما استرقاق بعض أفراد منهم لارتكابه خطيئـة من الخطايا المحظورة شرعا ، أو اقترافه اثما فى دين عليه ، وكان لهذا الرقيق أن يتحرر بعد مضى سنوات ست فى خدمة من هو فى ملكه ، الا اذا فضل البقاء رقيقا ، والنوع الآخر استرقاق غير اليهود فمن قضى عليهم أن يصيبهم شىء من عسف‌اليهود وحروبهم التى كانوا يقيمونها بلا مسوغ سوى الشره على السيادة ، وارضاء نفوسهم الجامحة بما طبعت عليه من الظلم ، فكانوا يبيعونهم كما يباع المتاع ويعاملونهم أقبح من معاملة الحيوان الأعجم سواء فى ذلك عبيد المنازل‌وعبيد الحقول والمزارع ، فانهم كانوا يقضون حياتهم منغصين ،مهينين معزولين ، محقرين ، ليس لهم حظ فى الحياة الا أن يسخروا فى الأعمال أو يقذف بهم فى الأهوال •

أما الديانة المسيحية فلم تتمكن من الغاء الاسترقاق أو تخفيف شدته ، ولم يأت فى الانجيل نص صريح ضد الاسترقاق بل كل ماورد فيه أن الناس

كلهم يعتبرون اخوانا ، وانه يجب عليهم أن يحب بعضهم بعضا ، ولكن هذه الاخوة لاتعنى محو العبودية وقد فهمها الحواريون بما لايتنافى مع الرق ، وأوصى بولس الأرقاء فى رسالته الى سكان مدينة « افسس » القديمة فى آسيا الصغرى ، بقوله : أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب » وأمرهم فى بعض رسائله أن يعتبروا ساداتهم أهلا بكل تشريف وتبجيل ، وأوصى العبيد الذين يكون مواليهم من النصارى بأن يبالغوا فى حسن القيام بخدمتهم .

ثم قال : ان هذه أوامر يسوع المقدسة ، وانها منطبقة على التقوى ؛ ووصف كل من عمل غير ذلك بالكبرياء والجهالة . بل قد ذهب كثير من القديسين الى أن الرق فى الديانة لمسيحية فكرة يتدين بها الرقيق ، ويتقرب بها الى الله . فقد قال القديس « اسيلوس » من آباء الكنيسة اليونانية فى بعض كتبه ، بعد أن أورد ما جاء فى الرســالة الى أهل افسيس التى أشرنا اليها : وهذا يدل على أن العبد يجب عليه طاعة مولاه بقلب سليم تمجيدا لله العلى العظيم .

وقال بعض القساوسة مخاطبا أحد الأرقاء : انى لأنصحك بالبقاء فى الرق حتى ولو عرض عليك مولاك تحريرك فانك بذلك تحاسب حسابا يسيرا ، لأنك تكون خدمت مولاك الذى فى السماء ومولاك الذى فى الأرض ،وتغالى بعضهم فجعل فكرة الرق قانونا طبيعيا لايمكن مخالفته ، وقال : ان الطبيعة خصصت بعض الناس ليكونوا أرقاء .

وهذه الفقرات التى نقلناها من الكتب المقدسة تدل على أن دخــول الدين المسيحى الى البلاد المتمدينة لم يقلل من الاسترقاق . فان الرق بين مسيحيى أوربا مثلا لم يكن بأخف بطشا ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس . ولقد جاء فى قوانينهم المدنية أن الرق من الأمور الطبيعية . كما أنها قدرت أثمان العبيد .

واعتبرت فى تقديرها ما يحسنه الرقيق من المهن والأعمال ، ومنعت الزواج بين الأرقاء ، وبينهم وبين الأحـــرار ، فقضت على الحـــرة المتزوجة بالعبد أن تقتل ، وعلى الزوج أن يحرق حيا . وقد كان ذلك حال العبد فى أوربا فى القرن الثالث عشر للمسيح عليه السلام .

ولما تقوضت أركان المملكة الرومانية وأسست على أنقاضها المملكتان الشرقية والغربية ، لم يقف أمر الاسترقاق الى هذا الحد ، بل كان لاشراف الأمتين وأمرائهما القول الفصل والرأى الأعلى فى الفــلاحين الذين تحت أيديهم ، فكانوا ملاكهم وسادتهم ، ولم يكن فى ذلك الوقت من هو أرقى منهم حكما وأعلى سلطانا ، ولم تكن الحكومة لتعنى بوضع حدود بين المالك والمملوك ، على أن الكنائس نفسها فى أوربا قد اتخذت الأرقاء وأباحت لغيرها اتخاذهم ، وكان كثير من الناس يذهبون الى استحسان ذلك واعتباره من أحسن الوسائل لمنع التسول وقطع دابر السارقين وقطاع الطرق .

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية وأوجبها آباء الكنيسة لأن الرق كفارة من ذنوب البشر يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم .

وأضاف القديس الفيلسوف « توما الاكوينى » رأى الفلسفة الى رأى الرؤساء الدينيين فلم يعترض على الرق بل زكاه ، لأنه — على رأى أستاذه أرسطو — حالة من الحالات التى خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية . وليس مما يناقض الايمان أن يقنع الانسان من الدنيا بأهون نصيب .

ومذهب «أرسطو» فى الرق : أن فريقا من الناس مخلوقون للعبودية لأنهم يعملون عمل الآلات التى يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة ، فهم آلات حية تلحق فى عملها بالآلات الجامدة . ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاســتقلال والتمييز فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة الى منزلة الــكائن العاقل الرشيد .

وأستاذ « أرسطو » « أفلاطون » ، يقضى فى جمهوريته الفاضــلة بحرمان العبيد حق المواطنة واجبارهم على الطاعة والخضوع للأحــرار من

سادتهم أو من السـادة الغرباء ، ومن تطاول منهم مع سـيد غريب أسلمته الدولة اليه ليقتص منه كما يريد .

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام ، كما شرعت نظام الرق الخاص ، أو تسخير العبيد فى خدمة البيوت والأفراد ، فكان للهياكل فى آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها ، وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة ، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة .

وانقضى على العالم عصور بعد عصور ، وهذا النظام سائد فى أرجائه بين الأمم المعروفة فى القارات الثلاث ، ينتشر بين أمم الحضارة وقبائل البادية التى تكثر فيها غارات السلب والمرعى . ويقل انتشـاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى كوادى النيل وأودية الأنهار الهندية ، الا أن الأمم فى الأودية الهندية كانت تأخذ بنظام الطبقة المسخرة أو الطبقة المنبوذة وهى فى حكم الرقيق العام من وجهة النظر الى المكانة الاجتماعية والحقوق الانسانية .

ان دخول الدين المسيحى فى أوربا لم يقلل من الاسترقاق الا من وجهة واحدة ، ذلك أن الرقيق كان حرا بالرهبانية ، وانقطاعه الى خدمة الدين . على شرط ألا يظهر له سيد يدعيه فى خلال ثلاث سنوات . أما من الجهات الأخرى فان الاسترقاق بين مسيحيى أوربا لم يكن بأخف بطشا ، ولا أسلم عاقبة مما كان بين الوثنيين والمجوس .

وكان أقبح أنواع الاسترقاق فى أمريكا الشمالية ، ولم يزل فاشـيا فيهم حتى وقعت الحروب الدينية التى تأججت نارها فى سنة ١٨٦٥م وقد نحا كثير من الأمريكيين نحو الأمم السابقة من اليهود والفرس والرومان بالرغم مما هم عليه من العلم الغزير والمدنية التى لم يسبقوا اليها .

فكان الأمريكى الأبيض النصرانى يملك الأمـة السـوداء ويولدها البنين ، ومع ذلك لا يعتبرها أم ولده ، كما فعل الاسلام ، بل كان لابنه الابيض أن يبيعها ويبيع ذريته منها الذين هم اخوته من صلب أبيه .

وبالجملة يمكن الحكم بأن الدين النصرانى لم يأت بما يقطـع دابر الاسترقاق أو ينافيه ، كما أن الأمم المسيحية ، على اختلافها وتباين مشاربها،

كانت لا تبالى أن تسترق من شاءت وأن تستخدم الرقيق كيف شاءت . وتعامله كما شاءت ، ولم يزالوا كذلك حتى انتشر أمر التعليم فيهم ، فهذب من نفوسهم وأضعف من قسوتهم فتعاهدوا وغيرهم من الأمم المتحضرة على حماية نوع الانسان ، والحيلولة بين أفرادهم من سيطرة بعضهم على بعض الا بقدر ما تقتضيه النواميس الشرعية .

وعلى هذه الحالة كان العالم كله يوم مبعث الدعوة الاسلامية من قبل الصحراء ليس فيه من يستغرب هذه الحالة أو من يشعر بحاجة الى تعديل فيها حيث يكثر الأرقاء أو حيث يقلون .

ففى البلاد التى كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق فى البيوت والمزارع والمرافق العامة. فلم يكن تغيير هذه الأوضاع مما يخطر على البال. ولم يكن تغييرهامستطاعا بين يوم وليلة لو أنه خطر على بال أحد .

وكان عدد الأرقاء قليلا فى البادية العربية بالقياس الى أمم الحضارة . اذ كان عددهم بين المسلمين الأوائل لا يزيد على عدد الأصابع فى اليدين . فلم يكن بدعا من الدين الجديد أن يترك الحالة فى الصحراء العربية ، وفى العالم ، على ما كانت عليه ، حالة لم يستغربها أحد ، ولم يفكر أحد فى تغييرها أو تعديلها ، ولكنه لم يتركها ، ولم يغفلها ولم يؤجلها بين الاغضاء والاستحسان لهوانها وقلة جدواها بل جرى فيها على دأبه فى علاج المساوىء الاجتماعية والأخلاقية يصلح منها ما هو قابل للاصلاح فى حينه . ويمهد للتقدم الى المزيد من الاصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه .

وان ما شرعه الاسلام فى الرق قبل أربعة عشر قرنا فى بضع كلمات، أنه حرم الرق جميعا ولم يبح منه الا ما هو مباح الى الآن . وفحوى ذلك أنه قد صنع خير ما يطلب منه أن يصنع وأن الأمم الانسانية لم تأت بجدية فى هذه المسألة بعد الذى تقدم به الاسلام قبل ألف ونيف وثلاثمائة عام .

فالذى أباحه الاسلام من الرق مباح اليوم فى أمم الحضارة التى تعاهدت على منع الرقيق منذ القرن الثامن عشر الى الآن .

لأن هذه الأمم التى اتفقت على معاهدات الرق تبيح الأسر واستبقاء الأسرى الى أن يتم الصلح بين المتحاربين على تبادل الأسرى أو التعويض عنهم بالفداء والغرامة . وهذا هو كل ما أباحه الاسلام من الرق أو من الأسر ، وغاية ما هنالك من فرق بين الماضى ، قبل أربعة عشر قرنا ، وبين الحاضر ،فى القرن العشرين ، أن الدول فى عصرنا هذا تتولى الاتفاق على تبادل الأسرى أو على افتداء بعضهم بالغرامة والتعويض . أما فى عصر الدعوة الاسلامية فلم تكن دولة من الدول تشغل نفسها بهذا الواجب نحو رعاياها المأسورين . فمن وقع منهم فى الأسر بقى فيه حتى يفتدى نفسه بعمله أو بماله .

والاسلام قد هذب حالة الاسترقاق والرق تهذيبا لم تسبقه اليه شريعة من الشرائع أو قانون من القوانين ، بل أضاف الى شريعته فى الرق نوافل وشروطا تسبق الشريعة الدولية بأكثر من ألف سنة ، فاذا كانت الشريعة الدولية لم تفرض على الدولة فكاك رعاياها من الأسر ، فقد سبق الاسلام الى فرض هذا الواجب على الدولة ، فجعل من مصارف الزكاة انفاقها فى الرقاب ، أى فكاك الأسرى ، وأن يحسب للأسرى حق من الفىء والغنيمة كحق غيرهم من المقاتلين .

واذا كان ارتباط الأسرى ضربة لازب فى الحروب الحديثة فالاسلام لم يجعله حتما مقضيا فى جميع الحروب ، وحرص على التخفيف من شدته ما تيسر التخفيف فيه ، وجعل المن فى التسريح أفضل الخطتين : « فاما منا بعد واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها » (سورة محمد) .

وحث المسلمين على قبول الفدية من الأسير أو من أوليائه : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (النور) .

سوى الاسلام بين الأمم من غير اعتبار لاختلاف أصنافها وألوانها . فسوى بين الأبيض والأسود ، والبدوى والمتحضر ، والرعايا والمرعيين ، والرجال والنساء ، والمسلمين واليهود والنصارى ، ماداموا فى سلم .

وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : أيها الناس ، انما المؤمنون اخوة ، ولا يحل لامرىء مال أخيه الا عن طيب نفس ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فانى قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنة رسوله ، أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ليس لعربى فضل على عجمى الا بالتقوى .

فالمسلم أخو المسلم يقاسمه سراءه وضراءه ، ويشاطره آلامه وآماله ، ويحمل من أعباء الحياة ما ينوء به ، ويضفى عليه مما أفاء الله عليه من فضل ما يرفه به عنه ، والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، وترى المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ، وكل المسلم على المسلم حرام ، دمه وماله وعرضه « انما المؤمنون اخوة ، فأصلحوا بين أخويكم ، واتقوا الله لعلكم ترحمون » .

ولم يألف الناس منذ خلق الله البسيطة كالاسلام دينا قضى على الفوارق الجنسية وسوى بين الطبقات وأزال الحواجز بين البيض والملونين ، وجعل الناس فى نظره سواء لا فرق بين غنى وفقير وعالم وجاهل . وأبيض وأسود. وعربى وعجمى . كلكم لآدم وآدم من تراب . لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .. « ألا ان أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق منه ، وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق له » .

فأين هذا مما نراه الآن فى الدول الكبرى المتحضرة !. ان أمريكا وقد بلغت شأوا بعيدا فى العلوم والذرة ، والمدنية ، وكادت تسيطر على العالم الغربى ، مازالت راسخة فى قيود العنصرية المقيتة فجامعاتها مفتوحة للبيض محرمة على الزنوج ، والعربات العامة والمطاعم ، ودور النيابة مفتحة الأبواب للبيض موصدة أمام السود ، وكأن هؤلاء ليسوا آدميين فلا يستحقون أن يعيشوا فى دنيا الناس ومايحدث فى أمريكا يحدث مثله فى انجلترا وفرنسا الضعيفتين المتخاذلتين اللتين قضى عليهما التحلل الاجتماعى ، وجثتا على

ركبتيهما لأول ضربة سددها هتلر لفرنسا فى الحرب العالمية الثانية ويوم أن انتصر عليهم المصريون عقب اعتدائهم على بور سعيد عام ١٩٥٦ .

ففرنسا مثلا تؤمن بالاخاء والمساواة للفرنسيين داخل بلادها فى الوقت الذى كانت تأبى فيه على اخواننا الجزائريين أن يعيشوا أحرارا فى بلادهم وتسخر كل امكانياتها الحربية وأسلحة حلف الاطلنطى لتبيدهم أفرادا وجماعات فى حرب بربرية استمرت سنين عديدة ، ضاع فيها مليون شهيد من العرب ولم يعرف لها التايخ مثيلا فى الوحشية وفقدان الانسانية والرحمة .

وقد كثرت وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالارقاء . فقال فى بعض الأحاديث : لقد أوصانى حبيبى « جبريل » بالرفق بالرقيق حتى ظننت ان الناس لا تستعبد ولا تستخدم .. وكانت من آخر وصاياه قبل انتقاله الى الرفيق الأعلى وصيته بالصلاة وما ملكت إيمانكم .. ونهى المسلمين ان يتكلم أحد عما ملك فلايقول: عبدى وأمتى- وانما يذكرهم فيقول فتاى وفتاتى كما يذكر أبناءه وبناته .. وكان عليه السلام القدوة لأصحابه فى معاملة الرقيق معاملة كريمة طيبة . فكان يتورع عن تأديب وصيفته ضربا بالسواك . وقال لوصيفة أرسلها فابطأت فى الطريق : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك ، ومن الوسائل الفردية التى تحرى بها الاسلام تعميم العتق وتعجيل فكاك الأسرى ، أنه جعل العتق كفارة عن كثير من الذنوب . كالقتل الخطأ والحنث فى اليمين ومخالفة قسم الظهار : « ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة الى أهله » (النساء) .. و « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة » (المائدة) .. « والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا » (المجادلة) . « فلا اقتحم العقبة . وما أدراك ما العقبة . فك رقبة . أو اطعام فى يوم ذى مسغبة . يتيما ذا مقربة » (البلد) .

زعم كثير من المستشرقين والمبشرين . ولا سيما من غير المسلمين من الناس . ان الاسلام أباح للناس اختطاف غيرهم من السود أو البيض .

مستدلين على ذلك بما كان يفعل النخاسون من أهل البادية . وأهل السودان . وكثير من الأتراك .. وقد تقدم لنا أنه لا ينبغى الاستدلال على صحة الدين أو فساده بما يفعل أهله فان هذا من العبث الذى ينبغى ان تصان عقول العقلاء عنه .

ان الشرع لا يبيح ان يسترق مسلم أصلا . ثم أنه لا يبيح بعد دلك الا استرقاق أسرى حرب شرعية . لم تقم الا لاعلاء كلمة الله تعالى . مراعيا فيها ان تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم . فمن هنا يؤخذ ان أسرى الحروب التى أقامها كثير من أمراء المسلمين وخلفائهم . لا يجوز استرقاقهم بحال . سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم . كتابيين أو وثنيين أو مجوسا .. أما استرقاق غير المحاربين ، ممن لا كتاب لهم ولا شبه كتاب ، كعبدة الأوثان . فقال مالك والشافعى وأحمد فى احدى روايتيه : ان ذلك لا يجوز مطلقا .

فماذا ترى فيمن يذهبون الى الصحارى ويختطفون من وصلت اليه أيديهم من السودانيين وغيرهم ثم يجلبونهم كما يجلبون المتاع ويعرضونهم فى الأسواق عرض الحيوان الأعجم . وكثير منهم مسلمون ؟ وماذا ترى فى كثير من الأمراء وشيوخ المسلمين . يجيئون اليهم ويسومونهم كما يسوم المتاع ثم يسوقونهم الى بيوتهم وقصورهم اما للخدمة واما للافتراش ؟ .. وماذا ترى فى الذرية التى ينتجها افتراش بنى على هذا الاسترقاق الفاسد ؟ ان الدين ليبرأ مما جنى عليه أولئك الطغاة الجهلة . هؤلاء الرجعيون الرأسماليون المستهترون . الذين اعمتهم المادة عن القيم الخلقية وان الدين ليبرأ مما جنى عليه أولئك المتمردون وطاهر مما ألصقوه به من ذلك الدنس والرجس . قد سولت لهم نفوسهم الخبيثة ما شاءت ان تسول فافتاتوا على الله ونسبوا اليه ما نسبوا متقولين عليه . وهذا قرآن كريم قائم ناطق بتكذيبهم وتأنيبهم .

نشرت جريدة الجمهورية بعددها (٢٩٣٠) الصادر فى ٢١ رجب سنة ١٣٨١ هـ — ٢٩ ديسمبر ١٩٦١ .. خبرا من بيروت — ا.ش.ا : اعتقل رجال الأمن اللبنانى أمس الأول ٤٠ فتاة أجنبية عند هبوطهن بمطار بيروت قادمات

من «مدريد» وكانت دوائر الأمن قد تلقت مايفيد وصول الفنانات كجزء من صفقة نسائية ستصل الى بيروت لبيعها لأثرياء بعض الأقطار العربية .

بمثل هذه الأنباء المزرية المخجلة .. نسمع عن الرجعيين من حكام العرب الذين ارتموا فى أحضان الاستعمار فأعمى قلوبهم وبصائرهم بالمال والنساء حتى يكونوا له عبيدا وارقاء .. ضد أوطانهم وشئونهم .. هذا هو الاسترقاق فى أيام الحضارة الحديثة والمدنية الحالية . استرقاق الملوك والأمراء والحكام من الرجعيين أذناب الاستعمار وعبيده .

وهناك نوع من الاسترقاق . فشا فى المسلمين أيضا . وهو لا يبيحه الشرع كذلك . ذلك أن بعض أمم آسيا كالقوقاز وغيرها . قد يحدو بهم الفقر المدقع .الى جلب بناتهم بأيديهم الى أسواق بعض المدن الاسلامية وهن صغار جدا ليبيعوهن الى الأمراء والمثرين من الرجال . ولقد يكون منهن المراهقات والكبيرات حتى اذا صارت احداهن فى ملك أحد استباحها واتخذها فراشا . يخادع الله بما عقده من البيعة الفاسدة ، وما يخدع الا نفسه من حيث لا يشعر . فيظل طول حياته مستبيحا ما حرمه الاسلام . ويدخل فى دينه ما أملته عليه وساوس الأوهام .

وهذا هو الاسلام الذى كرم الأسرى ، فشرع أن كل من أسلم من الأسرى عصم نفسه وماله وأن مجرد دخول العدو المحارب دار الاسلام أمان له من السبى (عند مالك والشافعى وأحمد بن حنبل) .

وقد وضع الاسلام من الأصول والقواعد ، ما كاد يقضى على الاسترقاق . لولا أن الأمم العربية وغيرها كانت اذ ذاك على ما بينا فى أمر الاسترقاق .. وبديهى أنه لا يمكن أن يزيل النبى عليه الصلاة والسلام فى بضع سنين أمرا ألفته النفوس واستولى عليها ذلك الاستيلاء لذلك كان النبى عليه الصلاة والسلام يرغب الناس فى العتق . كما جعل هناك أحوالا يلزم فيها السيد بالاعتاق . فمن ذلك :

١ — اخبار الرسول صلى الله عليه وسلم غير مرة بان العتق من أجل العبادات . وأقربها قبولا عند الله عز وجل .

٢ — أنه جعل كفارة لبعض الخطايا والحنث فى بعض الأيمان .

٣ — أن مكاتبة العبد مستحبة بالاجماع . وللامام أحمد فى رواية أنها واجبة متى دعا العبد سيده اليها على قدر قيمته أو أكثر . وان للعبد الاشتغال والسعى . ليحصل على ما يدفعه لسيده من نجوم الكتابة . وأن على سيده أن يتركه يشتغل أين شاء وفيما شاء .

٤ — اذا امتنع المكاتب عن الأداء ومعه ما يفى . فالحنفية تجبره على الأداء . واذا لم يكن معه مال . ولكنه قادر على الكسب . فالمالكية تجبره على الكسب . لأنه ليس له تعجيز نفسه ما دام قادرا عليه .

٥ — يراعى فى عقد الكتابة حالة الرقيق . فأقل وعد من السيد . أو أقل احتمال للوعد بالتحرير . يجعل التحرير ضروريا .

٦ — اتفق الأئمة على أنه لو كان فى يد انسان غلام بالغ عاقل وادعى عليه أنه عبده فكذبه الغلام . فالقول قول المكذب مع يمينه أنه حر . فأنت ترى فى هذه الصورة أن قاعدة « البينة على من ادعى واليمين على من أنكر » قو خولفت مراعاة لحالة الرقيق . فلم يطلب الشرع من المدعى البينة أولا . بل جعل القول للمنكر بيمينه . ولا يخفى ما يدل عليه هنا من شدة حرص الشارع على تحرير الرقاب . ماوجد لذلك سبيلا .

٧ — قد جعل الشارع من مصارف الزكاة عتق الرقاب بأن يعطى الحاكم للرقيق المكاتب ما يستعين به على فك رقبته . أو ان يشترى الحاكم العبيد المملوكين ويعتقهم .

٨ — أن من افترش أمه ، وأتى منها بولد ، فهى أم ولده لا يجوز له أن يبيعها . ولكنها لا تتحرر تماما الا بعد موته .

٩ — استوصى النبى صلى الله عليه وسلم بالأرقاء خيرا فلا يجوز للسيد ان يكلف رقيقه ما لا يطيق من العمل أو أن يدعوه بألقاب الازدراء والتحقير . كما لا يجوز للسادة ان يفرقوا بين أنفسهم وبين عبيدهم فى المأكل والملبس ونحوهما .

والاسلام لا يقدر الانسان الا بمعارفه وتقواه ، ويعترف بل ويحترم القضية المعروفة « قيمة كل امرىء فيما يحسنه » . والتـــاريخ يحدثنا أن « أسامة بن زيد » كان مولى الرسول صلى الله عليه وسلم وكا نيحبـــه كثيرا . وكان يقعده وهو صـــغير مع « الحسن بن على » على ركبتيـــه ويلاعبهما ، ويقبلهما ، ويدعو لهما . فلما كبر « أسامة » ورأى فيـــه النبى صلى الله عليه وسلم استعدادا لقيادة الجيوش أمره على جيش أرسله فى السنة الحادية عشرة من الهجرة لفتح فلسطين ، وكان أبو بكر وعمر فى هذا الجيش تحت امرته ، لم يمنعهما ما يتمتعان به من منزلة بين الصحابة وما لهما من مقام رفيع بين المسلمين أن يكونا تحت قيادة هذا المولى الذى رفعته مواهبه الى هذه المكانة .. ولما اضطر « أسامة » للعودة الى المدينة لمرض سيده ومولاه ، دخل عليه وكان مريضا لا يتكلم ، وقد ثقل عليه المرض ، فجعل صلى الله عليه وسلم يرفع يده الشريفة الى السماء ويضعها عليه علامة الدعاء حتى اذا لحق بالرفيق الأعلى وعلمت الأعراب نكصوا عـــلى أعقابهم مرتدين وخلعوا هذا الدين ، فرأى أبو بكر أن أول واجب عليه هو اخماد هذه الثورة فى مهدها قبل أن يستفحل أمرها ويتطاير شررها وتندلع نارها فأنفذ وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أسامة على رأس الجيش بالزحف على الثائرين من أهل الردة ، ولكن بعض الأنصار دفعته الحمية أن يقول لعمر : قل لأبى بكر ان من الخير أن يولى أمرنا من هو أقدم سنا من أسامة . فلما أبلغه الرسالة أخذ أبو بكر بلحيته وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب استعمله رسول الله وتأمرنى بعزله ؟

ثم خرج أبو بكر حتى أتى الجنود وشيعهم وهو ماش وأسامة راكب . فقال له أسامة : يا خليفة المسلمين ، لتركبن أو لأنزلن . فقال : والله لا نزلت ولا أركب ، وما على أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله . ثم يتلطف « أبو بكر » مع أسامة عند رجوعه من توديع الجيش ويترفق فى الحديث ،ويطلب منه أن يكون عمر الى جانبه ليستشيره ، وهو يكل اليه الأمر فى ذلك اذ يقول : ان رأيت أن تعيننى بعمر فافعل . فأذن له بأن يبقى عمر بجانبه .

وهذا «عمرو بن العاص» حينما جاء مصر نراه قد بعث الى «المقوقس» عظيم القبط وعامل الروم على مصر وفدا تحت امرة زنجى هو « عبادة بن الصامت » ليتخابر معه فى أمر الصلح ، فلما تقدم عبادة فى صدر أصحابه . هابه المقوقس ، وقال : نحوا عنى هذا الأسود ، وقدموا غيره ليكلمنى . فأجابوا : ان هذا أفضلنا رأيا وعلما ، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا ، وانما نرجع جميعا الى قوله ورأيه ، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله . فقال المقوقس وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم ، وانما ينبغى أن يكون دونكم ؟ فقالوا : كلا انه وان كان أسود كما ترى فانه من أفضلنا موضعا وأفضلنا سابقة ورأيا وعلما . وليس ينكر السواد فينا ! وحينئذ اذعن المقوقس لسماع أقواله وطلباته .. وعبادة بن الصامت كان صحابيا جليلا . شهد المشاهد كلها . وارسله النبى صلى الله عليه وسلم يجمع بعض الصدقات . وأرسله « عمر » بعد فتح الشام الى « حمص » ليعلم أهلها القرآن ويفقههم فى الدين . وروى عنه جماعة من أكابر الصحابة والتابعين وهو أول من تولى قضاء فلسطين . وكل هذه الفضائل التى اجتمعت لهذا الزنجي شاهدة ان الله الذى تسامت حكمته جعل دين الناس الذى ارتضاه لهم وللانسانية جمعاء هو الدين الاسلامى الذى لا يختص بفضله لون ولا جنس ولا سيد ولا عبد ، بل « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

ان الذين يلقون من أفواههم هذه الكلمات ويرمون الاسلام بما ليس فيه ويتمادون فى طغيانهم . ويعمهون فى ضلالهم انما يريدون ان يبلغوا من الاسلام غرضا وما هم ببالغيه ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولو أنصفوا لعابوا مدنيتهم هذه التى ارتكست ونكست المبادىء الانسانية . فاعادتها الى أيامها الأولى . أيام الجاهلية المظلمة .

واليك شاهد على ذلك : روت صحيفة المصرى فى عددها الصادر فى ٣١ مايو سنة ١٩٤٩ النبأ التالى : حجز معهد الشرق فى أمريكا حجرة فى فندق بارك لاجراء مباحثات خاصة بين خبراء بمسائل الشرق ، غير أن خادم الفندق ما كاد يرى الدكتور « رالف بونش » بين هؤلاء الخبراء حتى انبرى

له ومنعه من الكلام لأنه أسود ، ثم قررت ادارة الفندق الغاء حجز الحجرة واعادة النقود التي دفعت الى المعهد . لأن الدكتور « بونش » زنجي لا يسمح له بارتياد مثل تلك الأماكن . وكلنا قرأنا المعاملة السيئة الوحشية التى يعامل بها البيض السود فى الجامعات والأماكن العامة والمرافق الحيوية فى أمريكا واتحاد جنوب افريقيا . وغيرهما من بلاد العالم المتمدين .

ويقول الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » فى كتابه « حقائق الاسلام » : يقول المنكرون والمتعصبون لدين غير الاسلام ان الدعوة برمتها تلفيق رجل دجال . ولا ندرى كيف تسيغ عقولهم ان يكون الرسول الدجال أرفع أدبا وأشرف خلقا وابر بالانسانية الضعيفة من الرسل الصادقين المصدقين . ويقول المنكرون من أنصار العلل الطبيعية ان الدعوة الاسلامية وليدة البلاد العربية خرجت من اطواء عقائدها وتقاليدها ومأثوراتها . ولا ندرى كيف يكون الايهام والغموض اذا كان هذا هو التعليل والتفسير . فاننا لانقول شيئا ترضاه العقول وتستريح اليه اذا قلنا ان البيئة العربية جاءت بنقيض المنتظر منها ، ونقيض المنتظر من العالم حواليها .

ان تصديق أعجب الخوارق لأجدر بعقول الفريقين من قبول هذا اللغو الذى صدقوه . واطمأنوا اليه . ونحن أيضا نريد للدعوة الاسلامية سببها المعقول فلا نرى تناقضا بين هذا السبب وبين الواقع الذى لا غرابة فيه الا اذا أوحينا نحن الى عقولنا ان نستغربه متعسفين . فالغريب عندنا ان يأتى رجل دجال بما لم تأت به أرفع الحضارات والديانات من قبله . والغريب عندنا ان يكون « محمد » مبعوثا بارادة الأمة العربية وهى ما هى فى أيام الجاهلية .

أما الواقع الموافق للعقل . ولا مناقضة فيه لنواميس الكون فهو ان يخلق الله انسانا كاملا يلهمه الحق والرشد ويعينه الى الهداية عليهما بعمل يستطيعه ويستطيع الناس أن يفهموه ، متى حدث — كما يفهمون جلائل الأعمال . الا انهم لا يستطيعون ان يتوقعوه اذا قصروه على المألوف المعهود فى سياق التاريخ .

وهذا تفسيرنا لوصايا الرق في الاسلام . ترتضيه عقولنا ونقول عن يقين انه أقرب الى العقل من معجزة الدجل ومعجزة النقائض المستحيلة . ونحسب أن المكابرة تقصر عن الذهاب الى الأمد الذى يدفعها اليه من لا يفرقون بين الدجل والصدق أو لا يفرقون بين الواقع والمستحيل .

وتنطوى القرون وينكشف الزمن عن أزمة الرق الكبرى فى التاريخ الحديث . ان وصايا الاسلام فى مسألة الرق خولفت كثيرا وكان من مخالفيها كثير من المسلمين . ولكن الاسلام . على الرغم من هذه المخالفة المنكرة كما بينا — لا يضيره ولا يغض من قضاء التجربة العلمية عند الموازنة بين جناية جميع المسلمين على الأرقاء وجناية الآخرين من اتباع الأديان الكتابية .

فالقارة الافريقية فى بلاد السود . مفتوحة أمام أبناء السواحل المجاورة لها منذ مئات السنين . ولم تفتح للنخاسين من الغرب الا بعد اتصال الملاحة على ساحل البحر الاطلسى فى العالم القديم والعالم الجديد .

وفى أقل من خمسين سنة نقل النخاسون الغربيون جموعا من العبيد السود تبلغ عدة الباقين من ذريتهم . بعد القتل والاضطهاد . نحو خمسة عشر مليونا فى الامريكتين عدد يضارع خمسة أضعاف ضحايا النخاسة فى القارات الثلاث منذ أكثر من ألفى سنة وهو فارق جسيم بحساب الأرقاء يكفى للابانة عن الهاوية السحيقة فى التجربة العملية بين النخاستين .

وفى الولايات الأمريكية . كانت القوانين تهدد آدمية العبيد وتمنعهم من مغادرة الأرض الزراعية التى يرتبطون بخدمتها وكان بعضها لا يبيح لأكثر من سبعة من العبيد أن يقفوا معا فى طريق عام ، والا حق لأى رجل أبيض يمر بهم أن يجلد كلا منهم عشرين جلدة .

وكان العبد يعد من الوجهة القانونية مجرد شيء لا نفس له ولا روح ولا ذكاء ولا ارادة وان الحياة لا تدب الا فى ذراعيه فقط .

أولئك الضحايا بين العالم القديم والعالم الجديد . فان فى الأمريكتين الى اليوم أمة من السود معزولة بانسابها وحظوظها وحقوقها العملية . وليس فى بلد من بلاد الشرق أمة من هذا القبيل . لأن الأسود الذى ينتقل اليها

يحسب من أهلها بعد جيل واحد لهم مالهم وعليه ماعليهم بغير حاجة الى حماية من التشريع أو نصوص الدساتير والأنظمة فى هذا الوادى كثيرة لا تحصى ولكنك تفهم من هذا العرض الموجز حال الرقيق ، وما كان فيه من هوان الشأن وما قاساه من العذاب الأليم فالمسلمون الضعفاء قد عذبوا فى صدر الاسلام كما هو معروف فى السيرة الهاشمية كبلال بن رباح وياسر وغيرهما مما يدل على أن ذلك المخلوق لم يكن فى عداد بنى البشر .

وكان لا يجوز للمعتوقين ان يشهدوا فى القضايا الا اذا دعوا لذلك . وبشرط الا تقع شهادتهم على غير الأرقاء أو أمثالهم من المعتوقين .

وفى سنة ١٨٥٩ صـــدرت قوانين من بعض الولايات بارغام الأحرار من الزنوج المعتوقين على مغادرة أراضيها بعد أجل معين . ثم بيع بالمزاد كل من تخلف منهم عن الرحيل .

أمر الانجيل الناس أن يحب بعضهم بعضا ، ولكن لم يرد به ، كما لم يرد فى غيره من الكتب السماوية ، نص صريح يحرم الاسترقاق ، ولم يقل بتحريمه الحواريون أو أى من الطوائف المسيحية المختلفة فيما بعد .. وقد ذكرنا وصية « بولس » و « بطرس » اللتين لا يفهم منهما الا الحث على العبودية والذلة .

ولما جاء آباء الكنيسة على أثر الحواريين ساروا على سننهم . فأباحوا الاسترقاق واقروه فقد قال القديس « باسليوس » معقبـــا على ما جاء فى رسالة بولس الى أهل افسس : وهذا يدل على أن العبد تجب عليـــه طاعة أسياده بقلب سليم تمجيدا لله العلى العظيم .. وقال بمثل ذلك القـــديس « سيبريانوس » والبابا القديس « جريجوريوس » الأكبر .

وقال القديس « ايديدوروس » مخاطبا أحد الارقاء : انى لأنصحك بالبقاء فى الرق حتى ولو عرض عليك سيدك تحريرك . فانك بذلك تحاسب حسابا يسيرا لأنك تكون خدمت سيدك الذى فى السماء . وسيدك الذى فى الأرض .

وذكر المسيو « باتريس الأول » فى كتابه (الكلام عن الاسترقاق عند الأمم المسيحية) . فى سنة ١٨٦٢ : ان الديانة المسيحية لم تحرم الاسترقاق نصا . ولم تلغه عملا .. وقوله مروى عن القديسين .

وعندما ظهر الاسلام كان الاسترقاق ضاربا أطنابه فى أرجاء العالم . ولذلك لم يأمر بتحريمه مرة واحدة . ولكنه لم يقره أيضا بل عمل على حصره فى أضيق الحدود . والقضاء على أسبابه .

وقد حصر الاسلام مصدر الاسترقاق فى الحرب فقط . بشرط ان تكون حربا قانونية منظمة يسبقها الانذار والاشهار . وان تكون قتالا مع القوم الكافرين . فى حين كانت مصادر الاسترقاق عند سائر الأمم كثيرة ومتنوعة .

فأوجب الاسلام معاملة الرقيق بالرفق واللين . يقول سبحانه وتعالى : « وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » .

ومن درس الشريعة الاسلامية، وجد فيها مايدل على تخفيف العقوبة التى تصيب الأرقاء يقول تعالى : « فاذا أحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب » .. وروى الامام على رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم » .

بينما فى أول يونيو عام ١٨٨٨ م ألقى الكردينال «لافيجرى» رئيس الأساقفة بالجزائر فى كنيسة « سان سولبيس » بباريس كلمة حول النخاسة فى افريقية الوسطى . وقد عرض أثناءها بالشريعة الاسلامية . ووجه اليها كثيرا من الاتهامات الباطلة وقد استمع اليها المغفور له المرحوم «أحمد شفيق» السكرتير الخاص لناظر الخارجية آنئذ . فعكف على دراسة موقف الاسلام من الرق . وفى ٢٨ فبراير سنة ١٨٩٠ م بدأ يلقى حول هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات باللغة الفرنسية فى الجمعية الجغرافية الخديوية بالقاهرة . أحدثت صدى كبيرا ، ثم طبعت هذه المحاضرات فى كتيب نشر فى سنة ١٨٩١ م . ولقى ترحيبا بالغا فى الأوساط العلمية بأوربا . الأمر الذى حدا

بشيخ العروبة المرحوم « أحمد زكى » الى ترجمته الى اللغة العربية . ونشره فى سنة ١٩٨٢ م . واليك ملخص لأهم ما تضمنه هذا البحث القيم :

ظهر الاسترقاق فى أقدم المجتمعات البشرية . أى منذ استطاع الأقوياء الزام الضعفاء بخدمتهم وعندما انتشرت الحروب . عم الاسترقاق جميع أنحاء العالم . وصار المنتصرون يؤثرون الابقاء على حياة الأسرى لاستخدامهم وقد تباينت أساليب معاملة الأرقاء فى الدول وفى العصور المختلفة .

ففى الهند كان الرقيق يعاملون أسوأ معاملة . وكانت أفظع العقوبات تحل بهم اذا ارتكبوا أقل الأخطاء فى حق أسيادهم . ومن تلك العقوبات انتزاع الألسن وصب الزيت المغلى فى الأفواه . أو دس الخناجر المحماة فيها . أما فى مصر والصين وبلاد الفرس فكانت الشرائع تحمى الأرقاء من تعسف أسيادهم .

وفى بلاد الاغريق كان يساء الى الأرقاء أشد الاساءة . وخاصة فى « اسبرطة » التى قال عنها « بلوتارك » : ان الحر فيها كان أكثر الناس حرية فى حين كان الرقيق فيها أشد الناس استرقاقا . ولكن هذه المعاملة لم تكن أسوأ من معاملة الرومان لارقائهم .

وفى العصور الوسطى . أى بعد ظهور المسيحية . كان الأرقاء فى أوربا يعانون تلك المعاملة القاسية . وكان سبب كثرة الأرقاء عند الجرمان مغامرتهم بنسائهم وأولادهم . وكان القانون فى فرنسا يحرم التزاوج بين الأحرار والأرقاء . ويوقع الأحرار فى العبودية ، اذا ارتبطوا بمثل هذا الزواج .

وفى اسبانيا كانوا يحرقون المرأة الحرة ومن تقترن به من الأرقاء . وهما على قيد الحياة كما كان يحكم على مثل هذه المرأة فى ايطاليا بالاعدام .

وفى انجلترا . كان الأرقاء نوعين : أحدهما شبيه بالمنقولات . وهؤلاء يجوز بيعهم . والثانى شبيه بالعقار . وهم المكلفون بخدمة الأرض . وهؤلاء لا يباعون الا معها .

وعندما ظهر الاستعمار . بدأ الارقاء من شعوب البلاد المستعمرة . يعانون اسوأ صنوف المعاملة . ومن أبرز التشريعات التى نظمت معاملة

الرقيق المستعمرين (القانون الأسود) الذى أصدرته فرنسا فى ١٧ مارس سنة ١٦٧٥ م لتطبيقه فى مستعمراتها ، وكان ينص على قتل الأرقاء من الزنوج اذا بدا منهم أقل خطأ فى حق أسيادهم كما نص على عقاب الرقيق الهارب بقطع أذنيه وكيه بالنار ، ثم اعدامه اذا تكرر منه الهرب للمرة الثالثة .

ونص قانون المستعمرات الانجليزى على اعدام كل رقيق يقضى أكثر من ستة أشهر على هربه .. وقد أباح ذلك القانون للقاضى ان يحكم بالبراءة على كل سيد يقتل عبده . كما كان لا يجيز للقاضى ان يحكم فى أى ضرر يصيب العبد الا من حيث انقاصه لثمنه .

وقد نصت بعض القوانين الاستعمارية كذلك على حرمان كل من يتزوج من امرأة يجرى فى عروقها شىء من دم العبيد من تولى الوظائف العامة .

وكانت الشرائع فى بعض الدول الأوربية — كما ذكرنا — تقضى بالمعاقبة على الزواج من الأرقاء والمعتوقين . وخلافا لذلك فقد حث الاسلام على الزواج من الأرقاء ، يقول سبحانه وتعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم » . كما قال تعالى : « وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وامائكم ان يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله » .

وقد جعلت الشريعة الاسلامية الأولاد الذين يولدون نتيجة لافتراش الاماء أحرارا وشرعيين ويرثون فى أبيهم مثلما يرث أبناء المرأة الحرة . وقد أبيح للسيد ان يتزوج من امته بعد ان يعتقها ويعطيها مهرا وفى هذه الحالة ترثه هى وأولادها . فاذا أبت المعتوقة الزواج منه فليس له ان يعيدها الى الرق . ولا ان يلزمها بالزواج منه . وكذلك لم تبح الشريعة الاسلامية للسيد أن يفرق بين العبدين اذا تزوجا . كما لم تبح التصريح للعبد أن يعيش مع الأمة بدون زواج .

حثت الشريعة الاسلامية على العتق واعتبرته عملا مبررا مقرونا بجزيل الأجر والثواب . يقول جل وعلا : « والذين يبتغون الكتاب مما ملكت

أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم »
وقد أوصى سبحانه وتعالى بفك الرقاب تكفيرا عن الذنوب . يقول تعالى :
« وماكان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة . ودية مسلمة الى أهله » .

واذا أفطر المسلم فى شهر رمضان عمدا ، فانه يكفر عن ذلك باعتاق رقبة ان استطاع ذلك ، والا أطعم ستين مسكينا ، فان لم يستطع الاعتاق والاطعام فانه يصوم ستين يوما متتابعة ، وهذا أرجح الآراء .

ويقول صلى الله عليه وسلم : من أعتق رقبة مؤمنة اعتق الله بكل عضو منه عضوا من النار .

وروى عن البراء بن عازب . الذى شهد مع الرسول أربع عشرة غزوة . انه جاءه قائلا : دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى عن النار . قال : اعتق النسمة وفك الرقبة .. قال : يا رسول الله أو ليسا واحدا ؟ قال : لا . عتق النسمة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين فى ثمنها .

كما روت عنه أم سلمة : اتقوا الله فى الصلاة ، وفيما ملكت أيمانكم، أى مراقبة الله وخشيته فى الصلاة ، التى هى عماد الدين ومن أهم أركان الاسلام كذلك تجب مراقبة الله وخشيته فيما ملكت أيماننا .

وروى عنه صلى الله عليه وسلم : الصلاة وما ملكت أيمانكم . ويقال ان هذه الجملة كانت آخر ما نطق به الرسول الكريم عند وفاته .

وروى ابن عمر عنه عليه الصلاة والسلام : اتقوا الله فى الضعيفين المملوك والمرأة ، وفى الأثر الكريم : لقد أوصانى حبيبى « جبريل » بالرفق بالرفيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تستخدم .

ونهى رسول الله عن التمثيل بالرقيق . وأوجب العتق على من فعل ذلك . فقد روى عن ابن عمر : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه .. وهنالك حالة واحدة يجوز فيها ضرب العبد . وهى حالة تقصيره فى أداء واجباته الدينية .

يقول صلى الله عليه وسلم : اضرب عبدك اذا عصى الله . واعف عنه اذا عصاك .

ونهى عليه الصلاة والسلام عن تحقير العبد وتذكيره بما هو فيه من الاستعباد . قال أبو هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : لايقل أحدكم عبدى وأمتى ، وليقل فتاى وفتاتى وغلامى .

ورأى أبو هريرة رجلا على دابته . وعبده يسعى خلفه . فقال له : احمله خلفك يا عبد الله ، فانما هو أخوك ، وروحه مثل روحك .. وقال على بن أبى طالب : انى لأخجل من نفسى اذا استعبدت رجلا يقول الله ربى .

وقضت الشريعة الغراء بعتق أم الولد بمجرد افتراش السيد لها متى أقر بأولادها وألحق نسبهم به . وتكون حالة هذه الأمة فى حياة المولى شبيهة بحالة الموصى بعتقها . فلا يجوز بيعها ولا هبتها وفوق ذلك فانها تنال حريتها بلا مقابل عند وفاته . ولو ترك ديونا عظيمة .

قالت سلامة بنت معقل : كنت للحباب بن عمرو ، ولى منه غلام، فلما توفى قالت لى امرأته : الآن تباعين فى دينه . فأتيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فذكرت ذلك له ، فقال : من صاحب تركة الحباب بن عمرو ؟ قالوا : أبو اليسر ، كعب بن عمرو ، فدعاه فقال : لا تبيعوها واعتقوها .

وجدير بالذكر أن هذه القاعدة تسرى على الأمة غير المسلمة أيضا فانها تنال حريتها بمجرد افتراشها لسيدها .

وقد فتح الاسلام أبوابا أخرى للعتق ، منها أنه اذا صار الرجل عبدا لآخر تجمعه واياه رابطة القرابة والنسب سواء كان من الأصول أو الفروع لأية درجة كانت فانه يعتق حتما .. واذا هرب العبد الأجنبى من بلاده وجاء الى دار الاسلام وأسلم نال حريته ، وقد التجأ كثير من العبيد فى واقعتى الطائف والحديبية الى معسكر الرسول الكريم فاعتقهم ورفض اعادتهم الى أسيادهم .

وصيغ العتق وأساليبه فى الشريعة الاسلامية أشد بساطة وسهولة منها فى الشرائع الأخرى ، اذ يكفى أن يقال للعبد : أنت حر لوجه الله تعالى ، فيكتسب حريته ، ولا يصح للسيد أن يرجع فيما قال لأنه أصبح حرا ، ولو لم يقبل العبد نيل حريته .

ولقد خلد التاريخ للاسلام أمثلة صادقة للمعاملة الانسانية الرحيمة التى كان يلقاها الأرقاء والمعتقون فى مختلف الدول والعصور الاسلامية فقد أتيح لكثير من الأرقاء أن يدركوا أسمى المناصب ، وليس أدل على ذلك مما بلغه كافور الأخشيدى العبد الخصى من تولى حكم مصر ، كما تولاه بعده عشرات من المماليك .

ولم تحل الشريعة الاسلامية ، فى أى عصر من العصور ــ دون بلوغ كثير من أبناء الاماء مناصب الخلافة .

وفى تاريخنا القريب أمثلة كثيرة لما استطاع أن يدركه كثير من الأرقاء والمعتوقين من المناصب السياسية والعسكرية ، وما استطاعوا أن يجمعوه من ثروات طائلة . وكان كثير من الأسياد يتبنون عبيدهم من الذكور والاناث كما كانوا يوصون لعبيدهم عند عتقهم بجميع أملاكهم ، دون تمييز بين الأجناس والألوان .

ويقول المستشرق (ر.ف.بودلى) [1] : وحول « محمد » انتباهه الى مشكلة الرق ، فما كان فى مقدوره أن يحرم الرق كلية . وكان حاله فى ذلك كحاله فى مسألة تعدد الزوجات . ولكنه خفف قوانين الرق ، وعمل على تشجيع فك الرقاب ، وان ما أمر به هو تحرير جميع من اعتنقوا الاسلام وقد أضاف الى ذلك الأمر أنه لا وصمة تصم العبد المحرر . وفى الحقيقة ان العبد المحرر فى الاسلام له جميع الفرص التى للرجل أوالمرأة التىولدت حرة وقد أوصى بالعبيد الذين بقوا فى الرق ، قال : اخوانكم خولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه ، ولا يكلفه ما يغلبه . وان كلفه ما يغلبه فليعنه ... وقد روى فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة أن « المعرور بن سويد » قال : رأيت أبا ذر بالربذة وعليه حلة وعلى غلامه حلة . فسألته عن ذلك ، فقال : ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : اخوانكم خولكم ... (الحديث السابق) ..

(١) فى كتابه « الرسول حياة محمد »

وبالغ المشترعون المسلمون فى حرمة الرقيق : فقال أبو حنيفة كبير الأئمة المجتهدين ان الرجل الحر اذا قتل عبدا يقتل به .. وقال الامام النووى من أئمة الشافعية : يجب على السيد نفقة المملوك وكسوته بالمعروف بحسب البلدان والأشخاص ، سواء كان ذلك من جنس نفقة السيد أو فوقه ، حتى لو قتر على نفسه تقتيرا خارجا عن عادة أمثاله اما زهـدا أو شحا لا يحل له التقتير على المملوك والزامه بموافقته الا برضـاه ، فاذا كان المملوك محكوما بمالكه ، فان مالكه محكوم بأوامر الله الذى لو شاء لجعل الأمـر على غير ذلك وقلب السيد عبدا والعبد سيدا . فقد ورد فى حديث آخر ان الله ملككم اياهم ولو شاء لملكهم اياكم . ولو تعدى السيد هذه الأوامر الالهية كان محـروما من نعيم الآخرة ، كما حرم أولئـك المستضعفين من نعيم الدنيا ، وصدق عليه الوعيد الذى ورد فى الحديث الشريف : لا يدخل الجنة خب ولا متكبر ولا خائن ولا سىء الملكة ، وهو الذى يسىء معاملة المملوكين ، وقد أكد الشارع عنايته بهم ، واحتاط لهم من كل ما يخطـر ببال السادة من الارهاق والتعنت ، فنهى عن التمثيل بالعبيد ، وأوجب العتق على من فعل ذلك . فقد روى لنا ابن جريج أن زنباعا وجد غـلاما له مع جارية فجدع أنفه وجبه ، فأتى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : من فعل هذا بك ؟ قال : زنباع .

فدعاه النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : ما حملك على هذا ؟

فقال : كان من أمره كذا وكذا .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : اذهب فأنت حر .

فقال : يارسول الله مولى من أنا ؟

فقال : مولى الله ورسوله .

ولا يفوتك أن تفهم المراد من سـؤال الغلام : « مولى من أنا ؟ » . فانه يريد بذلك أن ينتمى بعد العتق الى مولى يجرى عليه ما يحتاجه من المؤن ووسائل العيش ولقد تعهد الرسـول الرءوف الرحيم بمؤنته اذا لم يستطع أن ينال منها ما يقوم بحياته . وكذلك لما قبض الرسول جاء هذا المعتق مولى الله ورسوله الى أبى بكر رضى الله عنه ، فقال وصية رسول

الله — صلى الله عليه وسلم — ، فقال : نعم تجرى عليك النفقة وعلى عيالك ، فأجراها عليه حتى قبض ، فلما استخلف عمر رضى الله عنه جاءه فقال : وصية رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : نعم ، أين تريد ؟ قال : مصر ، فكتب عمر رضى الله عنه الى عامله بمصر أن يعطيه أرضا بأكملها . ولم يقتصر النهى عن التمثيل بهم بل تجاوزه الى النهى عن كل نوع من أنواع الاساءة ، قال ابن عمر : سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول : من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته عتقه .

واذا ذهبنا نورد كل ما جاء من الحث على حسن معاملة الرقيق يطول بنا القول فان تفاصيل ذلك كثيرة ومتشعبة فاضت بها كتب السنة وجاءت بها آيات القرآن الكريم ، الى حد أنها أرهبت كثيرا من أعداء هذا الدين. ورأوا أن ترك هذه النصوص من غير تأويل يجعلها معجزة للاسلام ، يباهى بها سائر الأديان ، فقام بعض المتعسفين الذين يسمون أنفسهم أصحاب النقد التحليلى ، وقالوا ان محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان يوصى بالرقيق لأنه ربى فى حجر أمة ، يعنى ارضاع ثويبة مولاة عمه أبى لهب ، وان هذا التعليل لجهل عميق بالتاريخ وعلم النفس والفلسفة جميعا ، فثويبة أرضعته عقب ولادته ، ولم تكن مربية له ، ولم يدرك ذلك فيؤثر فى نفسه . ولكن هذا التشريع العظيم الذى جاء به فى كهولته وهو أمى فوق جميع شرائع البشر وفلسفتهم وآدابهم هو شىء آخر استمده من روح الله ، فلا ينبغى لعاقل أن يعلله بمثل هذا التعسف الضعيف ، ثم ما الذى يقوله أولئك الجاحدون فى غير هذه المسألة من أبواب هذه الشريعة المطهرة ، وهى جميعا تعلو على كل نوع من أنواع التعليل وتحطمه ؟

فالاسلام سوى بين الناس عامة ، المرأة والرجل ، والصغير والكبير ، الغنى والفقير ، الوالى والعامل .. مساواة تامة لا تعرف الجور ولا تقر الظلم ، لا تراعى الصهر ولا تسأل عن الحسب ولا النسب لا فرق بين أبيض ولا أسود ، فتعاليم الاسلام تظل الجميع فى مساواة تامة كما يتساوون فى صفوف الصلاة بين يدى الله سبحانه وتعالى ، وان أكرمهم عند الله أتقاهم « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » (الحجرات — ١٣) .

وقوله : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء » (النساء — ١) .

وبهذا أقر الاسلام بأن الخلق أبناء أب واحد وأم واحدة فمهما كان موطن مولدهم ، ومهما كان وضع طبقاتهم فهم متساوون ، فلا تفاخر اذن بالأنساب ، ولا تباه بالألقاب ، فيقول الله تعالى فى سورة الحجرات : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ، ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » .

ومما سبق نرى أن المساواة لم تكن معروفة قبل الاسلام ، بل كان يسود المجتمعات البشرية نظام الطبقات والتفرقة الكبيرة بين الطبقة والأخرى . بل بين أفراد الطبقة الواحدة . فكان اذا قتل لقبيلة عبد اجتمعت أفرادها لتقرر ما يساوى عبدهم من أفراد القبيلة القاتلة . وهل يرضون عنه بديلا سيدا أو سيدا وعبدا أو عبدا أو أكثر أو أقل . وكان القصاص فى القتلى والجرحى قصاصا جائرا أساسه الجور والظلم وعدم الاعتراف بالمساواة بين الناس . وقد حرم الاسلام كل هذا فنهى عن هذه المساوىء . ودعا الى المساواة واقامة العدالة فى القصاص للقتلى فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى » (البقرة) ..

ويتعمق الاسلام فى المساواة الى درجتها القصوى ، فساوى فى قصاص الأعضاء .. فالعضو بمثيله فيقول الله : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » (المائدة) .

وبهذه المساواة التامة بين أبناء الجنس البشرى تحصن المسلمون ضد الانقسامات التى نشاهدها فى معظم بلاد العالم . ولعل ما يعترى العالم على

فترات من الزمن من جور الأمم بعضها على بعض وبغى الأفراد بعضهم على بعض مبعثه كله يرجع الى عدم المساواة ..

فما زالت بعض الأمم تعتبران أفرادها من جنس مفضل على جنس أفراد غيرها ومن أصل يعلو على أصل الآخرين . وما زالت التفرقة العنصرية واختلاف الأصل فى بعض البلاد سببا فى اندلاع الثورات وعدم الاستقرار

وقد حاولت أمريكا حتى اليوم والى الغد ايجاد حل للتفرقة بين البيض والزنوج حقنا للدماء التى تسفح ومنعا للثورات التى تنشب فلم تفلح .. وان هذه المشكلة لتعتبر أخطر وأقوى مشكلة مزمنة اعترضت أو تعترض أمريكا . وغيرها من الدول التى تقاسى من مثل هذه التفرقة .. فما زالت الروح العنصرية فى أمريكا تمنع ذهاب الأطفال الزنوج الى مدارس البيض فى ٢١ ولاية . وفى مدينة واشنطن نفسها . كما أن فرصة التعليم كذلك تختلف للبيض عنها للملونين ، فان نسبة الطلبة الذين يقضون خمس سنوات الابتدائى ٥ر٩٢٪ من الطلبة البيض ولكنها للملونين ٥٨٪ وتتجاوز التفرقة كذلك الى تكاليف التعليم فالملون تنفق الدولة عليه فى سبيل تعليمه ٦ر٥٧ دولارا فى السنة فى حين تنفق على الأبيض ١٠٤٦ دولارا ، وقد أصدرت أمريكا التشريعات التى تدعو الى الغاء التفرقة . وحاولت جاهدة تنشئة مجتمعها على أساس الوحدة فلم تستطع ، فبالرغم من أن المحاكم الأمريكية تحكم دائما بالغاء التفرقة العنصرية فى معاهد التعليم فى القضايا العنصرية التى تعرض عليها الا أن المجتمع لا يستجيب الى هذه الأحكام . بل يستخدم القوة فى منع تنفيذ هذه الأحكام . كما حدث فى نوفمبر ١٩٥٧ فى ولاية أركيساس . اذ حكمت المحكمة الأمريكية بالغاء التفرقة العنصرية ودخول أولاد الزنوج مدارس البيض ، فتحدى حاكم الولاية هذا الحكم ودعا رجال الحرس الوطنى فى ولايته ليمنعوا بالقوة تنفيذ هذا الحكم وقد تم منع تنفيذ هذا الحكم .

ومما روته أنباء العالم فى أكتوبر ١٩٥٧ أن وزير مالية غانة طرد من أحد المطاعم فى مدينة دوفر بالولايات المتحدة لأنه غير مسموح للملونين بتناول الطعام فى هذا المطعم .

ولقد عالج الاسلام مثل هذه الحالة وحصن بلاده ضد هذه الانقسامات بالدعوة الى المساواة التامة والاخاء بين أبناء البشر جميعا فى قوله : « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ، وصدق رسول الله وهو يقول : كلكم لآدم وآدم من تراب .

وقد أملت على المسلمين تلك المعاملة سجية رسولهم الكريم فى معاملة الرقيق ، وليس بخاف على أحد مما يروى التاريخ ما كان من « زيد بن حارثة » وما تأثر به من المعاملة الطيبة التى لقيها من سيده وسيد الخلق أجمعين « محمد » صلى الله عليه وسلم ، حينما جاء أبوه مكة ومعه نفر من قومه ودخلوا على نبى الله ، وقالوا يا ابن عبد المطلب أنتم أهل حرم الله ، تفكون العانى ، وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن فى فدائه .

قال : وما ذاك ؟

قالوا : زيد بن حارثة .

فقال : أو غير ذلك ؟ أدعوه فخيروه ، فان اختاركم فهو لكم بغير فداء وان اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء . قالوا : فدعاه ، فقال عليه الصلاة والسلام : هل تعرف هؤلاء ؟

قال : نعم . هذا أبى وهذا عمي .

فقال عليه الصلاة والسلام : فأنا من علمت ، وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى أو اخترهما .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك أحدا .

فقالوا : ويحك يا زيد أتختار العبودية على الحرية ؟

قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئا ما أنا الذى أختار عليه أحدا .

سرت هذه الأخلاق الفياضة بمعانى العطف والمحبة الى نفوس المسلمين من نبيهم الكريم فأحسنوا الى مواليهم ، حتى رأيتهم يشركونهم فى أموالهم. ويورثونهم بعد حياتهم ، وكانوا يختارون العيش فى كنفهم ، فتقييد حريتهم لم يكن أمرا حسيا مصدره ملك الرقاب ولكنه كان رقا معنويا سببه معاشرة

الأهل والأحباب . فالأرقاء هم الذين قيدوا أنفسهم فى رحاب سـادتهم فلم يرضوا بعشرتهم بديلا .

ويقول الكاتب « جب » فى كتابه «مع الاسلام» فى هذا الشأن : ليس هناك أية هيئة سوى الاسلام يمكن أن تنجح مثله نجاحا باهرا فى تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة فى جبهة واحدة أساسـها المسـاواة . واذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضـع الدرس فلابد من الالتجاء الى الاسلام لحسم النزاع .

ومن كل ما تقدم نرى أن الاسلام كان فى الصدر الأول يبالغ فى تكريم الرقيق ومعاملتهم بالحلم ، حتى أخذ بعضهم يقصر فى الخدمة ولا جناح عليه . وكان لبعضهم دلال فى الأسر حتى عاشروا سادتهم وأبناءهم من غير تفريق ولا كلفة . وتوالت بذلك العصور من لدن عصر النبوة الى الآن. ولعمر الحق ان المملوك فى حكم الاسلام كان أعز نفسا وأطيب عيشـا من جميع الأحرار الذين ابتلوا فى هذه العصور بحكم دول الافرنج .

ولولا العمى الذى طمس على بصائر القوم ، والضلال الذى تمكن من قلوبهم ، والتحيز الذى استولى على أفئدتهم ، لكان لهم فيما أوردناه من الشواهد ، وما ضربناه من الأمثال ، خير دليل على أن الاسلام هو وحده دين الحرية ، سبق الدنيا جميعا الى تقرير مبـادئها . وتعهد أصـولها حتى رسخت ، وفروعها حتى نمت وترعرعت ، وان الرعيل الأول من المسلمين هم الذين جاهدوا فى سبيل الحرية فنشروها فى العالم عدلا شاملا ، وحقا كاملا ، وانه لا صلاح للخلف الا بأن يتبع آثار السلف ويترك الاسـتبداد ويخلع الذل والاستعباد .

هذه اثارة من شرعة الاسلام ، وهى كما ترى أرفع ما عرف الناس من قواعد الحرية العالية . ولن ينقذ الانسانية التى تهوى بأهلها الى قـرار سحيق الا أن تعتصم بها مما يساورها من الدمار ومايعيث فيها من الخراب.

واذا كان بعض المبطلين يحمل على الاسـلام عن هوى وحقـد وعن خوف وارتياع لأنه يكبت أهواءهم ، ويجتاح مآربهم ، ويقضى على ما

ألفوه من تسخير العقول والأحلام والنفوس والأجسام ، فستكون هذه الحملات من أقوى أسباب عظمة الاسلام واظهار مزاياه ، لأنها تحمل فى ثناياها عوامل هدمها وقواعد بنائه .

وقد يكون حسد الحاسد وبغى الحاقد من أقوى أسباب الرفعة وأمضى أسلحة النضال ، وقد بدأت هذه الحملات التى يشنها الناس على الرق فى الاسلام تثمر ثمرتها لصالح الحق حتى يتم الله نوره ولو كره الكافرون .

وظهرت آية الله الكبرى للوجود ، فان بعض أصحاب الفكر والرأى من بلاد المدنية الحديثة والحضارة الحالية ، دفعتهم كثرة الكلام فى نقد الاسلام الى أن يدرسوا الاسلام دراسة ثاقبة وافية تمزق حجب الضلال. وتسفر عن نور الحق ، وتنحسر أخيرا عن ترك دين واتباع دين . وكذلك يخدم الحق بأعدائه كما يخدم بأشياعه والله وحده صاحب الأمر فى العالمين.

ومن سوء حظ الاسلام أن يكون بين أهله وهم على ما هم عليه لا يصلحون للدفاع عنه ، بل لا يصلحون لاحتمال هذا الدين والتبشير به. لأنهم ضعاف واهنون ، تجاوز الضعف من أجسادهم الى أنفسهم وقلوبهم. أعتقهم الاسلام من رق الرقاب فقدموا رقابهم بأيديهم الى ذل المناصب والجاه والأموال ، وانهم اما أن يكونوا مسلمين حقا أو ليهيئن الله لدينه من يحميه ويحمل طابعه ويكون شعاره فى هذا الدين والتبشير به شعار الأنبياء « ويا قوم لا أسألكم عليه مالا ان أجرى الا على الله » .

فيدعون اليه ويجاهدون فى سبيله ابتغاء وجه الله ، لا طلبا للمنصب والمال ولا طمعا فى الجاه والسلطان ، واذا لم يسهموا فى الاخلاص لهذه الشريعة ويتركوا حب الدنيا وراءهم ظهريا ، ليبعثوا للناس الأمان ، فان هذا الجو العاصف القاصف يوشك أن يطيح بهم ويستبدل بهم قوما غيرهم، ان هذه الشريعة هى وادى الأمان وركن السلام ، فاما أن يكونوا لها ، واما أن يتركهم الزمان نسيا منسيا ، ويقيض الله لدينه من يلجأ اليه وهو أقرب مما يظنون ، لأن هذه الأحداث الراجفة ستزلزل العقائد كما تزلزل الأبنية ليقيم الله على أنقاضها بناء جديدا وطيدا يجد فيه الخائف أمنه ، والعانى

راحته ، واليائس هناءته ، والعالم كله عصمته وسعادته ، وذلك وعد الله ، وكان وعد الله مفعولا .

ومما افتراه المفترون على رسول الاسلام عليه الصلاة والسلام ، وبعد أربعة عشر قرنا ، يجيء المستشرقون والأب « لامانس » على رأسهم يتباكون أسفا على هذين الأسيرين اللذين قتلهما النبى . وكان فى وسعه أن يبقى عليهما ، لكأنه صلى الله عليه وسلم مكلف هو نفسه أن يحبط الدعوة التى أمره ربه أن يصدع بها .

ومجمل القصة أن « النضر بن الحارث » كان من الباغين الذين قاوموا الدعوة الاسلامية ، دعوة الحق الى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن .

كان يجلس فى دار الندوة أو فى المسجد الحرام ، وحوله الفتية من قريش يقص عليهم خبر « كسرى » أو اسفنديار ورستم ، وخبر قيصر أو على حد تعبيره يحدثهم حديث بنى الأصفر وبنى الأحمر .. وكان الشيخ القرشى الأخبارى ممن يحسنون القول سفسطة ومغالطة .

ولكن الله أمهله حتى اذا أخذه لم يفلته ، فلما كانت غزوة بدر ، كان الشيخ ممن خرجوا يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الشيطان .. ويقع النضر أسيرا للمقداد رضى الله عنه ، فلما ارتحلوا عن بدر قاصدين الى المدينة ، وكانوا بالصفراء ، نفقد رسول الله عليه الصلاة والسلام الأسرى ، فقال النضر : ان محمدا والله لابد قاتلى ، فلقد نظر الى بعينين فيهما الموت .

فأجابه من كان الى جواره : كلا وما هذا الا رعب منك .

فانصرف عنه الى « مصعب بن عمير » رضى الله عنه ، قائلا : يا مصعب انك أقرب من هذا الى رحما ، ولو كنت فى مثل موقفى هذا ما تركت قريشا تقتلك ، فكلم صاحبك يقبل فدائى .

قال مصعب : فانى لا أملك من الله ورسوله شيئا ، ولقد كنت تقول فى كتاب الله وتصد عن سبيله وتعذب أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فأنت تعلم أن العهد بيننا مقطوع .

فيجيب الرسول عليه الصلاة والسلام : اللهم اغن المقداد من فضلك .
ثم أمر عليا كرم الله وجهه أن يضرب عنق النضر ، فلقد كان من حكمة بيد أن المقداد كان له منفعة فى الابقاء على حياة النضر لأن قيمة الأسير كانت أربعة آلاف درهم حينذاك ، فيقول : أسيرى أسيرى يا رسول الله الله — ومما ابتلى به الامام — أن يكون هو جلاد بنى عمه هاشم وعبد شمس على السواء .

وأسير آخر أمر عليه الصلاة والسلام أن يقتل حيث كانوا بعرق الظبيا قال حين قدم ليقتل : مالى يا معشر قريش اقتل دون غيرى ؟

قيل : بكفرك وافترائك .

وفى رواية : لبذقك فى وجه النبى .

وكان الشقى قد اتخذ له دار ضيافة بمكة ودعا اليها الرسول ، فأبى أن يأكل من طعامه الا أن ينطق بالشهادتين ففعل ، وكان أبى بن خلف،أشقى أشقياء قريش ، عاتب صديقه بقوله : صبأت يا عقبة .

قال : لا ، ولكنه أبى أن يأكل من طعامى وهو فى بيتى فاستحييت منه فشهدت له الشهادة وهى ليست فى نفسى .

قال ابى : فوجهى من وجهك حرام ان لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، ونبذق فى وجهه ، وتلطم عينه .. ويفعلها الشقى فى باب الندوة ، عليه لعنة الله .

وينزل فيه قوله تعالى : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد اذ جاءنى » .. ومات موتة جبان وهو يصيح : يا معشر قريش انى منكم ومن للصبية بعدى ، يا محمد أناشدك الله والرحم ؟ .

فقال عليه الصلاة والسلام : وأى رحم بيننا أنت يهودى من صفورية. ذلك بأن جده خرج الى الشام اثر مناظرة بينه وبين عمه هاشم ، فلما كان بصفورية وقع على أمة يهودية لها زوج فولدت له أبا عمرو والد عقبة بن أبى معيط ، على فراش اليهودية ، فاستلحقه بحكم الجاهلية ، وفى نسب

عقبة كلام كثير ومهما يكن الأمر فان تخاذله أمام الموت ليس مثل ما كان يستمسك به شيوخ العرب من الثبات أمام الموت آنذاك .

هذان الأسيران وحدهما دون نحو خمسين آسيرا ، هما اللذان حكم صلى الله عليه وسلم باعدامهما ، حرصا على الدعوة وتأمينا لها أن يكيدا لها كيدا .

فيأتى لامانس وغيـــره من المبشرين والمستشرقين الآن يأسفون على هذين الشيطانيين .

وما بالهم لا يبكون على موقعة سانبارتملى وغيرها من المواقع التى ذبح فيها عشرات الألوف تذبيحا وقتلوا تقتيلا لا فى ميدان القتال ولا أثر محاكمة وانما هو الغدر والغيلة ، فالكاثوليكيــون يقتلون البروتستانتيين والبروتستانتيون يقتلون الكاثوليكيين ، ولو أنك أحلتهم أو أوقفتهم على تلك المذابح لأرهقتهم من أمرهم حسرة وندامة .

فلقد أفلح المسلمون وأقاموا الدولة الاســلامية والله ما أراقــوا من الدماء عشر معشار ما أهرقت فرقة واحدة فى يوم واحد من أيام المسيحية الأوربية بعضها مع بعض .

ولقد عزى بعض المبشرين أن السبب فى انتشار الاسلام بين الســـود من أبناء القارة الأفريقية . هو سماح ذلك الدين بتعدد الزوجات..وماكان تعدد الزوجات بالأمر الميسور لكل من يشتهيه من أولئك السود المقبلين على الدين الاسلامى بغير مجهــود ولكنهم يجدون الخمــرة ميسرة لهم حيث أرادوها وقد حرمها الاسلام أشد التحريم . فلم ينصرف عنه السود لأنه قد حال بينهم وبين شهوة الشراب التى قيل انها كانت شــائعة بينهم شيوع الطعام والغذاء .

انما شــمول العقيدة الاســلامية دون غيره هو العامل القــوى الذى يجمع اليه النفوس ويحفظ لها قــوة الايمان . ويستغنى عن السيف وعن المال فى بث الدعوة كلما تفتحت أبوابها أمام الداعين اليهــا بغير عائق من سلطان الحاكمين والمتسلطين .

وقد دلت المباحث الحديثة على أن الاسلام دخل من ساحل أفريقية الشرقى الى جزيرة مدغشقر على أيدى العرب أو المسلمين المتكلمين بالعربية منذ القرن الثامن الميلادى أو القرنين الثانى والثالث من الهجرة •

وكان من نتيجة دخول الاسلام فى أفريقيا الاستوائية أن تهذبت نفوس الزنوج وامتنع المسلمون منهم عن أكل لحم البشر وارتدوا ما يستر عورتهم ، والأهالى الذين لم يكونوا يغتسلون قط • أقبلوا على التطهير والاغتسال • وكان الوضوء من الأسباب الداعية الى نظافتهم • كما اختفت وسائل الهمجية فى السلب والنهب التى كانت متفشية بين القبائل الزنجية • وأصبح المسجد قبلة أنظار الزنوج يؤدون فيه فرائضهم ويصلون فيه صلواتهم الخمس •

وقد كتب « ميك » فى كتابه « قبائل نيجيريا الشمالية » • يقول : ان الاسلام لم يترك أثرا عميقا فى التركيب الجنسى لهذه الشعوب فحسب • بل أنه جاء بحضارة جديدة أباحت للشعوب الزنجية طابعا حضاريا متميزا لا يزال واضحا حتى اليوم • مؤثرا فى نظمهم السياسية والاجتماعية •

ذلك أن الاسلام حمل الحضارة الى القبائل المتبربرة وجعل من المجموعات الوثنية المنعزلة المتفرقة شعوبا•وجعل تجارتها مع العالم الخارجى ميسورة فقد وسع آفاقهم ورفع من مستوى الحياة بخلق مستوى اجتماعى أرقى • وخلع على اتباعه الكرامة والعزة واحترام الذات واحترام الآخرين•

ولقد تعلموا — بفضل الاسلام — القراءة والكتابة ، كما حرم الخمر وأكل لحوم البشر والأخذ بالثأر وغير ذلك من العادات السيئة . وأتاح للزنجى السودانى الفرصة لأن يصبح مواطنا حرا فى عالم حر .. وليس من شك فى أن هذا الاعتراف الصريح الذى ذكره « ميك » يقف بجانب الاسلام فى دعوته . انه دين مبادىء تهوى اليها النفوس من كل جانب لادين سيف مصلت على رقاب الضعفاء ليرغمهم على اعتناقه عنوة وقهرا .

الجبرية والاسلام

وقد اتهم كثير من المستشرقين الاسلام بالجبرية ، وهذا افتراء من هؤلاء الحاقدين — كما أخطأ كثير من المسلمين فى فهم التوكل الذى حض عليه القرآن غير مرة ، اذ قالوا : ان التوكل هو تفويض الأمر الى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب المألوفة ثم أن منهم من اكتفى بعد ذلك بالبلغة من العيش الخشن ولم يستزد حتى مات .

ومنهم من اتخذ من أسماء الله مصادر للرزق . فظن أن من يذكر الوهاب كذا مرة وهبه الله من المال ما يزيد على حاجته . ومن قرأ : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » كفاه الله مؤونة السعى لطلب الرزق من مواطنه العادية .. ولقد أتى زمن كثر فيه هؤلاء الناس من المسلمين . فكثرت بهم المفاسد وانحطت بسببهم الهمم وأزال الله عنهم كثيرا من النعم وان الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

يقول الغربيون : ان السبب فى تأخر أهل الشرق ايمانهم بالقضاءوالقدر فان ذلك دفعهم الى التواكل . ويردد هذا الكلام بعض المسلمين ممن تأثروا بتعاليم الغرب ..

ولقد خاض العلماء فى حديث القدر وقدرة الانسان بجوار قدرة الله سبحانه وتعالى فى عهد الصحابة وبنى أمية .. فقد كان المؤمنون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم باحسان ، يستقون عقيدتهم من القرآن الكريم . ويعرفون ما يليق بذاته تعالى . وما ينزه عنه جل جلاله ولذا لم يكن بينهم جدل فى شأن من شئون العقائد . أما غير هؤلاء الذين أسلموا وجوههم لله تعالى . فقد كان منهم أسئلة يريدون بها الفتنة . وقد حكى الله تعالى حالهم فى قوله: «فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب . ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة ، انك أنت الوهاب ».

ويظهر أن المسألة التى كانت أحيانا تثير بعض المناقشات مسألة القدر. وهى المسألة التى شغلت أصحاب الديانات القـديمة ، وقد تكلم فى القدر المشركون . وأبعدوا عن أنفسهم مسئولية الشرك بالقدر . فقد قال سبحانه وتعالى عنهم : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ماأشركنا نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء . كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقـوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظن ، وان أنتم الا تخرصون » •

ويقول الألوسى فى تفسـير هذه الآية : ولم يريدوا بهذا الـكلام الاعتذار عن ارتكاب القبيح اذ لم يعتقدوه ، قبح الله أفعـالهم ، بل هم كما نطقت الآية يحسبون أنهم يحسنون صنعا وأنهم يعبدون الأصنام لتقربهم الى الله زلفى • وان التحريم انما كان من عند الله عز وجل • ومرادهم بذلك الاحتجاج على أن ما ارتكبوه حق ومشروع • ورضى الله عنه بناء على أن المشيئة والارادة تساوى الأمر ، وتستلزم الرضاء فيكون حاصل كلامهم ان ما ارتكبوه من التحريم وغيره ممـا تعلقت به مشيئة الله تعالى وارادته . وكل ما تعلقت به مشيئته وارادته فهو مشروع ومرضى عنه . ونرى من هذا أن أولئك المشركين انما يثيرون مسألة القدر ، ويحتجون بهـا على النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد أثيرت فى عصر الرسول عليه الصلاة والسلام مثارات أخرى غير القدر ، يثيرها من تأثروا بتعاليم قديمة ، حول ذات الله ومهما يكن من أمر هذه المسائل التى كانت تثار ، فأقوى مسألة كانت هى مسألة القدر . وقد نهى النبى عليه الصلاة والسـلام عن الخوض فيه مع وجوب الايمان به ، فقد ورد فى حديث سؤال جبريل عليه السلام للنبى عليه الصلاة والسلام ، ان جبريل قال : أخبرنى عن الايمان ، قال أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره ، والاقرار بالقدر نوع من الاذعان لله ، والاقرار باحاطة علمه بكل شيء وتقـديره فى الأزل كل ما هو كائن على مقتضى حكمة الله تعالى .

ولذا حث رسول الله عليه الصلاة والسلام على الايمان به ، ولكنه نهى عن الخوض فيه ، لأن الخوض فيه مضل للافهام ، ومزلة للاقدام ،

وحيرة للعقول فى مضطرب من المذاهب والآراء . وذلك يدفع الى الفرقة والانقسام ، ولأن اثارة الجدل فيه اثارة فى أمر ليس فى سلطان المجادل الاقناع به ، وليس بيد أحد من الأدلة العقلية ما يحسم من الخلاف ويقطع فى الموضوع .

ولما انتقل النبى عليه الصلاة والسلام الى الرفيق الأعلى ، واختلط المسلمون بغيرهم من الأمم وأصحاب الديانات القديمة ، وفيهم من يتكلم فى القدر ، ومن يثبته ومن ينفيه ، ابتدأت المناقشة فيه تأخذ شكلا لا يتفق مع أمر النبى عليه الصلاة والسلام بعدم الخوض فيه .

ويروى : أن عمر بن الخطاب أتى بسارق ، فقال : لم سرقت ؟

فقال : قضى الله على بذلك .

فأقام عليه الحد ، ثم ضربه أسواطا فقيل له فى ذلك فقال أمير المؤمنين : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله تعالى .

وزعم بعض الناس أن الايمان بالقدر ينافى الحذر ، فقيل لعمر عندما امتنع عن دخول مدينة انتشر فيها الطاعون : أفرارا من قدر الله ؟

فقال عمر : نعم ، نفر من قدر الله الى قدر الله .

وهو يشير بهذا الى أن قدر الله تعالى محيط بالانسان فى كل الأحوال، وانه لا يمنع الأخذ بالأسباب ، وان ذات الأسباب مقدورة ، فيجب علينا الأخذ بها والسير فى طريقها اقامة للتكليفات وتحملا لتبعات الأشياء .

وزعم بعض الذين اشتركوا فى قتل الامام الشهيد عثمان رضى الله عنه انهم ما قتلوه ، انما قتله الله ، وحين حصبوه قال له بعضهم : الله هو الذى يرميك . فقال عثمان : كذبتم ، لو رمانى الله ما أخطأنى .

وما كانت هذه الظنون الا بعض ما زرعه أهل الديانات الأخرى فى نفوس المسلمين ، وكان الكلام فى القدر يشتد كلما اتسع نطاق الجدل والفتن ، ولذا كان الكلام فيه فى عهد على كرم الله وجهه أشد وأحد .

جاء فى نهج البلاغة وشرحه لابن أبى الحديد : قام شيخ الى على ، فقال : أخبرنا عن مسيرنا ، أكان بقضاء الله وقدره ؟

فقال على : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ماوطئنا موطئا ولاهبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره .

فقال الشيخ : فعند الله أحتسب عنائى ، ما أرى من الأجر شيئا .

فقال : مه أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم فى سيركم وأنتم سائرون وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من أحوالكم مكرهين ولا مضطرين .

فقال الشيخ : وكيف والقضاء والقدر ساقانا ؟

فقال : ويحك .. لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب . والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ، ولا المسىء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عباد الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عند الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، ان الله أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف تيسيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع كارها ، ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا « ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار » .

فقال الشيخ : فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا الا بهما ؟

فقال : هو الأمر من الله تعالى والحكم . ثم تلا قوله سبحانه : «وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه » .

فنهض الشيخ مسرورا .

ويقول الغربيون ان السبب فى تأخر أهل الشرق ايمانهم بالقضاء والقدر ، فان ذلك دفعهم الى التواكل .

ويردد هذا الكلام بعض المسلمين ممن تأثروا بتعاليم الغرب ، وكأنهم يريدون أن يقولوا ان المسلمين أهل تواكل وكسل لا يؤمنون بالأسباب ، ولا يهتمون بالعمل ، وهذه تهمة أرى أنها أبعد التهم عن الحق . وعن أدلة التاريخ ، وعن روح الدين الاسلامى ، فالله تعالى بعث النبى عليه الصلاة

والسلام ليصلح دين الناس ودنياهم ، وعهد اليه الحق سبحانه وتعالى أن يحدث أكبر الأحداث فى تاريخ البشرية ، تسقط دولا وتقيم دولا ، وتنشر أصول الثورة على التقاليد والموروثات ، وتبنى سلطان العقل على أرسخ القواعد ، وتبرر الانقلابات الاجتماعية مادامت فى صالح الانسان . ودين هذه بعض أهدافه لا يمكن أن يكون دين تواكل وكسل . بل المعقول أن يكون دين جد وعمل ، فاذا ورد فى الدين كلمة واحدة ترشد المسلم الى أن يؤمن بالقضاء والقدر ،ورد بجانبها كلمات كثيرة ترشده الى أن يعمل ولا يتواكل .

قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كل شىء بقضاء وقدر ، حتى العجز والكيس .

يفهم الناس من هذا أن النبى عليه الصلاة والسلام يريد أن يحث الناس على الاستسلام والاستكانة ، ولكن هذا فهم من لم يستوعب نصوص الاسلام ، ولم يخلص للحق ، ففى جانب هذا يقول الله تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » ، « فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه » . ويقول النبى عليه الصلاة والسلام : ان الله كتب عليكم السعى فاسعوا ، وان أفضل امرىء ما أكل من عمل يده ، وان نبى الله داود كان يأكل من عمل يده ... ولما قال له بعض الناس انه ينفق وقته فى الصلاة والصيام سأله : من ينفق عليك ؟ قال : أخى . قال : أخوك أعبد منك .

وحوادث التاريخ تدل على أن المسلمين لم يكونوا أهل تواكل ولا كسل ، وقد صدرت على أيديهم أكبر حوادث التاريخ ، فاذا كانوا قوما متواكلين لم تكن لهم هذه الثروة التاريخية الضخمة والعلوم والاختراعات. ولعل الأديان الأخرى أبلغ فى عقيدة القضاء والقدر من الاسلام ، فان المسيح عليه السلام كان يحث أتباعه على الزهد وترك الدنيا ويقول لأحد أتباعه : بع ما تملك واتبعنى .

أما رسول الاسلام فكان يحث على العمل والاهتمام بالدنيا والعيش، وجاء فىالقرآن الكريم : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس

نصيبك من الدنيا » . وفى الأثر : اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . والقول : ان من الذنوب ذنوبا لا تكفرها صلاة ولا صوم ، ولكن يكفرها السعى فى طلب الرزق .

كل هـذه الأدلة وهذه القصص التى ملأت الـكتاب العزيز والسنة المطهرة أقامت سدا منيعا بين المسلمين والخمول الذى يفسـد الانسانيـة ويزرى بالعقـول ، ولذلك كان بين المسـلمين شجعان فتحوا الممالك وثلوا العروش وأقاموا دولة الاسلام على أساس متين، فلقد فتحوا فارس والروم ومصر ، ثم ازدهرت فى أيامهم العلوم والاختراعات فما استكانوا أو تواكلوا ، وقد علموا أن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضـة وكيف ؟ ومنهم « جابر بن حيان » وهو عالم الكيمياء فى عصور الظلام ، ولا يمكن لقوم أن يقعدوا عن التفكير والعمل ويكون فيهم مثـل العبـاس بن فرناس الذى اخترع الطيران قبل أن يفكر فيه أحد من الدنيا .

ويقول الدكتور « فيليب حتى » الأستاذ بجامعة برنستون سـابقا : جاء يوم بلغت فيه الثقافة الاسلامية درجة من السمو والتقدم لم يقابلها فيها غيرها من الثقافات الهندية والصينية فى الشرق واليونانيـة واللاتينيـة فى الغرب . والذى نعنيه بالثقافة الاسلامية تلك المجموعة من العلوم والفنون والفلسفات التى نشأت فى ظل الاسلام وازدهرت فى أيام الخلافة العربية . وعلى عهد الدول الاسلامية بعدها ، تمتعت هذه الثقافة بعصرها الذهبى من منتصف القرن الثامن للميلاد الى مطلع القرن الثالث عشر يوم كانت اللغة العربية أداة التعبير عنها ، وقد كانت الشعوب العربية هى اللسان المعبر عن تلك الثقافة ، وبينهم السورى والعـراقى والمصرى والفارسى والتركى وغيرهم ، فى مقدمة مشعل الحضارة فى العالم قاطبة ، وجاء عدد المؤلفات فى هذه اللغة فى تلك الحقبـة المؤلفات — الفلسفية والطبية والتاريخية والفلكية والجغرافية والرياضية واللغوية — أكثر من عددها بأى لغة أخرى من آسيوية أو أوربية .

والغريب فى أمر العربية التى كانت الى أواسط القرن الثامن لغة شعر ودين فحسب ، انها فى خلال قرن واحد تطورت وتقدمت الى أن أصبحت

أداة صالحة لنقل دقائق الفلسفة وحقائق العلوم ومصطلحات الفنون وربما لم يكن من مثيل لهذه الظاهرة الغريبة فى تاريخ نشوء اللغات وبفضل جهود أبناء هذه اللغة فى الأجيال المتوسطة تسنى لعلوم الأقدمين من هنود وساميين ويونانيين ولاتينيين . مضافا اليها ماابتكره هؤلاء الأبناء على اختلاف عناصرهم القومية أن تنتهى بعد أجيال عديدة الى غربى أوربا ، وذلك عن طريق سورية الصليبية وصقلية واسبانيا المسلمتين ... فتصبح أساس العرفان الذى دان له الفكر الأوربى فى القرون الوسطى ورائد السبيل لنشوء النهضة الحديثة فى أوربا الغربية التى لا يزال الى اليوم أبناء أوربا وأمريكا ينعمون ببركاتها ، فبينا كان الأوربى يتخبط فى ديجور العصور التى أطلقوا عليها بحق العصور المظلمة ، كان كتبة العربية ، وهم يومئذ يشملون معظم المجتمع الاسلامى ، يرتقون فى عصرهم العلمى الذهبى .

ولكن ذلك العصر ، عصر الازدهار الفكرى والانتاج العلمى الأصلى ما لبث أن أعقبه عصر انحطاط وعقم بدا فى مطلع القرن الثالث عشر واستمر نحو سبعة قرون كاملة ، فى أواخر الخلافة العباسية فأخذ العالم العربى يفقد سيادته العلمية الشاملة وتفوقه العقلى ، فتضاءل بتوالى الأعوام وخبا التفكير الابداعى ، وقل الانتاج الأصلى وقام مقامه الانتاج التقليدى . وتحت حكم بنى عثمان كادت شعلة الفكر النير تنطفىء ، تلك هى القرون المظلمة فى الثقافة الاسلامية عامة والعربية منها خاصة يعاصرها فى أوربا عهد النهضة العلمية الحديثة التى بلغت شأوا لم تعرفه أوربا فى سالف أيامها . ولكن العالم الاسلامى عامة والعربى خاصة دخل فى مطلع القرن التاسع عشر فى طور جديد هام ، وهو الطور الذى حكمت فيه العلاقات الحيوية من ثقافية واقتصادية وسياسية مع بلدان أوربا الغربية وسائر أنحاء العالم الآسيوى ، فتلقحت العقلية الشرقية بلقاح جديد ، وتشربت أفكارا فعالة فى الاقتصاد والسياسة والاجتماع ، وانتقلت نظريات ذات صلة بالحياة الديمقراطية والمنشآت القومية والحركات الوطنية ، مما لم يكن مألوفا من قبل .

وكان لكل ذلك أثره الديناميتى فى القول والفكر والعمل ، وما لبثت أن ظهرت فى شرقنا مدارس ومطابع ومكاتب على أنظمة تخالف القديم ،

وتشكلت جمعيات علمية وأدبية وفنية على شكل مستجد . وترجمت كتب فلسفية وعلمية وفنية من طراز لم يعرفه الشرق قبلا . والمهم فى كل ذلك أن مفكرى الشرق أخذوا بأساليب البحث العلمى والفنى واتبعوا الطريقة العلمية الحديثة فى كتاباتهم ، وفى البلدان العربيـة كانت هذه النهضة فى بادىء أمرها حركة فكرية مجردة قوامها احياء اللغة وبعث آثارها والتنقيب عن ماضى العروبة المجيد ، وما لبثت هذه النهضة ان استوحت من الماضى ما حملها على التطلع الى المستقبل فجرت وراءها نهضة قومية سياسـية تستهدف الاستقلال السياسى الشامل والوحدة العربية ، هكذا سار الشرق فى سبيل التجديد واخراج التقليد والاتجاه نحو أهداف عالمية سامية .

ولقد كانت بغداد فى زمن العباسيين مدرسة الدنيا بمن فيها ، حتى ان « المأمون بن هارون الرشيد » اشترط فى صلحه مع بعض الروم أن يسلم اليه كتب اليونان وألف منها فيما بعد ما سميناه بالماجسطى .

ولم يكتف المسلمون برقعة أرضهم فى الشرق حتى قام « صقر بنى أمية » فأسس دولة بنى أمية فى المغرب ، وانتشر نورها فى أوربا بأسرها ، وقد كانت دار الشورى فى الأندلس نبراسا لمن يريدون أن يضعوا أمثـلة للقضاء الصالح والتشريع الحكيم .

ولم يضعف المسلمون فى عهد من عهودهم ، والتاريخ شاهد على ذلك ماداموا متمسكين بأصول دينهم ، أما الضعف الذى اعتراهم فقد دب فيهم بعد أن تركوا الاسلام ظهريا ولبسه قوم منهم على أجسامهم ولم ينفذ الى قلوبهم وفصلوا بين السـلطة المدنية والسلطة الدينية واسـتعاروا تشريع غيرهم ولغات غيرهم حتى أصبح الاسلام فيهم اسما لا معنى ، وطرحـوا تعاليم الاسلام ظهريا . وحصزوا الاسلام فى جملة من الألفاظ والعبادات على أكثر تقدير ، فالأجانب ومن على شاكلتهم الذين يريدون أن يتهموا الاسلام بمثل هذه التهم يسـتملونها من حـال المسلمين الحاضرة وحال المسلمين الحاضرة لا تمت الى الاسلام بكثير من الصلات . ولعل الأجانب يتبعون خلق الاسلام وشرائع الاسلام ، ولعلهم استفادوا منه بدون قصد .

واذا كان عندهم خير فالخير كله قد استقوه من خلق المسلمين الأولين، فنحن رسمنا صورة للعمل تبعد عن الاسلام بكثير ، وأضعنا أوقاتنا فى التهاتر والجدل والألفاظ والكلام . واذا غضب الله على قوم منحهم الجدل ومنعهم العمل ، أما هم فقد انقلبت الآية عندهم ، تركوا دينهم فتقدموا وتركنا ديننا فتأخرنا .

واذا كان بعض الناس يتوهم أن عقيدة القضاء والقدر تمنع الانسان عن العمل ، وتوحى اليه بالركون والاستسلام فهو على خطأ كبير ، لأن عقيدة القضاء والقدر ليست فى خلاصتها الا أن جميع ما يقع فى ملك الله لا يقع الا طبقا لارادة الله ، وارادة الله لا علاقة لها بالعمل ، انما العمل من مظاهر القدرة لا من مظاهر الارادة . واذا كان الانسان لا يستطيع أن يخالف الارادة ، فهذا الأمر خارج عن العمل . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل شيء بقضاء وقدر ..

وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن الخوض فى فلسفة الديانات نهيا صريحا ، فقد قال : تفكروا فى ذاتكم ولاتفكروا فى ذات الله فتهلكوا ، وان الله قد احتجب عن الملأ الأعلى كما احتجب عنكم .

واذا كنت تجد فى المسلمين فلاسفة « كابن سينا والفارابى » وغيرهما ، فانك تجد بجانبهم أهل تشريع وعمل كأبى حنيفة والشافعى وسواهما ، بل انتهى الفلاسفة أخيرا بالعجز ، وحثوا الناس على أن يتركوا هذه الفلسفة ويقبلوا على العمل والاجتهاد ، ليكون لهم ثمرة فى دنياهم وليكون الاسلام حصنا لأهله يرفعهم ولا يخفضهم ويعزهم ولا يذلهم .

والذى يقول ان الاسلام يحث أبناءه على التواكل أخذا من عقيدة القضاء والقدر لا يدرى شيئا مما يقع فى هذا الكون ، فالاسلام أراد أن يقول ان جميع القوى البشرية تنتهى عند حد ، وان الانسان يتجلى عجزه حين لا يفهم ربط الأسباب بالمسببات ، وحينئذ يكون جميع الناس مؤمنين بالقضاء والقدر ، فقصر هذا الأمر على الشرقيين أو على المسلمين خطأ كبير .

وان كل ما جاء به الاسلام من قرآن وسنة وكذلك سيرة النبى صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن فيها أى شيء من التواكل والكسل وترك الأسباب ، ولم يفهموا عقيدة القضاء والقدر بالدعوة الى التكاسل والاهمال وترك الأسباب فان آيات كثيرة وردت فى القرآن تدعو الى العمل : « وأن ليس للانسان الا ما سعى » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » .

وكذلك فى سنة الرسول وأحاديثه وفى سيرته العملية رأيناه قد اتخذ الأسباب وأعد لكل شيء عدته فى السلم والحرب ، فكيف يجوز أن يتهم الاسلام بأن يجعل عقيدة القضاء والقدر للتواكل والكسل ، القضاء والقدر يدعوان الى التوكل على الله لا على التواكل .

ان من يسمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أخرجه الترمذى عن ابن عباس ، قال : كنت خلف النبى عليه الصلاة والسلام يوما فقال لى : يا غلام انى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك ، وان اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف .

وقد جاءت هذه الكلمات من أبلغ العبارات وأوجزها وأجمعها لأحكام الشريعة ، قليلها وكثيرها ، فهى من بدائع جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم التى اختصه الله تعالى بها .

والمعنى هنا : الاعتقاد بأن كل شيء من الله ، فان العبد اذا علم أنه لن يصيبه الا ما كتبه الله له من خير وشر ونفع وضر . وان اجتماع الخلق كلهم على خلاف المقدور غير مفيد ، وأن الله وحده هو الضار النافع المعطى المانع ، وانه اذا أراد أحد أن يضره بما لم يكتبه الله عليه ، دفعه الله عنه بصرف ذلك الأحد عن مراده بعارض من عوارض القدرة الباهرة ... من تيقن ذلك كله ، كان حقا مقرا بتوحيد الله تعالى ، محافظا على حدوده ،

ومفرده بالطاعة والخوف والرجاء ، والمحبة والسؤال ، والتضرع والدعاء ، والاستعانة والتعرف اليه فى حالتى الرخاء والشدة •

وعقيدة القضاء والقدر كما فهمها الرسول وكما فهمها أصحابه وعملوا بها انما هى نعمة كبرى على معتنقيها ، فانها تبعث فيهم روح الاطمئنان والاتكال على الله والاستقرار النفسى ، وتملأ قلب معتنقها بالهدوء والراحة وتبعد عنه القلق والاضطراب النفسى والخوف والتردد ، وتحفظ عليه أعصابه وراحة باله . لأن الانسان فى هذه الحياة الدنيا معرض دائما لكثير من المصائب وأنواع من الابتلاء ، فان لم يكن محصنا بهذه العقيدة راضيا بقضاء الله خاضعا لقدره فانه يرهق نفسه ويحطم أعصابه ، وقد يفقد عقله ، أما المؤمن بها فانه يتلقى جميع ذلك بالصبر والجلد والرضى فيحفظ صحته وأعصابه وعقله ويكون معتقد هذه العقيدة ماضيا غير متردد ناجحا فى أعماله اليومية والتجارية فى السلم ، شجاعا باسلا فى الحرب .

ومما شجع هؤلاء المدعين بأن عقيدة القضاء والقدر تدعو الى التواكل ما عرفوه وما قرأوه من البحوث الكثيرة والجدل السابق فى بعض التفاسير لمعنى القضاء والقدر ، هذه التفاسير المخالفة للعقيدة الصحيحة مخالفة تامة ، ولقد أصاب فى نقد هذا الجدل والنقاش الذى لم تكن له أية نتيجة قول القائل :

نهاية اقدام العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال

ولم نستفد من بحثنا طول دهرنا سوى أن جنينا منه قيل وقال

ومما قاله الدكتور « محمود حب الله » الأستاذ بالجامعة الأزهرية ، ومدير المركز الاسلامى بواشنطون سابقا ، فى مؤتمر برنستون للثقافة الاسلامية الذى عقد برعاية جامعة برنستون ومكتبة الكونجرس بواشنطون فى المدة من ٨ — ١٦ سبتمبر ١٩٥٣ :

هذا ولقد جعلت المعرفة فى الاسلام شرطا للايمان ، فمن اعتقد من غير فهم ومعرفة لم يكن خيرا بكثير من غيره • والاعتقاد الحق هو الذى ينشأ عن دليل وعن فهم واختيار . وليس الموروث أو الناشىء عن اضطرار أو عن

التقليد المجرد . ولقد كان الاسلام هنا ثورة على الجمود العقلى . الذى كان سائدا من قبل ، من اتباع الآباء ورجال الكهنوت فيما كانوا يعتقدون ويرفضون لأنه يصرح بأن الايمان التقليدى من غير علم وتدبر لا يناسب الانسان فى شيء ، اذ ليس القصد من الاعتقاد تدريب المرء على فعل الخير فحسب ، كما يفعل مع الحيوان ، ولكن النهوض كذلك بعقله وروحه ، عن طريق الفهم والادراك ، ليكون قادرا على فعل الخير ، لأنه خير لا لأن الآباء والرؤساء كانوا هكذا يفعلون ، وتلك هى **وظيفة العقل فى الانسان** ، انه قوة تدبر وادراك ، وينبغى للمرء أن يستعمل هذه القوة فيبحث ويحكم بما يجد من أدلة وبراهين ، وهو لهذا حر الارادة ، وحر التفكير ، والتطور الفكرى والبحث العلمى ، لا يتعارضان مع الاسلام فى شيء ، ومع قليل من التحفظ ليس لدينا ما يمنع من قبول تلك الآراء التى ذهب اليها « وليام جيمس » الفيلسوف الأمريكى فى قوله : ان موضوع العلم وطرق البحث وأساليب المعرفة فيه تختلف عنها فى الدين ، ولهذا لا يناقض الواحد فيهما الآخر . ولكن ينبغى هنا أن نتذكر أنه كان يتحدث عن دين تنحصر وظيفته فى النهوض بروح الانسان فحسب ، والاسلام غير هذا ، لأنه ينظم الحياة من جميع وجوهها ، وهو كما رأينا لا ينسجم مع نتائج البحث العلمى والعقلى فحسب ، بل قدس هذا النوع من البحث ، فجعل متابعته واجبا دينيا ، تعتبر تأديته عبادة من أسمى العبادات .

ولكن يميل كثير من قراء القرآن الى القول بأن حرية الارادة بالنسبة للانسان لا وجود لها هناك ، لأن ارادة الله ظهرت فيه غالبة متحكمة ، وملغية لكل ارادة أخرى ، كما يميل آخرون منهم الى القول بأن هنا تضاربا فبينما يرونه يتحدث فى موطن عن المسئولية الانسانية الناشئة عن حرية الارادة والتمكين ، وعن الثواب والعقاب الناشئين عن الاعتراف بأن الانسان فاعل مختار ، يرونه يتحدث فى موطن آخر عن ارادة الله الغالبة التى تؤثر فى الانسان وفى ارادته تأثيرا مباشرا ، هذه الشبهة التى تتردد كثيرا تستحق منا اليوم كل اهتمام .

لا مراء فى أن القرآن يتضمن آيات قد يفهم منها غير العارفين بحقيقة الاسلام أن الحوادث الكونية وما يقع على أيدى العباد من أفعال ليس الا

حركات ضرورية ، وليس الا تطبيقا وتنفيذا لما تقرر فى الأزل أن يقع وأن فيه آيات أخرى أكثر من الأولى بكثير ، تؤكد أن الانسان فاعل مختار . فانه لهذا مسئول عن كل ما يقع فيه ، غير انا اذا قرأنا القرآن ككل يفسر بعضه بعضا ، وعرفنا الاسلام على حقيقته ، تبين لنا أن هذا التضارب المزعوم ليس الا صوريا ، وان حرية ارادة الانسان هى القاعدة فى الاسلام .

فينبغى أن نتذكر أولا ان هذا الكون خاضع لقانون فيه طبيعى . فهو عالم المتتابعات ، الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، وكل ما فيه مرتبط بعضه ببعض ارتباط الأسباب بالمسببات ، فما يحدث الآن يكون حدوثه نتيجة لما سبقه . وسببا لوجود ما بعده ، وهذا هو قانون الطبيعة الذى جعله الله فيها لتخضع له ، وتسير عليه باطراد ، وأظن أنه من الهين أن نتبين أن كثيرا من الآيات الدالة على الجبر لا تشير الا الى هذا القانون الطبيعى . فالأفلاك والنجوم وسائر أنواع الخليقة لها طريقها المرسوم . وحركات هذه الأفلاك وحوادث الطبيعة وكثير من مجرياتها فى الانســـان وعليه ، خاضعة لهذا القانون .

وأما الآيات الأخرى التى تشير الى الانسان بنوع خاص فينبغى أن تفهم . وهى هكذا مفهومة من غير تكلف ، على ضوء الآيات الأخرى التى تؤكد فاعلية الانسان .

وعلى ضوء ما عرف بالضرورة فى الاسلام من أن الانسان مسئول عن كل أفعاله الاختيارية والآية : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة » (الجمعة ٢٠) .

فمن مهام الرسول صلى الله عليـــه وسلم اذن أن يتلو على المؤمنين آيات الله ، ويبينها لهم ، وأن يطهر نفوسهم بتعاليمه ومثله التى يضربها لهم . ويشرح لهم أسباب النجاح فى الحياة ، وأن يعلمهم الحكمة ، كذلك نقرأ فى القرآن الـــكريم : « ان الله لا يغير ما بقـــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (الرعد ١١) . يعنى أن ما يجريه الله من تغيير على عباده مسبوق بما يجرونه هم فى أنفسهم من تغيير .

هاتان الآيتان ونظائرهما تبين لنا أن الانسان فاعل مختار ، وان له حرية البحث ، وانه لهذا مسئول عن أعماله . وكلها أساس ضرورى لتقدم الانسان وتطوره نحو الحياة الكريمة . والآية تدل على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يوجدوا هم أنفسهم حالات تؤدى الى هذا التغيير . فالفعل المنسوب الى الله فيها مسبوق بفعل الانسان ، ولكن تنص الآية بعد هذا على : « واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » . وهنا قد يظن التناقض ، غير أن هذا الشطر الأخير من الآية لا يناقض صدرها بحال ، لأنه ليس الا تصريحا بالمطوى .

وكأن الآية فى جملتها تقول : اذا غير القوم ما بأنفسهم نحو السوء مثلا ، فلابد أن يحل بهم الهوان ، ولا يملك أحد أن يدفع عنهم هذا المصير. لأن خالق الكون وخالق قوانينه جعل هذه القوانين مؤدية الى نتائجها ، فالتتابع اذن هو تغييرات يحدثها الانسان بارادته فتؤدى الى تغييرات أخرى فى حياة الانسان ، بحكم هذا القانون العام .

فالانسان فى دائرة وجوده الضيقة سيد نفسه فى تصرفاته ، وهو المسئول عنها وعن كيفية استعماله للقوى التى وهبت له وفى مقدوره أن يرتفع بنفسه الى أعلى مستوى انسانى ، وأن يهبط الى أدنى الدرجات بميوله وأعماله واتجاهاته وليس نتيجة لخلق موروث أو طبيعة خيرة أو شريرة ، فلقد أنكر الاسلام كل الانكار الخطيئة الموروثة وما شابهها ، وقال ان الطفل يولد صالحا لأن يكون خيرا أو شريرا ، وان آباءه وبيئته وتعليمه وخلقه وميوله المكتسبة هى التى تصيره هذا أو ذاك . فأفعال الانسان هى التى تجعله ناجحا أو مخفقا فى الحياة ، وهى التى تؤدى به الى الجنة أو الى النار . وهو مسئول عن مصيره لأنه نتيجة أعماله .

« وأن ليس للانسان الا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » (النجم ٣٩ — ٤١) .

و « كل نفس بما كسبت رهينة » (المدثر ٣٨) .

وأما ما يوجد من جانب الله فى هذا الصدد فهو العلم . وبما أن علمه محيط شامل ولا يخضع للزمان والمكان ، فانه دائما حاضر فهو يعلم أزلا كل

الحوادث الطبيعية والأفعال الاختيــارية التى وجدت ، أو التى توجد فى العالم . يعلم الاتجاهات التى سوف يتجه اليها كل فرد فى حياته كما يعلم كل الحوادث الطبيعية . يعلم اذا كنت سأتخذ فى الحيــاة طريق الغى أو طريق الرشاد . يعلم مصير كل فرد لأنه يعلم الطريق الذى سيتخذه فى الحياة . يعلم ولكن لا يتدخل تدخلا مباشرا فى ايجاد هذه الأفعال .

هذا ، ولقد ذهب « وليام جيمس » فى القرن العشرين الى ما يشبه هذا الرأى حين كان يتحدث عن الجبر والاختيار . وقد يوضح لنا المثل التالى مغزى ما أقول :

خبرنا علماء الفلك ، بناء على حساب قل أن يخطىء ، ان كسوفا أو خسوفا يحــدث يوم كذا ، فاذا حدث هذا الكسوف أو الخســوف فانه يحدث نتيجة لدورات الأفلاك الطبيعة ، لا لعلم العلماء ، ولا يتطرق الى ذهن واحد منا القول بأن علماء الفلك مسئولون عن حدوث هذه الظاهرة . لأننا نعلم أن العلم علم فحسب ، وهذا حق بالنسبة لعلم الله ، فليس الفرق بين العلمين فى أن أحدهما قوة ايجاد ، وان الآخر قوة ادراك ، بل فى أن علم الانسان علم قاصر ، ويعتريه الخطأ والزلل فى حين أن علم الله محيط شامل ، ولا يعتريه الخطأ بحال .

خلق الانسان مزودا بآلات الاحســاس وبقوى الادراك والعقــل ، وبين له طريق الهدى من طريق الضلال : « ألم نجعل له عينين . ولســانا وشفتين . وهديناه النجدين » (البلد ٨ — ١٠) .

وتركه فيمــا وراء هذا الى ارادته وعقله ليبنى مســتقبله ومصيره بنفسه . ولكن عناية الله ورعايته باقيتان وحاضرتان لكل من يجاهد مخلصا فى جهاده ، ويتطلب هذه المعونة .

فحرية الارادة والاختيار هما القاعدة فى الاسلام، وليس فيه من الناحية النظرية ما يناقض المنطق ، أو يقف عقبة فى سبيل تقدم الانسان ، أو يحول بينه وبين أى بحث علمى ، أو يمنع العقــل من العمــل على بحث الوجود

وفهمه ، وان كل ما هو منطقى من ناحية موضوعية ، وكل ما هو حق ونافع للانسان ، من ناحية موضوعية فهو اسلامى ، وميسور ادخاله ضمن تشريعاته ان لم يكن هناك بالفعل . ولقد غيرت تعاليم الاسلام من وجهة نظر العرب وأوجدت حركة فكرية لم يعهــدها التاريخ من قبل بين المســلمين الأوائل الذين كانوا أكثر تأثيرا من غيرهم بروح الاسلام ، وبالمثل العليا التى ضربها لهم الرسول فى حياته ، وانى أرجو أن يسمح لى أن ألقى نظرة خاطفة على هذا العصر علنا تتمكن من معرفة وجهة نظر هؤلاء فى المشكلة التى نعالجها الآن ومن معرفة كيف جاءت فكرة ان الاسلام نظام ضيق مغلق ، ولايسمح بالجديد ، وكيف نجد لها علاجا أو دفعا ؟

آمن المسلمون الأوائل بأن الانسان مسئول خلقيا ، لأنه فاعل مختار وبأن مصيره تنيجة فعله ، وليس شيئا لازما عليه ، لا محيص له من تنفيذه كأنه آلة تبرز ما يسجل عليها من قبل ، واستلهموا هذا الاتجاه العقلى الذى جاء به الاسلام ، فساروا عليه ، واكتشفوا ما اكتشــفوا فى سائر العلوم والفنون ، ووضعوا أصول المدنية الحاضرة فى كثير من مظاهرها ، وتركوا آثارهم واضحة فى كل مظاهر النشاط الفكرى للانسان .

ولقد عبر هذا الاتجاه عن نفســه تعبيرا كاملا فى العصر الذهبى من تاريخ المسلمين فى القرون الخمسة الأولى منه ، فكان العلماء جميعا — حتى المحافظون والنصيون منهم — متأثرين به الى حد كبير . كمــا يبدو مما تركوا من تراث ، وسوف لا أشير هنا الى الفلاسفة والعلماء الذين يعرف عنهم أنهم كانوا عقليين ، ولكن الى هؤلاء الذين يقال انهم كانوا على الأقل بسبب طبيعة بحثهم نصيين ومحافظين .. كالفقهاء وعلماء الكلام .

يخيل الى أنه لا مراء فى أن مجرد وجود بحوث كلامية فى هذا العصر والسماح لها بأن توجد وتتطور دليل على أن المسلمين حينئذ لم يعتبروها متنافية مع الدين ، وعلى أنهم كانوا يؤمنون بأن الانســان حر التفــكير والارادة . وأن له أن يكون أحكامه حسب ما يتبين من دليل .

ولعل مشكلة حرية الارادة كانت من المشاكل الأولى التى ظهرت مبكرة فى الاسلام ، لأن آثارها تبدو واضحة هنا وهناك . غير انه يلاحظ أنها كانت

تختص حين ظهورها اما بالقول : « لا أدرى والله أعلم » .. واما بالاجابة بأن الانسان فاعل مختار ، ولكن الاتجاه العام كان اعتقادا بحرية الارادة وبالاختيار ، مصحوبا بايمان جازم بالله وبثقة تامة فيه واطمئنان اليه ، والى أن معونته تسعف الذين يرجونها ، ممن يحسنون عملا ، ولم تأخذ المشكلة شكلا واضحا الا فى زمن « على » الخليفة الرابع ، وكان الجواب عنها ، وخاصة عند على ومريديه : تأكيدا لاختيار الانسان .

ولم يظهر الاتجاه الجبرى الا فى العصر الأموى : ففى هـذا العصر ظهر جمـاعة من الناس فى « دمشـق » وصرحوا (وقد يكون بتشجيع من الأمويين أو بوحى منهم) بأن الانسان مجبور فى أفعاله ، وليس لديه قوة على الفعل أو الترك ، لأنه فيها خاضع لسلطان الله وارادته ، وكل أفعـاله صادرة مباشرة عن الله ، وعلى الرغم من أن هذا الرأى لاقى تشجيعا عظيما من رجال السلطان ومن أن له أثره الفعال فى نفوس ضعاف العقول ، فقد واجه هجوما عنيفا من العلماء ، ولم يحظ بكثير من القبول العام ، وأدى فوق هذا الى النقيض ، فأثار فى دمشق نفسها نظـرية الاختيـار المطلق ، « التفويض » ومن هاتين النظريتين المتقابلتين نشأ بالتدريج وعلى مر الأيام ، المدرستان المعروفتان فى الاسلام « المعتزلة » و « الأشاعرة » .

اختلفت هاتان المدرستان فى كثير من مسائل علم الكلام اختلافا كبيرا واختلفتا فى تحديد معنى حرية الانسان ولكنهما اتفقتا على أن الانسان فاعل مختار ، وانه لذلك مسئول عن أفعاله . واتفقتا على أن ايمان المضطر وكفره لاغيان . وعلى أن الايمان التقليدى من غير فهم ومعرفة عديم الجدوى وأنكرتا التنجيم والتطير وما اليها وان لها قوة تؤثر فى الانسان . فهما اذن من المدارس العقلية التى تؤمن بأنه لا يوجد ما هو لازم على الانسان سوى نتائج تفكيره المجرد عن الهوى ، وسوى تلك المبادىء التى جاء بها الاسلام. والتى تبين أنها نفسها معقولة ومنسجمة كل الانسجام مع تعـاليم العقل ومطالبه ، وقد يكون من المفيد هنا أن نشير الى ذلك المبدأ المعتزلى القائل بأن العقل الانسانى كان يقدر أن يصل بنفسه الى كثير من المســائل التى جاء بها الأنبياء لو لم يبعث الله هؤلاء الأنبياء .. قد يرى بعض الناس أن

هذه النظرية صدى لنظرية أفلاطون فى هذا الصدد ، فليكن ذلك ، ولكنهم قد جعلوها هنا فكرة اسلامية ، قبلها كثير من الأوائل ، وكانت فى يوم من الأيام عقيدة شبه رسمية .

وانه لمن المفيد أيضا أن نذكر أن هذا الاتجاه العقلى أوحى بجديد لم يكن معروفا من قبل . فدفع جماعة ممن تسربوا فى بيئة محافظة أكثر منها فلسفية من رجال هذا العصر الى أن يكتبوا كتابة موضوعية فيما نسميه الآن « بعلم مقارنة الأديان » ، وأعنى بذلك : « النوبختى والمسعودى والمسيحى والبغدادى وابن حزم والبيرونى » كما نسمع الجنيد ، من رجال الصوفية ، يفضل العلم على المعرفة .

ولم يكن الفقهاء ورجال القانون أقل استعدادا لتطبيق هذا المبدأ من غيرهم ، ويكفى هنا أن نشير الى بعض القواعد الفقهية العامة التى تكاد تكون مجمعا عليها بينهم ، والتى تبين أنهم لم يكونوا جامدين أو ضيقى النظرة والأفق ، فمن هذه القواعد « تتغير الأحكام بتغير الأزما ن» .

ويلاحظ أنه كان للامام الشافعى فى بعض المسائل مذهب قديم وآخر جديد فيها ، وكلاهما صحيح ومقبول ، ولكن فى ظروف خاصة وحالات مختلفة . كذلك تقرأ كثيرا فى كتب الحنفية « وهذا اختلاف عصر وزمان لا حجة وبرهان». ومن هذه القواعد «المشقة تجلب التيسير» . و «الحاجة تنزل منزلة الضرورة » و « يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام » و « الضرورات تبيح المحظورات » و « يكتفى بظاهر الحال عند انعدام الدليل » وهكذا ..

وفى الحق ان المسلمين لم ينقصهم المفكرون والمجتهدون فى هذا العصر بل بالعكس كانوا يظنونهم فى بعض الأحيان كثيرين كثرة قد تؤدى الى اضطراب فى الفكر وفى القضاء فى المجتمع . ولهذا نشاهد ان بعض المناطق رأى تحديد قواعد عامة للقضاء ليعلم المتقاضون من أول الأمر نوع التشريع الذى سيخضعون له . كما نرى « ابا جعفر المنصور » يطلب الى « مالك » ان يجمع كتابه « الموطأ » ويؤلفه . ليجعله قانونا عاما يلزم به المسلمين

كافة . وعلى الرغم من ان مالكا ألف كتابه هذا . فقد رفض ان يعطيه وصف الالزام مصرحا بأن القرآن والسنة وحدهما هما اللذان لهما وصف الالزام فحسب . فلم يكن رأى واحد لازما فى نظرهم على الآخرين . الا ان يروا وجه الحكمة فيه . كما كانوا يعتبرون اختلاف الآراء ، وكثرة البحوث العقلية كما نعتبرها اليوم امارة التقدم الفكرى والنضوج الذهنى فى المجتمع .

تلك الحركة الفكرية التى حررت عقل الانسان وانهضته . ظلت مزدهرة خمسة قرون كوامل . تلتها خمسة قرون أخرى . كانت مظهرا لانقسام سياسى عنيف بين المسلمين . وتفرق داخلى فيما بينهم . وكانت القرون التى تلى هاتين الحقبتين مظهرا لضعف المسلمين السياسى وتحكم غيرهم فيهم . فكيف يتأتى تقدم أو تطور مفيد لجماعة مزقت وحدتها الخلافات الداخلية والانقسامات السياسية وغلبت على أمرها بعد ذلك بقوى خارجية لا توائمها فى الجنس أو العرف أو الدين ؟ . ذلك وحده قد يكون السبب . غير ان الواجب يقضى بأن نشير الى ظاهرة أخرى داخلية هى : أننا نقرأ بعض الكتب التى ألفت فى هذه القرون المتأخرة . فنراها تحرم دراسة كيت وكيت من العلوم العقلية . وتدعو الى أفكار ظاهرها التوكل وباطنها التواكل : فكيف جاء هذا ؟ . تختلف الاجابة على هذا السؤال وأمثاله . باختلاف الكاتبين . فمنهم من يعزوها الى الفقهاء . ومنهم من ينسبها الى الطبقات الحاكمة . أو الى رجال الصوفية . أو الى الانقسامات السياسية غير أنه يبدو ان واحدا من هذه العناصر لا يمكن أن يكون وحده سببا ، فقد تكون هى مجتمعة مع بعض العناصر الأخرى سببا فعالا فى ايجاد هذا الاتجاه الطارىء ومن هذه العناصر الأخرى فى نظرى أن الجماعة الاسلامية تكونت من عناصر متباينة وأجناس شتى .. وكان ممن اعتنق الاسلام جماعات تعودت على أن تضفى على ملوكها ورجال الكهنوت فيها وصف القداسة . اعتنق هؤلاء الاسلام من غير أن يخلصوا أنفسهم الا فى الصورة من تلك الآراء المتأصلة فى نفوسهم فظلوا يعتبرون الحكام معصومين ، وان لهم حقا الهيا فى الحكم ، وانه ينبغى لهذا أن يخضع الناس لارادتهم وتوجيهاتهم ملغين مالهم من

ارادات شخصية وانه لمن الهين بعد ذلك أن يوجد تواكل عام ، وأن تتطور هذه الأفكار الى جبر مطلق واستسلام عام ، وخاصة اذا ما شجع هذا الوضع — كما كان الشأن فى كثير من الأوقات — بالأمراء والحكام وغذى بالنفعيين من الكتاب الذين كانوا يعيشون على أعطيات هؤلاء الأمراء . هذه وأمثالها قد تكون السبب ولكن ليس الاسلام . فالاسلام كما رأينا لا يحرم غير الاتجاه السلبى فى الحياة ، الذى يجعل الانسان خاضعا خضوعا كليا للطبيعة وما فيها .

فالمشكلة هنا ليست مشكلة طبيعية وذاتية فى الاسلام . انها طارئة عليه وغريبة عنه ، فكيف ندخل فى بيئاته المبادىء العلمية والعقلية ونجعلها منسجمة معه ؟ بل كيف نعلم الطلاب والجماهير ونجعلهم يفهمون الاسلام فى وضعه الصحيح لا على أنه منسجم كل الانسجام مع التقدم الفكرى والتطور العلمى فحسب . بل على أنه كذلك قوة تهدى الفكر وتستميله وتلزمه . ما دام قادرا ان يبحث الطبيعة ويستخرج خباياها — ويخضع ما فيها من قوى لحاجة الانسان . ليست المشكلة كيف نفهم الاسلام من جديد . ونجعله يتسع للجديد . بل كيف نفهمه كما فهم فى العصر الذهبى للمسلمين . كيف نتعمق فيه. وكيف نكون مسلمين حقا، ونهضم مبادئه وتعاليمه؟ انها مشكلة تعليمية فحسب . لأن كل ما هو حق من ناحية موضوعية . وكل ما هو عقلى من ناحية موضوعية . وكل ما هو محتاج اليه حقا لينهض بالانسان فهو — كما قلت من قبل — اسلامى . ويجب فى دين الاسلام على القادرين أن يعملوا على تحقيقه للانسان .

وهذا ما قاله الدكتور « هارولد . ب . سمث » الأستاذ بكلية وستر بولاية « أوهايو » فى نفس المؤتمر عن الجبرية : ان من المسائل التى اشتد فيها الخلاف فى التفكير الاسلامى مسألة الحرية الانسانية ازاء « القانون الالهى » أو « القضاء والقدر » . وليس هذا مجال البحث فى هذا الموضوع . ولكن يكفى ان نقول ان فى القرآن آيات صريحة تؤكد كلا الأمرين . فهناك آيات كثيرة تقرر صراحة أو ضمنا مبدأ الجبرية المطلقة وأنا أرى ان استعراض الآيات المختلفة يتكشف عنه الملاحظة التالية . وهى أنه حيث يكون الاهتمام

موجها الى الله فان سلطانه المطلق الكامل يكون موضــع تأكيد . وفى هذا السياق تعتبر أعمال البشر . خيرها وشرها على السواء . مسببة عن الارادة الالهية مباشرة . اذ أنه لا يحدث شيء ما لم يرده الله، أو يأذن به . وانمشيئة الله الأزلية الأبدية . لتنفذ حتى فى مسائل الاعتقاد وعدمه . فيهدى قوم الى الايمان . ويوجه آخرون الى الضلال . وان ارادة الله هى العليا . فهو يهدى من يشاء الى الصراط المستقيم . ويصرف من يشاء الى سبيل الكفر والضلال . هذا حين يكون الاهتمام موجها الى الله ، فأما حين يحول الاهتمـــام الى الانسان فان التأكيد ينصب على ان الانسان قد وهب له الله الحرية والمسئولية الاخلاقية .

فكل انسان ذات أخلاقية حرة . وهو مســئول امام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله . وهو الذى يجعله فردا ذا مشيئة من الله الذى هو الموجود الأسمى . والله يرشد الانسان عن طريق الوحى الى مبـــادىء أخلاقية عامة منبعثة عن ارادته الأبدية المقدسة . الا أن فى الانسان قوةكامنة . اذ أن فى استطاعته ان يتقبل هدى الله أو يتحول عنه . وفى السورة الثالثة والثلاثين آية هامة رقم ٧٧ (هى « انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا ») .. لا يتحقق معناها الا على أساس التسليم بالحرية الانسانية . فقد عرض الله على جميع مخلوقاته مسئولية المحافظة على الايمان . وادارة العالم باسم الله . فقبل الانسان أن يحمل هذا العبء . على حين رفضته سائر المخلوقات خوفا واشفاقا . ومع أن الانسان لم يرع ذلك الايمان ولم يدر العالم ادارة ذات قيمة . وسلك مسلك الظلم والجهل : فان فى هذا سر عظمته وخطيئته جميعا . فلو لم يكن الانسان حرا ما ارتكب الخطيئــة . ولو لم يكن حرا ما ساغ أن يحمل الأمانة .

ولقد أصبح هذان الوجهان للنظرية الاســلامية موضع خلاف شديد عندما بدىء فى تقرير العقائد تقريرا منهجيا : فذهب الأشعرى السنى مثلا الى استبعاد كل العلل الثانوية ، وهذا المذهب فى محاولته اثبات أن القدرة الالهية مطلقة . رأى فى الأحوال والأفعال الانسانية جميعها خيرها وشرها

تعبيرات مباشرة عن ارادة الله . غير ان التفكير الحديث كله يسير فى الاتجاه المضاد لهذا « فمحمد عبده » و « محمد اقبال » يؤكدان استقلال الارادة الانسانية . ولكن من الحق ان الحكم الاخلاقى الأخير لله . فحرية الانسان تستتبع أن يكون الانسان مسئولا أمام الله والسلطان الالهى المطلق يظهر نفسه فى التاريخ أو فيما تتكشف عنه أحداثه .

ان التاريخ الانسانى متحرك (دينمى) . وهو من أحد وجوهه . مجموع اختيارات البشر انه تتيجة استعمال الانسان ارادته المستقلة بالاضافة الى حكم الله على هذه الأحكام الارادية . ان الكون يحكمه قانون اخلاقى . وهذا القانون لا ينفذ آليا . ولكنه نافذ حتما . انه الحكم القاطع لارادة الله على أعمال البشر . فاذا عصى الناس أوامر الله ونواهيه . ونبذوا وحى الله البين . واذا خرجوا على المبادىء الاخلاقية الكلية . ذاقوا العواقب التى لا مفر منها ، فالتاريخ على هذا نسيج مشترك من حرية الانسان وحكم الله . وكثيرا ما يشير القرآن الى الماضى باعتباره شاهدا على ارادة الله النافذة فى شئون الناس . وهو يتخذ هذا ذريعة الى التأثير فى أصحاب النفوس الخيرة والنوايا الطيبة . كما يتخذه أساسا للتأثير فى المذنبين حتى يرعوا وحى الله . ويبدلوا من طرقهم وفق مشيئة الله البينة .

مما سبق نجد ان هذه الفرية التى توجه لعقيدة القضاء والقدر ليست الا حلقة من سلسلة الهجمات التى يقوم بها خصوم الاسلام سواء كانوا من الأجانب أو من تلاميذهم المضللين المسمين باسم المسلمين تقليدا . وهى وسيلة لمهاجمة القرآن ومهاجمة السنة المحمدية الصحيحة من طريق جانبى . لأن عقيدة القضاء والقدر جاءت صريحة واضحة فى عدة آيات من كتاب الله . كما جاءت فى أحاديث صحيحة كثيرة .

فالله عز وجل يقول : « انا كل شىء خلقناه بقدر . وما أمرنا الا واحدة كلمح بالبصر » . و « وخلق كل شىء فقدره تقديرا » . « سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » . « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين » . « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . والله مع

الصابرين » . و « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو . ويعلم ما فى البر والبحر . وما تسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى كتاب مبين » و « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .

والأحاديث فى هذا كثيرة جـدا من أصرحها حديث عمر بن الخطاب السابق ذكره .. وروى عبد الله بن عمرو بن العاص . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الله قدر المقادير قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة — رواه أحمد والترمذى .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان روح القدس (الملك) نفث فى روعى ان نفسا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوفى رزقها . فامهلوا فى الطلب .

والأحاديث فى هذا كثيرة جدا وعقيدة القضاء والقدر اتفق عليها السلف الصالح منذ القرن الأول . وتلقاها المسلمون جيلا بعد جيل وقرنا بعـد قرن مستيقنين بها . لأن كل مسلم موقن يفهم من عقيدة القضاء والقدر ان معناها الذى ينطبع على قلبه هو احاطة الله عز وجل بعلمه وقدرته وارادته المحيطة المهيمنة على جميع المخلوقات فى العالمين السفلى والعلوى . وان كل شىء فى هذا الوجود من قبل وجوده معلوم لله . وانه يوجد بحسب ما يعلمه الله من قبل . كما أشير الى ذلك فى الآية : « وما يعزب عن ربك » .

ولقد كان لعقيدة القضاء والقدر أعظم الأثر فى انتصار الاسلام . وفى انتشاره وفى رفع رايته . وفى غلبة الفئة القليلة على الفئة الكثيرة . كما جاء فى الآية الشريفة السابقة .. وقد كان أوائل المسـلمين الذين جاهدوا فى سبيل الله حق جهاده كانوا مذعنين لعقيدة القضاء والقدر . يعلمون علم اليقين أن التسابق لله الى ميادين القتال لنشر لواء الاسلام ورفع راية الحق لاينقص من أعمارهم وكان ذلك لايمانهم بعقيدة القضاء والقدر التى ترتب عليها نصر وظفر المسلمين ، وتحطيم دولة الروم والفرس وكل أعداء الاسلام فلا يصح — اذن — أن يوصم المسلمون بالخمول والاستسلام والتواكل كما يدعى الغربيون .

والحقيقة ان الايمان بالقضاء والقدر بعض ما يجب على المسلمين لكى تتم لهم العقيدة ولكى يكمل ايمانهم . وليس المراد بالايمان بهما ان نتواكل فلا نعمل وان ندع الأسباب وننتظر النتائج . فان الله تعالى يربط الأسباب بمسبباتها .. وأقام نظام الكون على هذا القانون . والايمان بالقضاء ومعناه حكم الله التكوينى وبالقدر ومعناه الترتيب والنظام . يعنى ان نؤمن بانه لا يقع فى الكون شيء الا على وفق ما علم الله وأراد . ولا يعنى هذا بطبيعة الحال أن نرتكب ما نشاء من مخالفات تحت ستار القضاء والقدر . لأن المولى سبحانه وتعالى أخفى عنا ما قدره علينا . وليس لنا من سبيل الى ما علمه الا بعد ان يقع منا فنعلم من وقوعه انه كان مقدورا علينا . والبواعث تسبق الأعمال ولا تلحقها . والأسباب تتقدم النتائج ولا تتخلف عنها . ولعله من أجل هذا الجدل الذى لا طائل تحته . ولا خير فيه .. قال صلى الله عليه وسلم : اذا ذكر القدر فأمسكوا ، وقال أبو عبد الله جعفر الصادق : ان الله أراد منا شيئا وأراد بنا شيئا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا . ان الاسلام دين عمل وكفاح ، ودين حياة وصراع . يوجب العمل ويفرض التوكل على الله ، لأن التوكل كما يقدره الاسلام يعنى الأخذ بالأسباب وترك النتائج لله تعالى . ولا يفهم منه بأى حال أن نترك الأخذ بالأسباب وننتظر النتائج .. قال عمر بن الخطاب : لا يجلس أحدكم فى بيته وينتظر الرزق من الله فان السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

والايمان بالقضاء والقدر بعد هذا كله هو خير ما يعصم الانسان من البطر اذا أصابه الخير . ومن الجزع اذا أصابه الشر . لأن المؤمن بالقدر على يقين من أن الخير والشر ، كليهما من عند الله ، وهو كذلك خير ما يعصم الانسان من رذيلة الحسد ، لأنه اذا آمن به كان على يقين من أن كل شيء يصيب الانسان فلا بد أن يصيبه ، وان حسده لما فى يد غيره لن ينقل هذا الذى فى يد غيره الى يده ثم هو أخيرا خير ما يحمل المسلم على أن يكون شجاعا لا يهاب الموت ولا يخشى الشدائد لأنه على يقين من أن الأجل بيد الله . وانه لن ينقص يوما واحدا من أجله . ودين يقول نبيه صلى الله عليه وسلم : المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير احرص على ما ينفعك . واستعن بالله . ولا تعجز . واذا أصابك شر فلا تقل

لو كان كذا كان كذا .. فان لو تفتح باب الشيطان ، لا يوصف بأنه يحمل الناس على التواكل . أو يرضى منهم بالعجز والاستسلام . وفى ماضى المسلمين الأولين عندما فتحوا الدنيا وحكموا العالم وسادوه خير دليل من التاريخ على ذلك .

قال أحد المفكرين الغربيين : اذا كان فى الأرض أديان تعادى العلوم فان الاسلام على العكس . لا يقوى ولا يزدهر الا بانتشار العلوم وتقدمها . فان بينه وبينها رابطة أكيدة . فلا يمكن عزو الانحطاط الحالى بين المسلمين الى دينهم لأنه كان فيما مضى السبب الوحيد فى رقيهم وعظمتهم .

ومما قاله الأستاذ « هارولد . ب. سمث » : انه لو أمكن اثارة التماسك الاسلامى فى سبيل أغراض ايجابية . وتكتيل الأمم الاسلامية الكثيرة المختلفة فى وحدة حية . لأمكن أن تصير هذه الوحدة (قوة ايجابية فى العالم) . بل ان هذه الوحدة لتكون أكثر فاعلية اذا دخلت فى نطاقها من سواها . واذا بلغ من سماحتها أن تشرك فى وجدانها وفى أخوتها كل مخلوقات الله . ما أروع أن تحتج باكستان على مظالم حلت بأمة أخرى . شديدة البعد عنها جغرافيا . لأن تلك الأمة تنتمى الى جماعة الأمم الاسلامية . وأروع منه وأجدر أن يضىء طرقا جديدة فى عالمنا الذى مزقته الحرب ، أن تنهض أمة اسلامية — باسم المقاصد الحقة التى يوجه اليها الله الواحد . وباسم الرابطة التى تربط بين بنى الانسان — محتجة على ظلم أصاب أى شعب ، ولو كان خارج الكتلة الاسلامية .

ولما كنا نتكلم عن الوطنية فى مقابل العالمية فمن الخير ان نذكر ان الوطنية المتجزئة هى ما يسميها المؤرخ « توينبى Toynbe) زيفا من الغرب . وهذه الوطنية لم يصبح لها وجود فى العالم الاسلامى الا بالوراثة عن عصر الاستعمار . وهكذا ظهرت فى الشرق الأوسط أوطان تطابق خطوط تحديدها حدود مناطق النفوذ التى كانت فيما سبق . تدعيها لنفسها قوى استعمارية أوربية مختلفة . ان بين هذه الأوطان الآن تنافسا وتحاسدا . على حين ان الذى يجب أن يكون فى دار الاسلام هو « الوحدة » . وقوله : أما من حيث العلاقات الدولية . فان الأمم الاسلامية أو الجماعة الاسلامية

الكبرى . يجب ان تكون فى طليعة المنتصرين لخلق نوع من المجتمع العالمى من الأمم . ومن العاملين على ايجاد مثل هذا المجتمع الذى ينظم ويسيطر عليه قانون دولى . كما أوضح ذلك خيـر ايضاح الأسـتاذ « نورثروب Norsıop فى كتابه « رياضة الأمم » . Taming of the Nations

وخير ما يصور حقيقة التوكل هو قول الرسول : لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كمـا يرزق الطير تغدو خماصا (جائعة) وتروح بطانا (ممتلئـة) . والطير لا تتواكل ، بل تطير وتبحث وتجمع ، وهى مسخرة بقدرة الله .

والحقيقة ان القضاء والقدر بالصورة التى يؤمن بها المسلمون فىأشد ظلمات الفكر مفيد . لأنه يوجد فيهم حيوية نفسية . وان الأطباء الآن يعالجون المرضى بالاطمئنان النفسى والروحى . وبعث روح الثقة بالله وبالناس .

فالغربيون ينحون باللائمة على المسلمين لايمانهم بالقضاء والقدر لأنهم وجدوا ذلك الايمان يحمى المسلمين من الفناء . ولأنهم دائما يجدون المسلمين فى تكاثر مستمر وذلك يغيظهم ويكبتهم ، والأمر الذى يسبب كثرة المسلمين هو ايمانهم بالقضاء والقدر . والحقيقة انه ما عرف أهل دين بكثرة العمل كما عرف المسلمون : فالرسول صلى الله عليه وسـلم ما كان يحاول ان ينتصر بأسباب من السماء . بل كان ينتصر بأسباب من التدبير المحكم وحياته كلها تنبىء عن أنه كان يعتمد على نفسه وعلى العمـل فى كل شىء فعندما همت قريش بقتله ما استسلم وما طلب من السماء مددا وما طلب من ربه ان ينزل عليهم صواعق كما طلب غيره من الرسل « نوح » وما اعتمد على ريح صرصر عاتية . انما اعتمد على التدبير فرتب أموره وخرج مجاهدا ليجد النصر فى مكان آخر .. وهكذا حياة الاسلام كلها من وقت فتح باب الجهاد الى ان ضعف المسلمون وتخاذلوا . ما كانوا يعتمدون على نصرة السماء فقط . بل كانوا يعتمدون على العمل .

ويروى فى هذا ان الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه سئل عن أميرين أحدهما فاسق وقوى والآخر ضعيف تقى . فمع أيهمـا يجاهد ؟ فقال : مع

القوى الفاسق لأن فسقه على نفسه وقوته للمسـلمين . أما الضعيف التقى فتقواه لنفسه وضعفه على المسلمين .

والحقيقة التى لا مراء فيها أن الانسان مهما تكن قوته . ومهما تكن قوة الأسباب فى انتاجها للنتائج كلها ، فان للقدر العام تسيير فيها .. فالفلاح يلقى البذور فى الأرض ويرعاها . ويسقيها . ويلقى غيره مثله . وربما يسقيان من ماء واحد . ومعدن الأرض واحد والخصوبة واحدة . ولكن هذا ينتج أطيب الثمرات . وذلك قد ينتج ثمرا ضئيلا .

كذلك الأعمال فى الدنيا . فالتاجر يأخذ بالأسباب كلها . ثم يجىء القدر بغير ما أراده ولذلك كان لا بد أن نأخـذ بالأسباب فى داوئر قوانا ، ثم، لا ننسى قوة الله العلى القدير المهيمن على كل شىء الظاهر فوق عباده .. كقوله : « وشـاورهم فى الأمر فاذا عزمت فتـوكل على الله » . أمره الله بالمشاورة وهى التدبير والأخذ بالأسباب العـادية على أكمل وجوهها حتى لا يكون هناك مظنة نقص .

فالتشاور دراسة واحتباط للموضوع من كل نواحيه . ولكنه لا ينسى التوكل على الله . فان هذه الأسباب التى جعلها الله منتجة لمسبباتها هى خاضعة خضوعا مطلقا لارادة الله تعالى فى الكون كله .

وقد قرأت للعالم الجليل الأستاذ محمد أبو زهرة كلمة طيبة . هى : وانه مما يذكر فى هذا المقام أن الأوربيين اليـوم يحسـون بأن اتجاهاتهم المادية جعلتهم ينسون التفويض لله . وانى لاحظت انه ما من مغرور أوربى خدع بقوته وأحس ان كل شىء صار تحت سلطانه الا خذله الله من حيث لا يحتسب . « فلويس الرابع عشر » . فيما أظن عندما وقف فى جنده مفاخرا يقول : المستقبل لى . لم ينتصر بعدها فى حرب قط .

وانى أعتقد ان هزيمة الأوربيين فى حروبهم وقد أخذوا بكل الأسباب سببها عدم التفويض لله . وانى لأتذكر أيام الهجوم على القناة ، وكنت أتتبع تصريحات أوربا من « ايدن » الى غيره : فما لمحت كلمـة الله تجىء على ألسنتهم قط . وعلى عكس ذلك كان الشرقيون الذين ينحى عليهم باللائمة

للايمان بالقضاء والقدر . فما قرأت تصريحا لأحد منهم الا وقرنه بالتفويض لله .

ان الايمان بالقضاء والقدر خير دائما . وانه فى كل صوره أوجد حيوية فى المسلمين وصبرا على الشدائد . ومصابرة لأعداء الدين . وانه فى حقيقته الشرعية لا يمنع من العمل بل يحث عليه . وانه يجب على المسلمين فى أعمالهم الا ينسوا التفويض لله رب العالمين .

وصدق قول الله عز وجل : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم الا فى كتاب من قبل ان نبرأها . ان ذلك على الله يسير » .

وأخرج الامام أحمد وأبو داود والترمذى من حديث عبادة بن الصامت عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ان أول ما خلق الله القلم . ثم قال : اكتب . فكتب فى تلك الساعة بما هو كائن الى يوم القيامة .. ولا منافاة بين الآية السابقة ومثيلاتها وبين قوله تعالى : « يمحو الله ما يشاء ويثبت » . لأن المحو والاثبات مما جفت به الصحف أيضا . وكذلك لا منافاة بين الحديث وبين ما ورد مما يشبهه من قوله صلى الله عليه وسلم : أول ما خلق الله كذا . وأول ما خلق كذا . فان الأسماء مختلفة والمسمى واحد .. فانه سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات . وخلق ما بينهما من لحمة السببية فالتماس تلك الأسباب لا ينافى التوكل فى شىء بل انه نفس التوكل . وما تفسير أولئك الناس للتوكل بالتفويض المطلق والتقاعد عن الكسب والتحصيل مما أفضى بهم الى الاضمحلال . انما منشئوه الجهل بلغة القرآن الكريم .

وذلك الرسول وهو سيد المتوكلين يرشدنا بقرآنه . وبجميع أعماله الى أن لكل شىء سببا لا يمكن الحصول عليه الا باتخاذ ذلك السبب . أو ما سمعت قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا خذوا حذركم » وقوله : «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ونحو « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم » .

على أن الله سبحانه وتعالى بين لنا ضرورة علاقة المسببات بأسبابها صراحة . فقال فى الكتاب العزيز : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما

بأنفسهم » . ومن ذلك أيضا قوله تعالى : « واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيهـا ففسقوا فيهـا فحق عليهـا القول فدمرناها تدميرا » . فليتق الله المسلمون فى دينهم وليتباعدوا به عن النقائص التى شوهوه بها . وعرضوه بسببها الى طعن الطاعنين وغلو الآفلين .

وفى صحيح البخارى عن على رضى الله تعالى عنه . قال : كنا جلوسا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه عود ينكت به الأرض وقال : ما منكم من أحد الا وقد كتب مقعده من النار أو من الجنة . فقال رجل من القوم : ألا نتكل على كتابنا وندع العمل يا رسول الله ! قال : لا اعملوا فكل ميسر لمـا خلق له . ثم قرأ : فأما من أعطى واتقى وصـدق بالحسنى فسنيسره لليسرى .

والأحاديث فى ذلك المعنى كثيرة جدا يطول ذكرها . وفى هذا القدر كفاية ..

وقد تعرض المرحوم الشيخ « محمد عبده » لهذه المسألة عند حديثه عما درج عليه الغربيون من نسبة ما قد يوجد فى البلاد الاسلامية من أى تأخر أو جمود — الى العقيدة الراسخة فى نفوس المسلمين فى القانون الالهى أو القضاء الأزلى . فبعد أن يسلم محمد عبده بأن العامة قد اصطبغ تفكيرهم بالقدرية المأخوذة من فكرة الجبر . أو القضاء . يؤكد أن مفكرى المسلمين من جميع الفرق يعتنقون مذهب حرية الانسان فى الاختيار . وهو يقرر فى رسالة التوحيد أن الانسان يدرك أعماله الاختيارية . ويزن عواقبها بعقله . وينسب اليها القيم عن طريق ارادته . ويقوم بها بدافع من نفسه . وأيا ما كان فالانسان يعلم بالتجربة أن هناك قوة أعظم من نفسه هو مسئول أمامها . وعندما يقول القرآن : « ما تصنعون » و « بما كسبت أيديكم » فان قوله هذا يتضمن المسئولية . ومن ثم الحرية اللازمة ، لأنه لن يكون ثمة عدل فى اعتبار الانسان مسئول عن أحوال تفرضها عليه ارادة أو قوة خارج نفسه . ويستدل « محمد عبده » على هذا بمبدأ (المجـاهدة) .. فقوله تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » يبين أن هدى الله ميسر لمن يجاهدون فى سبيل الاهتداء الى الحق والخير والصواب .

وكما أن الناس تحكمهم فى حياتهم الاجتماعية قوانين خاصة كذلك تحكمهم فى كل مكان وزمان قوانين الله الخلقية . والناس قادرون على معرفة هذه الشرائع الالهية بالتدبر . وعن طريق الوحى . ولكنهم أحرار حين يعلمون بها . أو يخرجون عليها . كحريتهم فى اطاعة القوانين الدنيوية أو عصيانها . واذا خرقوا القانون فهم معرضون فى كلتا الحالتين . لقضاء السلطة الأخلاقية وعقابها . والأمم تصل الى الرفعة ، أو تقصر دونها ، حسب اختياراتها الأخلاقية الارادية ، أو حسب الاتجاه الأخلاقى العام لسياساتها الاجتماعية . وهكذا فقوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » يتضمن أن النظام الذى رسمه الله يقوم على قانون العلة والمعلول . ولكن اختيار الطريق والمسئولية ملقيان صراحة على الناس بسبب حريتهم التى منحهم الله اياها . والله ينفذ مشيئته فى الحياة عن طريق دفع الناس بعضهم ببعض . ومع ذلك ففى هذا التدافع التاريخى يستطيع الانسان أن يهتدى بالتجربة الى سبيل الحق والصواب . وهى قوله تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

لقد وهب الله الانسان الحس والعقل وفى هذين الكفاية ليستكشف ما هو ضرورى للمحافظة على النفس . وليميز الصواب من الخطأ . وقد وهب الانسان كذلك العاطفة والشعور اللذين يدفعان ادراكه العقلى ووهب الارادة الحرة ليتصرف فيما يصل اليه العقل الذى تغذيه .

أما « محمد اقبال » فانه يقول فى معرض حديثه عن عقيدة ال . تقدير : « ان مصير أى شىء أو أى شخص ليس ، قضاء صارما يعمل من خارج كأنه سيد آمر بل ان الغاية الذاتية لشىء من الأشياء . انه امكانياته التى يمكن ادراكها . والتى قد تحقق نفسها دون أى شعور باكراه خارجى .. واذن فقوله تعالى : « انا كل شىء خلقناه بقدر » (القمر آية ٤٩) يعنى أن كل مخلوق قد وهب (امكانية محددة) هو (حر فى تحقيقها أو عدم تحقيقها). ويرى اقبال فى قدرة الانسان على الخلق دليلا على حريته . لأن كل نشاط خالق يجب بالضرورة أن يكون حرا . فالخلق يقابل التكرار الذى هو صفة الفعل الآلى .

وهكذا يرفض « اقبال » كل الصور المتطرفة من فكرة القضاء الأزلى ! سواء أنسبت الى تقدير الله أم الى الضرورية الآلية .

ويرجع عنصر القدرية فى التفكير الاسلامى الى ما حدث من فرض التفكير الفلسفى اليونانى على الآراء الدينية الأصلية للاسلام . فان فلاسفة المسلمين لما عرفوا ما فى التراث اليونانى القديم من الوصول عن طريق سلسلة من العلل . الى علة أولى نهائية . مالوا الى اعتبار العلة الأولى المطلعة العلة الوحيدة . ومن ثم أنكروا وجود الأسباب الثانوية الوسيطة جاعلين الله المنشىء الوحيد المباشر لكل ما يحدث فى الكون . وقد عجل عاملان آخران بنمو عقيدة القدرية : أحدهما المصلحة السياسية التى كانت تستهدف تسويغ الأخطاء السياسية باضافتها الى ما خطه الله فى قضائه . والآخر ما أصاب الاسلام نفسه من تناقص فى قوته الحيوية الدافعة . هذا التناقص الذى أحدث ضعفا وجمودا يوافقان الايمان بالقضاء والقدر .

فالأجانب ومن على شاكلتهم الذين يريدون أن يتهموا الاسلام بمثل هذه التهم يستملونها من حال المسلمين الحاضرة . وحال المسلمين الحاضرة لا تمت الى الاسلام بكثير من الصلات . ولعل الأجانب يتبعون خلق الاسلام وشرائع الاسلام ولعلهم استفادوا منه بدون قصد . واذا كان عندهم خير فالخير كله قد استقوه من خلق المسلمين الأولين ، فنحن رسمنا لنا صورة للعمل تبعد عن الاسلام بكثير . وأضعنا أوقاتنا فى التهاتر والجدل والألفاظ والكلام . واذا غضب الله على قوم منحهم الجدل ومنعهم العمل ، أما هم ، فقد انقلبت الآية عندهم ، تركوا دينهم فتقدموا وتركنا ديننا فتأخرنا ، كما ذكرنا ذلك آنفا .

وصفوة القول ان هذه العقيدة نصر لمعتنقيها وأن الادعاء بأنها تدعو الى التواكل والكسل ادعاء باطل .

ونختم الحديث عن هذا الموضوع بقول « محمد اقبال » أيضا وهو الشاعر النابغة ، والفيلسوف المبدع .

يتكلم عن الذات الانسانية حريتها وخلودها ، ويبين كيف عمت المسلمين « جبرية مشئومة » على خلاف ما علمه الاسلام ، ووكده من حرية

الذات . ويقول ان هذه الجبرية التى عرفها الأوربيون فى كلمة « قسمة » ترجع الى غلبة الفكر الفلسفى والى المطامع السياسية وضعف نبض الحيــاة التى بثها أعداء الاسلام فى نفوس المسلمين .

ثم يقول اقبال : نشأت ، على خلاف دعوة أئمــة المسلمين . جبرية مهلكة ، وشاعت نظرية الأمر الواقع لتحصيل منافع لبعض الناس ، وتيسير مطامعهم .

وليس هذا أمرا بدعا ، فقد احتج فلاسفة محدثون بحجج عقلية على أن نظام رأس المال فى الجماعة نظام أبدى .

حدث مثل هذا فى تاريخ المسلمين ، ولكن درج المسلمون على التماس أدلة مذاهبهم فى القرآن ، ولو على خلاف معانيه الواضــحة فكان للتأويل الذى يحتج به على الجبرية آثار بالغة فى الاضرار بالجماعة الاسلامية .

الفصل التاسع

المستشرقون والتصوف الإسلامي

أجمع أئمة الصوفية على أن التصوف هو الطريق الوحيد السلطانى الذى يؤدى الى اكتساب المعارف الالهية والفتوحات الربانية والأذواق والمواجيد الباطنية مما يزيل كافة الشكوك والريب والغموض والابهام من دخيلة النفس فيما يتصل بالكثير من المعتقدات الدينية التى لا بد من الايمان بها . ومنها مثلا : الاعتقاد بوجود الله تعالى وجودا أزليا وأبديا قبل أن يوجد الزمان والمكان .

فالعقل الراجح والمنطق الصحيح الواضح يوجبان هذا الاعتقاد على كل عاقل والايمان به فى غير ما تردد ولكن الايمان بالشىء تتفاوت درجاته فقد ينقص الى حد أن يكون ظنا أو أقل من الظن تبعا للمعاصى التى يرتكبها الانسان قلة وكثرة وقد يتزايد الى حد أن يكون عيانا ومشاهدة . وهذا تبع لمقدار ما يقوم به المرء من طاعة الله والاقبال على عباداته ضعفا وقوة .

وقد دلت سير المتصوفين الأولين السابقين ممن وصلوا الى الله تعالى وصول مشاهدة ومعاينة يجلان عن الوصف ويدقان عن العبارة على أن هذه الطريقة هى الكفيلة حقا بالقضاء على كل غموض وابهام فى أمور الدين وعقائد الايمان كما قال سيد المتصوفين « على بن أبى طالب » : لو كشف لى الغطاء ما ازددت يقينا ، وان هى الا رياضة روحية مباركةورحلةفى طريق العبودية موفقة ينبلج أمام قلب السائر فيها نور اليقين . فعين اليقين . فحق اليقين حيث تنهزم من أمام بصيرته ظلمات الحيرة والقلق ويمتلىء الباطن عرفانا وايمانا لكل ما ينطق به الرسل الكرام وجاءوا به من عند الله .

ويعجبنى ما قاله سماحة السيد الأستاذ « محمد محمود علوان » شيخ مشايخ الطرق الصوفية بالجمهورية العربية المتحدة ، حول التصوف : من

المبشرات الطيبة ذات الدلالة الملهمة ، أن يحتل اليوم التصوف والأحاديث التى تدور حول رسالته مكانة الصدارة فى أقلام الباحثين وعناية المفكرين ؛ من المسلمين والغربيين — وهى بشرى تهش لها قلوب المؤمنين بربهم وتطرب لها ويرى فيها رجال الروحية الاسلامية ايذانا بفجر جديد لنهضتهم وعودة مبادئهم وأخلاقهم ومثالياتهم الى محيط حياتنا ، وواقع وجودنا ، لتكون سندا وعونا ونورا لتلك النهضة العربية النامية التى تندفع بقوة حيويتها الجبارة وايمان قيادتها الملهمة الى التحرر والبناء والقوة فى المحيط العربى ورسم مبادىء الخير والسلام والتعاون فى المجال الدولى .

وبجوار هذا الوعى المنير المدرك لمكانة التصوف ورسالته ، لا تزال بعض العقول التى بهر أعينها زخرف الشهوات الأوروبية ، وتلون تفكيرها بالأفكار المادية ، لا تفهم من التصوف الا أنه هذه الطقوس والشكليات التى علقت بالتصوف ، كما يعلق الكلف بقرص الشمس . وكما يحيط السحاب المظلم بنور القمر المشرق ، ان تسرب الطقوس والشكليات الى جوهر الرسالة الاسلامية هو علة ما أصاب تاريخنا الفكرى من ضعف وجمود ..

ولقد مشت هذه العلة الى العلوم الاسلامية كافة ، فتسرب الى الفقه تفريعات وافتراضات خيالية ودخل فى علم الكلام سفسطات جدلية ، وتسربت الى تفسير القرآن تلك الاسرائيليات القصصية ، وماجت كتب الأحاديث النبوية بالدخيل المدسوس على نورها وجلالها .

فليس ما أصاب التصوف اذن بدعا فى التاريخ الاسلامى ولم يختص التصوف وحده ، بما علق به ، وأضيف اليه .

ولعلماء الاسلام جهاد مشكور فى الدفاع عن العقيدة الاسلامية وابراز جوهرها ، وبيان التزييف الذى صنعته عصور التأخر والضعف وألحقته بمباهجها . .

ولرجال التصوف ايضاحها وهم المشكورون فى تجلية رسالته . وابراز فكرته وتنقينه وتبرئته مما أضافت الرجعية من طقوس وتقاليد .

وقول سيادته أيضا : ان التصوف هو جوهر الاسلام ، هو التطبيق العملى للقرآن . هو الفدائية المضحية فى سبيل الله والوطن . هو العمل الدائب لخير الفرد والجماعة والناس جميعا . هو « حب » الله سبحانه وتعالى حبا ينبثق منه حب الناس كافة . هو التخلق بأخلاق النبيين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ...

والفارق بين الصوفى وغيره هو أن المنهج الصوفى قد ربط الايمان بالعمل . والأخلاق بالحياة وجعل من المثاليات العالية واقعا ممثلا فى الأفراد وأخذ بالعزائم فى العبادات وأحال وجوده الى ذكر يلهم القوة ، والى توحيد يكسب العزة ، والى جهاد يرفعه درجات عند الله وفى سلم الحياة .

ويضيف التصوف الى منهجه فى الحب الالهى ، حب أولياء الله ، لأنهم النماذج التى يقتدى بها السالكون الى الله ، ولأنهم المثال والرمز على الكمال الانسانى ، كمال التعبد والايمان والأخلاق .

لقد هوجم العالم الاسلامى ، واحتل احتلالا رهيبا قاسيا استهدف القضاء على عقائده ليصبح فريسة رخوة هينة .

وجاء فى أعقاب الاستعمار تبشير مزود بكل القوى ، وبكل الامكانيات والاغراءات وصمد العالم الاسلامى للاستعمار والتبشير ، لأن الطرق الصوفية احتفظت بقلوب الجماهير ، داخل أنطاقها ، وزودت قلوب الجماهير بحب الله ، وحب رسوله ، وحب أوليائه فكان هذا الحب وحده ، هو الحصن الأشم ، الذى تحطم عليه كل جهد بذله الاستعمار وبذله التبشير للقضاء على العقيدة الاسلامية وآدابها .

واستطاعت الشيوعية الحديثة أن تكسب أرضا ، وأن تكسب شعوبا فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولكنها عجزت وستعجز عن أن تظفر بأمة اسلامية واحدة لأن الجمهور الاسلامى وهو فى تكوينه جمهور صوفى ، امتزج الايمان بدمه ولحمه وقلبه وتفكيره امتزاجا لا تغالبه ولا تنال منه قوة فى الحياة .

ان التراث الصوفى تراث أصيل فى حياتنا الفكرية والخلقية والروحية تشكلت به حياتنا وانطبقت به بيئاتنا ، وتلاقت واجتمعت عليه الأمة الاسلامية .

وبذلك يغدو التصوف القاعدة الكبرى فى بناء كل وحدة اسلامية ، بل هو أيضا الحلقة الجامعة التى تتوحد فى ساحتها التيارات الفكرية فى الاسلام .

فالتصوف قد اتسع أفقه حتى ضم تحت اهابه أتباع المذاهب الفقهية كافة ، بل وأتباع المذاهب الكلامية عبر التاريخ الاسلامى .

والقاهرة — قلب العروبة — كانت ولا تزال مصدر الاشعاع الصوفى للعالم الاسلامى ، واليها تتجه قلوب الصوفية كافة باعتبارها المثابة الرحبة لهم جميعا .

وبذلك يغدو التصوف قوة عالمية تساند النهضة العربية ، وتقدم لها الايمان والروح والمثالية التى تنبعث من هذا الميراث الخالد .

ان التصوف رأس مال نافع لكل حركة انبعاثية تحريرية ، انه أكبر القوى فى مواريثنا الروحية والعقائدية ولذلك حرصت مشيخة الطرق الصوفية منذ يومها الأول فى عهدها الجديد تحت ظل ثورتنا المباركة البانية التى بعثت روح العزم والتجديد فى كل مرفق من مرافق حياتنا الفكرية والايمانية والعملية ، على أن تجتمع القوى المؤمنة بربها وبوطنها وتتكاتف على نهضته والعودة به الى ينابيعه الصافية ، وروحانيته المشرقة ، التى تصنع الرجال والنهضات وتكتب التاريخ والحضارات » (١) .

وكان من أقطاب الصوفية « الحلاج » ذلك الصوفى المتصل الذى عظم أمره ، وبلغ من شأنه أن كان يخرج الأطعمة فى غير وقتها ، والدراهم من الهواء ، ويسميها دراهم القدرة ، وكان يسرف الطب والكيمياء .

آمن الحلاج وهو يشق طريقه الى الله ، على أجنحة من رياضاته العنيفة الشاقة وأشواقه القلبية المتقدة ، ان هناك صلات لا تنفصم بين الكمال الروحى الذى ينشده ، والاصلاح الايمانى الذى يستهدفه .

(١) نقلا عن مجلة « الاسلام والتصوف » العدد الرابع السنة الثانية .

انه ليحس بأن فى أعماقه قوى ضخمة تفور وتتصارع وتتهيأ للحركة والوثوب ويشعر بأن هناك فى أبعد عمق من نفسه وقلبه ووجدانه تتفجر ينابيع ، وتتدفق تيارات وثورات ، يرى بعين خياله ، وبصيرة أحلامه ، انها ستغير وجه الحياة . حياته وحياة الناس كافة ؟

لقد آن للعالم الاسلامى أن يبعث من جديد على نور من كتاب الله وحبه ، وشعاع من حياة الرسول وهديه .

وما أروع وأجمل أن تتحقق أحلام « الحلاج » ، فتشهد الدنيا أمة قرآنية تقوم بعين الله ورعايته ، يحكمها ويوجهها أقطاب عباد أتقياء أصفياء يحبون الله ويحبهم ويملئون الكون بمواجيدهم وضراعتهم ، ويحملون الناس على الجادة والطريق الذى اصطفاه الله وارتضاه ، فلا تفترق السياسة عن الصلاة ، ولا الحكم عن الحب ، ولا العمل عن العبادة ، فتتحول الدنيا من غاية للشهوات والصراع ولهو الشياطين الى مساجد للحب والسلام ونجوى الساجدين العابدين .

ولقد آمن الحلاج ، بأن المنهج الصوفى بكمالاته فى الأخلاق والعبادات والجهاد الروحى ، وبمواجيده وأرواحه ومعارفه فى الحب الالهى ،انمايمثل وجها واحدا من الدعوة الاسلامية ، ووجها واحدا من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم . انه يمثل مرحلة الاعداد فحسب ، ثم تأتى فى أعقابها مرحلة الكمال ، مرحلة الجهاد العام لتبليغ الدعوة ، وحمل الناس عليها والدفاع عنها ، فلو اكتفى الأنبياء والأولياء والمصلحون والزعماء ، بأنفسهم ولم يحملوا ما تلقوا وما تعلموا وما آمنوا به الى الناس ، ولم يجاهدوا فى سبيله حتى تعلو كلمات الله ، وتسود تعاليمه ورسالاته لفسدت الأرض وامتطاها شياطين الجن والانس يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا .

ولقد فسد عصر الحلاج فسادا كبيرا ، وتنابذ الناس واختلفوا وتفرقت بهم السبل واغرقوا فى الشهوات والملذات والترف الهلوك .

وكانت قمة الفساد قصور الخلفاء والأمراء ، فقد غدت مسرحا لعبث الجوارى والاماء ومرتعا للمرتشين والمغامرين والملحدين .

ومع هذا فها هى بغداد عاصمة الخلافة تموج بالنجوم الكبار من أعلام التصوف وأئمته « الجنيد ، والتسترى ، والمكى ، والشبلى ، والنورى » .

وها هو العراق فى كل سهل وجبل وقرية فيه صوفية عباد أتقياء أصفياء لهم مكانتهم وأقدارهم .

ان « سهل بن عبد الله التسترى » ليقول : انه دخل « البصرة » فوجد بها أربعة آلاف من العارفين .. فكم اذن يكون منهم فى بغداد ؟ وفى كل مدينة من مدن العراق ؟

ومع هذا فبغداد والعراق قد أصبحا علمين عالميين على التدهور الخلقى والانحلال الدينى ، والفساد الاجتماعى .

ماذا فعل الصوفية حيال كل هذا ، ولهم المكانة ولهم الجاه ، ولهم الحب والتقدير عند الخاصة ، والسلطان الشامخ على العامة .

لقد فكر الحلاج فى كل هذا وأطال التفكير ، فلم يرض عنه ، ولم يطمئن اليه ، وعبر عن سخطه بكلمات من لهيب وبرق .

ان الله سبحانه كما يقول « الحلاج » : لن يقبل من الناس عبادتهم ، اذا اختلت سياستهم وفسدت أخلاقهم ، ثم استكانوا للبغى والفساد .

وان الله سبحانه كما يقول الحلاج : لن يقبل من أصحاب الأردية والاكسية دندناتهم ، وكلماتهم ما لم ينهضوا للحق ، ويجهروا به ، ويقدموا دماءهم فى ساحة الاستشهاد والفداء ، وقد آن لرجل من رجال الله أن يرفع صوته ، ويؤذن بالدعوة ، وان الحلاج ليهب نفسه ويرصدها للغاية الكبرى .

وان كان يمسك نفسه حينا ، ويقلب وجوه الرأى أحيانا فليس عن تردد أو ضعف ، انه يريد أن يستوثق من نفسه ، وأن يطمئن الى عدته . هل كملت رياضاته ، وهل نضجت مجاهداته ، وهل خلص له قلبه ؟ ان قلبه لينازع عقله فيما يريد ، وان وجدانه ليصاول تفكيره فيما يحب .

لقد تعشق بقلبه ووجدانه وروحه المنهج الصوفى ، ورصد كل قواه منذ صباه لحب الله وعبادته والجهاد فى مرضاته ، حتى يصل الى فناء كامل . تفنى

فيه ارادته فى ارادة الله ونوازع بشريته فى كمالات عبادته ، وأهواء نفسه فى لذة أنسه ، وجلال قربه وان هذا الجلال ، وهذا الحب ، وهذا الفناء ، ليكاد يصرفه عن نفسه ، وعن رسالته حينا ، وحينا يخيل اليه انهما ارتبطتاواتحدتا وأصبحتا شيئا واحدا .

انها عاصفة من التفكير المزلزل المتعدد الألوان والصور ، خلص له منها أمر يقينى اطمئن اليه اطمئنانا لم يجد عنده سواه .

انه فى حاجة الى خلوة كاملة ، يعيشها متحنثا متطهرا ذاكرا قانتا ، خلوة تؤهله ، وتدنيه من الكمال ، وتزوده وتعده للجهاد العنيف الشاق الذى اعتزم القيام به فى وجه جميع القوى .

ومن ثم اعتزم الحلاج أن يرحل الى بيت المقدس ليخلو بنفسه فى أرض الوحى والالهام ليزداد قربا من ربه ، وكمالا فى نفسه ، وهما عدته ومعراجه الى هدفه ، وفارق الحلاج بغداد فجأة الى مكة المكرمة ، وبعد أن طاف بالبيت العتيق نذر البقاء عاما للعمرة فى حرم البيت المبارك للطهر والتنسك . والتصفية القلبية والاعداد الروحى ، عاش فى الحجر لا يستظل تحت سقف شتاء ولا صيفا ، فى صمت مطلق وتأمل متصل ، وعبادة ونجوى ، عن « أبى يعقوب النهر جورى » قال : دخل الحلاج مكة أول دخلة وجلس فى صحن المسجد سنة لم يبرح موضعه الا للطهارة والطواف ، ولم يحترز من الشمس ولا من المطر ، وكان يحمل اليه فى كل عشية كوز ماء وقرص من أقراص مكة ، وكان عند الصباح يرى القرص على رأس الكوز . وقد عض منه ثلاث عضات أو أربعا فيحمل من عنده .

عاش الحلاج حياته العجيبة القاسية الشاقة عاما كاملا .. ماهى خواطره ؟ وماهى تأملاته ؟ وما هى القوة التى تزود بها فى خلوته ؟

لقد لزمت كتب التاريخ الصمت حيال هذه الفترة من حياته الا أن المستشرق « ماسينيون » يحاول كعادته أن يلقى الظلال والشبهات وأن يفسر حياة « الحلاج » التفسير الذى يصل به الى الفكرة التى استقرت عنده ، وهى ان الحلاج كان يحاول أن ينهج نهجا مسيحيا فى تنسكه ودعوته وانه كان يتشبه « بمريم » البتول حينا ، وبالسيد « المسيح » أحيانا .

يقول « ماسيثون » : ان الحلاج فى مكة كان يتشبه « بمريم بنت عمران » ، وان كان يهيىء نفسه استعدادا لميلاد كلمة الله فيه .

ان تأملات « الحلاج » وأحلامه ، وخواطره ورياضته بمكة ، تصورها لنا أولى كلماته التى نطق بها بعد عام كامل من صمته ، لقد خرج الحلاج من عزلته فتلقاه أتباعه يسألونه عن شأنه .

فترجم عن أمره بتلك الجملة القصيرة المعبرة المصورة ، قال الحلاج : لو ألقى مما فى قلبى ذرة على الجبال لذابت .

غادر « الحلاج » مكة الى الأهواز داعيا الى الله مبشرا برسالته ، واتجه بدعوته الى طبقة المثقفين من الكتاب ورجال الأعمال والى الجنود والقواد . وجماهير الصوفية . وقسم « الحلاج » منهجه الى خطوط رئيسية : ناحية دينية صوفية جوهرها عبادة الله وحبه حبا أساسه الوجد والشوق ، حتى يجد الانسان ربه فى أعماق نفسه وبذلك يصل الى الكمال الروحي والخلقى .

ثم ناحية اصلاح الأداة الحكومية الغارقة فى الترف والشهوات والانحراف ، حتى يستقيم الميزان الموجه لحياة الناس ، ووحدة الأمة الاسلامية التى مزقتها الفلسفات والعصبيات حتى تستطيع أن تنهض برسالتها وتتجمع لديها القوة اللازمة لحمايتها .

وكان الحلاج فى دعوته يتجنب التسميات المميزة بين الفرق الدينية حتى لا يظن به الجنوح الى فرقة بذاتها ، وهى العقبة الكبرى فى وجه كل دعاة الاصلاح .

وكانت صيحة « الحلاج » المدوية أن يعود الناس الى الأساس الأول الى الاسلام كما جاء محجة بيضاء وكما طبق فى عهد الرسول توحيدا صافيا وعملا لله خالصا ، وأن يتخلى الناس عن هذه المذاهب التى حجبتهم عن الجوهر . فالمذاهب كما يقول : ان هى الا وسائط يجب اجتيازها الى روح الاسلام .

يقول العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية : وكان الحلاج فى عبارته حلو المنطق ، فيه تعبد وتأله وسلوك .

وغضب المتزمتــون من رجال التصوف لاندفاع الحلاج فى التيــار السياسى ، وقابل الحلاج غضبتهم بأعنف منها ، فنبذ خرقة التصوف كيمــا يتكلم بحرية مع أبناء الدنيا كما يقول .

وعظم أمر الحلاج فى الأهواز وفتنت به الجماهير ونسبت اليه العجائب وتلونت هذه العجائب بخيال العامة حتى غدت ضربا خارقا لقدرة الانسان !!

وكان الحلاج كما يقول الاسطخرى : باهر الشخصية ، ساحر الكلمة ، رائع السمت ، محببــا الى القلوب ، أو كمــا يقول التعبير الحديث : فيه استهواء روحى للجماهير .

ثم وسّع الحلاج نطاق دعوته فارتحل الى خراسان وفى صحبته العشرات من الحواريين واستمر كما يقول «ماسيثون» : يدعو ويعظ الجاليات العربية فى شرق ايران ، ويثبت دعوته فى المدن ويقيم على الحــدود ، ويرابط مع المرابطين فى الثغور وقضى فى ذلك خمس سنوات ثم يعود الى الأهواز ، بعد أن ترك دويا يتردد صداه فى آفاق خراسان ثم يدعوه تلميذه العظيم الواسع النفوذ « حمد القنائى » الى الاقامة ببغداد ، فيرحل اليها مع أهله ، وطائفة كبيرة من مريديه وأتباعه .

ويدخل الحلاج بغداد بعد أن سبقته شهرته وعجائبه فيحدث فيها هزة يتردد صداها فى البيئات الصوفية والعلمية ترددها قصور بغــداد العالية . وأكواخها الساذجة . ثم يذهب الحلاج الى مكة للمرة الثانية مع أربعمائة من تلاميذه ويعاود الاختلاء والرياضة حتى يتهمه بعض خصومه بأنه يقوم بأعمال السحر وتحضير الجن ، لاعتصامه بقمة جبل « أبى قبيس » وانقطاعه عن الناس .

ومن مكة خرج الحلاج فى رحلته الكبرى فى سبيل الدعوة ، يخرج الى التركستان والهند حيث يعتنق الاسلام على يديه خلق عظيم .

واتخذ البحر طريقا ، وصعد فى نهر السند من « ملتان » الى كشمير ويمضى فى طريقه صاعدا ناحية الشمال الشرقى حتى « طرقان » مع القوافل الاهوازية . لقد كان « الحلاج » كما يقول « ماسيثون » يفكر فى هداية الانسانية كلها عبر الأمة الاسلامية .

وعظم أمر « الحلاج » فى بلاد ما وراء النهر والهند والصين . فكانوا يكاتبونه من الهند بلقب « المغيث » ومن بلاد الترك « بالمقيت » ومن خراسان « بأبى عبد الله الزاهد » ومن خورستان بالشيخ حلاج الأسرار . وسماه آشياعه ببغداد « بالمصطلم » وسموه فى البصرة « المحير » .

وذهبت الدنيا تردد أحاديثه وقواه السحرية الخارقة ، أو كراماته الباهرة .

ونشر الحلاج رسائله الكبرى عن السياسة وواجبات الوزراء مطالبا باقامة حكومة اسلامية حقا . وزارة تحكم بالعدل بين الناس ، وخلافة كما يقول : شاعرة بمسئوليات وظيفتها أمام الله مما يجعل الله يرضى عن قيام المسلمين بفروض دينهم .

ومن وراء النهر عاد الحلاج الى مكة مرة ثالثة يدفعه وجد صوفى ، وحنين غلاب الى الخلوة والى رياضاته العنيفة القاسية ، فى أرض النبوة والالهام ، وليتزود فى عزلته الروحية بقوة ايمانية ، قوة تؤهله لمواجهة الحياة فى معركة بطولية حاسمة هناك فى بغداد عاصمة الخلافة العباسية حيث الصراع الفكرى والدينى مشتعل الأوار فى البيئات العلمية ، وحيث الترف والشهوات والفساد والمهلكات تحيق بالمجتمع الاسلامى .

وهناك يقاسى الحلاج مر المعركة الكبرى التى انتهت بتقديم روحه قربانا لها فى سبيل الدفاع عن الرسالة الاسلامية والدعوة المحمدية .

هذا مثل من صوفى مخلص ، صادق الايمان واليقين باع نفسه فى سبيل الله ونشر دعوته وتمسكه بالعقيدة .

ولقد عرف « الغزالى » التصوف بأنه « عمل مبنى على العلم » وانه قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة ، وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها الى تخلية القلب عن غير الله وتحليته بذكر الله .

فالتصوف اذن تأمل دائم فى النفس ورعاية كاملة لتطبيق مبادىء العقيدة حتى يتوصل المعتقد عن طريق التأمل والعمل الى تنقية سريرته فيقرب من الله ويبتعد عمن سواه .

والتصوف بهذا المعنى ليس بدعا فى الدين الاسلامى كما يتصوره المغرضون بل لا يتصور أن يخلو منه مجتمع يدين بعقيدة الايمان بالله وبالدار الآخرة . وقد كان التصوف فى نشأته عربيا اسلاميا تركزت مبادئه حول آيات القرآن ، وفهم المسلمين لعقائد الدين ونصوصه ، فقد اتخذوا من هذه العقائد محورا تدور حوله أفكارهم فى عالم الغيب وفى اتخاذ هذه الحياة طريقا للقربى من الله زاهدين فى كل ما يبعدهم عنه متعمقين فى فهم ألفاظ القرآن واشارته وبخاصة اذا كان موضوعها العالم الغيبى أو الفيض الالهى .

فمن ذلك أن الرسول سئل عن « الشرح » فى قوله تعالى : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام » فقال : هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب . فقيل : وما علامته ؟ فقال : التجافى عن دار الغرور والانابة الى دار الخلود .

وقد كان الرسول يقوم الليل تقربا الى الله وجهادا للنفس . وهناك آيات تحث على تلاوة القرآن وتفهم معانيه : « قم الليل الا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا » ..

وكانت غاية المتصوفين الأول هى حمل النفس على الأشق . والعزوف عن متع الحس رجاء التعرض للفيض الالهى الذى حظى به الأنبياء المقربون نتيجة لما أخذوا به أنفسهم من رياضة النفس .

وقد دعا القرآن الى الذكر والرضا والطمأنينة وطهارة النفس والاخلاص ..

وفى القرآن كذلك من الاشارات والصور ما يفتح أمام الفكر مجالا فسيحا للتأمل فى الأسرار وما يفيض به عالم الغيب من اشراق روحى ونور .

فمن ذلك قصة موسى عليه السلام مع ذلك العابد الذى علمه الله من لدنه علما كان يشرح به أفعاله على غير المألوف اذ كان يأتى ما ظاهره معصية الله وهو فى الحق طاعة له وتنفيذ لارادته . ومثل المعراج بالرسول الى السماء وان الرسول قرب من الله فكان (قاب قوسين أو أدنى) .. واليك أيضا تصوير القرآن لما يدور من حوار فى الدار الآخرة بين أهل الجنة وأهل

النار ، يلتمس فيه الكفار النور من المؤمنين: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .

هكذا كان يدور تفكير المتصوفة الأول من المسلمين حول هذه الآيات ونظائرها ، وكانت مبادئهم فى جملتها تنحصر فى الورع والاعتكاف والعزوف عن مغريات المادة لكى يكونوا أقرب الى الله ولينعم الله عليهم بما أنعم به على أنبيائه . وكانوا لا يرون تنافيا بين النسك على هذا النحو وبين مبادىء الدين . اذ الاعتكاف وفرض نوع من الترهب أيام الحج مما يقره المسلمون جميعا ، وما التنسك طيلة القرون الأولى للاسلام فى أقسى حالاته الا امتداد لهذين المبدأين ..

وكان من الصحابة من هو على تلك الحال من النسك والزهد « كأبى الدرداء هويمر بن زيد الخزرجى » و « أبى ذر الغفارى » . وقد تضاعف عدد هؤلاء النساك فى التابعين وبخاصة بعد الفتن السياسية المختلفة التى ربما كانت عاملا من عوامل اليأس فى قلوب كثير من المؤمنين فى المجتمعات الاسلامية . فرعنوا عن الاشتراك فى أمور الدنيا ومالوا الى الزهد طلبا للسعادة فى العالم الآخر . عالم الكمال والخير . فكان زهدهم نوعا من الضيق بما يزخر به المجتمع من مآس . مثل « همام بن الحارث » و « أويس القرنى » و « علقمة بن قيس النخعى » وكانت البصرة أغنى الأمصار بهؤلاء الزهاد والنساك فى القرن الأول للهجرة ، كما أسلفنا . فمنهم عامر بن عبد الله بن عبد القيس العنبرى ، وبكر بن عبد الله المزنى ، والحسن البصرى . وكان فى البصرة من هؤلاء المتصوفة من هم ذو لسانين : عربى وفارسى . وكانت تجيد العربية اجادتها للفارسية . وكموسى الأسوارى الذى كان يشرح القرآن بالعربية والفارسية .. وهؤلاء الوعاظ والنساك كانوا القدوة الأولى للمتصوفين فيما بعد . اذ كانت مبادئهم فى العبادة واضحة تستمد أصولها من القرآن والحديث . وتنحصر فى جملتها فى الزهد والورع ، وترتيل القرآن والعكوف على عبادة الله وينقسم الصوفية السالكون الى الله تعالى الى قسمين :

١ — قسم سالك الى الله تعالى مهتد اليه بأنوار طاعته . يشير اليهم قول الله تعالى : « ان تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم » . والفرقان نور تثمره التقوى يستعين به المرء فتنقشع به ظلمة الجهل فى معرفة الله وبه يفرق السالك السائر الى الله تعالى بين الحق والباطل ويستبين له الصراط المستقيم .

وبقدر طاعة المرء وتقواه يكون نوره .. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : من عمل بما يعلم ورثه الله علم ما لايعلم . وهذا القسم ولاشك مفتقرون الى الأنوار ولا سبيل اليها الا بطاعة الحق والاقبال عليه ، لذلك كانت هدايتهم فى سيرهم الى الله بنور طاعتهم له فهم مهتدون اليه جل شأنه بأنوار توجههم اليه .

٢ — أما القسم الثانى . وهم الواصلون اليه سبحانه وتعالى ، فهؤلاء قد واجههم الحق تبارك اسمه وجل شأنه بأنواره بعد أن سلكوا السبيل اليه فجذبتهم أنوار مشاهدته الى عين التوحيــد ففنوا عن أنفسهم وكانوا لله لا لشىء دونه .

والفناء عن النفس يستتبع أمورا ثلاثة : فناء الارادة ، وفناء الصفات ، وفناء الذات .

أما فناء الارادة فهو تلاشى ارادة العبد فى ارادة سيده فلا يريد الا ما أراد ولا يتم ذلك للعبد حتى يعلم أن لكل شىء غاية ولكل غاية وسيلة وان الغاية من الايجاد هو والوسيلة فى بقائه الأكوان . فكل شىء فى الوجود انما خلق من أجله . وهو وحده خلق لله . ومن الضلالة أن يشغل المرء بما خلق من أجله عمن خلق من أجله .

قال تعالى : « خلق لكم ما فى الأرض جميعا » . « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه » .
واذا كان العبد مخلوقا فى الحقيقة لله فليس له فى نفسه حق مطلقا فلا يتصرف فى شىء ولا فى نفسه الا وفق ما أراد مالكه . ومراد الله بين فى كتابه وشرعه ، وما من فعل من الأفعال أو غاية من الغايات الا ولابد

أن يكون لله فيها حكم اما حلال واما حرام واما مندوب واما مكروه واما مباح .

وحتى ذلك المباح فى الحقيقة ما كان مباحا الا لأن حكم الله فيه الاباحة وهذا المباح قد قيده القوم رضوان الله عليهم ، بالورع ، فان استعمل بقصد الاستعانة على ما خلق المرء من أجله وكان وسيلة فى مراد الحق أخذ ولاشك حكم الغاية فتنقلب عادات المرء عبادة وتكون حركاته وسكناته قربانا عند الله اذ لا يفعل ذلك لهواه والا لم يعد عليه من حظ آجل أو عاجل . وانما قام به على أنه مراد الله منه ايمانا ويقينا . يقول الله تبارك وتعالى : « وما كان لمؤمن ولا لمؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . وقضاء الله شامل للأحكام التنزيلية والأمور الكونية معا . ورحم الله خير من تحقق بهذا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمير المؤمنين « عمر بن الخطاب » رضى الله عنه اذ يقول : أصبحت ومالى سرور الا فى مواقع القدر .

ومن كان هذا شأنه لا يريد الا ما أراد له سيده وشاهد الحال فيه ينادى : « قل ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

ثم ان لفناء العبد فى ارادة سيده على هذا النحو ثمرة بينها لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على لسان الحضرة الالهية حيث قال فيما يرويه لنا البخارى . وما تقرب الى عبدى بشىء أحب الى من أداء ما افترضته عليه وما زال عبدى يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه ، ومتى أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى عليها الى آخره .

فثمرة الطاعة — اذن — هى محبة المعبود للعباد . قال تعالى : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . ولفظ المحبة اذا أطلق على العبد كان بمعنى واذا أطلق على الحق كان ولا شك بمعنى آخر فالمحبة من العبد هى تعشق النفس لاستكمال ما فقدته من كمال وهذا لا يجوز أن يتصف به الحق اذ أنه الواهب للكمال ولا يجوز عليه النقص سبحانه .

وأما محبة الحق لعبده فيرجع معناها الى مسارعة الحق تبارك وتعالى الى كشف الحجاب الحائل بينه وبين عبده لينعم المحب بمشاهدته وقربه . ولكن هل يشهده المحب أو يراه بنفسه ؟ وأنى للحادث أن يرى القديم؟هذا محال . — اذن — فلا بد أن يراه به حال تحققه بمقام .. كنت سمعه وبصره ، نعم يشهد الحق بالحق فى حال فنائه عن نفسه بربه اذ لا يشهد الله الا الله . وقد عبر عن ذلك أحد العارفين بقوله :

اذا رأيت حبيبى بأى عين أراه
بعينه لا بعينى فلا يراه سواه

وقال آخر :

يا شاهد الذات منك الذات بادية
منها لها فلأنت الجزء والكل

ومتى تم ذلك للعبد تبين له ان ما كان مضافا اليه من قبل من سمع وبصر وقوة وادراك فى حال حجابه انما هو الله من حيث تنزله وظهوره ، وللعبد اضافة واسناد . وكان الظهور فيه بحكم القابل منه ويخرج من حكم القيد البشرى الى حظيرة الاطلاق الصفائى لله فيدرك الأشياء على ما هى عليه فى نفس الأمر الواقع ولا أقول انه يعلم كل ما يعلمه الحق أو يدرك كل ما امتد اليه بصره اذ أن ذلك محال ومتوقف على مدى استعداده وصحة فنائه فى الله .

وقد تحقق بذلك بعض الصفوة من الأمة المحمدية وظهر أثره فيما كان من أمر « عمر » رضى الله عنه وسارية اذ يناديه عمر من على منبره بالمدينة ويسمعه سارية وهو بمصر . فان لم يكن ذلك عن رؤية من عمر لم تحجبه فيها الكشافات الحسية والبعد الشاسع بين المكانين فكيف تكون اذن ؟

وما كان من أمر عثمان رضى الله عنه اذ دخل عليه رجل وكان قد نظر الى امرأة فى الطريق غير محرم فشاهد أثر المخالفة الشرعية على عينيه فقال عثمان : أيدخل على أحدكم وأثر الزنا فى عينيه ؟ فيقول الرجل : أوحى بعد رسول

الله ؟ فيقول : لا ولكنها بصيرة وبرهان وفراسة صادقة . فهو ينظر بنور الله فيه ولم يكن ناظرا اليه بنفسه — واذن — ففى الأمر قوة أخرى غير قوة البشر المحدودة التى لا ترى الا الى حد ولا تبصر الا ما كشفته الكشافات .

وبعد .. ففناء صفات العبد ثمرة الحب الالهى . وللامام أبى بكر الكتانى فى ذلك قول يرويه لنا عن الامام الجنيد رضى الله عنه فيقول : جرت مسألة بمكة أيام الموسم فى المحبة فتكلم الشيوخ فيها وكان الجنيد أصغرهم سنا فقالوا له : هات ماعندك يا عراقى فأطرق ساعة ودمعت عيناه ثم قال : عبد زاهد عن نفسه ومتصل بذكر ربه . قائم بأداء حقوقه ناظر اليه بقلبه أحرق قلبه أنوار هيبته وصفا شربه من كأس وده وانكشف له الجبار من أستار غيبه فان تكلم فبالله وان نطق فمن الله وان عمل فبأمر الله وان سكن فمع الله فهو لله ومع الله .. فبكى الشيوخ وقالوا : ما على هذا مزيد جبرك الله يا تاج العارفين .

ففناء الصفات انما هو الخروج بالله من حكم القيد البشرى الى حظيرة الاطلاق الصفائى ومن ثم يكون الله لك وهو النور فشتان بين السالك والواصل . السالك للأنوار والواصل السالك للأنوار .

والواصل له النور لفقدان الطلب بحكم الفناء وتحقق الوصل . ثم التمكن فى مقام الوصل يقتضى ارجاعك منك اليه ذاتا فلا تشعر بوجودك . وانما تشعر بقيومية الحق لك فأنت العدم من حيث أنت وهو القائم بنفسه والمقوم لك : « الله لا اله الا هو الحى القيوم » . قال « شقيق البلخى » لتلميذه « حاتم الأصم » : لقد دامت صحبتنا ثلاثين عاما ، فما أثر هذه الصحبة فى نفسك وما استفدت منها ؟ قال حاتم : لقد تعلمت منك واستفدت ثمان مسائل .. فقال شقيق : انا لله وانا اليه راجعون . ذهب عمرى معك . ولم تتعلم الا ثمان مسائل ؟ قال حاتم : يا أستاذى أنا صادق فيما أقول لم أتعلم غيرها ولا أحب أن أكذب فقال له : هات الثمان مسائل حتى أسمعها . قال حاتم :

١ — نظرت الى هذا الخلق : فرأيت كل واحد منهم يحب محبوبا فهو محبوب الى الغير فاذا وصل اليه فارقه فجعلت الحسنات باب محبوبى

فاذا دخلته دخل محبوبى معى . فقال : صدقت يا حاتم فما الثانية ؟
قال :

٢ — نظرت فى قول الله تعالى عز وجل : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى » فعلمت أن قول الله تعالى هو الحق . فأجهدت نفسى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . قال : صدقت . وما الثالثة ؟
قال :

٣ — فانى نظرت الى هـــذا الخلق ، فرأيت كل من معه له قيمة عنـــده ومقدار رفعه وحفظه . ثم نظرت الى قوله تعالى : « ما عندكم ينفد وما عند الله باق » . فكلما وقع لى شىء له مقدار وقيمة وجهته اليه ليبقى لى عنده قال : صدقت وما الرابعة ؟
قال :

٤ — نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يرجع الى المال والحسب والشرف والنسب فاذا هى لا شىء . ثم نظرت الى قوله تعالى : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » فعملت فى التقوى حتى أكون عند الله عز وجل كريما . قال : صدقت .. وما الخامسة ؟
قال :

٥ — نظرت الى هذا الخلق ، وهو يطعن بعضهم فى بعض ، ويلعن بعضهم بعضا . وأصل هذا كله الجدل . وشدة الخصومة . ثم نظرت الى قوله تعالى : « نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا » فتركت الجدل ، واجتنبت الخلق وعلمت أن القسم عند الله سبحانه وتعالى وتركت عداوة الخلق . قال : صدقت . وما السادسة ؟
قال :

٦ — نظرت الى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ، ويقاتل بعضهم بعضا . فرجعت الى قوله تعالى : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » . فعاديته وحده ، واجتهدت فى أخذ حذرى منه ، لأن الله سبحانه وتعالى

شهد عليه انه عدو . وتركت عداوة الخلق عنى . قال : صدقت .. وما السابعة ؟

قال :

٧ — نظرت الى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكثرة بذل نفس ، ويدخل فيما لا يحل له ، ثم نظرت الى قول الله تعالى : « وما من دابة فى الأرض الا على الله رزقها » فاشتغلت بما لله على وتركت مالى عند الناس . قال : صدقت .. وما الأخيرة ؟

قال :

٨ — نظرت الى هذا الخلق فرأيتهم متوكلين ، هذا على بضاعته ، وهذا على تجارته ، وهذا على صنعته ، وهذا على صحته ، وهذا مخلوق متوكل على مخلوق فرجعت الى قول الله عز وجل : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » .

فتوكلت عليه فهو حسبى ونعم الوكيل . فقال شقيق : يا حاتم ، وفقك الله تعالى . فانى نظرت فى التوراة والانجيل والزبور والفرقان فوجدت جميع أنواع الخير تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة .

هذا ، ودعت الجامعة الأمريكية بالقاهرة صديقى وزميلى فى رحلة حج بيت الله الحرام عام ١٣٦٥ هـ الدكتور « غلوش(١) » ، رئيس جمعية منع المسكرات ، ليلقى محاضرة اسلامية بالانجليزية ، بقاعة الدراسات الشرقية على صفوة من رجال الجاليات الأجنبية لتوثيق الصلات الثقافية بين العالمين الشرقى والغربى ، فلبى سيادته الدعوة وألقى خلاصة مركزة لموضوع رسالته عن التصوف الاسلامى . نشأته ورسالته . قال :

لقد قرأت عدة مصنفات لفضلاء المستشرقين من الغربيين فألفيتها فى كثير من مواطنها بعيدة عن محجة الصواب ، فمن ذلك ما يزعمون من أن الصوفية والتصوف دخيلان على الاسلام ، غريبان عنه ، وأنه انما جاء بهما

(١) حصل الدكتور على الدكتوراه بمرتبة الشرف من جامعة لندن عام ١٩٣٩ وكان موضوع رسالته « التصوف الاسلامى »

الأعاجم من الفرس ، قصدا منهم الى تشويه الدين ، ويزعمون أيضا أن أصل التصوف يرجع الى العلوم الآرية من الفارسية والبوذية ونحوهما ، ويقولون غير ذلك من المزاعم التى لا أصل لها .

فالتصوف ، وان كان لبعض الفرس المسلمين شأن كبير فى تدوينه وحمل لوائه فهو لا يمت الى المبادىء والمذاهب الآرية أو البوذية بأدنى سبب وشتان ما بين الناسك البوذى الذى يزعم انه سلوك طرق خاصة من الرياضة وتهذيب النفس ينمحى عنه فى النهاية وصف الآدمية ويصبح بوذا بنفسه أى الها قد انحلت عنه صفات البشرية وبين المسلم المتصوف الذى يعبد الله وحده طبقا لأحكام الاسلام ومبادىء الدين الحنيف ثم هو يقوم فوق الفروض المقررة بأنواع من الرياضات الروحية المشروعة المسنونة أساسها الزهد والورع والتقوى ، وغايتها أن يصير بها أهلا للفوز برضوان ربه ، والدخول فى حضرته ، وتذوق طعم الايمان بالوجدان .

وكثيرا ما خلط المستشرقون بين المتصوفين والمشعوذين ممن يأتون بما يشبه السحر وضروب الأحاجى . ويعرفون عندهم باسم أصحاب الأسرار الخفية ، وترجع أسباب هذا الخطأ الى أن المتصوفين ، كانوا ولا يزالون يعرفون بأهل الباطن وأرباب الأسرار الذوقية . فظن أولئك المستشرقون أن أسرار الصوفى هى أمور خفية يحرص على حجبها عن أعين الناس ، كما هو الشأن عند أهل الشعوذة ، مع أن حقيقة معنى الأسرار عند الصوفيين ، انما هى الحقائق التى تنطوى عليها ظاهرات الأشياء والحكمة التى يتذوقونها من القيام بالأحكام والشرائع . فهذه الأذواق والمواجيد لا يستطيع الصوفى أن يعبر عنها لأحد لا لأنه يريد اخفاءها عن الناس ، بل لأنها فوق متناول الوصف والبيان اذ هى أمور ذوقية لا تعرف الا بالذوق والوجدان ومثلها كمثل حلاوة سكر القصب ونحوها مما لا سبيل الى ادراكه بغير التذوق .

ولئن كان من السهل على الفقيه والمحدث وكل عالم أن يشرح لغيره الفقه والحديث والعلم الذى أصابه ، فانه من العسير على الصوفى أن يبين لعامة الناس أسرار الأنوار القدسية ، والفيوضات الربانية التى تفيض على قلبه ثمرة عبوديته واقباله على ربه ورياضاته الروحية .

على أنه مما يؤسف له جد الأسف ، وجود طوائف من الناس فى الشرق ينسبون أنفسهم الى الطرق الصوفية ، وما هم منهـا فى شيء ، وهؤلاء قد يأتون بضروب من الهمهمة والتمتمة والايحاء الذاتى ، ويركنون الى التنجيم والطوالع والجفر وادعاء معرفة الغيب ، فكانوا بذلك نكبة على المتصوفة وسببا دعا بعض المستشرقين الى الحملة على طريق التصوف . كما دعا آخرون الى القول بأن التصوف ليس فى شيء من الدين بيد أن من يدرك سنة النمو لا بد أن يعرف أنه كثيرا ما يوجد الى جانب النبـاتات النافعة والأعشـاب الصالحة حشائش أخرى تنمو حولها ولا مندوحة من استئصالها حتى لا تعدو على النبات الطيب فتفسد عليه أمره .

ولئن كان كل متصوف لا بد أن يستمد قواعد سـلوكه الروحى من مبادىء الاسلام وتعاليمه الصحيحة ، فهناك فرق كبير بين المسلم الصوفى والمسلم العادى ذلك بأن ايمان الأول تحقيقى ذوقى ، فى حين أن ايمان الثانى يغلب أن يكون تقليديا وراثيـا ، انحـدر اليه من الآباء أو جاءه من طريق التلقين أو التعليم أو أصابه بحكم الوسط والبيئة التى يعيش فيها دون أن يعرف السر فى ضرورة اعتناقه لهذه أو تلك من المعتقدات الدينية التى لا بد منها لنجاته فى الآخرة . وقد يظل القلب تخامره الشكوك والريب فى كثير من المعتقدات ، ويظل العقل يطالب صاحبه بوضع حد لها والتخلص منها .

ولهذا كان لا غنى لسالك طريق التصوف عن شـيخ خبير بمغـاور الطريق المؤدى الى تذوق حلاوة الايمان والاطمئنان الى صـحة السير على أن يكون هذا المرشد أو الخبير هو الآخر قد سلك طريق التصوف على شيخ آخر سبق له سلوكها وأصبح قادرا على هداية غيره اليها ، كراكب البحر يريد الوصول الى بلد بعيد فلا مندوحة له من الاسترشاد بربان ماهر يقدر على أن يقود السفينة وركبها الى ذلك البلد فى أمن وسلام . ومن ثم نشأت طائفة مشايخ الطرق والسالكين فيها لارشاد المريدين الى الطريق حتى لا يضلوا السبيل . وكما أن أطباء الأجسام لابد من الاستعانة بخبرتهم على شفاء العلل والأسقام ، فكذلك لابد لمرضى القلوب من الاسترشاد بالمشايخ للتخلص من أمراض القلوب .

ولابد لمريد الوصول الى الله تعالى عن طريق التصوف من مجاهدة نفسه وتصفية باطنه من أدران الشهوات الحيوانية والملاذ الجسمانية فضلا عن البعد عن الوقوع فى الذنوب والخطايا مما نهى عنه الشارع الحكيم ، وذلك لا يتم له الا بارشاد شيخ عارف بأمراض القلوب وكيفية تطهرها من بوائق الملاذ والشهوات ، وبذلك يتم للمريد اكتساب المعارف الربانية التى يهتدى بها قلبه ويطمئن خاطره ويسكن باله ، اذ يشعر شعورا باطنيا انه قريب من حضرة مولاه سبحانه وتعالى .

ولا يمكن البتة الحصول على شيء من الحكمة الالهية والأسرار القدسية الا بتصفية القلب من الحظوظ الدنيوية حتى تنجلى بهذه التصفية مرآته وتصير بحيث تنعكس عليها الأنوار الروحية والفتوحات الربانية .

وعند المتصوفين أن الانسان لم يخلق فى هذه الدنيا عبثا ولا صدفة . وانما خلق لغاية سامية ، وان جسمه وان كان خسيسا أرضيا ، فان روحه شريفة علوية . وان جسمه وان كان سيفنى بموته ، فان هذه الروح ستبقى بعد الموت خالدة الى الأبد . فاذا ما تطهر المرء فى بوتقة الزهد والتقوى من أدران الشهوة والحظوظ العاجلة الفانية ، وسلك سبيل الرياضة الروحية الشرعية ، فانه ليبلغ بذلك أسمى مراتب الرقى الباطنى ويصبح وقد تحولت صفاته الى ما يشبه صفات الملائكة ، فلا يرى سعادة ولا هناءة ولا غبطة الا فى عبادة الله والتسبيح بحمده ، فاذا أعطاه شكر ، واذا ابتلاه صبر ويصبر ولا هم له فى الدنيا الا طاعة مولاه ، حتى تصبح هذه الطاعة سجية له وغريزة فيه ، ولا ينفك عنها بأى حال من الأحوال ، فلا يلبث المريد أن يرى فى كل ما أمر الدين به حكمة خفية سامية ، ويرى مثل ذلك فى كل ما نهى عنه الدين وعند ذلك يدرك السالك معنى قوله تعالى فى القرآن الحكيم : « واتقوا الله ويعلمكم الله » ، وقد تطور التصوف فى الاسلام على مدى الأجيال حتى صار علما قائما بذاته يسترشد به الخلق الى سبيل الحق ، وتتحول به صفاتهم البشرية الى صفات شريفة ملائكية ، ويتذوقون به طعم الايمان بالقلب والوجدان .

وقد بدىء بتدوين هذا العلم وتهذيب حواشـــيه ، ونظمت مبادئه ورتبت آدابه فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة النبوية وأبحاثه واسعة النطاق فيمـــكن حصرها فى ســـتة موضوعات أو مباحث عامة وهى معرفة الانسان نفسه ، ومعرفة الله تعالى ، ومعرفة حقيقة الدنيا ، ومعرفة أحوال الآخرة ، ومراقبة النفس ، وايثار حب الله على كلّ ما سواه .

ويقول العلامة الصوفى الكبير « أبو نصر السراج » فى « اللمع » : وأقرب ما يقول أهل الصفوة ، التصوف فى الرسول عليه الصلاة والسلام أنه عبد وحد ، لا يجوز لأحد أن يدركه فى جميع ما خص به .

وسئل « أبو يزيد البسطامى » : هل يزيد أحد على النبى عليه الصلاة والسلام ؟

فقال : وهل يدركه أحد .

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعل من فوقى نورا ، ومن تحتى نورا ، وعن يمينى نورا ، وعن شمالى نورا ، ومن ورائى نورا ، ومن قدامى نورا ، ومن خلفى نورا . اللهم اجعل فى قلبى نورا ، وفى بصرى نورا ، وفى سمعى نورا ، وفى عظمى نورا .

قالوا : الدليل على أن الله أعطاه ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : والله انى لأراكم خلف ظهرى كما أراكم قدامى .

ومن المستشرقين الذين درسوا التصوف الاسلامى ، واستهواه ما فيه من عمق ومعرفة ، ومن هدى ونور ، فأقبل عليه بذوقه وقلبه وعقله ينشد عنده الطريق واليقين هو الدكتور « مارتن لنجز » أستاذ اللغة الانجليزية بالجامعة المصرية سابقا والمشرف حاليا على أكبر مكتبة فى العالم « مكتبة المتحف البريطانى بلندن » .

وعلى المعراج الصوفى وصل « الدكتور لنجز » الى الله ، فاجتبـاه سبحانه وهداه الى الاسلام ، ومن ثم أصبح الدكتور « لنجز » البريطانى الدكتور « أبو بكر سراج الدين » ، العالم الصوفى الذى يبشر بالروحانية الاسلامية فى آفاق الغرب ، وربوع الشرق داعيا البشرية كافة الى هـــذا

الرحيق المختوم ، والنبع السلسبيل ، والنور الالهى المبين ، الذى يملك وحده انقاذ البشرية من الجاهلية المادية التى ألحدت وتمردت وأخذت تبتعد عن الله وعن هداه .

وتتابعت جولات الدكتور المسلم الصوفى الداعية فى أرجاء العالم ثم جاء سيادته الى القاهرة عاصمة الفكر الاسلامى ليحصل لمكتبة المتحف البريطانى على المؤلفات الصوفية الحديثة وليلتقى بأئمة الروحانية الصوفية عام ١٩٦١ ميلادية .

ويقول الدكتور عن كيفية اهتدائه الى الاسلام : لقد جذبنى التصوف الى الاسلام ، جذبنى بما فيه من مثل انسانية ، وآداب ذوقية ، وفهم صحيح واضح للانسان ولله ، والعلاقة بينهما ، وهى علاقة لم تحدد ولم ترسم فى أى ثقافة أو عقيدة ، كما حددت ورسمت فى التصوف الاسلامى .

لقد استهوانى فى الحاح عنيف حبيب ما فى التصوف من معراج ذوقى يربط الانسان بالله ويصله به فى نفحات تعبدية حية ، وفى أشواق قلبية متقدة ، يحيط بكل هذا أفق من الرضا والأنس والحب والفيض الحى الذى يغمر كل شىء .

كما استهوانى ذلك المجتمع الطاهر الفاضل بعلاقاته الانسانية الروحية المجتمع الذى يصوغه المنهج الصوفى ويقيمه على أخوة عالمية ربانية ، تطبع كل شىء فى الكون بطابعها ولونها .

والحق أننى لم أجد فى المسيحية ولا فى غيرها ما يقارن بالتصوف الاسلامى ، وأرى أن هدف الرهبنة ، وهدف الطريق الصوفى مختلف جدا سلوكا ومعرفة ، وتذوقا وذوقا ، ثم هناك الصلة التى تربط الشيخ بمريده . وهذا المدد الروحى الحقيقى الذى يحسه كل سالك للطريق اذا وفق الى شيخ فيه تلك النفحة العجيبة التى توهب حينا وتورث أحيانا .

ولقد ذقت هنا هذا المعنى وعشت فيه ، فقد اتصلت وأنا بالمغرب بالشيخ « الدرقاوى الشاذلى » وفى تونس اتصلت بشيوخ الشاذلية، وزرت مغارة الامام الشاذلى التى كانت مقرا لاعتكافاته ومجاهداته .

كما اتصلت فى الشمال الافريقى بالطريقة العلوية الشاذلية وهى فرع من الدرقاوية . فالشيخ «محمد الفاسى» أخذ من الشيخ حمزة طاهر المدنى الذى أخذ من مولانا الشيخ الدرقاوى .

ولقد أوضحت هذه المعانى فى كتاب لى تحت الطبع تقدمت به لجامعة أكسفورد لنيل دكتوراه جديدة فى العلوم الاسلامية ، وقد تناولت فى هذا الكتاب الحياة الروحية للشيخ أحمد العلوى المستقانى الجزائرى ، وفى الفصول الأخيرة من الكتاب نشرت رسائل الشيخ وديوانه وهما من عيون التراث الصوفى .

وقال الدكتور : ان عصر الصحابة لا مقارنة بينه وبين أى عصر من بعده ، وروح هذا العصر وامتداده لا يوجد الا فى التصوف . ومن هنا كان لنا أن نقول : ان التصوف هو مثالية الاسلام ، وان الصوفية هم التطبيق العملى لهذه المثالية .

ولقد أخطأ رجال الاستشراق خطأ كبيرا فى دعواهم أن التصوف الاسلامى استمد أصوله من الثقافات غير الاسلامية .

فأساس التصوف نجده فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث النبوية ، وفى منهج الرسول ، وفى حياة الصحابة .

والقرآن بما يدعو الى ذكر الله والى الاستغفار والتوبة والانابة والاستقامة والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاقتداء به ، نرى أن الصوفية هم الذين قاموا بهذا واجتهدوا فيه وتخصصوا أكثر من أى طائفة أخرى .

والاعتكاف مثلا لم أسمع به الا عند الصوفية ، وكذلك مجالس الذكر والمداومة على العبادة والاستغفار ، وتطهير الجوارح ، وتنقية القلب ، ورياضة الروح .

والحجاز اليوم لا يوجد فيه اعتكاف ، لأنه لا يوجد فيه اعتراف بالتصوف ، ولا يوجد به أيضا أولياء ، لأن الولاية لا تنبت الا فى البيئة الصوفية .

وقال : المستشرقون يتظاهرون بحب التصوف الاسلامى ، ويسرون فى الحديث عنه ، ولكنهم لا يفهمون هذه العقيدة ، و لايتــذوقون هذا المنهج ولو فهموا أو تذوقوا لأسلموا وتصوفوا .

وماشيثون الذى تخصص كما يقول فى دراسة « الحلاج » يتجاهل كلمات « الحلاج » التوحيدية ، ليثبت انه لم يكن موحدا على مذهب وحدة الوجود .

ان لهم أغراضا وأهدافا فيما يكتبون عن التصوف ، ولقد سمعت من « ماشيثون » أنه رجع الى دينه عن طريق التصوف .

والتصوف شىء كلى ، وماشيثون كمسيحى لا يمكن أن يفهم التصوف فهما حقيقيا ، ولهذا تجد أكثر المستشرقين يميلون الى شىء من انــكار التصوف وهم لا يشعرون ، وهذا « نيكلسون » يقول انه يحب التصوف وهو ينشر رسائل ابن تيمية ويعجب بها ؟.

والأستاذ « اربرى » بكمبردج يحترم التصوف ككل ، ويلمزه فى كثير من رسائله ومعارفه ولقد نشرت بالمجلة الاسلامية بلندن مقالا تحدثت فيه عن أصول التصوف ورددت فيه على دعاوى المستشرقين ، وكتبت فيه فصلا عن مذهب وحدة الوجود ، أردت أن أثبت فيه أن الشــيخ الأكبر « محيى الدين » قدس الله سره ، لم يكن هو المؤسس لهذه العقيدة كما يزعم رجال الاستشراق ، فهذه العقيدة توجد فى الاسلام منذ يومه الأول . ولكن بعبارات أخرى .

وتوجد أيضا فى القرآن الكريم : « أينما تولوا فثم وجه الله » .. «كل شىء هالك الا وجهه » .. « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام » .

والامام الغزالى حجة الاسلام يثبت هذا المذهب فى رسالته « مشكاة الأنوار » قبل فصوص الحكم « محيى الدين » بمائة عام .

وهذه العقيدة يعبر عنها بصعوبة ، انها ذوقية لا عقلية ، يقول الشيخ الأكبر :

كنت جالسا فى حال الذكر فاذا بهاتف يقول لى : قل هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فقال : ثم كرر الهاتف قوله ثلاث مرات ، فقال محيى الدين : أفهم الأول وأفهم الآخر ، وأفهم الباطن ولا أفهم الظاهر ، لأننى لأرى الا الأشياء المخلوقة ، فقال الهاتف : لو كان ظاهرا غيره لكنت قلت لك ، فلا ظاهر سواه .

وفى دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام : أنت الظاهر ولا فوقك شيء .. ومعنى فوق لابد أن يكون ليس عليك غطاء ، أى لا ظاهر سواه .

وفى الحديث الشريف كان الله ولم يكن معه شيء ، وهو الآن على ما هو عليه . فهل يوجد من ينكر هذا ؟

انه الآن على ما كان عليه ، أى لا سواه ، حتى العالم الظاهر لايتجاسر أن ينكر ؟

وهل يمكن أن نزيد شيئا ؟ وهل يمكن أن نضيف جديدا الى الله سبحانه ثم الاسم سبحانه وتعالى « الحق » يدل على أنه لا حق الا الحق .

وكما نقول : لا اله الا الله ، نقول لا حق الا الحق ، فاذن لا يوجد فى الحقيقة أى شيء غير الله .

وأنا لا أميز بين أئمة التصوف القدامى ، لأننى أقول : لا نفرق بين أحد منهم ، لأن من يفرق بين : « الجنيد والغزالى والحلاج ورابعة العدوية والشاذلى وابن الفارض » انما يفرق بين أجزاء الحقيقة الواحدة .

وأذكر أننى حينما كنت فى تونس ، كنت أناقش السيد حسنى عبد الوهاب الوزير التونسى السابق ، وهو شاذلى ، وكان يقارن بين محيى الدين والسيد أبو الحسن الشاذلى ويفضل الثانى على الأول مع اجلاله العظيم لمحيى الدين ، كنت أناقشه فى هذه التفرقة وأنكرها عليه ، وأنا لا أحب هذا من أى صوفى ولا أرضاه فى الدراسات الصوفية الحديثة .

وتكلم الدكتور عن التصوف بقوله : والتصوف هو الاحسان كما عرفه الرسول عليه الصلاة والسلام : أن تعبد الله كأنك تراه ، وكلمة « تعبد » تدل على مداومة العبادة ، أى أن تكون عبدا قائما لله فى مقام

الاحسان ، وفى عصر النبى عليه الصلاة والسلام كانت قلوب الصحابة منيرة بنور النبى عليه الصلاة والسلام فاستغنوا عن الطريق .

وفى أعقابهم جاء التابعون يتلألأ بينهم بقية من هذا النور ، ثم ابتدأ شيء يشبه الطرق ، زاوله « الحسن البصرى » ، كان حوله تلاميذ يرشدهم ويوجههم ، ثم اقتضت الضرورة أن يوجد هذا التنظيم الدقيق ليتولى الارشاد العام .

والطرق كالمذاهب الفقهية ، ولكن على مستوى أعلى ، فاسلام الطرق على مستوى الاحسان ولابد من الاثنين معا ، وكان سيدنا « أحمد العلوى » يقول : المشايخ الصوفية هم مجتهدو الاحسان ، والأئمة الأربعة هم مجتهدو الاسلام . والأشعرى مجتهد الايمان .

ويحضرنى بهذه المناسبة أن جريدة فى الجزائر كانت تتعرض دائما للطرق الصوفية ، وكان العلماء يردون عليها ، وأذكر بيتا جميلا من قصيدة رائعة فى الرد على هذه الجريدة وهو :

يا ناطح الجبل العالى لتوهنه

أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

ولاشك أن العالم الاسلامى فى عصرنا أحوج ما يكون الى هذه الطرق ، وأحب أن أقول : ان رجال الفكر كافة يقدرون التصوف الاسلامى ويحترمون الاسلام احترامهم للتصوف .

وقد طفت بكثير من بلاد آسيا ولمست أثر التصوف والطرق فى حياة المسلمين ونشاطهم .

ان الطرق قوة كبرى بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ومستقبلهم ، وحينما كنت فى نيجيريا كنت أرى أبناء الطرق الصوفية هم الذين يعمرون المساجد والأندية ، وفى كافة العواصم الافريقية كنت أرى هذه الظاهرة .

وفى السودان والمغرب اتصلت بالطرق الكبرى ، كما اتصلت بالقادرية والتيجانية عن طريق الشيخ الفاتح قريب الله ، ورأيت الآمال الكبار ، التى تملأ الصدور والقلوب وللطرق الصوفية أثرها الضخم فى « مقاومة

الاستعمار » والتبشير ثم أثرها فى نشر الاسلام خصوصا فى الهند وجاوه والشرق الأقصى وافريقيا .

وقال الدكتور أبو بكر : ان التصوف عندى هو وحده القادر على انشاء جيل عربى اسلامى مزود بالغزوات القوية وبالاخلاق الفاضلة ، جيل متمسك بالعروة الوثقى ، وبالمثاليات العليا ، جيل متطهر من مادية الغرب والحاده وانحلاله ، ويؤسفنى أن أقول ان كثيرا من الشباب فى الشرق لا يزال رغم تحرر أرضه مستعمرا للغرب فى تفكيره وعواطفه وأخلاقه ، ويستطيع التصوف اذا تزود به الشبان أن يملأ هذا الفراغ النفسى ، وأن يطرد من قلب الشباب تراث الغرب والحاده وانحلاله ، بل يستطيع التصوف فوق هذا أن يمد يده المنجدة للانسانية كافة لينتشلها من هذه النكسة التى تدمر روحه وتهبط بمثله ، وتبعده عن الله ورسالاته .

ان التصوف الاسلامى يمثل الحقيقة الربانية العليا التى ترفع الحجب انه الحل الوحيد لكافة المشاكل الفلسفية والمذهبية التى تحيل الانسان الى آلة تدمر نفسها وتدمر من يحيط بها .

اننى أوربى وقد وجدت خلاص روحى ونجاتها فى التصوف ، ويستطيع كل عربى أن يجد ما وجدت اذا وجد الدعاة والهداة ، وتلك هى رسالة الصوفية فى هذا العصر .

أما العلامة الفرنسى « رينيه جينون » فيقول فى التصوف الاسلامى والطرق الصوفية :

ربما كانت العقيدة الاسلامية من بين العقائد الموروثة هى العقيدة التى يظهر فيها بوضوح التفرقة بين جزأين متكاملين هما «الظاهر والباطن» أعنى « الشريعة » وهى الباب الذى يدخل فيه الجميع و « الحقيقة » ولا يصل اليها الا المصطفون الأخيار . وهذه التفرقة ليست تحكمية ، وانما تفرضها طبيعة الأشياء . وذلك أن استعداد الناس يتفاوت وبعضهم معد بفطرته لمعرفة الحقيقة ، وكثيرا ما تجدهم يشبهون الشريعة والحقيقة بالقشر واللب أو بالدائرة ومركزها ، والشريعة تتضمن فضلا عن الناحية الاعتقادية ، الناحية التشريعية والناحية الاجتماعية ، وهما جزءان لا يتجزءان

عن الدين الاسلامى ، انها أولا وقبل كل شيء قاعدة السلوك . أما الحقيقة فانها معرفة محضة ، ولكن يجب أن نعلم أن هذه المعرفة هى التى تعطى للشريعة معناها السامى العميق بل هى التى تبرر وجود الشريعة . انها حقيقة وان لم يشعر بذلك المؤمنون ، المركز الأساسى ، مثلها فى ذلك مثل مركز الدائرة بالنسبة لمحيطها .

بيد أن « الباطن » لا يعنى فقط الحقيقة وانما يعنى كذلك السبل الموصلة اليها ، أعنى الطرق التى تعود بالانسان من الشريعة الى الحقيقة .

واذا رجعنا الى الصورة الرمزية ، الدائرة ومركزها ، قلنا : ان الطريقة هى الخط الذاهب من محيط الدائرة الى المركز ، وكل نقطة على محيط الدائرة هى مبدأ الخط . وهذه الخطوط التى لا تحصى تنتهى كلها الى المركز . انها الطرق وهى طرق تختلف تبعا لاختلاف الطبائع البشرية ،ولهذا يقال : الطرق الى الله كنفوس بنى آدم .

ومهما اختلف ، فالهدف واحد ، لأنه لا يوجد الا مركز واحد ، والا حقيقة واحدة ، على أن هذه الاختلافات الموجـودة فى المبدأ تزول شيئا فشيئا مع زوال الأسباب . وذلك حينما يصل السالك الى درجات عليا تزول فيها « صفات العبد » التى ليست الا سجنا « للفناء » فلا تبقى الا الصفات الربانية ، وقد تحققت « الذات » بها « البقاء » .

والطريقة والحقيقة مجتمعان يطلق عليهما : التصـوف . وهو ليس مذهبا خاصا ، لأنه الحقيقة المطلقة ، وليست الطرق مدارس مختلفة ، لأنها طرق ، أى سبل موصلة جميعها الى الحقيقة المطلقة « التوحيد واحد » .

ويجب أن يلاحظ انه لا يمكن لأحد أن يطلق على نفسه أنه صوفى ، اللهم الا اذا كان ذلك منه جهلا محضا ، لأنه بذلك يبرهن على أنه حقيقة ليس بصوفى ، وذلك أن هذه الصفة « سر » بين الصوفى حقيقة وبين ربه . ويمكن أن يقول الانسان عن نفسه أنه متصوف ، وهو عنوان يطلق على «السالك» فى أى مرحلة كان ، ولكن الصوفى بمعناه الحقيقى لا يطلق الا على من بلغ الدرجة العليا ، أما أصل هذه الكلمة « صوفى » فقد اختلف

يه اختلافا كبيرا ، ووضعت فروض متعددة ، وليس بعضها بأولى من بعض
كلها غير مقبولة ، انها فى الحقيقة تسمية رمزية واذا أردنا تفسيرها ينبغى
علينا أن نرجع الى القيمة العددية لحروفها . وانه لمن الرائع أن نلاحظ أن
القيمة العددية لحروف صوفى تماثل القيمة العددية لحروف « الحكمة
الالهية » انه « العارف بالله » اذ أن الله لا يعرف الا به . وتلك فى الدرجة
العظمى « الكلية » فيما يتعلق بمعرفة الحقيقة ..

من كل ما سبق يمكننا أن نستنتج أن الصوفية ليست شيئا أضيف الى
الدين الاسلامى .. أو أنها ليست شيئا أتى من الخارج فألصق بالاسلام
وانما هى بالعكس تكون جزءا جوهريا من الدين اذ أن الدين بدونها يكون
ناقصا بل يكون ناقصا من جهته السامية أعنى جهة المركز الأساسى . لذلك
كانت فروضا رخيصة تلك التى تذهب بالصوفية الى أصل أجنبى يونانى
أو هندى أو فارسى . وهى معارضة بالمصطلحات الصوفية نفسها ، تلك
المصطلحات التى ترتبط باللغة العربية ارتباطا وثيقا . واذا كان هناك من
تشابه بين الصوفية وبين ما يماثلها فى البيئات الأخرى فتفسير هذا طبيعى
لا يحتاج الى فرض الاستعارة . وذلك أنه ما دامت الحقيقة واحدة فان كل
العقائد السنية تتحد فى جوهرها ، وان اختلفت فيما تلبسه من صور
ويجب ألا نعطى عناية كبيرة حينما نتحدث عن أصل التصوف لتلك المناقشات
التى لا تنتهى بين مؤرخى التصوف خاصة بتحديد الفترة الزمنية التى
وجدت فيها لفظة صوفى . فان الشىء قد يوجد قبل اسمه الخاص سواء
وجد تحت اسم آخر أو وجد ولم تكن هناك الحاجة لتسميته ، وعلى كل
حال ففيصل الحق فى مسألة أصل التصوف هو ما يأتى :

ان السنة ترشد فى صراحة لا لبس فيها الى أن الشريعة والحقيقة
كليهما ينبعان مباشرة من تعليمات الرسول عليه الصلاة والسلام . والواقع
أن كل طريقة صحيحة تعتمد على « سلسلة » تصل دائما الى الرسول .
واذا كانت بعض الطرق فيما بعد « استعارت » أو بتعبير أصح « بنت »
بعض التفاصيل فى الطريق وان كان التشابه هنا أيضا يمكن أن يعزى
الى التماثل فى المعارف وعلى الخصوص فيما يتعلق « بعلم المقاطع

والأوزان فى مختلف فروعه » ، فان أهمية ذلك لا تعدو أن تكون أهمية ثانوية لا تمس الجوهر من قرب أو من بعد .

والحق ان التصوف عربى اسلامى كما أن القرآن الذى يستمد التصوف أصوله منه مباشرة ، عربى ، اسلامى . واذا كان التصوف يستمد أصوله من القرآن ، فمن الطبيعى ألا توجد قبل أن يفهم القرآن ويفسر ويتدبر تدبرا تنفجر عنه ينابيع « الحقائق » التى هى فى الواقع معناه العميق .

ولقد فسر القرآن أولا لغويا ومنطقيا وكلاميا.. ولكن تفسيره صوفيا اقتضى مرور زمن لتأمله فى عمق وشمول .

واذا كان القرآن مصدر الشريعة والحقيقة معا فلا يمكن أن يوجد بينهما تناقض أو اختلاف ما . وكيف يوجد الاختلاف ومصدرهما واحد ؟ وكيف يوجد الاختلاف والحقيقة لا تقوم الا على الشريعة فى أساسها وفى سندها .

ولابد فى التصوف من شرط جوهرى هو « التأثير الروحى » أو بتعبير أدق « البركة » وهى لا تتأتى الا بواسطة شيخ ، ومن هنا كانت الطرق . ومن هنا كانت السلسلة ، وهل السلسلة الا بركات تنتقل من شيخ الى مريد يوشك أن يصبح شيخا فيؤثر بدوره فى مريد أو مريدين ؟

ونختتم هذه الكلمة بملاحظة جوهرية تتعلق بطبيعة التصوف وهى أن التصوف ليس عملا علميا ولا بحثا نظريا ، انه لا يتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية ، بل ان ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم : انه لا يستخدم الا كحافز مقو للتأمل . والانسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفا ، على أن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه الا من كان أهلا لفهمه ، ولأجل أن يسير الانسان فى طريق التصوف لابد له من :

١ — استعداد فطرى خاص لا يغنى عنه اجتهاد أو كسب .

٢ — انتساب الى « سلسلة » صحيحة .

اذ أن البركة التى تحصل من الانتساب الى السلسلة الصحيحة هى الشرط الأساسى الذى لا يصل الانسان بدونه الى أى درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها .

ثم يأخذ المتصوف الطيب الفطرة الذى باركه شيخه فى الجهاد الأكبر. التأمل الروحى ، وفى الذكر ، أى استحضار الله فى كل ما يأتى وما يدع وفى تركيز الذهن فى الملأ الأعلى فيصل موقفا من درجة الى درجة . حتى يصل الى أعلى الدرجات ، وهى حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت فيصبح ربانيا ، ذلك هو الصوفى الحقيقى .

والأستاذ « رينيه جنيون » أسلم وحسن اسلامه وتسمى بالشيخ « عبد الواحد يحيى » وكتب عن الاسلام صفحات خالدة مفعمة بالجلال . ومنذ ظهور مؤلفاته جعلت تتضح لدى الصفوة الغربية فكرة الصواب عن الاسلام بعد أن كانت فكرة انحراف الغرب عن جادة الصواب وابتعاده عن كل ما هو الهى ، ابتعادا تزداد فداحته على مر الأيام .. وان كان ذلك لا يمنع من أن يكون هذا الانحراف قد بدأ يظهر للمستنيرين من الغربيين منذ العصور الوسيطة ، فلا يكاد يمر يوم حتى يعرف الايمان طريقه الى قلوب فريق من الناس على اختلاف الأوطان وتعدد اللغات .

الايمان بالله والايمان بالرسول الكريم « محمد » صلوات الله وسلامه عليه ، والايمان بالاسلام طريقا الى الهدى ، ومخرجا من الظلمات الى النور .

وكلما تقدم العلم وارتقى الانسان حضاريا عرف أن الاسلام بمبادئه السامية وتعاليمه الحكيمة صالح لكل زمان ومكان ، لا يبلى له جديد ولا تذبل له نضارة . واذا كان هناك من يدعى أن الاسلام قام على السيف وانتشر بالقوة فان أقوى رد على هؤلاء أولئك الذين يدخلون فى دين الله أفواجا من شتى أنحاء الأرض على تفاوت ثقافاتهم واختلاف منابتهم . مع تقدم الزمن ، وتطور كل شىء فى الحياة .

والى هؤلاء المدعين نقدم هذه الباقة المؤمنة حديثا عن وعى وفهم وادراك سليم ، من « أمريكا وانجلترا وألمانيا واستراليا » من الذين آمنوا

عن عقيدة وأسلموا عن اقتناع وفهم عميق للدعوة المحمدية الخالدة .

الدكتور « أرثر كين » الأمريكى ، الأستاذ فى علم النفس ، والذى أصبح بعد اسلامه « الدكتور على عمر كريم » ، يروى قصة اسلامه .. والدافع الحقيقى الذى ساقه الى الهدى :

عندما أرجع بذاكرتى الى الوراء أرانى حتى سن العشرين كافرا لا أعتقد فى الله .

هذا بالرغم من أن منزلى كان يهتم بالدين ، وكنت أذهب للكنيسة لا لشىء الا ارضاء لأهلى ، ووجدت نفسى منساقا الى هوة نفسية عميقة حتى أنى أصبحت لا أعترف الا بالمادية .

« وأصبحت كالآلة أباشر حياتى بطريقة ليس فيها أية انفعالات روحية . وضاعت نفسى وتاهت روحى ، وجزعت على ماوصلت حالتى اليه من سوء حتى عثرت على كتاب فيه بعض الآيات القرآنية المترجمة فقرأتها ، ووجدتنى أنساق اليها ، وكانت هذه نقطة تحول فى حياتى ، وبدأت أبحث عن كل كتاب يتحدث عن الدين أيا كان « ودرست كل الأديان » الاسلام ، والمسيحية واليهودية والبوذية ، درستها عن عمق وعقل وتفهم ومقارنة دقيقة بينهم جميعا .

والحقيقة أنى وجدت فى الدين الاسلامى أشياء كثيرة عظيمة ، وان كنت وجدت فى الأديان الأخرى بعض الحق ، فلقد وجدت فى الاسلام كل الحق ، ووجدت فيه صراحة وتفوقا وسموا روحيا عظيما ..

وبعد دراسة عشر سنوات اقتنعت عقليا وروحيا بالدين الاسلامى ، وأردت أن أؤكد عقيدتى هذه فذهبت الى جامع نيويورك ، ووجدتنى أندفع مع المصلين وصليت معهم ، فملأ ربى قلبى بنور الهدى .

وبعدها اقتنعت بصلاحية الدين الاسلامى لى كعقيدة تربطنى بالله وتربطنى بالدنيا والانسانية . وأسلمت بينى وبين نفسى ، ولقد كانت دراستى لعلم النفس العامل الرئيسى الذى قادنى الى الايمان بالله ، ولكن كان عدم اعتقادى يرجع الى ظروف البيئة ، والمادية التى طغت على عقول أكثر الأمريكان والتى ترجع للحضارة المجنونة .

وقال الدكتور : ان هذا القرآن كتاب ربانى مقدس ، لا يضـارعه كتاب فى الدنيا . أما أحب الشخصيات الاسلامية الى بعد الرسول العظيم صلى الله عليه وسلم ، فهو الامام الغزالى الذى استطاع أن يجمع فى منهاج واحد بين العقل والروح كما رسم طرقا عظيمة للتربيـة الصـوفية والمعرفه المباشرة من القرآن الكريم .

والمهنـدس المعمـارى الاسترالى « نورمان والدوبلونكيت » الذى أصبح « أحمد عبد الله نورمان » والذى ظل طوال فتراة الدراسة لا يهتم الا بكل ما يكتب عن العمارة والعلوم حتى تخـرج فى جامعـة ملبورن باستراليا ثم تطوع فى الحرب العالمية الثانية .. وهنا تبدأ قصـة اسلامه ، فقال : كنت فى فترة الحرب العالمية الثانية بالصـحراء الغربيـة فى ليبيا ، ووجدت رجلا يسوى الرمال بيده ثم يقف فى خشوع وينصرف عن كل ما حوله فسألت ماذا يفعل هذا الرجل ؟.. فقيل لى انه يصلى . وسألت عن دينه الذى يسلك به هذا المسلك البسيط بلا طقوس .

وقال : ومن هذه اللحظة التى كنت أكثر ما أكون حاجة الى مايضىء نفسى ويريح خواطرى ، بدأت أهتم بدراسة الأديان و فى مقدمتها الاسلام .. فأسلمت .

وأما المبشر الانجليزى « جون سنت » الذى أسلم وتسمى « بمحمد جون » رئيس جمعية المسلمين الانجليز ، فقد بدأ فى سن الخامسة عشرة يدرس الأديان ، وكان ينتمى الى جمعيـة الاخلاص الانجليزية ومهمتهـا التبشير للدين المسيحى .

لقد درس المسـيحية وتعمق فيها ولـكنها على قـوله : لم تعطه الجواب الشافى على كثير من الأسئلة التى تدور فى حياة الناس وصلاتهم . فبدأ يداخله الشك واتجه ناحية الشيوعية يدرسها ، ولكنه لم يجد عندها شفاء الروح ولا كيان الفرد ، ودرس البوذية وانتقل كما يقول من دراسة الى دراسة حتى انتهى الى الاسلام وهو فى بعثة تبشيرية فى استراليا سنة ١٩٥٠ ، بعد أن درس حياة نبى الاسلام دراسة التعمق والتبصر .

ويقول : فوجدت البساطة بأوضح معالمها فى كل خطـوات حيـاتى، ووجدتنى بعد الاطلاع المتواصل على تفاصيل الاسلام ومبادئه فى خدمة الفرد والمجموع وعدالته فى اقامة المجتمع على أسس من المساواة والتوحيد، وجدتنى أندفع الى الاسلام بكل عقلى وروحى ، عاهدت الله من يومها أن أكون داعية للاسلام مبشرا بهديه فى كل البقاع .

وعندما رجعت الى انجلترا قمت بتأليف جمعية المسلمين الانجليز . وقد أسلم كثير من مواطنى فى انجلترا بعد أن عرفوا الكثير عن الاسلام .

والسيد « علاء الدين شلبى » الألمانى الذى أسلم حديثا قال : بدأت أحس بضـلال الغرب ، فهو يتخبط بين مادية الحـادية ، ومادية رأسمالية تتمسح فى المسيحية فهى كالوحش الضارى هدفها الايذاء ، تدفعها المطامع الى الاعتداء على حقوق الغير وامتصاص الدماء واراقتها ، وتشجع الطاغين المعتدين ، ولو كانوا منها على غير الدين فقد جمعتهم رابطة الطمع والظلم والعدوان .

ووجدت الاسلام خلاصة التطور فى معنى الدين ، أساسه التوحيد. وعماده الحقائق يطلق فى سبيلها العقل والفكر ، ويدعو الى الايمان بالملائكة والرسل والكتب المنزلة مشيدا بفضل الرسل كهداة مختارين من رب العالمين ويدفع النـاس لاعداد صـحائف خير لـكى تبيض وجوههم يوم العرض والنشور . حيث يكون الحكم « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وشعرت بخجل كبير وأنا من الجنس الأبيض ، الذى سود صحائف البشرية بظلمه وطغيانه بل وكفره بخالقه ، اذ خرج عن تعاليمه . وفرق بين الأجناس والألوان ، وارتكب فى سبيل ذلك ما لوث معنى الانسانيـة . ولعل بياض هذا الجنس من نوع لون الحجر الذى يمثل قلبه القاسى . الذى لا يعرف معنى الرحمة والمحبة .

واشتد بى الضيق وفكرت مليا فى مخرج منه ، فصادفتنى حين تلاوة القرآن الكريم آية « ففروا الى الله » .. والى أين ؟.

الى جوار اخوانى المسلمين فى القاهرة ، فى الجمهورية العربية المتحدة الفتية ، هى المنطقة الوحيدة فى العالم اليوم التى تحمل رسالة الاسلام وهدى

القرآن وتعاليمه رائد العروبة الأول « محمد بن عبد الله » عليه الصلاة والسلام ، فهى الأمينة على هذا الدين الحريصة على هذا الحق . تنشر نوره فى كل مكان من العالم بزعامة رائد العروبة والحرية والسلام الرئيس « جمال عبد الناصر » ولقد زرت ادارة الاتصال بالشعوب الاسلامية فوجدتها مزدحمة بشباب من جميع أنحاء العالم الاسلامى على اختلاف ألوانهم وأجناسهم . وهم يلحنون نشيد الزحف المقدس : « أحد أحد . فرد صمد . ما مثله كفوا أحد . أحد أحد . الله الله » وأيديهم متماسكة مرفوعة الى أعلى .

فوجدتنى مدفوعا لتلحين هذا النشيد ، سعيدا بأن أمسك يد أخى المسلم المجاور الأسود اللون الأبيض القلب . وحقا ان الاسلام قوة لاتقهر ولها البقاء مهما حاربها الطامعون الأغبياء .

أما المستشرق الألمانى الدكتور « ارنست بانرت » مدرس اللغات الشرقية بجامعة فينا بالنمسا ، ومن مواليد « لايسك » بألمانيا الشرقية . فقد بدأ صلته العلمية بالاسلام بأول رسالة له عن تاريخ العثمانيين وزار تركيا وايران والهند وجميع البلاد العربية ، وكتب عن الشاعر اقبال ويجيد اللغة الأردية ، وحقق كتاب التصوف للشيخ عبد الكريم الجيلى الذى تحدث فيه عن مراتب الوجود وترجمه الى الألمانية ، وترجم ديوان السيد شعيب أبو مدين الأندونيسى وكتاب « الاسلام اليوم وغدا » لليونسكو ومعاجم عن مقارنة الأديان، يقول عن رأيه فى الاسلام والتصوف: اننى أحب الاسلام منذ طفولتى وأزور كل سنة بلدا اسلاميا لأنى أميل الى البيئة الاسلامية والمحيط الصوفى وأعتقد أن التصوف من أقوى معارج الترقى فى الأخلاق لأنه يجعل الانسان يتأمل صفحات الوجود فى ضوء النور الالهى .

أما المستشرق النابه « ألفونس اتيين » الفرنسى الذى أسلم وتسمى « ناصر الدين » فكان صاحب طبيعة متدينة وفنانا بارعا ، كثير التفكير ، جم التأمل ، يسرح بخياله فى ملكوت الله ، يريد أن يخترق حجبه ، ويكشفه عن مساتيره ويصل .. الى الله .. وقد وصل الى الله .. واهتدى بنور الاسلام واعتنقه بعد أن آمن به ايمانا عن اقناع وعلم .

وهذه فقرة من احدى محاضرات شيخ من شيوخ المستشرقين العلامة « رينولد نيكولسون » عن فكرة التصوف الاسلامى وشخصية الرسول صلوات الله وسلامه عليه من كتابه « فى التصوف الاسلامى » . قال نيكولسون : « قد اخترت فكرة الشخصية فى التصوف عنوانا لمحاضراتى هذه ، ولكنه عنوان يحتاج الى بعض كلمات تفسره قبل البدء فى مناقشته، لكى يتبين لكم مجال البحث وحدوده كما اعتزمت أن أعالجه .

انكم جميعا تعلمون معنى كلمة التصوف ، واننى لا أستعملها هنا الا فى المعنى العادى أى فى الدلالة على التصوف الاسلامى ، أو على تلك الحياة الدينية الخاصة التى نقرأ وضعها فى أقوال متصوفة المسلمين ومؤلفاتهم وربما يعنينا فى هذا الصدد أن نشرح الى أى حد تتضمن تلك الحياة ، أو تتضمن « التجربة الصوفية » ، فكرة الشخصية سواء أكانت شخصية الصوفى العابد نفسه أم شخصية الرسول ، أم شخصية من نعبد وهو الله .. ولم تجد الحياة الدينية الاسلامية مثالا أعلى فى أى انسان . الا فى شخصية النبى « محمد صلوات الله وسلامه عليه » فاذا بحثنا فى الصلات التى يعتقد المسلمون — وبخاصة الصوفية — بوجودها بين الله ورسوله من جهة ، وبين الرسول وأنفسهم من جهة أخرى ، فقد وصلنا الى لب المسألة التى تصدينا لبحثها .

والقرآن يعلن بأن الله هو الحق ، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وان كل شىء هالك الا وجهه ، وان كل من على الأرض فان ، ولا يبقى غير وجه الله . وان الله نور السموات والأرض ، وانه أقرب الى الانسان من حبل الوريد ، وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم .

تلك هى الآيات التى لا تكل ألسنة الصوفية عن ترديدها لأنهم نظروا الى الله قبل كل شىء ، وبعد كل شىء ، نظرتهم الى المحبوب بالذات . أما الرسول فقد أحب الله هذا الحب أيضا . وان امتزج حبه بشىء من الرهبة والخوف من الله ، وقد وصف الله نفسه فى سورة البروج بأنه « الودود » كما وصف نفسه فى كثير من الآيات القرآنية الأخرى بأنه يحب المتقين . ويحب الصابرين ، ويحب المتطهرين .

أما حب الانسان فقد ورد ذكره فى القرآن ثلاث مرات فقط . تعنينا منها واحدة وهى قوله سبحانه : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، والله غفور رحيم » . ذلك أنها تشير الى المكانة التى وضع فيها القرآن رسول الله من ربه والى الوساطة التى بين اللهوالخلق.

أما الاعتقاد بأزلية الوجود المحمدى فقد ظهر فى عصر مبكر جدا عند الشيعة ، ثم أخذ به أهل السنة . وقد أشير اليه فى طائفة من الأحاديث مثل الحديث المشهور : كنت نبيا وآدم بين الماء والطين ، أى قبل خلق جسد آدم .

وقد ذكر أتباع هذه النظرية أن أول شىء خلقه الله سبحانههوالروح المحمدى أو النور المحمدى ، الذى ظهر بصورة آدم ثم بصورة كل نبى بعده ، حتى ظهر أخيرا فى صورة النبى محمد نفسه عند أهل السنة .

أما الصوفية فيؤولون النظرية تأويلا خاصا بهم ، فالنور المحمدى عندهم ، هو الروح الالهى الذى نفخ الله منه فى آدم .

فالحقيقة المحمدية ، لا الصورة المحمدية الجسدية ، هى مبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، وهى الواسطة بين الله وعباده ، والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه ، وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية .

وقد تطورت هذه النظرية على يد محيى الدين بن عربى وعبد الكريم الجيلى ، واتخذت أساسا لبحوث فلسفية بعيدة المدى ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم ، فى نظر هذين المؤلفين هو الكلمة الالهية ، أو الانسان الكامل .

والانسان الكامل عندهما ، هو المصدر الذى يستمد منه جميع الأنبياء والأولياء علمهم بالله كما أنه العلة الأولى فى خلق كل ماهو مخلوق والعقل الكلى الذى يصل ما بين الوجود المطلق (الله) وبين عالم الطبيعة وهو ممثل العناية الالهية التى تحفظ على العالم كيانه ، وهو خليفة الله الذى ظهر فى هذا العالم لكى يظهر فيه جلال من أوجده . ولذلك كان بعض شيوخ الصوفية كلما وقع نظره على شىء جميل أو فكر فى شىء جميل يقول : صلى الله عليك يا رسول الله .

وقد أشرنا من قبل الى اعتقاد الصوفية فى أزلية النور المحمدى الذى ظهر فى صور جميع الأنبياء من آدم الى عيسى ، ثم ظهر أخيرا فى صورة الرسول محمد نفسه . ولكن ظهوره لم ينته فى نظر الصوفية بموته . فانهم يعتقدون أنه هو الذى لا يزال يظهر فى صور الأولياء الذين يقتبسون من نوره . ومن هنا كانت الصلة التى تربط أهل التصوف « بمحمد » — صلى الله عليه وسلم — أقوى وآكد من تلك التى تربط أهل السنة به . مهما كانت درجتهم من التقوى . ومهما عظمت محبتهم له . لأن هؤلاء الأخيرين يعظمونه ويوقرونه . ولكن التعظيم والتوقير شىء والمحبة شىء آخر . والمحبة بالمعنى الصوفى معناها فناء المحب فى المحبوب .

ومن هـذه الناحيـة يعتبر الصوفية أنفسهم خلفـاء النبى والممثلين الشخصيين له فى خلافته عن الله سبحانه ، وهم يعتقدون أنه لولا هذه الخلافة الباطنية لخرب العالم وعمته الفوضى . ولولا وساطتهم لما وصلت رحمة الله الى الخلق . ولذا كثيرا ما وصفوا أنفسهم بأوصاف هى أليق بالجناب الالهى. أو بالحقيقة لغة أناس أرادوا أن يصفوا الله فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه هويتهم ، أو أرادوا أن يصفوا الروح المحمدى ، فوصفوا أنفسهم لشعورهم بأنه حى فعال فيهم .

والاعتراف بفضل النبى — صلى الله عليه وسـلم — وأسبقيته أمر معترف به حتى عند أكثر أولياء المسلمين اعتزازا بولايته . يقول أبو اليزيد البسطامى وقد سئل عن جواز تفضيل الأولياء على الأنبياء : مثل ما حصل للأنبياء عليهم السلام كمثل زق فيه عسل ترشح منه قطرة . فتلك القطرة مثل ما لجميع الأولياء . وما فى الظرف مثل ما لنبينا صلى الله عليه وسلم . ومهما يكن من شىء فقد كانت شخصية « محمد » صلى الله عليه وسلم مركز الحياة الصوفية فى الاسلام . فأبو الحسن الحرالى — مثلا — وهو أحد متصوفة القرن السابع الهجرى يذكر ثلاثة أنواع من الايمان بالنبى أعلاها هو ايمان من أشار اليهم الله سبحانه فى الحديث القدسى بقوله : ما وسعتنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن ، فان هؤلاء يحب بعضهم بعضا ولكن فى الله . وهم خلفاء الله فى أرضه . وايمانهم هو اعتقـادهم أن النبى — صلى الله عليه وسلم — لما أسرى به الى السماء تلقى من أمر الله ما خفى

عن جميع الأنبياء والملائكة ، حتى عن جبريل نفسه . ولم يحظ بما حظى به النبى عليه السلام . أحد من الأرواح العلوية أو الملائكة المقربين . ولذا كان الايمان به مقياسا يقاس به الايمان بالله ، بل ان الايمان به هو الطريق الموصل الى الله . فمحمد صلى الله عليه وسلم ، بهذا المعنى كما يقول أندريه : « ليس هو الرسول الذى أرسله الله الى الناس ، بل هو الأمين الذى استودعه الله خزائن أسراره وليس الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم الى الناس هو الهدى والفرقان شخصه وذاته . وليس الايمان به هو الاعتقاد فى صدق رسالته ، بل هو الصلة الشخصية التى تربطه بالناس ارتباطا صوفيا ، ولهذا اتحد به الأولياء الكاملون عن طريق المحبة والحياة الروحية .

وتذكرنا اللغة التى يعبر بها الصوفية عن حبهم للنبى فى أغلب الأحيان بلغة الأناشيد الدينية التى تدور معانيها حول حب الله . فالنبى حبيب الله . وهو لهذا السبب حبيب الصوفية جميعهم ، ولم يكف فى نظرهم تقليده فى أفعاله وأخلاقه ، بل تاقت نفوسهم الى دوام حضورهم معه . ولذا يراه المريدون فى شتى الصور فى النوم واليقظة .

ورؤيته فى المنام من الأمور العادية فى الحياة الصوفية الاسلامية . وقد يكون لها أثر بالغ فى تشكيل الحياة فى ظاهرها وباطنها . وهاكم مثال يوضح حالة كثيرة الوقوع .. رأى الجنيد النبى صلى الله عليه وسلم فى منامه يقول له : يا جنيد تحدث الى الناس فقد جعل الله من كلامك سببا لنجاة كثير من الخلق .

فلما استيقظ خطر فى نفسه أنه أفضل من سرى (شيخه) لأن النبى أمره أن يعظ الناس ولكنه لما أصبح الصباح أرسل «سرى» الى «الجنيد» أحد مريديه ومعه الرسالة الآتية :

انك لم تتحدث الى مريديك عندما ألحوا عليك بالتحدث اليهم . ورفضت فى ذلك شفاعة شيوخ بغداد . وتوسلى الخاص . والآن وقد أمرك النبى صلى الله عليه وسلم فلا بد لك من اطاعة أمره . فقال الجنيد : فعلمت ان مرتبة « سرى » أعلى من مرتبتى لأنه كان على علم بأسرار نفسى . فذهبت

اليه وطلبت منه العفو وسألته : كيف عرف أننى رأيت النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام ، فقال : اننى رأيت الله فى المنام . فأخبرنى أنه أرسل اليك رسول الله ليأمرك بالخروج الى الوعظ ..

ويعلق الهجويرى على هذه القصة بقوله : ان فيها شاهدا على أن المشايخ على علم دائم بالأحوال الباطنية عند مريديهم .

وهكذا صار يسرد المستشرق « نيكولسون » تلك الوقائع فى كتابه القيم « الاسلام والتصوف » .

ويقول المستشرق « لين » فى كتابه « شمائل المصريين وعاداتهم » : ان التصوف أوجد فى الحياة الاسلامية ثلاثة مبادىء ، لها أكبر الأثر فى تشكيل الشخصية الاسلامية الروحية والخلقية .

وأول هذه المبادىء : حب الله وحب رسوله . حبا يجعل قلب الصوفى متعلقا أبدا بهما . ومن هذا الحب نشأت تلك الصلابة الاسلامية التى لاتتزلزل ولا تنال منها الأحداث .

ثم حب الأولياء حبا يجعلهم نماذج عالية لا تفارق خيال المسلم ، ولا تبتعد عن وجدانه ، بل هى تمده دائما بالبركة والثقة والأمل الباسم الحى . ثم المنهج الصوفى فى التربية ، وهو يعد المسلم للمحراب كما يعده للجهاد ، بما يفرضه عليه من زهد وتقشف وترفع وصلابة ، وما يفيض عليه من مثاليات وأخلاق ومبادىء سامية .

والدكتور « محمد مكين » أحد كبار رجال الفكر الاسلامى فى « سيلان » ورئيس الجمعية الاسلامية بجامعة لندن .. وهو من العلماء الذين تعمقوا فى دراسة التصوف الاسلامى والطرق الصوفية وأثرها فى تطوير المجتمع الاسلامى . وقد قدم الى جامعة لندن رسالة عن الطريقة الشاذلية وأثرها فى تطوير المجتمع الاسلامى وعاداته . ومكانتها من القيادات الاسلامية التى كافحت الاستعمار فى الشمال الافريقى .. قال سيادته : لقد كونت لنفسى منهجا فى دراسة التاريخ الاسلامى . وقوام هذا المنهج اننا نستطيع أن ندرك انتفاضات الشعوب الاسلامية وانفعالاتها التاريخية وعاداتها

وتقاليدها وروحها عن طريق دراستنا للتصوف . اننا يجب أن نصور التاريخ تصويرا صوفيا حتى نفهم نفسية الشعوب وخطوط حياتها العريضة ، ولقد لعبت الطريقة الشاذلية دورا ايجابيا حاسـما فى تاريخ الشمال الافريقى . فشكلت عاداته وأخلاقه ، وشئون حياته . ولعبت دورها الكبير أيضا فى الانتفاضات القومية ضد الغزو الفكرى والحربى لهذه المنطقة لهذا قصدت أن أدرس البيئة الصوفية ، وان أؤرخ لهذه الشعوب العربية عن طريق دراستى للطريقة الشاذلية .

وقال الدكتور : لقد انتشر الاسلام فى آسيا عن طريق التصوف . ولهذا انطبعت الحياة العامة فى تلك البلاد بطابعه ، ففى سيلان مثلا ، كل مسلم لابد وأن ينتسب الى طريق صوفى ، وفى كل بلد من سيلان ، زاوية صوفية ، وهناك فى العاصـمة زاوية تسمى « أم الزوايا » من خمس طوابق ، وهى مركز القيادة الروحية الصوفية .

والأولاد هناك يتربون تربية صوفية فيذهبون الى الزوايا كل صباح ، وفى سيلان طرق صوفية متعددة ، أشهرها الشاذلية والقادرية والعلوية .

والمسلمون فى سيلان ينتسبون الى أصلين كبيرين : أصل عربى . وقد قدموا من حضرموت واليمن وتكتب لغتهم بالعربية .

والفريق الثانى : وفد اليها من الملايو ، والمسلمون فى سيلان جميعا شافعية ، ولهم مكانتهم الكبرى ، فى حياة البلاد ونهضتها ، وهم جميعـا يتطلعون الى العالم العربى عامة والجمهورية العربية خاصة كمركز لقيادتهم الروحية والفكرية .

وقال عن الجمعية الاسلامية التى يرأسها بجامعة لنـدن : كون هذه الجمعية الطلبة المسلمون فى جامعات بريطانيا ، ويبلغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف طالب من شتى بقاع العالم الاسلامى . وهدف هـذه الجمعية رعاية الطلبة المسلمين والعناية بهم روحا ومادة ، وتزويدهم بحقائق دينهم ، وان للتصوف بين أعضاء هذه الجمعية المقام الأكبر . فقد اعتصموا بأخلاقه ، حيال عالم الغرب المادى ، وفى بريطانيا جماعة تسمى « جمـاعة الباحثين » وهم صوفية ويصدرون مجلة للدراسات الصوفنة .

وفى أوربا رغبةشديدة لفهمالاسلام ، ففى لندن مثلا . فى«هايدبارك» تعقد ندوات صوفية . وهناك منبر اسلامى صوفى دائم يتكلم من فوقه مسلم صوفى بريطانى . وينادى فيه هذا المحاضر بأن مشاكل العالم لا تحل الا بواسطة الاسلام ، ويحضره جمع كبير من الأوربيين .

وأوربا فى حاجة الى أن تعرف الاسلام معرفة صحيحة ، ولو تيسرت لها هذه المعرفة لتغير وجه أوربا وتاريخها وعقائدها .

ولكن المسلمين لا يحسنون الدعوة لدينهم ، ولا يفهمون الأسلوب الذى يستهوى أوربا . فمثلا أوربا تهتم بحرية الفرد وتقدسها . ويظنون وهم على خطأ أن الاسلام يهدرها ولا يعترف بها ، فلو رفعنا عن أعينهم هذه الغشاوة لأثمرت الدعوة الاسلامية ثمرا طيبا .

ان أحد عمداء الجامعات فى بريطانيا ، ألقى محاضرة قال فيها : انه يجد حرية الفرد الكاملة فى التصوف الاسلامى ، كما يجد فيه حرية التفكير ، والانسانية العالمية ..

وفى اليوم التالى ، كانت صفوة من الأساتذة والطلاب يطلبون كتب التصوف الاسلامى ويعكفون على دراستها .

ويدرس التصوف الاسلامى فى جامعات « أكسفورد وكمبردج » . وجامعات أوربا كافة ، كما أنه المادة الرئيسية فى كلية الدراسات الشرقية والافريقية بلندن . وان التصوف يجب أن يفهم أولا على حقائقه العليا . وان يجرد من كل دخيل غريب فيه حتى يتبلور فى عقول الناس كمنهج تربوى وأخلاقى وثقافى ، وكقوة بانية للحضارة . وان من أخطر ما أصاب التصوف ان بعض الباحثين يكتبون عن التصوف ويدرسونه وهم لا يؤمنون به ، اذ لابد من الايمان به أولا .

فاذا تم هذا فالصوفى أقدر الناس على حمل رسالة الاسلام وأقدر الناس على الدعوة اليه ، والتصوف هو نواة الوحدة الاسلامية . فالطرق الصوفية توجد فى العالم كافة . ففى سيلان مثلا الطريقة الشاذلية ، وتجدها فىمصر والسودان والمغرب والهند واندونيسيا .. وهكذا .

فلو عقدنا ندوات أومؤتمرات صوفية عالمية لاستطعنا أن نوجد روابط قوية بين البلاد الاسلامية .

وفى هذه المؤتمرات يمكن أن نحدد المنهج الاسلامى ، ونضع الهيكل الثقافى للنهضة . والقاهرة هى مركز الاشعاع للعالم الاسلامى ، واليها تتجه الأنظار ، وعليها تعقد الآمال . وسوف أقترح ان شاء الله فى مؤتمر الجمعيات الاسلامية عقد مؤتمر عالمى صوفى كما سأقترح أن تكون القاهرة هى مقره الدائم .

والأستاذ المجاهد الايرانى « محمد باقر الحجازى » صاحب جريدة الوظيفة اليومية بطهران . قد أبان سيادته فى حديثه عن حقائق لها دلالتها الكبرى على مكانة التصوف وأثره فى الحياة الاسلامية العالمية .

يقول الأستاذ باقر : ان الطرق الصوفية تهيمن هيمنة كاملة على الحياة الدينية فى ايران . وان الكثرة الغالبة من رجال السياسة والأدب والاقتصاد هم من رجال الطرق الصوفية . وان رئيس وزراء ايران من أبناء الطرق الصوفية . وان عمداء الكليات وأساتذتها من أصحاب المناهج الصوفية فى التربية والتعليم . فطابع الثقافة فى ايران هو طابع صوفى خالص .

والأستاذ أبو الحسن الندوى عالم باكستان يقول فى مذكراته : ان أى عالم اسلامى فى القارة الهندية لا يسمح له بالتحدث فى المحافل الدينية الا بعد أن يجيزه شيخ صوفى ويسمح له .فالمسلمون الهنود لا يمنحون قلوبهم وتقديرهم واجلالهم وثقتهم الا لعلماء التصوف ، ورجال التصوف .

ولقد شهد « برناردشو » كاتب ايرلندا الانجليزى الشهير ، انه لن يمر هذا القرن حتى تعتنق الامبراطورية البريطانية النظم الاسلامية ، ولو أن « محمدا » صلى الله عليه وسلم بعث فى هذا العصر ، وكانت له السيطرة على هذا العالم ، لنجح تماما فى حل جميع المشكلات العالمية ، وقاده الى السعادة والسلام . وبمثله قال الكثيرون فى كل عصر ومن كل أمة .

ومما كتبه الأستاذ الكبير « عباس محمود العقاد » عن « التصوف عند الغربيين فى العصر الحاضر : لا نريد أن نقول ان العلم أخفق فى تعزية الانسان وتعمير قلبه وضميره ، كلا بل نريد أكثر من ذلك .

نريد أنه أخفق فى دعواه الوحيدة التى كان خليقا أن ينجح فيها ، لأن أصحابه كانوا يسمونه بالعلم المادى .. وهو اليوم لا يعلم من المادة الا أنها حركة مجهولة فى فضـــاء مجهول نعم كل مادة تتركب من ذرات وكل ذرة تنفلق فتصبح شعاعا ، وكل شعاع هو حركة فى الأثير ، وما الأثير ؟ شىء .. كلا شىء ليست له حدود ولا أوصاف ولا مقادير يعرفها العلماء . فالعــلم المادى لا يعرف المادة الا فى هــذه الحدود ، ومن الأدب اذن أن يتواضع كثيرا ، فلا يحتكر المعرفة ولا ينكر على غيره أن يحاولوها حيث استطاعوا . وهذا هو الجديد على العلم الحديث مع العلم أنه لا يعلم كل شىء لأنه مقيد بالحواس . واذا كانت الحواس لا تعلم جميع الأشياء .. فهل يعلمها الفكر ؟ كلا أيضا لأن الفكر محدود ككل شىء فى الانسان .

فلا بد للمعرفة من وسيلة أخرى مع وسائل الحس ووسائل التفكير ، لا بد لها من البصـــيرة أو من البديهة ، أو من الالهـــام . وذلك هو مجال التصوف أو مجال الدين ، فهذه هى المعرفة التى يتعاون عليها الحس والفكر والالهام .

ومن ثم تكثر الكتابة اليوم فى مسائل التصوف ومسائل الدين ومنها مباحث هذا الكتاب الذى يسمى « مقدمة للمقارنة فى مذاهب التصوف » ومؤلفه الأستاذ جاك دى ماركيت وفصوله تتناول المقارنة بين تصوف الهند وتصوف المسيحية وتصوف الاسلام .

ونحن لا نريد أن ننقل شيئا من صميم مباحثه ، ولكن هذا لا يمنعنا أن نخرج بخلاصة من كل مذهب أو كل مجموعة من المذاهب ، وفى كل خلاصة دليل على شىء كثير .

فخلاصة التصوف الهندى : تحذير المرء من شهواته وتحذيره من قمع هــذه الشهوات بالعنف والقسوة ، فرياضـــة الرحمة هى مفتاح الحيـــاة الأبدية .

وخلاصة التصوف اليونانى : أن الله جوهر من العقــل الخالص من شوائب الأجسام وان التأمل فى الحقائق هو سبيل الوصول الى الله .

وخلاصة التصوف العبرى : اذا كانت مخافة الله تاج الحكمة فهى أيسر لباس المسكين .

وخلاصة المستعار من فلاسفتهم مذهب « فيكون الحكيم » الذى يقول الله خلق العقل ليعمل به فى الموجودات ومنها الانسان .

وخلاصة التصوف المسيحى أن نجاة الروح لا تكون بغير نعمة من الله بغير فداء .

وخلاصة التصوف الاسلامى .. شعبتان :

١ — شعبة تذهب الى اعتزال الدنيا لأنهـا باطل . وتفنى فى الله لأنه هو الحق دون غيره .

٢ — وشعبة أخرى لا تعتزل الدنيا لأن الله سبحانه وتعالى يتجلى فيها . وآياته التى يتجلى فيها هى سبيل الوصول اليه . وهذه هى الصوفية المفضلة فى الاسلام . لا اهمال الدنيا ولا انحصار فيها ، بل نفاذ منها الى الحق ، والى الكمال . وخلاصة الخلاصات جميعا : ان الايمان سعادة الروح وان المعرفة والبصيرة قوام السعادة ، فالتصوف زهد وقناعة وطاعة وعبادة وتضحية ومحبة وجهاد وفدائية حتى تعلو كلمة الحق وما من شك فى أن هذه المعانى من نتاج الايمان ثمرة لاتبـاع الاسلام اتباعا دقيقا (وتنفيذا كليا) والمعول عليه هو الصفاء القلبى والتطهر الداخلى والخارجى و لايتحقق ذلك الا باتباع الاسلام وتنفيذ أموره واجتناب نواهيه » .

وكان الامام العارف بالله « أبو المواهب » « عبد الوهاب الشعرانى » علما من أعلام التصوف الاسلامى واماما من أكبر أئمتـه . ملأ الدنيا علما ومعرفة ونورا حتى ليقول عنه المستشرق « فولرز » : ان الشعرانى كان من الناحية العلمية والنظرية ، صوفيا من الطراز الأول . وكان فى الوقت نفسه كاتبا بارزا أصيلا فى ميدان الفقه وأصوله . وكان مصلحا يكاد الاسـلام لا يعرف له نظيرا وان كتبه التى تجاوزت السبعين عدا من بينهـا أربعة وعشرون كتابا تعتبر ابتكارا محضا أصيلا لم يسبق اليه أبدا ، ولمـا يعالج فكرتها أحد مثله .

ويقول المستشرق « نيكلسون » انه منذ فتح المغول العالم الاسلامى ركدت الحركة الفكرية فى الاسلام واقتصر علماؤه على الجمع والتقليد فلا تجد بوادر انطلاق أو انتاجا خصبا منتجا ، أو أى أثر لتفكير أصيل وضىء باستثناء شخصيتين شاذتين هما « ابن خلدون » المؤرخ والشعرانى الصوفى وكان الشعرانى بالذات مفكرا مبدعا أصيلا أثر تأثيرا واسع المدى فى العالم الاسلامى يشهد به الى يومنا الحاح القراء الحاحا متواصلا فى طلب مؤلفاته .

والشعرانى مع تلك المكانة الضخمة العالية . كان تلميذا فى مدرسة التصوف العليا . كان نفحة من نفحات العارف الربانى الأمى « على الخواص » كان مريدا فى جامعة الخواص فى جامعة التصوف التى تستمد معارفها من الفيض الالهى والفتح الربانى . والالهام القلبى .

يقول شيخ المتصوفة العلامة : لو أن رجلا جمع العلوم كلها . وصحب طوائف الناس كلهم لايبلغ مبلغ الرجال الا بالرياضة من شيخ أو امام مؤدب . ومن لم يأخذ أدبه من أستاذ يربيه ويريه عيوب أعماله . ورعونات نفسه . لايحل الاقتداء به فى تصحيح المعاملات .

ويقول الشعرانى : ولو أن طريق القوم يتوصل اليها بالفهم لما احتاج مثل الغزالى ومحيى الدين الى شيخ ، ثم يقول : الخواص رجل من رجال الله . وعلم من الأعلام الهداة ، ومحجة ومنارة من المنارات التى يهبها الله لعباده .. والخواص فى الطريق وعند أهله كامل من السادة وان جهله الناس . والخواص هو معراج الشعرانى وسلمه الذى صعد عليه الى أبواب الفتح ، وسموات المنح ومناطق الالهام والنور .

وصلة الخواص بالشعرانى . هى آية من الآيات على مقام الشيخ فى الطريق . وهى أيضا آية على مقام العلم اللدنى . فقد كان الخواص أميا . وكان الشعرانى عالما . ذلك هو حكم الظاهر أما حكم الباطن فقد كان الخواص عالما . وكان الشعرانى أميا .

علم الخـواص كان الوهب . وعلم الشـعرانى كان الـكسب . والعلم الحقيقى عند الصوفية هو العلم الذى يقول صاحبه انه علمى . انه فتحى . لأن علوم الفتح خاصة بصاحبها .

ويقول الخواص : من أراد أن يعرف مرتبته فى العلم الذى يزعم أنه من أهله : فليرد كل قول الى قائله . وكل علم الى عالمه . وكل شىء استفاده من أمر دنياه وآخرته الى من استفاد منه . وينظر نفسه بعد ذلك .

والشعرانى يصف أستاذه وشيخه على الخواص فيقول : رجل غلب عليه الخفاء . فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم الا العلماء العاملون . لأنه رجل كامل عندنا بلا شك .

ويقول صاحب كتاب التصوف الاسلامى . ان الخواص الذى عرفناه فى كتب الشـعرانى لا يقل عظمة عن سـقراط الذى عرفناه فى كتب أفلاطون . والفرق بين الرجلين أن سـقراط أولع بمخاطبة العقـول . والخـواص أغرم بمخاطبة القلوب والقلب أبقى من العقل وله فى كل زمان أنصار وأشياع .

ويحدثنا الشعرانى عن الأسئلة العلمية التى وجهها الى شيخه الخواص والجواب عليها . فيقول الخواص للشعرانى . كل لقمة نزلت فى جوف صوفى من غير كسبه الشرعى . أخذت من عبوديته جانبا . واسترقته لغيره . ثم يقول مدللا على أن الأصل فى التقوى هى طهارة المطعم : اعلم أن المدد الذى لم يزل فياضا على قلب كل انسان يتلون بحسب القلب . والقلب يتلون بحسب صلاح الطعمة وفسادها . فالله سبحانه وتعالى ينطق على لسان عبده بحسب مضغته . فان كان قلبه مطهرا من سائر الرذائل . نطق بالكلام النفيس الذى يشبه الوحى وان كان ملطخا بشىء من القاذورات نطق بما يشبه كلام الشياطين . ويرشد الخواص الشعرانى الى التوحيد ، والى الالتجاء والاتجاه دائما الى الله سبحانه : لا تجعل بينك وبين الله واسطة أبدا من نبى أو غيره ، لأنالرسول انما هو واسطة بين العبد وبين الرب فى الدعوة الى الله ، لا الى نفسه . فاذا وقع الايمان الذى هو مراد الله تعالى من عباده ارتفعت واسطة الرسول عن القلب اذ ذاك وصار الحق تعالى أقرب الى العبد من نفسه ومن رسوله

ولم يبق للرسول الا حكم الافاضة على العبد من جانب التشريع والاتباع . كما فى حال المناجاة فى السجود . فالرسول يغار من أمته أن يقفوا معه دون الله تعالى فانه يعلم أن مقصود التشريع حصل بالتبليغ ، كما حصل له الأجر على ذلك ، كما أشار اليه قوله صلى الله عليه وسلم : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيامة .

وانظر يا أخى الى غيرة الحق تعالى على عباده بقوله لمحمد صلى الله عليه وسلم « واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان» فأعلمنا تعالى بأنه أقرب الينا من أنفسنا ومن رسولنا الذى جعله الله تعالى واسطة لنا فى كل خير . مع أنه تعالى بالغ فى مدحه صلى الله عليه وسلم . حتى كاد أن يصرح بأنه هو لكثرة ما وصفه بالكمال فى نحو قوله تعالى : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » وبقوله « ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله » ومع ذلك قال له « ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون » . فأخرجه عن حال الخلق ونقاه عنهم وأثبته معه فى البراءة من المثلبة وعن مشاركة أحد منهم له فى كماله أو تبته صلى الله عليه وسلم .

ويسأله عن ترك الأسباب والتوكل : فيقول كلمته الخالدة : من كان تاركا للأسباب دار الفلك بنصيب غيره ولم يحصل له شىء .

يقول الشعرانى : وسألته ما آفة العقل ؟ . فقال : الحذر . فقلت له : فما آفة الاسلام والايمان . فقال : العلل . فقلت فما آفة العمل . قال : الملل . فقلت فما آفة العلم . قال الدعوى . فقلت فما آفة الحال . قال : الأمن : فقلت فما آفة العارف . قال : الظهور . فقلت فما آفة التواضع . فقال : الذلة لغير الله . فقلت له : فما آفة الصبر . فقال : الشكوى لغير الله . فقلت له : فما آفة التسليم . فقال : التفريط فى أوامر الله ونواهيه . فقلت فما آفة الغنى فقال : الطمع فى أن يكون كل شىء له . فقلت : فما آفة العز . قال : البطر . فقلت : فما آفة الكرم . قال : السرف . فقلت : فما آفة البطالة . قال : الفقر من الأعمال فى الدارين . فقلت : فما آفة الكشف . قال : التكلم به . فقلت : فما آفة الاتباع للسنة . فقال التأويل للآيات والاخبار . فقلت : فما آفة الأدب

فقال التفسير . فقلت : فما آفة المريد . قال : التسلل على مقامات الرجال من غير سلوك طريقهم . قلت : فما آفة الفتح . قال : الالتفات الى غير الله . فقلت : فما آفة السالك . فقال : الوهم . فقلت : فما آفة الدنيا . فقال : شدة الطلب لها . فقلت : فما آفة الآخرة . قال : الاعراض عن أعمالها التى يكون منها بناء دورها وقصورها ونعيمها .

فقلت : فما آفة الكرامات . قال : الاستدراج . فقلت : فما آفة الداعى الى خير . فقال : حب الرياسة . قلت : فما آفة التقليد . فقال : الوسوسة . فقلت : فما آفة رؤية النقص فى الأعمال . فقال : قلة الشكر لله .

ويقول الشعرانى وسمعته يقول : عليكم بتطهير باطنكم من الغل والحسد والحرص ونحو ذلك فان الملك لا يرضى أن يسكن بجواركم وأنتم على هذا الحال . فكيف الحق تعالى !

وسمعته يقول لقارىء . وكان ذلك القارىء من العارفين : اقرأ القرآن من حيث هـو كلام الله . لا من حيث ما تدل عليه الآيات من الأحكام والقصص ، فانها هى الران على قلبك والحجاب ، فقلت له : وكيف ؟ فقال رضى الله عنه : المراد بتدبر القرآن الذى أمرك الله به . أن يجمعك تدبرك على صاحب الكلام ، وأما تدبر الأحكام والقصص فانه مفرقات فآية تذهب بك الى الجنة فتشهد ما فيها . وآية تذهب بك الى النار فتشهد ما فيها . فيحجبك ذلك الشهود عن الحق تعالى . فرجع تدبرك الى شهود الأكوان الدنيوية أو الأخروية . ومن كان مع الكون لم يحظ بشهود الكون .

وبعد .. فذلك لون من المعرفة الصوفية العالية . فيه هدى ونور ، وذوق وتذوق لمن ألقى السمع وعين قلبه مبصرة .

ولقد وصف القشيرى « الصوفية » وأحوالهم ومعارفهم . فقال فى مقدمة رسالته القيمة مانصه : فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم . وجعل قلوبهم معادن أسراره ، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره ، فهم الغياث للخلق ، والدائرون فى عموم أحوالهم مع الحق بالحق . صفاهم من كدورات

البشرية . ورقاهم الى مجال المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية . ووفقهم للقيام بآداب العبودية . وأشهدهم مجارى أحكام الربوبية . فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف ، وتحققوا بما منه سبحانه لهم من التقليب والتصريف . ثم رجعوا الى الله سبحانه وتعالى بصدق الافتقار . ونعت الانكسار . ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفالهم من الأحوال علما بأنه جل وعلا يفعل ما يريد . ويختار من يشاء من العبيد . لا يحكم عليه خلق ، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق . ثوابه ابتداء فضل وعذابه حكم بعدل وأمره قضاء فصل (١) .

فها هنا بيان رائع لما اشتملت عليه فلسفة الصوفية من عناصر انسانية تتمثل فى تصفية قلوب أصحابها من كدورات البشرية . وفى قيامهم بآداب العبودية . وأدائهم لواجبات التكليف . وخضوعهم لما يجريه الله عليهم من أحكام التصريف . وفى تحققهم بالايمان بالله والافتقار اليه . والانكسار بين يديه . هذا من ناحية . وهاهنا من ناحية أخرى اجمال واضح لما انطوت عليه هذه الفلسفة الصوفية من المعانى الالهية التى تنكشف من خلال ما يملأالله به قلوب الصوفية من أسراره وأنواره . وما يتجلى لهم من مجارى أحكام الربوبية التى قضى بها الله وقدرها على عباده . فكان ثوابه فضلا . وكان عذابه عدلا ، فكل ذلك وكثير غيره مما فاضت به وأفاضت فيه كتب الطبقات التى كتبت عن الصوفية وطريقهم . وآثار الصوفية المتقدمين أنفسهم ممن ضربنا ببعضهم الأمثال فيما سبق . وكله يدل على أن الصوفية حين عكفوا على النفس الانسانية مجاهدين . أو حين كتبوا عنها محللين . أو حين درجوا من معرفتهم لأنفسهم الى معرفتهم الله . أو حين وصفوا صلة النفس الانسانية بالله الذى أبدعها من ناحية وبالبدن الذى تحيا فيه فتدبره وتؤثر فيه وتتأثر به من ناحية ثانية وبالعالم العلوى الذى هبطت منه . وبالعالم السفلى الذى تغرق فيه أو تتخلص منه من ناحية ثالثة . لم يكونوا فى هذا كله الا أصحاب فلسفة انسانية والهية وكونية .

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٢

ولكى يتبين مبلغ ما وفق اليه الصوفية المسلمون فى فلسفتهم الروحية الذوقيـــة تلك : فلابد من أن نقف معهم عنـــد أقوالهم وأحـــوالهم وعلومهم وأعمالهم . وعنـــد آرائهم ومـــذاهبهم فيما يتعلق بالنفســـيات والأخلاقيات والالهيات والكونيات حتى يتبين لنا من خلال هذا كله الى أى حدوعلىأى وجهة يصدق القـــول على التصـــوف الاســـلامى بأنه هو الفلســـفة الروحية الاسلامية الخالصة التى تستطيع أن تواجه فلسفة كل من الكندى والفارابى وابن سينا وابن باجهوابن طفيل وابن رشد وغيرهم من المشائين أو الافلاطونيين المســـلمين الذين تأثروا بارســـطوطاليس تارة . وأفلاطون من فلاسفة اليونان أطوارا . وهنالك نستطيع أن نقول فى غير ما تردد أو تحفظ : ان التصوف الاسلامى بهذا الاعتبار الفلسفى ، وعلى هذا الوجه الروحى الذوقى . وبما استند اليه من تنزيل الهى وحديث نبوى . هو المرآة الصادقة التى يتجلى على صفحتها الروح الاسلامى .

ومن هنا أيضا يمكن أن يقال : ان التصوف الاسلامى باعتباره فلسفة روحية اسلامية خالصة انما هو فى حقيقته . وفى جملته وتفاصـــيله . فلسفة نفسية وأخلاقية موضوعها النفس الانسانية والأخـــلاق الفردية والاجتماعية . وفلسفة الهية موضـــوعها الذات العلية . وفلسفة كونية موضـــوعها الطبيعة الكونية .

واذا كانت الناحيـــة النفسية أو الأخلاقية أو الـــكونية هى الغالبة على هذا الصوفى أو ذاك من الصوفية المتقدمين — فان هذه النواحى كلها قدائتلفت فى اطار واحد . وخرج منها نسق منسق الأجزاء عند الصوفية المتأخرين وكان هؤلاء الصوفية المتأخرون من القدرة البارعة والبراعة الفائقة بحيث استطاعوا أن يفلسفوا هذه العناصر كلها . وأن يضفوا عليها من الفلســـفة أثوابا تتفاوت ألوانها بتفاوت حظوظهم من القدرة على التفلسف الى جانب قدرتهم على التخلق والتذوق والتحقق .

ولعل « محيى الدين بن عربى » وهو من أوفر صوفية المسلمين حظا من الفلسفة . قد أظهرنا على الائتلاف بالعناصر الالهية والانسانية والكونية واتساقها فى مذهبه الصوفى الفلسفى فى كثير من مصنفاته . وفىمواطنعديدة

من هذه المصنفات •• وحسبنا أن نثبت من هذه المواطن فى تلك المصنفات
ما صور به مذهبه فى كتابه «التدبيرات الالهية فىاصلاح المملكة الانسانية»
الذى يتحدث عنه فى كتاب آخر له هو « عنقاء مغرب »••وذلك اذ يقول :
كنا ألفنا كتابا روحانيا• وانشاء ربانيا سميناه «بالتدبيرات الالهية فىاصلاح
المملكة الانسانية » تكلمنا فيه على أن الانسان عالم صغير مسلوخ عن العالم
الكبير . فكل ما ظهر فى الكون الأكبر ، فهو فى هذا العين الأصغر ولمأتكلم
فى تلك الأوراق على مضاهاة الانسان بالعالم على الاطلاق ، ولكن على
ما يقابله من جهة الخلافة والتدبير . وبينت ما هو الكاتب والوزير
والقاضى العادل والأمناء • والعاملون على الصدقات والسفراء • والسبب
الذى جعل الحرب بين العقل والهدى ورتبت فيه مقابلة الأعداء . ومتى
يكون اللقاء . ونصرته نصرا مؤزرا . وكونته أميرا مدبرا . وأنشأت الملك .
وأقمت ببعض عالم الحياة وببعضهم الهلك . وكمل الغرض . وأمن من كان
فى قلبه مرض ، فليس غرضى فى كل ما أضيف فى مثل هذا الفن • معرفة
ما ظهر فى الكون • وانما الغرض معرفة ما وجد • : فى هذا العين
الانسانى . والشخص الآدمى . فحقق نظرك أيها العاقل . وتنبه أيها
الغافل . هل ينفعنى فى الآخرة كون السلطان عادلا أو جائرا . أو عالما أو
جاهلا ؟ . لا والله يا أخى حتى أنظر ذلك السلطان منى والى . وأجعل
عقلى اماما على • وأطلب منه الآداب الشرعية فىباطنى وظاهرى • وأبايعه
على اصلاح أولى وآخرى . فمتى لم أجعل هذا نظرى هلكت . ومتى
أعرضت عن الاشتغال بالناس تمكنت من نجاتى وتملكت • اذ قد قال
— صلى الله عليه وسلم — يخاطب جميع أمته : كلكم راع وكلكم مسئول
عن رعيته فقد أثبت — صلى الله عليه وسلم — الامامة لكل انسان فى
نفسه • وجعله مطلوبا بالحق فى عالم غيبه وحسه • فمتى ذكرت فى كتابى
هذا أو فى غيره • حادثا من حوادث الأكوان • فانما غرضى أن أثبته فى
سمع السامع وأقابله بمثله فى لانسان . فنصرف النظر فيه الى ذاتنا ، التى
هى سبيل نجاتنا فأشيعه بكلية فى هذه النشأة الانسانية . على حسب
ما يعطيه المقام اما جسمانية واما روحانية فاياك أن تتوهم أيها الأخ الشقيق

أن غرضي من كتبي كلها الكلام فيما خرج عن ذاتي • من غير أن تلحظ فيه سبيلَ نجاتي •

فما أبالي اذا نفسي تساعدني | على النجاة بمن قد فاز أو هلكا
فانظر الى ملكك الأدنى اليك تجد | فى كل شخص على أجزائه ملكا
وزنه بالعدل شرعا كل آونة | واسلك به خلفه من حيث ما سلكا
لا تكن ماردا تسعى لمفسدة | فى ملك ذاتك لكن فيه كن ملكا

فليتأمل ولى هذا الكتاب • فانى أذكر الأمر من العالم الكبير وأجعله كالقشر • واجعل ما يقابله من الانسان كاللباب (١)

وفى حديث محيى الدين بن عربى فلسفة روحية عليا ، اتخذت نقطتها الأولى من الذات الانسانية التى بدأت منها • وما فتئت تدور حولها حتى استوعبت كل ما هو منها ولها وعليها ، وفى هذا ما فيه من المعانى النفسية والأخلاقية والشرعية • ثم أخذت تقابل بين ما فى هذه الذات الانسانية من حيث هى عالم صغير • وبين الطبيعة الكونية من حيث هى عالم كبير . وفيما بين هذين العالمين اللذين يعد أحدهما أصغر والآخر أكبر يهيمن الملك الأعظم . والمدبر الأكبر . وهو الله عز وجل الذى عنه يصدر كل شىء واليه يرجع أمر كل شىء •

والتصوف الاسلامى يعتبر تجربة من أخصب التجارب النفسية والوجدانية التى أمدت أدبنا العربى شعره ونثره على السواء بمادة خصبة • وأغنت جوانبه بذلك اللون الممتع الذى يشرق بصفاء النفس الانسانية حينما تحطم أغلال الجسد وتتحرر من عبودية المادة • وتتسامى الى عالمها الأمثل الذى يشرق بأقباس الحق والطهر والجمال ..

والتصوف الاسلامى بمفهومه العلمى الدقيق لم يظهر الا فى أخريات القرن الثانى الهجرى . بل لم تتحدد معالم مواضعه ظاهرة نفسية ترتكز على أسس أخلاقية وفلسفية الا فى القرن الثالث الهجرى حيث وضحت ملامح التفاعل الثقافى بين العرب وغيرهم •

ولقد سبق التصوف الاسلامى قبل أن يصل الى هذه الصورة

(١) عنقاء مغرب صفحة ٤ ــ ٧

بألوان أخرى من الحياة الروحية • تمثلت فى وجود المتعبدين والزهاد الذين مهدوا الطريق أمام الحركة الصوفية المنظمة التى نضجت ابان القرن الثالث على يد ذى النون المصرى والحسين الحلاج • ثم بلغت تمام نضجها فى القرون اللاحقة على يد الغزالى ومحيى الدين بن عربى وعمر بن الفارص وغيرهم •

ولقد عنى القرنان الأول والثانى من الهجرة بألوان مختلفة من الأدب الدينى الذى كان يمثل النزعات الدينية عند هؤلاء المتعبدين والزهاد • ولكن هذا الأدب فى عمومه كان يقوم على المعانى البسيطة التى تعبر عن وجدان دينى يرهب الله ويخشاه . ويزهد فى الدنيا ، وفى شهواتها الفانية دون أن يتضسن اتجاهات فلسفية خاصة تكون مذهبا له أصول وقواعد كتلك الاتجاهات التى بنى منها مذهب الصوفية فيما بعد . ومع هذا فاننا نحس لهذا اللون من الأدب بطعم خاص . ونرى فيه انطباعات هذه الحياة الروحية التى أخذت منذ القرن الثانى تستقل فى جوهرها عن الخياة العامة ويتميز أصحابها بانتاجهم الأدبى الذى يبدعونه من جلال هذه الحياة التى كانوا يحيونها فى عبادة ونسك وانقطاع الى الله ودعوة الى الدين والاخلاق •

قال الحسن البصرى ، وهو من نساك البصرة وزهادها : يا ابن آدم ، بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعا . ولا تبع آخرتك بدنياك فتخسرهما جميعا • يا ابن آدم اذا رأيت الناس فى الخير فناقشهم فيه واذا رأيتهم فى الشر فلا تغبطهم عليه . الثواء هاهنا قليل والبقاء هناك طويل . أمتكم آخر الأمم . وأنتم آخر أمتكم . وقد أسرع بخياركم ، فماذا تنتظرون ؟ الا ان هذا الموت قد أضر بالدنيا ففضحها ، فلا والله ما وجد ذولب فرحا • فاياكم وهذه السبل المتفرقة التى جماعها الضلالة وميعادها النار • أدركت من صدر هذه الأمة قوما كانوا اذ جنهم الليل فقيام على أطرافهم • يفترشون خدورهم ، تجرى دموعهم على خدودهم يناجون الههم فى فكاك رقابهم • اذا عملوا الحسنة سرتهم وسألوا الله أن يتقبلها منهم واذا عملوا سيئة ساءتهم وسألوا الله أن يغفرها لهم • يا ابن آدم ان كان لا يغنيك

ما يكفيك فليس ها هنا شيء يغنيك • وان كان يغنيك ما يكفيك فالقليل من الدنيا يكفيك •

وقال ابن اذنية • وهو من الشعراء المتزهدين :

لقد علمت وما الاشراف من خلقى ان الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى اليه فيعيينى تطلبه ولو جلست لكان الرزق يأتينى
لا خير فى طمع يدنى لمنقصة وغيره من كفاف العيش يكفينى

وقال أبو العتاهية فى تهوين شأن الدنيا :

حياتك أنفاس تعد فكلما مضى نفس منها نقصت به جزءا
يميتك ما يحييك فى كل ساعة ويحدوك حاد ما يريد بك الهزءا

وقال الامام الشافعى فى الخوف ورجاء العفو :

فلما قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلما قرنته بعفوك ربى كان عفوك اعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما

وهكذا نرى أن حياة الزهد والتعبد فى القرنين الأول والثانى ومنتصف الثالث قد صنعت الأدب بذلك اللون الوجدانى الذى تشيع فيه معانى الخوف والرهبة والتهوين من شأن الحياة والتزهيد فى متاعها • والتذكير بالموت والاستعداد لما بعده من حياة باقية لا يشوبها فناء • ولكن هذه المعانى كانت أقرب الى البساطة • فهى تعبر تعبيرا مباشرا عن عاطفة دينية واضحة لم تشبها بعد نزعات فلسفية عميقة • فاذا ما انتقلنا الى القرن الثالث • وجدنا الزهد يتطور الى مذهب فلسفى أخلاقى هو التصوف • ووجدنا هذا المذهب يضفى ألوانا أخرى من التأثير على الحياة الأدبية تتمثل فى تلك الموضوعات الجديدة التى تشكل منها هذا المذهب كالحب الالهى ومقامات الكشف والفناء والاتحاد وما اليها ثم فيما ترتب على هذه الموضوعات من مناهج جديدة فى التعبير •

ولقد أثر التصوف فى الأدب من ناحية شكله • فالألفاظ والتعابير الخاصة التى كانت تعتبر قاموسا للمتصوفة وحدهم هى أكثر اتصالا

بحياتهم ومذاهبهم . وأدق تعبيرا عن معانيهم النفعية والوجدانية التى كانوا ينفعلون بها • فمـن هذه الألفاظ مثـلا :علم اليقين • حق اليقين • عين اليقين • المحو • الذوق • الصحو • المريد • المراد • السالك • المسافر • المقام • الحال • القطـب • القبض • البسط • السـكر • جمع الجمع • الوجود . الوجد . التواجد . الانس . الى آخر هذه الألفاظ والمصطلحات الكثيرة التى كان لـكل لفظ أو مصطلح منهـا دلالة على حالة من حالاتهم النفسية والوجدانية .

ومن ناحية مضمونه • فقد كانت موضوعات الأدب الصوفى داعيا قويا لاستحداث أسلوب تعبيرى جديد لم يكن معروفا من قبل ذلك هو الأسلوب الرمزى الذى يقوم على استخدام المجالات الحسية فى التعبير عن المجالات الروحية والمعانى الوجدانية فهم يستخدمون مجال الغـزل البشرى للتعبير عن حبهم الالهى ويستخدمون مجال الخمريات للتعبير عن سكرهم بالوجد والتفانى فى الذات الواحدة •

ومن ذلك الأسلوب الرمزى قول أبى سعيد الخراز الصوفى :

أسائلكم عنهـا فهل من مخبر ... فمـا لى بنعم مذ نأت دارها علم

فلو كنـت أدرى أين خيم أهلها ... وأى بلاد الله اذ ظعنـوا أمـوا

اذن لسلكنا مسلك الريح خلفهـا ... ولو أصبحت نعم ومن دونها النجم

فهو يرمز بالسـؤال عن محبـوبته « نعم » وعن رحلته وراءها الى التعلق بذات الله وحده وأن لا شىء سواه •

وابن القارض فى خمرياته الالهية يعطى مثلا رائعا لذلك الأسلوب • حيث يقول :

شربنـا على ذكـر الحبيـب مدامـة
سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم
يقـولون لى صفهـا فأنـت بوصفهـا
عليم . أجل . عندى بأوصافها علم

فابن الفارض هنا يتغنى بخمرة خاصة . يعرف نشوتها ويحس لذتها هو وحده . وهذه الأبيات وأمثالها صورة رائعة من الشعر الصوفى الذى يتسم بصدق العاطفة وخصوبة الخيال والقدرة على التصوير .

وهذه العناصر شغلت جانبا مهما من الأدب الصوفى . وأكثر المتصوفة من ابرازها والتعبير عنها . ففى مقام الفناء ، وهو الشعور بفناء الذات البشرية فى الذات الالهية . يقول أحد الصوفية :

عجبت منك ومنى أغنيتنى بك عنى
أدنيتنى منك حتى ظننت أنك أنى

ولم يقف أثر التصوف فى الأدب عند هذه الجوانب التى ذكرنا . بل لقد كان التصوف قوة دفعت كثيرا من الظواهر الأدبية الى الوجود كفن المدائح النبوية الذى هو صدى لنظرية الحقيقة المحمدية. وفن المناجاة الذى يقوم على التعلق بالذات الالهية . وكذلك الأدعية والأوراد والحكم والوصايا والنصائح وأدب الأخلاق وما الى ذلك من الاتجاهات الأدبية الصافية . التى عكست على الشعور الانسانى قوة تسمو به الى عالم الحق والكمال .

وهذا دعاء من أدعية ابى حيان التوحيدى : اللهم انى أبرأ من الثقة الا بك . ومن الأمل الا فيك . ومن التسليم الا لك . ومن التفويض الا اليك . ومن التوكل الا عليك . ومن الطلب الا منك . ومن الرضا الا عنك . ومن الذل الا فى طاعتك . ومن الصبر الا على بلائك . اللهم تتابع برك . واتصل خيرك . وعظم رفدك . وتناهى احسانك . وصدق وعدك . وبر قسمك . وعمت فواضلك . وتمت نوافلك . ولم تبق حاجة الا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها . فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة. انك أهل ذلك والقادر عليه .

ومن ديوان الحلاج فى معراج السلوك ، حيث صار غنيا عن كل ما سوى الله سبحانه ، وتطهرت روحه وبرئت من كل ما لا ينتسب اليه جل جلاله ، فصار فى حال فناء كامل عن وجود السوى . وشهود السوى . وعبادة السوى . فلم يصبر على ما شاهد من جمال وجلال فهتف :

والله ما طلعت شمس ولا غربت الا وحبك مقرون بأنفاسى
ولا خلوت الى قوم أحدثهم الا وأنت حديثى بين جلاسى
ولا هممت بشرب الماء من عطش الا رأيت خيالا منك فى الكاس
ولو قدرت على الاتيان جئتكم سعيا على الوجه أو مشيا على الراس
مالى وللناس اذ يرموننى سفها دينى لنفسى ودين الناس للناس

روى أبو هريرة عن النبى — صلى الله عليه وسلم — قوله : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . ومن لم يحب لقاء الله لم يحب الله لقاءه . وورد فى الحديث القدسى أن الله تعالى يقول : ولا يزال العبد يتقرب الى بالنوافل حتى أحبه . فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به .. الخ .

وقد كانت رابعة العدوية أسبق الصوفية الذين أشاعوا استعمال لفظ الحب فى الاسلام • وكانت رابعة العدوية تعبد الله تعالى لا خوفا من ناره . ولا طمعا فى ثوابه . وانما محبة لذاته . واستمتاعا بمطالعة جماله الأزلى على نحو ما يستفاد من قولها فى مناجاتها : الهى اذا كنت أعبدك رهبة من النار فاحرقنى بنار جهنم . واذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فاحرمنى منها • وأما اذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرمنى يا الهى من جمالك الأزلى •

ولرابعة العدوية أبيات فى الحب الالهى مشهورة بينت فيها أقسام الحب على نحو ما يتبين من قولها مناجية الله سبحانه وتعالى :

احبك حبين • حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عمن سواكا
وأما الذى أنت أهل له فكشفك لى الحجب حتى أراكا
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

وكان الحارث المحاسبى من الصوفية الأوائل الذين تكلموا فى المحبة فيشرح لنا المحبة من الناحية النفسية قائلا : المحبة ميلك الى الشىء بكليتك. ثم ايثارك له على نفسك وروحك ومالك . ثم موافقتك له سرا وجهرا . ثم علمك بتقصيرك فى حبه •

وأبرز شعراء الحب الالهى فى تاريخ التصوف الشاعر الصوفى المصرى شرف الدين عمـــر بن الفارض الذى كانت حياته فياضة بالحـــب وخاضعة للوجد • فاستمع اليه قائلا :

ان الغرام هو الحياة فمت به صـــبا فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدمـــــــوا قبلى ومن بعدى ومن أضحى لأشـــجانى يرى
عنى خذوا ، بى اقتدوا ولى اسمعوا
وتحـــدثوا بصـــبابتى بين الورى

وله أيضا :

نسخت بحبى آية العشق من قلبى فأهل الهوى جندى وحكمى على الكل
وكل فتى يهـــوى فانى امـــامه وانى برىء من فتى ســـامع العذل
ولى فى الهـــوى علم تجل صـــفاته ومن لم يفقهه الهوى فهو فى جهل

وهو القائل أيضا :

كل من فى حماك يهواك لكن أنا وحــــدى لكل من فى حماكا
يحشر العاشقـــون تحـــت لوائى وجميـــع المـــلاح تحـــت لواكا

وحذر كثير من الصوفية السالك من الانطلاق فى المحبة مع هواه كما حذروه من اساءة الأدب :

وقد كان الشاذلية من الصوفية يفضلون مقام الرضا على مقام المحبة . فالمحبة عند ابن عطاء الله الســـكندرى مثلا • وهو من أئمة الشاذلية • من أجل مقامات اليقين • ولـــكنه لا يعتبرها أكمل المقامـــات التى يتحقق بها السالك فى طريقه الى الله اذ يفضـــل عليها مقام الرضا • وذلك لأن الراضى متجرد عن حظوظ نفسه وعن طلب هذه الحظوظ لها وتستوى عنده جميع الأحوال الواردة عليه من الوصل والقطع أو القرب والبعد لرضاه عند الله فى جميعها • ولا كذلك المحب فهو يريد دوام الوصلة وشهود محبوبه • فهو مايريد لنفسه . وبذلك يكون مقامه دون مقام الرضا . وفى هذا يقول ابن عطاء الله السالك : اعلم أن المحبة هى من أجل مقامات اليقين حتى اختلف أهل الله أيهما أتم ، مقام المحبة أم مقام الرضا ؟ وان كان الذى نقول به أن

مقام الرضا أتم لأن المحبة ربما حكم سلطانها على المحب وقوى عليه وجود الشغف فأداه ذلك الى طلب ما لا يليق بمقامه • ألا ترى أن المحب يريد دوام شهود الحبيب • والراضى عن الله راض عنه أشهده أم حجبه !• المحب يحب دوام الوصلة والراضى عن الله راض عنه وصله أم قطعه • ليس هو مع ما يريد لنفسه بل انما هو ما يريد الله له والمحب طالب لدوام مراسلة الحبيب والراضى لا طلب له ولنا فى هذا المعنى شعر :

وكنت قديما أطلب الوصل منهم   فلما أتانى العلم وارتفع الجهل
تيقنت أن العبد لا طلب له   فان قربوا فضل وان بعدوا عدل
وان ظهروا لم يظهروا غير وصفهم   وان ستروا فالستر من أجلهم يحلو

وابن عطاء الله حين يجعل مقام الرضا أكمل من مقام المحبة يخالف « الغزالى » الذى يجعل المحبة أكمل المقامات وأعلاها شأنا ويعتبر الرضا مجرد ثمرة من ثمراتها على نحو ما يستفاد من قوله فى الاحياء : المحبة لله هى الغاية القصوى من المقامات والذروة العليا من الدرجات • فما بعد ادراك المحبة مقام الا وهو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها . ولا قبل المحبة مقام الا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها .. ومن قول محيى الدين بن عربى :

ذبت اشتياقا ووجدا فى محبتكم   فآه من طول شوقى آه من كمدى
يدى وضعت على قلبى مخافة أن   ينشق صدرى لما خاننى جلدى
ما زال يرفعها طورا ويخفضها   حتى وضعت يدى الأخرى تشد يدى

وهكذا نرى المحبون يضحون فى محبة الله بكل غال ، ويرونه ثمنا زهيدا ولا عجب فى ذلك فقد عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم •

ويقول الامام الصوفى الكبير سيدى أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لن يصل العبد الى الله تعالى ومعه شهوة من شهواته ، أو مشيئة من مشيئاته . ولن يقتل هوى نفسه حتى يأخذها بالقوة وشدة المجاهدة

الى أن يذللها تذليلا ويروضها على نسيان ذاتها فيقف عند حد الذل الى الله تعالى •

ويقول سلطان العاشقين سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه :

وعن مذهبى فى الحب ما لى مذهب — وان ملت يوما عنه فارقت ملتى
ولو خطرت لى فى سواك ارادة — على خاطرى سهوا قضيت بردتى

وقال بعض الصديقين :

سألت ربى : بأى شىء أصل اليك يارب ؟ فقال : اترك نفسك وتعال .

ويقول سيدى أبو الحسن الشاذلى فى كيفية التدرج فى السلوك الى الله : أول منزل يطؤه المحب للترقى منه الى العلا .. النفس فاذا اشتغل بسياستها ورياضتها الى أن انتهى الى معرفتها وتحققها أشرقت عليه الأنوار المنزل الثانى وهو القلب • فاذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق عليه منه شىء اشرقت عليه أنوار المنزل الثالث وهو الروح •• فاذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئا فشيئا الى تمام نهاياته وهذه طريق العامة ، وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوك تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها ••

ويقول العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

نحن فى عالم اليقين رجال — قد غسلنا نفوسنا ثم غبنا
وشراب الرجال علم وحلم — انما نحن فوق ذلك شربنا
فتح الباب ثم قال لجوه — فولجنا وبعدها قد وصلنا

وقال أبو سعيد الخراز • تهت فى البادية مرة فكنت أقول :

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا — سوى مايقول الناس فى وفى جنسى
أتيه على جن البلاد وانسها — فان لم أجد شخصا أتيه على نفسى

قال فسمعت هاتفا يقول :

أيا من يرى الأسباب أعلى وجوده — ويفرح بالتيه الدنى وبالأنس
فلو كنت من أهل الوجود حقيقة — لغبت عن الأكوان والعرش والكرس
وكنت بلا حال مع الله واقفا — تصان عن التذكار للجن والانس

وما أروع ما يقوله العارف بالله الشيخ على عقل رضى الله عنه :

قتلت هوى نفسى فعشت بلا نفسى وجافيت انسى فانحدرت الى الانس
وما اتخذت روحى سوى الله غاية فتم الهوى للروح والقلب والحس
وهل غير ذات الله للنفس مطلب حرام سوى الرحمن يدخل فى نفسى

قال « ذو النون » وفى يده الغل وفى رجليه القيد ، وهو يساق الى المطبق • والناس يبكون من حوله • وهو يقول : هذا من مواهب الله تعالى ، ومن عطاياه . وكل فعاله عذب حسن طيب . ثم أنشد من الخفيف :

لك من قلبى المكان المصون كل لوم على فيك يهون
لك عزم بأن أكون قتيلا فيك والصبر عنك ما لا يكون

ولا يفوتنا قبل أن نختم هذا الفصل من التصوف — ذلك المنبع الذى لا ينضب والذى اذا أردنا الاسهاب فيه لكتبنا المجلدات الضخمة الكثيرة — أن نذكر بعضا مما جاء فى الكلمة الضافية عن التصوف والمتصوفين لسيادة الأستاذ « صلاح الدين السلجوقى » سفير أفغانستان والتى نشرت فى مجلة الاسلام والتصوف بعددها الرابع عام ١٩٦٠ ، يقول :

يقول « شوبن هارو : ان الانسان حيوان ميتافيزيقى . ولا شك فى أن الانسان حينما أشرقت عليه شمس الشعور ، بدأ يتخيل ويتفكر فى العالم الالهى . فحينما كشف الانسان عقليا أن هنالك مبدأ للكون أزليا وأبديا ومجردا ، كان هذا الكشف فكرة فلسفية محضة عارية من النزعات . وخالية من العواطف • مثلما كشف الانسان البخار والبرق والذرة • ولما كشف أن هذا المبدأ هو منشؤه ومصيره أيضا وأنه — أى الانسان — مسئول أمامه أحس فى نفسه خوفا وطمعا وكان ذلك بداية الدين عند الانسان وحينما نظر نظرة أعمق الى التكون • رأى أن هناك نظما طبيعية تعم الكائنات كافة• بل هناك نظم يمكنه أن يقرأها بسهولة ونظم تلائم شعوره• ونظم قريبة اليه • كان هو بنفسه ألفها ودونها • وحينما يعرج من سطح الطبيعة الى عالم الشعور والتمييز والارادة . يرى أن هناك نظاما أدبيا ينعكس فى مشاعره السامية وضميره الانسانى • ويرى أيضا أن هذا النظام الأدبى متواز ومتوازن مع النظام الطبيعى • وكما أن النظام الطبيعى يدعو

الى المعادلة والجاذبية • كذلك النظام الأدبى • يقود الى العدل والحب
وعندما يوقن بالنظام الطبيعى• يفقد نفسه وشخصيته فى ذلك النظام ويجعل
ارادته تبعا لهذا النظام المقدر ويتصور وجوده أقل مما يتصور • بجانب
العالم الطبيعى المترامى الأطراف • ويعرف أن كل الأشياء تتبع هذا النظام
طوعا • ولكن حينما يذعن للنظام الأدبى • يجد شخصه ونفسه فى مستوى
أعلى من الطبيعة ويشعر باتحاد شعورى مع المبدأ القدسى السرمدى .
ويحسب نفسه مجردا عن المادة خالدا من الموت • ويرى أن هنالك وحدة
شعورية • بين المبدأين وبين النظام • وبين الناس وبين المبدأ والنظام
والكون • وبينه وبين الكل • فهو يحب الكون • ويحب النظام• ويعشق
المبدأ الخير العادل الحى النورانى • الذى هو بقدسيته يبدأ منه كل شىء •
ويعود اليه كل حى • فهذا الشخص هو الصوفى الذى يسير فى الكون
بمقتضى النظام الطبيعى ويحترم قانون الطبيعة•كماكان الرواقيون يعتقدون
به ، ويسلك فى الحياة بالنظام الأدبى . ويؤمن بالحق وبالخير وبالعدل .
ويحب الله الذى تجلى فى الآفاق والأنفس وجعل من الانسان أحسن مرآة
لجماله وجلاله •

فالمعرفة عند الصوفى ذاتية • ولذلك يسمى نفسه سالكا ومسافرا •
يسافر فى ذاته . ويطوى المراحل فى نفسه . ويجد المنزل الأقصى . والهدف
الأسمى والسعادة العظمى وهو الكمال الذاتى . أعنى التخلق بأخلاق الله
فى شخصه المنظم • وفى نفسه المطمئنة • فهو يعرف الله من نفسه المطمئنة
والمتحدة شعورا مع الله • ويعرف الكون من الله سبحانه وتعالى عما
يصفون . فلا شر ولا نقص ولا قبح فى الكون فى نظر الصوفى ، لأن الكون
مرآة لجماله وجلاله تعالى .

فالباحث عن العلوم يبحث عن الطبيعة كشىء خارجى عنه ليأمن شره .
ويجلب خيره والفيلسوف يلم بعالم ما وراء الطبيعة بالبصر وما بعد الطبيعة
بالبصيرة فى ذاته . الذى هو العالم الأكبر عنده وكما أن العابد يعبد الله لينال
ثوابه . والزاهد يزهد فى الدنيا ليقى نفسه من العقاب ، فالصوفى يحب الله
لا لشىء بل لوجهه تعالى ، يقول بعض الأوربيين ان الحب دين الملائكة ،

وهذا خطأ ، فدين الملائكة هو الوظيفة ، ودين الانسان هو الحب ، الحب للحب ، والله لله .

وقال سيادته : التصوف ليس كلمة مشتقة من الصوف • ولا من الصفة • كما زعم بعض الكتاب • بل هو كلمة اغريقية معربة من « تيوسوفى Theosophy ومعناه محبة الله أو رفاقة الله •• ونرى ارهاصات تلك الفكرة فى بعض أفكار افلاطون . وبعده ترى بأكثر وضوحا فى اداء « اسبفزيبوس » ابن اخته ووارث أكاديميته وترى حتى أكثر من ذلك فى تأملات الرواقيين • ولكن أول ما ظهر التصوف بمظهره الجلى كان فى الاسكندرية عند « يونيسيون » (اريوباك) البدنى الاسكندرى فى افلاطونيته الحديثة • وكانت تلك المدرسة فى عهد افلاطون بعيدة كل البعد عن التصوف • كان افلاطون يعتقد أن الانسان لا يمكن له أن يتصل مع الله • لا بالحس ولا بالفكر أو الحدس وحتى التخيل الا بنوع من الغيبوبة Exstasy وما كان يدرى أنه تعالى أقرب اليه من حبل الوريد • ولكن ما مضى عهد حتى نبع من تلك المدرسة ينبوع صاف من التصوف • « فديونيسيوس » أول صوفى رسمى شرح التنزلات الأربع عند المتصوفين فى عالم الاطلاق الى دنيا اليقين •

وبعد ذلك نرى نزعة من التصوف فى أفكار أريجنيا « جان سكاتس » و « أجشتبنوس » وغيرهما من العلماء والرهبان .

وفى الاسلام بعد ما نرى بنص الآية القرآنية : « الله نور السموات والأرض » وبنص الحديث النبوى : ان الله خلق آدم على صورته . نرى فى أول مرة أن طفلا ينطق فى مهده عن التصوف وله من تأملات القديسة « رابعة العدوية » النابغة التى هى فخر الاسلام وذخر للتصوف والتى ترقد محجوبة عن الناس بجوار سيدى عقبة فى منطقة الامام الليثى بالقاهرة قريبة من زميلها المعروف « ذى النون » المصرى . قدس الله سره العزيز .

وبعد ذلك نرى تلك الفكرة مبوبة ومفصلة فى آثار الشيخ محيى الدين بن عربى .

ولكن التصوف الذى وصل الى ذلك الحد ، كان التصوف الأصلى، أعنى وحدة الوجود Pontheism الذى يقـول بأن الوجود واحد والوجود الحقيقى هو وجود الله . وباقى أنواع وأصناف وأفراد الوجود ظلا ومظهرا انعكاس له ،

فالصوفى فى « وحدة الوجود » يقـول : الكل هو . أو كمـا يقول « مكنزى » : هو الكل هو الله فى السموات والأرض ،

ولكن بعد زوال الفاطميين ، وبعد مخالفة بعض العلماء أمثال العلامة ابن تيمية قبله وبعده ، حدث تدهور فى التصوف وبدأ العلماء والمتصوفة انشاء مكاتب أقـرب الى قبول الفقهاء ، وكثرت تلك المـكاتب وتعددت المسالك والمشـارب ودخلت فيه أشياء كثيرة ، وقامـت فى كل بلد وحى حلقات ، لكل حلقة ميزاتها ،

وأما التصوف بمعنى الكلمة فعبارة عن « وحدة الوجـود » الذى انقرض حاليا من الغرب ، وتسرب الى المسلمين غير العرب وبخاصـة فى الشرق الأوسط . وفى الهنـد وأكثر العلماء والكتاب والشـعراء فى تركيا وايران وبخارى ولا سيما أفغانستان والهند اعتنقوا هذه الفكرة .

وحتى أبو على بن سينا فى آخر اشارته ، والامام الغـزالى فى آخر حياته ، مالا كثيرا الى تلك الفكرة ، وفى القرن السادس للهجرة عمت هـذه النظرية جميع الشرق الاسلامى ، ونرى آلافا أمثال مولانا « جلال الدين الرومى » والشـيخ شبسترى وفريد الدين العطار والجـامى والسـادات والحافظ والعراقى وبيدل يعتنقون هذه الفكرة ، وحتى بعض الفلاسفة أمثال القاضى مبارك وصدر الدين الشيرازى صـبغوا مبادئهم الفلسفيـة بهذه الصبغة .

فالقاضى مبارك يشبه الوجود المطلق بالـكلى الطبيعى ويشـير اليه الخاقانى الشاعر الكبير فى القرن الخامس للهجرة ، أى قبل القاضى مبارك بأكثر من خمسة قرون ، وتسربت هذه الفكرة الى أوربا فى أغلب الظن من العرب ، ولاسيما فى الأندلس موطن الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ،

فسنبوزا الصوفى الكبير ، بل أكبر الصوفية بين فلاسفة الغرب ، كان من أصل أندلسى ، واعتنق تلك الفــكرة بأجمل صورة وأعمق نظــرة ، فآثاره كانت الملهمة للشعراء أمثال « جوته وهيتى » الألمانيين و « ورود زورث » الانجليزى ، كما كانت الملهمة لمثالية الألمان .

يقول بعض الفقهاء ان هذه الفكرة حلولية وتناسخية ، ولكن وحدة الوجود بريئة من الحلول والتناسخ اللذين فى كل منهما تفاوت وانتقال . فى حال أن وحدة الوجود اشعاع وتجل وانعكاس، فالمنشأ القدسىوالنورانى لا يزال يتقد ويشعشع والكائنات الحية وغير الحية تقتبس نور الحياة وحفظ التركيب على حسب استعداداتها من ذلك المركز المشع الفعــال الأقدس السرمدى بوحدة فى الوجود واقتران فى الشئون والتعيينات .

فالوجود الحقيقى هو مركز الاذاعة ، اذاعة الحياة والشعور فى حال أن جميع الوحدات الآخذة من الكائنات لا تزال تستمد الاشعاع والاذاعة من المركز مع وحدة الروح والاشعاع ولوازمها فى الآخذ والمأخوذ منه . وبعبارة أخرى أن الوجود الحقيقى هو كالشمس ، المنبع الأصلى للنــور والاشعاع واننا كالذبذبات الاشعاعية المنبعثة من الشمس .

ووحدة الوجود تختلف تماما عن الوجودية Exislentialism التى تنكر الضوء وتقر بالظل وتحل اليقين والتشخيص محل الذات ، وفرق آخر هو أن الصوفى أنانى« Est » بنفسه العليا التى هى متحدة معنويا مع الله ومحبة للغير « Alirurst » باتحاده مع الكون ، ولكن الوجودى بأنانيته الفردية والغرائزية بعيد كل البعد عن الأصل والكون والمجتمع .

فوحدة الوجود فكرة قديمة ، وحتى فى اليــونان توجد آثارها فى ميداشى الهندية ولا سيما فى Upedidh ابنى شاذر وفى افيستا ، ولكن الشكل الحقيقى والطبيعى لهذه العقيدة وجد أولا بصــورة ابتدائية فى اليونان ، وبعناية أجمل فى الاسكندرية عند ديونيوس ، ولكن الاسلام عمدها بماء أصفى ، ونفض عنها غبار المادية ووشحها بجواهر كريمة من الحب القدسى والسماوى والعطف الالهى نحــو الــكون من العلم العلوى الى السفلى .

ويقول العراقى : ان أول رحيق أراقوه فى الكأس استعاروه من عين الساقى لسكيره . يعنى أن ينبوع الحب هو الجمال الكلى ، ومنه انتزع ونشر الحب ، ويقول الجامى : الذى يعشق الوجوه الجميلة الجذابة ، اذا كان يدرس أو لم يكن يدرس فانه عاشق للجمال الحقيقى .

ويقول عبد القادر بيدل :

التصوف مدرسة فكر فلسفى من أعمق الفلسفة ، يعتقد بوحدة الوجود ، وبعدما اعتنق الاسلام تقدم شوطا أكبر وأعلى فى سماء التنزيه والتوحيد .

والصوفى المسلم يعتقد أن لا اله ولا كائن ولا موجود الا الله المعبود والمحبوب الذى هو أصل الوجود ، وينبوع الحياة ومنشأ الحب الخالد ، وأن الكون هو ظل واشعاع لهذا الشعاع ، الذى هو نور السموات والأرض .

يقول بيدل : ان الموجود اسم لذات متسام ، وان ما سواه وهم ، من عالم الخضر « أى الأرض » الى عالم المسيح « أى السماء » .

ويقول « تولاند » : انى آمنت بهذه العقيدة وأيقنت أن هذا الفكر هو الفكر الحقيقى للانسان ، وكثيرون أمثال تولاند يعتنقون تلك العقيدة التى يؤيدها عصر الذرة .

فعصر الذرة الداعى الى الوحدة فى النظام الطبيعى يقتضى منا أن نتبع الخلق الذرى ، أعنى تصوف الوحدة الوجودى التى تدعو الى الوحدة والحب بين الطبيعة وما بعد الطبيعة وما بين الانسان والبشر ، والانسان والكون . والانسان والله شعورا ، فالقوة الذرية الفتاكة ينبغى أن تعالج بالأخلاق الذرية المحبة ، أعنى التصوف ، ونزعة التصوف فطرية ، فالانسان وقد أدرك عظمة الخلقة التى ظهر فيها ومبلغ ذلك التصوير العجيب ،والنفحة الربانية التى أودعت فيه لم يكن ليفنى بعد هذا العمر القصير المحدود فى الدنيا بل خلق ليعمر آمادا من السنين ربما تعد بالملايين ، لهذا جد فى البحث عن الحياة وأهدافها وغاياتها وطرقها وشك فى قيمتها المادية التى تدور دائما

بين الضعف والقوة والحياة والموت والشروق والغروب ، وتسامى الى حياة أخلد وأبقى ثابتة القيم ، عادلة المقاييس . واصل الانسان الجهد ليصل الى الحقيقة الثابتة الدائمة التى لا تزول . الى أصل الوجــود ومفيض النعم وبارىء النسم وواهب الاشراقات الى الله والى مرضاته حيث الفوز الأبدى فى حياة أخرى يتفجر فيها نعيم لا ينضب .

وهذا الصراع المستعر بين دافع الفطرة ونداء الشيطان الحــائم حول زخرف الحياة وزينة الحطام هو محور التصفية وبوتقة الاختبار فى تنور الصهر ، بعدها يظهر الانسان زهرة نضرة بل شــجرة باســقة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين من آداب وأخلاق ومثل مع اشراق الروح وجلاء فى القلب ونور فى الفكر يوصله الى ما فى الكون من عجائب وأسرار وبدائع وآيات كبرى تلك فطرة الانسان ، ولكن : هل يستطيع أن يتبصر الطريق بلا ذلك وهل يتمكن من الوصول من غير انحراف أو خطأ ؟ انه لابد من تشريع يرشده الى الحق ويهديه السبيل .

والصلاة التى فرضها الاسلام هى المرقاة الأولى من درج الصــعود الأقدس بل التحرك الأول من الزحف المقدس نحو الكمال ، وكل تارك لها يعتبر متخلفا فى نظر الاسلام عن ركب الكمال الانسانى .

ثم ارتقى الاسلام بالصلاة درجة بعد درجة وجعل المسلم الصاعد فيها ينتقل فى الكمال حتى يصل الى منتهاه ويتمتع بمحبة الله ، حينئذ يرى بنور الله ويســمع بسمع الله ويغضب ويرضى فى الله ولله ، ويســخر مصلحتــه الشخصية فى المصلحة العامة ولا يقول أنا ولا يغره زخرف الحياة ويجود بما ملكت يداه ، ولا يشغله أهل ولا ولد ولا تنمية مال عن الجهاد فى سبيل الله ، يقول الحق ولو كان مرا ، ويكره الباطل ولو كان تبرا ، يزداد بعبارته كل يوم درجة فى الوصول ناشرا النور بين الناس بلسانه وعمله وظاهره وسره وخلوته وجلوته به يسعد الوطن وتتكتل الأمة وتقوى الجبهة وبجهاده يتحطم الأعداء .

ومن المعلوم أن الايمان تصديق وتسليم واعتقاد ، وانه ينصب على أمور غيبية لا تدركها الحواس ، فالله وملائكته وصدق الكتب والرسل من أمور الغيب التى هى محل للايمان ولا تدركها الحواس .

وبما أن الايمان لا تدركه الحواس ، فانه فى الواقع يعتمد على سلامة القلب وحسن استعداده للتسليم والتصديق ، ولذلك تستهدف الصوفية تربية القلب على السلامة وتنقيته مما يمنع تصديقه وتسليمه .

ومن المشاهد أن القلب السليم الفطرة لا يمتنع عليه التصديق والتسليم أما القلب الذى تعلق بالأهواء والأطماع والشهوات ، فهو محجوب عن الايمان بالله .

ولذلك فقد كانت أولى الطرق العملية التى يعنى بها التصوف هى تنقية القلب من هذه الحجب ، واخراج ما سوى الله منه ، فاذا تنقى القلب من هذه الحجب وعن ما سوى الله ، عمدت الصوفية الى توجيه المريد الى الطريقة السليمة المثلى التى يشق بها طريقه فى الحياة بما يرضى الله، وارشاده الى أفضل المثل وأرقاها ، ولما كان الانسان بطبيعته محدودا عن التجريد والاطلاق لا يفهم المثاليات المجردة والمعنويات المطلقة ، فان الطريقة العملية التى تنتهجها الصوفية فى ذلك هى توجيه الناس الى أسوة محددة ونموذج واضح حتى ينتقلوا من المحسوس المطلق الى المطلق المجرد ، وقد اقتضى الدين فى ذلك أن تتخذ رسول الله أسوة حسنة ، ومن لم ير رسول الله فلا أقل من أن يبدأ بالاقتداء بمن يقتدى بالرسول ، حتى يستطيع أن يتدرج من ذلك الى الاقتداء بالرسول نفسه ، ومن ذلك الى تعشق المثل العليا فى ذاتها وعباداتها لجمالها ، وكمالها على اطلاقها ، وهذه المثل العليا هى الله سبحانه وتعالى ، فالله هو مثل المثل ، « ولله المثل الأعلى » ، فيستقيم بذلك معرفة الله ومحبته .

والبلوغ الى هذه الغاية العسيرة يتطلب سياسة خاصة للمريد ومايفلح مع بعض الناس قد لا يفلح مع بعضهم الآخر لاختلاف ظروفهم وطبائعهم ، ولذلك عنيت الصوفية بأن يتخير المرشد للمريد ما يناسبه من الطرق العملية. وبذلك تعددت مناهجها وطرقها حتى تلائم مختلف الطبائع والظروف .

هذه هى الأصول الثلاثة التى تنهض عليها الطرق العملية للتصوف وهى ملخصة فيما يلى :

الأولى تنقية القلب من الحجب وما سوى الله .

ومن المعلوم أن الحجب ثلاثة :

١ — الأهواء والشهوات .

٢ — الأطماع وحب المال .

٣ — اعجاب الانسان بنفسه والكبرياء فما دام القلب مشغولا بأحد هذه الحجب — وهو لابد كذلك — فان الطريق الى الله لا يكون واضحا ، ويتجه الفكر والقلب دائما الى الانحراف نحو هذه الأهداف للنيل منها .

ولما كان الانسان ينفق جهده ووقته وماله فى الغاية التى يعتقدها . فقد اتفقت كلمة الصوفية على أنه يجب أن يعمل من نوافل الخير، ولكنهم تركوا للمسلم اختيار ما يستحسنه منها وكلها حسن .

وثبت فى الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام لمن سأله عن الفرائض هل على غيرها ؟ قال عليه الصلاة والسلام : لا الا أن تتطوع .

وسواء استحسنها لنفسه أو استشار ناصحا أمينا فأرشده الى بعضها. وهذا المرشد له أجر الدلالة على الخير ، ولا ينقص من أجر العامل شىء . ولا يزال العبد يتقرب كل يوم فيزداد تقربا من المولى عز وجل ورعاية لجلاله ومعرفة لكماله ، حتى يصل الى مقام « المحبوبية » وهى المرتبة العليا .

ومرتبة النهاية « حتى أحبه » ،فاذا أحبه الله تولى أمره ، فأحاطه برعايته الخاصة والحفظ الذى وقى به أهل الخصوصية من أوليائه المحبوبين وقوله تعالى فى الحديث القدسى : كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ... الخ ، لا يحتاج مسلم فى فهمه الى أن بيان الله عز وجل منزه عن أن يحل فى شىء من خلقه لأنه من الأوليات التى لايصلح الايمان الا بها ، ولكن معناه فى الأسلوب العربى أن تظهر آثار عنايته على جوارح العبد نتيجة للنور والفرقان الذى أنار الله به قلبه .

فالبداية التوبة المشروعة فى الكتاب والسنة ، والنهاية وعلمناه من لدنا علما وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا . كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين . فيكون وارثا من ورثة أحوال النبيين ، والعلماء

ورثة الأنبياء ، وان الأنبياء لم يورثوا دينارا و لادرهما ، ولكنهم ورثوا العلم ، وأعلى العلم معرفة المحبوبين لربهم عز شأنه .

هذا بيان مجمل لمنازل السير من مقام « يحبونه » الى مقام « يحبهم » « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

وبين رسول الله عليه الصلاة والسلام فى حديثه الشريف مقامات الدين: الاسلام والايمان والاحسان ، فمقام الاسلام : ما يختص بالظاهر من النطق بالشهادتين ، الذى يدل على أن العبد مصدق بقلبه بوحدانية الله عز وجل وبكل ما جاء به رسوله محمد عليه الصلاة والسلام ، والقيام بالواجبات كلها والانتهاء عن المحرمات كلها .

وأما الايمان : وهو مختص بالقلوب ، أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

والاحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . ومن العلماء من اشتغل بمقام الاسلام ، وهو تحرير الأحكام الظاهرة من صلاة وصيام وزكاة وحج ومعاملات وحلال وحرام ونحو ذلك وهؤلاء سموا فقهاء .

ومنهم من اشتغل ببيان الايمان الصحيح وجب العقائد الفاسدةوالشبه وهؤلاء سموا علماء التوحيد .

والعلماء الذين اشتغلوا بمقام الاحسان ، وهو عبادة الله مع حضور القلب وذكر جلالة الله وعظمته والاستدامة على ذلك حتى كأنه يرى ربه عز وجل ، وهذه منزلة تحتاج الى تهذيب وتزكية النفس وترويضها على مراقبة مولاها عز وجل ، هؤلاء هم علماء مقام الاحسان الذين سماهم السلف الصالح « الصوفية » ولابد لأهل الاحسان من أحكام مقام الاسلام ، ومقام الايمان اذ لا يمكن للمرء أن يصل الى درجة عليا الا اذا تمكن مما دونها .

قال تعالى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها » .

فاذا كان المرء متصفا بعدة نقائص كالجهل والشح والانانية ثم تعلم فالعلم يرفع منه نقيصة واحدة هى الجهل ، وتبقى النقائص الأخرى تحتاج الى رياضة وتهذيب ..

ومن أنجح الوسائل فى ذلك الصحبة الصالحة ، كما قال عليه الصلاة والسلام مثل الجليس الصالح كصاحب المسك ، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير .

واذا كان المريد معسرا يضيق به الحال ، فلا مجال لادخاله من باب الشكر لأن حاله يكذب مقاله اذن ولا تتجاوب نفسه مع هذه الطريقة فيمكن أن يدخل من باب آخر كالرياضة العنيفة من الصيام والتقشف والخلوة والذكر الكثير ، ولا شك أن ذلك يرضيه ويفرج عن نفسه لأنه بدلا من أن يكون مكرها على سوء حاله يكون متطوعا له ومنتظرا منه الفائدة .

وهكذا فان لكل طريقة منهاجها وبابها للدخول الى الكمال ، فهى تتطور بالمريد بما يلائم حاله ، وغالبا ما يجرى التوفيق بفعل الله الى أن يتوجه المريد الى الطريقة المناسبة لشخصيته وهو عادة يسأل عن أصول الطريقة قبل الانتماء اليها ، فاذا صادفت فى نفسه ارتياحا انتمى اليها، وكذلك اذا وجد المرشد أن نوع شخصية المريد لاتتجاوب مع طريقته فعليه أن يوجهه الى غيرها ، والله معط والرسول قاسم .

ومن القدم والبحث جار وراء الانسان وفيما وراء الطبيعة ، وان عالم ما وراء الطبيعة غيب ومن الطبيعى أن يوجد له منهج يتلاءم معه ، وهذا المنهج حدده الاسلام كما حددته الأديان تحديدا لا لبس فيه ، ان معرفة ما وراء الطبيعة مصدرها الوحى ، والوحى ليس حسا ، وليس تفكيرا عقليا .

والناس كما ترى الأديان فريقان : فريق شغلته ظروف عالم المادة ، ووسيلة هؤلاء الى معرفة الالهيات ، انما هى الخضوع لأهل الحق ، للأنبياء والرسل ، لكلمة الله التى تشرح الغامض وتوضح الخفى .

أما الفريق الثانى من بنى البشر ، فهم ذوو الحس المرهف والبصيرة النفاذة ، الذين سموا بأنفسهم عن أن تكبلها المادة بأغلالها وقيودها . وهؤلاء

أول ما يبدأون اتباع تعاليم الوحى المرسل ، ثم يأخذون فى التقوى والاتجاه الى الله تعالى بكل جوارحهم حتى تصفو نفوسهم وتشف شيئا فشيئا ، فنأخذ فى الترقى ، وتصل من منزلة روحية الى منزلة أسمى منهـا ، حتى تنتهى بتوفيق الله تعالى الى الاطمئنان التام وترى عالم الغيب رؤية روحية هى أوثق وآكد من الرؤية البصرية .

وبما أنه لابد من البدء بأساس صحيح ، وبما أن هذا الأساس لايتمثل الا فى القرآن ، وهو النص الصحيح الذى صانه الله تعالى : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » فان الطريقة المثلى بل الطريقة الوحيدة للاطمئنان الى هذا العالم الغيبى انما تؤسس على القرآن .

والقرآن اذا ذكر الطريقة التجريبية كمنهج لمعرفة الطبيعة ، فانه يذكر الطريقة القلبية كمنهج لما وراء الطبيعة ، واذا كان القرآن يعد البصروالسمع مسئولين فى الطبيعة فانه يعد القلب مسئولا فيما وراء الطبيعة : « ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

يقول الدكتور اقبال : ومجال الرياضة المفتوح سبيله للقلب ، مجال حقيقى واقعى ككل ضرب من ضروب التوبة ، وليس فى وصف رياضة القلب بأنها رياضـة روحيـة أو صوفية أو انها من خوارق الطبيعة ليس فى هذا ما يقلل من شأنها من حيث هى تجربة . فكل تجربة فى نظر الانسان البدائى كانت من خوارق الطبيعة ، ولقد أوحت اليه ضرورات الحيـاة الملحة أن يضع لها تفسيرا تولدت منه بالتدريج « الطبيعة » بالمعنى الذى اصطلحنـا عليه لهذا اللفظ .

انها تجربة كالتجربة فى ميدان الطبيعة ، وهى مثلها منتجة ، بيد أن الفرق بين التجربة الاسلامية فى هذا المحيط ، والتجربة الاشراقية البحتة ، أن التجربة الاسلامية مؤسسة على أساس صحيح شرعى « القرآن » .

ومن هنا كان أفلاطون يأسف أحيانا على أنه لم يصل فى المعرفة بطريق أوثق وآكد ، أعنى بطريق الوحى والنبوة ، كما يذكر هو .

وهذه التجربة نظمها صوفية الاسلام تنظيما جديدا وأحكموها احكاما بديعا ..

وحينما تتصل الروح بالملأ الأعلى ، ترى ما لا عين رأت ، وتسمع ما لا أذن سمعت ويخطر على قلبها ما لا يخطر على قلوب البشر .

ويقول فولتير : يجب أن يوجه المريد فى بدء حياته الى التضحية بجهده وماله ووقته فى سبيل الله ، حتى يفهم ان هذا السبيل يساوى ماينفق فيه . وبذلك تزيد قيمته ليتعادل على الأقل مع سائر السبل التى اعتاد الانسان أن يوقف نفسه عليها ، وطريقتهم فى ذلك أن يكلف بالذكر والخلوة ، وأكل الحلال ، وخدمة الفقراء .

أما الذكر : فهو أن يخصص بعض وقته يكرر فيه اسما من أسماء الله حسب ما يلقنه المرشد له . وقد يكون على انفراد أو فى جماعة . ولكن لابد أن يكون بكثرة فى مبدأ الدخول فى الطريق حتى يعمر القلب بذكر الله فينقيه ذلك مما تعج به نفسه من الشوائب . وقد وردت فى القرآن آيات كثيرة عن الذكر وعن ضرورة تكراره فى الغدو والآصال ، أو بكرة وعشيا أو قياما وقعودا وعلى الجنوب ، وغير ذلك ، وان ذكر الله أبلغ من الصلاة « التى تكون بلا وعى » .

وأما الخلوة فهى أيضا مما ورد فى القرآن ، اذ كلف الله بعض الأنبياء القيام بها كقول الله « لزكريا » : « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام » .. وما كان يقوم به الرسول عليه الصلاة والسلام من الخلوة فى حراء، وهى فى الواقع كسر لثورة الحياة والانغماس فيها كل حين . فهى كالأجازات التى تستجم فيها الروح والقلب لتعود اليهما حياتهما وصفاؤهما .

وأما أكل الحلال وخدمة الفقراء فهى كناية عن النفقة فى سبيل الله . وقد قيل انه لا سبيل الى الفتوح والابصار بالطريق الى الله مادام الانسان يطعم من الحرام ، ويجب عليه اذا دخل باب التوبة أن يرد المظالم الى أهلها وما اغتصبه وظلم فيه ، وبذلك يحد الانسان من جشعه وانكبابه على المال وعبادته له .

و لايزال المريد يعالج هذه الوسائل بارشاد شيخه حتى يثبت فى قلبه التقدير لله والتبجيل له ، ويصير له فيه موضعا ، فلا يعود مسخرا للاغراض الدنيئة فحسب ، بل تعرف الأغراض العلية سبيلها اليه وبالتدريج وحسب

الاجتهاد ينقى القلب من الشوائب ويخلص لله . وان كان بطبيعة الحال لا تتيسر على الاطلاق هذه التنقية الكاملة فهى مستحيلة فى العادة .

ثانيا :الأسوة الحسنة : بينا أن الطريقة العملية لتوجيه الفرد توجيها صالحا ، هى ارشاده الى نموذج مفيد ، يحاول جهده أن يتمثله وينتهج منهاجه .

وفى ذلك أمر الله المؤمنين بالاقتداء بالرسول بقوله : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » ، وقوله : « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » .

ولقد كان للصوفية فى رسول الله عليه الصلاة والسلام أسوة حسنة وقدوة طيبة فى حياة الرسالة وقبلها ، فقد عزفت نفسه عن موكب الشباب وزحمة الزخرف ومباهج الحياة وضجة المدنية ولين العيش وطيب المقام وأقبل على الصحراء يقرأ فى كتاب الوجود متدبرا آية الكون كوحدة كبرى متماسكة مطلقا بصيرته وراء مبدع الكون كحقيقة ثابتة خالدة بها تقوم الحياة ، واستغرق فى ذلك حتى قالت قريش : ان « محمدا » قد عشق ربه .. وحتى جاءه الوحى فى غار « حراء » فكان الوحى نورا على نور فازداد به روحانية وصفاء . قال يوما لأبى هريرة : « يا أبا هريرة ألا أريك الدنيا جميعها بما فيها ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله .

فأخذ بيدى وأتى بى واديا من أودية المدينة فاذا مزبلة فيها رءوس أناس وعذرات وخرق وعظام ، ثم قال : يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص كحرصكم ، وتأمل كأملكم ، ثم هى اليوم عظام بلا جلد ، ثم هى صائرة رمادا ، وهذه العذرات هى ألوان أطعمتهم ، اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم ، فأصبحت والناس يتجاهلونها ، وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم فأصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد فمن كان باكيا على الدنيا فليبك .

وأتى رجل بهدية الى الرسول عليه الصلاة والسلام فذهب يتلمس وعاء يفرغها فيه فلم يجد ، فقال له الرسول : أفرغها فى الأرض ، ثم أكل

منها ، وقال : آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد . لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها الكافر شربة ماء .

ودخل عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النبى عليه الصلاة والسلام فرآه يضطجع على حصير خشن آثاره على جنبه ، فبكى عمر ، فقال له الرسول : ما يبكيك ؟ قال : انى أرى كسرى وقيصر على الحرير وأراك على هذا الحصير . فغضب الرسول وقال : أتريدها كسروية يا عمر . وقال عليه الصلاة والسلام : مالى وللدنيا انما مثلى كمثل راكب قال فى يوم صائف ثم راح وتركها ، وفى هذا المعترك الخضم من جهاد النفس نحو نوازع الحياة وفى ظلال هذه الروضة الباسمة المتضوعة بالأريج والنفحات لم ينس النبى عليه الصلاة والسلام الدنيا ولا العمل لاعلاء شأنها لحماية الأوطان والحقوق والغيرة على الدين ومسايرة موكب العالم المتمدين مع عدم الغرور بالبهاء واللهو ببريق الرواء والعزوف عن الظهور والتقدم تحت ستار الخفاء .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تعس عبد الدينار والدرهم ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه ان كان فى الساقة فهو فى الساقة وان كان فى المقدمة فهو فى المقدمة . وتروى عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : انه كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه ، فقيل له : لم تصنع هذا يارسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر . فقال : أفلا أكون عبدا شكورا .

وسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام عاطرة بتلك المواقف التى جذبت الرعيل الأول من المسلمين وتعلمهم القرآن جعلهم يسايرون النهضة الروحية والثورة على أوضاع الشرك ورواسب الاستعباد فطهروا أنفسهم من حب المادة وحلقوا فى سماء الروحية الطليق .

ولقد حفظ التاريخ للخليفة الأول أبى بكر الصديق مواقف خالدة ربما يستبعدها العقل على بشر مثله ، لكنه التأثير السحرى للقرآن ، فقد كان رضى الله عنه يتعبد لربه حتى لتشم من فمه رائحة الكبد المشوى من خشية الله . وأكل يوما طعاما ثم علم أن فيه شبهة فوضع اصبعه فى فمه ثم أخذ يقىء ما فى جوفه ، وتبرع فى جيش العسرة بجميع ماله وأجاب النبى

عليه الصلاة والسلام بقوله : أبقيت الله ورسوله ، عندما قال له : ماذا أبقيت لأبنائك .

وكان يقول : ما اشتهيت طعاما الا منعت نفسى منه ، فلا يتلف النفوس الا الشهوات .

واستسقى يوما فأتى باناء فيه ماء وعسل فلما أدناه من فيهبكى وأبكى من حوله ، فقالوا : ما هاجك على هذا البكاء . قال : كنت مع النبى عليه الصلاة والسلام وجعل يدفع عنه شيئا ويقول : اليك عنى ، ولم أر معه أحدا ، فقلت : يا رسول الله ما هذا . قال : هى الدنيا تمثلت لى بما فيها . فقلت اليك عنى فتنحت . وقالت : ـ أى الدنيا ـ أما والله لئن انفلت منى فلا ينفلت منى من بعدك . فخشيت أن تكون قد لحقتنى فذاك الذى أبكانى .

وكذلك كان الفاروق عمر يلبس الثوب الرقيع من اثنتى عشرة رقعة، ويأكل الخبز دون ادام حتى تغير جلد بطنه ويفترش الأرض وينام على الحصى ويحمل القطران يصلح به ابل الصدقة ويعمل برجليه فى الطين ليعد قطع البناء ، ورأى ابنا له ذات يوم يأكل الثريد باللحم فضربه بالدرة وقال : لا أحرمه ,ولكننى أمنعه عن نفسى وعن أبنائى فمطالع الفتن فى شهوات الطعام . ولما كان الناس بعد وفاة الرسول لم يشاهدوه عينا فقد لزمهم أن يقتدوا بمن اقتدوا بالرسول ، وتشبعت نفوسهم من أصحابه ثم التابعين ثم تابعى التابعين وهكذا .

ويجب أن يلابس هذا الاقتداء ما يغرس محبة الرسول فى قلب المريد حتى يكون اتباعه له محبة واعجاب فيؤتى ثمره ، فلا يكون تقليدا ظاهرا بل انطباعا روحيا وتشربا باطنيا معنويا .

وأهم أسباب تقوية هذه الآصرة هو زيادة الصلاة والسلام على الرسول والتعظيم لذكراه ، وكل ما يمت اليه بصلة كاحترام آل بيته ومحبتهم واحترام أولياء الله الذين تشربت قلوبهم بمحبة رسول الله عليه الصلاة والسلام .

ثالثا : اختلاف المناهج : وقد اقتضى تعدد طباع الناس وتعدد ظروفهم تعدد مناهج الارشاد ، وطرق التوجيه الصوفى .

فمن الناس من يكون مثلا فى حالة من الترف والبسط لا يقبل معها كثرة الرياضة وخشونة العيش ، ولكنه فى الوقت نفسه محتاج الى ذلك . فيكون طريق ارشاده مثلا الى توجيهه الى الشكر لله ، فلا يحرم مثل هذا المريد من المتعة والترف بل على العكس يوضح له ما فى هذه النعم من موجبات الشكر لله ، ويكون ذلك بأن يؤمر بالتسبيح بأسماء الله التى تفعم نفسه بالشكر وتشعره بالنعمة كأسماء « الحميد والكريم والمعطى والوهاب والمنعم والجواد » ونحو ذلك ، حتى اذا فاضت نفسه بالشكر بدأ مرشده يشعره بخطر حرمانه سبحانه وتعالى من نعمته ، وأن الله هو المانع كما هو المانح . وانه القابض كما هو الباسط .

ويكلفه التسبيح بأسماء تلقى فى نفسه تقوى الله وتحاشى نقمته عليه كأسماء « اللطيف ، الرحمن ، الرحيم ، الودود » ، ثم يلقى به فى النهاية فى مجال العبودية ، بعد أن تشربت نفسه بذلك ويكون تسبيحه مثلا بأسماء الملك ، القدوس .

قال « ذو النون المصرى » : من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله عليه الصلاة والسلام فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه .

وقال الحارث المحاسبى : من صحح باطنه بالمراقبة والاخلاص زين الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة .

وقال أبو يزيد البسطامى : لو نظرتم الى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به ، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى وحفظ الحدود وأداء الشريعة .

وقد خلف المسلمون الصوفية فى الحب الالهى آثارا باقية تعد بحق تراثا روحيا رائعا له خطره فى تقويم الحياة الروحية الاسلامية من ناحية وله أثره فى قلوب المقبلين عليه والذائقين له من ناحية أخرى . ومن هذا القبيل ما خلفه كل من رابعة العدوية وذى النون المصرى ويحيى بن معاذ

الرازى والحارث بن أسد المحاسبى والحسين بن منصور الحلاج ومحيى الدين بن عربى وشرف الدين عمر بن الفارض وكثير غيرهم ممن روت عنهم كتب الطبقات أقوالا ووصـــفت لهم فى الحب أحوالا وكان لهم فى هذا الحب صفحات ونفحات .

وها هى ذى كتب التراجم والطبقات قد حفلت بذكر كثير من القصص والحكايات عن المحبين والمحبات ووصفت لنا أحوالهم فى الحب الالهى ، وسجلت أقوالهم التى عبروا بها عن تلك الأحوال فاذا هى فى ظاهرها تقص قصة وتحكى حكاية ، وقد تبدو الصنعة ويغلب الخيال على هذه الحكاية أو تلك القصة ، فاذا هى عند أول عهد القارىء بها كلام لا يكاد يصدقه العقل لما فيه من اسراف ومبالغة وابعاد فى الخيال . ولكن تدبر هذه القصـــص والحكايات والروية فيما تشتمل عليه كل قصة من معنى وما ترمى اليه كل حكاية من مغزى سيكشف من غير شك عما لهذه القصص والحكايات من خطر وما فيها من غناء . ذلك بأن ما من قصة أو حكاية الا وفيها معنى نفسى أو مغزى خلقى .

فضلا عما ينبث فى تضاعيفها من أقوال منثورة أو أبيات منظومة وكل أولئك فى الحقيقة بمثابة المواد الأولية التى لابد منها لفهم الحياة الروحية للمحبين الالهيين ، ولا غنى عنها لمن يريد أن يكون صورة تاريخية متكاملة لنشأة الحب الالهى وتطوره فى التصوف الاسلامى .

وهذه قصة يقصها « ذو النون المصرى » عن زهراء الوالهة فيقول : بينا أنا أطوف فى بعض أودية المقدس سمعت قائلا يقول : ياذا الأيادى التى لا تحصى ، وياذا الجود والبقاء ، متع بصر قلبى بالجولان فى بســاتين جبروتك ، واجعل همى متصلا بجود لطفك يا لطيف ، وأنقذنى من مسالك المتجبرين بجلالك وبهائك يا رءوف ، واجعلنى لك فى الحالات خادما وطالبا . وكن لى يا منور قلبى ، ويا غاية طلبتى صاحبا .

قال ذو النون : فتبعت الصوت فاذا امرأة كأنها عود محترق عليهـــا درع صوف وخمار شعر أسود قد أضناها الجهد ، وقتلها الكمد ، وذوبها الحب ، فقلت : السلام عليك .

قالت : عليك السلام ياذا النون .

قلت : كيف عرفت اسمى ولم ترينى ؟

قالت : كشف عن سرى الحبيب ، فرفع عن قلبى حجاب العمى ، فعرفنى اسمك .

فقلت : ارجعى لمناجاتك .

فقالت : أسألك ياذا البهاء أن تصرف عنى شر ما أجد فقد استوحشت من الحياة .

ثم خرت ميتة ، فبقيت متحيرا ، فأقبلت عجوز كالوالهة نظرت ثم قالت : الحمد لله الذى أكرمها .

ولما سألها ذو النون عمن تكون هذه ، أجابته بقولها : هذه ابنتى « زهراء » الوالهة منذ عشرين سنة ، توهم الناس أنها مجنونة ، وانما قتلها الشوق الى ربها تعالى .

ومن القصة يتبين حب الله والشوق اليه والوله فيه والتسبيح بحمده على آلائه ونعمائه والاستعاذة من المتجبرين بجلاله وبهائه ، وهى وأمثالها من القصص التى لا حصر لها تبين سمات الحياة الروحية الاسلامية بصفة عامة وعن مقومات الحب الالهى فى التصوف الاسلامى بصفة خاصة ، وكلها مستمدة من الحياة الروحية المحمدية التى أجرى الله بألفاظها وعباراتها أكرم يد ، وأنطق بحقائقها وتألقها أصدق لسان وملأ بمعارفها ولطائفها أنور قلب، كانت بهذا كله ، كما كانت حياة صاحبها عليه الصلاة والسلام المورد الأحلى والمنهل الأصفى لكل من أراد أن يحيا ، وأراد أن يظفر بالسعادة وحسن العقبى ، ولصفحة الحياة الروحية المحمدية وجهان :

١ — وجه قبل البعثة .

٢ — ووجه بعدها .

وهى بوجهها الأول تعد مطلع فجر جديد فى تاريخ الحياة الاسلامية بصفة خاصة ، وهى بوجهها الثانى تعد استمرارا لذلك اللحن الروحى الرائع الذى بدأ يرتله « محمد » عليه الصلاة والسلام ، لأول مرة فى تاريخ

الاسلام وجعل يردده معه ومن بعده المسلمون ، ذلك الترتيل الجميل الذى يهز النفوس ويملأ القلوب ، ويملك القول ويمحو ظلمة الشك وضلالة الشرك وغشاوة المادية بما يشعه ويشيعه فى النفوس والقلوب والعقول جميعا ، من نور اليقين ، وهدى الوحدانية واشراف الروحانية .

ولعل أول ما يلاحظه المتأمل فى الحياة الروحانية المحمدية قبل البعثة هى تلك الخلوة التى أحبها « محمد » حتى صفت نفسه ، صفاء جعلها وجعل من صاحبها أهلا لما أنزل عليه من الوحى ، وما كلف به من الرسالة العظمى والدعوة الكبرى ، مما هو مبين بكتب السيرة ، كانت المنبع الفياض بأرقى قواعد السلوك وأسمى مبادىء الخلق ، وأشرف ألوان المعارف واللطائف ، وهى كذلك المصدر الأول الذى استقى منه الزهاد الأولون والصوفية المتقدمون والمتأخرون ، العناصر العلمية والعملية التى هى قوام ما نعرفه بين العلوم الاسلامية باسم التصوف الاسلامى . وهو الاسم الجامع لطوائف الزهاد والعباد ، ولأحوال أولئك وأعمالهم ، ولعلوم هؤلاء ومعارفهم .

وهذا يعنى بعبارة أوضح وأصرح أن تحنث الرسول عليه الصلاة والسلام فى غار حراء يوما ، استتبع ذلك التحنث من زهد وتقشف ومن تأمل وتفكر ، ومن عكوف على تصفية النفس واعتكاف عن الخلق ، ومن جلاء البصيرة وصفاء السريرة ، ومن افاضة الرؤيا الصادقة على قلبه ، واختصاص بهبوط الملك عليه من ربه .

انما كان كل أولئك بمثابة البذور الروحية الأولى التى ثبتت أول ما ثبتت فى قلب الزاهد الصوفى المسلم الأول ، ثم ألقيت بعد ذلك فى قلوب الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ، ثم فى قلوب الزهاد والعباد والنساك والصوفية فى الأولين والآخرين ، فاذا هى تزكو وتنمو وتترعرع وتأتى أكلها رياضات ومجاهدات ، وأذواقا ومشاهدات وأشواقا ونفحات .

ومجاهدة النفس هى رأس الطريق عند أئمة التصوف جميعا ، يقول « سهل بن عبد الله التسترى » : من ظن أنه يفتح له شىء من هذه الطريقة أو يكشف له عن شىء منها الا بلزوم المجاهدة فهو فى غلط .

ويقـول الامام القشـيرى : أصل المجاهدة وملاكها فطم النفس عن المألوفات ، ومتى فطم الصوفى نفسه فتحت له أبواب الخير وسلك طريقه الى المعرفة الحقة .

ويقول العلامة الهجويرى فى حديثه عن شيوخ الصوفية ، ومنهجهم فى تربية المريدين .. يقول : اذا اتصل بهم مريد رغبة فى نبذ الدنيا أخضعوه ثلاثة أعوام للرياضة والمجاهدة ، فان هو أتم مقتضيات هذه المجاهدة فحبا وكرامة ، والا أعلنوه انه لن يقبل فى الطريق .

ويقول المربى الصوفى أبو على الدقاق : اعلم أن من لم يكن فى بدايته صاحب مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شمة .

والتصوف كما يقول أبو بكر الشـبلى : ضبط حواسك ، ومراعاة أنفاسك ، وهو تصوير رائع للجهاد النفسى فى أدق صوره وأكمل ألوانه .

ويقول الحريرى : التصوف الدخول فى كل خلق سنى والخروج من كلّ خلق دنى ، وهو تعبير عن التغير المعنوى الذى يقوم به الصوفى خلال جهاده لنفسه وهو فى طريقه الى الله سبحانه وتعالى .

ومن مجاهدة النفس فى الطريق الصوفى تكونت المعـارف الصوفية والالهامات الباطنية ، كما تكونت الخصائص الصوفية التى هى طابع الطريق وعلامته ، كالتوبة والندم والعزلة والخلوة والزهد والتـوكلّ والصـبر والشكر والايثار . الى غير ذلك من الصفات الجليلة التى تدخل تحت نطاق الآية الكريمة « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » .

ومجاهدة النفس فى منطق الاسلام هى الذروة العليا من صـفات الكمال .

والرسول عليه الصلاة والسلام يصف لنا فى حديثه المشهور مراتب المؤمنين فيقول : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأعراضهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنـه ، والمجاهد من جاهد نفسه وهواه ، فجعل مرتبة جهاد النفس هى أعلى المقامات الاسلامية وأسماها .

والنفس التى هى نفس المريد السالك طريق الله ، هى أسمى النفوس الانسانية ، فاذا عكف الشيخ على مريديه ، وعكف المريد على نفسه ، وأخذ كل منهما نفسه من ناحية ، وصاحبه من ناحية أخرى ، استطاع كلاهما أن يصل بالنفس الانسانية الى خير ما يستطاع الوصول اليه من مراتب الكمال سواء فى العلم أو العمل .

وعلى هذا نرى أن النفس الانسانية ، وجهاد شهواتها وخلاصها من نزواتها وآفاتها ، هو الموضوع الرئيسى الذى يدور حوله كل تصوف علمى وعملى .

ومن هنا كان الصوفية فى علمهم وفى عملهم محققين لمعنى الجهـاد الأكبر الذى عناه رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال : « لقد عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ قال : جهاد النفس .

فجهاد النفس قد وضع دسـتوره نبى الاسـلام أول ما وضع هذا الدستور ثم تطور بعد ذلك على أيدى من جاء بعده من الخلفاء وطبقات الزهاد والعباد والنساك والصوفية .

فاذا بان لنا هذا كله استطعنا أن نقول : ان التصـوف الاسـلامى استقى عناصره الأولى من حياة النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم من حيـاة أصحابه وحياة التابعين وحياة من جاء بعد أولئـك وأولاء من الصوفيـة المتحققين .

والتصوف ليس الا تصفية للنفس ، وكشفا لحجاب الحس ، وتهذيبا للقلب على الوجه الذى يجعل من الانسان انسـانا حقا خليقا بما ينطوى عليه معنى الانسانية من أرفع معانى الحق والخير والجمال .

يقول الامام ابن عطاء الله السكندرى لمريده : اذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فانه لا يثقل عليها الا ما كان حقا .

ويقول أيضا : أصل كل معصية وغفلة وشهوة : الرضا عن النفس . وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا عنها .

ويقول بعض المتصوفين : ان التصوف ليس معناه التجرد من الحياة ولكنه التجرد من الحياة للحياة ، التجرد من شهوات النفس ونزواتها وضعفها ، يريد الله أن نتجرد من كل ضعف فينا .

قال الجنيد : التصوف هو ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع .

وقال الكتانى : التصوف هو خلق فمن زاد عليك فى الخلق فقد زاد عليك فى الصفاء .

وقال محمد بن على القصاب : التصوف هو أخلاق كريمة ظهرت فى زمان كريم من رجل كريم مع قوم كرام .

وقال رويم : التصوف هو استرسال النفس مع الله تعالى على مايريد.

وقال أبو على الروذبارى : التصوف هو صفوة القرب بعد كدورة البعد .

وقال الشبلى : الصوفى منقطع عن الخلق متصل بالحق كقوله تعالى: « واصطنعتك لنفسى » .

وقال ذو النون المصرى : الصوفية قوم آثروا الله على كل شيء ، فآثرهم الله عز وجل على كل شيء .

وقال سمتون : التصوف هو أن تملك شيئا وألا يملك شيء .

وزهد الدنيا ، يقصدون به الزهد فى الحرام أما الحلال فمباح ، وان كثر عليهم المال الحلال شكروا الله بانفاقه فى الأوجه التى يرتضيها ، ويقولون : ان مال الصحابة كان فى أكفهم لا فى قلوبهم فبذلوه رخيصا فى مرضاة الله .

ويقولون كذلك : ان الصبر أحسن بصاحب الفقر والشكر أليق بصاحب المال الحلال ، وقد قال الامام أحمد بن حنبل فى هذا المقام : الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : ترك الحرام وهو زهد العوام .

والثانى : ترك الفضول من الحلال ، وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى وهو زهد العارفين .

والخلاصة أن التصوف هو سمو بالانسانية وارتفاع بها فى ناحية الروح الى الملأ الأعلى ، ومعنى هذا أنه سيطرة للروح على الجسم أو سيطرة الناحية العلوية فى الانسان على الناحية الأرضية ، وهذه هى وظيفة التصوف .

ليس معنى التصوف الجوع والذكر والتقشف والحرمان فحسب ، بل هذه وسائل تسمو بروح الانسان وتدنيه من ذات الله جلّ جلاله .

مما سبق يتبين للذين يدرسون تاريخ الحياة الروحية الاسلامية بصفة عامة وتاريخ التصوف الاسلامى بصفة خاصة من المستشرقين وغير المستشرقين من المقلدين الذين يسرفون وينحرفون ، اذ يزعمون أن التصوف الاسلامى برياضاته ، ومجاهداته العملية ، وبأذواقه ومواجيده الروحية ، انما جاء المسلمين من مصادر أجنبية عن الاسلام . أقول ما أجدر أولئك وهؤلاء أن يرجعوا الى تاريخ حياة نبى الاسلام ليتبين لهم أنه الحق ، وأن الباطل ما يزعمون ، وان الحياة الروحية المحمدية انما هى أول ما ينبغى أن يقف عندها الباحث المحقق المنزه عن التعصب والتكلف والتعسف لكى يلتمس منها مطلع الفجر ومشرق النور . قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

فقوله عز وجل : « شرع لكم من الدين » ، المقصود من « الدين » التوحيد الخالص الذى هو أصل وكل يشترك بين جميع شرائع الأنبياء والمرسلين ، وقوله : « أن أقيموا الدين » ، يشير الى وجوب نشره واعلاء كلمته بين الشعوب والأمم ، والى تقوية العقيدة الدينية والى رسوخها ، وتثبيتها فى القلب لتملأه اطمئنانا وأمنا وسعادة وغبطة .

وهذا ما يدعو اليه علم التصوف الذى هو عبارة عن علم أعطاه الله تعالى لأوليائه وأصفيائه حين استنارت أرواحهم بالعمل بكتاب الله وسنة

رسوله فظهرت لهم علوم وآداب ، وحقائق يعجز القلم عن الاحاطة بهـا والتعبير عن كنهها ، فهو زبدة عمل العبد مع اتباعه لأحكام الشريعة .

والتصوف همة جريئة وعزم وايمان ، ويقين وسيادة وهو أيضا دعوة مخلصة وعبودية مطلقة لله رب العالمين ، فهو دعوة راسخة الأركان مثبتـة الدعائم تهدى العالم الاسلامى على مر الأحقاب والسنين الى المنهج القويم والصراط المستقيم ، الذى أوصى الله به نوحا والأنبياء من بعده .

والتدرج فى التصوف ، ان الله تعالى اذا أنار بصيرة العبد ، شوقه الى الدخول فى طريق الصوفية ، وهذه هى الدرجة الأولى من درجات التصوف ويسمى العبد فيها « مريدا » واذا اندمج العبد سامعا مطيعا وترسم خطى الطريق سمى فى هذه الحالة « سالكا » ، واذا جد العبد واشتغل بالعبادة ، وراض نفسه ، وأقبل على الله تعـالى اقبالا شديدا سمى فى هذه المرحلة « عاشقا ».

واذا وضع العبد هواه تحت قدميه ، وطرد من باطنـه كافة الأمانى والرغبات الدنيوية ، سمى فى هذه الحالة « زاهدا » .

فاذا صفت نفس العبد ورق شعوره ، وحصلت له أذواق وجدانية يفهم منها ما لا يصل اليه العقل من الأسرار وصل فى هذه الدرجة الى مقام « المعرفة » واذا استمر على هذه الحـالة وواظب عليها تواردت على قلبه النفحات ،فتزداد معرفته بصفات الذات العلية فيصلّ فى هذه الحالة الى مقام « الحقيقة » .

واذا استمر وواظب على الحالة السابقة وصل الى مقام « الفناء » . ومعناه فناء العبد عن نفسه فى الله تعالى فتمحى كلّ الموجودات أمامه فلا يرى الا الله .

وبعد هذه الدرجة يصل العبد الى مقام « اللقاء » ، ويسمونه مقام « الوصول » .

فهذه هى درجات التصوف كما تشير اليه تعبيرات القـوم رضى الله عنهم ورضوا عنه .. وأنت ترى أنها مبنية على سلوك العبد واجتهاده فى

تخليص نفسه من ذل الخضوع للاهواء ، والحاقها بالمقام الأسنى والعز الأسمى .

وفى نهاية الفصل أذكر القارىء بمأثورة من مأثورات المناجاة الصوفية « المجابة » ، مناجاة العارف بالله الالهى الامام « عبد القادر الجيلى » .يقول عنها العارفون انها من سهام الدعاء التى لا ترد فى تفريج الكروب :

يا من تحل بذكره عقد النوائب والشدائد
يا من اليه المشتكى واليه أمر الخلق عائد
يسر لنا فرجا قريبا يا الهى لا تباعد
أنت المعز لمن أطاعك والمذل لكل جاحد
فرج بفضلك كربتى فلقد نسيت من الأباعد
أنت المسهل والميسر والمسخر والمساعد

الفصل العاشر
الباحثون والدعوة

قامت نهضة فكرية واسعة فى القرن العشرين بين الباحثين الأوربيين والشرقيين وعلماء العرب ، وقد تصدى كثير منهم للاسلام ، والدعوة المحمدية باحثين شارحين محللين ، الا أن عددا غير قليل من الغربيين قد أذعن لعاطفة التعصب والتحيز حتى سلكوا طرقا ملتوية بعيدة عن الحقيقة والنزاهة اشباعا لرغباتهم فى النيل من هذه الدعوة الفريدة فى العالم منذ نشأته .

ولقد أضلت المطامع هؤلاء المستشرقين وأبعدتهم عن العدالة والنزاهة وصفات الباحث العالم المنزه عن الأغراض والأهواء حتى أنهم جعلوا يتحاملون على صاحب الرسالة الاسلامية دون ذنب اقترفه أو جناية جناها ، وأخذوا يتصيدون الكيد له والحط من شأنه لأمور قد تبدو على ظواهرها للوهلة الأولى أنها هنات ، ولكن التعمق فى جميع مناحيها لا يلبث أن يمحو من النفوس ذلك الوهم السطحى السريع .

بل وأكثر من ذلك ، فان أولئك القوم ينقمون أحيانا على هذا الدين الذى يساير العقل السليم والمنطق القويم والمقياس الاجتماعى الصحيح ، والذى هو مبعث الانسانية ومصدر سعاداتها ، والمنقذ الوحيد لها من وهدتها .

ولا جرم أن هذه الشرزمة من الباحثين قد طبعت فى هذا العصر بطابع الاستهانة والاهمال من جميع الذين يحترمون حكم العقل ويوقنون بأن النزاهة هى أولى بالاجلال وأدنى الى الخلود .

وهناك فريق آخر من العلماء قد عرضوا للاسلام تحدق بهم النزاهة ، ويحف بهم نبل القصد ، ويحدوهم الأمل فى الوصول الى كشف بعض الحقائق المجهولة لدى بيئاتهم ، ولكنهم انزلقوا الى حضيض الهفوات ،

وهووا فى سحيق الكبوات رغم نقاء نياتهم وسـمو غاياتهم • وسر ذلك الاخفاق اما أن يكون هو الجهل بروح اللغة والقصور عن ادراك مراميها . واما الاعتماد على مصادر زائفة مليئة بالأباطيل والأضـاليل كما ألمعنا الى ذلك مرارا •

وسنعرض فى هذا الفصل آراء الفريقين فى الاسلام ونبى الاسلام • واليك عالمامن الفريق الأخير « دنيس سورا » فقد تعرض فى آرائه:لمبدأين أساسيين :

أولهما : أن تاريخ الأديان هـو تاريخ لنمو هاتين الرغبتين البشريتين المتأصلتين فى نفوس أفراد الجنس جميعه • وهما الحاجة الى وجـود اله • والحاجة الى الحياة بعد الموت الدنيوى •

وثانى هذين المبدأين : هو أننا الآن فى عصر علمى لا يستطيع الناس فيه أن يقبلوا شيئا عن الاله الا ما تقدم اليهم التجربة والملاحظة الأدلةعلى صحته ، ونحن اذا قبلنا المبدأ الأول على أنه لازم ركزته الحكمة الالهيـة فى النفوس البشرية لتعدها للتأليه اعدادا فطريا كى يفوق فى متانته جميع الاعدادات الاجتماعية . لأن العارض لا يرقى فى الكمال الى درجة التأصل فان الذى لا ريب فيه هو أننا لا نستطيع قبول المبدأ الثانى الذى صـدر عن هذا الباحث فى تفكيره ، لأنه فيما نرى خاطىء من أساسه ، اذ أنه يرمى الى هدف خطير وهو احلال ما يدعوه بالعقل العلمى التجريبى محل كل ما عداه من جوانب الحياة الفكرية والروحية•وفى هذا من الخطأ ما لا يخفى على ذى لب حصيف ، اذ كيف يجحد من لديه ذرة من العقل ، ذلك الدور الهائل الذى قام به الفكر البشرى الذاتى أثناء هـذه الآلاف من السنين التى انسلخت من عمر الزمن قبل أن يرى العلم التجريبى نور الوجود •

ويبدو أن الباحث واقعى النزعة تجريبى التفكير • وتلك وجهة نظر تختلف فى أسسها ومراميها مع مبادىء جميع الديانات التى تقرر أن الاله لا يناله الحس بحال من الأحوال وأنه مع ذلك أثبت الموجـودات • وهذا يكفى لأن نعتبره عالما أجنبيا محايدا لا يروقه من الأديان الا ما تشتمل عليه من مبادىء خلقية نافعة • أو قواعد اجتماعية مفيدة للانسانية •

واذا كان الاسلام أكثر الأديان اشتمالا على هذه المبادىء القوية . وتلك الأسس المتينة ، فقد كان من الطبيعى أن يظفر لدى هذا النوع من العلماء بأعلى الدرجات الا فى حالة الخطأ الذى يجنبهم الصراط المستقيم .

وقال ديورانت : ليس ما نعرفه من ثمار الفكر الاسلامى الا جزءا يسيرا مما بقى من تراث المسلمين . وليس هذا الجزء الباقى الا قسما ضئيلا وليس ما أثبتناه فى هذه الصحف الا نقطة من بحر تراثهم .

والحقيقة أن العالم الاسلامى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين وبعد أن دهمته خطوب الاستعمار والاستغلال الأوربى ، وبعد أن أضرم الاستعمار نار العداوة بين سكان العالم الاسلامى كله بل بين سكان البلد الواحد كمصر والهند والمغرب ، وقام بدور خطير لكى يعمل على تلاشى الوحدة المنهجية السلوكية لبلاد الاسلام ولكى يبقى الصعيد التوجيهى لهذه الشعوب المغلوبة على أمرها فى يده لهذا ولغيره قام بدور احياء العصبيات الأممية التى جاءت لنا فيما جاء مع الاستعمار والمدنيةفقد كنا نسمع قبل قيام الثورة العربية الكبرى فى ٢٣ يوليو من ينادى بالفرعونية أو الفارسية فى بلاد ايران ، الخ . ولعل تعليل ظهور هذه النزعات بظهور الكشوف الأثرية لا يستقيم والحقيقة الواقعية .

وقد سارت الحياة الفكرية الموجهة فى بلاد الاسلام سيرا متعرجا وغير عميق مما كان له أثر مهم فى دفع الطليعة من أبناء هذه الشعوب للنظر فى الأمر جديا واتخاذ موقف حاسم . ففى الهند السيد « أحمد خان » يقوم بانشاء كلية عليكرة متخذا خطة الدراسة الاسلامية التى لا تصطدم مع الأساليب المعاصرة . وهو بهذا الموقف قد قام بدور عظيم .

وفى مجال السياسة التجمعية لبلاد الاسلام وشعوبه ، قد عقدت عدة مؤتمرات فى النصف الأول من هذا القرن فى القاهرة ومكة والقدس ارادة التعاون أدبيا وماديا على اتخاذ موقف حازم بالنسبة للاستعمار ودهاء ومكر الصهيونية الفاجرة وتعديل الاتجاه لمجتمعهم نحو القيم والمثل التى تظلهم.

واذا كانت هذه البذور قد نبتت وأورقت اليــوم وحققت ربحا كبيرا بالنسبة لموقفنا العالمى الآن ، وعملت على ايجاد جو تحررى لبقية الشعوب المستعمرة وخلق كتلة ثالثة تخفف من حدة التوتر العالمى أكثر مما حققته أى منظمة عالمية أخرى ، واذا كان لمركز الأمة الاسلاميــة فى الميزان العالمى من الثقل والترجيح قدر كبير فذلك يرجـع الى أن أكثر شعوبه قد تمتعـت بالاستقلال وحرية التوجيه .

وتلعب يد الاستعمار وأعوانه دورا خطيرا فى البلاد العــربية فى هذه الآونة الحاضرة . ولكن ورقهم قد انكشف وسرهم انفضح . ولقد فشل أول تخطيط لهذه المؤامرة الغاشمة الفاشــلة فى لبنان .. ولا زال يأمل فى تنفيذ باقى خطته وكل مرماه هو تحقيق حلمه فى احياء ووجود حلف بغداد « الهلال الخصيب » . ولكنه نسى وعى الشعوب العــربية ونضوجهم عقليا وسياسيا وتحررهم من الرجعيين والانتهازيين الذين اضطرتهم ظروف خارجة عن ارادتهم بأن يظهروا للشعوب العــربية عيانا بيانا حتى أن كل فــرد من أفراد الأمة العربية جمعاء يعرفهم ويمقتهم ويزدريهم ، وقد قامت ثورة العراق التحررية الأخيرة بقيادة الرئيس المناضل عبد السلام محمد عارف ، بتحرير العراق الشقيق من الاستعمار والرجعية والفساد .

ونكتفى بما تقدم على اقتضابه حتى لا نبتعد عن موضوع هذا الكتاب ونوجز بأنه لم يكــن القادة والملوك الهمج يدعــون الدعاوى حين يشنون غاراتهم على البلاد الأخرى . فقد كان قصدهم منها سافرا . وهو النهب والسلب ، وتوسيع دائرة الملك والسلطان ، وتحقيق أطماعهم ومآربهم .

ولكن الفتــوحات الاسلامية شــذت عن هذه القاعدة لأول مرة فى التاريخ . وتوخت تحقيق رسالة تسمو على مجرد الغزو والفوز بالأســلاب والأمجاد . كان الهدف الأول لتلك الفتوحات نشر الاسلام . وتلقين الناس تعاليمه النبيلة ، وهدايتهم الى مقاصده الجليلة ، ولهذا لم تمح هــذه الفتوحات ويتبدد أثرها كغيرها من غزوات الهمج .. فلو قد أراد الجاه والمال والسيادة والملك ، بدعوته عليه السلام ، لكان قد بذلها العرب اليه فى سخاء وتقــدير . ولو لم يكن نبى الدعوة مؤيدا بقوى قاهرة من فوق

السماء لتخطفته السيوف ولقضت على صحابته الآلاف العديدة التى أحاطت بهم فى كل معركة ومجال .

ومن أروع ما كتبه المستشرقون عن النبى — صلى الله عليه وسلم — هو ما كتبه المستشرق « رينولد نيكولسون » ، قال الشيخ العلامة : لم تجد الحياة الدينية الاسلامية مثالا أعلى فى أى انسان الا فى شخصية النبى « محمد » — صلى الله عليه وسلم — فاذا بحثنا فى الصلات التى يعتقد المسلمون بوجودها بين الله ورسوله من جهة ، وبين الرسول وأنفسهم من جهة أخرى ، فقد وصلنا الى لب المسألة .

فالقرآن يعلن بأن الله هو الحق . وأن ما يدعون من دونه هو الباطل . وأن كل شىء هالك الا وجهه . وأن كل من على الأرض فان . ولا يبقى غير وجه الله . وأن الله نورالسموات والأرض . وأنه أقرب الى الانسان من حبل الوريد . وأنه ما يكون من نجوى ثلاثة الا وهو رابعهم . ولا خمسة الا وهو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا وهو معهم .

ومن قوله أيضا : فالحقيقة المحمدية . لا الصورة المحمدية الجسدية . هى مبدأ الحياة ومركزها فى العالم . وهى الواسطة بين الله وعباده . والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله على نحو ما يعرف الله نفسه . وتصل اليهم منه العطايا والمنح الالهية (١) .

هذه صورة مما يكتبه الباحثون الغربيون الذين درسوا الاسلام على حقيقته مجردين عن الهوى والتعصب ، فهى تمثل هذا النور ، وتمثل الخير فى رسالته الأخلاقية السامية ، ودعوته الانسانية العالية ، فلم تسمع الانسانية من قبل ، صوتا أعلى من صوت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولا بيانا أروع من بيانه ، وهو يدعو الناس جميعا الى نماذج من السلوك الخلقى . وبدائع من الأدب النفسى ، وروائع من التعاون الاجتماعى تكفل للانسانية السلام والسعادة وتصنع المجتمع الفاضل السليم المتكامل المتحاب المتساند .

---

(١) رأينا أن نكرر هنا فى هذا الفصل ما كتبه المستشرق « نيكولسون » لأنه من خير ما يستشهد به على سمو الاسلام ونبيه وكتابه

ومن كلمه وبيانه الذى يهدى الى سعادة الدارين :

❋ من أغاث ملهوفا ، كتب الله له ثلاثا وسبعين مغفرة ، واحدة فيها صلاح أمره كله . وثنتان وسبعون له درجات يوم القيامة .

❋ من قضى لأخيه المسلم حاجة كان له من الأجر كمن حج واعتمر .

❋ ليلة أسرى بى مررت على أناس تقرض شفاههم بمقاريض من نار . قال : فقلت .. من هؤلاء يا جبريل ؟ . قال : هؤلاء خطباء من امتك . كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم . وهم يتلون الكتاب . أفلا يعقلون ..

❋ ان الله يكفر بالحسنة الواحدة ألف ألف خطيئة .

❋ لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا .

❋ ألا لا ايمان لمن لا أمان له ، ولا دين لمن لا عهد له .

❋ لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه . ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه ، ولا يدخل رجل الجنة لا يأمن جاره بوائقه .

❋ ان من أحبكم الى ، وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم اخلاقا .

❋ ما شىء أثقل فى ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن ، وان الله ليبغض الفاحش البذىء .

❋ ان المرء ليدرك بحسن خلقه ما لا يدركه الصائم القائم .

❋ لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

❋ ليس بالمؤمن الذى يشبع وجاره جائع الى جنبه .

❋ اياكم والظن فان الظن أكذب الحديث . ولا تجسسوا ولا تحسسوا . ولا تحاسدوا ولا تدابروا . ولا تباغضوا . وكونوا عباد الله اخوانا .

❋ أربع من كن فيه كان منافقا خالصا . ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها . اذا اؤتمن خان . واذا حدث كذب. واذا عاهد غدر . واذا خاصم فجر .

* اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : وما هى يارسول الله . قال : الشرك بالله . والسحر . وقتل النفس التى حرم الله الا بالحق . وأكل الربا . وأكل مال اليتيم . والتولى يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات .

* سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل الا ظله . امام عادل . وشاب نشأ فى عبادة الله ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وافترقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال الى نفسها ، فقال انى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه .

* ألين شىء فى هذا الدين أن تشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . وأشد شىء فى هذا الدين : هو الأمانة .

ونقصر عنايتنا فى هذا الفصل على سرد بعض فقرات من كتب علماء المستشرقين التى تستحق أن تنشر على صفحات هذا الكتاب مبينين ما احتوته من حقائق هامة لشأن دين الاسلام ، هادمين ما اشتملت عليه من أباطيل وأخطاء زل فيها المؤلفون عن جهل طفيف أو شطط فى الفهم . أو ابتعاد عن المنطق السليم . مبرهنين ما أمكن على رأينا بأنصع الأدلة وأسطع الحجج ..

واليكم مثل من أحد المستشرقين الذى كتب عن بدء الاسلام أكثر من عشرة مؤلفات وهو انما قد تعمق فى دراسة صدر الاسلام لغرض فى نفسه لا يخفى على أحد مهما كان ساذجا ذلك الغرض هو هدم الاسلام .

ذلك هو المستشرق القس « لامانس » ، وهو قسيس يقطن لبنان ، أكل الحقد قلبه حينما رأى الاسلام ينتشر فى جميع أرجاء بقاع العالم ويبسط جناحيه على قارات آسيا وافريقيا وأوربا ، فيضيق صدر ذلك القسيس فيسخط على القدر نفسه . ويقول : لماذا جاء القرآن فجأة ليقضى على التأثير الطفيف الذى كان الانجيل قد أخذ يحدثه فى ابن البادية .

والحق أننا قد اخترنا هذا المستشرق بالذات لأن شهرته العلمية . قد خدعت الكثيرين . فأحسنوا الثقة به مع أن اسناداته الكثيرة التى يثبتها فى

آخر كل صحيفــة • انما هى من قبيل التســويه على القارىء • والحقيقة أنه لا قيمة لها .

ان القس لامانس ذو هوى جامح عنيف ثائر ، ومنهج لامانس ساذج كل السذاجة • انه منهج العكس • فيأتى الى أوثق الأخبار وأصدق الأنباء فيقلبها متعمدا الى عكسها • من ذلك أنه ينكر على رسول الاسلام الشجاعة التى هى من أبرز صفاته ، فيقول عن موقف الرسول — صلى الله عليه وسلم — يوم أن كان يقود الجيوش فى الغزوات ولم تضطرب نفسه فى أية واحــدة منها ، حتى يوم « أحد » ، وقد ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا ولم تهله كثرة الجيوش المعادية فى غزوة الخندق يوم أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر حتى لقد قال « على » كرم الله وجهه : كنا اذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فما يكون أحد أقرب الى العدو منه ، كما لم ترعه نبال كالمطر يوم حنين ، ومع ذلك فان « لامانس » يصفه بعدم الشجاعة .. ثم يحاول أن يعمم الحكم على العرب قاطبة ، يقول : زعموا أن العربى يتسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح فى الفتوح الاسلامية الأولى بما يمتاز به العربى من صفات ومزايا ، ولكنى أتردد كل التردد فى قبول هذا الرأى المبالغ فيه كل المبالغة • ان شــجاعة العرب انما هى من نوع غير سام •

ويعلق فضيلة « الشيخ محمد الخضر حسين » شــيخ الجامع الأزهر السابق على هذا فيقول : وكذلك الداعى الى الحق • ولا سيما المعهود اليه بابلاغه وتنفيذه لابد من أن يكون شجاعا رابط الجأش على قدر شدة المدعوين وصعوبة مراسهم • وعلى قدر عظم الحق ومخالفته لمللهم وعاداتهم وأهوائهم • فاذا أودع الله تعالى قلب رســوله شجاعة وسكينة فى مواضع الخطوب فلا جرم أن يكون نصيبه من هذه الميزة أعظم نصيب . اذ لا أشد من مراس الأمة التى ابتدأ بتبليغها وهى الأمة العربية . وفى دعوة الاسلام قضاء على مللهم • وذم لمعبوداتهم وابطال كثير من عاداتهم وصرف لهم عن أهوائهم •

ولو اطلع هذا القسيس المغالطعلى الكتاب الذهبى النفيس الذى كتبه قواد الحرب الكبرى يشيدون فيه بشجاعة وجرأة الجنود المسلمين الذين حاربوا مع قيـادة جيـوش الحلفاء دفاعا عما اعتقـدوه حقا فكانوا من أكبر عوامل النصر فى الحرب الكبرى حتى لقد أثارت فرق الهجوم منهم اعجاب العالم أجمع فانه لو قرأ ذلك الكتاب لشاهد فيه آلاف الشهادات من القواد العسكريين بالبطولة لهؤلاء الجنود العرب .

ومن المعروف أن النبى كان يتعبد فى غار حراء ، ولكن لامانس يؤكد أنه كان يكره الوحدة .. كما يصفه بأنه أكول قد كثفت جسمه الملذات ، ولا يذكر شيئا عن صوم الرسول لشهر رمضان ، أو أنه كان يصوم الاثنين والخميس .

كما يقول لامانس : كان محمد نؤوما .. والروايات الصحيحة تحدثنا أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يتهجد بالليل على وفق قـوله تعالى : « ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثـك ربك مقـاما محمودا » .

روى « الامام البخارى » فى جامعه الصحيح عن « المغيرة بن شعبة » أنه قال : كان النبى — صلى الله عليه وسلم — يقوم ليصلى ، فيظل يصلى حتى تتورم قدماه ، فيقال له ، فيقول أفلا أكون عبدا شـكورا .. وكان يخص رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور ، فيكثر فيه من تلاوة القرآن . والصلاة . والذكر . والاعتكاف . وما كان يخرج عنه شهر حتى يصوم منه . وربما صام أياما متتابعة حتى يقال ، لا يفطر .. وكان يواصل الصوم فى رمضان . أى يصل الليل بالنهار فى الصوم . يومين أو أياما . ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة وكان ينهى أصحابه عن الوصال . فيقال له : انك تواصل فيقول : لست كهيئتكم ، انى أبيت عند ربى فيطعمنى ، ويسقينى ، المراد من اطعام الله وسقيه ما يغذيه به من المعارف وما يفيضه على قلبه من لذة المناجاة ، وورد فى السيرة أنه كان يجلس ولا يقوم الا عند ذكر الله . وكان روح عبادته الاخلاص . يصلى فى حجـرته

نافلة كما يصلى فى المسجد ، ويذكر الله خاليا كما يذكره فى جماعة . ويعمل له فى السر كما يعمل له فى العلانية (١) ".

وأخذ لامانس ينقص من حقوق أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وفاطمة وعائشة وحفصة وغيرهم وغيرهم من أوائل المسلمين .

أما اذا تحدث عن أعداء الاسلام . كأبى جهل وأبى لهب ألد أعداء النبى . أما اذا ما تحدث عن المنافقين خونة الاسلام . أما اذا ما تحدث عن يزيد قاتل الحسين أو عن بنى أمية على وجه العموم . فانه يشيد ما شاء له هواه . ويمدح ما أمكنه المدح . ويطرى كلما أتيح الاطراء ويلبسهم من الفضيلة ثوبا لامعا خلابا .

ولقد بلغت به الحماسة فى كتابته عن بنى أمية . حدا أثار نفور المسيو « كازانوفا » الاستاذ فى كليج دى فرانس . فقال : كانت نفسية الأمويين فى مجموعهم مركبة من الطمع فى الغنى الى حد الجشع . ومن حب الفتح من أجل النهب . ومن الحرص على السلطان من أجل التمتع بملذات الدنيا . لذلك يحق لنا أن نعجب أشد العجب من كاهن كاثوليكى مثل الأب لامانس يتطوع للدفاع عن أولئك الغاصبين الطغاة ، ساخرا فى سذاجة من الذين مكروا به وخدعوه .

وانها لغريبة حقا هذه المباحث التى يبدى فيها هذا المؤلف — المطلع على تاريخ ذلك العصر اطلاعا حريا بالاعجاب — تشيعه للأمويين ضد بنى هاشم . والتى تتوالى فيها المرافعات الدفاعية . والاتهامات الادعائية . آخذا بعضها برقاب بعض (٢) .

أما المنافقون فهم أبطال الوطنية عند القسيس ، واذا أردنا أن نعد أخطاء لامانس ، فاننا لا نقف عند حد .. انه مثلا يتعمد أن يعطى للألفاظ معنى آخر غير المعنى الذى تعطيه لغويا أو اصطلاحيا وكأنه فى ذلك موكل بقلب الحقائق . ان الردة فى نظره معناها الانفصال . والمرتدون هم

---

(١) من رسالة عن سيدنا محمد لفضيلة الشيخ محمد الخضر حسين
(٢) كازانوفا « محمد وانتهاء العالم » ص ٥٨ .

الانفصاليون • والمنافقون هم المشككون وهم أبطال الوطنية القومية • واذا قرأت فى القرآن الآية الكريمة « ان الله مع الصابرين » فسترى أن لامانس يشرحها شرحا أبعد ما يكون عن السمو وعن المكانة العليا التى هى عليه فى الاسلام .. انه يفسرها : ان الله مع الساكتين على سياسة محمد .

ويتحدث عن أبى بكر وعمر فقط فيقول : الثالوث ، انه يقول حكومة الثالوث •• أبو بكر • وعمر • بل يطلق كلمة الثالوث على سيدتين • فيقول : حزب الثالوث المؤلف من « عائشة وحفصة » الدساستين المخوفتين • ولا عجب بعد ذلك أن نرى هذا القسيس يأخذ على التوحيد الاسلامى انه « ضيق » ، لأنه لا يقول بأن الله ثالث ثلاثة ،وبأن الثلاثة واحد . ولا يقول بأن الأب غير الابن • ومع ذلك الابن هو الأب •

ان توحيد الاسلام ضيق لأنه لا ينطوى على ما تنطوى عليه المسيحية من تلك المتناقضات ، فيقول كتابه الكريم : « قل هو الله أحد . الله الصمد • لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » •

وهذا القسيس يفسد متعمدا الصور التاريخية • انه يحدثنا عن مكة والمدينة فى عهد الرسول ، فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن حينما يتحدث عن جزيرة العرب ، عن الحملة الصحفية ، عن الماليين • بنك مكة • مليار النقابة القرشية • الضريبة على الدخل • طبقة العمال • جائزة مونتينيون • ابلاغ الرسالة الى محل الاقامة • ديوان ذى الجلال • وزارة الله • الى آخر هذه التعبيرات الحديثة التى تفسد الصورة • ولا تصور الحقيقة •

ولامانس جرىء جرأة نادرة ، اذ أنه لم يعثر على أى خبر واحد يؤيد به أى زعم مما زعم •• فكان يغالط كما هى عادته بقوله : ان هذا أمر عنى رجال الحديث والأخبار بكتمانه •

وبينما يحترم المسلمون السيد « المسيح » ويجلونه • نجد لامانس يصف مؤسس الاسلام بأبشع ما يمكن أن يظهره الحقد والكراهية • حتى لكأننا نسمع أسلوب « رهبان القرون الوسطى » الذين لم يكن فى جعبتهم الا السباب والشتائم •

ولقد أصاب الدكتور « سنوك هرغرنجة » فى قوله : ان سير « محمد » الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضى عليها بالعقم اذا سخرت لأية نظرية أو رأى سابق • هذه حقيقة يجمل بمستشرقى العصر جميعا أن يضعوها نصب أعينهم • فانها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التى تكلفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلوا الى نتائج لاشك خاطئة فقد يحتاجون فى تأييد رأى من الآراء الى هدم بعض الأخبار وليس هذا بالأمر الهين ، ثم الى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا ، وهذا أمر لاريب مستحيل •

ولقد شغف أولئك المستشرقون المحدثون بالمذاهب الغربية الغالبة التى تعمل على هدم السنة بما هو مبتدع وغريب .

على أن دراسة المبتدعات التى دخلت عن هذا الطريق فى تاريخ النبى قد أتاحت لنا أن نكشف عن أنها كانت ، أحيانا ، وليدة كراهية شديدة • (كما هو الشأن فى كل ما كتب القسيس « لامانس » أو القس « زويمر » • للاسلام اذ يصعب التوفيق بينها وبين العلم ولا تليق بعصرنا هذا، كما أنها على العموم مع ما فيها من احاطة نظرية بحتة تسجل على مؤلفيها جهلا عجيبا بعادات العرب • وانه ليكفى فى اظهار زيفها أن نقارن بعضها ببعض لأنها على تناقض بحيث ينسخ بعضها بعضا • وأخيرا فان علوها فى الخيال • فيما يتعلق بالظواهر النفسية الشرقية . ليظهر بأجلى بيان . صدق تلك الآثار المأخوذ بها فى العالم الاسلامى •

والمستشرق الألمانى « يوليوس فلهوزن » ، وهو عالم مبرز فى ميدان الدراسات المتعلقة بالكتاب المقدس بقسميه القديم والجديد ، وباحث محقق فى ميدان التاريخ العربى ، ومؤلف كتاب « تاريخ الدولة العربية منذ ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية » . وقد قارن العالم الألمانى «ك. هـ.بكر» بين « فلهوزن » فى كتابه عن الدولة العربية « الدولة الأموية » وبين الراهب اليسوعى « هـ. لامانس » فى كتاباته عن العصر الأموى ولاحظ بحق أن لامانس رغم حذقه قد فشل فيما نجح فيه فلهوزن .

فكتابات لامانس أشبه شيء بمجموعات من الفيشات ، أما كتاب فلهوزن فهو بناء ضخم ، ولامانس يكون شخصياته التى تكلم عنها جزءا جزءا ، لكنه يقع على اللون غير الصحيح . أما فلهوزن فهو يزهد فى جمع القطع الملونة الأخاذة ، وكأنما ينحت شخصياته من الحجر الأصيل .

وان المؤرخ فلهوزن معترف له بالفضل والنزاهة فى الرأى والحكم على الأشياء ، لكنه يسرف أحيانا فى تحرره الفكرى ، أو فى تطبيق حكم أو تصور ينتهى اليه ، وهو لما كان ليس مسلما فقد انحرفت نظرته فى بعض المسائل شيئا من الانحراف ، نذكر منها على سبيل المثال فقط لا الحصر ، ما قاله المؤلف فلهوزن فى صفحة ٢ من كتابه :

والاسلام الأول ليس استسلاما Ealalismus بالمعنى السائر لهذه الكلمة ، وليس الهه الا عبارة عما يسمى المطلق Das Absetute أعنى أن الاسلام ليس ايمانا بشيء غير مفهوم هو الى السلب منه الى الايجاب أقرب بل اله الاسلام هو الذات التى لها القدرة على كل شيء ، والخير والعدل فى حقها ملازمان للقدرة لا ينفكان عنها ، ثم يقول :

ويبرز فى القرآن شأن القدرة الالهية تارة وشأن العدل الالهى تارة أخرى ، وذلك بحسب ما كان يجيء به النبى عليه السلام دون مراعاة للتوازن بين الطرفين ولا يشعر « محمد » عليه السلام بما فى ذلك من تناقض ، لأنه لم يكن فيلسوفا ولا واضعا لمذهب نظرى فى العقائد Dogmaiks يقصد المؤلف أن الذات الالهية فى الاسلام ذات حقيقة لها صفات الخلق والتدبير والعناية ، وذلك فى مقابل اله الفلاسفة الذى هو أشبه بمعنى مجرد .

والظاهر من كلام المؤلف أن القرآن الكريم من تأليف النبى عليه الصلاة والسلام ، ولاشك أن هذا مخالف للحق الذى يعتقده المسلمون ويعرفه عنهم غيرهم ، وهو أن القرآن كلام الله تعالى وانه وحى أنزله على رسوله ، وكان يجب على المؤلف مراعاة لمقتضيات الواقع والبحث العلمى النزيه أن يشير الى ذلك بصراحة ، ثم يبحث عن الحكمة التى يرمى اليها

القرآن من اشعار المؤمن بقدرة الله تارة وبعدله تارة أخرى ، وهى كما يمكن أن يقال : أن يشعر بأنه داخل فى ميدان قدرة الله المطلقة فيخشاه ولا ينساه . ثم يشعر بعدله فتطمئن نفسه الى صنع مولاه .

على أن ابراز القرآن لبعض الصفات الالهية المتقـابلة لا يقتصر على القدرة والعدل بل يشمل صفات أخرى مثل أنه تعالى شديد العقاب وأنه غفور رحيم ، أو أنه فعال لما يريد وأنه كتب على نفسه الرحمة أو أنه الجبار وأنه اللطيف .

أما ما يزعمه المؤلف من تناقض فى ذلك فهو شىء ليس له وجود الا فى ذهنه هو ، وأين التناقض فى اضافة صفتى القدرة والعـدل أو الجبروت والرحمة الى الله تعالى .

ان زعم المؤلف أن فى هذا تناقضا ليس الا قصورا عن ادراك أسرار كتاب الله الحكيم وحقيقة صفات رب العالمين .

أما ما يقوله المؤلف من أن محمدا عليـه الصـلاة والسلام لم يكن فيلسوفا ولا من واضعى المذاهب الاعتقادية فهو صحيح بالمعنى الذى فى ذهن المؤلف ، فالحق أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان نبيا يتلقى علمه عن الله ولا ينطق عن الهوى ، فهو ليس من الفلاسفة الذين يعتمدون على عقولهم البشرية القاصرة المعرضة للخطأ ، و لامن المفكرين الذين ينظرون فى النصوص المنزلة أو ما يؤخذ منها ثم يجتهدون فى وضع مذاهب اعتقادية بحسب ما يمكنهم أن يصلوا اليه بالنظر الانسانى غير المعصوم المتناقض .

وقال « فلهوزن » أيضا : ولقد كان فى وسع محمد عليه السلام من طريق عقيدة تتجاوز دائرة معتنقيها الدائرة التى ترسمها رابطة الدم . ان يحطم رابطة الدم هذه لأنها لم تكن بريئة من العصبية وضيقها ، ولا كانت ذات صبغة خارجية عارضة ، وهذا هو الذى جعلها لا تتسع لقبول عنصر غريب عنها . ولكن محمدا ــ عليه الصلاة والسلام ــ لم يرد ذلك ، ومن الجائز أيضا انه لم يكن يستطيع أن يتصور امكان رابطة دينية فى حـدود غير حدود رابطة الدم ، ولذلك فانه لم ير أن رسالته هى أن يضم الى دعوته

أتباعا منفرقين هنا وهناك . نعم ، كان لابد له أن يبدأ بضم أفراد ، ولكنه كان يرى ضم الجماعة كلها ، فكان يطمح الى أن يجعـل أمته العربية كلها جماعة دينية له ، أما انشاء جماعة دينية صغيرة مضطهدة فى مكة ، فهذا ما لم يكن ليرضى طموحه .

والظاهر فى تعبير المؤلف عدم توفيقه ، فلو انه أمعن النظر فى القرآن والحديث لأحس فى قلبه وفى عقله مقدار سعة الرابطة التى تربط بين البشر وهى التوحيد لله الذى خلقهم .

وقد سار النبى عليه الصلاة والسلام فى معاملة الخلق طبقـا لذلك وحارب العصبية الدموية محاربة شديدة .

والذى ذكره فلهوزن يخالف الواقع أيضا ، لأن الدعوة الاسلاميـة جاءت للناس كافة ، ولأن القرآن والحديث قد أعلنا أن الناس جميعا على اختلاف ألسنتهم وألوانهم ، كلهم أمة واحدة ومنشؤهم من أصل واحد ، وان أكرمهم عند الله أتقاهم . وكا نغرض الدعوة الخروج بالناس من ضيق العصبية القبلية والجنسية الى أفق الانسانية الموحدة ، وهذا ما صرح به القرآن والسنة .

أما الاعتماد على مؤمنين يحملون الدعـوة وينشرونها ويمنعونها من أعدائها بفضل ما يكون بينهم من التحام بالنسب وبفضل ما ينشأ عن ذلك من قوة لا يتعارض مع الغاية الكبرى التى تحققت فعلا .

ومعنى المواطن فى الدولة الاسلامية : المؤمن بالله والمتبع لوحى أنزله الله سواء كان مسلما أو يهوديا أو نصرانيا ، غير أنه فى الدولة الاسلاميـة تكون مهمة حكم الدولة والدفاع عنها للمسلمين وحدهم ، ولهذا فرضت الجزية على أهل الكتاب لأنهم معفون من الواجبات الحربية .

وفى العبارة الآتية يعتبر المؤلف أن ما قرره الاسلام من أشياء تميزه عن اليهودية والنصرانية تعريب له ، وما هو كذلك بل هو تعليم رب العالمين. قال : وفى أثناء هذا الصراع الذى كان دائرا فى الظاهر بين الاسلام وبين الوثنية العربية ثم على نحو يستلفت النظر تعريب داخلى للاسلام نفسه،وقد

كانت نقطة البداية فى دعوة محمد عليه السلام اقتناعه فى أول الأمر بأن ما جاء به من دين يتفق مع اليهودية والنصرانيـة ، فـكان ينتظر طبقا لهذا الاقناع ، أن يهود المدينة سيستقبلونه مرحبين ، ولكنهم لم يعترفوا له بأنه نبى ، ولم يعترفوا بأن الوحى الذى أنزل اليه هو الوحى الذى عندهم ، وان كان اليهود دخلوا فى أول الأمر من الوجهة السياسية فى الأمة التى أسسها محمد عليه السلام .. الخ .

وقوله : وكان أبو بكر وعمر يعلمان أنهما لم يتوليا الخلافة بفضـل حق شرعى ، بل من طريق الاغتصاب ، وهما لم يستطيعا أن يسبغا على رياستهما التى كانت غير شرعية فى أول الأمر ثوبا شرعيا فيما بعد .

وهذا كلام لا أساس له ، لأن أبا بكر وعمر توليا الخلافة من طريق طبيعى بحسب ظروف الموقف ، ولم تكن الخلافة فى يد أحد حتى يقال انهما اغتصباها منه . ولم يكن النبى عليه الصلاة والسلام قد نص نصا صريحا على من يخلفه ، لكنه عليه الصلاة والسلام بتكليفه أبابكر أن يصلى بالناس قد أعرب عن العهد اليه بتولى شئون المسلمين من بعده ، هذا الى أن أبابكر نظرا لأنه كان أول من آمن بالرسول عليه الصلاة والسلام فانه قد كان له السبق فى الايمان وما ترتب عليه من الصحبة والكفاح والعلم بالله والأسوة برسوله والأهلية للخلافة ، ثم ان أبا بكر قد عهد الى عمر بالخلافة ، وفى كلتا الحالتين بايعهما المسلمون ، فأين الاغتصاب ؟

لكأن المؤلف يعبر عن رأى بعض غلاة الشيعة فى الامامة وفى أن عليا رضى الله عنه كان أولى بها ، لكن المؤلف لا يذكر الشيعة فى هذا المقام .

ويقول المؤلف فى صفحة ٤١ : وتنفس المحاربون العرب بعد أن كانت الحروب المتواصلة لا تترك لهم الى الراحة سبيلا ، فوجدوا فراغا للتفكير ، وطالما كانت الغنيمة ، وكانت فى الحقيقة نهبا مستمرا تتدفق من غير انقطاع الى أيدى الجند من طريق الحملات الحربية المتواصلة .. الخ .

ان هذا هو رأى المؤلف فلهوزن بلفظه ومعناه ، لكن الحق أن قانون الحرب والغنيمة هو الذى كان معمولا به فى الفتوحات الاسلامية مع كثير

من التسامح من جانب العرب الفاتحين . واذا كان قد حدث فى تاريخ الفتح أن بعض قادة الجيش كانوا يرفضون عروض الصلح ويريدون فتح العنوة لما فيه من غنيمة أكبر فان ذلك لم يكن هو القاعدة . وهو لا يبرر القول بأن أخذ الغنيمة كان نهبا !.

هذه بعض الأمثلة مما جاء فى كتاب « تاريخ الدولة العربية » لفلهوزن وهى كثيرة ، وليس المجال مجال حصر أخطاء وكل التباس وقع فيه المؤلف . ولكننا سردنا تلك الهفوات على سبيل التعريف فقط .

ومن المستشرقين أشباه فلهوزن المستشرق « ر.ف. بودلى » مؤلف كتاب « الرسول حياة محمد » .. ومما قاله عن القرآن الكريم : ويعرف هذا الكتاب بالقرآن ، وهو اليوم كما كان يوم كتب لأول مرة تحت اشراف « محمد » . وعلى الرغم من أن الأفكار قد دونت فى الرقاع وسعف النخل والعظام فى لحظات غريبة فان السور والآيات الأصلية قد حفظت . وما عمل هذا . كما هو الحال فى العهد القديم والعهد الحديث . بعد قرون أو حتى عشرات السنين بعد موت المؤلف.فان أبا بكر خليفة محمد الأول. قد جمع الرقاع التى دون القرآن فيها . ونسخها حرفيا وحفظت هذه النسخة عند حفصة احدى زوجات محمد .

وان « جورج سيل » الذى ترجم القرآن ترجمة طيبة فى أوائل القرن الثامن عشر والذى كان من الواجب أن يعرف محمدا معرفة حقيقية صدر ترجمته بالآتى :

أخبرنا المؤرخون أن المدن الشهيرة المميزة على جميع المدن الأخرى فى التجارة والآداب تنازعت فيما بينها على أيها كان لها شرف أن تكون مسقط رأس « هوميروس » .. وان هذا النزاع ليستحق الثناء لأنه يدل على رقى فى فكر رجال ذلك العصر ولكن لما فحصت شخصية محمد فحصا دقيقا كانت الصورة فظيعة معيبة حتى أنه لمن الغريب أن مكان منبته لم تسدل عليه سدول النسيان . ان أى قطر ليخجل من انجاب مثل هذا المجرم . ومع ذلك فقد كان توقير العرب لهذا المخاتل الكبير دواما . حتى

انهم لم يدعوا المكان الذى تنفس فيـه أول ما تنفس تحيطه أية ريبة أو غموض •

واستمر هـكذا •• وان التعليق الوحيد على هـذا هو أن نستعير عدة جمل من صفحات قصة محمد التى كتبها راعى كنيسة نيوانجلند :كيف استطاع مثل هذا الرجل أن يخلق ديانة يدين بها اليوم ثلاثمائة مليـون مؤمن ، وبدلا من أن تأخذ فى الزوال كمـا هو حادث لكثير من ديانات العالم . فانها اليوم أقوى مما كانت ، ويزداد معتنقوها يوما بعد يوم ؟.

وقوله : قد يصادف المرء أحيانا كتابا من طراز « جون سلدن » الذى أجهد نفسه فى دراسة دين العرب هذا • فقد قال هذا الـكاتب الذى عاش فى القرن السابع عشر انهم يطلقون على الأوثان لفظة محمد Memmetry وعلى عبادة الأوثان المحمـدية Mammets فصـارت « محمد » والمحمدية أسماء بغيضة • فى حين أن العالم أجمع يعرف أن الترك (يقصد المسلمين) • يحرمون الأوثان فى دياناتهم •

ولكن مثل هذه الحقائق كانت نادرة • وكان الاعتقاد السائد هو أن أية ديانة جاءت عقب موت المسيح ينبغى أن تكون ديانة زائفة •

وهناك أيضا كتاب ذهبوا الى مذهب آخر ، فجعلوا محمدا قديسا . اذا لم يجعلوه « ألها » •• كتاب عـزوا اليه معجـزات • وظواهر خارقة للطبيعة ، وقوى سماوية ، وهى ليست أكثر كذبا من اتهامات « جـورج سيل » • والمفكرين من مدرسـته • لقد قال « محمـد » قبل أن يموت : قاتل الله قوما اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد •• لقد كان يحس خزيا لو أنه رأى الخـرافات العديدة التى ينسجها الكتاب على حسابه • وان هذا هو عيب كتاب سيرة محمد • فهم اما مؤمنون به • واما كافرون به بدرجـات مختلفة فى التعصب وان القليلين هم الذين سردوا قصة الرجل دون تحزب أو محاباة •ودون أن يبرزوا فضائله أو عيوبه ويضغطوا عليها ••

وقال بودلى : وما قر رأى محمد على هذا القرار حتى أقـر مبدءا سيصبح عقيدة غير شرعية للمؤمنين . فالجهاد ولو أنه ليس فرضا دينيا فانه سيقوم بما لا يقوم به شىء آخر فى سبيل حمل الاسلام الى العالمين ••

وفى حقيقة الأمر • فان تاريخ العرب لو أهملنا قصة آدم • يرجع الى عصور أقدم بكثير من عصور أنبياء التوراة ويثبت ذلك معتقداتهم التى كانوا يدينون بها قبل الاسلام • فقد عبدوا اله الخصب وقدسوا الشمس والقمر والنجوم بجوار اعتناقهم الوثنية واليهودية والمسيحية •

وعلى الرغم من هذه المعتقدات القديمة فلم يهتم العرب بالفجر الذى أشرق على الدنيا فى القرن السادس• وفى الحقيقة لم يهتم أحد بذلك كثيرا• فقد كانت فترة قلق دمرت فيها امبراطوريات شرق أوربا وغرب آسيا بالفعل وآذن سلطانها بالمغيب .

لقد كان العالم ما زال مأخوذا بفصاحة الاغريق وعظم الفرس وجلال الروم • فما كان ليظن أن يحل مكانها أى شىء آخر ولو كان دينا جديدا •
كاليهود مشردين فى بقاع الأرض لا قيادة مركزة لهم . مضطهدين أو صابرين حسب الظروف والأحوال • وما كان لهم من وطن كما هو حالهم اليوم• وكان المسيحيون فيما خرج عن نطاق نفوذ الأب «جريجورى» الأكبر • قد توصلوا الى ايجاد جميع التفسيرات المعقدة الملتوية لدينهم الواحد البسيط • فنشبت المنازعات القاتلة بينهم •

أما فى فارس فلا زالت الخفقة الأخيرة تسرى فى جسم الامبراطورية • فكان كسرى الثانى يمد فى حكمه • فيحتل كبادوسيا ومصر وسوريا متحديا روما . واغتصب بيت المقدس وسلب الصليب المقدس حوالى سنة ٦٢٠م .
فلما سطع نجم « محمد » كان كسرى قد استعاد ملك داريوس الأول •• ولاح كأن حياة استقرار سترفرف على الشرق الأوسط • ولكن لم يكن ذلك صوابا • فما زال للبيزانطيين بعض حيوتهم القديمة • فلما هاجم كسرى بجيوشه الجارة القسطنطينية هبوا يحاولون محاولتهم الأخيرة •
مات الامبراطور « جستنيان » زوج « تيودورا » الشهيرة عام ٥٦٥ أى قبل مولد « محمد » وأعقبه أباطرة لا وزن لهم . حتى اذا ما كان عام ما كان عام ٦١٠ اعتلى « هرقل » وكان من طراز آخر — عرش آبائه • فلم يضيع وقتا • بل راح يتأهب لملاقاة الفرس • وهزمهم أخيرا عام ٦٢٧ • فاستعاد معظم ما اغتصبه كسرى من روما وأعاد الصليب المقدس الى بيت

المقدس • ولكن لم يدم نصره طويلا • فبعد سنين قليلة كتب عليه أن يقابل هجوم الاسلام • لقد كان هجوما قصيرا قاسيا • فما دوت « الله أكبر » ــ صيحة الحرب ــ حتى كان النسر الرومانى يترنح ثم يتمرغ فى التراب لآخر مرة • وكان جنود العرب يطأونه بالأقدام •

وهناك فى الشرق البعيد كان لسير الحوادث أقل الأثر • فكانت الهند لا تزال دويلات تافهة متعددة متأخرة متناحرة على السلطة سياسيا وحربيا • وكان الصليبيون على عادتهم يقاتل بعضهم بعضا . فجاءت أسرة « سو » وأقصت وقفتها أسرة « تانج » وبقيت ثلاثة قرون .

أما فى اليابان فقد اعتلت عرشها ملكة لأول مرة وابتدأت البوذية تتغلغل وتؤثر فى العقلية اليابانية ومثلها العليا •

وكانت أوربا تتحول تدريجيا الى امبراطورية الفرنج التى ستحوى على مرور الأيام فرنسا وايطاليا الشمالية ومعظم الأراضى الواقعة شرقى الرين حتى الحدود البروسية الهولندية الحالية . ومات « كلوفيس » وكان أمر تتويج « داجوبرت » آخر ملوك أسرة « مورفنجيان » وشيك الوقوع وكانت أسبانيا وانجلترا دولتين صغيرتين .

أما الجزر البريطانية فكانت دويلات مستقلة بعضها عن بعض • وكان قد انقضى على خروج الرومان منها مائة وخمسون سنة • وقد اندفع اليها سيل جارف من أهل الشمال • وكانت انجلترا نفسها تتكون من سبع دول منفصلة ، وكانت اسكتلندا موطن « البيقط » المحاربين .

وان زيارة « كولومبس » الحديثة لهم حولت ملكهم الى المسيحية وأتاحت لهم فرصة الاتصال بالعالم المتحضر . وكان « الدوريد » يقيمون طقوسهم القديمة فى « ويلز » • وكان أغلب « الايرلنديين » يعيشون كما يعيشون اليوم • وكان الآخرون ينتمون الى مجموعة من الأديرة فيبعثون الرسل لتشييد أسس السلبية (١) العظيمة فى قارة أوربا •

---

(١) السلبية هم طائفة من البشر شرقية الاصل ، وينتسب اليها سكان الجبال فى ايرلندا واسكتلندا وويلز وشمال فرنسا .

وكان تاريخ شمال أفريقيا مرتبطا بتـاريخ الرومان البيزنطيين . فقد طرد « بلساريوس الوندال » . فساد سـلام قلق شطئان البحـر الأبيض الجنوبية . لقد كان الهدوء الذى سبق عاصفة الجيوش الاسلامية .

وعلى الرغم من أن الأوربى لم يطأ بقدمه الأرض الأمريكية بعد . فقد كان هناك أناس لهم مـدنيتهم الخاصة . فـكانت قبائل المايا . فى عصر « محمد » . متقدمة فى هندسة البناء والفلك والحسـاب . وكانت الهجرة قائمة هناك فى أقصى الشمال من آسـيا عبر مضيق « بيرنج » . فـكان القادمون الجدد يحاربون المستوطنين ويدفعونهم أمامهم شطر الشرق.فكان السكان الأصليون يقيمون شـعائر الخصب والعـلاقات الجنسية الشاذة بحماس أناس صارت أيامهم فى الأرض معدودة .

كانت الدنيا على قدر ما يمكننا أن نتصور ، لا تختلف كثيرا عما هى عليه اليوم . فكانت آفاق الامبراطوريات وجشـع الاستعمار يدفع الناس لقتل بعضهم بعضا فى وحشـية فى القرن السـادس كما هو الحال الآن فى القرن العشرين . وكان القتل والتعـذيب وأعمال القسوة ترتكـب فى أيام محمد وهرقل باسم مدنية أو أخرى كما ترتكب اليوم فى أيام « البابا بيوس الثانى عشر وجورج السادس » . ولم يتعلم الجنس البشرى شـيئا من الدروس التى جرعها فى الألفى عام التى مضت .

وقوله أيضا : وكان هناك الى جـوار سـوق بصرى دير للرهبـان النسطوريين المسيحيين وكانوا يعرفون « أبا طالب » فدعوه الى طعام . وقد لفت « محمد » نظر « بحيرى » الراهب بأسئلته وتفـكيره وتطلعه الى المعرفة . وقد أثرت فيه أفكاره السديدة . فراح الراهب يحادث العربى الصغير وكأنما كان يحادث رفيقا من رفقائه . فأخبره بعقيدة عيسى . وسفه عبادة الأصنام ، وأرهف محمد السمع الى ما ينطق الرجل به . فقـد كان غريبا يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه (١) وان الشخص الآخر الذى حدثه

(١) يمهد بودلى بهذا لان يقول فى الفصول الاخيرة ، أن محمدا قد تعلم من بحيرى ما جاء فى القرآن من نصوص تتفق ونصوص الكتاب المقدس ، على الرغم من أن محمدا لم ير الكتاب المقدس أبدا ، وأن هذا التعليل واه ، فقد كان محمد فى العاشرة ومن غير المعقول أن مقـابلة واحدة بين بحيرى ومحمد فى سن العاشرة تترك هذا الاثر . أن من حظ بحيرى أن قابل محمدا فلولا هذه المقابلة لاندثر كما اندثر ملايين الرهبان .

حديث المسيحية كانت الجارية « بركة » . وكانت مسيحيتها نقيـــة . فلم يتمكن آنئذ من أن يفهم ما تقول • وأن ما يسمعه الآن مجلى كل الجلاء فالوثنية وعبادة الطبيعة تتنافيان والمنطـــق • هذا هـــو الحق • وليس من المعقول أن يكون لدى محمد أية فكرة عن الديانة أو كيفية تطبيقها على نفسه • وما كان فى شبابه ليشك فى عبادة أصنام الكعبة • وأنه قد اختزن فى عقله الواعى ما قاله الراهب النسطورى • فاذا ما جد الجد وجد عنده قدرا من المسيحية استغله خير استغلال •

وما كان الراهب هو المؤثر الجديد الوحيد فى محمد فى ذلك الوقت • فقد كانت العقائد والأديان تتشابك فى سوق عكاظ فى كل موسم • فكان اليهود والنصارى وعبدة الأصنام وعبدة النار من الفرس يتلاحقون • فكان التسامح الدينى يسيطر على الجميع • وكانت الأحقاد تتناسى كما هو الحال فى الألعاب الأولمبية • وكانت بعض الأعمال تبرم ولكن الملاهى المتوافرة من سباق الى انشاد أصحاب المذهبات والمعلقات الى شرب الى رقص كانت أكثر ما يجذب البصر •• وكان قس بن ساعدة راهب نجران النصرانى يخطب الناس من فوق جمله شارحا عقيدته • وكان يقضى الساعات وهو يتحدث ويحدث الناس عن تفاهة الحياة الدنيا وعظمة الحياة الأخرى • ولقد استمع « محمد » الى شذرات من هذه الخطب • وفى السنين التالية كان محمد يخطب من فوق جمله ، وكان حديثه يحوى كثيرا من العظات التى كان يرددها الراهب النصرانى ••

وكان اليهود القوم الوحيدون الذين لم يقدروه • وكانوا فى الواقع يبذلون ما وسعهم البذل ليعارضوا نجاحه • فبدلا من أن يشيدوا بانتصاره راحوا يقللون من قيمتـــه • وقد فعلوا ذلك فى دورهم وفعلوه جهارا وقد سخروا من الوحى • واستفادوا من سماح « محمد » لأى انسان بالدخول الى المسجد فراحوا يسخرون من صلاته • وقد اعترضوا على اصالة ما جاء به القرآن•وجاءوا بالانجيل ليثبتوا كيف أن القليل من أحكامه كان أصيلا• وكتبوا هجاء فيه وفى المسلمين وذهب بعض صغار اليهود الى القاء الحجارة عليه كما حاولوا اغتياله •

وعلى ذلك فقد أحس المسلمون أنهم يصبرون على الضيم فى المدينة، كان اليهود فى تلك الأيام ، كما هم الآن ، يسيطرون على المصارف المحلية ويقرضون عملاءهم ، فلما تحسنت أحوال المهاجرين هبط عليهم اليهود وراحوا يبتزون ما عندهم ابتزازا .

وقد يسأل سائل : لماذا كان يفعل اليهود ذلك فى هذه البقعة التى تبعد مئات الأميال عن وطنهم ، ولماذا كشفوا عن هذا المقت الخاص لمحمد والمسلمين ؟ وان الجواب لبسيط .. ان خلقا ليعتقدون أن طرد اليهود من فلسطين نه علاقة ببريطانيا العظمى أو بابن السعود ، أو بادولف هتلر.. وهذا خطأ كله ، فقد كان اليهود منذ أزمان سحيقة عرضة دائما للطرد من وطنهم الذى استولوا عليه أصلا بالقوة ولنذكر بعض الذين طردوهم ، فهناك « سرجون الثانى » سنة ٧٢٢ ق.م وبختنصر سنة ٥٨٦ ق.م وبومباى سنة ٦٣ ق.م وطيطس سنة ٧٠ ميلادية . وطردهم « هارديان » طردا نهائيا سنة ١٣ ميلادية . ولا يوجد بفلسطين اليوم الا ٦٥٠ ألفا من الخمسة عشر مليونا المنتشرين فى العالم .

فكلما وقع اضطهاد لليهود ، رحل المضطهدون الى ممالك أخرى ، وقد تغلغل كثير منهم فى جزيرة العرب ، فانه بعد أن نهب طيطس بيت المقدس استولت ثلاث قبائل قوية على المدينة أو يثرب ، كما كانت تسمى ، هذه القبائل هى بنوقينقاع وبنو قريظة وبنو النضير ، وحولوها الى معقل زراعى . ومنذ ذلك الوقت شب النزاع واستمر بين اليهود والقبائل العربية المحليه التى صارت فيما بعد بنى الأوس وبنى الخزرج ، واستفحل القتال فى خلال السنوات السابقة للهجرة مباشرة ، وانتهى فى سنة ٦١٨ م، بموقعة دامية فى مكان يعرف بالبواط ، ثم قررت الأحزاب المقاتلة بعد ذلك أنه من الأحكم تناسى الاختلافات فى الرأى ، وقد تقرر تبعا لذلك تناسى المنافسات والثأر تحت امرة زعيم عظيم ، وكان عبد الله بن أبى العربى الرجل الذى انتخب لهذه المهمة ، وكان صديقا لليهود ، ولكن قبل أن يثبت التعيين ظهر محمد وأصحابه ذوو الثياب الرثة فبدلوا كل شىء ..

ومما جاء فى الكتاب عن القرآن : فالقرآن كتاب جليل يعكس صورة « محمد » • بل انه محمد فى الواقع •• وعلى الرغم من ذلك فهناك قليلون من غير المسلمين . ودارسو الاسلام ليس عندهم أية فكرة عن ماهية القرآن • فعلى الرغم من وجود تراجم له عديدة جيدة بالفرنسية والانجليزية والألمانية فمن النادر أن تجد غربيا قد قرأه . فقد سمعت بعضهم يتحدثون عنه • على اعتبار أنه تاريخ « محمد » أو على أنه مجموعة من الحكم من نوع حكم « كونفيوشيوس » • أو على أنه مجموعة قوانين محمد أو على أنه تأويل للكتاب المقدس . والظاهر أنه حتى مؤرخى محمد قد تجنبوا التحليل أو الشرح لهذا العمل الذى عليه قام الاسلام جميعه •

ويردف الحديث قائلا : فكانت النتيجة عملا مرقعا مفككا ولا يحمل أية فكرة عن تكوين آية خطة فى رأس محمد أو عن الظروف التى كانت تحيط به وتؤثر فيه • وكان الارتباك عاما حتى أن « فولتير » قال بعد أن قرأ القرآن : كتاب لا يمكن ادراكه يخالف عقولنا فى كل صفحة •• ويقول أيضا : وفى الواقع أن عدم التسلسل هذا فى قطعة أدبية ليس بدعا مسلما دون أن يلقى كثير اهتمام الى من يقرأه فى البداية أو النهاية .

وأن هذه الصحف المفككة التى كانت عند حفصة هى التى قررت القرآن الكريم • وعلى الرغم من ذلك فلم يلتفت كثير الى هذا • وابتدأت الاختلافات تبدو فى طبعات القرآن التى انتشرت فى العالم الاسلامى الآخذ فى النمو •

وقوله أيضا : وفى الواقع لا يمكن اقامة البرهان بوضوح على ارتقاء وتطور عقل التاجر الرحالة المرسل الى عقل حاكم جزيرة العرب بأكثر من هذه السور المرتبة ترتيبا زمنيا • وان هذه السور المرتبة لتبطل ملاحظة فولتير عن الموضوع • وتبطل ما قاله « جوته » : كلما اقتربنا من القرآن تجدد امتعاضنا ثم يجذبنا بالتدريج • ويثير فينا الدهشة ثم يدفعنا الى الاعجاب به فى النهاية •

وقد ظل أمرا غامضا كيفية معرفة محمد بالتوراة والانجيل • كما سبق أن أشرنا الى ذلك •

ويقول : وهناك هذه الترجمة التى تعزى الى « ورقة » • ولكن ليس هناك أقل شاهد على أن محمدا قد اطلع عليها . وكان حديثه مع ورقة يتعلق بعموميات اللاهوت • وان السبب الذى يؤكد عدم اطلاعه عليها أن ورقة قد مات قبل أن يبدأ محمد فى تدوين ما أوحى به جبريل اليه • وقبل أن يبدأ فى تنسيق القرآن بكثير • وان أول طبعة عربية للعهد القديم قد نشرت بعد المسيح بتسعة قرون ، أى بعد موت محمد بما يقرب من ثلاثة قرون ، بينما أن أول طبعة رسمية عربية للعهد الجديد قد ظهرت بعد ذلك بقرنين ، وللعرب ذاكرة واعية مدهشة • فمن الممـــكن أن محمدا كان قادرا على أن يختزن فى عقله كل ما سمعه خلال رحلاته • وأن هذا ليبدو عمـــلا خارقا • ولكن هذا هو التفسير الممـــكن الوحيد • الا اذا قبلنا صراحة أن القرآن وحى من السماء •

وقال بودلى : وقلما أفكر فى محمد كرسول الله الذى أصبح أتباعه سبع سكان الأرض وقلما أفكر فيه كملهم للجنـــود الذين امتدت فتوحاتهم امتدادا لم يتجاوزه الا جيوش الامبراطـورية البريطانية • وقلما أفكر فيه كمؤلف للقرآن• ذلك الكتاب العجيب من الأحكام والدين والنظم• ولكنى أفكر فيه كصبى فعل الخير لقومه • وأفكر فيه أيضا كشـــاب له مثل أعلى يضطهد ويعذب من أجـله • ثم يرغم اسرته على أن تعترف بأنه كان على صواب • وأن ما فعله محمد بالسيف ومن فوق منبره كان أقل خطورة من دحضه القول السائد بأن لا كرامة لنبى فى قومه • فانه قد بدل أفـــكار أهله ، ومن الواجب أن نذكر ذلك اذا ما شئنا أن نقـــدر قصـــة الصحراء الناجحة هذه حق قدرها ••

وقوله أيضا : وكان من أسرة طيبة تجرى فى عروقها دماء قريش • ولكنه ما كان من امراء التجارة • وكان فاشلا فى تلك الناحية • فعلى الرغم من علاقات اسرته جميعا فانه ما فعل شيئا يلفت النظر • لقد ظل أمينا ولكنه كان أجيرا ••

وقوله: ولم يبد لى محمد قديســا كما يراه المعجبون به • ولا دجالا كما يزعم محقروه ، وقد قالت عائشة عنه — وكانت تعرفه حق المعرفة وما

كانت مخدوعة فيه ــ : كان كيسا ونبيلا ، كانت تبرق أسارير وجهه غالبا، ويبتسم كثيرا (١) ٠

ومن أقواله :

* فما كان يهمل أمر الله أبدا ٠ وما كان يسمح لمركزه أن يدير رأسه ٠ وسواء أقرأ الانسان لكتاب من مناصرى محمد ٠ أو لكتاب من أعدائه ٠ فانه ليجد أنهم جميعا قد اتفقوا على أن البساطة والوقار كانتا تعم حياته ٠ والبساطة المتناهية احدى قوى الاسلام الأساسية ٠ وانها لاحدى أسباب انتشاره الملحوظ ٠

* أكان فى مقدور رجل ما لم يكن ملهما ، أن يأتى الى الوجود بمثل هذه الأخوة العالمية ، وهلا تنعكس سخرية معادى الاسلام عليهم؟٠ وكيف يترك دجال عقيدة ازدهرت ونمت بعد موته ؟ ان عدد معتنقى الاسلام ليزيد اليوم بمقدار ربع مليون فى كل عام ! ٠ وهذا دون ضغط أو ارهاب لنشر رسالة الاسلام ٠

* ولم يكن لمحمد بولص (١) وكان جنوده هم ناشرو الاسلام الأصليون ، وأنهم قد تركوا الاسلام ثابت الدعائم حيثما ذهبوا . وان هذا ليجعل المرء يتساءل عما كان يحدث لو أنه كان هناك ارساليات عربية عظيمة تبشر بالقرآن كارساليات المسيحية الأولى ٠ وما كان هناك دعاة عظام للاسلام بالمعنى المعروف ٠ فقد كان الناس الذين يتعاملون وهذا الدين يحبونه ، فكانوا يقبلونه ويدخلون فيه ، ومن الناحية الأخرى فانالاسلام لم يبق فى دولة تختلف عن مكان مولده كل الاختلاف ٠ فقد حكم المسلمون اسبانيا حكما رائعا خمسة قرون ٠ ولكن لما عاد الملوك المسيحيون وديوان التفتيش المقدس خبت عقيدة المسلمين وماتت ٠

---

(١) ترجمة لحديث عائشة رضى الله عنها وليس النص ٠

(٢) يقصد المؤلف ان المسيح لم يتم رسالته وقد عمل بولص على نشر المسيحية ، أما محمد فقد اتم رسالته ٠

وزيادة على ذلك فما كانت أوربا لتعتنق الاســلام لو أن « شارل مارتل » قد هزم فى تور • فان هذا الدين يوائم أناسا غير معقدين • وكان محمد غير معقد •• الخ •

وغير خاف ما فى بعض أقوال « بودلى » ما يدل على الجهل بالتاريخ وعلى تعصبه وعدم نزاهته فى البحث والتنقيب وعلى حقده للاسلام ورسوله الكريم .

وفى العام الماضى صــدر كتاب للعالم الاستاذ « مونتجمرى وات » عميد قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرة باسم « الاسلام والجمــاعة المتحدة » •• جاء فيه :

ان المعركة بين محمد عليه السلام • وبين كفار قريش لم تكن معركة بين دعوة تجديد ودعوة محافظة على القديم ، بل كانت معركة بين حركة تجديد وحركة تجديد أخرى • ولكن فى طريقين مختلفين • بل متعارضين •

كانت حياة كفار قريش تتحول من معيشة البداوة الى معيشة الحاضرة التجارية • وكانت ثروة الأرباح من تجــارة القــوافل تتدفق على زعماء العشائر القوية فى مكة وتتحول بهم من أخلاق فرســان البادية الى أخلاق السادة المنعمين فى الحاضرة . بينما أناس من عشائرهم وأتباعهم وعبيدهم يخدمونهم مضطرين ولا يشاركونهم فى نعيم الثروة ولا فى عزة السطوة • فهم كســادتهم غير محافظين • وغير مطمئنين الى ما هم فيه • وان كانوا يخافون التغيير المجهول ولا يسلمون زمامهم للمصلحين على غير ثقة بعاقبة هذا التغيير • فلم يكن السادة ولا العبيد ــ اذن ــ محافظين على القديم كما زعموا لاقناع أنفســهم بمحاربة الدعوة المحمــدية وفاء منهم لآبائهم وأجدادهم ورعاية منهم لأربابهم ومعبــوداتهم • بل كانوا جميعا يتحولون من سنن أولئك الآباء والأجداد فى معيشتهم وأخلاقهم•ويأخذون فى معيشة جديدة شعارها الترف والمتعة وأملها الأكبر زيادة الثروة والسطوة وحقيقتها الواقعة هى حقيقة كل « متعة حسية » يجور صاحبها على نفسه ويجور على المحرومين منها باختيــاره وبغير اختياره • وهذه هى الحيــاة التى وصف القرآن الكريم أصحابها فقال : « أفرأيت من اتخذ الهه هواه » وقالوا :

« ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون » .

أما التغيير الذى جاءت به الدعوة المحمدية فقد أفلح واستقر لأنه أعطى النفس الانسانية — كما أعطى الجماعة كلها — حياة أفضل من حياتها وغاية أحق بالسعى اليها من غايتها . ليس متاع الحياة الدنيا غاية حياة الانسان لأن متاع الحياة الدنيا غرور وضلال بغير الباقيات الصالحات .

وليس المجتمع الانسانى سوقا للسادة والعبيد . ولكنه « أمة » تهتدى بامام واحد وامامة واحدة . وقبلتها التى تؤمها تستقيم على الجادة ومادامت مستقيمة عليها فهى قبلة الخير والتقوى يتساوى فيها العاملون الصالحون ولا يستأثر بها صاحب الثروة والسطوة أو تستأثر من حوله عصبة الأسرة أو العشيرة وزعامة البادية أو الحاضرة ..

ويقول الاستاذ : ان فكرة « الأمة » . كما جاء بها الاسلام هى الفكرة البديعة التى لم يسبق اليها ولم تزل الى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الايمان يدفع بالمسلمين الى « الوحدة » فى « أمة » واحدة تختفى فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة . وقد تفرد الاسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتعدد المصالح . ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها . بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم الى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفى الغرباء عنها .. ثم تساءل المؤلف : أكانت العقيدة الدينية ضرورية لخلق فكرة « الأمة » بهذا المعنى ؟ .

ألم يكن فى وسع الزعامة العظيمة أن توحد بين العرب بسلطان « الشخصية » المطاعة المحبوبة ثم تدع هذه الوحدة تضم اليها من يضم الدين من غير أبناء الجزيرة ؟ .

ورأى المؤلف أن فكرة « الأمة » هى التى راضت رجلا مثل « عبد الله بن أبى » بقبول الرئاسة الدينية ولم يكن ليقبلها لو كانت رئاسة محمد

رئاسة دنيوية . وان فكرة الأمة هى التى جعلت أناسا من الفرس يؤمنون بأنهم أحق من بنى أمية بنصرة الخلافة الاسلامية على قواعد المساواة بين جميع المسلمين • وأن فكرة الأمة هى التى جددت للبلاد الاسلامية فى كل عصر قبلة تلوذ بها وتهتدى بهداها . وهى التى ثبتت فى صدور المسلمين أنهم « أمة » واحدة أمام الغزوات الأجنبية •

ويقول المؤلف : ان عقيدة الاسلام تزود أبناءه فى كل عصر بالصورة المحركة التى ينظرون اليها ويترسمونها ، وتسمى هذه الصورة المحركه بالانجليزية Dynamic inages أى « الطيف » أو المثال الذى يحفز السائر الى الحركة والتقدم ويهون عليه مشقة الطريق وأقرب من ذلك باللغة العربية أن نسميها « القبلة الموجهة » أو القبلة المستجابة ، لأنها كلمة موافقةلشعائر الاسلام .

وسر هذه القوة فى العقيدة الاسلامية أنها منحت الفرد مقياسا للحياة أرفع وأسلم من مقياس العصبية والمنعة وهو مقياس الضمير المستقل عن أصحاب السيادة وانها — مع هذا الاستقلال الفردى — لم تترك الجماعة بغير وجهة تعتمد عليها •

فأبدعت لها فكرة الأمة • وحررت هذه الفكرة من ربقة العصبية وحددوا الوراثة فأصبح معنى « الأمة » قابلا للتطور مع الحوادث والظروف ••

وعلى هذه القاعدة من تحديد عمل « الظروف » الاقتصادية بحث الأستاذ « مونتجومرى » عوامل نشأة الاسلام وعوامل « الوحدة » التى امتازت بها الدعوة المحمدية وجعلها المؤلف موضوعا لكتابه ، وان كان قد وقف بها عند نهاية القرون الوسطى ، ولم يتقدم بها الى العصر الحديث •

ولقد أصاب المؤلف فى التنويه بمعنى « الأمة » فى العقيدة الاسلامية واعتباره معنى فريدا خلقته العقيدة الاسلامية ولم يكن له مرادف بمعناه فى لغة من اللغات قبل الاسلام ولا بعد الاسلام .

وصدق قول الله تعالى : « ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، لئلا يكون للناس

حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » .

وهكذا نجد فى هذه الأيام الكثير من المؤلفات فى اللغات الأوربية عن حياة النبى عليه السلام ، والرسالة الاسلامية ، بعضها خاضع لأغراض السياسة أو خاضع لأغراض التبشير ، وبعضها الذى يكتبه أناس متمردون على ساسة الدول وجماعات التبشير يخضعون لآفة أخرى هى آفة الجهل بالحقائق والعجز عن فهم الشرق والشرقيين كما يفهمون أنفسهم فى حاضرهم وماضيهم . ومن المؤلفين المحدثين عن نبى الاسلام من يكتب عنه ليتخذ من هذه الكتابة ذريعة الى نشر مذهب فى الحياة الاجتماعية يعارض مذهب الديانة الاسلامية فى هذه الشئون .

ولم تخل المكتبة الأوربية الحديثة بعد هذا كله من كتابة عنه صلوات الله وسلامه عليه ، تنقل الأخبار عن مصادرها صحيحة محققة ، وتؤدى الأمانة للتاريخ أداء العالم الذى يحاسب ضميره وعقله فيما يكتب ، ويترفع عن رواية الكذب أو الخطأ وهو عالم به متعمد لاخفائه .

الا أن هؤلاء جميعا يكتبون مؤلفاتهم للحاضر ولا يعنيهم أمر الماضى فى هذا الموضوع بعينه ، وهو موضوع حياة النبى وصفاته الشخصية ، كما نقول فى تعبير العصر الحاضر ، فيتركون المخلفات القديمة على حدة فى مكتبات علماء الدين وورثة اللاهوت من أبناء القرون الوسطى . وتظل تلك المخلفات مشحونة بالأباطيل والأغاليط ، تسمم عقول أولئك اللاهوتيين ومن يتلقى العلم عنهم من ناشئة المبشرين ، ثم يتخرج هؤلاء الناشئة مؤمنين بصدق دعوات التبشير وصواب الحملة على الاسلام كما فهموه وفهموا معه أخبار نبيه الكريم فى حياته الشخصية ، وخلقه الموصوف بتلك الأباطيل ولو انهم فهموا أسرار أباطيلهم ، لارتدوا على أنفسهم واستطاع الاسلام أن يغزوهم فى معاقلهم فاذا هم يرتضونه لأنفسهم قبل أن يتفرقوا بين أنحاء العالم مستبسلين فى تشكيك المسلمين وتنفير غير المسلمين من الاسلام .

وتلك المخلفات عن القرون الوسطى ، وقد تجمعت فى مكتباتها من تصانيف علماء اللاهوت الذين هالهم نفوذ الحكمة الاسلامية والأدب

الاسلامى بين طلاب العلوم الدينية عندهم على أثر قيام الحضارة الأندلسية بأوربا الغربية ، وكان من طلاب الحكمة الاسلامية بينهم أناس وصلوا الى مقام البابوية وأناس ارتفعوا الى مقام الهداية الفكرية بمعزل عن الكنيسة بل على خلاف عقائدها المأثورة ، فلما هالهم هذا النفوذ الفكرى وأزعجهم شيوعه فى معاقل الفكر ومعاهد العبادة أقبلوا على تأليف الكتب التى اجتهدوا غاية الاجتهاد أن يصبغوها بالصبغة العلمية ليضمنوا رواجها بين طلاب المعرفة واقناعها لمن يطلبون الدليل ولا يقبلون أن يخدعوا بأباطيل الدعاية والتضليل . وجعلوا همهم كله تشويه الحكمة الاسلامية بتشويه مصدرها الأول وتمثيل صاحب الدعوة الاسلامية فى صورة بعيدة عن التقديس والاحترام ، ولا حاجة بهم بعد ذلك الى البحث فى دقائق الحكمة وأسرار الفلسفة لتنفير الأفكار من النبى ورسالته ، لأن تمثيل انسان مقدس فى الصورة التى تنزع القداسة عنه أيسر جدا من عناء الدراسة فى نقض العقائد وادحاض الأفكار .

وقد نجحت هذه المكيدة الساذجة فى حينها ، ولا تزال بقاياها بمرصدها فى مكانها يحفظونها ويعيدونها أملا فى تكرار هذا النجاح بين الناشئة المتعلمين من رجال الدين قبل غيرهم ، عسى أن يكون لها أثرها فى خلق الحماسة الضرورية لكل مبشر يرجى أن يصدق الدعوة والاقناع . بعد أن شاعت فى هذا العصر شكوكه وشبهاته ، وأوشكت أن تعصف بيقين المبشرين أنفسهم ، وهم يدعون الآخرين الى اليقين .

ان مهارة أصحاب المكيدة من نوع المهارات الرخيصة التى تعتبر رخيصة لأنها تنجح بقليل من الجهد ولكنها تفشل وتخفق بجهد أقل منه ، ونجاحها فى أكثر حالاتها انما يتوقف على الفضيحة وعلى سهولة الاصغاء اليها فى طبائع الجهلاء والأغرار ، بلّ فى طبائع بعض الفضلاء الذين يسرعون الى النفور من التهم السوء لأنهم يعافون السوء ويعرضون عن التفتيش فى دخائله والتحدث بأخباره أو تضيق عقولهم أحيانا عن الجمع بين الاحتراز من قالة السوء والاحتراز من قبول هذه القالة بغير دليل .

أما فشل الفضيحة بالقليل من الجهد فمرجعه الى طبيعة الاشاعات كلها

فى صميمها ، فان خبرا كاذبا من أخبارها قد ينكشف للسامع فيهدم مئات الأخبار الكاذبة التى تستهوى الأسماع الى تصديقها (١) .

احدى هذه الأكاذيب التى احتفل رواة القرون الوسطى بتزويقها وترويجها ، أكذوبتهم عن قصة « زينب بنت جحش » وزواج النبى عليه الصلاة والسلام منها بعد تطليقها من زوجها .

تلك القصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها الى وصمة انسانية يعاف من أجلها خلق الانسان ، ويعاف الدين الذى يدعو اليه من أجله .

ويزيد عليها خبر صغير لا شك فيه ، فاذا هى شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للانبياء ، لأنها شهادة بغاية البر والاحسان الى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والاحسان الى المرأة المجروحة فى عزتها ، بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها برغم ارادتها .

وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكثر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالانكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى صلوات الله عليه . وهذه أيضا كانت لهم مهارتهم الرخيصة لأنها سهلة الشيوع سهلة التفنيد .

فكل ما توارد من الأنباء بين القرآن والكتب الاسرائيلية ، فهو وحى صادق فى كتب بنى اسرائيل ، ونقل غير صادق فى كتاب الاسلام ، مع التحريف والخطأ أحيانا فى الرواية من الكهان اليهود أو الكهان المسيحيين .

وقد كان رواج هذا الزعم سهلا سريعا بين أبناء القرون الوسطى (٢) لأنهم كانوا يعتقدون جميعا أن الكتب الاسرائيلية هى مصدر تلك الأنباء الأولى ، وأن الاختلاف فيها انما يكون بطبيعة الحال تحريفا أو خطأ فى النبأ الذى جاء بعد تلك الكتب بترتيب التاريخ .

لكن الخبر الصغير الذى ينقض ذلك الزعم من أساسه أن الكشوف

---

(١) عن مقالة للاستاذ العقاد ..

(٢) نعيد هنا وفى هذا الفصل ماكتبه المرحوم الاستاذ العقاد حول الضلال الذى اتسم به بعض المستشرقين ، لانه فى الواقع أبلغ رد على افتراء (بودلى) وأباطيله هو ومن شايعه .

الحفرية أثبتت اليوم أن الكتب الاسرائيلية لم تكن هى المصدر الأول لما ورد من أنباء القرون الأولى فى التوراة أو التلمود .

وقد أثبت القرآن أنه روى عن النبوءات السابقة أخبارا لم تذكر ولم ترد الاشارة اليها فى كتب العهد القديم ولا فى أقاصيص التلمود وما شابهه من أسانيد اليهود ، فاذا كانت مصادر الجزيرة العربية ومصادر بين النهرين أوفى وأقدم من المصدر الاسرائيلى ، فهذا المصدر الأخير أقرب الى فطنة الخطأ والتحريف من ذلك المرجع الأصيل .

وتزاد على هذه الملاحظة الصغيرة ملاحظة أصغر منها ليتحقق المؤرخ أن عمل العصبية القومية كان أفعل وأظهر من عمل الأسانيد التاريخية فى ترويج تلك الاشاعات أو تلك الأكاذيب لأن اسم الكاهن الذى زعموا انه كان يملى قصص القرآن الكريم على النبى صلوات الله وسلامه عليه ، كان يختلف دائما باختلاف مرجع الاشاعة المفتراة ، فاذا كان المرجع مسيحيا ، فالراهب سرجيوس أو بحيرى ، هو الملقن لتلك القصص ، واذا كان المرجع يهوديا فالملقن هو حاخام اسرائيلى مجهول ، كما جاء فى رواية « بيدرو دى الفونسو » الذى ينتهى فى أصله الى بنى اسرائيل .

ثم قال الأستاذ المرحوم « عباس العقاد » : ان هذا الموضوع يعاودنا كلما وقع نظرنا على عنوان من عناوين الكتب الكثيرة التى تصدر فى هذه الأيام عن تواريخ القرون الوسطى ، وقد عاودنا مجددا ، مؤكدا ، بعد الاطلاع على آخر كتاب مفصل ظهر بالانجليزية عن « الاسلام والغرب » من سنة ١١٠٠ الى سنة ١٣٥٠ ميلادية لمؤلفه الأستاذ « نورمان دنيال » من علماء كلية الملكة بجامعة اكسفورد .

ولعلنا لا نخطىء التعبير اذا قلنا : انها جميعها مكتبة تغرى بالتأليف فى التعليق عليها ، لأن تفنيدها فى هذا الزمن أيسر من ترويجها فى زمانها ، وليس أولى باجتهاد المسلم فى رد العادية عن عقيدته وتاريخه من رد التبشير على عقبيه الى معقله الحصين ، فانه لأحرى أن يشتغل بالخوف على معقله من الجرأة الخرقاء على معاقل الاسلام » .

وكان الأستاذ العلامة « جوستاف ا. فون جرونيباوم » أحد أولئك المستشرقين الذين هفت نفوسهم الى دراسة الاسلام ، فأخذوا يقلبون فيه الفكر ويمعنون فيه النظر ، فاذا هو ينتهى الى نتيجة اعتقد أنها خلاصة لكتابه « حضارة الاسلام » : هى أن العرب أعطوا العالم الاسلامى ومانزله من بلاد الشرق قرآنه ولغته وعقيدته ، ثم تناولوا ما بتلك البلاد من ثقافات وحضارات قديمة فامتصوها وهضموها وأخرجوها للناس فى قالب عربى رائع أخاذ كادت تخفى فيه معالمها الأصلية وأصلها الغريب .

ولقد بدأ « جرونيباوم » مع الاسلام حيث نبت . وتتبعه وليدا ناشئا وترسمه قرآنا وسنة ودرس أصوله ومذاهبه وفرقه بأسلوب علمى دقيق . فهو لا يكاد يورد فكرة ، الا أورد لها نصا ، وأورد للنص مرجعا ، وأشهد لقد كان فى كل ما نقله نزيها ، ما حرف لفظة واحدة الا أن يفوته فهمها ، وأشهد انه لم يذم الاسلام بلسانه قط ، ولا تنقص رسوله الكريم ، بل الحق أنه كثيرا ما كان ينعى على أولئك الذين يخرجون عن جادة القصد والوقار فى نقدهم ، وانه ، وهو الأجنبى عن الملة ، لم يفته أن يظهر تقديره لما جاء به الطاهر الصادق من عقيدة الاسلام ، نعم انه نقل عن غيره بعض نصوص لم يراع فيها جانب الحقيقة ، ولكنه كان يعترض على طريقة الذم لمجرد التشنيع ، أما النقد العلمى فسبيله مباحة للناس جميعا ، اذا كان المرمى هو وجه الحق والصدق وتبيان العقيدة على ما يفهمها أحد أبنائها الناشئين فى محيطها ، الغواصين وراء أغوارها المتشربين بروحها ، ولعله حين يقرأ تلك الردود يعود فيرى فى عقيدة الاسلام رأيا آخر اذ يشهده تحت نور آخر .

أما ترهات المتعصبين من القساوسة ، فكان الدافع اليها هو الحقد والجهل والتعصب ، وليس للحقيقة ولا وجه الله ، ولم يكن حب العلم هو المقصد من البحث فى الرسالة الاسلامية والدعوة المحمدية .

وكانت أبحاث المؤلف من الناحية الحضارية والأدبية واللغوية جديرة بأن نقف ازاءها طويلا ، وأن نلفت اليها أنظار دارسى اللغة العربية ، فانه فضلا عن النهج العلمى الذى اتبعه فى تعقب الظواهر الحضارية والأنماط

الأدبية والغوص وراءها حتى مصادرها الأولى فى عتيق الثقافات والمدنيات. وفضلا عن ايجاده بهذه الطريقة الاستقرائية الدقيقة نظرية علمية لها دعائمها القوية ، هى أن الحضارة والأدب عند العرب والأقدمين يتفقان على تباينهما فى الظاهر ، فى الفكر والمنهج والعادة . فان مطالعة الكتاب كفيلة أن تفتق للقارىء شعابا فى الأدب العربى ، وأن تبرز له مناحى لم يكن منتهيا اليها قبل تلاوته ، وان فيه من الدعوة الى العناية بالأدب المقارن ما هو حقيق لو أخذ به أن يبعث نهضته فى الدراسات العربية الأدبية وان فيه من أسماء المراجع العربية والأجنبية ما أكاد أقطع بأن معظم محبى الأدب العربى ، لا يكادون يعرفون اسمه ، فما بالك بمحتوياته ؟ .

ولا ريب فى أن قارىء الكتاب سيفهم الأدب العربى فهما جديدا وسيعود الى كتبه الأدبية فيقرأها ، وقد تفتحت فيها نظرات وفجاج وتكونت له فيها آراء ستجعله يدهش من نفسه ومن تغير نظرته الى لغته وأدبه .

ولعله يثير فى نفوسنا رغبة حقة الى مدارسة ذلك التراث الضخم من المؤلفات العربية التاريخية منها والجغرافية والأدبية والدينية والصوفية والفلسفية التى حفلت بأسمائها هوامش الكتاب والاطلاع على المراجع الأجنبية التى عنيت بتقديم تراثنا والتى يقابل بينها المؤلف وبين شقيقاتها العربية .

ولعلنا نحظى من ذلك بدراسة أصيلة ومقارنة تعيد مجد السلف وتكون نبراسا لأبنائنا من بعدنا والأجيال القادمة .

ومن الأمثلة التى جاءت بالكتاب « صفحة ١٤ » :

واذا قيست دولة الاسلام الى القسطنطينية وروما ظهرت فى زى الوعى المحدث ، ذلك أنه لم يكن للاسلام ماض تليد ولم تكن له تقاليد تاريخية ، ولذا قد نجرؤ على أن نقول : ان الاسلام استولى على الأصول التاريخية لعالم الرومان والفرس والكتب المقدسة .. الخ .

والرد على ذلك أن الاسلام دين سماوى منزل ، فما أنزل به الوحى على الرسول الصادق أبلغه للناس بأمانة كما نزل ، فالقول اذن بأن الاسلام قد استولى على محتويات الكتب المقدسة ، هو من الاسرائيليات المعروفة .

وجاء فى صفحة ٢٧ :

كان الاسلام والمسيحية يختلفان فى تفاصيل معظم التعاليم ، ولم تبرح فوارق العقيدة أثناء قرون نموه الثلاثة أو الأربعة الأولى تزداد حدة لعدم نضج الاسلام من ناحيتى علم الالهيات « اللاهوت » والفلسفة .

وفضلا عن ذلك فقد تولى عالم المسيحية عن الاقرار للاسلام بحقيقته الواقعية وهى انه ليس فرعا آخر من المذهب الاريوسى المألوف ، بل دينا مستقلا يلقى قبولا عظيما عند الناس .. الخ .

والرد هو : انه كان بعض رجال المسيحية أول ظهور الاسلام يرون فيه فرعا من عقيدة آريوس الاسكندرى الذى يغلب الناسوت فى شخص المسيح « عيسى ابن مريم » صلوات الله عليه على اللاهوت ، ولكن نظرة بسيطة الى فكرة الاسلام عن « عيسى » عليه السلام ترينا أنه يصوره نبيا فقط وان يكن وجيها ومن المقربين ، فقد اعترف الكتاب له بالمعجزات ، اذ يقول : « وأبرىء الأكمه والأبرص » ، ولكن « باذن الله » ، فالقول بأن الاسلام فرع جديد زائغ من المسيحية قول لا أساس له . والا فمن أين جاءت الخلافات الأساسية فى جوهر العقيدتين ، فبينما الاسلام ينكر صلب المسيح عليه السلام ، تجعل المسيحية ذلك الصلب من أساسيات معتقدها ، فاذا كان الاسلام حقا فرعا من مذهب آريوس ، فماله يتخذ مبدءا يهدم ذلك المذهب من أساسه ؟ ومعلوم أن آريوس وان ناقش لاهوت المسيح لم يناقش قط ولم يشك يوما فى الصلب .

وجاء فى صفحة ٣٠ من الكتاب أيضا: وقد حاول «نيكتاس البيزنطى» الذى كتب فى النصف الثانى من القرن التاسع كاشفا عن بيانات خاطئة فى كتاب المسلمين ، لا بوساطة النقد التاريخى بل بمقارنة نص من القرآن بما ورد فى الكتاب المقدس .

يقول نيكتاس : كيف يصح نسبة بناء الكعبة الى « ابراهيم الخليل » وابنه « اسماعيل » كما يزعم القرآن (كذا) فى سورة البقرة (١) ١٢١ مع ان مؤرخ سفر التكوين الشديد التدقيق (٢٨ : ١٨) لا يذكر أى شىء مطلقا عن اقامة ذلك الأب الكبير لهذا البيت .

ولقد أسقط رأى ذلك المتعصب نكيتاس اسقاطا منطقيا ، المؤلف نفسه اذ قرر أن نيكيتاس لم يستند الى دليل تاريخى بل اكتفى بمقارنة ما ورد فى القرآن بما ورد فى الكتاب المقدس .

وجاء فى الصفحة ٤٢ : وسورة الكهف الآيات (٨ — ٢٥) تروى قصة النائمين السبعة ، ولعلها تهدف الى تقريب فكرة البعث الجسدى للاذهان وما ينجم عن ذلك البعث من حالة مستحبة ، ورواية القرآن تخرج لنا صورة مجملة لقصة مسيحية عن سبعة رجال فروا الى أحد الكهوف ابان الاضطهاد الذى حدث فى عهد الامبراطور « ديكيوس » (٢٤٩ — ٢٥١م) ثم سد عليهم الباب بجدار فأخذهم النعاس حتى استيقظوا بعد ثلاثمائة سنة وتسع فوجدوا بلادهم قد اعتنقت المسيحية ، ولم يلبثوا أن ماتوا بعد أن اكتشف أمرهم مباشرة ، وأقيم على أجسامهم فى الكهف مسجد قرب افسوس Ephesus

وينتقد « نيكيتاس » النبى بشدة لاقدامه على قص القصة ولروايته اياها بتلك الطريقة الغامضة ، فيقول : ان الأسطورة المحمدية Mythario (كذا) السابعة عشرة (١) التى تسمى سورة الكهف ، وتروى قصة فرار فتية افسوس البررة السبعة الى الكهف ، ويذكرهم ذلك البدوى الأمى لسببين :

أولهما : اظهار العلم بكثير من الكتب المنزلة .

وثانيهما : استخدام المعجزة التى منحوها لمصلحة تعاليمه .

ولما كان يعلم حق العلم أنهم كانوا مسيحيين وأنهم .. الخ .

ان زعم نيكيتاس بأن الصورة التى تحويها سورة الكهف فى القرآن صورة اجمالية أو غامضة انما يدل على أن نيكيتاس لا يفهم البتة الغاية التى رمى اليها انزال هذه السورة وغيرها من السور القصصية ، ذلك أن نزولها لم يقصد به التفاخر بالعلم ، لأن الله جلت قدرته هو أعلم العالمين بل هو العليم بكل شىء مضى ، أو لايزال منطويا فى سجل الغيب ، ولا قصد

(١) الواقع انها السورة الثامنه عشرة ، وما ذلك الا لان نيكيتاس لا يحسب الفاتحة عندما يعد السور .

به تلذيذ السامعين وامتاعهم بحبكة قصصية فقد جل الله عن ذلك تبارك وتعالى ، وانما الهدف الأساسى لاحتواء القرآن على قصص هو الموعظة والعبرة التى ينتفع بها الناس فى معاشهم ومعادهم ، والتى يتزكى بها من يتزكى أو يكفر بها من كتبت عليه شقاوة الكفران ، ثم هى تسلية وسلوى للنبى والذين آمنوا معه بعد ما أصابهم القرح ولقوا من عنت قومهم مالقوا، سواء أكانت الصورة اجمالية أم مفصلة غامضة أم واضحة المعالم ، فالمعول كله انما ينحصر فى تلك الموعظة الحسنة التى يفيدها من كتبت له السعادة فى الدنيا والآخرة . ومع ذلك فالواقع ينقض فكرة اجمالية الصورة ، اذ الصورة التى تتكون لدى الانسان عن سورة الكهف واضحة المعالم بينة الدلالة قد وصلت الى هدفها من حسن العظة وزيادة .

ان « نيكيتاس » ذلك المتعصب الجاهل يسمى السورة باسم الأسطورة ، تماما كما فعل جهال العرب اذا قالوا عن القرآن انه أساطير الأولين .

ولقد قصد نيكيتاس بلفظة الأمى التجريح ، ولكن الواقع انه لم يدر أن فى هذه اللفظة نفسها اعترافا للرسول بأساس الرسالة ، ذلك أن مفخرة النبى انما تقوم على أنه أمى ، وبرهان صدقه ينهض فى كونه وهو الأمى المقيم فى تلك البقعة النائية من العالم جاء بهذا الدين القيم الحنيف بما حوى من شريعة وتهذيب وأخلاق وأمثال وعظة وقصص وسير أنبياء ، فالحجة هنا للرسول عليه الصلاة والسلام ، وأى نقد يستطاع توجيهه الى حادثة أراد بها المولى سبحانه وتعالى أن يعظ بها عباده وأن يظهر لهم احدى معجزاته وقدرته العظيمة التى لا يقف دونها شىء ؟

وجاء فى صفحة ٦٥ : وكان المسيحى اذا نظر الى الاسلام لا يجعل همه الأول أن يدرس هذه الظاهرة المجسمة فى صورة عقيدة أجنبية تلوح كأنما تجمع بين المشابهة والمخالفة لعقيدته .. الخ .

وفى هذه الفقرة ينقل المؤلف رأى المسيحية فى القرون الوسطى فى الدين الاسلامى الحنيف : وها هى المسيحية تتخبط فى الرأى ، فتارة تقول

ان الاسلام صورة جديدة من المسيحية ، وتارة تقول انه تشويه لها ، وفاتها أن الانجيل قد جاء لينسخ التوراة ، وجاء الاسلام والقرآن ليغير ما أراد الله أن يتغير ولينسخ ما أراد أن ينسخ ، وليجدد ملة ابراهيم .

وفى الصحيفة نفسها يقول :

وكان الاهتمام الشعبى يتركز حول شخصية « محمد » يحدثنا « يوحنا الدمشقى » الذى يتناول الاسلام على انه فرقة مسيحية مارقة . كيف انه حدث فى أيام الامبراطور هرقل أن ظهر بين العرب متنبىء Psendo prophetos اسمه « مامد » ، وانه اطلع على كتب العهد القديم والجديد ثم ما لبث بعد أن اتصل براهب من أتباع آريوس أن أسس نحلته (كذا) . وقد استطاع بالتظاهر بالتقوى (كذا) أن يكتسب قلوب قومه . ثم أخبرهم بعد ذلك أن كتابا مقدسا قد أنزل اليه من السماء يشتمل على تعاليمهم المقدسة . وقدم اليهم الفرائض المضحكة (كذا) التى وصفها فى ذلك الكتاب ، قائلا : انها شريعتهم المقدسة .

« يوحنا الدمشقى » هذا مثال الجاهل المتعصب فى القرون الوسطى والمؤلف ، هنا وفى مواضع كثيرة أخرى من الكتاب ، انما يقدم أقواله وأقوال غيره ليكشف عن الطريقة المسرفة العمياء التى كانوا يطلقون بها ألسنتهم فى حق الرسول الكريم ودينه القويم ، ويستهجن هذه اللهجة العجيبة ويراها خروجا عن كل قواعد الجدال والمناقشة المنطقية اللائقة .

وجاء فى الكتاب ص ٦٦ :

وكان أول مؤرخ بيزنطى عالج أمر « محمد » هو « ثيو فانيز » المتوفى ٨١٧ م الذى قدر لكتابه « حيا ةالنبى » أن يكون مرجعا هاما لمن تلاه من الكتاب ، ومن سوء الحظ أن « ثيو فانيز » لا يبين مراجعه التى أخذ عنها .

واليكم ما قاله : فى هذه السنة (عام العالم ٦١٢٢ من بد ءالخليقة المقابل ٦٣٢ م) توفى « محمد » حاكم العرب ونبيهم ، بعد أن عين قريبه أبا بكر خليفة له ، وفى نفس الوقت كان الخوف مستوليا على الجميع ، وعند

بداية ظهـــوره ظـن العبـرانيون الضـــالون أنه المســـيح الـــذى كانوا يتوقعـــون ظهـــوره ، لذلك انضـــم اليهم كبـــارهم وتقبلوا دينه وهجروا دين موسى ، الذى رأى الله جهرة Theoptsa والذين فعلوا ذلك كانت عدتهم عشرة ، وقد لازموه حتى لقى نهايته ، ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل (كذا) ، اذ أدركوا انه ليس ما ظنوه أولا ، فتحيروا ولم يعرفوا ماذا يصنعون . وخاف التعساء من الارتداد عن دينه ، فرمونا نحن المسيحيين بتهم السلوك غير المشروع ، وواصلوا مناصرته .

وبعد استطراد موجز فى العلاقة الداخلية بين القبائل العربية ، يعود ثيو فانيز فيقول : ولما كان محمد المذكور فقيرا ويتيما ، فانه قرر أن يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قرباه ، هى « خديجة » بأن جعل من نفســـه وكيلا لها لقاء أجر يتناوله ، يتولى شئون ابلها ويقوم بأشـــغالها فى مصر وفلسطين ، ولم يمض طويل زمن حتى فاز برضا السيدة ، وكانت أيمـــا ، وبفضل طرائقه الصريحة اتخذها له زوجا ، وبذلك حصل على ابلها وسائر ممتلكاتها . وقد اختلط فى فلسطين باليهود والمسيحيين ، وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة ، وأصيب كذلك بمرض عصبى (كذا) .

فلما أن علمت زوجته بأمره حز فى نفسها أنها وهى العريقة الأصل ، قد أصبحت اليوم مرتبطة بانسان لا يقتصر أمره على أنه فقير ، بل هـــو أيضا مريض (كذا) .

فراح يهدئها بقوله : انى تلم بى رؤية ملك من الملائكة اسمه جبريل ولما كنت لا أقوى على تحمل مرآه فانى تخور قواى (١) وأقع على الأرض . وكان يقيم بتلك النواحى راهب ، كان قد نفى لكفره واتخذته صديقا ، فأخبرته خديجة بكل شىء ، كما أبلغته باسم الملاك ، وأراد هذا الراهب أن يقنعها تماما ، فقال لها : لقد قال الصدق ، فما ذلك الملاك الا الناموس الذى يرسل الى النبيين كافة ، حتى اذا قبلت خديجة أقوال الراهب الزائف وصدقتها ، أعلنت لنساء عشيرتها الأخريات أن زوجها نبى .

(١) « جاس » فى كتابه .

وهكذا انتشر الخبر من النساء الى الرجال ، فبلغ أولا أبا بكر ، الذى جعله فيما بعد خليفة من بعده ، وانتهى الأمر بأن استطاعت شيعته (أو قل فرقته المارقة) (كذا) أن تحصل بالقوة ، أو كما قال ثيو فانيز بالحرب ، على السيادة على منطقة يثرب .. الخ .

والرد على هذا هو : ماذا ينتظر من قسيس محنق فى القرون الوسطى الا أن يتفوه بمثل هذا الهراء الذى لا يستحق أن يرد عليه أحد ، ان هذه ترهات وتخرصات من نوع ما كان يلقى جزافا فى تلك الأيام دون سند يؤيده من تاريخ أو رواية .

وبهمنا أن نسجل للمؤلف ، أعنى « جاس » ، دقته العلمية النزيهة اذ يسرد هذه الأقوال تبيانا لروح العصر فقط لا لقيمتها العلمية . ولايفوته فى الوقت ذاته أن يسجل على ثيو فانيز أيضا انه لم يبين المصادر التى استقى منها تجديفاته وتخرصاته ، فمن هؤلاء العشرة ، وماذا فى أكل لحم الجمل ؟ ومع ذلك فان تاريخ اليهود مع النبى فى صدر الاسلام وما انطووا عليه من حقد وعداوة وغدر وخيانة معروف مشهور .

والصحيح المجمع عليه هو أن النبى عليه الصلاة والسلام ذهب الى فلسطين مرتين أولاهما وهو صغير ، وثانيتهما وهو كبير فى اشراف على ابل السيدة خديجة ، ولم يتجاوز فى الحالتين مدينة بصرى ، وليس معقولا أن يتم بينه وبين اليهود والنصارى فى فلسطين من الاتصال والاحتكاك فى أمد وجيز كالأمد بين وصول العير وقفولها ما يتيح ذلك الاختلاط الذى يرمى اليه ثيو فانيز وان ما كان يغشى النبى من غاشية اذ ينزل عليه الوحى ، انما مرده الاتصال الروحى بالقوى العليا .

فأما ما يدعيه ثيو فانيز من أن الرسول الصادق عليه الصلاة والسلام قد حكم يثرب حربا ، فقول ينقضه التاريخ .

وأما ادعاء ذلك الرجل بأن النبى حرض رجاله على القتال فذلك كان أقل واجب على قوم طردوا من موطنهم الأصلى مكة وحرمت عليهم أموالهم وأعمالهم ومنعوا من ممارسة حقوقهم كأناسى . ونفوا من ديارهم وأوذوا

هم ومن يلوذ بهم .. أليس من حقهم اذن أن ينتصروا لأنفسهم ؟ وأن يردوا عنهم كيد الكائدين المعتدين لا لذنب الا أنهم قالوا ربنا الله وأنكروا على مكة عبادتها للاصنام .

أما عدا ذلك من بـذاءة فالرد عليها مضيعة للوقت ولعـل القارىء يستشعر فيها اعترافا صريحا بالعجز عن مقارعة الحجة بالحجة ، ولم يرو أحد أن ورقة بن نوفل قريب خديجة الذى استشارته السيدة كان نصرانيا أو راهبا ، وانما هو رجل متحنث من الأحناف يعبد الله على ملة ابراهيم . وهذا يكذب دعوى ثيوفانيز (١) من كل وجه .

وفى الصفحة ٧١ ، ٧٢ جاء :

ففى ١٢٧٣ م كتب وليم الطرابلسى Voluntam Disrinam رسـالة عن حالة العرب ومحمد النبى وشريعتهم وعقيدتهم ، والصورة التى صورت محمدا ، وان كانت أبعد ما تكون عن شخصيته التاريخية ، فان ما بها من العناصر الخرافيـة والمطاعن ، قد أنزل الى الحد الأدنى الذى لا غنى عنه لمدافع عن المسيحية فى القرون الوسطى . يقرر وليم أن العرب يعتقدون أن جبريل نقـل الارادة الالهية William of Tripolis الى النبى ، ثم صـاغ المؤمنون ما كان ينطق به كتابا .

ويستطرد وليم فيقول : ان للكاثوليك مع ذلك رأيا آخر ، فهم يرون أنه بعد أن مات محمد أراد أنصاره أن يعالجوا العقيدة والشريعة معالجـة شاملة قائمة على تعاليمه ، فلما تبينوا أن الرجل الذى نيط به العمل لم يرزق الكفاية اللازمة لأداء ذلك على الوجه الأكمل ، طلبوا الى اليهود والمسيحيين الذين أسلموا أن يساعدوه . وعند ذلك رأى هؤلاء من الأفضل أن ينتقوا فقرات مناسبة من العهد القديم والجديد وأن يمزجوها بالكتاب كيفمـا اتفق (كذا) ، وبذا أصبح الكتاب على قدر عظيم من الرونق والجمـال المنقول من الكتب المنزلة ، ما بين مسيحية ويهودية (كذا) . أما الجانب الاسلامى الأصيل فليس الا تشويها وتحريفا (كذا) .

---

(١) ثيوفانير كونتيتنيواتوس Theaphanes Continuatus
ناشره ١ — بيكر (بون ١٩٣٨)

هذه تخرصات ليس لها سند ، وتاريخ الاسلام كله تضحية فى سبيله وثبات على مبادئه ، وان القرآن الذى هو كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قد أجمع العرب كلهم على أنه وصـــل الينا على نفس الشاكلة بالضبط التى تركه عليها رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولم يذكر أحد قط لا من مشركى العرب وكفارهم ولا أى من سكان العالم على اختلاف أديانهم فى جميع العصور ، اللهم الا هذا المتعصب المفترى ، ان حرفا واحدا زيد فى القرآن ، أو أن كلمة واحدة نقحت فيه ، فأما أكاذيب قساوسة القرون الوسطى المغرضين فلا أدحض لها الا كلام المؤلف فى فصل آخر من هذا الكتاب نفسه حيث يقول : ان الكتاب الكريم لم يزد عليـــه شىء ولا أنقص منه بعد وفاة النبى ، فرسول الله عليه أفضل الصلوات ، هو الذى رتب آى القرآن سورا قبل انتقاله الى الرفيـــق الأعلى وتركه على ما تراه اليوم من تقسيم وترتيب .

ويقول : ولم تشهد البلاد قط قدرا كبيرا من الحياة العاطفية الدينية القومية الخالصة ، فضلا عن النظر فى الالاهيات أو الفلسفة . وليست ذوات معظم الآلهة الكثيرة التى نقلت الينا أسماؤها واضحة المعالم ، فهى كلها تقريبا ذات أهمية محلية لا غير . ولم يحظ واحد منها من أتباعه بأى جهد من جهود الخيال ، ثم ان حياة الترجل كانت تؤدى الى فصم علاقة القبائل بمعبـــود كان معبده يقوم فى ربوعهم يوما من الأيام . وكثيرا ما كان الكهان الذين يقومون لسدانة المعابد من غير القبيلة التى يعملون بين ظهرانيها ، وأكثر ما كانت هذه الآلهة حجرا غريب الصورة أو مجموعة من الأشجار لها قوة التنبؤ ويحيط بها حمى مقدس . وحتى « هبل » نفسه الذى كان تمثـــاله قائما بمكة فى الكعبة ، أشد بقاع الجزيرة اجلالا ومهابة ، لم يثر يوما أية ناحية ابتداعية من العقول المتدينة .

وكان مصدر الجاذبية الحقة فى الكعبة للمتعبد النقى ، حجرا عتيقا أسود لاصقا ببعض جدرها ، وقد شعر النبى أنه مكره أن يدخل شعيرة ذلك الحجر فى المناسك كأنما هو شاهد عجيب على عجز الاسلام عن التخلص مما يحيط بأصله من أمور قديمة فجة .

وقد وصلت ثلاث ربات اناث الى مكانة كريمة تتجاوز النفوذ المحلى وترتقى الى حد ما الى رسوخ الشخصية ، واليها يشير القرآن (مستنكرا) بأنهن بنات الله . وهى مناة « القدر » واللات « الربة ، ولعلها فى الأصل ربة الشمس » ، والعزى « وهى الزهرة أو نجمة الصباح » . ومع أن شخصياتها هى أيضا كانت حالكة اللون أو تكاد فانها ما كانت لتستطيع أن تثير أية حماسة دينية مبعثها التقوى ، فلقد بالغ من استقرارها فى أذهان المكيين أن محمدا وقد ألمت به حالة عجيبة من التساهل فيما كان يأخذ به نفسه من شدة التوحيد الذى لا يقبل أخـذا ولا عطاء ، ظن فى وقت من الأوقات انه مستطيع ان اعترف بمنزلتهن وقوتهن القدسية ، أن يحمل أبناء قومه على الكف عن ايذاء أتباعه الذين ليس لهم من مجير قوى يحميهم ، ومع ذلك فسرعان ما ندم محمد (كذا) على ذلك ، وصورت الآية الكريمة الربات بأنها : « ان هى الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » (سـورة النجم آية ٢٣) .

ولم يستل البدو فى أى مكان حساما للذب عنهن عندما أنزلهن المسلمون عن عروشهن ودمروهن . وما كان ذلك الا لأن آلهتهم قد انكمشت حتى أصبحت مجرد أسماء لا تصونها الا رهبة مبعثها الاعتقاد بالخرافات .

والتعقيب على ذلك : أنه كيف غاب عن المؤلف ذكر قس بن ساعدة الأيادى ونبى بنى عبس الذى ضيعه قومه كما جاء فى الأثر عن الرسول وهؤلاء الأحناف الذين هالهم ما تردى فيه قومهم من وثنية وضيعة وعبادة لأنصاب لا تضر ولا تنفع ، فأخذوا يبحثون عن الخير والحق .

ولقد شـاءت ارادة المولى جل وعلا أن تشعر قريشا بأن شـيئا مما تستمتع به مكة من مكانة لن يتغير ومن ثم أمر الرسول فحول القبلة من بيت المقدس الى مكة ونزل الوحى بمناسك الحج الى بيت الله الحرام الذى رفع قواعده ابراهيم فاطمأنت قريش على مستقبلها ولمت الجميع وسدت الثلمة ، فدخلت قريش كلها فى دين الله ، ودعا العرب جميعا باسم الله وحطمت الأوثان ولم يبق من معبود غيره تبارك وتعالى ، ولم يعد يذكر فى البيت الحرام الا اسم الله ، فبقاء الحجر الأسود اذن لا ينطوى على آية وثنية مما كان للعرب فى الجاهلية كما سبق ذكره .

وجاء فى الكتاب صفحتى ١١١ ، ١١٤ ، عن مشكلة الجبر والاختيار ما يلى : ولسنا ندرى مدى اتضاح مشكلة الجبر والاختيار لدى الاسلام فى أول عهده ، ذلك أن التنزيل حينما يؤكد أن الله يهدى من يشاء ويضل من يشاء ، لم يكن يرغب بطبيعة الحال فى تثبيط الجهد الخلقى ولا فى أن يرسم الله فى صورة جبار قاس ، وكل ما فى الأمر انما هو محاولة للتعبير بأقوى عبارة ممكنة عن قوة الله المطلقة التى ليس الى تعليلها سبيل . وان النبى ليطرب لما من عليه الله من أيد تؤيده وتنصره ، كما انه يستلىء بالسعادةوالقوة الدينية اذ يحس بضآلة قدرة الانسان ، ولعل هذا هو على التحقيق المعنى العاطفى وان لم يكن المعنى اللاهوتى لهذه الكلمات الشديدة : « فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم » (سورة ابراهيم : ٤) .

يشير المؤلف هنا الى مشكلة الجبر والاختيار والقضاء والقدر وكيف لا يكون المسلمون الأول على بينة من مشكلة الجبر وفيهم صاحب الرسالة ؟ والحق أن هذه المشكلة كانت ولا تزال من مشكلات الفلسفة والدين والأخلاق والقانون ، وكانت موضع خلاف كبير بين الفرق الاسلامية والمفكرين ، فمنهم من يقول بأن الانسان مخير ، ومنهم من يذهب الى أنه مسير وان من يكتب عليه الشقاوة فقد كتبت عليه منذ الأزل ، وانه مهما فعل فمصيره محتوم « فريق فى الجنة وفريق فى السعير » ومنهم من توسط فقال ان للانسان كسبا فقد خلقه الله وهداه النجدين ، ولهذا الكسب يثاب ويعاقب والتبعة والمسئولية تقع على نفسه بناء على هذا الكسب ؛ والمؤلف ينظر هنا الى رأى واحد فقط من آراء الفرق الاسلامية .

وفى الفقرة الثانية (ص ١١٤) ينحو فيها المؤلف منحى بعض غلاة الفرق اذ يشددون على أن الانسان مكتوب عليه ما قسم له من السعادة أو الشقاء منذ الأزل وانه مهما يفعلْ فلن ينجو من مصيره المحتوم .

ولكن يبقى بعد ذلك ، فرق أخرى تقول : ان الخير والشر كسبيان وتعتمد الجمهرة فى ذلك على آيات من التنزيل تجعل الانسان يعيش بما ركب فيه من عقل وهوى واتزان وهوائج وبذلك يكون مسئولا عما يعمل ولا يكون أى أحد عداه مسئولا عن ذلك ، ولاشك كما قلنا أن الله فيما يرى بعض هؤلاء الأئمة ، منشىء الشر وكما يأخذه المؤلف رأيا ثقة

اجماعا فلا شك أنه كذلك خالق الخير ، ولا شك كذلك أن يصف نفسه بأنه الرحمن الرحيم ويأمر الناس بالعدل والانصاف .

ومما جاء أيضا فى ص ١١٧ : ثم ان الرفعـة الأدبية التى يؤذن بها القرآن تزداد سموا وقوة بفضل طائفة جمة من الفقرات أودعت أروع آيات الجمال الفائق والحسن المشرق الممتاز ، وليس ثمة شك أن كثيرا من السطور التى قد تبدو لأعيننا عادية كانت مما يذهل معاصريه ويهز نفوسهم هزا . بيد أن هذا التشبيه الرائع لذات الله العلية وما يحتمل من الترفع الخفى الذى عليه بهاؤه وجلاله سيظل ينفذ الى سويداء القلوب على كر الدهور : « الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ، المصباح فى زجاجة ، الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية ، يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور » « سورة النور » .

وهذا رد قاطع على آراء الغربيين التى تقول بأنها تأخذ على الكتاب الكريم المآخذ ، وأن بعض المسلمين يشركونهم هذا الرأى .

وفى الصفحة ٤٠٩ : ومن الجلى الى حد ما ، أن ثمة خمسة أصول ثقافية هى التى عنيت بالتطور الاسلامى ، فان ما أنزل على « محمد » من تعاليم وحدت بين الأفكار والقيم اليهودية والمسيحية والعربية ، وقد وحد شرع النبى باسم العرب كل ما تمكن اساغته عمليا من تقاليد الجاهلية . وحارب محمد عقلية العرب ونظمها ، ولكنه لم يغيرها البتة تغييرا جوهريا وكانت ديانة القرآن تعنى تقدما ضخما بالنسبة للعرب ، ولكنها كانت متخلفة اذا قورنت بالمرحلة الروحية التى بلغها غرب القارة الاسيوية . وكان الاصرار على استبقاء التراث العربى من آيات أصالة «محمد» . ولكن عنصر التأخر النسبى فى الاسلام لم يقدر له البتة أن يستأصل . وذلك لما هو معلوم من كراهية الأجيال التالية والتخلى عن كل ما له علاقة بالأصول التى هى موضع التقديس . وقد نزل الوحى منذ البداية مصدقا لكثير لما بين يديه من الالهام اليهودى والمسيحى وما من مؤثر آخر تغلغل بمثل هذا العمق الى صميم لباب الاسلام .

مما سبق يتبين أنه لا حاجة بنا الى الدفع المتكرر بأن الرسول لم يأت بشيء من عنده ، فلم ينقل عن الشريعة اليهودية ، ولم ينهل من معين مسيحي ، ولم يحي مراسم جاهلية . وبديهي أن كل ما في أمره عليه الصلاة والسلام انه حمل الرسالة وأمر بنشرها بين الناس فأداها خير أداء .

والحق ان في هذا القول لخطأ كبيرا وقع فيه المبشرون من قديم الزمان وهب لمكافحته رجال الفكر العربي في الأزمنة القديمة والحديثة . فهذا الامام « محمد عبده » قضى حياته مدافعا عن الاسلام مقيما البرهان على ما احتوى من آي الروحانية الكبرى ، وكذلك فعل كتاب العصر الحديث حتى لم يبق ثمة موضع لكلمة تزاد .

ولكن لننظر الآن الى الاسلام نظرة عجلى وعامة نقدر بها ما فيه من تلك الروحانية ، فهو دين يأخذ الناس جميعا بلا فارق في منصب أو لون أو لغة أو جنس بشرعة القرآن الكريم من صلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وحياة ومماة لله رب العالمين وزكاة تخفف لوعة فقر الفقير ، واستشهاد في سبيل خدمة الله والدين وجهاد ضد النفس الآمرة بالسوء وتطهير للانفس من الأدران ، ودفعها بكافة الوسائل من لين وزجر وعنف وانذار إلى التحلي بالفضائل التي اتفقت عليها البشرية والكتب السماوية من الصدق الى الحلم الى الايثار الى التواضع الى الرحمة والاخاء والصبر على المكاره والانصاف والاحسان والتسامح ونبذ هذه الدنيا وما فيها من مادة والايمان بالله ايمانا قويا شديدا متمكنا وحب الله حبا تفنى معه ذات الانسان في ذاته تعالى . اذا كان ذلك كله ليس بنزعة روحانية فأين الروحانية اذن ، وكيف تكون ؟ فانا لا نعرفها الا كذلك .

والواقع انه ليس لليهودية ولا النصرانية أي فضلٍ في الهام الاسلام . بل الفضل لله وحده ، وذلك بشهادة نزول الوحي نفسه حيث يقول عز من قائلٍ : « الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » .

ولباب القول أن اللغة العربية قد ولدت بنزول القرآن ولادة جديدة . وأنشأت خلقا آخر .

وجاء فى الصفحة ٤٣٩ من الكتاب : واذا نظرنا الى الاسلام من جهة ما أراد أن يقوم به فى أول أمره رأيناه قد أخفق فى تحقيق أمر دعوته للناس كافة ، غير أنه نجح فى تزويد المؤمن بشكل للحياة كريم متحضر . ولم يفتح الاسلام العالم ، وقد نست الحضارة الاسلامية بسبب تسامحها ازاء العناصر الأجنبية ، بيد أن تنوع تلك العناصر استعصى على الامتزاج الكامل . كما أن الأساس العقلى لعروقها العربية قد ظهر أنه أوهن من أن يتحمل ويوحد تلك المواريث التى ورثتها عن المواضى العديدة التى وجد الاسلام أن عليه تدبير شئونها .. الخ .

والرد على ذلك أن الغربيين راحوا من قديم الزمان يزعمون أن النبى غير صفة الرب الذى كان يعبد فهو تارة للعرب وتارة للعرب واليهود . وتارة للناس كافة ، والله يقول فى سورة الأعراف ، وهى من أقدم السور المكية : « قل يأيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا » وما كان الرسول ولا الدين الذى جاء به ليذهبا الى ما ذهب اليه اليهود من اعتبار الله ملكا خالصا لهم وعدهم السعادة فى الأرض والاصطفاء فى الآخرة بل كل أحاديثه وكل ما نزل به القرآن من آيات انما يشهد بأقطع الشهادة أنه يدعو الناس جميعا الى عبادة واحد أحد والى الصلاة لرب العالمين .

وما قولك فى فاتحة الكتاب التى تبدأ أول آية منها بقوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » ؟

وهذه شهادة رائعة للمستشرق « ادوار مونييه » اذ قال : ان مما يملأ الباحث اعجابا بخطة محمد الدينية انه فى بدء نشاطه كان أول المؤمنين به هم من بين أسرته وأقاربه ، واننى لأعتقد أن محمدا هو الوحيد بين مؤسسى الديانات الذى امتاز بأن يضم أول ما يضم أقرب الناس اليه برباط الدم أو رباط القرابة القريبة .

ولقد وضع علماء النفس مقاييس تكشف عن القدرات المختلفة فى عقلية الناس ، وان لم تكن بالغة الدقة على أننا نستطيع بفطرتنا أن نميز بين الأذكياء والمجانين والأغبياء فى حياتنا العامة بسهولة ، وقلما نشاهد عبقريا .

وحينما حاولوا قياس قدرات السابقين العقلية ، وقد مضوا فى ذمة التاريخ ، راحوا يدرسون سيرة هؤلاء الأعلام ليعرفوا كيف تصرفوا فى مشكلاتهم ، وكيف خرجوا على مجتمعاتهم بجديد فى العلوم والفنون والاصلاحات .

ذلك هو المقياس ، فأين مكانته فى التعرف على الشخصية المحمدية الكريمة ؟

اننا نستطيع أن نقول فى يقين انه مقياس قاصر فى التعرف على الذات المحمدية فيما أبدعت ، وصنعت ، وانتجت ، وقدمت من خير وحكمة للانسانية « ففيثاغوس وسقراط وأفلاطون وأرسطو » عمالقة الفلسفة الاغريقية ، والنظرة الفلسفية فى الوجود وأمثالهم أصحاب نظرات واعية فى الفلسفة على مر العصور .

ولكن هؤلاء وهؤلاء قلما تجد لهم امتيازا فى غير هذا المجال الفلسفى ونابليون وروميل ومونتجمرى وهانيبال وهولاكو وتيمورلنك وجنكيزخان وخالد بن الوليد وسعد بن أبى وقاص وأبو عبيدة وعمرو بن العاص وطارق ابن زياد ، عباقرة فى قيادة الجيوش ورسم الخطط الحربية ، وفلسفة الدهاء العسكرى والسياسى ، ولكنك قلما تجد لهم امتيازات فى غير هذا المجال .

وباستير ومدام كورى ورونتجن وفليمنج كانوا عباقرة فى كشوفهم الكيميائية والطبية ، والبيرونى وابن الهيثم والخوارزمى وكوبرنيقوس وجاليليو ونيوتن وأينشتين عباقرة فى البحوث الرياضية والفلكية والضوئية وعلوم الطاقة والجاذبية .ثم بوذا وزرادشت وكونفشيوس وحمورابى وأخناتون وكسرى أنو شروان الملك العادل ، وأوناس الحكيم ، وغيرهم زعماء فى الاصلاح والحكم والفقه الكريم لقضايا المجتمع والحياة .

ثم الأنبياء جميعا وزعماؤهم الكبار — ابراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى — عليهم الصلاة والسلام ، كل هؤلاء وغيرهم أربى عليهم جميعا « محمد » صلى الله عليه وسلم الكريم فى شخصيته ورسالته ونظراته فى الوجود وحكمته البالغة فى قيادة المجتمعات ورسم خطط الاصلاح ، وارساء قواعد حكمة عالية لفهم مشكلات الحياة والمجتمع .

ولقد قال أحد المستشرقين : لو لم يكن لمحمد معجزة الا أنه صنع أمة من البدو فجعلها أمة كبرى فى التاريخ لكفته معجزة فى العالمين .

وقا لغيره : لو أن كتاب محمد وجد فى صحراء لكان الذى يعثر عليه جديرا بالخلود ، ولو جاء من عنده لكان جديرا أن تدين له الانسانية بالولاء فرسالته فى قرآن كريم ، أو حديث شريف ، حكمة بالغة فى الحياة أحاطت بالمادة والروح وأعطت صورة سكون فى أرضه وسمائه ، وصورة للوجود بدئه ومختتمه ، وأملا عاليا فى الخلود فى طاقات عليا بعد جمود المادة واضطرابها . ثم تحدثت عن الخالق الأعظم فى أروع صورة للواحد الأحد الفرد الصمد لم يسبق اليها فى فلسفة أو كتاب بهذه الصورة الجامعة الكاملة .

وقال أحد الكتاب المعاصرين فى كتابه « بواطن العراق وظواهره » Mosopotamia شعب فشت فيه الفرقة ، وصعب توحيده الى أن وقعت المعجزة فقام بفضل شخصيته وقوة رسالته ، داعيا الى الرشد ، وكان أن أتى بالمستحيل ، فاتحدت الزمر المتعاركة .

وقال الناقد السير « وليام موير » وهو قطعا ليس بناقد محارب للنبى : فى حداثة محمد كانت حالة الجزيرة جد جامدة ومحافظة ، وربما لم يكن الاصلاح ميئوسا منه فى أية مدة مضت كما كان فى ذلك الحين . فقد كانت أية محاولة للاصلاح تبدو كأنها مجرد شعبذة لعدم أهلية وكفاية القائم بها ، ولكن ما ظهر محمد حتى هبت العرب فى الحال الى تلبية الدعوة الروحية الجديدة .

ويقول موير : وأشد ما يسترعى النظر هو تفرق العرب وقتئذ الى جماعات لا عداد لها ، لها نفس الطبائع والعادات تتكلم فى معظمها لغة واحدة ، وتسير وفقا لناموس واحد غير مخطوط أساسه الشرف والأخلاق المتوارثة ولكنها — أى القبائل — جد متفرقة . كل منها مستقل عن الآخر ، لا تعرف الهدوء والاستقرار ، وكثيرا ما تكون فى حرب مع القبائل الأخرى حتى التى تربطها بها روابط الدم والمنفعة لأتفه الأسباب تدب الجفوة وتثار العداوة بلا رحمة ولا هوادة .

وهكذا فى عصر ظهور الاسلام كان ماضى تاريخ العرب أشبه بقلابة الألوان لا تستقر على حال من الجمع والتفريق ، لهذا كانت كل محاولة للاتحاد العام تذهب هباء ، ولكن كان لابد من ايجاد حل للمسألة ، وأين القوة التى نستطيع اخضاع هذه القبائل وجذبها الى نقطة الارتكاز ؟

لقد أتى « محمد » عليه الصلاة والسلام وتمت بظهوره المعجزة ، وقد أوجز القرآن الكريم فى وصف هذه الحالة البشعة التى كانت عليها العرب فى ذلك الحين ، والتى شملت جميع مناحى الحياة ، فى كلمات معدودات : « وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

وكثيرا ما تقام مؤتمرات دولية اسلاميـة لمناقشة البحوث الثقافيـة الاسلامية من كبار علماء الشرق والغرب .

وفى صيف سنة ١٩٥٣ ، عقد بالولايات المتحدة الأمريكية « مؤتمر للثقافة الاسلامية » لعله الأول من نوعه فى التاريخ الحديث ، شهده بدعوة من جامعة « برنستون » ومكتبـة الكونجرس الأمريكى ، عدد من علماء البلاد الاسلامية .

والغرض من اقامةهذا المؤتمر وما نوقش فيه من بحوث تتناول الثقافة الاسلامية فى أقطارها المترامية الأطراف ، معالجة مشكلات الحيـاة فيها . وعرض آراء تستمد عناصرها ومقوماتها من بيئات وثقافات شرقية وغربية متباينة . وقد قصد المؤتمر من نشرهذه البحوث الىاظهارها لتكونعونا للعالم الاسلامى على أن يفهم بعضه بعضا . وللعـالم الغربى على أن يدرك العوامل الثقافية والروحية ذات الأثر الكبير فى حياة الشعوب الاسلامية . وفى تحديد موقفها من الفلسفات الاجتماعية والسياسية المعاصرة .

والمتتبع لتطورات الحضارةالغربية وموقفها من حضارات الشرق عامة وحضارة الاسلام بوجه خاص يدرك أن مؤتمر الثقافة الاسلامية فى برنستون وما دار فيه من مناقشات . وما قدم اليه من بحوث انما كان استجابة لتطور جديد فى علاقة الغرب بالاسلام وموقفه من أممه وثقافته . وان هذه المرحلة تمثل حلقة ثالثة فى التطورات التاريخية الكبرى لهذه العلاقة .

فقد كانت الحلقة الأولى فى هذه السلسلة هى انتقال الحضارة الاسلامية الى الغرب ، وارسالها الأضواء الفلسفية والعلميـة والفنية من مركزها فى أسبانيا وصقلية الى مختلف الآفاق الأوربية واتجاه تياراتها الفكرية والتجارية من الشرق الى الغرب أيام العصور الصليبية. وقد ظفرت هذه الحلقة بالعناية الواجبة على يد المحدثين من الباحثين الغربيين اذ تنـاولوها بالتفصيل فيما كتبوا عن تراث الاسلام وفضله الثقافى على أوربا .

ثم تجىء الحلقة الثانية فى تلك السلسلة من عصر الاحياء الأوربى الى القرن الحاضر . وهى مرحلة التخصص فى الدراسات الشرقية وانشاء المعاهد والمدارس لها . والبحث عن المخطوطات العربية والاسلامية والدرس النقدى للمصادر الكلاسيكية الاسلامية . فمنذ القرن الخامس عشر أخذت كتابات الفلاسفة المسلمين مكانها البارز فى دراسات بعض الجامعات الأوربية . وعلى الأخص باريس ولوفان . وترجم فيها الى احدى اللغات الأوربية لأول مرة فى نهاية القرن السابع عشر كتاب ألف ليلة وليلة ، وقدمت للجمهور الأوربى حياة النبى « محمد » صلى الله عليه وسلم . وبدأت تظهر كتب أوربية عن الاسلام وتاريخه وآدابه . ثم ظهرت الجمعيات الآسيوية فى أوربا وأمريكا منذ أوائل القرن التاسع عشر . وحفلت مجلاتها بالبحوث . ونشر أعضـاؤها الكثير من الكتب الاسلامية والشرقية القديمة . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ابتدأت جماعة المستشرقين سلسلة مؤتمراتها الدولية . وبرزت فى الغرب أسماء طائفة من أولئكم الاعلام الذين تخصصوا فى دراسـات الشرق من أمثـال « براون . نيكولسـون . جب » فى انجلترا . و « دى برسيفال . كاترمير . مسينيون فى فرنسا . وفريتاج . نولدكه . بروكلمان فى ألمانيا . ونلينو . جويدى فى ايطاليـا . وكان من ثمرات جهودهم وجهود زملائهم ظهور دائرة المعـارف الاسـلامية فى لغاتهـا الثلاث (الانجليزية والفرنسية والألمانية) .

والآن نشهد عناية الغرب بدراسات الاسلام ، وخصوصا فى أمريكا . فقد تحولت العناية من دراسة الثقافة الكلاسيكية الى دراسة الثقافة الحديثة للعالم الاسلامى فى معاهدها وجمعياتها ومختلف هيئاتها وبيئاتهـا الثقـافية والجامعية .

وقد استجاب الشرق الى تلك الرغبات الغربية فى فهم الدعوة الاسلامية عامة فقامت الجمهورية العربية المتحدة بتأسيس معهد للدراسات الاسلامية فى مدريد والاضطلاع بأعباء التوجيه العلمى فى المركزين الاسلاميين فى لندن وواشنطن . وهكذا يتجاوب التفكير بين الشرق والغرب ، وتسهد السبل لخلق جو من التفاهم الصحيح والتعاون المثمر (١) .

قال الدكتور « بايارد دودج » مدير الجامعة الأمريكية فى بيروت سابقا وعضو المؤتمر :

لقد كانت أسباب التفاهم بين الغرب والشرق فى الماضى ناقصة ، وكثيرا ما أدى ذلك الى عداء دينى وحروب . أما اليوم فالموقف جد مختلف . فكلنا غربيين وشرقيين مسلمين ومسيحيين تواجهنا مشكلات هائلة وعلينا أن نجاهد لنستبقى لأبنائنا أساسا قويما من الايمان . ومن الطبيعى فى هذا العصر الذى تحاول فيه المادية هدم الاعتقاد فى القيم الروحية أن يحس المفكرون من بنى البشر بمعنى جديد من الأخوة فى جهادهم لحل معضلاتهم المشتركة ، وفى اتجاههم الى الله رب العالمين ليلهمهم العون والتوفيق .

وقوله : وأحس العلماء الأمريكيون بالرضا لما أفادوا من الاجتماع بزملائهم المسلمين من توضيح لصورة الاسلام فى عهد الأحياء فى القرن العشرين . وشعر العلماء المسلمون كذلك بالارتياح لما لمسوه من عناية زملائهم الأمريكيين الصادقة بالاسلام ومن احساسهم بعظمته ، وبأنه قوة اجتماعية روحية يحسب حسابها فى العالم الحديث .

وتكلم الأستاذ الدكتور « تشارلز د. ماتيوز » عضو قسم البحوث بشركة البترول العربية الأمريكية بالظهران واخصائى فى الشئون العربية ، قال :

من دلائل التوفيق أن الكتاب الغربيين لم يعودوا ينظرون الى بلاد العرب وغيرها من المناطق العربية والاسلامية فى العالم بالمنظار القديم الذى كان يعدها جزءا من المصالح الغربية العالمية التجارية والسياسية والثقافية .

---

(١) كتاب الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة (مجموعة البحوث التى قدمت لمؤتمر برنستون للدكتور « محمد خلف الله »)

ووسيلة لخدمة هذه المصالح . فقد حان الوقت الذى يكتب فيــه عن هذه البلاد وعن شعوبها على أساس مالها من أهمية بل ان كتاب البلاد الغربيــة الديمقراطية عندما يعالجون الآن الموضوعات الدولية التى تمس مصالحهم الخاصة يصورون الشعوب العربية والاسلامية فى صورة الشركاء والحلفاء الأكفاء فى عصر جديد .

وان مستشرقى الولايات المتحدة الأمريكية ، وجميع الأمريكيين الذين عاشوا وعملوا فى بلاد شرقية ليغتبطون كذلك لأن عصرا جديدا من اهتمام أمريكا ونشاطها فيما يتعلق بالدراسات العربية والاسلامية قد أشرق الآن فجره ، ولا شك فى أنه قد كان للأمريكيين دائما شىء من الاهتمام بهــذه الدراسات ، بل كان لهم بها اهتمام بالغ فى بعض الأحايين .

وسأورد فيما يلى بعض مقتطفات نقلتها عرضا عن «فان ويك» Van Wyeke أحد المؤرخين المشهورين للأدب والفكر الأمريكى ، وهو مؤلف أحدث أعماله حديثا ترويحيا للنفس من معاناة الشعر العربى القديم !

درس « جون بيكرنج John Pickcrng » أحدسكان بوسطون اللغة العربية فيما درسه من اللغات العشرين التى تعلمها فى سفره وفى دراساته ، فكان أول رئيس للجمعية الشرقية الأمريكيــة Ceriental Socity Hmerican التى أسست سنة ١٨٤٢ وهيأت السبيل مدى قرن وبضع سنوات للمناقشة والنشر فى ميدان الدراسات العربية والاسلامية .

وكان « نوح وبستر Nooh Webste من مدينة هافن الجديدة بولاية كونيتكت عالم المعاجم الأمريكى العظيم يحتفظ على مكتبه الدائرى ، الذى كان يطوف حوله وهو يدرس بمعاجم للعربية ولأربع وعشرين لغة أخرى .

وكان بعض العلماء الدينيين فى نيوانجلند وفى بعض مقاطعات أخرى يعرفون العربية ، وغيرها من اللغات الشرقية ، ومن أبرزهم « تيودور باركر » وهو ابن فلاح من ولاية مساتشوستس ، وكان يقرأ القبطيــة والآرامية والحبشية والعربية بالاضافة الى معرفته باللاتينية واليونانية وعدد من اللغات الأوربيــة الحديثة ، وكان « اليهوبريت » من ورسستر بولاية ماشوستس

يكسب قوته مدى سنوات بالعمل فى دكان حداد ، وكان من تواضعه وبساطته لا يرغب الا فى أن يقف فى صفوف العمال . وفى أن يأخذ بيدهم الى الامام والى أعلى حتى يرقوا الى مستوى رجال الفكر . ولكنه استدعى لخدمة الحكومة لعبقريته وأعماله . وأوفد الى مدينة برمنجهام بانجلترا قنصلا لأمريكا . ونظم وهو فى أوربا مؤتمرات للسلام فى انجلترا نفسها . وفى بروكسل وباريس وفرانكفورت بالقارة الأوربية . وعندما اعتزل من بعد فى مزرعة بالقرب من « نيوبرتيان بولاية كوتنيكت استأنف دراساته اللغوية . التى كان قد حصل عن طريقها أربعين لغة وكتب قواعد للغات السنسكريتية والفارسية والهندوستانية والتركية والعربية واصدر المحامى العالم « جورج بركنز مارش » George Perkins March الذى كان سفير الولايات المتحدة فى تركيا من جملة ما اصدره من الكتب الكثيرة فى برلنجتون بولاية فرمونت . دراسة علمية طريفة عن الجمل فى كتاب مملوء بالقصص العربية الشائقة التى جمعها فى أسفاره بالبلاد الشرقية .

ان من المسكن ان يؤلف كتاب علمى طريف عن تاريخ التجارة الأمريكية القديمة مع الشرق العربى والاسلامى . ومن المعروف ان بواخر نيوانجلند التجارية المشهورة . وبواخر غيرها من المناطق ، لم تكن تنقل الى البحر الأبيض والشرق الأدنى . والى زنجبار ومسقط . والى الهند وجاوة . المنتجات الصناعية فحسب . ولكنها كانت تحمل اليها كذلك اثقالا من الجليد . وكانت الملاحة مقرونة بالأعاصير أحيانا . كما كان يحدث فى مياه افريقيا الشمالية . من صنع الانسان. أو من تصاريف القضاء . ولكن البواخر عادة لم تكن ترجع خالية . وحتى الآن فى البيوت الواقعة على شاطىء البحر فى المكتبات والمتاحف فى نيوانجلند بصفة خاصة . لا تزال توجد وثائق وتذكارات . وشواهد أخرى تمثل تبادلنا التجارى والحضارى الذى بدأ فى أزمنة مبكرة واستمر زمنا طويلا غير ان اهتمام أمريكا بالدراسات العربية والاسلامية حتى عصرنا هذا . كان الى حد كبير خادما لأوجه النشاط الخيرية . كالبعثات التعليمية والطبية أو لأعمال الآثار الخاصة بالكتاب المقدس وبالشرق الأدنى . وهكذا استطاع الكاشف، الأمريكى الرائد « ادوارد روبنسون » dEwar Robinson ببيروت منذ أكثر من قرن من الزمان . هو و «ايلى سميث Eli Smith » الذى كان

يتكلم العربية والذى عاونه فى وضع ترجمة جديدة للكتاب المقدس الى اللغة العربية لمطبعة الارسالية الأمريكية التى أسست فى بيروت قبل انشاء الجامعة الأمريكية بها بنصف قرن على وجه التقريب .

ولقد ساعدايلى سميث زميله روبنسون فى تعقب أسماء المواضع التاريخية من العربية الى الصيغ السامية القديمة . وقد استمر الاستعمال الفعلى للغة العربية فى ميدان الآثار ما يزيد على خمسين سنة وهى المدة التى قامت فيها المدارس الأمريكية للبحث الشرقى فى أورشليم وبغداد . كما استمر مدة أطول من هذه . هى التى قضتها جامعات ومتاحف أمريكية يعمل كل منها على انفراد فى التنقيب عن الآثار فى منطقة الشرق الأدنى .

ان تاريخ الأعمال الخيرية والخدمات التعليمية التى قامت بها أمريكا فى الشرق الأدنى وفى غيره من البلاد العربية والاسلامية . وقصة ما نهضت به أمريكا من أعمال خاصة بآثار الشرق الأدنى وتاريخه القديم . لأمران جديران بالفخار وانما اشرنا الى هذه الأعمال هنا لأنها كانت دافعا وسبيلا الى اهتمام أمريكا بالدراسات العربية والاسلامية ولا شك ان غيرى سيتحدثون عن أوجه النشاط الأمريكى التى تعتبر أحدث من هذه وأكبر مدى ، والتى منها تعلم عدد كبير من مواطنينا اللغة العربية لما لها من ارتباط بأعمالهم فى الشرق . وسيبرز آخرون تقدم الاهتمام العلمى كما يبدو فى جامعاتنا ومدارسنا . اما أنا فغرضى بعد هـذه المقدمة الكثيرة الاستطراد . ان اصف وصفا عاما تلك الفرصة الجديدة التى أتيحت للامريكيين المتخصصين فى الدراسات العربية والاسلامية . فى بلاد العرب نفسها . وهى فرصة اتاحها تلاقى الأمريكيين والعرب على ذلك الأساس الراسخ المكين من الصداقة . أساس المصالح الاقتصادية المشتركة الطويلة المدى ونشوء علاقة بينهما تقوم على تبادل الاحترام والتعاون . ولهذا رأت الشركة الأمريكية من الحكمة ألا تكتفى فيما يتصل بالعمل الصناعى الضخم الذى تتولاه . بان تنشىء مركزا فعالا لترجمة الرسائل والتقارير . بل ان تنشىء كذلك مركزا للقيام بالبحوث التاريخية والجغرافية وغيرها .

وهكذا اتيح للأمريكيين الذين يعملون فى شعبة البحوث التابعة للشركة العربية الأمريكية للبترول فى الظهران . ان يواصلوا الدراسات الأثيرة لديهم

فى الموطن التاريخى للعرب والاسلام . وهم يستطيعون ان يشهدوا على أساس من التجربة . ان الاعتماد على خير مكتبات البحوث فى الغــرب لا يمكن ان يكون بديلا صحيحا من الحيــاة الواقعية . والدراسة الفعلية فى بلاد العرب نفسها . نعم استطاعت صفوة من أعظم علماء الغرب مثل « نولدكه » الألمانى ان يخدموا الدراســة الشرقية تلك الخدمات الجليلة التى قاموا بها دون ان يغادروا أوطانهم .. ولكن ما من أحد منا يدعى انه « نولدكه » آخر . ونحن على يقين من أن التجربة المباشرة فى البلاد العربية وبين الشعوب العربيةجليلة الفائدة حتى بالنسبة لشخص مثل نولدكه . فمما يقال ان نيكلسون وهو من أحذق دارسى الشعر العربى . ومن خير مترجميه توفيقا أخطأ تأويلاشارات تتعلق بتفصيلات الحياة اليومية . وسبب هذا انه لم يعش بين العرب ليقرأ كتاب حياتهم المفتوح .

بل انا لنعتقد أنه من العسير حتى على عالم من بلد عربى آخر أن يثق بمعارفه عن حياة العرب وتفكيرهم بل تفصيلات الجغرافيا والتنظيم القبلى لبلاد دون ان تكون له خبرة فعلية فى بلاد العرب نفسها . ولهذا فنحن فى تعويض مافاتنا من عدم تشرب العربية مع الرضاعة . نقدر الفرصة المتاحة لنا خير تقدير . فرصة الحياة والعمل فى بلاد العرب والتغلغل المستمر فى أحوالها والاختلاط الدائم بأهلها .

ومما قاله الأستاذ « رفائيل باتاى » أستاذ الانثربولوجيا بكلية دروبس وفيلادلفيا : وقد يكون من الصحيح القول بأن ما يحتاجه الاسلام اليــوم لبس كتابة تواريخ مخصصة لتتبع الأســباب والنتائج . ولكن فلســفة ميتافيزيقية تبرر وجوده ، وتشجع تقدمه فى عالم مطبوع بطابع الغرب . غير أنه على قدر ما يصبح العالم الاسلامى متيقنا من قوته المجددة ومن مركزه بين الأمم ، يصير من الضرورى ايجاد نوع من الفحص الداخلى مما يمكن أن تكون نتائجه ذات مغزى وراء المكان والزمان اللذين نشأت فيهمــا . واذا تركنا جانبا تلك الحاجة الى علم تاريخى . فلا مفر لنا من أن نعترف من وجهة نظر المحافظ المسلم .

ان بطء التغيير فى موقف العالم الاسلامى يعطى نوعا من الضمان ضد الاطراح الطائش للخصائص الأساسية لمدينته التى لا ينبغى أن تطرح هكذا بسهولة وفى عبارة أخرى ، ان هذا البطء فى تعديل الموقف ، ولو انه فى بعض الأحيان يفسد التطبيق الناجح للاستمداد المرغوب فيه ، يكون دفاعا داخليا قويا أو سدا ملطفا لتأثير الأمواج الأجنبية التى سمح لها بالدخول فى ميادين الأفكار والنظم .

ومما قاله الأستاذ « كوبلر يونج » أستاذ العلاقات الأجنبية بجامعة برنستون :

وبعد فهذا عرض تاريخى قصد به التذكر بالدين الثقافى العظيم الذى ندين به للاسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين ، داخل هذه الألف سنة ، نسافر الى العواصم الاسلامية والى المعلمين المسلمين . ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الانسانية وفى جملة ذلك تراثنا الكلاسيكى الذى قام الاسلام على رعايته خير قيام حتى استطاعت أوربا مرة أخرى ان تتفهمه وترعاه . كل هذا يجب ان يمازج الروح التى تتجه بها .نحن المسيحين وعلى الأخص رجال الكنيسة المسيحية . نحو الاسلام نحمل اليه هدايانا الثقافية والروحية . فلنذهب اليه اذن فى شعور بالمساواة تؤدى الدين القديم .

ولن تتجاوز حدود العدالة اذا نحن أدينا ما علينا بربحه . ولكننا سنكون مسيحيين حقا اذا نحن تناسينا شروط التبادل . واعطينا فى حب واعتراف بالجميل .

ولعل من أهم الرسالات — رسالة كتبها عالم مسيحى أمريكى منصف هو « كينيت . هـ . جرندل ، Keuneth H. Grandell و عنوان هذه الرسالة « أثر الاسلام فى المسيحية The Ismpact o Islam onjChr :tianity فند فيها بكل انصاف كيف تأثرت المسيحية بالاسلام وأشاد بكثير من المثل العليا الاسلامية . ومثل هذه الرسالة تعتبر دعوة طيبة الى ازالة التعصب بين أبناء هذين الدينين . وردا كريما على كثير من التهم التى توجه الى الاسلام عن جهل به

وبأصول تعاليمه . وقد وجدت أن الكثير ممن قرأها من الأمريكيين تأثروا كثيرا بما جاء فيها عن التعاليم الاسلامية وخصوصا ان مؤلفها عالم مسيحى أمريكى .

ومما يذكر أن الدكتور محمود يوسف الشواربى (١) الأستاذ بجامعة القاهرة — دعى لادلاء كلمة فى المؤتمر المسيحى العالمى الذى انعقد فى شهر أغسطس من عام ١٩٥٤ بجامعة نورث وسترن بامريكا NorthWesternUniversty الذى ضم ١٦٠٠ مندوب يمثلون جميع كنائس العالم فى كل من أوربا وآسيا وافريقيا واستراليا وأمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . فاختار سيادته كلمة قيمة « تسامح العالم الاسلامى نحو المسيحية » . ذكر فيها سيادته خبرا أدهش المستمعين وراعهم وهو : أن يعلموا أن وزارة الأوقاف فى الجمهورية العربية المتحدة وهى التى ترعى مصالح المسلمين وتقوم على بناء المساجد لهم ، وتنظيم شئون الثقافة الدينية وغير ذلك مما يتصل بالشئون الاسلامية العامة ، قد قامت فى عهد الثورة المصرية الحالية بانشاء كنيسة فى محافظة كفر الشيخ من أموال المسلمين ، فهل هناك تسامح أكثر من هذا ؟ بل ان هذا يعتبر ايثارا على النفس وقد علقت عليه جرائد العالم وتناقلته عنها الجرائد العربية فى حينه ونشرت النبأ كذلك جريدة الأهرام . ولقد كان ذلك خير دعاية للدين الاسلامى وللثورة المصرية فى هذا الحشد العالمى من كبار رجال المسيحية فى العالم .

وقال سيادته فيما ينبغى علينا نحن المسلمين عمله لكى نحافظ على سمعتنا : وهنا أود أن أقرر أن العقلية العلمية والكلاسيكية التى تهيمن على هؤلاء المثقفين فى تلك البلاد الأمريكية من رجال المهن العلمية وغيرهم — أحوج العقول الى التعرف الى الاسلام وثقافته . وانى اذ اقرر ذلك انما أصدره عن خبرة طويلة بين هؤلاء الأقوام طالبا واستاذا لانهم على الرغم من تقدمهم العلمى لا يختلفون كثيرا عن البدائيين من حيث مبلغ علمهم بالاسلام أو سماعهم به والطفل الأمريكى الذى يتلقى دروسا عن الديانات المسيحية

(١) سيادته سكرتير جمعية التعريف الدولى بالاسلام ، وعضو المجلس الاعلى للشئون الاسلامية .

واليهودية لا يعرف شيئا عن الإسلام الا ما شاهده فى الأفلام السينمائية من الهمجية وأعمال السلب والنهب وعبادة « محمد » ومن انتشار الرق والحريم وما الى ذلك مما يحلو لكثيــر من كتاب الغرب ان يثيره حــول الاسلام والمسلمين ، فهل نترك تلك الأخطاء والأكاذيب تثبت فى النفوس أم نعمــل على اقتلاع جذورها وتكوين فكرة صحيحة عن الاسلام . وثقافته فى العالم المتحضر . وخاصة فى أمريكا لما لهــا من مكانة مرموقة فى توجيه سياسة العالم ؟ وقد تبدو أهمية هذا العمل أكثر وضوحا اذا علمنا ان هؤلاء الشبان والشيوخ هم الذين يوجهون سياسة بلادهم وبالتالى سياسة العالم .

ويبــدو أنه قد أصــبح لدى هؤلاء الناس من العلم وســعة الادراك ما يمكنهم من دراسة الاسلام بأنفسهم من غير حاجة الى معلم أو داعية غير اننا نعلم جميعا كيف يضلل بعض ذوى الأغراض أقوامهم فى فهم الاسلام وتعاليمه ، والأمثلةمن هذا النوع متوفرة ، ولعلنا نعرف جميعا اسممستشرق كبير معروف فى جميع البلاد الاسلامية وقف يحاضرنا عن الاسلام يوما ما فى واحدة من كبريات عواصم أوربا ويقول : أتريدون ان أحاضركم الليلة عن الاسلام فأى أنواع الاسلام تريدون : اسلام أهل السنة أو الشيعة ؟ اسلام الأزهر القديم أو اسلام الأزهر الحديث . أو عن الاسلام كما يفهمه فريد وجدى أو طه حسين أو كما يفهمة حسن البنا ؟ . فهل نريد ان نترك الناس فى أوربا وأمريكا لأمثــال هؤلاء المتحاملين المتعصبين يضــللونهم ويشوهون الاسلام فى أعينهم ؟ أفليس من الأحرى ان نعمل على تطهير سمعته وسمعتنا بينهم بدل أن تذهب نفوسنا حسرات على تقاعدنا ونصم آذاننا ونخفى أبصارنا مثل النعامة .

ومن كبار المفكرين العالميين المرحوم الشيخ « عبد الواحد يحيى » وكان كاثوليكيا ، نشأ فى فرنسا وانتهى به البحث الى الاسلام والتصــوف الذى مارسه نظريا وعمليا ، حتى ليعد من أكبر الحكماء فى العصر الحديث، وقد توفى بالقاهرة منذ بضع سنوات .

وترجمت كتبه الى اللغات الحية . واثره فى الغرب كبير الى درجة ان كثيرا من الجمعيات فى أوربا كونت باسمه لتتابع أثره وتحذو حذوه . فمن قوله :

ان تقليل شأن الشريعة انما هو مظهر من مظاهر الروح التى لا تبالى بما أنزل الله . واعادة تكوين الروح الخاضعة لما انزل الله هو أول خطوة فى طريق السالكين .

وقوله أيضا : ان الاتجاه النفسى الذى نتحدث عنه هنا . انما هو سمة من سمات الغرب الحديث . وفى الواقع لا يمكن ان يوجد هذا الاتجاه فى الشرق . ذلك لأن الروح الدينية الصحيحة لا تزال مسيطرة فى بيئاته .

وقوله غفر الله له : وفى العصور القديسة لم يكن هناك تفرقة بين دين ودنيا . بل لم يكن هناك مجرد الفهم أو مجرد التخيل لفكرة الانفصال هذه وانما نشأت هذه الفكرة حينما تدهورت الانسانية . وانحطت شيئا فشيئا . وها نحن أولاء قد وصلنا فى هذا التأخر الى درجة أن الغرب حاليا يصعب عليه كل الصعوبة أن يفهم فكرة ضرورة سيادة الروح الدينية فى مجتمعاته . انه على نهج انفصالى لا يوجد فى الحياة السليمة .

وهـــذا مستشرق من مستشرقى القرن التاســـع عشر فى عصر الملكة فيكتوريا ، ظنه كثير من المسلمين أنه أنصف الاسلام ، وأعدل المستشرقين حكما على نبى الاسلام .

هو الأستاذ الانجليزى « توماس كارليل » فى كتابه « الأبطال وعبادة البطولة »وسبق ان ترجم هذا الكتاب الى العربية الأستاذ المرحوم « محمد السباعى » .. فقد قدم لنا هذا الكاتب المخادع النبى صلى الله عليه وسلم كبطـل عظيم فى فصل من كتابه ، ثم ما لبث أن هدم ما كتبه وأبعده عن الفضائل النبوية وقلب الحقائق رأسا على عقب وتنكر لآرائه السابقة . وظهر لنا بمسخه الحقيقة وقلبه الأسود .

أعطى كارليل لقرائه نمـــاذج مختلفة عن الأبطال وبطولاتهم . واختص بالذكر أبطالا افذاذا اعتبرهم منارات الهدى والرشاد وجعلهم اعلاما للانسانية بما قدموه لها من جليل الخدمات وفائق الأعمال . فتعرض فى كتابه للبطل كاله وللبطل كنبى وللبطل كشاعر ، واعتبر هذه البطولات الثلاث بمثابة الدوافع الحافزة ، والقوى الدافعة للشعوب فى نهوضها من كبوتها ، والسير

قدما فى ميدان الحضارة والارتقاء ، كما جعلهم الدعائم التى تتكيف بهم تواريخ الشعوب ، وتأخذ مجرى حوادثها .

اعتبر كارليل « محمدا » ــ فى بعض صفحات كتابه ــ بطلا عظيما حقا ، لأنه خدم أسـمى غرض تشاؤه الارادة العليـا المشرفة على الوجود . وكان هو الوساطة بين الخالق والخلق الانسانى ، وكانت روحه الشـفافة ووجدانه السامى لائقين لاستقبال التعاليم الالهية . والاستجابة لندائهـا الرحيم الذى يبغى السلام العام للانسان وهدايته الى صراط الحق المستقيم، وقد ترجم هذه الأفكار وهذه المشاعر السامية الى أفعال نبيلة تتسامى فى معناها ومغزاها وتتحرق شوقا للخلاص من أصفادها وعوائقها المادية لأنها تقيدها عن محيط الوجود اللانهائى .

كما اعتبر كارليل « محمدا » عليه الصلاة والسلام — الشعلة الهادية للنور الالهى ، التى هدت الرجل الجاهلى العربى الذى لم يتسع أفقه وعينه بعد ليرى آفاق الوجود الرحيبة ، ويعجب ببدائع الرحمات التى بثتها العناية الالهية الرحيمة هنا وهناك .

كما انكر « كارليـل » تلك الاتهامات الباطلة التى ألصقها به الكتاب المغرضون الذين أعماهم التعصب واضلهم الحقد عن منار الحقيقة الحقة . فاعتبره انسانا فذا فى النوع الانسانى بأسره . وشخصية بارزة يتفجرالصدق والاخـلاص من اعماقها . ترغب وتأمل وتطمح الى هـداية بنى الانسـان وخلاصهم من ادران المادية وأوشابها .

وأقر كارليل واعترف بأن للقرآن الكريم أثره البـاهر على القلوب . فخاطب الفطرة مباشرة ، وأتاها بما يوائم طبيعتها وماهيتها .. وقال : انهـا آيات قرآنية ، فوق مستوى البشرية . صـدرت من باطنية الوجود كله . وحقيقة ظهرت لتخاطب الانسان رأسا. وتوجه اليه النداء الصارخ المنبعث عن طريق البصيرة والوجدان — كلام الحق الازلى الذى يهيب بجوهر النفس التى أطاحت بها ظلمات الحياة والتى تتحسس طرائقها الى ذلك المقر الأبدى والمآل السرمدى والنور المطلق . فكيف يعتبر ذلك الانسـان الكريم —

الذى كان ينزع الى هــداية البشرية الى ما فيــه فلاحها ورشــادها — انسانا خداعا كان يتظاهر بالصدق ، ويسعى لارضاء نزواته وشهواته ؟! لقد حث على الايمان الحق بالخالق الأعظم . وعمل على تدعيم دواعى الفضيلة . وتحقيق أسبابها كشجرة متشبعة الأفنان ، متفرعة من جذع واحد ، مورقة بروائع الأوراق مخضرة بأبهج الألوان وأبهاها ، وتستمد قــواها الحيوية من جذرها الخفى المستبطن فى جوف الأرض ، المتعمق فى أغوارها وأعماقها وهكذا تكون الصالحات مستمدة من نوره وروحه ، مصطبغة بصبغة الله التى فطر الناس عليها . وهكذا يكون الايمان فى الانسان . فهو ملاك أمره. وقوته المعنوية وأعماله وأقواله كل هاتيك الآثار تتأثر بتلك الوحدة الايسانية الراسخة فى سويداء القلب ، النابضة بالحيوية والحياة ، تجمع أشــتات كل ما يصدر منه من انفعالات وأعمال ، وتترابط بأوشــج الروابط فى قــوة رابطة ، تطبع بطابعها : فتكون كلا واحدا كشجرة أصلها ثابت فى الأرض وفرعها فى السماء ، هكذا ينادى القرآن الانسانية ليرفع الأعين الى أعلى لتقصى أضواء الحقائق غير المنظورة للأبصــار والمطموســة فى ظلمة المادة الصماء ، فكيف يكون ذلك الكتاب الحق الذى لا ريب فيه كتابا باطلا ؟!

وكيف يكون الانسان المبشر بتعاليمه انسانا انانيا هستيريا تلعب بلبه الخيالات والأوهام بينما هو قد تحلى بأسمى المبادىء وأنبل الأعمال المشبعة بروح الفدائية والتضحية لرفع كابوس الحمية الجاهلية الحمقــاء وانتشال النفوس من وهدتها وظلامها الى آفاق أعلى فى سموها ونورها . الى حياة رشيدة عامرة بالروحية البهية والأخلاق الفاضلة . لم يكن هو بذلك الانسان المجنون المعتوه لأنه كان يتحرق شوقا الى هداية قومه الى معنى الحكمة . لم يدع بانه كان انسانا خارقا للعادة . قــادرا على ايتاء المعجزات لأنه يخاطب الناس باسم اله قدير على خلق أمثال هذه الخوارق وانما كان يريد منهم أن يفتحوا أعينهم ويوجهوا أبصارهم وعقولهم الى مدرســة أكثر اتســاعا وارحب آفاقا . واسمى منارا .

وقال : وكيف يكون هذا القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم والذى يقرأه الملايين من المسلمين كتابا تافها ويدعيه انسان دعى ؟ يتخذ لنفسه لقب

النبوة ليلعب بالعقول ويموه عليها ، اللهم ان هـذا الا افتئات خارج على الحقائق . وتشويه لمعالمها .

لم يصـنع محمد المعجزات .. ولكنه تكلم وتخـاطب مع من حوله لينظروا الى معجزة الكون الكبرى ، ويشير كارليل الى ما نسبه الكتـاب المغرضون عن شهوات محمد وهى الهدف الذى وجهـوا اليه سهام نقدهم وتشهيرهم . فوجه اليهم اللوم . وعنفهم على موقفهم الخاطىء . وتعصبهم الذميم الذى أعماهم عن الحقائق وعن بواطن الأمور . نظروا الى محمد فقط كانسان شهوانى . محب لنفسه . ومشبع ملذاته .

ولكن كارليل نظر اليه نظرة أخرى . نظر اليه كانسان عزوف عن زخرف الدنيا وبهرجها كان طعامه قليلا يكفى لسـد رمقه — مكونا من الشـعير والخبز — كان فقيرا كادحا فى سبيل عيشه (لم يكن محمد انسانا سيئا — كما يجب القول بذلك) . بل وقف وحده امام عواصف من المعارضة والمقاومة .. وقال : أحب محمداً لأنى أرى فيه مثـلا كاملا خالصا صافيا من أوشاب النفاق والأنانية . لم يغره بالله الغرور . ولم تخدعه الدنيا بزخرفها وبهرجها . ولم يدخل فى قلبه الغرور والكبرياء . ولم تجد الأنانية فى قلبه ثغرة تنفذ منها .

كان خلقه البساطة فى القول والفعل . ولم تتفاوت معاملته للناس على قدر سلطانهم ونفوذهم . ان الكل فى نظره سواء . خاطب الملوك والأباطرة وجها لوجه وعرض عليهم الدخول فى العقيدة الخالصة المتجاوبة مع دواعى الفطرة الطبيعة الانسانية ، فلم يعرف الوجل أو الرهب الى نفسه سبيلا — احترم الحقير قبل الكبير . والفقير قبل الغنى . كانت حياته بشتى التجارب والعبر بحروب طاحنة وتقدم اتباعه وأصحابه فى معمعان الموت تدفعه الرغبة الحقة فى الجهاد لرفع كلمة الحق ونشر لواء الدين باذلاً فى سبيل الدعوة كل مرتخص وغال .. سادت حياته أفعال متباينة تلعب فيها الرحمة حينا . والقسوة حينا ، والكرم حينا ، ولكن محمدا كان لا يبدى ازاء هاتيك الأفعال عذرا . أو يعلل لها سببا لأنها صادرة عن قلب كبير ضارع مطواع للايحاءات الالهية التى تنزل تبـاعا عليه . لكن قد تبرز القسـوة والغلظة أحيـانا اذا دعت الضرورة اليها .

لقــد كان شغله الشاغل الخلاص والهداية من الضلال الذى ضرب أوضاره فى أرجاء الجزيرة العربية انه مبدأ الحق المنبثق من باطنية الحقيقة الأزلية الذى تأكد فى سويداء نفسه ، الناطق من صميم قلبــه تلقائيا من قبسات الأوامر الالهية التى تكيف القلوب والعقــول لمجــارى مشيئاتها وارادتها .. الى أن قال كارليل : نزلت شعلة الهية فقلبت العالم رأساعلى عقب وغيرت كل شىء ، وجعلت رمال شــبه الجزيرة القــاحلة الجــرداء السوداء متلألئة بازغة ساطعة بنور السماء ، وامتد شعاعها من دلهى الى غرناطة ، فالرجل العظيم مثله كمثل نور وهاج نابع من السماء وتكون باقى الأفراد بالنسبة له ، كالوقود للنيران ، فانهم ليشــتعلون به ، ويظهــرون بظهوره .

ثم تكلم كارليل عن شكسبير — وهنا يظهر كارليل بقلبه الأسود ، ونقضه لما أثبته لنبى الاسلام وللقرآن الكريم — فيقول عن شكسبير :

انه مخلوق بشرى غير عادى ، وهب بخصائص لا تبارى . ووصــفه بصفات لم يبلغها محمد نفسه أو غيره من الأبطال ! .

قال : فالبطل «١» — اعتبر كجوهرة ساطعة فى جبين الامبراطورية البريطانية وسما الى آفاق كبرى من القوة والفخار . لقد اكتسى « دانتى » بالحب السامى ، وبالبصيرة النافذة ، وبالروح الوثابة فكشف بذلك عن حقائق الأشــياء وتوثقت بينه الصلة وبين العالم الروحى ، فأعطانا بخياله الرائق صورة نموذجية عن رحلة فى عالم السماء ، ولكن شكسبير هو لون آخر للبطولة . بطولة تعتبر فى ارفــع المقامات . بطولة تنافس النجوم فى مداراتها وتبهر الكواكب فى أفلاكها . بطولة تفتقت أضواؤها من الباطن من حقيقة الحقائق من لا نهائية عالم الروح — من أعماق الطبيعة . وكانت روحه لغزا حير الجهابذة وأثار اعجابهم ودهشتهم فى وقت واحد .. ثم قال : ان شكسبير يمتاز بواقعية فى تصــوير الطبيعة البشرية تريك الحياة كما هى . ولكنه يعطيك نماذج شعرية انها قطع سماوية واردة الى هذا الكون الأرضى من عالم علوى يتباعد فى أقاصى الفضاء ويبزغ بأضواء ساطعة تعرض لك

---

(١) يقصد شكسبير .

المسالك الخفية والتعاريج المتشعبة لعالم المادة المظلمة . فتريك بذلك لب الحياة وجوهرها .

نقض كارليل كل ما قاله عن النبى محمد أمام بطولة شـكسبير كما يدعى لأنه رفعه الى قنة المجد والخلود وتجاهل الفضائل التى ظن انه قد منحها لمحمد ، ويقول : ان المقارنة بين شـكسبير ومحمد لتعتبر غير ذات موضوع . لأن بطولة شكسبير فى أعلى عليين .

لقد اعتبر الفكرة النبوية عن محمد النبى المبعوث رحمة للعالمين فكرة خاطئة ، وأن رسالته العظيمة والقرآن الحق الذى هو وحى الهى ، ماهو الا مجرد كلام منثور لا رابط له ولا وحدة له تلتئم تحتهـا شتى الأفكار التى احتوتها آياته . انه ليس بقرآن بل هو حشو ولغو !!

ان القرآن الذى قال عنه فى فصله عن البطل كنبى بأن ما ينوف عن أربعمائة مليون نفس يقرأونه ليلا ونهارا ولا يسـأمون ، هو الآن فى نظره لغو باطل بالنسبة للآيات البينات التى ألفها شـكسبير وقدمها هدية خالدة للانسانية . لقد جاء محمد الى هذا العالم وقد تشبع وتعلم من كهان الصحراء بأساطير وقصص خرافية ليس لها سند من التاريخ ، فألف بها قرآنه وحشاه بالأراجيف والأباطيل ليقرأه ملايين الملايين من المسلمين ولا يكشفون ما به من نقائص وعيوب ، ويكتشفها كارليل المنافق المخادع وحده ، الى أن قال فكل هاتيك الخرافات والأباطيل ، وكل هاتيك الأساطير التى عملها اياه شرذمة من الكهان شوهت الحقائق فى كتابه الذى سماه القرآن ! وحتى فى بلاد العرب لقد أجهد نفسه وتنـاحر فى سبيل دعوته ، ومع ذلك فسرعان ما ستسدل عليه ذيول النسيان ، وستتلاشى ذكراه ولو بعـد حين ! أما شـكسبير فهو أعجوبة الدنيا بأسرها ، ولا زال بشيرا للبشرية كلها حتى لأهل الجزيرة العربية نفسها ! الخ .

هذا هو « محمد » الذى تصوره كارليل وأمثاله ، وذاك هو رسول الاسلام الذى رفعه كارليل الى المقام الأسمى فى فصل من كتابه . ولما قارنه بشـكسبير ، فان الثانى يجب أن يكون فى القمة والأول فى الدرك الأسفل ، كحكم كارليل وأمثاله ويقول : لقد كان محمد فى الجزيرة ليث الصحراء ،

ثم ما لبث أن انطفأ ذكره ، وبقى قرآنه كأغاليظ وأساطير تقرأ ، لقد خاطب العرب بصوت كزئير الرعد ، مدعيا بأنه صوت الألوهية لا صوته معتقدا بأن صوت السماء يتخاطب منه الى البشرية ، ولقد صار قرآنه شيئا مردودا مجرد تعابير وألفاظ تردد !! لقد قال كارليل : ان ذلك القرآن لم يكن من وحى الله حقا ! ولقد كان من كلام محمد نفسه !! ومن تأليفه هو !! أعانه على وضعه جماعة من الكهان الذين كان هو على صلة بهم .

هـذا هو كارليل الذى زعم بعض المسلمين انه واقف يدافع عن نبى ورسول البشرية ، هذا هو كارليل بعد أن كشف القناع عن وجهه عند حديثه عن معبوده شكسبير ، وظهر لنا على حقيقته وبان لنا ما انطوى عليه قلبه من الحقد والغل والكراهية للاسلام ونبى الاسلام وكارليل مثله كمثل من بسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه !.

الفصل الحادى عشر
علماء الاسلام والفكر الغربى

الاتجاهات الحديثة فى الفكر الاســلامى ، موضوع يشغل الآن بال كثير من المفكرين فى الغرب والشرق ، ويكتب فيه كل من ناحية .

كتب فيه أستاذ أكسفورد الأستاذ « جب » ، فاتهم الفكر العربى بأن من خواصه الفطرية « الذرية » أى عدم القدرة على « التعميم » أو نزوعه الى تناول مشكلات الحياة ذرة ذرة . وعزا الحركة الاســلامية الحديثة الى تأثير الثقافة الأوربية ، ونقول للأستاذ « جب » ردا على اتهامه :

ان الدعوة القرآنيـــة القوية الحية هى التى جعلت للفكر العربى ، أو الاسلامى قدرة على التعميم ، وان الفكر الاسلامى هو الذى أثر فى الفكر الأوربى فى ميدان العلم والأخلاق ، خلال القرون الوسطى وعصر النهضة .

واذا كان الفكر الاسلامى قد توقف الى حد ما عن الجهــد العقلى ، بسبب اضطهاد العالم الاسلامى ، هذا الاضطهاد الطويل العريض الذى انتهى بقيام « اسرائيل » تلك الدولة المزعومة ، فان القومية العربية قد بهرت أبصار العالم المجاور لها برسالتها الانسانية السامية ، ذلك أن العرب لم يعرفوا تعصبا عنصريا ، أو تفرقة لونية أو ثقافية ، وأثبتوا للعالم أجمع أنهم رسل هداية وســلام ، ثم انهم بسطوا أيديهم لكل من يريد التعــاون معهم فى خدمة الحضارة الانسانية ، أما من يخونهم أو يعمــل على خداعهم فلن يستطيع التمادى فى غيه ، لأن صفاء جوهر القومية العربية ينبذ فى سرعة خاطفة هذا اللون من الانحراف ، ويزيد من منعة تلك القومية وجلدها على مواجهــة الشدائد وصعاب الأمور .

وفى الوقت الذى كانت القومية العربية تجتاز فيه مرحلة الانصهــار والتطور ، وتعمل على أداء رسالتها فى خدمة البشرية ، بدأت حركات التسلل

تهاجمها ، مستهدفة حرمانها من الازدهار والنمو ، ومنعها من تثبيت أقدامها ، شأن المطامع الاستعمارية التى تحارب دائما أصحاب الرسالات الانسانية ، ذلك لأنه جاور دار العرب جهات لم يفهم أهلها حقيقة القومية العربية ، واعتبروا انتصارها فى منطقة شاسعة تمتد من الخليج العربى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ، نوعا من السيادة العنصرية ، وان الأمر يقتضى محاربة تلك القومية قبل أن تستقر أوتادها .

وتعرف هذه الحركة التى نظرت الى القومية العربية بعين ملؤها الحقد والكراهية باسم « الشعوبية » وهى تسمية مشتقة من الشعوب ، أى العودة الى ماضى الشعوب والتفاخر بعصبيتها الجغرافية والتاريخية ، ونبذ رسالة العرب التى تهدف الى خلق مجتمع جديد قوامه : أن التشبث بالماضى والبكاء على اطالة زمنه لن يجدى شيئا غير اثارة الأحقاد المريرة التى لا طائل من ورائها وان من خير البشرية أن تسود المساواة الجميع ، وأن يتعامل الناس على أساس تبادل المنافع واحترام الحقوق .

وبهذه المناسبة أقول : ان الذين لا يعتبرون « الدين » مقوما من مقومات القومية العربية بحجة أن بيننا من المسيحيين ، حتى اليهود ، ما يمنع جعل الدين من مقومات القومية العربية . أقول : ان هؤلاء مخطئون . فالمسألة محلولة ، ونحن الذين نعقدها ، محلولة على معنى أن الأديان السماوية فى الأصل واحدة لا فرق بينها وانما الفرق انما هو فى التشريع ، فاذا قلنا : ان الدين مقوم لم يمنع هذا أو لم يخرج ما عدا المسلمين ، على أن الأديان كلها تدعو الى البر والخير ، والايمان بالله وباليوم الآخر . وهل القومية العربية تخرج عن هذه الدعوة ؟

والدين الاسلامى يأبى التحكم فى عقائد الناس ، ويأمر بتركهم وما يدينون . ففى العقيدة يقول الله فى قرآنه الكريم : « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » (البقرة — ٢٥٦) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : نزلت هذه الآية فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف يقال له : « الحصين » كان له ابنان نصرانيان وكان

رجلا مسلما فقال للنبى صلى الله عليه وسلم ألا أستكرههما فانهما قد أبيا الا النصرانية ؟ فنزلت الآية السابقة .

وأما فى الشريعة فانه يأمر بتركهم يحتكمون فى أقضيتهم لقاضى دينهم ليحكم بينهم بحكم دينهم . كقوله عز وجل فى شأن الذميين : « فان جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين . وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء » (المائدة ٤٤) .

وقوله تعالى : « وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الانجليل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين . وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (المائدة ٤٦ — ٤٧) .

هذه السياسة التى رسمها الاسلام والتى سار عليها المسلمون فى حكم البلاد التى خضعت لسلطانهم . هذه السياسة الحكيمة كانت المصدر الفقهى لاحدى القواعد الأساسية للقانون الدولى الخاص . وهى قاعدة « قوانين الأحوال الشخصية » التى تقررت فى بلاد الغرب لأول مرة فى مجمع « أكسفورد » سنة ١٨٨٣ م. وفى مؤتمر « لاهاى » سنة ١٩٠٤ . وأخيرا فى اتفاقية « مونترو » سنة ١٩٣١ (١) .

ويقول القرآن فى المرتدين الذين لا ارادة لهم : « ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » (البقرة ٢١٧) . ولقد قاتلهم الخليفة الأول « أبو بكر » كما هو مبين فى كتب السيرة .

---

(١) مقالة للاستاذ صليب سامى فى جريدة الاهرام فى ٥ يونية ١٩٤٥ م

والاسلام دين الفطرة : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليهــا ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولــكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم — ٣٠) .

والاسلام دين مقوم لكل أمور المعاش والمعاد : « قل اننى هدانى ربى الى صراط مستقيم دينا قيمــا ملة ابراهيم حنيفــا » (الأنعام — ١٦١) .. فالاسلام اذن دين ودنيا .

والأمة التى تقوم فى معاشها ومعادها بالقسط هى الأمة القيمة . كما سماها القرآن الكريم : « وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » (البينة — ٥) . وأساس دين الاسلام وقواعده التى عليها بنى وبها يقوم . بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله : بنى الاسلام على خمس : شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله . واقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ، وصــوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع اليه سبيلا (رواه البخارى ومسلم) .

لقد اعتقد القائمون على الحركات التسللية المعادية لتلك القومية . وظن التحالف الصهيونى الاستعمارى انه قد آتى أكله بانتزاع فلسطين من جسد الأمة العربية . وان الجو قد خلا لهم للنيل من القومية العربية ، وتحقيق ما عجز عنه الأوائل من أسلافهم من قادة الحركات التسللية (١) المعــادية لتلك القومية ، ولكن خاب فأل قادة هذه الحركة الجديدة ، ذلك لأن جهاد الأمة العربية فى مقاومة التســلل الصهيونى ، منــذ طرق أبواب الشرق العربى ، وكذلك هتك دسائس الاستعمار الأوربى التى اعترفت بذلك التسلل لم يضع هباء اذ أنجبت الأمة العربية فى تلك المرحلة العصيبة ، بل الخطيرة من تاريخها المجيد ، ابنا بارا ، ذاق مرارة الجهاد فى سبيل رفعة شأن العروبة . فنشأ خبيرا بمتاعبها ، عليما بأمثل السبل لاعلاء قوميتها ، حريصا على متابعة رسالتهــا وتحرير الأرض العربية من أدران الاستعمار وتطهير فلسطين من الصهيونية الغاشمة .

---

(١) بدأت مراكز التسلل فى فارس نشاطها منذ عهد مبكر ، منذ وفاة الخليفة عثمان بن عفان وما تلا مصرعه من نزاع بين على ومعاويه رضى الله عنهما وقيام ثلاثة أحــزاب (الخوارج والشيعة والمرجئة) .

منذ عاد البطل « جمال عبد الناصر » من ميدان الكفاح ضد اسرائيل من فلسطين الحبيبة قلب العروبة النابض ، وهو يعد العدة الفعالة لايقاظ القومية العربية وتأهيلها لصد حركة التسلل الصهيونى والاستعمارى قبل أن تنشر سمومها الى سائر أرجاء الوطن العربى الذى يمتد من الخليج العربى شرقا الى المحيط الأطلسى غربا ومن جبال طوروس شمالا الى قلب افريقية جنوبا .. نشأ أبناؤه فى ظل قومية متينة ، وضع أساسها وحدد معالمها الرسول العربى الكريم فى قوله : ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وانما هى اللسان . فمن تكلم العربية فهو عربى .

وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر عن رسالة الجمهورية العربية فى عهدها الجديد قائلا : ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان . أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها . امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا وليس مجرد كلام .

ان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة . ولست أدرى لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا قد استقر به المطاف متعبا ، منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه . فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به .. وأبادر هنا وأقول ان الدور ليس دور زعامة ، وانما هو دور تفاعل وتجاوب ، ويكون من شأنه خلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها ، وتقوم بدور ايجابى فى مستقبل البشر .

وقام جمال عبد الناصر بذلك العبء خير قيام ، واستطاع أن يحفظ للعروبة هيبتها ، ولم يدع لحركة التسلل الصهيونى أن تستفيد من الاستعمار أية فائدة قد تحقق لها الاساءة الى القومية العربية مرة أخرى .

وفى مؤتمر التعبئة القومية الذى أقيم بكلية آداب اسكندرية عام ١٩٥٩ — وقف الأستاذ محمد سعيد العريان وقال : لقد تحدث السادة المحاضرون الكرام عن مقومات القومية العربية من التاريخ المشترك والتجاوب

الفكرى والوحدة الثقافية والطبيعة التى تعطى أكثر مما تأخذ ، وتقوم على التضحية والايثار والتقاليد المشتركة ، والموقع الجغرافى المتشابه والمتكامل واللغة والتجانس . تحدثوا عن كل ذلك شرحا وافاضة ثم قال : ان اهمالنا الدين فى الحديث عن مقومات القومية انما هو أثر من الاستعمار حين كان يثير المنـــازعات باسم الدين والتعصب ليعيش هو فى هذا الجو تحت اسم حماية الأقليات ، أما الحقيقة فنحن جميعا عرب نؤمن بالله وان كان عبده هذا على الديانة المسيحية ، وعبده هذا على الاسلام .

ولتفصيل هذه الفكرة عقدت هذا البحث ، فالواقع الذى لا مراء فيه أن كل هذه المقومات التى ذكرها الأساتذة الكرام انما هى من آثار الدين وفروعه فهى الدعامة الكبرى التى تفرعت منها هذه المقومات . وحتى الموقع الجغرافى انما هو من اختيار السماء لهذه الأمة المجيدة التى عاشت فى رحابها كل الديانات السماوية تقريبا .

وحتى الديانات الأرضـــية كانت فى الشرق . فزرادشت فى فارس ، وكونفشيوس فى الصين وبوذا فى الهند ، انمـــا هم رجال الشرق . وليس عجيبا أن يكونوا أنبياء فقد قال القرآن العظيم : « ورســـلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » .

وقال رسول الانسانية : ان لله مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبى » ففى مبادىء هذه الديانات الكريمة جاء هؤلاء الدعاة الكرام ، وحتى عندما خلا الانسان يفكر فى الوجود والاصلاح لم تخرج فلسفته على مدى القرون وعلى وفرة من تحدثوا لم يخرجوا على الانسانية بجديد عما جاء فى ديانات الشرق الكريم .

والمرة الوحيدة التى ظهر فيهـــا فيلسوف غربى يشبه أن يكون نبيا — ونعنى به ســـقراط فى اليونان — كان على مشارف الشرق وتلميـــذه أفلاطون تلميذ للشرق أيضا فأثر فى أرسطو بأثرين شرقى وغربى .

وعلى هذه المبادىء انطلق قائد العروبة جمال عبد الناصر يعمل لمؤتمر باندونج يجمع الدول الاسيوأفريقيةفى صعيد واحد، ولفكرةواحدة هى نبع

هذه الديانات . ومن مبادئها الكريمة : التعايش السلمى والتعاون والحياد الايجابى وتحريم الحروب والتجارب الذرية وتوجيه الذرة لخدمة السلام ، وتحرير الشعوب المستعبدة ، وكل هذا مما حث اليه الدين ودعا اليه لأنه بحق دين السلام .

وقد وجدت مبادىء الانسانية كمالها وسموها فى الاسلام حين جاء نبى العروبة وهادى العالمين محمد الكريم ، وبه وجدت المبادىء ، قائد موكب التحرير الأكبر ورائد ركب الحضارة الانسانية ، ومنذ جاء والانسانية فى طريقها الى الكمال البشرى ، وهى واصلة اليه يوما ما قريبا ان شاء الله تعالى ولتعلمن نبأه بعد حين وما عرفت القومية العربية وجودا قبل رسول الاسلام لقد كانت شعوبا مشتتة مستعبدة لفارس والروم فجاء اليها وحررها فاندفعت اليه باسم المبادىء التى جاء بها تدخل فى دينه أو تقف بجانبه ضد فارس وضد الروم المسيحية نفسها . ذلك أن المسيحية لم تعرف لها وجودا كريما كما وجدت فى الشرق العربى . ومن هنا انطلقت الشعوب تستقبل جيوش الاسلام ، بل وقف المسيحيون بجانب اخوانهم المسلمين خلف صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين الرومانيين بالأمس ووقف المسيحيون مع المسلمين خلف جمال عبد الناصر فى بور سعيد وسيناء باسم المبادىء الواحدة التى جعلت لكل مقومات العروبة كيانا فيما بعد .

ولم تحارب روما باسم المسيحية بالأمس . وما حاربت لندن وباريس باسم المسيحية اليوم وانما باسم السيطرة والاستعلاء والطغيان . الذى يبرأ منه السيد المسيح وهى باسم هذه السيطرة قضت وتقضى على القيم وحاربت الشعوب المسيحية ونهضتها فى قبرص وفى جبل طارق واريرلندا وأمريكا واستراليا والحبشة وغيرها بالأمس فلنعط للدين حقه من التكريم ولنقدر حق أنفسنا . فنحن ما ندعو الى ضلالة حين نقول : اننا باسم الدين المشتمل على مبادىء الحضارة الانسانية والذى انبعثت منه كل مقومات القومية العربية منذ كان فى الشرق العربى انسان حتى موسى وعيسى ومحمد ذرية ابراهيم الشرقى العربى عليهم الصلاة والسلام ، باسمه وعلى هداه تنطلق .

اننا اليوم باسمه نقيم دولتنا العربية الكبرى . وباسمه نقيم الحلف الاسيوأفريقى الكريم . وباسمه نقيم الحلف الاسلامى العربى الاسيوأفريقى .

وباسمه نقدم لأوربا وأمريكا مبادىء الايمان ونور الحكمة فى فهم طبيعة الوجود والحياة حتى تبنى الانسانية لنفسها حضارة الخلود فى الأرض وفى السماء تحقيقا لأروع رسالة تحدث عنها القرآن الكريم حين قال الله تعالى : « واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وقال الأستاذ « أمين فارس » فى كتابه « هذا العالم العربى »

ان الباحثين المحدثين لم يعنوا بالحضارة العربية العناية الكافية . ولم يدرسوها الدراسة التى تستحقها ولم يبذل لغاية الآن أى جهد منظم لدراسة هذه الحضارة دراسة دقيقة متقصية تبين علاقاتها بالحضارات السابقة والمعاصرة . وتحدد تأثيرها الاساسى فى الحضارات اللاحقة . وخاصة الحضارة الغربية . ونحن على يقين استنادا على الدراسات الجزئية التى تمت فى الموضوع . بان مثل هذه الدراسة ستظهر الأثر الخير الذى كان للحضارة العربية على الحضارة الغربية مهما كان هذا الأثر ضئيلا . ومثل هذه النتيجة تعيد الثقة الى نفوس ناشئة المسلمين بان الحضارة العربية . وان انقضى دورها اليوم . كانت حلقة نيرة من حلقات الحضارة البشرية التى نستمتع الآن بطور من أطوارها . على ان هذا الأثر لا يتم فى عقول هذه الناشئة ما لم يغير الباحثون الغربيون الذين يكتبون التاريخ الغربى خاصة والتاريخ الانسانى عامة . موقفهم من الحضارة العربية . فيعطوا هذه الحضارة حقها عند البحث عن مصادر الحضارة الغربية الحديثة . ان مؤرخا عظيما من مؤرخى الفلسفة « كبرتراندرسل » مثلا لم يخصص للفلسفة العربية والدين الاسلامى والنبى محمد .. أكثر من ست عشرة صفحة متفرقة من صفحات كتابه الكبير « تاريخ الفلسفة العربية » «الطبعة الثالثة . لندن ١٩٤٨» البالغ عددها ٨١٦صفحة.

وهذا باحث أمريكى مشهور يؤلف حديثا « بحثا فى تفهم العالم » ولا يخصص للعرب والمسلمين غير اثنتى عشرة صفحة من مجموع ٤٩٦ صفحة (ف. س. ك. نوثورب) « التقاء الشرق والغرب » نيويورك عام ١٩٤٧ : قد يكون هذا مقياسا غير دقيق لتقدير الأهمية النسبية لأفكار الناس

وأعمالهم . ولكن هذا المقياس على ما ينقصه من الدقة . يعكس لنا اهمال الباحثين الغربيين المعاصرين ما قدمه المسلمون . وهم سبع الجنس البشرى فى حقل الحضارة والدين .

على انى لم أشر الى المؤلفات العديدة التى كتبتها أجيال متعاقبة من المبشرين وليس الدافع الى اغفال هذه المؤلفات تقصيرا فى التنبه لها . أو رغبة فى نكران ما قدمته للدراسات العربية الاسلامية . ولكن معظم هذه المؤلفات لم تكن مجردة عن الغرض . خالصة النية العلمية . ان هذه الطائفة من المؤلفات كما يقول هـ. أ. ر. جب » بايجاز بليغ فى كتابه « المحمدية » (لندن ١٩٥٠) : تصدر عن أولئك الذين يتحكم فى تفكيرهم عدم الرضى عن الاسلام . قد تكون هذه جديرة بالاحترام عندما تنشأ عن اعتقاد دينى مخلص . تلك حال معظم مؤلفات المبشرين . وانه لمن الظلم أن يغفل هذا التقدم العظيم الذى حققه المبشرون فى السنوات الأخيرة . نحو تفهم الاسلام تفهما داخليا مشبعا بالعطف . بدلا من دراسته دراسة خارجية مغرضة فجة . ومع ذلك فما تزال الأحكام السابقة والآراء المغرضة تلازم مواقفهم من الاسلام وهذا ما يجب التنبه له عند تقدير كتاباتهم .

على أن هنالك من الدلائل ما يشير الى أن الباحثين الغربيين قد بدءوا يتلافون هذا النقص . فقد أشار « ويل ديورانت » فى كتابه « قصة الفلسفة » اشارة واحدة عابرة الى الاسلام . أما فى كتابه الكبير الذى صدر حديثا عن تاريخ الحضارة فقد عقد للحضارة العربية الاسلامية سبعة فصول كاملة ، استغرقت ١٩٣ صفحة من صفحات الكتاب البالغة ١١٠٠ صفحة .

ان عناية الباحثين الغربيين بما قدمه العرب والمسلمون للحضارة الانسانية عناية حقيقية وانصرافهم الى دراستها دراسة أكثر موضوعية . لا تظهر فى هذه المؤلفات الأدبية الراهنة التى ينتجها الغرب فحسب . ولكنها ظاهرة أيضا فى ازدياد عدد الجامعات والمعاهد العلمية التى تفسح المجال للدراسات الاسلامية .

وفى هذه الاعانات الضخمة التى تهبها المؤسسات العلمية للباحثين فى الشئون الاسلامية وهى متجلية فى هذا المجهود الضخم الذى يبذله هذا

المؤتمر . ويجب ان تؤدى هذه المجهودات فى حقل البحث المجرد أولا الى معالجة الحضارة العربية والاسلامية معالجة أكثر عدالة وانصافا . والى الحكم على ما قدمته للحضارة الانسانية حكما عادلا نزيها . وأخيرا الى اعادة ثقة المسلمين عامة . لا سيما الشبان منهم . بأن دينهم وحضارتهم لم يتعرضا . ولن يكونا عرضة لأحكام قائمة على التحيز المغرض ، والحقد الأعمى .

على ان أفضل وسيلة ننمى بها اهتمام الشباب العرب بتاريخهم وأقواها تأثيرا هى ان نجعلهم يهتمون بمشاكل بلادهم الحاضرة . ويتفهمونها التفهم الصحيح (١) .

وقد حظى صاحب البحث بالاشتراك فى مؤتمر المستشرقين فى « استانبول » سنة ١٩٥١ م . واجتمع بمشهورى المستشرقين . وفضلاء الشرقيين فوجد الشواهد الواضحة على عظم العمل العلمى الذى تقوم به الدائرة . فان أعضاء من نحو أربعين دائرة من الدوائر العلمية والجامعات والمراكز التحقيقية فى انجلترا وفرنسا واسبانيا . وايطاليا وتركيا ومصر والحجاز والشام ولبنان وغيرها قد استقبلوا مطبوعات دائرة المعارف العثمانية بالحفاوة والعناية . ووعد جماعة من كبارهم باعانتها .

وفى نهاية ديسمبر من عام ١٩٥٧ انعقدت « بلاهور » ندوة اسلامية حضرها عدد كبير من المستشرقين وممثلون من نحو أربعين دولة ، كما حضرها فريق من علماء الجمهورية العربية المتحدة بدعوة خاصة شخصية من جامعة البنجاب ، وتكليف من الحكومة المصرية ، من بينهم الأستاذ الفاضل «محمد أبو زهرة» الذى قال : لقد وقف بعض الذين يقدسهم « محجوب(١) ابن ميلاد » يقول : ان الاسلام ليس فيه رجال دين ، وان القرآن ليس كتاب أحكام . وان الاجماع ليس الا اجماع أعضاء مجلس النواب . فهل هذا هو الحق الذى جاء محمد به ؟ وقد اضطررنا واخواننا ان نبين ما نعرف انه الاسلام فى هذا الأمر . فقلنا مع أصدقائنا . بالنسبة لرجال الدين :

---

(١) الثقافة الاسلامية والحياة المعاصرة .

(٢) كاتب من تونس كتب مقالا فى مجلة دعوة الحق التى تصدرها وزارة الاوقاف المغربية ينتقد فيه علماء مصر وسورية الذين دافعوا عن الاسلام فى الندوة .

ان كنتم تريدون انه ليس فى الاسـلام رجال دين بمعنى أنه ليس فى الاسلام من يتوسط بين العبـد والرب . ويتشـفع للناس . ويعطى صكوك الغفران لمن أحب . ويعتبر تفسيره للاسلام تنزيلا لا يقبل تأويلا . فذلك حق لا ريب فيه . لأن القرآن الكريم قال فيمن فعلوا ذلك : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » .

وان كنتم تريدون بقولكم هذا أنه ليس فى الاسلام من تخصصوا فى استخراج الأحكام من القرآن والسنة وبناء أحكام الوقائع عليهما . فذلك باطل لا ريب فيه . لأن القرآن الكريم يقول : « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين . ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم » . ولأن القرآن لم يفـرض فى كل مؤمن ان يعلم طريق الاستنباط . وفهم الأحـكام فقال سـبحانه : « ولو ردوه الى الرسـول والى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » . ولقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين .

والصحابة والتابعون كان فيهم الفقهاء المفتون الشارحون كأبى بكر . وعمر . وعثمان . وعبد الله بن مسعود . وعبـد الله بن عباس . وابن عمر .. وفيهم السائلون المستفتون ، ولقد قسم الشافعى علم الاسلام الى قسمين :

القسم الأول :

علم العامة : وهو الذى لا يسع مسلما ان يجهله كأصول الفرائض . وأركان الاسلام والذى لا يعد المسلم مسلما الا اذا قام بها .

والقسم الثانى :

علم الخاصة : وهو الذى يكون باستخراج الأحكام العملية التفصيلية من أدلتها ، وان أولئك المتخصصين فى دراسة الأحكام واستنباطها من ينابيعها كالشافعى وأحمد ومالك وأبى حنيفة وزيد بن زين العابدين . ومحمد الباقر وجعفر الصادق . لا يفرضون ما يقولونه صوابا لا يحتمل الخطأ . بل يفرضون فى أقوالهم الخطأ . ولا يسمحون لأحد أن يأخذ كلامهم الا اذا عرف دليلهم . فما كان قـولهم فى الدين الا بينة . وما كانوا يرجعـون أقـوالهم الا الى أصول بينوها . ونصوص محكمة وضحوها . ومن اقتنع بقولهم ممن هو فى

مثل علمهم أخذ به . ومن لم يقتنع وعنده دليل أقوى خالفهم من غير افتراق أو نزاع . بل هى دراسة للحق من كل وجوهه . وما كانوا يرون على أنفسهم من غضاضة فى ان يختلفوا ما داموا يلتمسون الحق من ينابيعه الصافية .

وقلنا مع أصدقائنا بالنسبة لكون القرآن كتاب آداب ومواعظ وليس كتاب أحكام فى نظر القائل : ان القرآن قد اشتمل على أمثل ما تقرره الأخلاق الفاضلة . حتى لقد وصفت عائشة رضى الله عنها أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : كان خلقه القرآن . ولكن مع ذلك اشتمل القرآن على الأحكام الاسلامية كلها بالاجمال والكليات أحيانا . وبالتفصيل أحيانا أخرى . فأصول المعاملات المالية ثابتة فيه بمثل قوله : « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل الا أن تكون تجارة عن تراض منكم » وقد صرح بتحريم الربا تحريما قاطعا لا مجال للريب فيه . وأمر بكتابة الديون . وفصل القول تفصيلا فى نظام الأسرة. فنظم الزواج . وبين المحرمات بالتفصيل . وهدم النظم الجاهلية التى كانت تجعل المرأة متاعا أو كالمتاع . ونظم التوريث نظاما لم يأت بمثله أو بقريب منه أى قانون وضعى الى الآن . وذلك باعتراف كل علماء القانون فى العالم . ومهما يحاول العقل البشرى أن يبحث أمثل منه وأعدل فلن يجد . وبين العلاقات الدولية بين المسلمين وغيرهم . ووضح القول فى تفصيل أحكام الحروب والمعاهدات .

ولذلك أعلنا فى قول لاعوج فيه أن قصر القرآن على الآداب والمواعظ باطل . يكذبه القرآن . ولعل الذى أغضب الذين يتبعون أقوال المستشرقين من غير علم ولا سلطان مبين . هو ان دعوى ان القرآن كتاب مواعظ فقط ذريعة لانكار الأحكام القرآنية أو اعتبارها ارشادات غير ملزمة ليتحللوا من الأحكام الاسلامية . فكان ردنا عليهم قاطعا لهذه الزريعة .

أما بالنسبة لادعاء أن اجماع مجلس نيابى هو الاجماع : فان ذلك ليس هو الاجماع الذى قرره فقهاء المسلمين . واستنبطوا حكمه من الكتاب والسنة . وقد كان الواجب يفرض علينا ان نشرح معنى الاجماع ، وان تنطاول فنلقى بيانا على عبدة المستشرقين . وقلنا . ان الاجماع هو اتفاق مجتهدى المسلمين فى عصر من العصور على حكم من الأحكام بسند شرعى

من كتاب أو سنة . أو قياس صحيح سليم على قول بعض الفقهاء — فالاجماع لا يكون الا من خاصة المؤمنين وهم المجتهدون . ولا بد ان يقوم على أصل دينى . واجماع مجلس النواب لا يستوفى هذين الشرطين . لأنه أولا : ليس اجماع كل المجتهدين .. بل هو اجماع اقليمى . وثانيا لايعتمد على نص من كتاب أو سنة . أو قياس على الكتاب والسنة . وثالثا ليس اجماع المسلمين . لأن المجالس النيابية فيها دائما المسلم وغير المسلم : فكيف تدخل غير المسلم فى اجماع علماء المسلمين ؟ .

ولقد كانت أخطاء المستشرقين فى نظرنا كثيرة ، وكان علينا نحن الذين ندرس القرآن والسنة والفقه الاسلامى أن نصحح بعض هذه الأخطاء :

فقد وقف المستشرق الأمريكى الدكتور « خوستان نون غرونباوم » يقول : ان النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : اختلاف أمتى رحمة .. وهذا الكلام لم يقله رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ولم ينسب اليه .. وان كان هذا فى الكتب الأفرنجية حديثا منسوبا الى النبى — صلى الله عليه وسلم — . فهو حديثهم ، وليس بحديث عند أهل الاسلام . وان مثل هذه الكلمة جرت على لسان الحاكم العادل « عمر بن عبد العزيز » رضى الله عنه اذ قال فى اختلاف الصحابة : ما يسرنى باختلافهم حمر النعم ، ولو كان رأيا واحدا لكان الناس فى ضيق .. فاعتبر اختلاف الصحابة أنه يسر على الناس الاتباع ، فيختارون من بينها أسهلها ، فسرت هذه الكلمة الى العامة ، وقالوا عن اختلاف أئمة الفقه الاسلامى : اختلافهم رحمة .

ولقد وقف مستشرق أمريكى آخر يقول : ان النبى — صلى الله عليه وسلم — قال : تتغير الأحكام بتغير الأزمان ، وهذا أيضا حديث لم يدون فى أى كتاب اسلامى يصدر باللغة العربية على أنه حديث نبوى .. وأصل هذه الكلمة أن الامام مالكا رضى الله عنه قال : يجد للناس من الأقضية بمقدار ما يحدثون من أحداث .

ولقد وقف باكستانى ينكر النبوات ، وينكر بشكل خاص نبوة « محمد » — صلى الله عليه وسلم — ، فأدعى أن محمدا — صلى الله عليه وسلم — كان يعلم بقصص النبيين الذين اشتمل القرآن الكريم على أخبارهم

قبل البعث المحمدى . وأنكر اختصاص أنبياء الله تعالى بالوحى . وأنكر أن تكون الأحكام القرآنية بوحى من الله تعالى . بل هى من عند النبى — صلى الله عليه وسلم — .. واسترسل فى هذا الكلام وأشباهه استرسالا ضج منه أكثر الذين استمعوا اليه وقرءوه . فهل لنا أن نسكت على هذا القول ؟ لقد وقفنا وبينا أن ذلك كلام باطل ، وانه ليس من الاسلام فى شىء . ولقد حاد على النبيين — الذين ذكرهم القرآن — ببعض الغمزات .. وذكر أن القرآن اعترف باليهودية القائمة وغيرها ، وانه لافارق بينهما .

قلنا : ان النبى — صلى الله عليه وسلم — كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . وماكان فى مكة علم ولا معاهد للاهوت تدرس فيها أخبار النبيين ، ولا ينافى كمال النبى — صلى الله عليه وسلم — أنه كان يجهل هـذا ويجهل الكتابة والقراءة ، فليس كماله فى هذا ، انما كماله فى أن جنبه ربه الهوى وعبادة الأصنام ونزهه عن ارتكاب المعاصى ، حتى ساغ له أن يقول أدبنى ربى فأحسن تأديبى .. وكماله فى أن اختاره ربه للرسالة الالهية فى هذه الأرض .. وقد قال سبحانه « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ولقد قلنا : ان من يدعى أن محمدا كان يعلم قصص الأنبياء قبل القرآن يكذب القرآن ، فقد قال تعالى : « نحن نقص عليك أحسن القصص بمـا أوحينا اليك هذا القرآن » . وقوله : « ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » . فجعل القصص منسوبا الى الله عز وجل ، ومقرونا بوحيه على النبى — صلى الله عليه وسلم — فلا يكون قبله .. فأخبـار النبيين بصريح القـرآن ماكانت معلومة للنبى ولا لقـومه . ومن قال انه يعلمها فقـد كذب القرآن ، وكذب بما يجب تصديقه ويجب الايمان به . ولقد قال سبحانه بعد قصة السيدة البتول مريم عليها السلام : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم اذ يلقـون أقـلامهم أيهم يكفل مـريم وما كنت لـديهم اذ يختصمون » .

أما الذى ينكر النبوات ، ويدعى أن الوحى كما ينزل على من يدعى الرسالة ، ينزل على غيره ، بل ينزل على الحيوان ، ويستشهد على ذلك بقوله تعالى : « وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون » .

فنقول : ان انكار الوحى يؤدى الى انكار النبوات لا محالة ، لأنها قائمة على خطاب الله تعالى ، فقد قال تعالى : « وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا » .

وان المتكلم لو كان يعرف العربية ماقال ذلك القول . فان كلمة الوحى تطلق فى العربية على الالهام المجرد ، وعلى حديث النفس ، وعلى الالهام بمقتضى الغريزة الفطرية ، كالهام أنثى الحيوان بارضاع أولادها ،ويطلق على كلام الله تعالى لرسله وهو اطلاق عرفى دينى .

ولقد وقف باكستانى — له مجلة تهاجم السنة وتنكر الصلوات الخمس ، وتعتبر الصلاة ركعتين اثنتين فى اليوم — وقف ذلك الباكستانى يبهت المسلمين فى الندوة بكلام ليس من الاسلام فى شيء ، وقد ادعى أن الاجتهاد لايستلزم العلم بالعربية ، ولا العلم بالسنة ولا معرفة آيات الأحكام فى القرآن (وكنا قد قلنا ذلك فى البحث الذى ألقيناه بتكليف من الندوة ، وكان موضوعه « الاجتهاد الفقهى وأدواره) .. فوقف ذلك المدعى ينكر ذلك ، ويقول : ان الاجتهاد اذن متعذر !! وبينا أن كلامنا يجعل من المتعذر عليه حقا أن يجتهد فى تفسير أحكام الاسلام ، واستخراجها من القرآن . ولعل تعذر ذلك عليه يكون من الخير وصيانة هذا الدين من أن يقال فيه منسوبا اليه ماليس منه . وقلنا لهم : نبئونا ، خبرونا : أيسوغ فى عقل أن يفسر قانونى القانون الفرنسى من غير أن يعرف اللغة الفرنسية ؟ وأيسوغ لقاض أن يفسر الأقضية الانجليزية من غير أن يعرف الانجليزية ؟ واذا كان غير سائغ فى قوانين البشر التى يمكن ترجمتها بيسر وسهولة ، أفيسوغ فى قانون القرآن ، وهو كتاب بليغ لايمكن ترجمته ، وتتعذر كل التعذر ترجمته كما هو ؟

وقلنا : ان كل قانون يصطحب مذكرة تفسيرية توضح مقاصده وأغراضه وانه لايسوغ لقاض أن يقضى بما يخالفها . فهبوا السنة مذكرة تفسيرية ، وهى أعظم من ذلك وأوسع مدى وأشمل ، أفيسوغ اهمالها وتركها جانبا ، ونفرض أنها غير موجودة ؟ لقد كانت السنة تفصيلا لاجمال القرآن . وبيانا لعمومه فهى التى بينت الصلاة وأركانها ، والزكاة ومقاديرها والحج ومناسكه

وهى التى طبقت أحكاما عملية اشتمل عليها القرآن ، فهى التى اشتملت على تطبيق نظم الحروب ، ونظم المعاهدات ، أفيصح اهمال كل ماشتملت عليه ؟ وهبنا اقتصرنا على القرآن أفلا يصح أن تتعرف أسباب نزول الآيات وملابساتها ، وغير ذلك مما اشتملت عليه السنة ؟ ان كل قانون يقترن بأعمال تحضيرية تحدد مراميه وأغراضه ومقاصده . أفلا نعد أسباب النزول قريبة من هذا على الأقل ؟ وان القرآن تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه . ولا من خلفه ، وما نذكره من التشبيهات انما هو لتقريب المعانى من قلوب أولئك الذين لم تعمرقلوبهم بالحقائق الاسلامية ، بل هى خاوية فارغة الا من أهواء فاسدة ، وأوهام كاذبة ، كالشأن فى كل من يدافع عنهم

ولقد قال ذلك الباكستانى وأعظم الفرية على الله يوم القيامة ، فأنكر عذاب يوم القيامة ، واعتبر الحياة فيها معنوية ، وتمسك فى نفى العذاب بظاهر قوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » وبظاهر قوله تعالى : « ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما » .. فاذا قرأ الداعى الآيتين كاملتين : فالآية الأولى نصها الكريم هو : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة انا هدنا اليك ، قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء ، فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون ». فهذه الآية فيها الرحمة ، وفيها العذاب ، وقد بين سبحانه أن الرحمة الربانية مع سعتها قد كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة . فلا يستحقها من لا يؤتى الزكاة .. الخ . والآية الثانية نصها الكريم : « الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم » . فالدعاء من حملة العرش للذين آمنوا ، وطلب الغفران للذين تابوا واتبعوا سبيل الله ، فليس منهم الكافرون أمثال المتقولين ومن أيدهم من المستشرقين فاذا كان ذلك الحق يجعلهم فى تضليل ، فما لهم علينا من سبيل ، ولسنا نأخذ معهم الا بقول الله تعالى لنبيه : « فذرهم ومايفترون » ونقول لهم حقيقة مقررة فى علم القانون والأخلاق وبداءة العقول : ان الرحمة بمعناها الدقيق لايدخل فى عمومها العفو عن المجرمين الآثمين ، اذ أن الرحمة والعدالة معنيان متلازمان لاينفك أحدهما عن الآخر ، فرحمةالمجموع

تقتضى الاقتصاص من الجناة والأخذ على يد المفسدين ، فعقاب المسىء من قانون الرحمة ، وترك المسىء المصر على فساده من الفساد ، ولا فساد مع الرحمة ، لأن الرحمة منع للأذى ، ومع الفساد الأذى المستمر ، فلا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ولا يستوى الأعمى والبصير ، ولا تستوى الظلمات والنور .. ولكن أولئك وأشياعهم يدعون الى المساواة باسم الرحمة فلهم ما يدعون : « فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » .

ولقد قال ذلك الباكستانى : ان المسلم ليس له من ماله الا ما يكفيه فقط ، وأخذ هذا من ظاهر قوله تعالى : «ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو» ففهم من هذا النص ان كل الزائد عن الحاجة الأصلية الضرورية يكون للدولة .. ولكن تقف أمامه آيات المواريث ، وآيات الصدقات ، فان هذه الآيات تقتضى أن يكون للرجل فى حوزته مال يورث عنه ، ويتصدق منه ، ولقوله تعالى : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » . فهذا يقتضى أن يتمول الشخص مالايتصدق منه بحق مقدر لا بكل الفاضل .. وكذلك آيات المواريث تقتضى أن يكون ثمة مال يدخره ويقسم بين ورثته لقوله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا » . فهذه الآية تسوغ أن يدخر الانسان مالا كثيرا أو مالا قليلا على حسب قوة انتاجه وتقتضى أن يكون حلالا له بعد أن يؤدى حقه الذى يجب عليه فيه ، ويورث عنه ، وازاء هذا التعارض مع دعواه أن الدولة تملك كل شىء من انتاج الشخص الا ما يكفيه على قدر الضرورى ، دفعه لأن يقول : ان أحكام آيات المواريث والصدقات كانت أحكاما وقتية ، قد انتهت ، وأما آية « ويسألونك ماذا ينفقون ، قل العفو » فحكمها هو الخالد الباقى .. ان الباكستانى لم يفهم الآية : « ويسألونك ماذا ينفقون » .. قلنا . ان هذه الآية نزلت لأنه لما نزل قوله تعالى : « وانفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » ، تساءلوا عن مواضع الانفاق ، فقال سبحانه : « يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما تفعلوا من خير فان الله به عليم » ، ومنهم من كان يخرج كل ماله فى سبيل الجهاد ، وفى سبيل الصدقات ، لا يبقى لنفسه شيئا ، فكان النبى — صلى الله

عليه وسلم — ينهاهم عن ذلك ، ويروى فى ذلك أن رجلا أتى النبى — صلى الله عليه وسلم — ببيضة من ذهب أصابها فى بعض المغازى ، فقال : خذها منى صدقة ، فأعرض عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأتاه من الجانب الأيمن ، فقال مثله ، فأعرض عنه ، ثم أتاه من الجانب الأيسر ،فأعرض عنه ، فقال : هاتها مغضبا ، فأخذها منه ، فحذفه بها حذفا لو أصابه لشجه أو عقره ، ثم قال : يجىء أحدكم بماله كله يتصدق به ويجلس يتكفف الناس ، انما الصدقة عن ظهر غنى » ..

ولقد سأل لهذا بعض الصحابة عن القدر الذى ينفقونه ، وقد نهاهم عليه السلام من أن ينفقوا كل مالهم أو أكثره فقال الله تعالى : « قل العفو » أى السهل اليسير الذى لايشق عليكم اعطاؤه ، فليست كلمة العفو هنا معناها الزيادة ، كما فى قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » . وعلى فرض أن المراد بكلمة العفو الزيادة ، فالمراد الزيادة عن حاجتك وماتدخر ، فان مايدخر للشدة ومايدخر للأولاد من الحاجة ، ولقد قال عليه السلام : انك ان تدع أولادك أغنياء خير من أن تدعهم فقراء يتكففون الناس .

وان مارأيناه من انحراف فكرى فى فهم الحقائق الاسلامية الذى دعانا لأن نقف مع اخواننا لنجاهد فى بيانها ، لانخشى فى الله لومة لائم ،حملنا على أن نقول مخاطبين المستشرقين والمنحرفين ممن تسموا بأسماء اسلامية : أيا هؤلاءالأوربيون الذين يعنون بالدراساتالاسلامية ، انا نرحببدراستكم لأنها ترينا فى الاسلام أنظارا أخرى جديدة ، ولكننا نرجوكم ونلحف فى الرجاء أن تنظروا عند دراسته بالنظر غير المتحيز ضده ، وأما أنتم أيا هؤلاء المسلمون ، أو الذين ولدوا على الاسلام فانا لانقبل منكم الا ماجاء به القرآن وماجاءت به السنة ، لأن الذى يخالف القرآن له حكم فى الاسلام ، وان كان ذلك الحكم غير مطبق فى أكثر البلاد الاسلامية ، ولو طبق لكان فيه غناء عن كل جدال ، كونوا انجليز فى تفكيركم ، أو كونوا أمريكان فى آرائكم ، أو كونوا فرنسيين فى نزعاتكم ، بل كونوا روسا ، ولكمماتشاءون فى دائرة أنفسكم ، أما أن تقولوا : ان هذا هو الاسلام ، فذلك هو الضلال

المبين الذى لانرضاه أبدا ، وأنكم بهذا تخرجون عن أن تكونوا مسلمين ، وتسمون فى عرف الاسلام مرتدين (١)

وقال فضيلته : وفى الندوة التى انعقدت فى « لاهور » فى يناير سنة ١٩٥٨ ، رأينا فيها من يشوه الحقائق الاسلامية ، ومن ينكر السنة النبوية ، ويفرض لنفسه التفسير والاجتهاد من غير علم بهما ، بل من غير علم بالعربية « لغة القرآن » ولغة الاسلام ، ووجدنا من الأوربيين ، بل من اليهود من يعطى نفسه حق تفسير القرآن والسنة والحكم عـلى فقهاء المسلمين بالخطأ أو الصواب ، ووجدنا الغمز فى الاسلام تلسيحا وتصريحا .

وقد تصدينا واخواننـا من الاقليم الشـمالى ، وغيرهم من الأقاليم الاسلامية لهؤلاء ، فرددنا السهام الى صدور مسدديها ، وانتهى أمر الندوة الى نصرة الاسلام .

ويظهر أن أعداء الاسلام ممن يتسمون بأسماء اسلامية ، أو يولدون من آباء مسلمين ، ومعهم اخوانهم من الأوربيين الذين لايأتون المسلمين الا خبالا ، وجدوا أن سهمهم قد طاش وغايتهم قد كشفت ومنعت ، ولكنهم لم ييأسوا ، لأن اليأس لايعرض لذى غاية يدفع اليها دفعا ، ويكسب من ورائها كسبا هو فيه موزور ، وليس بمأجور ، فانه اذا اعتراه اليـأس فى طريق التمس له الحيلة فى غيره ، فطرائق الشيطان متنوعة وذرائعه متفرقة وأنصار الشيطان كالشيطان ، يأتيك فى الظلام دون النور دائما ، فان وجد الأشعة الكاشفة قد سلطت عليه اختفى والتمس الظلام أنى يكون .

ولذلك اتجه المؤتمرون بالاسلام والذين ولدوا فى البلاد الاسـلامية حاملين اسم الاسلام ، الى الاختفاء بدل الظهور ، فعقدوا ندوة فى كراتشى فى الأسبوع الأخير من يناير سنة ١٩٥٩ ابتـدأت فى ٢٧ منه ، وانتهت فى الثانى من فبراير .. ولم تدع الى هذه الندوة الدول الاسلامية لترسـل مندوبين من ذوى الكفاية والعلم بالاسـلام وذوى الغيرة من رجالها ، بل دعوا آحادا من الدول الاسلامية .. ولعل الدعـوة وجهت لذوى العقول التى توافق أهواء الذين يدفعون الى هذه الدعوات من وراء حجاب ، وقد

(١) لواء الاسلام العدد ١١ السنة ١٢ من (ص ٦٥٨-٦٦٤)

حضر فى هذه الندوة من الجمهورية العربية المتحدة الدكتور « قسطنطين زريق » أى أنه كان يتكلم عن مصر بأزهرها وسوريا بعلمائها • كما حضر العلماء الأوربيون الذين وقف لهم اخواننا من ذوى الغيرة الاسلامية بالمرصاد وصححوا لهم ماقالوا ، وبينوا حقائق الاسلام ، وردوا كل قول هادم بالحجج الدامغة •

وكانت الندوة فى الباكستان تحت رعاية وزير التربية بها ، كان منها مناضلون عن الاسلام منعوا من أن تصدر قرارات فيها هدم لمبادئه ، وان كانت تلك المعاول التى ينظمها الأوربيون لتشويه الاسلام لاتنال منه الا بمقدار مايناله الرأس الواهى من الجبل الأشم •

وماكان يسوغ لغير المتخصصين فى الدراسات الاسلامية أن يخوض غمارها ، ونقول مع الأسف ان أكثر الذين خاضوا لم يكونوا على علم بالعربية علما يسمح لهم بأن يرجعوا الى المصادر الرئيسية للاسلام ، وهى الكتاب والسنة وتفسيرات الصحابة التى تلقوها من مبلغ رسالة الاسلام وهو « محمد » — صلى الله عليه وسلم — وتلك المسائل لخصتها « المنظمة الدولية لحرية الثقافة » فى ثلاث نواح :

أولاها — تطور الاسلام ، والامكانيات التى يشتمل عليها وتجعله قابلا للتكييف ، وتدرجه الاجتماعى ، والتاريخى ، وحرية الفكر والحرية الشخصية فى الاسلام •

الثانية — فى المجتمع الاسلامى ، والرأسمالية والاشتراكية فيه ، والفائدة والحياة المالية ، والايمان ودوره فى المجتمع الحديث •

والناحية الثالثة — كانت خاصة بموضوعات فى السياسة الاسلامية ، فبحث فيها مسائل الديمقراطية والتطور السياسى فى الاسلام ، والاسلام والقومية ، وقد كتب فى هذا الدكتور نقولا زيادة ، والاسلام والعلمانية .

وقبل أن نخوض فى مناقشة ماقيل فى هذه الندوة نذكر ثلاثة أمور :

١ — ان من دعا اليها هى المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، ويظهر انها جعلت موضوع دراستها الاسلام ، وكنا نود أن تتفضل فتترك الاسلام

لأهله ، ويتولى أعضاؤها الفضلاء دراسة هذه الموضوعات فى اليهودية والمسيحية ، وهم بها أعلم ، وعليها أقدر •

٢ ـــ ان نشرة هذه المنظمة ذكرت أن المناقشات التى دارت حول الموضوعات السابقة كانت جدية وجرت بروح من التسامح العلمى المنتظر فى هذه الحلقة الدراسية •

٣ ـــ ان هذه المنظمة جعلت مكان انعقادها فى حلقاتها التالية باستانبول وذلك فى مايو سنة ١٩٦٠ •

ولتمحيص ماقالوا نقول :

١ ـــ لقد اصطدمت الندوة بأول مسألة تعد البناء الأول لبحوثهم ، وهى « مقومات الاسلام » التى لاتقبل تغييرا أو تبديلا ، لاشك أن الاسلام له مقومات مشخصة له تعد ركنه الذى لايتحقق له وجود من غير تحققه ، والذى يجرى التطوير على حد تعبير أهل العصر فى الأمور التى تحيط به ، لا فى أصله ، والا لكان التغيير تبديلا وهدما ، ولم يكن تطويرا ولا تكييفا

ولقد اتفق ابتداء على أن الوحدانية وأصول الفرائض كالصلاة والحج والصوم هى الأمور الأساسية فى الاسلام (ولكن وقف واقف وأضاف العدل ومبادىء الأخلاق) والى هنا كان الاجماع منعقدا من تلك الندوة • وان لم يكن اجماعا شرعيا ، ولكن الاسلام دائما تبزغ نجومه اللامعة فى وسط الدجنة الحالكة ، ولذلك انبرى من بين الأمور الأساسية فى الاسلام فقال قول الحق الذى لاريب فيه : « ان كل ماورد فى القرآن الكريم والسنة الشريفة هو من المبادىء الأساسية التى يجب أن يحافظ عليها المسلم محافظة تامة شاملة كاملة ، ولا يجوز التخلى عن أى جزء منها كائنا ماكانت الأحوال »

هذه حقيقة الاسلام ، فهل سلم بها المجتمعون ؟ وهى ثابتة فى كل الأديان ، فما اشتملت عليه كتب العهد القديم يجب الأخذ به عند اليهود ، وما اشتملت عليه الأناجيل ورسائل الرسل بعد عيسى عليه السلام يجب الأخذ به عند المسيحيين ولا يصح تركه •

وان القياس الصحيح يوجب أن يكون كل ما اشتمل عليه الكتاب من أحكام ونظم وقوانين ، وكل ماشتملت عليه السنة الصحيحة وهى أقوى فى ثبوتها اسنادا من كثير من الكتب الدينية فى غير الاسلام ، مبادىء أساسية.

ولكن العلماء الأوربيين وأشباههم من القديانية وغيرهم لايريدونه ولا يرتضونه ، لأنه ركن ركين من مقومات الاسلام .

ومن أجل ذلك قام الجدل حول هذه البديهية الدينية الثابتة فى كل دين من الأديان ، لأنك لو جئت الى البرهمى وسألته : مامقومات دينك ، وماهى المبادىء الأساسية له ؟ لقال : انها مااشتمل عليه (الفيدا) . ولو سألت البوذى : ماهى مقومات دينك؟ لقال : تعاليم بوذا .ولو سألت الكونفشيوسى ماهى المبادىء الأساسية عندك ، وان لم تكن دينا ؟ لقال :كتب كونفوشيوس .. ولكن هذا الأمر البدهى الذى لايمترى فيه أهل دين من الأديان سماويا كان أم غير سماوى ، يجعله الأوربيون ومن لف لفهم موضع جدل فى الاسلام .

ولعلهم حصروا دائرة الدعوة الى الندوة حتى لايكون فيها أولئك الذين كانوا يصدعون بالحق ، فيدرسون الأمر دراسة مقارنة ، ويبحثون على ضوء ما عند الأوربيين واليهود من مبادىء مقررة فى تعرف أحكام دينهم .

ان كل دين له مصادر تعد ينابيع العلم به وعنها يصدر كل متدين .. فاليهود أخذوا بالتوراة وأقوال مفسريهم وكل ما اشتمل عليه التلمود ، والنصارى أخذوا بالانجيل ورسائل الرسل ، ومالانص فيه عندهم يرجعون فيه الى كتب العهد القديم أى التوراة ، وما أضيف اليها مما جاء به النبيون من بعد موسى الى عيسى عليه السلام ، وقد أضاف الكنسيون منهم الى ذلك كله تقاليد الكنيسة وتفسيرات الأحبار والرهبان .

فاذا جاء المسلم وتمسك بكتاب الله وسنة نبيه ، واعتبر أحكامهما هى المقومات الأولى للاسلام أيعد قد خالف منهاج الدراسة الصحيحة لدينه ؟

وان مايخالف المبادىء المقررة فى القرآن والسنة الصحيحة ليس فيه الا بريق يوهم الناظر ان فيه صلاحا أو مصلحة ، وماهو الا الضار ، كأولئك الذين يستبيحون الخمر لأن فيها دفئا لأهل البلاد الباردة ، وليس فيها الا

المضرة ، وقد روى أن بعض الناس سأل النبى — صلى الله عليه وسلم — عن قوم يشربون الخمر ليدفعوا بها شدة البرد ، فقال النبى الطاهر : امنعوهم ، فقال : انهم لا يمتنعون فقال : قاتلوهم . ولقد رأينا ووجدنا بعض من يكتبون من غير ادراك للمبادىء الاسلامية الصحيحة يستحلون الربا الذى تبيحه القوانين باسم المصلحة ، ويحرفون القرآن عن مواضعه فى ذلك ويزعمون أن ذلك هو المصلحة ، الا أن مصلحة الاسلام أن تبقى مبادئه حاكمة على الزمان وليست محكومة بالزمان .

ان مايتمناه أعداء الاسلام ، أن يترك المسلمون تعاليم الكتاب والسنة وأنهم يتطاولون الى توهين الاعتقاد بأن الاسلام أحكام وقوانين ونظم ، بل هو التوحيد والعبادة ، ويدخلون بهذا الى العقول الاسلامية المنحرفة ، ويقودون انحرافها ، وبذلك يحرف الاسلام كما حرف غيره ، وماكانت تلك الدعوات التى تجرى بتوهين السنة وروايتها حينا ، واثارة الشك حول معانى القرآن أحيانا ، الا لتحقيق هذا الغرض الذى يريده أعداء الاسلام ، وان فى ذلك لذكرى للمؤمنين (١)

وفى مؤتمر عالمى من مؤتمرات المستشرقين قام الدكتور « صبحى محمصانى » المحامى اللبنانى الكبير وقال : كانت دراسة الاسلام وثقافته وشرائعه ونظمه على ضوء العصر الحديث من الأهمية بمكان ، ولقد عنى بهذه الدراسة منذ القديم بعض الغربيين المستشرقين ، وكثير من العلماء المسلمين ، أما المستشرقون ، فلاشك فى أن نفرا منهم لم يكونوا دائما معصومين عن الخطأ ولا مجردين عن التحيز وربما كان سبب ذلك تأثير السياسة والمحيط على تفكيرهم ، أو عدم اطلاعهم الكافى على اللغة العربية والمصادر الأصلية ، ولكن على الرغم من ذلك ، فان القسم الأكبر من المستشرقين عملوا على نشر المخطوطات العربية والاسلامية ، وعلى اخراج الأبحاث الاسلامية المفيدة فكان سعيهم على العموم مشكورا وجهدهم موفقا فى سبيل التفاهم العلمى المتبادل ، أما العلماء المسلمون ، فكانوا طائفتين ،

---

(١) من مقال لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة بمجلة لواء الاسلام العدد ٥ السنة ١٣ ص ٩٠

الأولى طائفة محافظة تمسكت بالتقاليد والعادات ، وفسرت مبـادىء الاسلام وفق اجتهاد الفقهاء الأولين والمتأخرين من غير تحوير ولا تفكير ، وقالت بوجوب تطبيق ذلك على أمور المسلمين الدينية والدنيوية جميعا .

والطائفة الثانية : تشمل العلماء المجددين الذين قالوا بوجوب بحث أحوال المسلمين وأسباب تأخرهم ، ثم درس تحرير الفكر الاسلامى من قيود الجهل والتقليد الأعمى والجمود الباطل ، والسير به فى طريق الحيـاة والتجدد والمدنية .

ولقد سار المجددون المصلحون من كل أمة فى سبيل الاصلاح عن طريق نبذ القديم وتغيير الماضى واستبدال الجديد به ، ولكن المصلحين المسلمين ، لم ينهجوا هذا النهج ، فالاصلاح فى نظرهم هو الرجوع الى الماضى والى مذهب السلف الصالح ، وهم على حق فى ذلك ، فالماضى الأول فى الاسلام يمثل مبادئه الأساسية وجوهره الحقيقى وتعاليمه الخالدة ، أما الجديد الذى أتى بعده . فقد شمل أيضا ماتركه التقليد والجهل من شكليات وخرافات وفرعيات واجتهادات مخالفة لروح الشريعة ولأساساتها الأصلية ، فالاصلاح فى نظر العلماء المجددين اذن هو التنقيب عن الجوهر الأول القديم ، وطرح ماتراكم عليه خلال عصور الجهل من تلك البدع الكثيرة والتقاليد الـكثيفة التى كانت السبب فى حجب المسلمين عن الاسلام الصحيح ، وهى سد باب الاجتهاد فى الشريعة الاسلامية ، واهمال التعلم والتمسك بنصوص غير ثابتة والتمسك بالشكليات والفرعيات والتحزب المـذهبى ، واهمـال بحث علل التشريع ، والمزج بين الدين والدنيا ، وان من أسباب التقهقر الأخرى التى أثرت فى المسـلمين كما أثرت فى غيرهم من الشعوب العربية والشرقيـة ، الاستعمار والنفوذ الأجنبى والحروب والفتن والانحطاط الخلقى والفقـر وما أشبه ، بل أكتفى بالأسباب التى ذكرتها ، باعتبارها خاصة بدراسة الفكر الاسلامى ، وبتأثيره فى حياة المسلمين ، والخلاصـة أن أهم أسـباب تأخر المسلمين وانحطاطهم تعود الى اهمالهم واجبات الاسلام الحقيقيـة . وتفهم علل التشريع ، واعطاء الدين حقه والدنيا حقها .ومن ثم هدم ماسموه جوهر الاسلام لجهل التقليد والنصوص المزورة والشكليات والفرعيات والتحريات المذهبية .

أما اتباع سبيل المقلدين الجاهلين ، فيقود الى الظلمة والجهل والفناء
.أما اتباع سبيل السلف الصالح ، فهو الخروج الى النور والعلم والحياة

ولا شك فى أن هذا القول قد لايروق لبعض الجهلة المحافظين الذين يزعمون العلم بالاسلام وشرائعه ، ولكن هؤلاء لن يقفوا عثرة فى سبيل نهضة المسلمين ورقيهم وفلاحهم فمرضاة الله تعالى أولى من رضائهم ومصلحة الاسلام والمسلمين أعلى من مصلحتهم • فالمسلمون اليوم أمام تيار المدنية الجارف ، فعليهم السير فى قطار الحياة العصرية والاهتداء فى ذلك بالعلم الصحيح والتفكير الثاقب والايمان القويم ،وهذاكله يزودهم بالطاقة اللازمة لهدم أكواخ التقليد الأعمى ، ولتحطيم القيود التى وضعها بعض الجهلة فى وجه انطلاق الفكر والعمل المثمر الصالح ، وفى وجه النهضة والارتقاء وفى وجه الاتحاد والاخوة الانسانية .

وها هو الأستاذ المسيحى « نظمى لوقا » يصدر كتابا عن رسول الاسلام — صلى الله عليه وسلم — وهو ليس مستشرقا استهوته دراسة الأديان ، ولكنه يحب الحق للحق وينصره على الباطل ، فأغرق نفسه فى كتب السيرة والتاريخ الاسلامى ، ثم انتهى الى مجموعة من الآراء عن هذا النبى العربى أراد أن يخرج بها على الناس ، فكتاب نظمى القبطى عن محمد رسول الاسلام والمسلمين لا بد أن يثير الدهشة والاستغراب عند كثير من الناس ويجعلهم يسألون لماذا ؟

ولقد أحس المؤلف نفسه بهذا السؤال منذ السطور الأولى لكتابه « محمد الرسالة والرسول » وحتى نهاية آخر سطر فيه ، ان هذا السؤال يقف أمامه دائما ، يقوله المسلمون ويقوله المسيحيون على السواء ، الأولون يقولونه فى حذر والآخرون يقولونه فى قلق وحيرة ،وهو منذ السطورالأولى يحاول أن يبرر موقفه هذا تبريرا منطقيا حينا ، وتبريرا عاطفيا حينا آخر ، ولكنه فى كل حين يردد صيحته المدوية أنه لايستطيع الا أن يكتب ، ولا يستطيع الا أن يعبر عن شىء جاش فى صدره ، ذلك الشىء هو الحب •

يقول الأستاذ نظمى فى مقدمته : ولست أنكر أن بواعث كثيرة فى صباى قربت بينى وبين هذا الرسول ، وليس فى نيتى أن أنكر هذا الحب أو أتنكر

له ، بل انى لأشرف به واحمد له بوادره وعقباه ، ولعل هذا الحب هو الذى يسر لى شيئا من التفهم ، وزين لى من شخص هـذا الرسول الـكريم تلك الصفات المشرقة ، وجعلنى أعرض بوجـدانى عن تلك النظـرة الجائرة أو المتجنية التى نظر بها كثيرون من المستشرقين وغيرهم الى الرسول العربى ، وقد يتساءل الناس ما الذى اجتذب نظمى لوقا فى الرسول فجعله يحبه هذا الحب ويقدره هذا التقدير ويدفعه آخر الأمر الى كتابة هذا الكتاب ؟

يجيب المؤلف عن هذا السؤال فى أربعة فصول جاءت فى آخر كتابه ، رسم فيها شخصية « محمد » كما رآها هو ، ورسم فيها هذه الميزات الخلقية التى أهلت محمدا لكى يكون فى مـكانه الذى هو فيه من حيث العظمـة والخلود .

ويبدأ الأستاذ نظمى بالصفة التى مثلت عنده جمـاع فضائل البشرى الذى يستحق البقاء ، تلك هى شجاعة الايمان، وان الرسالة لم تكن تستهدف غنما شخصيا له أو لذويه ، فقد ترك محمد فى سبيلها رزقه الموفور ليستبدل به الشظف والضيق ، والأمن فى عز آله ليستبدل به القلق والمطاردة ، والعزة والمنعة ليلقى بدلهـا التحقير والاهانة ، أما أهله فمـا كانوا ليرثوه لأنه نبى ولا وراثة فى النبوة ، بل ان هذه الدعوة التى جاءهم بهـا كانت كفيلة أن تزيل مالهم من سطوة قبلية ومكانة مرموقة ، وصح اذن أنه ماكان ينطق عن الهوى : « ما ضل صاحبكم وماغوى » .. وعندما يصل هو الى اثبات هذه الحقيقة ، حقيقة ايمان الرسول بدعوته ، ايمانا منزها عن الغرض بعيدا عن المآرب ، يبدأ فى مناقشة موقف الرسول من هذا الايمان ، كيف حمله وكيف أوصله الى كل القلوب من حوله ؟

ان نظمى لوقا ، يقف أمام صور الشجاعة والصبر التى تتجلى فى حياة « محمد » موقف المعجب ، فالشجاعة عنده ليست تحمل الأذى المادى وحسب بل انها المكاره من كل نوع والعمل المعنوى فيها أقسى من المادى ، ولعل حرج النفس فيها أعتى من الضرب والايذاء البدنى بالغا مابلغ من العنف .

والصفة الثانية التى تجذب اتنباه الدكتور نظمى ، هى الصدق : وآية الصدق كما يقول :

ان محمدا لم يزعم لنفسه شيئا وقد كان قادرا أن يزعم لنفسه مايريد ، لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقا يستعلى بها على أحد ، أو يرتب لنفسه بها سلطانا أو تقديما .

ولو كان القرآن من صنعه ماحرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لايزيد ، ليس عليه الا البلاغ ، عليه البلاغ ، ولكن أى شىء له ؟ لاشىء ، ثم لاشىء ، ثم لاشىء : « ليس لك من الأمر شىء » . فقد كان قادرا أن يسهل أمر دعواه ان كان كاذبا فيها ، بأن يقدم شيئا مما يبهر أو يطمع أو يرغب ، ولكنه لم يقدم شيئا سوى صدقه وكلمته .

تقدم أبو القاسم الى الناس ولا حجة له سوى هذا ، فما هو بصاحب معجزات ، ولا هو يمنى الناس بخزائن لايملك مفاتيحها الا الله ، ولا يعدهم بدفع السوء عنهم ، وهو غير قادر على دفع السوء عن نفسه ، ومن لم ينفعه عقله فى الاهتداء الى سواء السبيل وتمييز الحق من الضلال فهو أعمى ، وما يستوى الأعمى والبصير ، وليس بنافعه اذن خوارق المعجزات .

ويقف المؤلف المسيحى عند أكثر من قصة تثبت صدق « محمد » فى دعواه ، حيرته حين جاءه الوحى أول مرة ، وسؤاله الخائف الحائر لورقة بن نوفل حين قال له : ليتنى أكون حيا اذ يخرجك قومك ، اذن لأنصرنك نصرا مؤزرا ، اذ يسأل فى تعجب وحيرة أو مخرجى هم ؟ . ويستخلص نظمى من هذا السؤال الساذج صدق محمد فى مبدأ أمره ومنتهاه اذ يقول : أجل هذه الكلمة وحدها عنوان براءة محمد من تهمة الادعاء والتدبير المبيت لما يزعمه وحيا وتكليفا لو نظر فيها من له قلب سليم من الأهواء .

ويقف عند قصة ابطاء الوحى على محمد اذ سأله قومه عن الروح ، فوعدهم أن يجيب غدا ، وقلاه الوحى حينا فاضطرب وغدا فى كرب عظيم ، ثم ينزل عليه الوحى بقوله تعالى : « وما تتنزل الا بأمر ربك له مابين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك ، وما كان ربك نسيا » « ولا تقولن لشىء انى فاعل ذلك غدا الا أن يشاء الله ، واذكر ربك اذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا » « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » .

ويقول الأستاذ : تعليقا على هذا الموقف : تأنيب واضح ، يرد الأمر الى من بيده الأمر وماهو بقول دعى ، وماهو بمسلك المستقل بشأنه وانما هو المأمور الصادع بالأمر الصادق فى أمانة البلاغ المبين . ويناقش الدكتور نفسية الداعى فيقرن بها دائما الشعور بالنقص فلا يجده بل يجد بدلا منه انسانا سويا لايهمه ان أخطأ أن يعود الى الحق ، بل لايضيره أن يعلن تابعيه والمؤمنين به ، بأنه قد يخطىء : « انما أنا بشر وانه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فانما هى قطعة من النار فليأخذها أو يتركها » .

والصفة الثالثة التى يرتاح لها المؤلف راحة فى الواحة فى صحراء خالية جرداء هى جهاد النبى لنفسه ، فالرسول لايعرف لنفسه قدرا أعلى من قدر الناس بل هو مثلهم يأكل ما يأكلون بل وأقل مما يأكلون ويعيش كمايعيشون وأشظف مما يعيشون ويقوم بنفسه لخدمة ضيوفه ، ويعود المرضى من أهل أصغر أتباعه شأنا ويؤاكل خدمه ويشاربهم ويحمل عنهم بعض أعباء عملهم ، فهو يعدل مع نفسه قبل أن يعدل مع الناس ويقتص من نفسه قبل أن يقتص من الناس .

ويقف المؤلف وقفة طويلة عندما حضرت النبى الوفاة ويخرج على الناس ليقول لهم : « أيها الناس ألا من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليستقد منه ، ومن أخذت له مالا فهذا مالى فليأخذ منه ، ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى الا وان أحبكم الى من أخذ منى حقا ان كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس » . يقف نظمى أمام هذا الموقف هاتفا من صميم قلبه : ما أعظمه وما أروعه ، ما من مرة تلوت تلك الكلمات أو تذكرتها الا سرت فى جسمى قشعريرة كأننى أنظر من وهدة فى الأرض الى قمة شاهقة تنخلع الرقاب دون ذراها .. أبعد كل ما قدمت يا أبا القاسم لقومك من الهداية والبر والرحمة والفضل ، اذ أخرجتهم من الظلمات الى النور تراك بحاجة الى هذه المقاصة كى تلقى ربك طيب النفس وقد غفر لك من قبل ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ ولكن العدل عندك مبدأ وليس غاية ، العدل عندك خلق وليس وسيلة .

ويقف نظمى لوقا ، وقفة طويلة جدا ، عنـد زهد محمد السيد الذى أوتى الفتح المبين وعنت له رءوس المعاندين ، ولكنه كان مشغولا بأن يسود نفسه وبل بأن يسود الناس ، ويتتبع محمدا فى بيته وزوجته لاتجدماتوقدبه السراج بل وزوجاته يظهرن الضيق بحياة الضـنك فيهجرهن الرسـول ، ويخيرهن بين أن يعشن معه كما يعيش أو يسرحهن بمعروف .. ويدور معه فى السوق اذ يدور بحثا عن سراويل يشتريها ويتتبع محمدا اذ ينموسلطانه نراه يزداد زهدا وتواضعا كلما ازداد سلطانا وقوة . ويختم كلامه هذا عن الرسول قائلا : أى قالة بعد هذا تنهض على قدميها لتطاول هذا المجدالشاهق أو تدفع هذا الصدق الصادق ؟ لاخيرة فى الأمر ، ما نطق هذا الرسول عن الهوى ، لاخيرة فى الأمر وماصدق بشر ان لم يكن هذا الرسول الصـادق الأمين ، فسلام عليه بما هدى من سبيل وماقوم من نهج ومابين من محجة ، وسلام على الصادقين .

هذا أول ماجذب الدكتور نظمى من شخصية الرسول : شجاعة الايمان والصدق ومجاهدته لنفسه ضد رغباتها ومطامعها .

وهو يبرر لنفسه هذا الحب ، حين يقول فى مقدمته : ولكنى حين أحكم العقل أرى الخير كل الخير فيما جنحت اليه ، فهو مقتنع اذن بهذا الذى دفعه اليه الحب من علاج بهذه السيرة العطرة وهو يقدم اقتنـاعه هنـا قبل أن يحدثك عن الرسول صاحب الرسالة ، فيبدأ بمناقشة قضية الوحى وهل نزل على محمد صدقا وحقا ويخرج من مناقشته المنطقية بأن يسأل : هل هناك ما يبرر هذه الرسالة السماوية الجديدة رسـالة الاسلام ، ويعود يستعرض الأديان فيرى أن الانسان كان منذ وعى دائم البحث عن فطـرة الوجود ، فحسب أو لالأمر أن حقيقة الوجود الكبرى ينبغى أن تـكون فى هيئـة محسوسة فراح يشخصها فى أول مايعرف من الأشياء الواقعة تحت حسه ، وكلما ترقت لديه صورة القوة تغيرت الصورة التى يشخص فيها حقيقـة الكون وقوته ، ومن هنا بدأ ذلك التاريخ الطويل الحافل الذى هو تاريخ العقل الانسانى من التعدد والتجسيم الى القول بالروح ثم القول بالوحدانية التى تجنح الى القضاء والقدر والى وحدة الوجود أو الى الفناء الاسمى .

ثم الى القول بأن الله هو الذات الكاملة بالاطلاق وانه مصدر الوجود لكل ماهو موجود ، وجاءت الأديان السماوية لتقدم للبشر عقيدة كاملة سامية ، وكان أول الأديان الكتابية هو دين بنى اسرائيل أولها فى التاريخ وأولها فى أطوار العلاقة بين الخالق والمخلوق وقد كان دين بنى اسرائيل دين شعب اختص به دون غيره من الشعوب ولذا فقد كان همهم من الدين أن يكون تشريفا يحل لهم أموال سواهم من الأمم ، وكانت نفوس السيادة عندهم هى ضرب من السندات والديون والمطالبات فهى عبادة فى مقابل مؤازرة على عدو أو زيادة فى ادرار الرزق ، ولكن هذا الدين يقصر الأمر بين أتباعه على حاجة الدنيا بينما العقيدة حاجة روحية أصلا ولهذا فقد كان الطور الطبيعى للانسانية أن تطلب الهداية فى رسالة المسيحية التى تدعو الى التوحيد والتنزيه فحسب ، بل تجعل الله المعشوق الأسمى الذى يتجه اليه وجدان كل انسان .

ويحدد نظمى لوقا المسيحية بأنها دين القلب الانسانى ولكنها بهذا تصبح عقيدة الأفراد الأفذاذ ، أما السواد من الناس فللحس على قلوبهم أبدا سلطان غير مجحود ولا مردود فكان لابد اذن من دين جديد يؤكد التفريد لله ويتجه الى الناس كافة فيه ما يقنع الممتاز من الناس وفيه لصاحب الدنيا حظ يربط له بين السفر فى سبيل الدنيا وبين آفاق الروح المتسامية ، وبمعنى آخر لابد أن يكون الدين الجديد عقيدة تصلح للكافة العامة منهم والخاصة ليشعر كل منهم أن له عقيدة يطمئن اليها وأن تكون هذه العقيدة بالدنيا والآخرة ، بالله والاحسان فالناس أمة واحدة فى هذا الدين الجديد ، هذا الدين المرموق هو دين البشر .

بهذا التسلسل المنطقى يستدل الى أنه كان ثمة مبرر لهذه الرسالة الجديدة : الاسلام ، كان لها نبى بل كان لابد من وجودها لتكمل للناس علاقتهم بحقيقة الوجود ولتنظيم هذه العقيدة تنظيما سويا كاملا ، وهو بعد هذه النتيجة يمضى فاحصا موقف الاسلام من الله وكيف نزهه سبحانه عن كل شىء ، ومن الانسان وكيف ثبت له كرامته وأحله أعز منزل وأكرمه ، ومن النبوة الخالصة

من كل شبهة أو تأليه ، ومن المرأة وكيف رفع قدرها وأعطاها مكانا بقدر عملها وعلمها وجهادها .

ويقف نظمى طويلا عند علاقة الانسان فى ظل الانسان بربه وكيف حدد الاسلام هذه العلاقة بحيث أعطى للانسان كل مسئوليته عن خيره وشره ، وجعله بحكم هذه المسئولية خاضعا للعقاب والثواب غير مسئول عن عمل من سبقوه « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فلا يتحمل وزر الأجداد ، بل مزج للانسان عمل الدنيا بثواب الآخرة ، وجعل الدنيا متاعا ودار اختبار .

وها هو الأستاذ « عباس العقاد » قد أحس أن الناس فى زماننا قد اجترءوا على العظمة المحمدية ، وضاعت بينهم قيمة العظماء ، وهو قد قرأ تجنيات المستشرقين الذين راحوا — مغرضين هدامين — يحاولون النيل من شخصية الرسول لينالوا من رسالته وأمته ، وهو بهذا قد أخرج كتابه « عبقرية محمد » يقيم فيه البرهان على أن محمدا عظيم ، فى كل ميزان عظيم .

ولم يكن العقاد يستهدف بكتابه المؤمنين بعظمة محمد ، لأنهم يقبلون هذه العظمة دون حاجة الى برهان أو دليل ، ويحسونها فى قلوبهم التى غمرها الايمان بلا معونة من اثبات وتوكيد ، انما يقصد العقاد من فى قلوبهم مرض ممن شاءوا ألا يعترفوا بشىء ومن أرادوا أن لا يؤمنوا بشىء ، كما كان يريد بكتابه هؤلاء الذين طغت عليهم المادة ، وطغى التفكير العلمى الحديث على نفوسهم وعقولهم فلم يعودوا يقبلون الا كل ما قام عليه دليل مادى أو برهان علمى ، لا يأتيه الباطل من شبهة غيبيات أو معجزات ، فجاء « العقاد » اليهم بكلمة العقل فيصلا وحكما لا مراء فيه ، بل هو يذهب الى أكثر من هذا فيقرر أن البشارات التى حكاها المؤرخون كمقدمات للرسالة لم يكن لها من أثر فى الرسالة نفسها فهى لم تقدم ولم تؤخر كثيرا ، وبعد أن استعرض عظمة الرسول — صلى الله عليه وسلم — من جميع الصفات استخلص ذلك بقوله : هذه هى جوانب العظمة فى رسول الانسانية . رسول السلام والمحبة ، تصب كلها فى معين واحد ليكون مثلا أعلى للانسان يحتذى لما فيه من سمات

وصفات ، ويقبل العقل والمنطق نبوته وسيادته ودعوته لما عمرت به جوانب شخصيته لا لمعجزات خارجة عن هذه الشخصية ، ولا لصفات شاذة خارقة ، انما هى النفس السوية تدعو الناس الى سواء ، وهى القدوة الحسنة تدعو الناس الى الاقتداء ، وهى روح الحب المتكاملة تدعو الناس الى الحب ، هذا هو محمد صاحب الدعوة المحمدية .. هذا هو النبى العظيم ، والبطل العظيم ، والانسان العظيم ، هذا هو أيها المستشرقون الناقمون المدلسون .

وما أروع ماقاله السيد حسين الشافعى ، نائب رئيس الجمهورية ، فى المؤتمر الثالث للوعاظ والأئمة : لقد حاولت أن أسأل نفسى يوما ، ماذا يحدث ، وماذا يعمل الرسول لو قدر له أن يبعث اليوم ؟ ماذا يعمل ؟ لأن هذا هو أسلوب التفكير فى الاصلاح فالذى يريد أن يصلح يجب أن يترجم هذا الاصلاح الى صورة مبسطة من هذا النوع .

تصورت هل سيعقد مؤتمرا يتكلم فيه ؟ هل سيقوم برحلة تفتيش كبرى فى البلاد الاسلامية ليتبين ماهو قائم فيها ؟ .. تصورات !!

ولكنى أقول : انه لن يعمل شيئا من هذا على الاطلاق ، انه سيبدأ كما بدأ أول مرة يبحث عن الذين يصدقونه العمل ، والنية ، سيبحث عن هذا الصديق الذى يقف بجانبه فى وقت الشدة ، ووقت المحنة ، ويكون عونا له فى كل عمل من الأعمال ، وفى كل أمر من الأمور .

سيندفع اليه الشباب بقوته وايمانه ، فيكون مدفعا ليذود عن حمى الاسلام ، وليعمل جاهدا فى الدعوة وسينضم اليه من له مال فيكون له عونا

هذه هى الصورة التى بدأ بها الاسلام ، واننا اذا أردنا مرة أخرى أن نعيد للاسلام مابدأ به فيجب أن نتجرد من كل شىء ، ونفكر هذا التفكير البسيط ، وأن يعمل كل منا فى مجاله كخلية حية نابضة بالحياة ، تعمل كأنها تتوسم هذه الخطى جميعا ، وتعمل فى مجالها ، كأنها قبس من هذا النبع الكريم قبس الرسول ، صلى الله عليه وسلم » .

وخلاصة القول :

أنه قد تعمق كثير من الباحثين الغربيين فى دراسة الاسلام فى محيطيه الفكرى والاجتماعى ، وانتهى بهم تعمقهم الى أن الروح الاجتماعى بارز فى كل شعيرة من شعائر الاسلام ، بروزا لو فهمه المسلمون المحدثون واستغلوه استغلالا صالحا ، لتوصلوا به الى أوج الرفعة وقمة السمو فى جميع نواحى الحياة بلا استثناء ولأصبحوا سادة العالم ، وقادة الفكر البشرى ، ولكن لما غفل عن هذه الأمور الظاهرة أربابها وأغمضوا أنظارهم دونها ، فقد أسرع أعداؤهم الى استغلالها ضدهم ، واستثمارها للعدوان عليهم والاستهانة بمقدساتهم والسخرية من حرماتهم واجتذاب الضعفاء من أبنائهم .

والعالم الحديث ينتابه الشقاق رغم هذه المدنية البراقة ، فان الخلاف الواقع الآن بين الكتلتين الشرقية والغربية ، يوشك أن يمزقه شر ممزق على صورة بشعة لم يعرف لها التاريخ مثيلا قبل الآن .

فأحد الفريقين المتعارضين أعلن أن العدالة هى المساواة الاجتماعية . وأنه بناء على ذلك يجب أن تفرض على الجميع حياة متحدة وأن توزع الثروة على جميع الناس بالتساوى ، أو ان مبدأ الملكية يجب أن يلغى نهائيا وأن الدولة هى التى يجب أن تستولى على جميع الثروة والمرافق . وان توزع على الأفراد والأسر ما يحتاجون اليه حسب كفايتهم فى الاستهلاك لا فى الانتاج .

فى حين صرح الفريق الآخر بأن العدالة لا تتحقق الا فى ترك الناس أحرارا يتصرف كل منهم فى مصيره حسب الفرص التى تقدمها اليه الحياة الصاخبة المندفعة فى تيار الكفاح خضوعا لغريزة تنازع البقاء .

ولقد تعصب كل من الفريقين لمبادئه الى حد جعله يتخذها أساسا للحرب الباردة أو لحرب الأعصاب ، ثم للحرب الطاحنة المدمرة اذا اقتضى الأمر بذلك ، وكثيرا ما يقتضيه لسوء حظ الانسانية وتعاستها بالقاء تقاليدها فى أيدى أولئك الجشعين ، وهؤلاء المغرضين ، ولقد نجم عن هذا أن أمست البشرية حائرة تترنح بين المعسكرين كأنها مخمور غاب عن

صوابه فلا يدرى كيف يذهب ولا أين يجىء ، ولشدة افراطه فى الادمان نسى أن يفكر فى الخلاص .

ومن الغريب أن هاتين الكتلتين تحاول كل منهما أن تجتــذب أكثر قدر ممكن من العالم الى صفها ، وتبذل جهودا جبارة فى اغراء العــالم الاسلامى واقناعه بأن مبدأها يوافق مبادىء الاسلام .

ولما كان الاستعمار لسوء الحظ ، ونكد الطالع ، قد شجع الجهل ، وأرسى قواعده فى البلاد الاسلامية التى منيت باحتلاله ، فقد وجد بين أهل تلك البلاد ، لا سيما الذين لا يعرفون العربية منهم ، مرتعا خصيبا لأضاليله وألاعيبه .

ولكن الاستعمار لن يظفر بهذه البيعة المزيفة بعد الآن، فقد استيقظت الصفوة الاسلامية من نومها الذى طال مداه ، واعتزمت أن تتخلص من مركب النقص الذى يشعرهم بالانخفاض عن الغرب ويدفعهم الى التذيل له .

ولما كانت القومية العربية هى الحصن المنيع للدول الاسلامية ، وهى قلعة التحرر والاستقلال فى الوطن العربى ، وهى حامية الدعوة الاسلامية، لأن لغتها لغة كتابها الكريم الذى أنزله رب العالمين على أمة المسلمين .. وتاريخها تاريخهم • فان المؤامرات الاستعمارية والصهيونية مهما بلغت من عنف وقوة ليست بقادرة على تحطيم صيحة التاريخ التى تفرض على الشعب أن يتوحد وتعلو كلمته وتتوحد شعوبه كلها من الخليج الى المحيط .. وتنطلق موحدة مهما حدث من تآمر الانفصاليين والرجعيين على هذه الوحدة مثل ما حدث فى الاقليم الشمالى .. ومثل ما أعلنه رئيسنا جمال رائد القومية العربية وناصر الدعوة الاسلامية ، واضحا صريحا ، بقوله : لا مهادنة مــع الرجعية بعد اليوم ولا تعاون مع الذين خانوا قضية القومية العربية وأباحوا لأنفسهم أن يعملوا ضدها .

وكل يوم تظهر الوحدة الاسلامية العربية فى كثير من المواقف مهمــا حدث بين أقطارها من خلافات شخصية ولكنها أمام العدو المغتصب المستعمر تتكاتف القوى وتتوحد الكلمة .. كما حدث يوم العدوان الثلاثى الغاشم

المسلح على بور سعيد عام ١٩٥٦ ، فان الشعوب العربية تكتلت جميعها ومن ورائها المسلمون فى جميع أنحاء العالم .. وسحق هذا العدوان ليس فى بور سعيد فقط ، ولكن فى دمشق وبيروت ، وكل عاصمة عربية ، بل فى كل بلد تريد التحرر من نير الاستعمار وتنفتح الى نور الحرية والاستقلال آماله .

لقد كان الشعب العربى هو الدرع الذى تحطمت أمامه تلك المؤامرة وهو الدرع الذى احتمت به القومية العربية من أعدائها والمتربصين بها من أجانب وخونة .. كما أن من يمن الطالع أن اختار الله سبحانه وتعالى باعث القومية العربية « جمال عبد الناصر » وألهمه ليقف فى عيد النصر ويدعو ملوك ورؤساء الدول العربية ليجتمعوا ويتوحدوا ، ولبى النداء الجميع ، واجتمع ملوك ورؤساء الدول العربية فى مؤتمرى القمة الأول والثانى فى شهرى يناير وأغسطس من العام الماضى (١٩٦٤) ، والخروج منهما بقرارات حاسمة لحل قضية فلسطين وقضايا جميع البلاد العربية الأخرى ، والوقوف بجانب جميع الشعوب التى تريد التحرر .

واندفعت القومية العربية كالمارد الجبار ، يدا واحدة ، لمائة مليون عربى ، بل لأربعمائة مليون مسلم يجمعهم دين واحد وعلى ملة « محمد » صلى الله عليه وسلم ، لتواجه كل عدو ، بل ستكون الكتلة الاسلامية هى الموازنة للكتلتين المتنافستين ، فترجح كفة السلام والأمن والطمأنينة للعالم ، ويعرف كل من لا يعرف أن النصر للاسلام دين السلام ، والحرية ، والاخاء ، ولن يشاء التاريخ لقوى الشر مهما بلغت أن تنتصر أبدا على قوى الخير والحرية .

روى أبو داود فى سننه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها .

ويقول الحافظ الامام ابن كثير « ولا يختص بهذا الحديث الفقهاء والعلماء فحسب بل يشاركهم فيه ولاة الأمور العاملون على رقى أمتهم . وسعادة وطنهم أمثال عمر بن عبد العزيز الأموى ، والمأمون العباسى وغيرهم » .

ويقول العلامة الشيخ محمد عبده فى التعقيب على هذا الحديث الشريف : وانما كان المجددون يبعثون بحسب الحاجة الى التجديد ونوعه . ويستعرض المجددين لدين هذه الأمة من الفقهاء وعلماء الكلام ، ثم يقول: وهنالك مجددون آخرون للجهاد الحربى بالدفاع عن الاسلام أو تجديد ملكه واقامة أركان العمران فيه ، كالسلطان صلاح الدين الأيوبى الذى كسر جيوش الصليبيين وآجلاهم عن البلاد الاسلامية المقدسة .

وانها لكلمات حق تشع بالنور والهدى ، فالمجدد الاسلامى الذى عناه الحديث الشريف ليس بالفقيه الغارق فى صحفه ، ولا بالواعظ السادر فى جدله ، ولا بالمتكلم الهادر بلحنه ، ولا بالداعية المحترف الذى يملأ الدنيا دويا أجوف وزمجرة رعناء ، انما المجدد الاسلامى فى أروع صوره وأخلد ألوانه هو الذى يبعثه الله ويرضاه لقيادة الاسلام ، وتجديد دعوته وقوته وحياته .. هو الذى يأتى شعبه على قدر وميقات فيحيل الضعف قوة والفرقة وحدة واليأس أملا ، والكلام عملا .

ان المجددين الاسلاميين يبعثون دائما بحسب الحاجة الى التجديد ونوعه ، يبعثون وقد زودوا بطاقات وكفايات تؤهلهم لمقارعة أحداث الزمان والمكان والدور التاريخى الذى أعدوا للقيام به .

وقد جاء مجدد الاسلام فى القرن العشرين « جمال عبد الناصر » رائد القومية العربية ومنقذها ، وحرر أكبر قاعدة اسلامية من قواعد الاستعمار العالمى ونقطة الارتكاز وحلقة الحياة الكبرى بين المشرق والمغرب .. كنانة الله فى أرضه .. أرض الرسل والأنبياء ، وهو فى طريقه الى الوقوف بجانب كل بلد عربى اسلامى يريد التحرر من الاستعباد ويحطم أحلاف الصليبيين الاستعماريين ، ويبدد أحلام الصهيونية العالمية الباغية .

جاء ناصر بتأييد من الله وقوته ، ليقف ويرد على أكبر الدول جبروتا وعتوا ، ويكيل لها الصاع صاعين ، لا يخشى فى الحق لومة لائم ، وما أحق ما قاله فضيلة الامام الأكبر الشيخ حسن مأمون شيخ الأزهر الحالى يدعو المواطنين الى الاجماع على انتخابه فى فترة رياسة الجمهورية الثانية التى ابتدأت من ٢٦ مارس ١٩٦٥ ولمدة ست سنوات :

ان اختيار رئيس الجمهورية واجب وطنى ينص عليه الدستور، وواجب دينى للاتفاق على أن الامامة واجبة على المسلمين ، ولا خلاف بينهم فى أصل الوجوب ، وأكثر العلماء على أن الامامة تجب على المسلمين شرعا أى أن الدين يحتم عليهم أن يبايعوا أصلحهم للقيام برعاية مصالحهم وتدبير شئونهم ، ونشر العدل بينهم .

وقد انعقد عزمى ، وصح رأيى على مبايعة الرئيس جمال عبد الناصر واختياره رئيسا للجمهورية لما خبرته عنه من صدق وطنيته وحبه لدينه وسيره على منهاجه واتباعه سنته وطريقته ، ولأن المبادىء القويمة التى دعا اليها ودافع عنها وما زال يدعو اليها ويدافع عنها من حرية الفرد وانسانيته وكرامته ، والوحدة والاشتراكية الاسلامية التى تحقق الكفاية والعدل هى المبادىء التى دعا اليها الدين الاسلامى الحنيف ، فهو دين العزة والوحدة والعدالة والمساواة .

وما أروع قول السيد المهندس « أحمد عبده الشرباصى » نائب رئيس الوزراء للاوقاف والأزهر : « ان عبد الناصر يمثل خلاصة تاريخ الأمة العربية وقد وضعه القدر فى هذا المكان ليحمل أمانة قيادتها » .

فقد حمل الأمانة بصدق واخلاص ووفاء ، وشجاعة واقدام ، حتى ان شعبه الوفى ، شعب الجمهورية العربية المتحدة قد اختاره ليكون قائده .. وتجاوبت جميع الشعوب العربية معنا وفرحت لفرحنا فبادلها حبه وقال كلمته الصادقة يشكر فيها الشعب العربى بعد اعادة انتخابه .

ولقد كانت نتيجة الاستفتاء تأكيدا جديدا لذلك كله ، أمامنا وأمام أمتنا العربية وأمام الأصدقاء والاعداء على حد سواء .

أمامنا وأمام أمتنا العربية : كانت نتيجة الاستفتاء عهدا ووعدا بالاستمرار فى الأداء المسئول والخلاق لدور الطليعة والقاعدة ، لأمة عربية واحدة تعيش وتجاهد بالحق وبالخير لمكانها الطبيعى والشرعى تحت الشمس .

وأمام الأصدقاء : لأن نتيجة الاستفتاء كانت رسالة أخوة وتضامن لأننا حيث كنا دائما وحيث سنكون أبدا أنصار للحرية ودعاة للسلام وحملة لرسالة التقدم .

وأمام الأعداء : لأن دلالة نتيجة الاستفتاء لا تخفى على أحد .. دلالتها الأولى والأخيرة أمامهم ، ان هذا الشعب لا يتردد ولا يخاف وانه على استعداد لقبول التحدى فى أى ميدان يفرض عليه فيه القتال ، دفاعا عن وطنيته وقوميته ، دفاعا عن مجتمعه الذى يقيمه على دعائم الكفاية والعدل .. دفاعا عن قيمه الروحية والحضارية .

نحن وراءك يا جمال .. فقد قلناها واخترناك لترفع راية الاسلام والعروبة عالية خفاقة ، لترفرف على أنحاء العالم كله .. فقد جئت بتأييد المولى عز وجل ليكون عهدك زاهرا للاسلام جديدا ؛ لتنشر لواءه ، وترفع شأنه .

اننا عرب مؤمنون سائرون على الجادة رغم آراء المستشرقين المنحرفين نعم اننا مسلمون ، لأن لنا تاريخا ومدنية ، ولكننا بعيدون عن التعصب ، والشر والاثم ، الذى تورطتم فيه أيها المشركون ، ولا تزالون تتورطون ما دام الله قد طمس على قلوبكم وهدانا الى الصراط المستقيم ، والى دينه الحنيف ، دين الخلود الذى سيبقى الى أن يرث الله الأرض ومن عليها مصداقا لقوله تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » ،

وقوله « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه » .

وختاما : لقد انبثق مع نهضتنا الأخيرة فجر الاسلام والسعادة للعالم فى فترة وعد بها عالم العلماء محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه كما وعد بها رب العالمين .

يقول الرسول الكريم : لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض فيخرج الرجل بزكاة ماله ، فلا يجد أحدا يقبلها منه وحتى تعود أرض العرب مروجا وأنهارا .

وقال : بدأ الاسلامُ غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء ..
قالوا : ومن الغرباء يارسول الله ؟ قال : الذين يصلحون ما أفسد الناس .

يقول الامام المراغى فى تفسيره : سيعود غريبا فى سرعة انتشاره فى العالمين ، كما انتشر أولا فى صورة رائعة سريعة ، يؤيد ذلك قوله تعالى فى الآية « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، ويأبى الله الا أن يتم نوره ؛ ولو كره الكافرون » .

والنور هو القرآن وهو « محمد » : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » .

فهذا النور المنبثق مع ثورتنا البيضاء المباركة ، يؤذن بضحى مشرق فياض بالخير والنعمة ، ليس للعرب والعروبة فحسب ، بل للعالمين أجمعين فى هدى الاسلام وكتاب الاسلام : « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

وحينئذ يحلو للعالم أجمع ، ويحق له أن يردد قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا » .

(صدق الله العظيم)

تم بحمد الله

فهرس الكتاب

